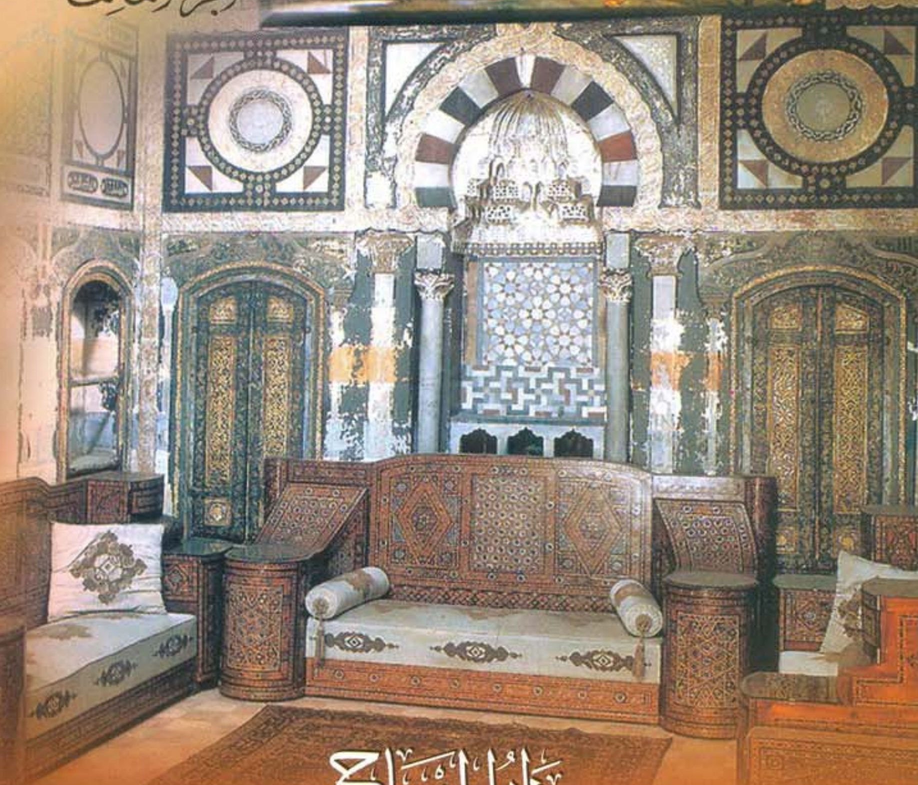
العود الهندي

عن أماليّ في ديوان الكنديّ

مجالس أدبيّة في ديوان المتنبّي

تأليفُ علّامةِ حضرموت ومُفتيها
السيّد عبدِ الرحمن بن عُبيد الله السقّاف
رحمهُ الله تعالى

الجزءُ الثالثُ





دارُ المنهاجِ

العُودُ الهِنْدِيّ

عَنْ أَمَالِيَّ فِي دِيوَانِ الكِنْدِيّ

مجالس أدبية في ديوان المتنبي

تأليف
علّامة حضرموت ومفتيها
السيّد عبد الرحمن بن عبيد الله السقّاف
رحمه الله تعالى

عُنِيَ بِهِ
محمد مصطفى الخطيب
بمساهمة
اللجنة العلمية بمركز دار المنهاج للدراسات والنشر

المجلد الثالث

دار المنهاج

بسم الله الرحمن الرحيم

الطّبعة الثّانية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

دار المنهاج للنشر والتوزيع

جدة - هاتف رئيسي ٦٣٢٦٦٦٦ - فاكس ٦٣٢٠٣٩٢
الإدارة ٦٣١١٧١٠ - المكتبة ٦٣٢٢٤٧١
www.alminhaj.com
E-mail: info@alminhaj.com

ISBN: 978 - 9953 - 498 - 48 - 5

المجلس الثاني عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

أَرَقٌ عَلَىٰ أَرَقٍ وَمِثْلِيَ يَأْرَقُ	وَجوىً يَزِيْدُ وَعَبْرَةٌ تَتَرَقْرَقُ

شرح المطلع

(الأَرَقُ) : ٱمتناعُ النومِ ، و(الجَوَىٰ) : الحُزْنُ الذي يستبطنُ الإِنسانَ ، فيكونُ في حشاهُ ، و(العَبْرَةُ) : تردُّدُ الدمعِ في العينِ .

يقولُ : لي سُهادٌ بعدَ سهادٍ ، ومَن كانَ مِثلي . . فلاَ بدَّ لَهُ من السهادِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قصَّرَ هنا ، بما يُفْهِمُهُ سياقُ كلامِهِ مِنِ ٱنحصارِ سهادِهِ علىٰ الهوىٰ ، ولو أَنَّهُ جعلَهُ لَهُ ولِلْمجدِ . . لكانَ أَشرفَ وأَجملَ .

السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد

وقد قالَ حافظٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِحَاظُكَ وَٱلأَيَّامُ جَيْشٌ أُغَالِبُهْ   فَهَـٰذِي مَوَاضِيهِ وَهَـٰذِيْ كَتَائِبُهْ
وَهَمَّيْنِ ضَاقَ ٱلْقَلْبُ وَٱلصَّدْرُ عَنْهُمَا   غَـرَامٌ أُعَـانِيْـهِ وَعَيْـشٌ أُغَـالِبُـهْ

غيرَ أَنَّهُ لَو أَبدلَ لفظةَ (العيشِ) ، بلفظَةِ الدهرِ . . لكانَ أَفخرَ وأَكبرَ ؛ لِما تجتلبُهُ الأُولىٰ مِنَ الضَّعَةِ ، والمعنىٰ مأْخوذٌ مِن قولِ سهلِ بنِ هارونَ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَقَاسَمَنِيْ هَمَّانِ قَدْ كَسَفَا بَالِيْ   وَقَدْ تَرَكَا قَلْبِيْ مَحَلَّةَ بَلْبَالِ[١]

(١) البلبالُ : الهمُّ الذي يَعْتَلِجُ الصَّدرَ .

فِرَاقُ خَلِيْلٍ مِثْلُهُ يَبْعَثُ ٱلأَسَىٰ   وَحَاجَةُ خِلٍّ لا يَقُوْمُ بِهَا مَالِيْ

ولي في مثلِهِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أَنِّي لا أُثقلُ بِهِ .

منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهمة

وقد تكرَّرَ في « ديوانِ الناظِمِ » ما يشيرُ إِلىٰ نشأَةِ الهمومِ ، وترادُفِ الغمومِ ، عَن كُبْرِ الهمَّةِ ، وطموحِ النفسِ في طلبِ ٱلعُلا ، كقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ ذِيْ ٱلدُّنْيَا مُنَاخاً لِرَاكِبٍ   فَكُلُّ بَعِيْدِ ٱلْهِمِّ فِيْهَا مُعَذَّبُ[(١)]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٤٥ مِنَ الخفيفِ] :

وَإِذَا كَـانَـتِ ٱلنُّفُـوْسُ كِبَـاراً   تَعِبَـتْ فِـيْ مُـرَادِهَـا ٱلأَجْسَـامُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَتْعَـبُ خَلْـقِ ٱللهِ مَـنْ زَادَ هَمُّـهُ   وَقَصَّرَ عَمَّا تَشْتَهِي ٱلنَّفْسُ وُجْدُهُ[(٢)]

إِلاَّ أَنَّهُ خَضعَ في هـٰذا لِبعضِ القولِ ؛ إِذ صرَّحَ بأَنَّهُ لم يتعبْ مِن كُبْرِ الهمَّةِ إِلاَّ لقلَّةِ المالِ ، وقضيَّتُهُ أَنْ لا مطمحَ لَهُ وراءَ حصولِهِ ، فهوَ نقيضُ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا رَغْبَتِيْ فِيْ عَسْجَدٍ أَسْتَفِيْدُهُ   وَلـٰكِنَّهَـا فِـيْ مَفْخَـرٍ أَسْتَجِـدُّهُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذا نِلْتُ مِنْكَ ٱلْوُدَّ فَٱلْكُلُّ هَيِّنٌ   وَكُلُّ ٱلَّذِيْ فَوْقَ ٱلتُّرَابِ تُرَابُ

وقولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٧٤ مِنَ البسيطِ] :

تَهْوِيْ بِمُنْجَرِدٍ لَيْسَتْ مَذاهِبُهُ   لِلُبْسِ ثَوْبٍ ومأْكُوْلٍ ومَشْرُوْبِ

(١) لحا الله : قبَّحَ ولعنَ ، وأصلُهُ من لَحوتُ العودَ إذا قشَّرتَهُ .

(٢) الوُجدُ : السَّعةُ .

وما أَكثرَ ما يتناقَضُ قولُهُ ، كما ذكرنا غيرَ مرَّةٍ ، وكلَّما ٱدَّعىٰ غيرَ ما في نفسِهِ . . ظهرَ علىٰ فلتاتِ لسانِهِ ، وقد صرَّحَ المخضُّ[1] عنِ الزبدِ ، في مثلِ قولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا لَـمْ تَنُـطْ بِـيْ ضَيْعَـةً أَوْ وِلاَيَـةً   فَجُوْدُكَ يَكْسُوْنِيْ وَفَضْلُكَ يَسْلُبُ[2]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمَـا خَلَّتَـانِ : ثَـرْوَةٌ أَوْ مَنِيَّـةٌ   لَعَلَّكَ أَنْ تُبْقِيْ بِوَاحِدَةٍ ذِكْرَا[3]

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ الخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِيْ طَلَبِ ٱلرِّزْ   قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ

فتجلَّىٰ في غيرِ شبهةٍ ، أَنَّهُ لا يريدُ مِن الإمارةِ غيرَ المالِ ، وبهِ يتأَكَّدُ ما أُثِر عنهُ مِن شدَّةِ الحرصِ ، إلىٰ حدٍّ أَنَّ بعضَ الأُمراءِ أَجازهُ بمالٍ كثيرٍ ، فنشبَ منهُ دانقٌ في الحصيرِ ، فما زالَ يعالِجُهُ ، ويتمثَّلُ بقولِ قيسِ بنِ الخطيمِ [في « ديوانهِ » ٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

اضحك على الحريص!!

تَبَدَّتْ لَنَا كَٱلشَّمْسِ تَحتَ غَمَامَةٍ   بَدَا جَانِبٌ مِنْهَا وَضَنَّتْ بِجَانِبِ

ولـم ينفكَّ حتَّىٰ دميَت أَظافرُهُ .

ورأَيتُ في بعضِ الكتبِ : أَنَّ كسرىٰ أَكرمَ بعضَ رعيَّتِهِ بمالٍ

---

(١) المخضُّ : تحريك اللبنِ في المِخضَّةِ . وهيَ وعاءٌ يوضعُ فيهِ اللبنُ ويحرَّكُ كي يستخرج زُبداً .

(٢) تنُط : تعلِّقَ . الضيعَةُ : البلدةُ أو القريةُ ، والمعنى : إذا لم تُقطعني ضيعةً . . فجودكَ يكسوني ، وشغلُكَ عني يُذهبُ ويَسلبُ عني تلك الكسوةَ .

(٣) المعنى : هما خصلتانِ : إمّا الغنىٰ أو الموتُ ، فانهض إمّا لتكسِبَ المالَ أو لتقتلَ الأعداء .

طائلٍ ، ولمَّا ٱحتملَهُ ، وما كادَ إلاَّ بجهدٍ . . سقطَ منهُ درهَمٌ ، فتكلَّفَ أَخذَهُ مِنَ الأَرضِ بعناءٍ ومشقَّةٍ ، فعاتبَهُ الملكُ ، وقالَ لَهُ : أَلم يغنكَ الذي معكَ ؟ فهلاّ تركتَهُ ينتفعُ بهِ أَحدُ الخدَمِ ، وتسلمُ مِن تعبِ القُعودِ والقيامِ ، معَ الحِمْلِ الثقيلِ ؟ قالَ : يا مولايَ ، ما بي حرصٌ علىٰ شيءٍ مَعَ بقائِكَ ، ولـٰكن لم تطبْ نفسي بٱمتهانِهِ علىٰ الأَرضِ ساعةً ما ، وعليهِ ٱسمُ الملكِ ، فٱستحسنَها وأَضعفَ الجائِزَةَ ، وأَمرَ من يحمِلُها مَعَهُ .

تعليل المتنبي لسبب مرضه

ويذكرُ عَنِ الناظمِ : أَنَّهُ كانَ يعلِّلُ حرصَهُ بقصَّةٍ ، حاصلها : أَنَّهُ وردَ (الكوفةَ) في صباهُ ، ومعَهُ خمسةُ دراهمَ في منديلٍ ، فرأَىٰ باكورةَ بِطِّيخٍ ينادىٰ عَليها ، فدفعَ فيها الخمسةَ الدراهمِ ، فلم يرضَها البائِعُ ، حتَّىٰ مرَّ أَحدُ الوجهاءِ ذاهباً إِلىٰ دارِهِ ، فوثَبَ إِليهِ صاحبُ البطيخِ ، وقالَ : يامولاي ، باكورةُ بطيخٍ ، أَحملهُ بإِجازتِكَ إِلىٰ دارِكَ ، قالَ : بِكَم ؟ قالَ : بخمسةِ دراهمَ ، فقالَ الوجيهُ : بل بثلاثةٍ ، فباعَ عليهِ ، وحملَها إِلىٰ دارِهِ ، ودَعا لهُ ، وٱنقلبَ مسروراً مِن نفسِهِ بما فعلَ ، قالَ المتنبي : فقلتُ لَهُ : يا هـٰذا ، ما رأَيتُ أَحمقَ منكَ ، أَعطيتكَ فيهِ خمسةَ دراهمَ ، ثمَّ تبيعُهُ بثلاثةٍ ، وتحملُهُ فوقَ ذلكَ إِلىٰ منزلِ المشتري ، فقالَ : ٱسكتْ ، أَما تَدْري أَنَّهُ يملكُ مِئةَ أَلفِ دينارٍ ؟! فلا أَزالُ علىٰ ما ترونَ مِن الحرصِ ، حتَّىٰ يسمعَ الناسُ بأَنَّ عِندي مئةَ أَلفٍ ، هـٰذا ما يذكرونَ عنهُ ، وهُوَ لا يشرِّفُهُ ، ولا يبرِّرُ عملَهُ ، وإِنَّما يدلُّ علىٰ أَنَّهُ صاحبُ زهوٍ وبأْوٍ ، يحاولُ أَنْ يتحصَّلَ علىٰ المنزلَةِ الجوفاءِ مِن قلوبِ السقَّاطِ والغوغَاءِ ، وإِنَّما يظهرُ بُعدُ الهمَّةِ ، وشرفُ النفسِ ، مِن مثلِ قولِ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـوْ أَنَّمَـا أَسْعَـىٰ لأَدْنَـىٰ مَعِيْشَـةٍ كَفَانِي ـ وَلَمْ أَطْلُبْ ـ قَلِيْلٌ مِنَ ٱلْمَالِ
وَلَـٰكِنَّمَـا أَسْعَـىٰ لِمَجْـدٍ مُـؤَثَّـلٍ وَقَدْ يُدْرِكُ ٱلْمَجْدَ ٱلْمُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

وقولِ جُرثومَةَ بنِ مالكٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً إِنْ تَجِدْهُ مُعْوِزاً مِن تِلاَدِهِ فَلَيْسَ مِنَ ٱلرَّأْيِ ٱلأَصِيْلِ بِمُعْوِزِ

والناظمُ كثيراً ما يرعىٰ غيرَ ماشيتِهِ ، ويحطِبُ في حبلِ[1] غيرِهِ ، ويتظاهَرُ ببعدِ الهمَّةِ ، والاستهانةِ بالمالِ ، فيقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٧٨ مِنَ البسيطِ] :

وَمَا شَكَرْتُ لأَنَّ ٱلْمَالَ فَرَّحَنِيْ سِيَّانِ عِنْدِيَ إِكْثَارٌ وَإِقْلاَلُ[2]

لٰكنَّ الطبعَ أَغلبُ ، والعادةَ أَملكُ ، وهوَ القائلُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْـرَعُ مَفْعُـوْلٍ فَعَلْـتَ تَغَيُّـراً تَكَلُّفُ شَيْءٍ فِيْ طِبَاعِكَ ضِدُّهُ

فهـوَ متكلِّـفٌ فـي دعـواهُ طلـبَ المجـدِ الصحيـحِ ، والشـرفِ الصريحِ ، صادقٌ إذا أَشارَ إلىٰ أَنَّ معقدَ العزِّ ، ومطمحَ المجدِ عندَهُ ، حيازةُ مئةِ أَلفٍ ، وتلكَ سبيلٌ لَيسَ فيها بأَوحدٍ ، كما بينَّاهُ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ، ومنهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ مَجْدَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ وَلاَ مَالَ فِيْ ٱلدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

---

(١) قال الخطابي : الحبال : هي ما دون الجبال في الارتفاع .

(٢) السيانِ : المثلانِ .

وقولُ هرمِ بنِ عميرِ التغلبيِّ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٢ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ ٱمْـرُؤٌ هَـدَمَ ٱلإِقْتَـارُ مَـأْثُـرَتِـيْ وَٱجْتَاحَ مَا بَثَّتِ ٱلأَيَّامُ مِنْ خَطَرِيْ

أَرُوْمَـةٌ عَطَّلَتْنِـي مِـنْ مَكَـارِمِهَـا كَٱلْقَوْسِ عَطَّلَهَا ٱلرَّامِيْ مِنَ ٱلْوَتَرِ

وقولُ الأَحنفِ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٥٧ مِنَ المتقاربِ] :

وَإِنَّ ٱلْمُـــرُوْءَةَ لاَ تُسْتَطَـــاعُ لِمَـنْ لَـمْ يَكُـنْ مَـالُـهُ فَـاضِـلاَ

وقولُ غيرِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱللهِ أَشْكُوْ لاَ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ أَنَّنِيْ أَرَىٰ صَالِحَ ٱلأَخْلاَقِ لاَ أَسْتَطِيْعُهَا

أَرَىٰ خَلَّـةً فِـيْ إِخْـوَةٍ وَقَـرَابَـةٍ وَذِيْ رَحِمٍ مَا كُنْتُ مِمَّنْ يُضِيْعُهَا

وفي هٰذينِ شَبَهٌ من ناحيةٍ بما سبقَ عنْ سهلِ بنِ هارونَ[١] .

للأرق سبب آخر وهو: الخوف

ثمَّ إِنَّ الأَرقَ تارةً يكونُ عَن مجردِ الهوىٰ ، كما في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ ، وكما مرَّ الإِطنابُ فيهِ من المجلسِ الأَوَّلِ .

أو المجد

وإِمَّا أَن يكونَ من الخوفِ ، كما سبقَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٠٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَصْبَـــحَ حُسَّـــادُهُ وَأَنْفُسُهُـــمْ يُحْـدِرُهَـا خَـوْفُـهُ وَيُصْعِـدُهَـا

وإِمَّا أَنْ يكونَ في سبيلِ المجدِ ، كما ذكرنا بعضَهُ أَواخرَ المجلسِ السابعِ .

أو غير ذلك

وإِمَّا لغيرِ ذلكَ ، فالأَسبابُ كثيرةٌ ، ويدخلُ في القسمِ الأَوَّلِ قولُ ٱبنِ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) في بداية هذا المجلس .

قِفَا خَبِّرَانِيْ أَيُّهَا ٱلرَّجُلاَنِ عَنِ ٱلنَّوْمِ إِنَّ ٱلْهَجْرَ عَنْهُ نَهَانِيْ
وَكَيْفَ يَكُوْنُ ٱلنَّوْمُ، أَمْ كَيْفَ طَعْمُهُ؟ صِفَا ٱلنَّوْمَ لِيْ إِنْ كُنْتُمَا تَصِفَانِ
وَإِنِّيْ لَمُشْتَاقٌ إِلَىٰ ٱلنَّوْمِ فَٱعْلَمَا وَلاَ عَهْدَ لِيْ بِٱلنَّوْمِ مُنْذُ زَمَانِ

وقولُهُ [في « ديوانه » ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

حَدِّثُوْنِيْ عَنِ ٱلنَّهَارِ حَدِيْثاً أَوْ صِفُوْهُ فَقَدْ نَسِيْتُ ٱلنَّهَارَا

وقيلَ لأُمِّ الهيثمِ ٱبنةِ الأَسودِ : ما حالُكِ ؟ فقالَتْ [مِنَ الوافرِ] :

تَجَافَىٰ مَضْجَعِيْ وَنَبَا رُقَادِيْ وَلَيْلِيْ مَا يَقَرُّ مِنَ ٱلسُّهَادِ
أُرَاقِبُ فِيْ ٱلسَّمَاءِ بَنَاتِ نَعْشٍ وَلَوْ أَسْطِيْعُ كُنْتُ لَهُنَّ حَادِيْ(١)

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانه » ٧٤ مِن الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَلِفَتْ دُهْمُ ٱلنُّجُوْمِ رِعَايَتِيْ فَإِنْ غِبْتُ عَنْهَا فَهْيَ عَنِّيْ تُسَائِلُ
يُقَابِلُ بِٱلتَّسْلِيْمِ مِنْهُنَّ طَالِعٌ وَيُوْمِىءُ بِٱلتَّوْدِيْعِ مِنْهُنَّ آفِلُ

ولي في ٱلموضوعِ ٱلجمِّ ٱلمباركُ ، الذي لا بأسَ أَنْ أَذكرَ منهُ مطلعَ قصيدَةٍ نبويَّةٍ ، وهُوَ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ١٥٨ مِنَ الكاملِ] :

طَفِقَتْ تُعَيِّرُ أَدْهَمِيْ بِحِرَانِهِ وَهِيَ ٱلَّتِيْ أَمَرَتْ بِغَضِّ عِنَانِهِ(٢)
أَنَّىٰ يَشِيْبُ غُرَابُ لَيْلِ مُتَيَّمٍ ظَلَعَتْ جِيَادُ ٱلشُّهْبِ فِيْ مَيْدَانِهِ(٣)

---

(١) بناتُ نعشٍ : سبعةُ كواكبَ ، أَربعةٌ منها نعشٌ ، وثلاثٌ بناتٌ .
(٢) **الغضُّ** : التنقيصُ . **والعِنانُ** : حبلٌ يثبت في اللجامِ .
(٣) **المتيَّمُ** : من استعبدهُ الحبُّ . **ظلعَ** : عرجَ في مشيهِ . **الشهبُ** : النجومُ . **والمعنى** : لا أملَ في انقضاءِ الليلِ إذا كانت نجومهُ لا تتحرَّكُ إلا ببطءٍ كأنَّها لا تريدُ السيرَ ، أو كأنَّ جيادَها عرجت في الميدانِ فلا تستطيعُ السبقَ .

ويدخلُ في الثالثِ كلُّ ما جاءَ في فضيلَةِ قيامِ الليلِ ، ومنهُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

وقولُهُ : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء : ٧٩] .

وقولُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ * قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المزمل : ١-٢] .

وقولُهُ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] .

وقولُ ٱبنِ رواحةَ [في « ديوانهِ » ٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْنَا رَسُوْلُ ٱللهِ يَتْلُوْ كِتَابَهُ إِذَا ٱنْشَقَّ مَعْرُوْفٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ
يَبِيْتُ يُجَافِيْ جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ إِذَا ٱسْتَثْقَلَتْ بِٱلْمُشْرِكِيْنَ ٱلْمَضَاجِعُ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٤ مِنَ الخفيفِ] :

أَنَا مَنْ تَعْلَمُوْنَ أَسْهَرُ لِلْمَجْـ ـدِ إِذَا غَطَّ فِيْ ٱلْفِرَاشِ ٱللَّئِيْمُ

وقالَ كُشاجمُ [في « ديوانهِ » ٤٨٦ مِنَ ٱلهزَجِ] :

تَرَكْتُ ٱلنَّوْمَ لِلنُّوَّا مِ إِشْفَاقاً عَلَىٰ عُمْرِيْ

وقالَ غيرُهُ [ابن نباتة في « قرى الضيف » ٢/ ٤٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ سَهِرَتْ فِيْ ٱلْمَكْرُمَاتِ جُفُوْنُهُ رَعَىٰ طَرْفُهُ فِيْ جَوْفِهَا أَنْجُمَ ٱلْعُلاَ

هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو

ولا يتجافىٰ عنِ المبحَثِ الذي نخوضُ فيهِ ، قولُ أَبي دُلَفٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ فَرَاغُ ٱلْقَلْبِ مَجْداً وَرِفْعَةً وَلَـٰكِنَّ شُغْلَ ٱلْقَلْبِ لِلْمَرْءِ رَافِعُ
وَذُوْ ٱلْمَجْدِ مَحْمُوْلٌ عَلَىٰ كُلِّ آلَةٍ وَكُلُّ قَصِيْرِ ٱلْهَمِّ فِيْ ٱلْحَيِّ وَادِعُ[1]

---

(١) وادعٌ : لم يُكلِّف نفسَهُ أدنىٰ مشقَّةٍ .

وقولُ الصاحبِ [في « ديوانهِ » ٢٨٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَقَائِلَةٍ : لِمْ عَرَتْكَ ٱلْهُمُوْمْ وَأَمْرُكَ مُمْتَثَلٌ فِيْ ٱلأُمَمْ ؟
فَقُلْتُ : ٱتْرُكِيْنِي عَلَىٰ حَالَتِيْ فَإِنَّ ٱلْهُمُوْمَ بِقَدْرِ ٱلْهِمَمْ

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْمُرُوْءَةُ أَنْ تَبِيْتَ مُنَعَّماً وَتَظَلَّ مُعْتَكِفاً عَلَىٰ ٱلأَقْدَاحِ
مَا لِلرِّجَالِ وَلِلتَّنَعُّمِ إِنَّمَا خُلِقُوْا لِيَوْمِ كَرِيْهَةٍ وَكِفَاحِ

وسمعَ بعضُهم أعرابيَّةً ، تحثُّ ٱبنَها علىٰ الدعَةِ والإقامةِ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا ٱلْفَتَىٰ لَم يَبْغِ إِلاَّ لِبَاسَهُ وَمَطْعَمَهُ فَٱلْخَيْرُ مِنهُ بَعِيْدُ

وقالَ حاتِمٌ [في « ديوانهِ » ٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَا ٱللهُ صُعْلُوكاً مُنَاهُ وَهَمُّهُ مِنَ ٱلْعَيْشِ أَنْ يَلْقَىٰ لَبُوْساً وَمَطْعَمَا

ولمَّا قالَ الحطيئةَ في الزبرقانِ بنِ بدرٍ [في « ديوانهِ » ٥٠ مِنَ البسيطِ] :

دَعِ ٱلْمَكَارِمَ لاَ تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا وَٱقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ ٱلطَّاعِمُ ٱلْكَاسِيْ

.. شكاهُ إِلىٰ عمرَ بنِ الخطَّابِ ، فقالَ [في « الأغاني » ٢/١٧٨] : ما أَرىٰ بذلكَ بأْساً ، فقالَ : يا أَميرَ المؤمنينَ ، إِنَّهُ جحدَني ما ٱبتنيتُهُ من المفاخرِ ، فسأَلَ حسَّاناً ـ لا عن قلَّةِ معرفةٍ بمغزىٰ الكلامِ ، ولـٰكنَّهُ يحاوِلُ أَنْ يدرأَ العقابَ للشبهةِ ـ فقالَ لَهُ حسَّانُ : ما هجاهُ ، ولـٰكنَّهُ سلحَ عليه[1] ، فٱعتقلَهُ بعقِبِ ذلكَ ، كما هو مشهورٌ .

---

(١) سَلَح عليهِ : تنجَّى عليه وتغوَّطَ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ في الهجاءِ [في « ديوانهِ » ٢/١٤٦ مِنَ الوافرِ] :

بَنُوْ ٱلْهِمَمِ ٱلْهَوامِدِ وَٱلنُّفُوسِ ٱلْـ ـخَـوامِـدِ وَٱلْمُـرُوَّاتِ ٱلنِّيَـامِ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلنَّاسِ مَنْ يَرْضَىٰ بِمَيْسُوْرِ عِيْشَةٍ وَمَـرْكُـوْبُـهُ رِجْـلاَهُ وَٱلـثَّـوْبُ جِلْـدُهُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٥٥ مِنَ الوافرِ] :

إِلَىٰ كَمْ ذَا ٱلتَّخَلُّفُ وَٱلتَّوَانِيْ وَكَمْ هَـٰذَا ٱلتَّمَادِيْ فِيْ ٱلتَّمَادِيْ

وَشُغْلُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَعَالِيْ بِبَيْعِ ٱلشِّعْرِ فِيْ سُوْقِ ٱلْكَسَادِ[١]

وقالَ ٱبن حيُّوسٍ [في « ديوانهِ » ٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْتُ كَمَنْ أَخْنَىٰ عَلَيْهِ زَمَانُهُ فَظَـلَّ عَلَـىٰ أَحْـدَاثِـهِ يَتَعَتَّـبُ[٢]

تَلَذُّ لَهُ ٱلشَّكْوَىٰ وَإِنْ لَمْ يُفِدْ بِهَا صَلاَحاً كَمَا يَلْتَذُّ بِٱلْحَكِّ أَجْرَبُ

وَلـٰكِنَّنِـيْ أَحْمِـيْ ذِمَـارِيْ بِعَـزْمَـةٍ تَنُوْبُ مَنَابَ ٱلسَّيْفِ وَٱلسَّيْفُ مِقْضَبُ[٣]

وقالَ عروةُ بنُ الوردِ [في « ديوانهِ » ٧٠ـ٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

لَحَـا ٱللهُ صُعْلُـوكـاً إِذا جَـنَّ لَيْلُـهُ مَشَىٰ عَارِيَ ٱلْمَتْنَيْنِ فِيْ كُلِّ مَجْزَرِ[٤]

يَعُدُّ ٱلْغِنَىٰ مِنْ نَفْسِهِ ، كُلَّ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيْقٍ مُيَسَّرِ[٥]

---

(١) بيعُ الكسادِ : هوَ أَن يعرضَ البائعُ السلعةَ لمشترٍ كارهٍ لها ، فلا يبذلُ فيها ثمنَ مثلِها .

(٢) أخنى عليه الزمان : إذا مالَ عليهِ وأَهلكهُ .

(٣) ذمارُ الرجلِ : كلُّ شيءٍ يلزمهُ الدفعُ عنهُ ، وإن ضيَّعهُ . . لزمهُ الذمُّ ؛ أي : اللومُ . مقضبٌ : قاطعٌ .

(٤) المجزرُ : الموضعُ الذي تجزرُ فيهِ الإبلُ ، فهو الدهرَ في موضعِ مأكلٍ .

(٥) الميسَّرُ : الذي أَقبلَ خيرُ شائِه . والمعنى : إذا ملأَ بطنَهُ عدَّهُ غنىً ولم يبالِ =

يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِساً ... يَحُتُّ ٱلْحَصَىٰ عَنْ جَنْبِهِ ٱلْمُتَعَفِّرِ
وَلٰكِنَّ صُعْلُوكاً صَفِيْحَةُ وَجْهِهِ ... كَضَوْءِ شِهَابِ ٱلْقَابِسِ ٱلْمُتَنَوِّرِ[1]
مُطِلاًّ عَلَىٰ أَعْدَائِهِ يَزْجُرُوْنَهُ ... بِسَاحَتِهِمْ زَجْرَ ٱلسَّنِيْحِ ٱلْمُشَهَّرِ[2]
وَإِنْ قَعَدُوْا لاَ يأْمَنُوْنَ ٱقْتِرَابَهُ ... تَشَوُّفَ أَهْلِ ٱلْغَائِبِ ٱلْمُتَنَظَّرِ
فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَ ٱلْمَنِيَّةَ يَلْقَهَا ... حَمِيْداً وَإِنْ يَسْتَغْنِ يَوْماً فَأَجْدِرِ

العاقل تعبان والجاهل مستريح

وما زالَتْ رجالاتُ العزِّ مقسَّمةَ الأفكارِ ، مبلبَلةَ الخواطرِ ، منغَّصةَ العيشِ ، مِن حيثُ ٱستراحَ صغارُ النفوسِ ، وتنسَّمَ العيشَ سفلَةُ الخلقِ ، وقد قلتُ مِن قصيدةٍ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٢ مِنَ البسيطِ] :

وَهٰكَذَا كُلُّ صِنْدِيْدٍ تُعَاكِسُهُ ... أَيَّامُهُ وَيَفُوْزُ ٱلْفَسْلُ بِٱلطِّيْبِ[3]
فَٱضْرِبْ بِطَرْفِكَ أَنَّىٰ شِئْتَ تَلْقَ أُوْلِيْ ٱلـ ... ـأَخْطَارِ فِيْ مِحَنٍ هُوْجٍ وَتَعْذِيْبِ
تَلْقَ ٱللِّئَامَ ٱللَّيَالِيْ وَهِيَ بَاسِمَةٌ ... وَٱلأَكْرَمِيْنَ بِتَعْبِيْسٍ وَتَقْطِيْبِ
وَٱنْظُرْ إِلىٰ حَالِ خَيْرِ ٱلْمُرْسَلِيْنَ وَمَا ... لاَقَاهُ فِيْ ٱللهِ مِنْ حَرْبٍ وَتَكْذِيْبِ
وَإِثْرَهُ بِنْتُهُ مَاتَتْ بِغُصَّتِهَا ... سُحَّتْ عَلَيْهَا ٱلأَذَايَا بِٱلشَّآبِيْبِ[4]
وَٱلْمُرْتَضَىٰ بَعْدَهُ مَا زَالَ فِيْ مِحَنٍ ... وَمُوْجِعَاتٍ وَأَيَّامٍ غَرَابِيْبِ[5]

= ما وراءَهُ من عيالِهِ وقرابتِهِ .

(١) وجهٌ مُصْفَحٌ : سهلٌ حسنٌ .

(٢) مُطِلاًّ : مشرفاً وعالياً . السَّنيحُ : طيرٌ كانَتْ تتشاءَمُ العربُ منهُ .

(٣) الفَسلُ : الرديءُ الرَّذلُ .

(٤) سحَّ الماءُ : ٱشتدَّ ٱنصبابُهُ . الشُّؤبوبُ : الدفعةُ القويةُ من المطرِ .

(٥) المرتضىٰ : سيدنا عليٌّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ . الغرابيبُ ـ جمعُ غربيبٍ ـ : وهوَ شديدُ السوادِ .

أشد الناس بلاءً من هم؟

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ كثيرٌ من أَنينِهِ ، كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وعتبِهِ علىٰ زمانِهِ وأَهلِهِ ، وما كانَتِ الشَّهادَةُ التي فاز بها مِن يدِ أَشقىٰ الآخِرينَ . . إلاَّ نعمةً لَهُ مِنَ اللهِ وكرامةً ، وخلاصاً مِن المحنةِ ، وعافيةً مِن البلاءِ ، فالزمانُ عادتُهُ ٱمتحانُ الأَحرارِ ؛ لِمَا في ذلكَ مِن صالحِهِم ، وعلوِّ درجَتِهِم ، ومِن ثَمَّ كانَ : « أَشدَّ الناسِ بلاءً الأَنبياءُ ، ثُمَّ الأَمثَلُ فالأَمثَلُ »[1] ، وللهِ درُّ البوصيريِّ في قولِهِ [في همزيته وفي « ديوانه » ٨ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تَخَلْ جَانِبَ ٱلنَّبِيِّ مُضَاماً   حِيـنَ مَسَّتْـهُ مِنْهُـمُ ٱلأَهْـوَاءُ
كُـلُّ أَمْـرٍ نَـابَ ٱلنَّبِيِّيْـنَ فَـٱلشِّـ   ـدَّةُ فِيْـهِ مَحْمُـوْدَةٌ وَٱلـرَّخَـاءُ
لَوْ يَمَسُّ ٱلنُّضَارَ هُوْنٌ مِنَ ٱلنَّا   رِ لَمَا ٱخْتِيْرَ لِلنُّضَارِ ٱلصِّلاَءُ[2]

وقد : (كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ يوعَكُ كما يوعَكُ الرجلانِ من سائرِ الناسِ)[3] ، وفي « الصحيح » : « **إِنَّ ٱلْمُؤْمِنَ مِثْلُ ٱلْخَامَةِ مِنَ ٱلزَّرْعِ ، تُفِيئُهَا ٱلرِّيحُ يَمِيناً وَشِمَالاً ، وَإِنَّ ٱلْمُنَافِقَ مِثْلُ ٱلأَرْزَةِ ، لاَ يَضُرُّهَا شَيْءٌ حَتَّىٰ تَنجَعِفَ مَرَّةً** »[4] .

---

(١) أخرج نحوه عن سعد رضي الله عنه الترمذي (٢٤٠٠) في الزهد ، وابن ماجه (٤٠٢٣) في الفتن وفيه : قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشدُّ بلاء؟ قال : « الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . . . » قال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . وفي الباب عن أبي هريرة وأخت حذيفة وفاطمة .

(٢) **الصِّلاءُ** : الوضعُ على النارِ . **النُّضارُ** : الخالصُ من جوهرِ التبرِ والخشبِ .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه البخاري (٥٦٤٨) في المرضى ، ومسلم (٢٥٧١) في البر والصلة وفيه : « أجل ، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم . . . » .

(٤) **تنجعِفُ** : تَنْقَلِعُ . وأخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٨٠٩) ، =

وجاءَ : أَنَّهُ خطبَ ٱمرأةً مِن (حَضرموتَ) ، كانَت مشهورَةً بالجمالِ ، فقالَ لَهُ أَبوهَا : وأَزيدُكَ أَنَّها لم تتوجَّعْ في عمرِها أَبداً ، قالَ : « لاَ حَاجَةَ لِيْ بِهَا »[1] ، وأَرادَ عاملُ أَبي بكرٍ بـ(حضرموتَ) أَن يتزوَّجَها ، فنهاهُ عَن ذلكَ .

وأَخرجَ الحاكمُ [في « المستدرك » ٤٨٨/١] علىٰ شرطِ مسلمٍ ، وصحَّحَهُ ، ووافقَهُ الذهبيُّ ، عن أَبي هريرةَ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ قالَ لأَعْرَابيٍّ : « هَلْ أَخَذَتْكَ أُمُّ مِلْدَم ؟ »[2] ، قالَ : ما وَجَدْتُ حرَّها قَطُّ ، قالَ : « فَهَلْ أَخَذَكَ ٱلصُّدَاعُ ؟ » ، قالَ : ما وَجَدْتُهُ قطُّ ، فَلَمَّا ولَّىٰ . . قالَ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلنَّارِ . . فَلْيَنْظُرْ هَـٰذَا » .

ومثلُهُ قولُهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « لاَ يَزَالُ ٱلْبَلاَءُ بِٱلْمُؤْمِنِ ، فِيْ نَفسِهِ ، وَمَالِهِ ، وَوَلَدِهِ ، حَتَّىٰ يَلْقَىٰ ٱللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيْئَةٌ »[3] .

= وعن كعب بن مالك (٢٨١٠) في صفات المنافقين بألفاظ متقاربة .

(١) وجاء في « السيرة » : أنَّ القائل له ذلك عائشة رضي الله عنها ويدل عليه : حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند ابن حبان في « الإحسان » (٢٩٠٧) : « من يرد الله به خيراً يُصب منه » بإسناد صحيح وقوله عنه عند البخاري (٥٦٤١) في (المرضىٰ) : « لا يصيب المرء المؤمن من نصب ولا هم ولا حزن ولا أذى حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله عنه بها خطاياه » .

(٢) أُمُّ مِلدَمٍ : الحُمَّىٰ ، وهو أيضاً في « كنز العمال » (٦٧١٤) و(٨٦٤٢) عند ابن جرير من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٣) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الحاكم في « المستدرك » (٤٩٧/١) ، وذكره في « كنز العمال » (٦٨٤٦) ، وزاد نسبته لأحمد وهناد وابن حبان والبيهقي .

وقالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٤٧ مِنَ البسيطِ] :

فَإِنْ يَكُنْ وَصَبٌ قَاسَيْتُ سَوْرَتَهُ   فَالْوِرْدُ حِلْفٌ لِلَيْثِ ٱلْغَابَةِ ٱلأَضِمِ[1]

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانه » مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْكَلْبُ مَحْمُوْماً وَإِنْ طَالَ عُمْرُهُ   وَلَـٰكِنَّمَا ٱلْحُمَّىٰ عَلَىٰ ٱلأَسَدِ ٱلْوَرْدِ

لمن يبتسم الزمان؟

إِنَّما يتبسَّمُ الزمانُ لصغارِ الهمَمِ ، وباعَةِ الذمَمِ ، وزمناءِ المروءَةِ ، وخُبثاءِ النفوسِ .

وللهِ درُّ بعضِهِم في قولِهِ [مِنَ السَّريعِ] :

مَنْ يَرْجُ بِٱلْفَضْلِ نَجَاحاً يَمُتْ   جُوْعاً وَلَوْ كَانَ بَدِيْعَ ٱلزَّمَانْ[2]
وَمَـنْ يَقُـدْ أَوْ يَتَمَسْخَـرْ يَعِـشْ   عَيْشاً رَخِيّاً فِيْ ظِلاَلِ ٱلأَمَانْ

وقالَ الناظمُ فيما يشبهُهُ مِن ناحيَةٍ ، وهوَ يتعلَّقُ بما سبقَ ، مِن ٱقترانِ التعبِ بعلوِّ الهمَّةِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٦٩ مِنَ الكاملِ] :

تَصْفُوْ ٱلْحَيَاةُ لِجَاهِلٍ أَوْ غَافِلٍ   عَمَّـا مَضَـىٰ مِنْهَـا وَمَـا يُتَـوَقَّـعُ
وَلِمَنْ يُغَالِطُ فِي ٱلْحَقَائِقِ نَفْسَهُ   وَيَسُوْمُهَا طَلَبَ ٱلْمُحَالِ فَتَطْمَعُ

هـٰذا ، والمَيْدانُ واسعٌ ، والشوطُ بطينٌ ، ويكفي مِن العِقْدِ ما أَحاطَ بالجيدِ ، والمناسباتُ لأَمثالِهِ كثيرٌ ، فَلْندَعْ لكلِّ موضعٍ ما يناسبُهُ ، ممَّا يفتحُ اللهُ بهِ علَينا فيهِ .

زيادة الحب!!

أَمَّا قولُهُ : (وَجَوىً يَزِيْدُ) . . فيَكادُ أَن يكونَ عكسَ قولِهِ الماضي [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٥ مِنَ الكاملِ] :

---

(١) الوصبُ : المرض . سَورتُهُ : حِدَّتُهُ . الوِردُ : الحُمَّىٰ . الأَضِمُ : الغضبانُ .

(٢) بديع الزمان : هو أحمد بن الحسين الهمذاني ، أبو الفضل ، أحد الأئمة الكتَّاب ، وهو صاحب « المقامات » توفي سنة : (٣٩٨)هـ .

أَقْصِــرْ فَلَسْــتَ بِــزَائِــدِيْ وُدًّا   بَلَــغَ ٱلْمَــدَىٰ وَتَجَــاوَزَ ٱلْحَــدَّا

إِذِ الودُّ والجوىٰ مِن بابٍ واحدٍ يدخلانِ ، وإلىٰ متعلَّقٍ واحدٍ يرجعانِ ، ولـٰكنَّهُ مثلُ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَـٰكِنَّ حُبّاً خَامَرَ ٱلْقَلْبَ فِيْ ٱلصِّبَا   يَـزِيْـدُ علَـىٰ مَـرِّ ٱلـزَّمَـانِ وَيَشْتَـدُّ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

زِيْدِيْ أَذَىٰ مُهْجَتِيْ أَزِدْكِ هَوىً   فَأَجْهَلُ ٱلنَّاسِ عَاشِقٌ حَاقِدْ

وقالَ في مدحِ أَبي العشائرِ وهُوَ ممَّا يقرُبُ مِمَّا نحنُ فيهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٢٦٥ مِنَ المنسرحِ] :

إِنْ كَـانَ فِيْمَـا نَـرَاهُ مِـنْ كَـرَمٍ   فِيْــكَ مَــزِيْــدٌ فَــزَادَكَ ٱللهُ

وقولُهُ عن سيفِ الدولةِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٤٨ مِنَ الخفيفِ] :

كُلَّمَـا قِيْـلَ قَـدْ تَنَـاهَـىٰ أَرَانَـا   كَـرَمـاً مَـا ٱهْتَـدَىٰ إِلَيْـهِ ٱلْكِـرَامُ

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَلُوْبٌ لأَقْصَىٰ غَايَةٍ بَعْدَ غَايَةٍ   إِذَا قِيْلَ يَوْماً قَدْ تَنَاهَىٰ تَزَيَّدَا

وقولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/ ١٣١ مِنَ الكاملِ] :

خَدَمَ ٱلْعُلاَ فَخَدَمْنَهُ وَهِيَ ٱلَّتِيْ   لاَ تَخْدُمُ ٱلأَقْوَامَ مَا لَمْ تُخْدَمِ
فَـإِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِـيْ قُلَّـةٍ مِـنْ سُـؤْدَدٍ   قَالَتْ لَهُ ٱلأُخْرَىٰ : بَلَغْتَ تَقَدَّمِ[1]

وهوَ من قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۞ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ [الانشراح : ٧ـ٨] .

---

(١) **القُلَّةُ** : رأسُ كُلِّ شيءٍ . **السؤدَدُ** : المجدُ والسيادةُ .

حتى الجود يزداد

وأَفضلَ عبيدُ اللهِ بنُ عبَّاسٍ علىٰ بعضِ العربِ مِن حيثُ لا يعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : إِنْ لم تكنِ ٱبنَ العبَّاسِ . . فإِنَّكَ خيرٌ منهُ ، وإِن كنتَهُ . . فأَنتَ اليومَ خيرٌ منكَ أَمسِ .

وللهِ درُّ أَعشىٰ هَمْدانَ في قولِهِ لبعضِ بني أُميَّةَ [كما في « الأغاني » ١٨/ ١٤٠ مِنَ الوافر] :

وَجَدْتُكَ أَمْسِ خَيْرَ بَنِيْ مَعَدٍّ   وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أَمْسِ
وَأَنْتَ غَداً تَزِيْدُ ٱلْخَيْرَ ضِعْفاً   كَذَاكَ تَزِيْدُ سَادَةُ عَبْدِ شَمْسِ

غيرَ أَنَّ الناظِمَ عكس هٰذا المعنىٰ في قولِهِ البارِدِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٦٨ مِنَ المتقارب] :

وَيُقْدِمُ إِلاَّ عَلَىٰ أَنْ يَفِرّ   وَيَقْدِرُ إِلاَّ عَلَىٰ أَنْ يَزِيْدَا

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ	إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِيْ فُؤَادٌ شَيِّقُ

تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها.. من عادة العرب

(الشَّيِّقُ) : المشتاقُ ، يقولُ : إِنَّهُ يزيدُ شوقَهُ لِلَمَعَانِ البرْقِ ، وتغريدِ الطائرِ ، وتلكَ عادَةُ العربِ ، وقلَّما تقعُ عينُ الإِنسانِ علىٰ ما يعجبُهُ ، أَو علىٰ ما يشنؤُهُ.. إِلاَّ تذكَّرَ من يحبُّهُ ؛ ولهـٰذا كانَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم يقولُ : « **اَللَّهُمَّ لاَ عَيشَ إِلاَّ عَيْشُ الآخِرَةِ** »[1] كلَّمَا رأَىٰ ما يعجبُهُ ، أَو يسوؤُهُ ، **فقد قالَها** في أَسرِّ أَحوالِهِ يومَ عرفةَ ، في حَجَّةِ الوداعِ ، حينَما رأَىٰ كثرَةَ المسلمينَ ، واجتماعَهم علىٰ التوحيدِ ، **وقالَها** يومَ الخندَقِ ، وقد رأَىٰ شدَّةَ ما بِهم مِن الجَهْدِ والجوعِ .

وللهِ درُّ القائلِ [أبو شغب السعدي في « البيان والتبيين » ١/ ٥٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يُذَكِّرُنِيهِمْ كُلُّ خَيْرٍ رَأَيْتُهُ	وَشَرٌّ فَمَا أَنْفَكُّ مِنْهُمْ عَلَىٰ ذُكْرِ

أحب شيء للعرب الغيث.. فلذا يتذكرون به الأحباب

وأَحَبُّ ما يكونُ إِلىٰ العربِ الغيثُ ؛ فلهـٰذا يتذكرونَ بهِ الأَحبابَ ، ويحِنُّونَ عندَهُ إِلىٰ الأَوطانِ ، ويتمنَّونَهُ حتَّىٰ لِرَمَمِهِم وأَمواتِهِم ، وإِنْ كانَ لا يُسْمِنُهم ولا يُغْنيهم من جوعٍ ، غيرَ أَنَّهم يحبُّونَ لَهم ما يحبونَ لأَنفسِهم ، وذلكَ بهِم منتهىٰ الأَماني ، وقد قالَ شاعرُهُم [في « ديوان الشريف الرضي » ١/ ٢٩١ مِنَ الوافرِ] :

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه مسلم (١٨٠٥) ، وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عند مسلم (١٨٠٤) في (الجهاد) .

وَمَـا ٱلسُّقْيَـا لِتَبْلُغَـهُ وَلَـٰكِـنْ   أُحِـسُّ لَهَـا بَـرَاداً فِـيْ فُـؤَادِيْ

فأَمَّا أَهلُ الحاضرةِ إذا وَصفوا الرعودَ والبروقَ ، وذَكروا الأَغوارَ والنجودَ . فإِنَّما هُوَ التكلُّفُ والاجتلابُ ، ولعلَّ أَحدَهم لا يحفَلُ بِالمَطرِ ، ولا يبالي بالغيثِ ، ولا يسأَلُ عَنِ الأَنواءِ ، ولا ينظرُ إِلىٰ السحابِ ، ولا يعرفُ ركوبَ الجملِ .

ومن عادتهم التذكر عند لمح البرق

ومِن أَحسنِ مافي التذكُّرِ بالبرقِ قولُ نصيبٍ [في « الأغاني » ١/ ٢٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ ـ وَلَمْ أُخْلَقْ مِنَ ٱلطَّيْرِ ـ كُلَّمَا   بَـدَا بَـارِقٌ نَحْـوَ ٱلْحِجَـازِ أَطِيْـرُ

وقالَ أَحدُ بني كلابٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَوَىٰ نَاقَتِيْ خَلْفِيْ وَقُدَّامِيَ ٱلْهَوَىٰ   فَـإِنِّـيْ وَإِيَّـاهَـا لَمُخْتَلِفَـانِ
هَوَايَ حِجَازِيٌّ وَتَثْنِيْ زِمَامَهَا   لِبَرْقٍ إِذَا أَدْجَىٰ ٱلظَّلَامُ يَمَانِيْ
تَحِـنُّ فَتُبْـدِيْ مَـا بِهَـا مِـنْ صَبَابَـةٍ   وَأُخْفِيْ ٱلَّذِيْ لَوْلَاَ ٱلأَسَىٰ لَقَضَانِيْ

وقالَ أَعرابيٌّ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ قَلْبَهُ ٱلْبَرْقُ ٱلْيَمَانِيُّ رَمْيَةً   بِجَنْبِ ٱلْحِمَىٰ وَهْناً فَكَادَ يَهِيْمُ
فَهَلْ مِنْ مُعِيْرٍ طَرْفَ عَيْنٍ خَلِيَّةٍ ؟   فَإِنْسَانُ طَرْفِ ٱلْعَامِرِيِّ كَلِيْمُ

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ الثاني منهُما ، في غيرِ هـٰذا المجلسِ .

وقالَ آخرُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٣٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَرَىٰ ٱلْبَرْقُ مِنْ أَرْضِ ٱلْحِجَازِ فَشَاقَنِيْ   وَكُـلُّ حِجَـازِيٍّ لَـهُ ٱلْبَـرْقُ شَـائِـقُ
فَوَاكَبِدِيْ مِمَّا أُلَاقِيْ مِنَ ٱلْهَوَىٰ   إِذَا حَـنَّ إِلْـفٌ أَوْ تَـلأْلأَ بَـارِقُ

وقالَ الأَحوصُ [في « ديوانهِ » ١٢٤-٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَقُـوْلُ بِعَمَّـانَ وَهَـلْ طَـرَبِـيْ بِـهِ إِلَىٰ أَهْلِ سَلْعٍ إِنْ تَشَوَّفْتُ نَافِعُ[١]

وَلِلْعَيْـنِ أَسْـرَابٌ تَفِيْـضُ كَـأَنَّمَـا تُعَلُّ بِكُحْلِ ٱلصَّابِ مِنْهَا ٱلْمَدَامِعُ[٢]

أَصَاحِ أَلَمْ تُحْزِنْكَ رِيْحٌ مَرِيْضَةٌ وَبَرْقٌ تِلالا بِٱلْعَقِيْقَيْنِ لاَمِعُ[٣]

فَإِنَّ ٱلْغَرِيْبَ ٱلدَّارِ مِمَّا يَشُوْقُهُ نَسِيْمُ ٱلرِّيَاحِ وَٱلْبُرُوقُ ٱللَّوَامِعُ

لَعَمْرُ ٱبْنَةِ ٱلزَّيْدِيِّ إِنَّ ٱدِّكَارَهَا عَلَـىٰ كُـلِّ حَـالٍ لِلْفُـؤَادِ لَـرَائِـعُ

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ - وَٱلنَّوَىٰ مُطْمَئِنَّةٌ بِنَا وَبِكُمْ - مِنْ عِلْمِ مَا ٱلْبَيْنُ صَانِعُ

وقالَ آخرُ [وهو مجنون ليلىٰ في « ديوانه » ٣٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ إِنِّيْ قدْ أَرِقْتُ وَنِمْتُمَا لِبَـرْقٍ يَمَـانٍ فَـٱقْعُـدَا عَلَّـلاَنِيَـا

خَلِيْلَيَّ لَوْ كُنْتُ ٱلصَّحِيْحَ وَكُنْتُمَا سَقِيْمَيْنِ لَمْ أَفْعَلْ كَفِعْلِكُمَا بِيَا

وقالَ يعلىٰ بنُ مسلمِ الأزديُّ ، وقد طالَ مكثُهُ بـ(مكَّةَ) عندَ أَميرِها ، نافعِ بنِ علقمَةَ الكنانيِّ [في « الأغاني » ٢٢/١٥٢-١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لَيْتَ حَاجَاتِيْ ٱللَّوَاتِيْ حَبَسْنَنِيْ لَـدَىٰ نَـافِـعٍ قُضِّيْـنَ مُنْـذُ زَمَـانِ

وَمَا بِيَ بُغْضٌ لِلأَمِيْرِ وَلاَ قِلىً وَلَـٰكِنَّ بَرْقاً بِٱلْحِجَازِ دَعَانِيْ

---

(١) طربي : ٱهتزازي شوقاً . سلعٌ : جبلٌ بـ(المدينةِ) . تشوَّفتُ : تطاولتُ ناظراً إلى البعيدِ . والمعنىٰ : أَسأَلُ نفسي وأنا في (عمَّانَ) هل ينفعني مدُّ نظري نحوَ جبلِ سلعٍ ، مهتزاً من الشوقِ إلى أهلهِ ؟! .

(٢) تُعَلُّ : يقدَّم لَها الشرابُ ثانيةً . تنهلُ : يقدَّم لها للمرَّةِ الأولى . الصابُ : عصارةُ شجرٍ مرٍّ .

(٣) العقيقانِ : موضعانِ بـ(المدينةِ) ، العقيقُ الأكبرُ فيه بئرُ عروةَ ، والعقيقُ الأصغرُ فيه بئرُ رومَةَ التي ٱشتراها عثمانُ بنُ عفَّانَ رضي اللهُ عنهُ ، وأوقفها علىٰ المسلمين .

فَبِتُّ لَدَىٰ ٱلْبَيْتِ ٱلْحَرَامِ أَشِيْمُهُ   وَنِضْوَايَ مِنْ شَوْقٍ بِهَا أَرِقَانِ(١)
فَلَيْتَ لَنَا مِنْ مَاءِ حَمْنَانَ شَرْبَةً   مُبَـرَّدَةً بَـاتَـتْ عَلَـىٰ طَهَيَـانِ(٢)

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٩٠ مِنَ الوافرِ] :

أَيَـا بَـرْقَ ٱلْعَقِيْـقِ أَقِـمْ فَمَـا لِـيْ   سِوَاكَ عَلَىٰ ٱلصَّبَابَةِ مِنْ مُعِيْنِ
أَحِـنُّ إِلـىٰ ٱلْعَقِيْـقِ وَسَـاكِنِيْـهِ   وَمَـا يَخْلُـوْ ٱلْمُتَيَّـمُ مِـنْ حَنِيْـنِ

وقالَ جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨١٣ مِنَ الوافرِ] :

وَهَـاجَ ٱلْبَـرْقُ لَيْلَـةَ أَذْرِعَـاتٍ   هَـوىً مَـا تَسْتَطِيْـعُ لَـهُ طِـلاَبَـا

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَـىٰ لاَحَ بَـرْقٌ أَوْ بَـدَا طَلَـلٌ قَفْـرُ   جَرَىٰ مُسْتَهِلٌّ لاَ بَكِيْءٌ وَلاَ نَزْرُ(٣)

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٢٢ مِنَ البسيطِ] :

تُهْدِيْ ٱلْبَوَارِقُ أَخْلاَفَ ٱلْمِيَاهِ لَكُمْ   وَلِلْمُحِـبِّ مِـنَ ٱلتَّـذْكَـارِ نِيْـرَانَـا(٤)

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

طَرِبْنَ لِضَوْءِ ٱلْبَارِقِ ٱلْمُتَعَالِيْ   بِبَغْدَادَ وَهْناً مَا لَهُنَّ ومَالِيْ(٥) ؟

---

(١) **أشيمهُ** : أنظرهُ ، وأصلُ الشَّيم : النظرُ إلى البرقِ . **النِّضوُ** : البعيرُ المهزولُ .
(٢) **الحَمنانُ** : عنبٌ طائفيٌّ صغيرُ الحبِّ وأرضٌ مَحْمَنَةٌ كثيرتُهُ . **الطهيانُ** : قُلَّةُ الجبلِ ، أي : رأسُه .
(٣) **المستهِلُّ** : الدمعُ الفياضُ . **البكيءُ** : القليلُ الماءِ .
(٤) **الأخلافُ** : الضروعُ ، وٱستعارَ لها أخلافاً ؛ لأنَّها تَغذي النباتَ كما تغذي الأُمُّ بالإرضاعِ ولدها .
(٥) **الوهنُ** : مقدارُ ثلثِ الليلِ الأوَّلِ . **ما لهنَّ ومالي** : ٱستفهامٌ غرضهُ التوجُّعُ .

وقالَ [في «سقطِ الزندِ» ١٠٣ مِنَ الوافرِ] :

سَرَىٰ بَرْقُ ٱلْمَعَرَّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فَبَاتَ بِرَامَةٍ يَصِفُ ٱلْكَلاَلاَ(١)
شَجَا رَكْباً وَأَفْرَاساً وَإِبْلاً وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُوْ ٱلرِّحَالاَ

وقالَ [في «سقطِ الزندِ» ١٠٦ مِنَ البسيطِ] :

يَا سَاهِرَ ٱلْبَرْقِ أَيْقِظْ رَاقِدَ ٱلسَّمُرِ لَعَلَّ بِٱلْجِزْعِ أَعْوَاناً عَلَىٰ ٱلسَّهَرِ(٢)

البكاء لسجع الحمائم

وأَمَّا البكاءُ لسَجْعِ الحَمَامِ . . فلأنَّها كما قيلَ : تندبُ جدّاً لِمَا هلكَ في غابرِ الزمانِ ، قالَ النابغةُ [مِنَ الوافرِ] :

بُكَاءَ حَمَامَةٍ تَدْعُوْ هَدِيْلاً مُفَجَّعَةً عَلَىٰ فَنَنٍ تُغَنِّيْ

وقالَ المعرِّيُّ [في «سقطِ الزندِ» ٥٢ مِنَ الخفيفِ] :

إِيْهِ للهِ دَرُّكُنَّ فَأَنْتُنَّ ٱللَّوَاتِيْ تَصُنَّ عَهْدَ ٱلْوِدَادِ(٣)
مَا نَسِيْتُنَّ هَالِكاً فِيْ ٱلْأَوَانِ ٱلْخَالِ أَوْدَىٰ مِنْ قَبْلِ هُلْكِ إِيَادِ

ومنَ المعلومِ أَنَّ الشَّجا يبعثُ الشَّجا ، وأَنَّ كلَّ حزينٍ ينتسبُ إِلىٰ الحزينِ ، وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرةَ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ لاَمَنِيْ عِنْدَ ٱلْقُبُوْرِ عَلَىٰ ٱلْبُكَا رَفِيْقِيْ لِتَذْرَافِ ٱلدُّمُوْعِ ٱلسَّوَافِكِ

---

(١) المعرَّةُ : معرَّةُ النعمانِ وهيَ بلدةُ أبي العلاءِ . رامة : اسم موضعٍ . الكلالُ : التعبُ والضعفُ .

(٢) البرقُ الساهرُ : البرقُ الذي يُسْهَرُ عليهِ ، وهذا من بابِ المجازِ . السَّمُرُ : ضربٌ من الشجرِ . الجزعُ : موضعٌ .

(٣) إيهِ : اسمُ فعلٍ للاستزادةِ من حديثٍ أو فعلٍ . يقولُ : إن بناتِ الهديلِ ـ التي أشارَ إليه بقولهِ : أنتنَّ ؛ أي : الحَمَام ـ معروفٌ بالوِدادِ ؛ لقولِ الرواةِ : بأَنَّ فرخَ حمامٍ هلكَ على عهدِ نوحٍ ، فالحمامُ تبكي عليه إلى اليومِ ، بل إلى يومِ القيامةِ .

وَقَالُوا : أَتبْكِيْ كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ ... لِقَبْرٍ ثَوَىٰ بَيْنَ ٱللِّوَىٰ وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ : إِنَّ ٱلأَسَىٰ يَبْعَثُ ٱلأَسَىٰ ... دَعُوْنِيْ فَهَـٰذَا كُلُّـهُ قَبْـرُ مَـالِـكِ

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٢٤ـ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا هَاجَ هَـٰذَا ٱلشَّوْقَ إِلاَّ حَمَامَةٌ ... دَعَتْ سَاقَ حُرٍّ تَرْحَةً وتَنَدُّمَا[١]
بَكَتْ شَجْوَ ثَكْلَىٰ قَدْ أُصِيْبَ حَمِيْمُهَا ... مَخَافَةَ بَيْنٍ يَتْرُكُ ٱلْحَبْلَ أَجْذَمَا[٢]
عَجِبْتُ لَهَا أَنَّىٰ يَكُوْنُ غِنَاؤُهَا ... فَصِيْحاً وَلَمْ تَثْغَرْ بِمَنْطِقِهَا فَمَا
وَلَمْ أَرَ مِثْلِيْ شَاقَهُ صَوْتُ مِثْلِهَا ... وَلاَ عَرَبِيّاً شَاقَهُ صَوْتُ أَعْجَمَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٤٦٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـمْ أَفْهَـمْ مَعَـانِيْهَـا وَلَـٰكِـنْ ... شَجَتْ قَلْبِيْ فَلَمْ أَجْهَلْ شَجَاهَا
فَكُنْـتُ كَـأَنَّنِـيْ أَعْمَـىٰ مُعَنّـىً ... يُحِـبُّ ٱلْغَـانِيَـاتِ وَلاَ يَـرَاهَـا

وقالَ غيرُهُ [في « المدهش » ٢٥٧ـ٢٥٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَلَقَـدْ تَشْكُـوْ فَمَـا أَفْهَمُهَـا ... وَلَقَـدْ أَشْكُـوْ فَمَـا تَفْهَمُنِـيْ
غَيْـرَ أَنِّـي بِـٱلْجَـوَىٰ أَعْـرِفُهَـا ... وَهِيَ أَيْضاً بِٱلْجَوَىٰ تَعْرِفُنِيْ

وقالَ الشَّمَّاخُ يصفُ ناقتَهُ [في « ديوانهِ » ٢٥٦ مِنَ البسيطِ] :

تَخْدِيْ يَدَاهَا وَرِجْلاَهَا عَلَىٰ شَرَكٍ ... سَحَّ ٱلنَّجَاءِ بِهِ مِنْ بَارِقٍ بَاقِ[٣]
كَادَتْ تُسَاقِطُنِيْ وَٱلرَّحْلَ إِذْ نَطَقَتْ ... حَمَامَةٌ فَدَعَتْ سَاقاً عَلَىٰ سَاقِ[٤]

---

(١) ساق الحرِّ : صوتُ الحمامةِ .
(٢) الأَجذَمُ : المقطوعُ .
(٣) تَخدي : تسرعُ . سحُّ النجاء : سريعةٌ كأنها تصبُّ الجريَ صباً ، على التشبيهِ بالمطرِ في شدَّته وسرعةِ انصبابهِ .
(٤) الساقُ الأولىٰ : ذَكَرُ الحمامِ . الساقُ الثانية : ساقُ الشجرةِ .

ومكثَ عوفُ بنُ مُحَلِّمٍ ثلاثينَ سنَةً عندَ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ، لا يُؤْذَنُ لهُ في العودِ إلىٰ أهلِهِ ، فبينا هُوَ معَ عبدِ اللهِ . . إذ سمعَ حمامَةً ، فقالَ [القصة بنحوها في « وفيات الأعيان » ٣/ ٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَرَّقَنِي بِٱلرَّيِّ صَوْتُ حَمَامَةٍ فَنُحْتُ وَذُوْ ٱلشَّوْقِ ٱلْقَدِيْمِ يَنُوْحُ
عَلَىٰ أَنَّهَا نَاحَتْ وَلَمْ تَذْرِ دَمْعَةً وَنُحْتُ وَأَسْرَابُ ٱلدُّمُوْعِ سُفُوْحُ
وَنَاحَتْ وَفَرْخَاهَا بِحَيْثُ تَرَاهُمَا وَمِنْ دُوْنِ أَفْرَاخِيْ مَهَامِهُ فِيْحُ

فرَقَّ لهُ عبدُ اللهِ ، وقالَ لهُ : واللهِ لا أَعملتَ خفّاً ، ولا حافراً ، إلاَّ راجعاً إلىٰ أهلِكَ ، وزوَّدَهُ بثلاثينَ ألفاً ، غيرَ أنَّهُ ماتَ قبلَ أنْ يصِلَ إلىٰ منزِلِهِ .

وممَّا يروىٰ لعروةَ بنِ حزامٍ [في « ديوانهِ » ٣٣ مِنَ الوافرِ] :

أَحَقّاً يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ بِهَـٰذَا ٱلنَّوْحِ أَنَّكِ تَصْدُقِيْنَا
غَلَبْتُكِ بِٱلْبُكَاءِ لأَنَّ لَيْلِيْ أُوَاصِلُهُ وَأَنَّكِ تَهْجَعِيْنَا
وَإِنِّيْ إِنْ بَكَيْتُ بَكَيْتُ حَقّاً وَإِنَّكِ فِيْ بُكَائِكِ تَكْذِبِيْنَا
فَلَسْتِ ـ وَإِنْ بَكَيْتِ ـ أَشَدَّ شَوْقاً وَلَـٰكِنِّيْ أُسِرُّ وَتُعْلِنِيْنَا
فَنُوْحِيْ يَا حَمَامَةَ بَطْنِ وَجٍّ فَقَدْ هَيَّجْتِ مُشْتَاقاً حَزِيْنَا

وقالَ قيسُ بنُ الملوَّحِ [في « ديوانهِ » ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَذَبْتُ ـ وَبَيْتِ ٱللهِ ـ لَوْ كُنْتُ صَادِقاً لَمَا سَبَقَتْنِيْ بِٱلْبُكَاءِ ٱلْحَمَائِمُ

وهوَ مِن قولِ الأوَّلِ[١] [في « شرح مقامات الحريري » ١/ ٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) قالَ الشريشيُّ في « شرحِ مقاماتِ الحريريِّ » (١/ ٣٤) : البيتانِ لعديِّ بنِ الرِّقاع ، انظر « الكامل » للمبرِّدِ (٣/ ١٢٥) . ولكنْ قالَ أبو الحسنِ الأخفشُ : الصحيحُ أنَّ الشِّعرَ لنصيبٍ .

فَلَوْ قَبْلَ مَبْكَاهَا بَكَيْتُ صَبَابَةً ... بِسُعْدَىٰ شَفَيْتُ ٱلنَّفْسَ قَبْلَ ٱلتَّنَدُّمِ
وَلَٰكِنْ بَكَتْ قَبْلِيْ فَهَيَّجَ لِيْ ٱلْبُكَا ... بُكَاهَا فَقُلْتُ : ٱلْفَضْلُ لِلْمُتَقَدِّمِ

وقالَ ٱبنُ الدمينَةِ [في « ديوانه » ١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا حَمَامَاتِ ٱللِّوَىٰ عُدْنَ عَوْدَةً ... فَإِنِّيْ إِلَىٰ أَصْوَاتِكُنَّ حَزِيْنُ
فَعُدْنَ فَلَمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَنِيْ ... وَكِدْتُ بِأَشْجَانِيْ لَهُنَّ أُبِيْنُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِيْ مِثْلَهُنَّ بَوَاكِياً ... بَكَيْنَ وَلَمْ تَذْرِفْ لَهُنَّ عُيُوْنُ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ٢٨ـ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَّىٰ هِجْتِ مِنْ نَجْدِ ... لَقَدْ زَادَنِيْ مَسْرَاكِ وَجْداً عَلَىٰ وَجْدِ
أَإِنْ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ فِيْ رَوْنَقِ ٱلضُّحَىٰ ... عَلَىٰ فَنَنٍ غَضِّ ٱلنَّبَاتِ مِنَ ٱلرَّنْدِ(١)
بَكَيْتُ كَمَا يَبْكِيْ ٱلْوَلِيْدُ وَلَمْ أَكُنْ ... جَلِيْداً وَأَبْدَيْتُ ٱلَّذِيْ لَمْ أَكُنْ أُبْدِيْ
وَقَدْ زَعَمُوْا أَنَّ ٱلْمُحِبَّ إِذَا دَنَا ... يَمَلُّ وَأَنَّ ٱلنَّأْيَ يَشْفِيْ مِنَ ٱلْوَجْدِ
بِكُلٍّ تَدَاوَيْنَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بِنَا ... عَلَىٰ أَنَّ قُرْبَ ٱلدَّارِ خَيْرٌ مِنَ ٱلْبُعْدِ

ولهٰذهِ الأَبياتِ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في « الأغاني » ١٠٩/١٧] : أَنَّهُ كانَ بينَ إِسحاقَ الموصليِّ ، والعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وِدٌّ وإِخاءٌ ، فكلَّما سمعَ أَحدُهما بعجيبٍ . أَتحفَ بهِ الآخَرَ ، فجاءَ العبَّاسُ يوماً ، وأَنشدَ الأَبياتَ هٰذهِ بينَ الناسِ ، ثمَّ ترنَّحَ ترنُّحَ النشوانِ ، وقالَ : أَنطَحُ العمودَ برأْسِي ، فقالوا لَهُ : ٱرفُقْ بنفسِكَ .

---

(١) الرندُ : نباتٌ طيبُ الرائحةِ من شجرِ الباديةِ .

وقد تعلَّقَ بأذيالِهِ في قولِهِ [من شعر العبَّاس بن الأحنف في «ديوانه» ٣٦ مِنَ الكاملِ]:

صد الدلال من الكمال

لَوْ كُنْتِ عَاتِبَةً لَسَكَّنَ خَاطِرِيْ أَمَلِيْ رِضَاكِ وَزُرْتُ غَيْرَ مُرَاقِبِ
لَـكِنْ صَدَدْتِ فَلَمْ تَكُنْ لِيْ حِيْلَةٌ صَدُّ ٱلْمَلُوْلِ خِلاَفُ صَدِّ ٱلْعَاتِبِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَخَلَّصَنِيْ مِنْ غَمْرَةِ ٱلْمَوْتِ أَنَّهُ صُـدُوْدُ دَلاَلٍ لاَ صُـدُوْدَ مَـلاَلِ

وقالَ بعضُ الأَعرابِ ، فيما يشبهُ قولَ ٱبنِ الدمينةِ : (بِكُلٍّ تَداوَيْنَا . .) إِلىٰ آخرِ البيتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

مرض الحب لا دواء له

خَلِيْلَيَّ هَلْ يَشْفِيْ مِنَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْجوىٰ دُنُوٌّ مِنَ ٱلأَوْطَانِ ؟ لاَ بَلْ يَشُوْقُهَا
وَيَزْدَادُ فِيْ قُرْبٍ إِلَيْهَا صَبَابَةً وَيَبْعُدُ مِنْ فَرْطِ ٱشْتِيَاقٍ طَرِيْقُهَا

وهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [في « خزانة الأدب » ١/ ٥١ مِنَ الوافرِ] :

العاشق تعبان على كل حال

وَأَبْرَحُ مَا يَكُوْنُ ٱلشَّوْقُ يَوْماً إِذَا دَنَـتِ ٱلـدِّيَـارُ مِـنَ ٱلـدِّيَـارِ

ومنهُ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم : « **كَانَ إِذَا أَبْصَرَ دَرَجَاتِ ٱلْمَدِيْنَةِ . . حَرَّكَ دَابَّتَهُ ؛ مِنْ حُبِّهَا** »[١] .

وقالَ كُثيِّرٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ عَلَىٰ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ أُكْثِرُ ٱلْبُكَا لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلْمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

وقالَ النظَّارُ الفقْعسيُّ [في « المستطرف » ٢/ ٣٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ : هَـٰذِيْ أُمُّ عَمْرٍو قَرِيْبَةٌ دَنَتْ بِكَ أَرْضٌ نَحْوَهَا وَسَمَاءُ
أَلاَ إِنَّمَـا بُعْـدُ ٱلْحَبِيْـبِ وَقُـرْبُـهُ إِذَا هُوَ لَمْ يُوْصَلْ إِلَيْهِ سَوَاءُ

---

(١) أخرجه عن أنس رضي الله عنه بنحوه البخاري (١٨٠٢) في (العمرة) .

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٦٥٦ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

لَعَمْـرِيْ لَقَـدْ كَـانَ هِجْـرَانُـهُ   عَلَىٰ ٱلصَّـبِّ أَيْسَـرَ مِـنْ فَقْـدِهِ
وَقَـدْ كُنْـتُ أَظْمَـا إِلَـىٰ وَصْلِـهِ   فَقَـدْ صِـرْتُ أَظْمَـا إِلَـىٰ صَـدِّهِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٢٥ مِنَ الوافرِ] :

وَهَجْرُ ٱلْقُرْبِ مِنْهَا كَانَ أَشْهَىٰ   إِلَىٰ ٱلْمُشْتَاقِ مِنْ وَصْلِ ٱلبِعَادِ

وقالَ وأَجادَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٣ مِنَ البسيطِ] :

مَتَىٰ جَرَىٰ ٱلدَّمْعُ عَنْ بَيْنٍ تَقَدَّمَهُ ٱلْـ   ـهِجْرَانُ كَانَ خَلِيْقاً أَنْ يَكُوْنَ دَمَا

وقالَ ٱبنُ عنينٍ [في « نفح الطيب » ٢/ ٨٦٣ مِنَ الكاملِ] :

عِبْءُ ٱلصُّدُوْدِ أَخَفُّ مِنْ عِبْءِ ٱلنَّوَىٰ   لَوْ كَانَ لِيْ فِيْ ٱلْحُبِّ أَنْ أَتَخَيَّرَا

وقالَ ٱبنُ الخيَّاطِ [في « ديوانهِ » ٢٥٥ مِنَ الكاملِ] :

يَا عَمْرُو أَيُّ خَطِيْرِ خَطْبٍ لَمْ يَكُنْ   خَطْبُ ٱلْفِرَاقِ أَشَدَّ مِنْهُ وَأَوْبَقَا
كِلْنِيْ إِلَىٰ كَلَفِ ٱلصُّدُوْدِ فَرُبَّمَا   كَانَ ٱلصُّدُوْدُ مِنَ ٱلنَّوَىٰ بِيْ أَرْفَقَا

وقالَ الناظمُ في عكسهِ [في « العُكبريِّ » ٤/ ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

نَرَىٰ عِظَماً بِٱلْبَيْنِ وَٱلصَّدُّ أَعْظَمُ   [وَنَتَّهِمُ ٱلْوَاشِيْنَ وَٱلدَّمْعُ مِنْهُمُ]

وقالَ في قريبٍ مِن موافقتِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ لِيْ بِقُرْبِيْ مِنْكَ عَيْناً قَرِيْرَةً   وَإِنْ كَانَ قُرْباً بِٱلْبِعَادِ يُشَابُ
وَهَلْ نَافِعِيْ أَنْ تُرْفَعَ ٱلْحُجْبُ بَيْنَنَا   وَدُوْنَ ٱلَّـذِيْ أَمَّلْـتُ مِنْـكَ حِجَـابُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٤٥ مِنَ الكاملِ] :

قَـرُبَ ٱلْمَـزَارُ وَلاَ مَـزَارَ وَإِنَّمَـا   يَغْـدُوْ ٱلْجَنَـانُ فَنَلْتَقِـيْ وَيَـرُوْحُ

أمَّا ٱبن الخيَّاطِ . . فإنَّه يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَرَامٌ عَلَىٰ يَأْسِ ٱلْهَوَىٰ وَرَجَائِهِ وَحُبٌّ عَلَىٰ قُرْبِ ٱلْمَزَارِ وَبُعْدِهِ

وقالَ قيسٌ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ مُقِيمَاتٍ بِمُنْعَرَجِ ٱللِّوَىٰ لأَقْرَبُ مِنْ لُبْنَىٰ وَهَاتِيْكَ دَارُهَا

عودة إلى بكاء الحمائم

ولنعدْ إلىٰ ما نحنُ بسبيلِهِ ، ممَّا يتعلَّقُ ببكاءِ الحَمامِ ، قالَ الصمَّةُ بنُ عبيدِ اللهِ القشيريُّ [في « ديوانه » ١١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَإِنْ سَجَعَتْ فِيْ بَطْنِ وَادٍ حَمَامَةٌ تُجَاوِبُ أُخْرَىٰ مَاءُ عَيْنَيْكَ دَافِقُ(١)

كَأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بُكَاءَ حَمَامَةٍ بِلَيْلٍ وَلَمْ يَحْزُنْكَ إِلْفٌ مُفَارِقُ

بَلَىٰ فَأَفِقْ مِنْ ذِكْرِ لَيْلَىٰ فَإِنَّمَا أَخُوْ ٱلصَّبْرِ مَنْ كَفَّ ٱلْهَوَىٰ وَهْوَ تَائِقُ(٢)

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

أَبَكَيْتَ مِنْ حُزْنٍ لِنَوْحِ حَمَائِمٍ دعَتِ ٱلْهَدِيْلَ وَظَلَّ غَيْرَ مُجِيْبِهَا

نُحْنَا وَنَاحَتْ غَيْرَ أَنَّ بُكَاءَنَا بِعُيُوْنِنَا وَبُكَاءَهَا بِقُلُوْبِهَا

وقالَ النظَّارُ الفقْعَسيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا لَقَوْمِيْ بَرَّحَتْ بِيْ حَمَامَةٌ مُفَجَّعَةٌ قَدْ غَابَ عَنْهَا قَرِيْنُهَا

تُغَنِّيْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ شَآبِيْبَ عَيْنٍ مُسْتَهِلٍّ مَعِيْنُهَا

وَجَدَّدَ قَرْحَ ٱلْقَلْبِ فِيهِ ٱنْدِمَالُهُ تَرَنُّمُ ٱلْحَانٍ بِهِ لاَ تَبِيْنُهَا

---

(١) سجعُ الحمام : موالاةُ صوتِهِ على طريقٍ واحدٍ .

(٢) تائِقٌ : مشتاقٌ ، وتاقتِ النفسُ إلى الشيءِ : نزعَتْ وٱشتاقت .

وقالَ أَبو جعفرٍ المهلَّبيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ هَيَّجَ ٱلشَّوْقَ ٱلْقَدِيمَ حَمَامَةٌ ... مُطَوَّقَةٌ وَرْقَاءُ بَانَ قَرِيْنُهَا[1]
تَغَنَّتْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ فَهَيَّجَتْ ... وَسَاوِسَ نَفْسٍ مَا تَقَضَّتْ شُجُوْنُهَا

وقالَ محمَّدُ بنُ جَهمٍ [مِنَ الكاملِ] :

أَبَكَيْتَ إِنْ غَنَّتْ حَمَامَةُ أَيْكَةٍ ... وَرْقَاءُ تَهْتِفُ فِيْ ٱلْغُصُوْنِ وَتَسْجَعُ
مَأْلُوْفَةُ ٱلأَلْحَانِ مِطْرَابُ ٱلضُّحَىٰ ... تَبْكِيْ بِشَجْوٍ دَائِمٍ وَتَوَجَّعُ
مَا تَسْتَفِيْقُ مِنَ ٱلْبُكَاءِ وَنَوْحُهَا ... يَجْوِيْ ٱلْحَزِيْنَ وَعَيْنُهَا لاَ تَدْمَعُ
عَجَباً لِمَبْكَىٰ عَيْنِهَا وَجُمُوْدِهَا ... وَلِعَوْلَةٍ فِيْ قَلْبِهَا مَا تُقْلِعُ

وقالَ أَحدُ بني الصَّيداءِ [في « بغية الطلب في تاريخ حلب » ٢/٩٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ مِنَ ٱلأَيْكِ غَدْوَةً ... مُطَوَّقَةٌ وَرْقَاءُ فِيْ إِثْرِ آلِفِ
فَهَاجَتْ عَقَابِيْلَ ٱلْجَوَىٰ إِذْ تَرَنَّمَتْ ... وَشَبَّتْ ضِرَامَ ٱلشَّوْقِ بَيْنَ ٱلشَّرَاسِفِ[2]
بَكَتْ بِجُفُوْنٍ دَمْعُهَا غَيْرُ ذَارِفٍ ... فَأَغْرَتْ جُفُوْنِيْ بِٱلدُّمُوْعِ ٱلذَّوَارِفِ

وللأَبياتِ قصَّةٌ ، لا يتَّسعُ لها الوقتُ[3] .

---

(١) **الوُرْقَةُ** : سوادٌ في غبرةٍ كلونِ الرمادِ .
(٢) **الشرسوفُ** : غضروفٌ معلَّقٌ بكلِّ ضِلَعٍ ، مثلُ غضروفِ الكتفِ .
(٣) روىٰ الأَصمعيُّ عن مُنتجعِ بنِ نبهانَ الصيداويِّ قالَ : أَخبرني رجلٌ مِن بني الصَّيداءِ مِن أَهلِ الصَّريمِ قالَ : كنتُ أَهوىٰ جاريةً مِن باهلةَ ، وكانَ أَهلُها قد أَخافوني ، وأَخذوا عليَّ المسالكَ ، فخرجتُ ذاتَ يومٍ ، فإذا حماماتٌ يسجعنَ علىٰ أَفنانِ أَيكاتٍ ، متناوحاتٍ في سرارةِ وادٍ ، فاستنفرني الشَّوقُ ، فركبتُ وأَنا أَقولُ : دَعَتْ فَوْقَ أَغْصَانٍ . . . الأبيات ، لكنِّي سِرْتُ ، فآواني اللَّيلُ إِلىٰ =

وقالَ الطغرائيُّ [في « ديوانهِ » ٣٨٩ مِنَ البسيطِ] :

أَيْكِيَّةٌ صَدَحَتْ شَجْواً عَلَىٰ فَنَنٍ ... فَأَشْعَلَتْ مَا خَبَا مِنْ نَارِ أَشْجَانِي[1]

نَاحَتْ وَمَا فَقَدَتْ إِلْفاً وَلاَ فُجِعَتْ ... فَـذَكَّـرَتْنِـيَ أَوْطَـارِيْ وَأَوْطَـانِـيْ

طَلِيْقَـةٌ مِـنْ إِسَـارِ الْهَـمِّ نَـاعِمَـةٌ ... أَضْحَتْ تُجَدِّدُ وَجْدَ الْمُوْثَقِ الْعَانِيْ

مَا فِيْ حَشَاهَا وَلاَ فِيْ جَفْنِهَا أَثَرٌ ... مِنْ نَارِ قَلْبِيْ وَلاَ مِنْ مَاءِ أَجْفَانِيْ

= حَيٌّ ، فلمَّا رنَقَتْ في عيني سِنَةٌ . . إذا بقائِلٍ يقولُ :

تَمَتَّـعْ مِـنْ شَمِيْـمِ عِـرَارِ نَجْـدٍ ... فَمَـا بَعْـدَ الْعَشِيَّـةِ مِـنْ عِـرَارِ

فَتشاءَمتُ مِنها ، ثُمَّ غلبتني عينايَ ، فإذا آخرُ يقولُ :

لَـنْ يَلْبَـثَ الْقُـرَنَـاءُ أَنْ يَتَفَـرَّقُـوْا ... لَيْـلٌ يَكُـرُّ عَلَيْهِـمُ وَنَهَـارُ

فَقُمتُ، وَعَبَرتُ، وركبْتُ متنكِّباً عَنِ الطَّريقِ، فإذا راعٍ معَ الشُّروقِ وقد سرحَ غنماً لهُ وهوَ يتمثَّلُ:

كَفَىٰ بِـاللَّيَـالِـيْ الْمُخْلِقَـاتِ لِجِدَّةٍ ... وَبِـالْمَـوْتِ قَطَّـاعـاً حِبَـالَ الْقَـرَائِنِ

فأظلَمَتْ عَلَيَّ ـ واللهِ ـ الأَرضُ ، فتأمَّلتُهُ فعرفتُهُ ، قلتُ : فلانٌ ؟ قالَ : فلانٌ .

قلتُ : ما وراءَكَ ؟ قالَ : ماتَتْ ـ واللهِ ـ رملةُ ، فما تمالَكتُ أن سقطْتُ عَن بعيري ، فما أَيقظني إلاَّ حرُّ الشَّمسِ ، فقمتُ وقد عَقَلَ الغُلامُ ناقتي ومضىٰ ، فركبتُ إلىٰ أَهلي وقلتُ :

يَا رَاعِيَ الضَّأْنِ قَدْ أَبْقَيْتَ لِيْ كَمَداً ... يَبْقَـىٰ وَيُتْلِفُنِـيْ يَـا رَاعِـيَ الضَّـانِ

نَعَيْتَ نَفْسِيْ إِلَىٰ جِسْمِيْ فَكَيْفَ إِذاً ... أَبْقَـىٰ وَنَفْسِـيَ فِـيْ أَثْنَـاءِ أَكْفَـانِ

لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا أَسْأَرْتَ فِيْ كَبِدِيْ ... بَكَيْـتَ مِمَّـا تَـرَاهُ الْيَـوْمَ أَبْكَـانِـيْ

(١) الأيكةُ: الشجرُ الكثير الملتفُّ. والأَيكِيَّةُ: التي مِن شأنها وعادتِها سُكنى الأيكِ، وهيَ الحمامةُ .

وهيَ بالمكانِ الأَعلىٰ مِن إِثارةِ الأَشجانِ ، لولا التغايرُ بينَ قولِهِ : (شجواً) وقولِهِ : (طليقةٌ وما بعدَهُ) .

وممَّا ينسبُ لبدرِ الدينِ يوسُفَ بنِ لؤلؤٍ [مِنَ الكاملِ] :

أَحَمَامَةَ ٱلْوَادِي بِشَرْقِيِّ ٱلْحِمَىٰ ... إِنْ كُنْتِ مُسْعِدَةَ ٱلْحَزِينِ.. فَرَجِّعِي

فَلَقَدْ تَقَاسَمْنَا ٱلْغَضَا فَغُصُونُهُ ... فِيْ رَاحَتَيْكِ وَجَمْرُهُ فِيْ أَضْلُعِيْ

ولَهُ [في « خزانة الأدب » ٢/ ٨٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتَنَبَّهَتْ ذَاتُ ٱلْجَنَاحِ بِسَحْرَةٍ ... بِٱلْوَادِيَيْنِ فَهَيَّجَتْ أَشْوَاقِيْ

وَرْقَاءُ قَدْ أَخَذَتْ فُنُوْنَ ٱلْحُزْنِ عَنْ ... يَعْقُوْبَ وَٱلأَلْحَانَ عَنْ إِسْحَاقِ

أَنَّىٰ تُبَارِيْنِيْ أَسَىً وَصَبَابَةً ... وَكَآبَةً وَجَوَىً وَفَيْضَ مَآقِيْ ؟!

وَأَنَا ٱلَّذِيْ أُمْلِيْ ٱلْهَوَىٰ مِنْ خَاطِرِيْ ... وَهِيَ ٱلَّتِيْ تُمْلِيْ مِنَ ٱلأَوْرَاقِ

وكانَ ٱبنُ أَبي طاهرٍ ، يستحسنُ هٰذِهِ الأَبياتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَبْلِيَ أَبْكَىٰ كُلَّ مَنْ كَانَ ذَا هَوىً ... هُتُوْفُ ٱلْبَوَاكِيْ وَٱلدِّيَارُ ٱلْبَلاَقِعُ

وَمَرَّ عَلَىٰ ٱلأَطْلاَلِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... نَوَائِحُ مَا تَخْضَلُّ مِنْهَا ٱلْمَدَامِعُ(١)

مُزَبْرَجَةُ ٱلأَعْنَاقِ نِمْرٌ بُطُوْنُهَا ... مُخَطَّمَةٌ بِٱلدُّرِّ خُضْرٌ رَوَائِعُ(٢)

تَرَىٰ طِرَراً بَيْنَ ٱلْخَوَافِيْ كَأَنَّهَا ... حَوَاشِيْ بُرُوْدٍ أَحْكَمَتْهَا ٱلْوَشَائِعُ(٣)

وَمِنْ قِطَعِ ٱليَاقُوْتِ صِيغَتْ عُيُوْنُهَا ... خَوَاضِبُ بِٱلحِنَّاءِ مِنْهَا ٱلأَصَابِعُ

---

(١) تخضلُّ : تبتلُّ . المدامعُ : العيونُ .

(٢) الزِّبْرِجُ : الزينةُ من وشيٍ أو جوهرٍ أو غيرِهِ . طائرٌ أنمرُ : منقطٌ بالأسود .

(٣) الوشائع ـ جمع وشيعةٍ ـ : وهي الطريقةُ في البُردِ .

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

يَاوَيْحَ قُمْرِيَّةٍ غَنَّتْ لَنَا هَزَجاً ... مِمَّـا تُغَنِّـيْ بِنَظْـمٍ جِـدُّ مُتَّـزِنِ
قَـدْ كُنْـتِ وَاقِعَـةً دَهْـراً عَلَـىٰ فَنَـنٍ ... فَصِرْتِ فِيْ جَوْفِ مَنْحُوْتٍ مِنَ الْقِنَنِ[1]
فَخَبِّـرِيْنَـا وَمَـا الْفَـاكِ مُخْبِـرَةً ... أَتَسْجَعِيْنَ لِلَهْوٍ مِنْكِ أَمْ شَجَنِ ؟
وَفِيْ فُؤَادِيْ هُمُوْمٌ لَسْتُ أُظْهِرُهَا ... خَوْفَ الْوُشَاةِ وَإِشْفَاقاً مِنَ الزَّمَنِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانِه » ٣/ ١٩٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَوُرْقٍ تَدَاعَىٰ بِالْبُكَاءِ فَهِجْنَ لِيْ ... كَمِيْنَ أَسىً بَيْنَ الْحَشَا وَالْحَيَازِمِ
وَصَلْـتُ بِـدَمْعِـيْ نَـوْحَهُـنَّ وَإِنَّمَـا ... بَكَيْتُ لِشَجْوِيْ لاَ لِشَجْوِ الْحَمَائِمِ

وقالَ المعرِّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَنَّـتْ لَنَـا فِـيْ دَارِ سَـابُـوْرَ قَيْنَـةٌ ... مِنَ الْوُرْقِ مِطْرَابُ الأَصَائِلِ مِيْهَالُ[2]
فَقُلْتُ : تَغَنَّيْ كَيْفَ شِئْتِ فَإِنَّمَا ... غِنَاؤُكِ عِنْدِيْ ـ يَاحَمَامَةُ ـ إِعْوَالُ[3]

وقالَ المنازيُّ ـ وأَهلُ الأَندلسِ يزعمونَ أَنَّهما لحمدةَ الأَندلسيَّةِ ـ [مِنَ الوافرِ] :

لَقَـدْ عَـرَضَ الْحَمَـامُ لَنَـا بِسَلْـعٍ ... إِذا غَنَّـىٰ لَـهُ رَكْـبُ الاَحَـا
شَجَا قَلْبَ الْخَلِيِّ فَقَالَ : غَنَّىٰ ... وَبَرَّحَ بِالشَّجِيِّ فَقَالَ : نَاحَا

---

(١) القِننُ ـ جمع قِنَّةٍ ـ : وهيَ قوَّةٌ من قوى حبلِ الليفِ .
(٢) دار سابور : دارُ العلمِ بـ(بغدادَ) . القينةُ : المغنيةُ . الوُرْقُ : الحمامُ . الميهالُ : من الوَهَلِ ، أي الفزعُ ، أوِ النازلةُ بينَ أهلها .
(٣) الإعوالُ : العويلُ وهوَ رفعُ الصوتِ بالبكاءِ . يقولُ : إن صوت هذهِ الحمامةِ عندي ليس غناءً يبعثُ على اللهوِ والطربِ ، وإنما هوَ عويلٌ يثيرُ الشجا والكربَ .

ونَعم واللهِ ، فكلٌّ يقفُ عندَ حدِّهِ ، وينتهي لِمقدارِ مدِّهِ ، وكثيراً ما تشتبهُ النوائِحُ والأَغاني ، وتتَّفِقُ الصورُ لا المَعاني .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٥٥ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـدْ يَتَقَـارَبُ ٱلْـوَصْفَـانِ جِـدّاً وَمَـوْصُـوْفَـاهُمَـا مُتَبَـاعِـدَانِ

ويُطربني قولُ الآخرِ ، وقد تمثَّلتُ بهِ مرَّةً ، وعِندي صَديقي الجليلُ السيِّدُ شيخُ بنُ محمَّدٍ الحبشيُّ ، فصعقَ حتَّىٰ كادَ يُغشىٰ عليهِ ، وهُوَ [مِنَ الخفيفِ] :

يَنْـدُبُـوْنَ ٱللِّـوَا وَأَنْـدُبُ سَلْعـاً كُلُّ عَيْنٍ تَبْكِيْ عَلَىٰ مَا شَجَاهَا

وحدَّثوا [في « بغية الطلب » ٧/ ٣٢١١] : أَنَّ خالدَ بنَ يزيدَ الكاتبَ ، كانَ يهوىٰ جاريةً لبعضِ أَعيانِ (بغدادَ) ، فلم يقدِرْ عَليها ، ثمَّ إِنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ الملكِ ولاَّهُ عملاً بالثغورِ ، فشخصَ ، فسمعَ في طريقِهِ منشداً يقولُ [مِنَ البسيطِ] :

مَـنْ كَـانَ ذَا شَجَـنٍ بِـٱلشَّـامِ يَطْلُبُـهُ فَفِيْ سِوَىٰ ٱلشَّامِ أَضْحَىٰ ٱلأَهْلُ وَٱلشَّجَنُ

فبكىٰ حتَّىٰ سقطَ علىٰ وجهِهِ ، ثمَّ أَفاقَ ، ولم يفارِقْهُ الوسواسُ حتَّىٰ ماتَ .

ولا غـرابَـةَ ؛ فـإِنَّ مَـن وَعـىٰ سمعُـهُ ، وكـرُمَ طبعُـهُ ، وعـذُبَ مشربُهُ . . لا صادِحَةَ إلاَّ تُطرِبُهُ .

ولقد أَسهبَ والدي ـ رحمَهُ اللهُ ـ في الموضوعِ بلسانِ القومِ ، وذكرَ حديثَ الثلاثةِ الذينَ سَمِعوا المناديَ علىٰ السَّعْتَرِ البرِّيِّ[١] ،

---

(١) الحاصل منها : أن كلَّ سامع يسرع فهمه إلى ما يشغل فكره ، فأحدهم سمعه=

وحديثَ سامعِ المنادي علىٰ الخيارِ عَشَرَةٌ بدرهَم . . وماكانَ مِن تغيُّرِهِ وقولِهِ : إذا كانَ الخيارُ عشرةٌ بدِرهمٍ . . فما بالُ الأشرارِ ؟!

وذكرَ الأُستاذَ الأبرَّ سيِّدَنا الإمامَ عيدروسَ بنَ عمرَ : سَمعَ الناعورَةَ يوماً . . فاْهتاجَ واْشتاقَ ، وفاضَتْ حكمتُهُ ، وتفجَّرتْ ينابيعُ معانيهِ ، ودرَّتْ شآبيبُ معارفِهِ ، فقلْتُ لِوالدي : إنَّ عِندي في ذلكَ لحديثاً يناسبُ بعضَ ما ذكرتُم قالَ : هاتِ ، قلتُ : ذكرَ بعضُ أَهلِ الأَدبِ ، أَنَّ أعرابياً نزلَ بالفتحِ بنِ خاقانَ ، وزيرِ المتوكِّلِ العبَّاسيِّ ، وباتَ في سطحٍ يشرفُ علىٰ بستانٍ لَهُ ، فلمَّا أَسحرَ ، وسمعَ أَصواتَ النواعيرِ . . حَنَّ وأَنَّ ، وجاشَتْ بلابِلُهُ ، وهاجَتْ خواطِرُهُ ، وقالَ [في « الأغاني » ٥/ ٣٨١ مِنَ الكاملِ] :

بَكَرَتْ تَحِنُّ وَمَا بِهَا وَجْدِيْ وَأَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِلىٰ نَجْدِ
وَدُمُوْعُهَا تَحْيَ ٱلرِّيَاضُ بِهَا وَدُمُوْعُ عَيْنِيْ أَحْرَقَتْ خَدِّيْ

فأَصابتْ مِن أَبي محزاً ، وصادَفَتْ لَهُ مهزّاً ، فاْهتاجَ حزناً ، وأَرسلَ دموعَهُ فُرادىٰ ومثنىً ، ووَدَّ أَن لَو كانَ الأُستاذُ حيّاً . . فأَتحفَهُ بالقصَّةِ والبيتينِ ، ودَعا لي حينئذٍ بِما أَرجو ذُخرَهُ وبركتَهُ .

وقالَ نصيبٌ أَو غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كِدْتُ يَوْمَ ٱلْحُزْنِ لَمَّا تَرَنَّمَتْ هَتُوْفُ ٱلضُّحَىٰ مَحْزُونَةً بِٱلتَّرَنُّمِ
أَمُوْتُ لِمَبْكَاهَا أَسىً إِنَّ لَوْعَتِيْ وَوَجْدِيْ بِسَعْدَىٰ شَجْوُهُ غَيْرُ مُنْجَمِ

= يبيع زعتر الطعام النبْت المعروف المفيد الشهي المضاد للجراثيم ، والثاني سمعه يقول : اسْعَ ترَ برِّي ، والثالث سمع : الساعة ترىٰ بري فانهض وبادر قبل فوات الأوان .

وللناس فيما يعشقون مذاهب ، وكلٌّ يغني علىٰ ليلاه ، وهكذا .

وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَوْمَ ٱللِّوَىٰ أَبْكَاكَ نَوْحُ حَمَامَةٍ هَتُوْفِ ٱلضُّحَىٰ بِٱلنَّوْحِ ظَلَّتْ تَفَجَّعُ

فَقُلْتُ : أَتَبْكِيْ ذَاتُ طَوْقٍ تَذَكَّرَتْ هَدِيْلاً وَقَدْ أَوْدَىٰ وَمَا كَانَ تُبَّعُ(1)

وَأَدْرِيْ وَلاَ أَبْكِيْ وَتَبْكِيْ وَمَا دَرَتْ بِعَـوْلَتِهَـا غَيْـرَ ٱلْبُكَـا كَيْـفَ تَصْنَـعُ

وَلَمْ تَرَ مَا تَبْكِيْ وَأَتْرُكُ مَا أَرَىٰ وَتَحْفَـظُ مَـا تَبْكِـيْ لَـهُ وَأُضَيِّـعُ

وقد سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ما قالهُ أبو فراسٍ في مناجاةِ الحمامةِ .

وقالَ ابنُ الفارضِ [في « ديوانهِ » ٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَكَ مَاٱسْتَهْدَيْتُ بَرْقاً، وَلاَ شَجَتْ فُؤَادِيْ فَأَبْكَتْ إِذْ شَدَتْ وُرْقُ أَيْكَةِ(2)

فَـذَاكَ هُـدَىً أُهْـدِيْ إِلَـيَّ وَهَـٰـذِهِ عَلَىٰ ٱلْعُوْدِ إِذْ غَنَّتْ عَنِ ٱلْعُوْدِ أَغْنَتِ(3)

ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، غيرَ أنِّي لا أُمِلُّ بشيءٍ منهُ ، إلاَّ ما أُراني لَم أُسبَقْ إليهِ مِن قولي [مِنَ البسيطِ] :

جَفَّتْ دُمُوْعِيْ لِفَرْطِ ٱلْوَجْدِ وَٱلْحُرَقِ وَبِتُّ أَرْعَىٰ نُجُوْمَ ٱللَّيْلِ مِنْ أَرَقِ

كَذَلِكَ ٱلْوُرْقُ لاَ تَذْرِيْ ٱلدُّمُوْعَ إِذَا نَاحَتْ بِأَكْبَادِهَا ٱلْحَرَّىٰ عَلَىٰ ٱلْوَرَقِ

---

(1) تُبَّع : هو تبع بن حسان بن تبان ، ويقال : اسمه مرثد ، وهو تبع الأصغر آخر التبابعة من ملوك حمير في اليمن .

(2) ٱستهداهُ : طلبَ منهُ أن يَهديَهُ . شجت : أحزنت . شَدَت : غنَّت . الأيكةُ : الشجرة الملتفَّةُ .

(3) فذاك : أي البرقُ . وهذه : أي الحمائِمُ . العودُ الأوَّلُ : الغصنُ . العودُ الثاني : آلة الطربِ .

العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً

ويتَّصِلُ بالموضوعِ [أن أبا الفرج روى في «الأغاني» ١٥/ ٣٧٥] : أَنَّ زياداً الأعجمَ ، قدمَ علىٰ المهلَّبِ ٱبنِ أَبي صفرَةَ ، فبينا هُوَ يشربُ يوماً معَ ٱبنِهِ حبيبٍ . . إِذِ ٱقترَبَتْ منهُما حمامَةٌ تغنِّي ، فقالَ زيادٌ [في «ديوانهِ» ١٢٠-١٢١ من الوافر] :

تَغَنَّيْ أَنْتِ فِيْ ذِمَمِيْ وَعَهْدِيْ ... وَذِمَّـةِ وَالِـدِيْ أَنْ لاَ تُطَـارِيْ
إِذَا غَنَّيْتِنِـيْ وَشَـرِبْـتُ كَـأْسـاً ... ذَكَـرْتُ أَحِبَّتِـيْ وَذَكَـرْتُ دَارِيْ
فَـإِمَّـا يَقْتُلُـوْكِ طَلَبْـتُ ثَـأْراً ... لَـهُ نَبَـأٌ لأَنَّـكِ فِـيْ جِـوَارِيْ

فما كانَ بأَسرعَ مِن أَن شَكَّ فُؤَادَها بالسهْمِ حبيبٌ ، فغضِبَ زيادٌ ، وذهبَ يشكو إِلىٰ المهلَّبِ ، فقالَ حبيبٌ : إِنَّما كنتُ مازحاً ، فقالَ لَهُ أَبوهُ : أَما علمْتَ أَنَّ جارَةَ أَبي أُمامَةَ لا تُرَوَّعُ ؟ وقضىٰ فِيها بأَلفِ دينارٍ ديَةَ المسلمِ ، فقبضَها زيادٌ ، وقالَ [في «ديوانهِ» ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلِلّٰـهِ عَيْنـاً مَـنْ رَأَىٰ كَقَضِيَّـةٍ ... قَضَىٰ لِيْ بِهَا شَيْخُ ٱلْعِرَاقِ ٱلْمُهَلَّبُ
رَمَـاهَـا حَبِيْـبُ بْـنُ ٱلْمُهَلَّـبِ رَمْيَـةً ... فَأَقْصَدَهَا وَٱلسَّهْمُ يُخْطِيْ وَيَغْرُبُ[1]
فَأَلْزَمَهُ عَقْلَ ٱلْقَتِيْلِ ٱبْنُ حُرَّةٍ ... وَقَالَ حَبِيْبٌ : إِنَّمَا كُنْتُ أَلْعَبُ
فَقَـالَ : زِيَـادٌ لاَ يُـرَوَّعُ جَـارُهُ ... وَجَارَةُ جَارِيْ مِثْلُ جَارِيْ وَأَقْرَبُ

من الأماكن التي تحن فيها العرب . . عند حنين الإبل

وكما تحنُّ العربُ لنوحِ الحمامِ ، وتبوحُ بِرَوْقِ الغمامِ . . كذلكَ عندَ حنينِ الإبلِ ، يضطرِمُ أُوارُها ، ويهتاجُ تذكارُها .

قالَتِ ٱمرأَةٌ مِن بني عقيلٍ - تزوَّجَتْ في بني كلابٍ [مِنَ الطَّويلِ] - :

خَلِيْلَيَّ قَدْ هَاجَتْ عَلَيَّ صَبَابَةً ... قَلُوْصُ ٱلْعِبَادِيِّيْنَ لَيْلَةَ حَنَّتِ

---

(١) يغربُ السهمُ : يأْتي مِن حيثُ لا يدري ، وهوَ مِن قولِهم : سهمٌ غربٌ .

بَرَزْتُ لَهَا وَاللَّيْلُ مُلْقٍ رُوَاقَهُ   فَجَاوَبْتُهَا حَتَّىٰ مَلَلْتُ وَمَلَّتِ

وتزوَّجَتْ أُخرىٰ ، فنقَلوها عَن أَهلِها علىٰ بَكرٍ[1] ، فجعلَتْ تَبكي علىٰ أُلاَّفها ، وَيَحِنُّ البَكرُ إلىٰ عطنِهِ[2] ، فقالَتْ [في « معجم البلدان » ١/ ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا الْبَكْرُ الأَبَانِيُّ إِنَّنِي   وَإِيَّاكَ فِي كَلْبٍ لَمُغْتَرِبَانِ
تَحِنُّ وَأَبْكِي إِنَّ ذَا لَبَلِيَّةٌ   وَإِنَّا عَلَىٰ الْبَلْوَىٰ لَمُصْطَحِبَانِ
وَإِنَّ زَمَاناً أَيُّهَا الْبَكْرُ ضَمَّنِي   وَإِيَّاكَ فِي وَادٍ لَشَرُّ زَمَانِ

وقالَ آخرُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٣٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَنَّتْ قَلُوصِي آخِرَ اللَّيْلِ حَنَّةً   فَيَا رَوْعَةً مَا رَاعَ قَلْبِيْ حَنِيْنُهَا
تَحِنُّ إِلَىٰ أَهْلِ الْحِجَازِ صَبَابَةً   وَقَدْ بِتُّ مِنْ أَهْلِ الْحِجَازِ قَرِيْنُهَا

ويحكىٰ [بنحوها في « معجم البلدان » ١/ ١٣٥] : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (المدينَةِ) ، استدعىٰ أَعرابياً مِن أُولي ودِّهِ ؛ لِيكتبَ لَهُ في الديوانِ ما يكفيهِ عَن انتجاعِ البوادي ، فتحمَّلَ بأَهلِهِ ومالِهِ ، حتَّىٰ إذا كانَ علىٰ مَقْرُبَةٍ مِن (المدينَةِ) . . سقىٰ إِبلَهُ ، ولمَّا ضُرِبَتْ بالعطَنِ . . انفلَتَتْ واحدةٌ منهُنَّ ، وحنَّتْ إلىٰ وطنِها ، فنفرَتِ البَواقي ، وأَمعنَتْ في آثارِها ، فاهتاجَتِ امرأَتُهُ ـ وكانتْ مِن غطَفانَ ـ وقالَتْ : أَتكونُ الإِبلُ أَعقلَ مِنَّا وأَرقَّ عواطِفَ ؟! واللهِ لا تبعثُكَ إِلىٰ (المدينةِ) ، وقالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا حَنَّتِ الشَّقْرَاءُ هَاجَتْ لِيَ الْهَوَىٰ   وَذَكَّرَنِي أَهْلَ الأَرَاكِ حَنِيْنُهَا

---

(١) البَكرُ من الإبلِ : ما لم يُبْزِل بعدُ .
(٢) العطنُ للإبلِ : كالوطنِ للناسِ .

ولا مؤاخذةَ إن كانَتِ القصَّةُ بغيرِ هـٰذا اللونِ .

وقالَ المعريُّ يصفُ إبلَهُ [في «سقط الزند» ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَلَوْنَ زَبُوراً فِيْ ٱلْحَنِيْنِ مُنَزَّلاً عَلَيْهِنَّ فِيْهِ ٱلصَّبْرُ غَيْرُ حَلاَلِ
وَأَنْشَدْنَ مِنْ شِعْرِ ٱلْمَطَايَا قَصِيْدَةً وَأَوْدَعْنَهَا فِيْ ٱلشَّوْقِ كُلَّ مَقَالِ

وإنَّما كثُرَ حنينُ العربِ لشَيمِ البروقِ ، ولِبكاءِ الحمائِمِ ، وحنينِ الإبلِ ؛ لكثرةِ ما يمارسونَ مِن ذلكَ ، وإلاَّ . . فإنَّهم برقَّةِ طباعهِمْ لاَ يَنسونَ أَحبَابَهم ، وكثيراً ما يهتاجُ لَهمُ الجوىٰ لأدنىٰ حادثٍ ، ممَّا سوىٰ تلكَ :

قد يهيِّج شوقَ العربي غيرُ الذي ذكر

كهبوبِ الرياحِ : ومرَّ ذرْوٌ منهُ أثناءَ الكلامِ ، وقالَ عبدُ اللهِ بنُ أُميَّةَ [في «ديوان الحماسة» ٢/١١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا هَبَّ عُلْوِيُّ ٱلرِّيَاحِ وَجَدْتُنِيْ كَـأَنِّـيْ لِعُلْـوِيِّ ٱلـرِّيَـاحِ نَسِيْـبُ

وكظهورِ النارِ : قالَ بعضُهُم [في «الأغاني» ١٥/١٢٧ مِنَ البسيطِ] :

يَا مُوْقِدَ ٱلنَّارِ أَوْقِدْهَا فَإِنَّ بِهَا سَناً يُهِيْجُ فُؤَادَ ٱلْعَاشِقِ ٱلسَّدِمِ(١)

وقالَ ٱبنُ الخطَّابِ لمتمِّمِ بنِ نويرَةَ [في «وفيات الأعيان» ٦/١٩] : ما بلغَ مِن حزنِكَ علىٰ أخيكَ ؟ قالَ : لقد مكثْتُ سنةً لا أنامُ بليلٍ حتَّىٰ أصبحَ ، ولا رأيتُ ناراً بليلٍ . . إلاَّ ظَننْتُ نفْسي تخرجُ ، أذكرُ بِها نارَ أَخي لِلضِّيفانِ .

وكٱختلاجِ الرِّجْلِ أَوِ العينِ : قالَ ٱبنُ أبي ربيعةَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَذِلَتْ رِجْلِيْ دَعَوْتُكَ أَشْتَفِيْ بِذِكْرَاكَ مِنْ مَذْلٍ بِهَا فَيَهُوْنُ(٢)

---

(١) السدَمُ : الندمُ ، السادم : النادمُ .
(٢) مَذِلَتْ : لم تستقرَّ في مكانِها .

وقالَ العبَّاسُ بنُ الأَحنفِ [مِنَ البسيطِ] :

ظَلَّتْ تُبَشِّرُنِي عَيْنِيْ إِذِ ٱخْتَلَجَتْ ... بِأَنْ أَرَاكَ وَمَا زَالَتْ عَلَىٰ خَطَرِ

فَقُلْتُ لِلْعَيْنِ : إِمَّا كُنْتِ صَادِقَةً ... إِنِّيْ بِبُشْرَاكِ لِيْ مِنْ أَسْعَدِ ٱلْبَشَرِ

فَمَا جَزَاؤُكِ عِنْدِيْ لَسْتُ أَعْرِفُهُ ... بَلَىٰ جَزَاؤُكِ أَنْ تَخْلَيْنَ بِٱلنَّظَرِ

وَأَحْجُبُ ٱلْمُقْلَةَ ٱلأُخْرَىٰ وَأَمْنَعُهَا ... وَجْهَ ٱلْحَبِيْبِ كَمَا لَمْ تَأْتِ بِٱلْخَبَرِ

ومنهُ قولي مِن قصيدةٍ نبويَّةٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا لِيَ إِلاَّ حُبُّهُ مِنْ وَسِيلَةٍ ... أُصَلِّيْ عَلَيْهِ كُلَّمَا ٱلْعَيْنُ تَخْلَجُ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَذَلْتُ أَهْلَ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ ذُقْتُهُ	فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ

كيف يكون الموت بلا عشق؟!

يُعظِّمُ أَمرَ العشقِ ، ويقولُ : كيفَ يكونُ الموتُ مِن غيرِ عشقٍ ؟ إذ لا ينبَغي أَن يموتَ مَن لَم يعشَقْ ؛ لأَنَّهُ لَم يُقاسِ ما يوجبُ ٱلموتَ مِن المشاقِّ ، وأَلمِ الفراقِ ، وإِنَّما يعالجُ ذلكَ العاشِقُ ، فتسرعُ إِليهِ بالهلاكِ ، فهوَ قريبٌ من قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ	لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلَىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

العشق من طبائع النفوس الكريمة

والعشقُ مِن طبائعِ النفوسِ ، لا يخْلو عَنها شيءٌ مِن المواليدِ الثلاثَةِ ، فضلاً عَن الإِنسانِ ، الذي هُوَ سرُّها ومتخيَّرُها ، غيرَ أَنَّهُ لا يُورىٰ فيهِ زندُهُ ، إِلاَّ عندَ كرمِ النحيزَةِ[1] ، وصفاءِ السريرَةِ ، ورقَّةِ الطبْعِ ، وسلامَةِ الخاطِرِ ؛ ولهـٰذا سُئِلَ أَحدُ بني عُذرَةَ ـ كما سلفَتِ الإِشارَةُ إِلىٰ مثلِهِ ـ عَن تبيُّغِ العشقِ بهِم[2] ؟ فقالَ [بنحوه في « مصارع العشاق » ٢/ ١٨٦] : إِنَّ لَنا أَخلاقاً شريفةً ، وأَنفساً عفيفةً .

وإِذا كانَ العشْقُ يهذِّبُ الطباعَ ، ويشجِّعُ الجبانَ ، ويطلِقُ يدَ البخيلِ . . فأَحرىٰ أَنْ لا تكونَ نشأَتُهُ إِلاَّ عمَّا يناسِبُهُ مِن شرائِفِ تلكَ الطباعِ .

---

(١) النَّحِيزَةُ : الأَصلُ والطبيعَةُ .

(٢) تبيَّغَ : اشتدَّ علىٰ الإنسانِ ولم يقدرْ دفعَهُ ، والمقصود هنا : الفتكُ .

وقد قالَ ٱبنُ أَبي مليكَةَ [في « الأغاني » ١/١٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَعْرِفِ ٱلْهَوَىٰ   فَكُنْ حَجَراً مِنْ يَابِسِ ٱلصَّخْرِ جَلْمَدَا

وقالَ ٱبنُ أَبي رزينٍ [في « الأغاني » ١٩/١٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا أَنْتَ لَمْ تَعْشَقْ وَلَمْ تَتْبَعِ ٱلْهَوَىٰ   فَكُنْ صَخْرَةً بِٱلْحِجْرِ مِنْ حَجَرٍ أَصَمّ

والثاني عينُ الأَوَّلِ في المعنىٰ ، وأَكثرِ اللفظِ ، وما أَدري أَيُّهما الأَوَّلَ ؟ ومازالتِ الخواطِرُ تتوارَدُ ، والشعراءُ تتناهَبُ ، والأُدباءُ تتخالَسُ ، والقضاءُ لِلسَّابِقِ ، وهوَ ٱبنُ أَبي مليكَةَ فيما أَظُنُّ .

المحب يرى بعين غير عيون الناس

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إِلىٰ قولِهِ في الأُخرىٰ [في « العُكبَريِّ » ١/٦ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَعْذُلِ ٱلْمُشْتَاقَ فِيْ أَشْوَاقِهِ   حَتَّىٰ تَكُوْنَ حَشَاكَ فِيْ أَحْشَائِهِ

وهُوَ قريبٌ من قولِ عزَّةَ : وقد قالَ لَها عبدُ الملِكِ بنُ مروانَ بعدَ ما خلا مِنهاالشبَابُ [كما في « المستطرف » ٢/٣٥٠] : أَنْتِ التي أَنفقَ فيكِ شعرَهُ وعمرَهُ كثيِّرٌ ؟! قالَتْ لَهُ : إِنَّهُ كانَ يَراني بعينينِ ليستَا في رأْسِكَ ، وصدقَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ في قولِهِ :

حَسَـنٌ فِـيْ كُـلِّ عَيْـنٍ مَـنْ تَـوَدّْ

وأَخرجَ ٱبنُ عساكرَ وغيرُهُ : أَنَّ جميلاً قدِمَ (مصرَ) علىٰ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ يمدحُهُ ، فرآهُ رجلٌ ، فقالَ : ما رأَيتَ في بُثينَةَ حتَّىٰ تتيمتَ بِها ؟ فواللهِ لقدْ رأَيتُها ولو ذُبِحَ بعرقوبِها طائِرٌ لانْذَبَحَ ، فقالَ لهُ جميلٌ : إِنَّكَ لم ترَها بِعَينيَّ ، ولو نظرتَ إِليها بعَينيَّ . . لأَحبَبْتَ أَنْ لا تلقىٰ اللهَ تعالىٰ إِلاَّ وأَنتَ زانٍ .

ثمَّ إِنَّهُ مرضَ ، فدخلَ عليهِ العبَّاسُ بنُ سهلٍ الساعديُّ ، فذكرَ لَهُ

[كما في « روضة المحبين » ٢٩٩] من عفَّةِ نفسهِ ما ٱقتصَصْناهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٢ مِنَ البسيطِ] :

أَحْيَا وَأَيْسَرُ مَا قَاسَيْتُ مَا قَتَلاَ   وَٱلْبَيْنُ جَارَ عَلَىٰ ضَعْفِيْ وَمَا عَدَلاَ

ويشبهُ قولَ عزَّةَ وجميلٍ ، ما ذكرَهُ المبرِّدُ : أَنَّ يزيدَ ٱبنَ أَبي مسلمٍ ، وزيرَ الحجَّاجِ ـ وكانَ دميماً ـ دخلَ علىٰ سليمانَ بنِ عبدِ الملِكِ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : قبَّحَ اللهُ رجلاً أَجرَّكَ رَسَنَهُ ، وأَشركَكَ في أَمانتِهِ ، فقالَ : لا تقُلْ هـٰذا ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : لأَنَّكَ رأَيتَني والأَمرُ عنِّي مدبرٌ ، وَلو رأَيتَني وهُوَ مقبِلٌ . . لاستحسَنْتَ منِّي ما ٱستقبحتَ ، وٱستعظمْتَ ما ٱستصغَرْتَ ، فقالَ لَهُ سليمانُ : ويحَكَ ، أَوَقَدِ ٱستقرَّ الحجَّاجُ في قعرِ جهنَّمَ ، أَم لا ؟ قالَ : لا تقلْ ذلكَ ؛ فإِنَّ الحجَّاجَ وطَّأَ لكمُ المنابِرَ ، وأَذلَّ لكمُ الجبابِرَةَ ، وإِنَّهُ يأْتي يومَ القيامَةِ عَن يمينِ أَبيكَ ، ويسارِ أَخيكَ ، فحيثُما كانَا . . كانَ .

ولا يبعدُ عنهُ أَيضاً ما ذكرَ بعضُهم : أَنَّ رجلاً نشدَ طفلاً كالدينارِ[1] ، فقالَ لَهُ الناسُ : ما رأَيناهُ ، ثمَّ أَقبلَ بعدَ زمانٍ يحملُهُ ، ومرَّ علىٰ مَنْ نشدَهم ، فقالوا : ما هـٰذا مِنكَ ؟ قالَ : ٱبني الذي كنتُ أَنشدُهُ ، فقالوا لَهُ : لَم نزلْ مُذِ اليومَ نراهُ جائِياً رائِحاً ، ولو قلتَ كالجُعَلِ[2] . . لدَلَلْناكَ عليهِ مِن أَوَّلِ وهلَةٍ ، ولـٰكنَّكَ لمَّا قلتَ كالدينارِ . . ذهبَ وَهْمُنا إِلىٰ أَنَّ المنشودَ سواهُ ، فقالَ لَهم : رأَيتموهُ بعينٍ ، ورأَيتُهُ أَنا بأُخرىٰ .

---

(١) طفلٌ كالدينار : أي وجههُ مشرقٌ متلأْلِئٌ .

(٢) الجُعَلُ : دابَّةٌ من هوامِّ الأَرضِ .

ولقد أنصفَ كثيِّرٌ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٤٤٢ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ يَسْمَعُوْنَ كَمَا سَمِعْتُ كَلاَمَهَا   خَرُّوَا لِعَزَّةَ رُكَّعاً وَسُجُوْدَا

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ [مِنَ المُجتَثِّ] :

وَلاَئِمٍ لاَمَ فِيْهِ   يَبْغِيْ بِذَلِكَ شَيْنِيْ
فَقُلْتُ إِذْ صَدَّ عَنْهُ   هَلاَّ نَظَرْتَ بِعَيْنِيْ

إذا رأيت عاشقاً . . فارحمه

ولنعدْ لذكرِ ما يناسِبُ البيتَ ، فمنْهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦١٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَأْمُرُنِيْ بِالصَّبْرِ مَنْ لَيْسَ وَجْدُهُ   كَوَجْدِيْ وَلاَ إِعْلاَنُهُ حَالِيْ كَحَالِهِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ لاَ تَعْذُلَ الدَّهْرَ عَاشِقاً   عَلَىْ كَمَدٍ مِنْ لَوْعَةِ الْبَيْنِ فَاعْشَقِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

بِوِدِّيَ لَوْ يَهْوَىْ الْعَذُوْلُ وَيَعْشَقُ   لِيَعْلَمَ أَسْبَابَ الْهَوَىْ كَيْفَ تَعْلَقُ

وقالَ البُرَعيُّ [مِنَ البسيطِ] :

عَذَلْتَهُ حِيْنَ لَمْ تَنْظُرْ بِنَاظِرِهِ   وَلاَ عَلِمْتَ الَّذِيْ فِيْ الْحُبِّ يَعْلَمُهُ

وأَصلُ المعنىٰ : أَنَّهُ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم مرَّ بامرأَةٍ تبكي علىٰ قبرٍ ، فقالَ : « اَصْبِرِيْ وَاحْتَسِبِيْ » ، فقالَتْ لَهُ : إِليكَ عنِّي ، فإِنَّكَ لم تصَب بمُصيبَتي ، فسارَ عَنها ، فقالَ لَها رجلٌ مرَّ بها بعدَهُ : ما قالَ لكِ رسولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّم ؟ قالَتْ : أَوَذاكَ رسولُ اللهِ ؟ وأَخذَها المقيمُ المقعِدُ مِن ردِّها عليهِ ، وانطلقَتْ إِليهِ لتعتذِرَ ، قالَتْ : فلَم أَجد بوَّاباً ولاَ حَجَّاباً ، فقالَ لَها : « إِنَّمَا الصَّبْرُ

عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَىٰ »[1] . وموضعُ المناسبةِ قولُها : إِنَّكَ لَم تُصَبْ بمُصيبَتي .

المتنبي يعترف على نفسه بالجمود

ثمَّ إنَّا نرىٰ الناظِمَ يعترفُ علىٰ نفسِهِ تارةً بالجمودِ فيقولُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٤٠ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ يَتْرُكِ ٱلدَّهْرُ مِنْ قَلْبِيْ وَلاَ كَبِدِيْ ... شَيْئاً تُتَيِّمُهُ عَيْنٌ وَلاَ جِيْدُ
أَصَخْرَةٌ أَنَا ؟ مَالِيْ لاَ تُحَرِّكُنِيْ ... هَـٰذِيْ ٱلْمُدَامُ وَلاَ هَـٰذِيْ ٱلأَغَارِيْدُ ؟

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

عَدِمْتُ فُؤَاداً لَمْ تَبِتْ فِيْهِ فَضْلَةٌ ... لِغَيْرِ ٱلثَّنَايَا ٱلغُرِّ وَٱلْحِدَقِ ٱلنُّجلِ[2]

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٩٢-١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِلْخَوْدِ مِنِّيْ سَاعَةٌ ثُمَّ بَيْنَنَا ... فَلاَةٌ إِلَىٰ غَيْرِ ٱللِّقَاءِ تُجَابُ[3]
وَمَا ٱلْعِشْقُ إِلاَّ غِرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ ... يُعَرِّضُ قَلْبٌ نَفْسَهُ فَتُصَابُ
وَغَيْرُ فُؤَادِيْ لِلْغَوَانِيْ رَمِيَّةٌ ... وَغَيْرُ بَنَانِيْ لِلزُّجَاجِ رِكَابُ[4]
تَرَكْنَا لأَطْرَافِ ٱلْقَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ ... فَلَيْسَ لَنَا إِلاَّ بِهِنَّ لِعَابُ[5]

---

(١) أخرجه عن أنس بن مالك رضي الله عنه البخاري (١٢٨٣) في (الجنائز) .
(٢) الغُرُّ : البيضُ . النجلُ : الواسعةُ .
(٣) الخودُ : الجاريةُ الناعمةُ . الفلاةُ : الأرضُ المنقطةُ البعيدةُ عنِ الماءِ . تُجابُ : تُقطعُ .
(٤) الغواني ـ جمع غانيةٍ ـ : وهيَ التي استغنت بجمالها عن الحلي . رميَّةٌ : طريدةٌ .
(٥) اللعابُ : من اللعبِ .

هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب

وأينَ هـٰذا مِن قولِ أَخي عبْسٍ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَٱلرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ ... مِنِّي وَبِيضُ ٱلْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ ٱلسُّيُوفِ لأَنَّهَا ... لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ ٱلْمُتَبَسِّمِ

وقولِ الآخرِ [في « البيان والتبيين » ١/٥٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِجْناً وَقَيْداً وَٱشْتِيَاقاً وَغُرْبَةً ... وَنَأْيَ حَبِيبٍ إِنَّ ذَا لَعَظِيمُ
وَإِنَّ ٱمْرَأً دَامَتْ مَوَاثِيقُ عَهْدِهِ ... عَلَىٰ مِثْلِ مَا قَاسَيْتُهُ لَكَرِيمُ

وقولِ بعضِ الصوفيَّةِ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ ـ وَٱلَّذِيْ أَنَا عَبْدُهُ ـ ... وَٱلسَّيْفُ عِنْدَ ذُؤَابَتِيْ مَسْلُوْلُ

وقولِ الآخرِ [وهو صفيُّ الدين الحليُّ في « ديوانه » ٤٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَكَرتُكِ وَٱلْخَطِّيُّ يَخْطُرُ بَيْنَنَا ... وَقَدْ نَهِلَتْ مِنِّيْ ٱلْمُثَقَّفَةُ ٱلسُّمْرُ
فَوَٱللهِ مَا أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لَصَادِقٌ ... بِنَا فَتَكَتْ تِلْكَ ٱلرِّمَاحُ أَمِ ٱلسِّحْرُ

وقالَ الشريفُ البياضيُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَد ذَكَرْتُكِ فِيْ ٱلسَّفِيْنَةِ وَٱلرَّدَىٰ ... مُتَوَقِّعٌ بِتَلَاطُمِ ٱلأَمْوَاجِ
وَٱلْجَرُّ يَهْطُلُ وَٱلرِّيَاحُ عَوَاصِفٌ ... وَٱللَّيْلُ مُسْوَدُّ ٱلذَّوَائِبِ دَاجِيْ[1]
وَعَلَتْ لأَصْحَابِ ٱلسَّفِيْنَةِ ضَجَّةٌ ... وَأَنَا وَذِكْرُكِ فِيْ أَلَذِّ تَنَاجِيْ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَٱلسُّيُوفُ لَوَامِعٌ ... وَٱلْمَوْتُ يُرْقِبُ تَحْتَ حِصْنِ ٱلْمُرْقَبِ
وَٱلْمَوْتُ يَلْمَعُ بِٱلنُّفُوسِ وَخَاطِرِيْ ... يَلْهُو بِطَيِّبِ ذِكْرِكِ ٱلْمُسْتَعْذَبِ

---

(١) الجرُّ : السيل ، وهو هنا مجاز عن شدَّةِ المطرِ .

وقولُ الصفيِّ الحلِّيِّ [في « ديوانه » ٣٤٤ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَـدْ ذَكَـرْتُـكِ وَٱلْعَجَـاجَ كَـأَنَّـهُ   مَطْلُ ٱلْغَنِيِّ وَسُوْءُ عَيْشِ ٱلْمُعْسِرِ[1]

فَظَنَنْتُ أَنِّيْ فِيْ صَبَاحٍ مُسْفِرٍ   بِضِيَاءِ وَجْهِكِ أَوْ مَسَاءٍ مُقْمِرِ

وَتَعَطَّرَتْ أَرْضُ ٱلْكِفَاحِ كَأَنَّمَا   فُتِقَتْ لَنَا أَرْضُ ٱلْجِلَادِ بِعَنْبَرِ

ومرَّ ما يناسبُهُ عن الطغرائيِّ ، في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَـٰـذِهِ مُهْجَتِـي لَـدَيْـكِ لِحَيْنِـيْ   فَٱنْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ[2]

المتنبي صاحب أحوال متقلبة

ويقولُ الناظمُ أيضاً فيما نحنُ فيهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

بِقَلْبِيْ - وَإِنْ لَمْ أَرْوَ مِنْهَا - مَلَالَةٌ   وَبِيْ عَنْ غَوَانِيْهَا وَإِنْ وَصَلَتْ صَدُّ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَطَعْتُ ٱلْغَوَانِيْ قَبْلَ مَطْمَحِ نَاظِرِيْ   إِلَىٰ مَنْظَرٍ يَصْغُرْنَ عَنْهُ وَيَعْظُمُ[3]

وما ذلكَ المنظرُ الذي يطمَحُ إليهِ ناظرُهُ ، غيرَ المالِ ، الذي شُغِفَ بذكرِهِ ، وغطَّىٰ هواهُ علىٰ بصرِهِ ، وأطالَ قيامَهُ وسعيَهُ مِن أجلِهِ ، كما قالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٢٠ مِنَ الخفيفِ] :

ضَاقَ صَدْرِيْ وَطَالَ فِيْ طَلَبِ ٱلرِّزْ   قِ قِيَـامِـيْ وَقَـلَّ عَنْـهُ قُعُـوْدِيْ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٢٤ مِنَ الكاملِ] :

أَظْمَتْنِـيَ ٱلـدُّنْيَـا فَلَمَّـا جِئْتُهَـا   مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبَا

---

(١) العجاجُ : الغبارُ . والمرادُ : أرضُ المعركةِ .

(٢) الحَينُ : الهلاكُ والموت .

(٣) طمحَ : إذا أبعدَ النظر ببصرِهِ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٢٠ مِنَ البسيطِ] :

فَجِئْتُ نَحْوَكَ لاَ أَلْوِي عَلَىٰ أَحَدٍ ... أَحُثُّ رَاحِلَتَيَّ ٱلْفَقْرَ وَٱلأَدَبَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا لِيْ وَلِلدُّنْيَا طِلاَبِيْ نُجُوْمُهَا ... وَمَسْعَايَ مِنْهَا فِيْ شُدُوْقِ ٱلأَرَاقِمِ[1]

فأَينَ ذلكَ المنظرُ الذي عظَّمَ مِن شأْنِهِ ، وقصَّرَ بمجامعِ أَهواءِ القلوبِ من أَجلِهِ ، من قولِ لسانِ الدينِ ٱبنِ الخطيبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ

سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ ٱللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

أَمَا لقد أَخطأَ الناظِمُ من جهاتٍ ، نعدُّ مِنها ولا نعدِّدُها :

مِنها : تشبيهُهُ نفسَهُ بالحَجَرِ ، كماسمعْتَ مِن بعضِ أَبياتِهِ التي سُقْناها ، بجامعِ البراءَةِ مِنَ العشقِ في زعمِهِ ، وذلكَ عينُ الغلَطِ ؛ لأَنَّ لسائِرِ المنطَرقاتِ أَحجاراً ، تجذبُها إِليها المشاكلَةُ بينَهما في بعضِ الأَجزاءِ ، وإِنَّما ٱشتَهر المغناطيسُ والحديدُ ؛ لأَنَّهُ في الحجَرِ كعروةَ بنِ حزامٍ في البشَرِ .

ومِنها : توهُّمُهُ براءَةَ قلبِهِ مِنَ العِشقِ ، وهُوَ غلطٌ أَيضاً ؛ إِذ لا يتصوَّرُ خُلوُّ قلبٍ أَبداً مِن الهوىٰ ، وإِنَّما ٱنصرَفَ هواهُ إِلىٰ ما لا طائِلَ تحتَهُ ، ولا خيرَ فيهِ ، وهوَ مجرَّدُ المالِ ، كما قرَّرْنا ، فهوَ إِذَنْ مِنَ العُشَّاقِ ، الذينَ أَكثرَ في مذمَّتِهم ، وبالغَ في نعيِ حالتِهم ، بمثلِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٣٤ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) الأَراقمُ : نوعٌ من الحيَّاتِ .

مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ ٱلْعِشْقِ أَنَّهُمُ هَوَوْا وَمَا عَرَفُوْا ٱلدُّنْيَا وَلاَ فَطِنُوْا
تَفْنَىٰ عُيُوْنُهُمُ دَمْعاً وَأَنْفُسُهُمْ فِيْ إِثْرِ كُلِّ قَبِيْحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ

بل لقد أَقرَّ بأَنَّ الشغفَ بالمالِ ٱرتفعَ بهِ عَن حدِّ العشقِ إِلىٰ حدِّ الهَيَمانِ ، كما سبقَ في قولِهِ [في « العُكبريّ » ١/١٢٤] : أَظْمَتْنِي ٱلدُّنْيَا . . . إِلىٰ آخِرِهِ .

وقد قالَ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « تَعِسَ عَبْدُ ٱلدِّيْنَارِ ، تَعِسَ عَبْدُ ٱلْخَمِيْصَةِ ، تَعِسَ وَٱنْتَكَسَ ، وَإِذا شِيْكَ . . فَلاَ ٱنْتَقَشَ »[(١)] .

فأَخشىٰ أَنْ يكونَ شرُّ هٰذهِ الدعوةِ ممَّا أَصابَ الناظِمَ ، أَو أَلَمَّ بهِ ، نسأَلُ اللهَ العافيةَ والسلامَةَ .

وما أَحسنَ قولَ يحيىٰ بنِ معاذٍ الرازيِّ : حبُّ الدينارِ رأْسُ كلِّ خطيئَةٍ! ؛ فلَقد جمعَ علماً كثيراً ، وأَدباً غزيراً ، حتَّىٰ لَقد قالَ بعضُ علماءِ (اليمَنِ) : أَحسَسْتُ بمرضٍ مِن نَفسي ، فحرصْتُ علىٰ علاجِهِ ، وأَيقنْتُ أَن لا يمكنَ ذلكَ إِلاَّ بعدَ تشريحِهِ ، فلَم أَزَلْ أُفَتِّشُ عَن أُصولِهِ ، حتَّىٰ وجدْتُها في كلمةِ يحيىٰ ، ثمَّ لَم أَنفكَّ في البحثِ عَنِ الدَّواءِ ، حتَّىٰ وجدتُهُ في قولِهِ صلَّىٰ اللهُ عليهِ وآلهِ وسلَّمَ : « أَكْثِرُوْا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ ٱللَّذَاتِ . . . »[(٢)] الحديثُ .

وبعدُ : فالناظِمُ يناقِضُ نفسَهُ ذاتَ المرَّاتِ ، فيما ٱدَّعاهُ آنفاً مِنَ

---

(١) سلف أنه أخرجه البخاري وابن ماجه .

(٢) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه الترمذي (٢٣٠٧) ، وابن ماجه (٤٢٥٨) في الزهد ، والنسائي في « الكبرى » (١/ ٦٠٠) ، وفي « المجتبى » (٤/٤) وابن حبان في « الإحسان » (٢٩٩٢) في الجنائز بإسناد حسن ، وله شواهد .

الجمودِ والتنصُّلِ مِنَ الهوىٰ ، فيقولُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمَمْنُوْعُ ٱلْمَقَاتِلِ فِيْ ٱلْوَغَىٰ   وَإِنْ كُنْتُ مَبْذُوْلَ ٱلْمَقَاتِلِ فِيْ ٱلْحُبِّ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا إِلاَّ عَاشِقٌ ، كُلُّ عَاشِقٍ   أَعَـقُّ خَلِيْلَيْـهِ ٱلصَّفِيَّيْـنِ لاَئِمُـهْ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٩٣ مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تَلُمْنِـيْ فَـإِنَّنِـيْ أَعْشَـقُ ٱلْعُـ   ـشَّاقِ فِيْهَـا يَـا أَعْـذَلَ ٱلْعُـذَّالِ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٢٣٤ مِنَ الكاملِ] :

حِدَقُ ٱلْحِسَانِ مِنَ ٱلْغَوَانِيْ هِجْنَ لِيْ   يَـوْمَ ٱلْفِـرَاقِ صَبَـابَـةً وَغَلِيْـلاَ[1]

فيما لا يحصىٰ مِن تلكَ المُثُلِ في « ديوانِهِ » ، غيرَ أَنَّهُ يَظهَرُ عليهِ أَثرُ التكلُّفِ في هٰذا ، بخلافِهِ فِي الأَوَّلِ ، مصداقُ ما قيلَ في ترجمتهِ : إِنَّهُ عِزْهَاةٌ[2] .

ونراهُ طوراً يصفُ نفسَهُ بالقسوةِ ؛ للإغراقِ في وصفِ الحبيبةِ بالحسنِ ، وهوَ بينَ بينَ ، كما في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كُنْتُ مِمَّنْ يَدْخُلُ ٱلْعِشْقُ قَلْبَهُ   وَلَـٰكِنَّ مَنْ يُبْصِرْ جُفُوْنَكِ يَعْشَقِ

وأَلَمَّ في هٰذا بقولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ كَـانَ لاَ يَصْبُـوْ وَلَـٰكِـنَّ عَيْنَـهُ   رَأَتْ مَنْظَراً يُضْنِيْ ٱلْقُلُوْبَ فِرَاقُهَا

---

(١) الصبابةُ : رقَّةُ الشوقِ . الغليلُ والغُلَّةُ : حرارة العطشِ . وفي المخطوط : وعويلا .

(٢) العزهاةُ : هوَ الرجُلُ الذي لا يكلِّم النساءَ ولا يريدُهُنَّ ولا يلهو .

لا تنافر بين الشجاعة والمحبة

وهاهنا بحثٌ ؛ إذ توهَّم بعضُ مَن لا رويَّةَ عندَهُ التنافرَ بينَ الشجاعةِ والمحبَّةِ ، والحالُ أَنَّ المحبَّةَ ليسَتْ إلاَّ مِن أَوثَقِ أَسبابِ الشجاعَةِ ، ومازالَتِ الرُّؤَساءُ تطالِبُ أَبناءَها بعشْقِ سروات البيوتِ[1] ؛ لأَنَّـهُ وسيلـةُ الانتِباهِ مِـنَ الخمـولِ ، والارتِفـاعِ عَـنِ النزولِ ، كما في حديثِ ذي الرئاستَينِ[2] المشهورِ ، وغيرِهِ .

وقد سبقَ قولُ الأَحوصِ أَو غيرِهِ [مِنَ الكاملِ] :

اَلْحُبُّ شَجَّعَ قَلْبَ كُلِّ فَرُوْقَةٍ   وَاَلْحُبُّ حَمَّلَ عَاجِزاً فَأَطَاقَا

الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان

ويُروىٰ : أَنَّ توبةَ بنَ حُمَيِّرٍ مرَّ بجميلٍ ، فأَنزلَهُ وأَحسنَ خدمتَهُ ، وأَسبغَ قِراهُ ، ثمَّ تداعَيا الصِّراعَ ، وكانا في موقفٍ تُشْرِفُ منهُ عَلَيهما بُثَينَةُ ، فما كانَ مِن جميلٍ ، إلاَّ أَنْ صَرعَ توبَةَ علىٰ شدَّةِ أَسرهِ ، ثمَّ نضلَهُ[3] ، ثمَّ قهرَهُ علىٰ ظهرِ الفرَسِ ، ولَم يكُنْ جميلٌ كُفُؤاً لتوبَةَ شجاعةً وشدَّةَ بأْسٍ ، فقالَ لَهُ توبةُ : كأَنَّكَ تحسبُ ذلكَ منكَ ، ولَم تدرِ أَنَّهُ بريحِ تلكَ المشرفَةِ عَلَينا ، وأَشارَ إِلىٰ بُثَينَةَ ، ثمَّ دعاهُ إِلىٰ وادٍ يخفىٰ عَنها ، وتصارَعا فيهِ ، فصرَعَهُ توبةُ مِراراً ، ولم يكُنْ شيئاً

---

(١) سَرَواتُ البيوتِ : اللاتي يسكُنَّ البيوتَ ولا يَخرُجنَ إِلىٰ الطَّريقِ .

(٢) ذو الرياستين : هو محمد بن محمد بن محمد بن بنان ، أبو الفضل الأنباري المصري الفاضل الأثير الكاتب . ولد بالقاهرة سنة : (٥٠٧ هـ) . قدم بغداد رسولاً من صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين فحدث بالسيرة عن والده عن الحبال ، وبعد أن توجه إلى اليمن فوزر بها ، ثم إلى بغداد وترسل فعظم وبجل ، ثم صار إلى مصر وكان ضنك شديد بها ، وتوفي فيها سنة : (٥٩٦ هـ) .

(٣) نضلهُ : غلبهُ في رمي السهامِ .

عندَهُ ، ثمَّ مضىٰ ، وقالَ هُوَ ، أَو غيرُهُ [في « ديوان » المجنون ٢٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إذا مَا ٱنْتَضَلْنَا فِيْ ٱلْخَلاَءِ نَضَلْتُهُ   وَإِنْ يَرْمِ رَشْقاً عِنْدَهَا فَهُوَ نَاضِلِيْ

ولَولا الهوىٰ.. لَما جَادَتِ ٱلبِخَالُ بالأُلوفِ ، ولا تكرَّمَتِ الأَبطالُ بالنحورِ للسيوفِ ، ولٰكنَّهم يقتحمونَ المهالِكَ ، وينغمسونَ في المعارِكِ ؛ لتُحمدَ شمائِلُهُم عندَ ربَّاتِ الحِجالِ ، وتتغنَّىٰ بأَماديحِهم أُولاتُ الغَنَجِ والدلالِ ، قالَ الأَحوصُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَرْتَاحُ لِلْمَعْرُوْفِ فِيْ طَلَبِ ٱلْعُلاَ   لِتُحْمَدَ يَوْماً عِنْدَ لَيْلَىٰ شَمَائِلُهْ

ثمَّ ٱنظرْ إِلىٰ نساءِ العربِ ، كيفَ تتدفَّقُ علىٰ المآزِقِ ، وتترنَّمُ بأَهازيجِها في أَشدِّ المضائِقِ ، فتَسُنُّ الفاتِرَ[1] ، وتردُّ الشارِدَ ، وتهيِّجُ البطلَ المُشيحَ ، وتثيرُ الحفائِظَ ، وتغنِّيْ ما لا تغنِّيهِ الموسيقا الحربيَّةُ اليومَ .

وما ذُكرَ عَن بعضِ القرشيِّيْنَ مِن توهينِ أَمرِ العشقِ . . فإِنَّما يَعني بهِ ما ينتهي إِلىٰ الخبَلِ ، ويُفضي إِلىٰ الجنونِ ، وإِلاَّ . . فَهُم رؤُوسُ هٰذا الشأْنِ ، وقد مرَّ ويأْتي في تضاعيفِ الكلامِ ما يدلُّ عليهِ .

أحوال سيد الوجود ﷺ مع النساء

وحسبُكَ بسيِّدِ أَهلِ السماءِ والأَرضِ ، والشافعِ والمشفَّعِ يومَ العَرْضِ ، وما ذاقَهُ مِنَ الحُزنِ علىٰ خديجَةَ حتَّىٰ قالَتْ عائشةُ : (ما غِرتُ علىٰ ٱمرأَةٍ قطُّ ما غرتُ علىٰ خديجةَ مِن كثرةِ ما يذكرُها)[2] .

---

(١) تَسُنُّ الفاتِرَ : تُقَوِّمُ وتشجِّعُ الذي ٱنهزمَ وَضَعُفَ .

(٢) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها مسلم (٢٤٣٥) في الفضائل وفيه يقول أيضاً ﷺ : « إني قد رزقت حبها » .

وإنْ كانَ ليذبَحُ الشاةَ فيبعَثُ بِها في خَلاَئِلِها ، وتأتي العجوزُ فيتفتَّحُ لَها ، ويُنْعِمُ الإقبالَ عَليها ، ويسألُها عَن كلِّ شيءٍ مِن أَمرِها ، ويقولُ : « إِنَّهَا كَانَتْ تَأْتِينَا أَيَّامَ خدِيْجَةَ ؛ وَإِنَّ حُسْنَ ٱلْعَهْدِ مِنَ ٱلإِيْمَانِ »[1] .

وكانَ هديُهُ مَعَ أَزواجِهِ موافقتَهُ لِهواهُنَّ ما لم يكن إثماً ، وكانَ يتعمَّدُ موضعَ شربِ عائشةَ مِنَ الإناءِ[2] ، ويحملُها لتنظُرَ إِلىٰ اللُّعبِ[3] ، ويُسابقُها ، ولَمَّا سبقَها بالآخرَةِ . . قالَ لها : « هَٰذِهِ بِتِلْكَ »[4] ، مُذَكِّراً لَها بما سلَفَ مِن سبقِها لَهُ ، كيلا ينكسِرَ خاطرُها ، وكانَ يدافِعُها لدىٰ البابِ ، وكانَ أَزواجُهُ يهجُرنَهُ إِلىٰ الليلِ ، وقد ذكرنا في غيرِ هٰذا المجلسِ صنيعَ حفصةَ وعائِشَةَ بالجونيَّةِ ، وتمثَّلْنا بقولِ الشاعرِ [مِنَ الوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِيْ   فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

وإنَّ عائشةَ رضي الله عنها كانَتْ تكتُبُ في إمضائِها : من حبيبَةِ رسولِ اللهِ ، المبرَّأَةِ في كتابِ اللهِ ، عائِشَةَ بنتِ أَبي بكرٍ .

---

(١) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها الحاكم في « المستدرك » (١/ ٦٢) ، وأورده الهندي في « كنز العمال » (٣٤٣٤٤) ونسبه إليه .

(٢) أخرجه عن عائشة المبرأة رضي الله عنها ابن ماجه (٦٤٣) في الطهارة وفيه : (فيضع فمه حيث كان فمي وأنا حائض) .

(٣) أخرجه عن عائشة رضي الله عنها البخاري (٥٢٣٦) في النكاح ، ومسلم (٨٩٢) ، والنسائي (٣/ ١٩٥) وغيرهم .

(٤) أورده عن عائشة رضي الله عنها في « كنز العمال » (٤٠٦١٤) ونسبه إلى أحمد وأبي داوود .

فيا لَه مِن إِمضاءٍ تهتزُّ لَهُ النفوسُ ، وتقِفُّ[1] الشعورُ ، وتتندَّىٰ الخدودُ ، ويكادُ يذوبُ منهُ الجلمودُ .

الحب في ساحة الوغى

وقالَ خالدُ بنُ يزيدَ ـ وقد بنىٰ برملَةَ ٱبنةِ الزبيرِ ، والسيوفُ تسيلُ دماً ، والأَسِنَّةُ تقاطَر مُهَجاً [كما في « الأغاني » ١٧/ ٣٤٠ مِنَ الطَّويلِ] ـ :

أُحِبُّ بَنِيْ ٱلْعَوَّامِ طُرّاً لِحُبِّهَا ... وَمِنْ أَجْلِهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبَا
تَجُوْلُ خلاَخِيْلُ ٱلنِّسَاءِ وَلاَ أَرَىٰ ... لِرَمْلَةَ خَلْخَالاً يَجُوْلُ وَلاَ قُلْبَا

وقالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ العلويُّ أَو غيرُهُ [مِنَ الخفيفِ] :

نَحْنُ قَوْمٌ تُذِيْبُنَاالأَعْيُنُ ٱلنُّجْـ ... ـلُ عَلَىٰ أَنَّنَا نُذِيبُ ٱلْحَدِيْدَا
وَتَـرَانَـا لَـدَىٰ ٱلْكَـرِيْهَـةِ أَحْـرَا ... راً وَفِيْ ٱلسِّلْمِ لِلْغَوَانِيْ عَبِيْدَا

وهوَ مثلُ قولِ العطويِّ [مِنْ مجزوءِ الوافرِ] :

أَخَـافُ ٱلـرِّيْـمَ أَرْمُقُـهُ ... وَأَضْـرِبُ هَـامَـةَ ٱلأَسَـدِ
وَيَجْـرَحُنِـيْ بِمُقْلَتِـهِ ... وَيَنْبُـوْ ٱلسَّيْـفُ عَـنْ جَسَـدِيْ

وقالَ محمَّدُ بنُ صالحِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ موسىٰ الجونِ العلويُّ ، وهُوَ في السجنِ [مِنَ الكاملِ] :

وَبَدَا لَهُ مِنْ بَعْدِ مَا ٱنْدَمَلَ ٱلْهَوَىٰ ... بَـرْقٌ تَـأَلَّـقَ مَـوْهِنـاً لَمَعَـانُـهُ
يَبْـدُوْ كَحَـاشِيَـةِ ٱلرِّدَاءِ وَدُوْنَـهُ ... صَعْبُ ٱلذُّرَىٰ مُتَمَنِّعاً أَرْكَانُهُ
فَمَضَىٰ لِيَنْظُرَ أَيْنَ لاَحَ فَلَمْ يُطِقْ ... نَظَـراً إِلَيْـهِ وَصَـدَّهُ سَجَّـانُـهُ
فَٱلنَّارُ مَا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوْعُهُ ... وَٱلْمَاءُ مَا سَمَحَتْ بِهِ أَجْفَانُهُ

---

(١) يقفُّ : قام من الفزع .

حمدونية بنت عيسى تلجأ إلى محمد بن صالح العلوي

وكانَ مِن حديث الأبياتِ : أَنَّهُ خرجَ علىٰ المتوكِّلِ وأَخذَ قافلةَ الحجيجِ ، قالَ : فَبَينا أَصحابي يجمعونَ الأَموالَ ، وأَنا علىٰ كرسيٍّ . . إذا بأمرأَةٍ رفعَتْ سِجَافَ هودَجٍ ، فأَضَاءَ مِنها المكانُ ، ولا إِضاءتُهُ بالشمسِ ، فقالَتْ : أَينَ الشريفُ صاحبُ الكتيبةِ ؟ فإِنَّ لي إِليهِ حاجَةً ، قلْتُ : هُوَ يسمعُ كلامَكِ ، قالَتْ : أَنا حمدونيَّةُ بنتُ عيسىٰ بنِ موسىٰ ، تعلَمُ مكانَنَا عندَ الخليفَةِ ، وأَنا أَسأَلُكَ أَن تأْخُذَ مِنِّي ثلاثينَ أَلفَ دينارٍ ، معَ ما قد قبضتموهُ ، وأَسأَلُكَ بفضلِكَ أَن لا يكشِفَ لي أَحدٌ سِتراً ، فناديْتُ أَصحابي ، ولَمَّا اجتمَعوا . . قلْتُ : مَن أَخذَ مِن هٰذهِ القافلَةِ عِقالاً . . آذنتُهُ بحربٍ ، فرَدُّوا حتَّىٰ الأَطعمَةَ ، وخفرتُهُم إِلىٰ المأْمَنِ ، فلمَّا ظفرَ بي المتوكِّلُ ، وحبَسَني بـ(سرَّ مَن رأَىٰ) . . دخلَ عليَّ السجَّانُ يوماً ، فقالَ لي : إِنَّ بالبابِ امرأَتينِ مِن أَهلِكَ ، تريدانِ الدخولَ عليكَ ، وكانَ الخليفَةُ قَد منعَ مِنَ الدُّخولِ عليَّ ، ولٰكنَّهما أَعطتاهُ دُملُجاً مِنَ الذَّهَبِ ، فأَدخلَهما ، فإِذا أَنا بِها معَ امرأَةٍ أُخرىٰ ، وجاريَةٍ تحملُ شيئاً ، فلمَّا بَصُرَتْ بي . . قالَتْ : إِي واللهِ إِنَّهُ لَهُو ، وبكَتْ لِمَا أَنا فيهِ ، ثمَّ قبَّلَتْ قدَمي ، وقالَتْ : لَوِ استطعْتُ لفديتُكَ بنَفْسي ، ولٰكنِّي لا أُقصِّرُ في خلاصِكَ ، ودونَكَ هٰذهِ النفقَةُ ، ورسولي يأْتيكَ في كلِّ يومٍ بما تريدُ ، حتَّىٰ يفرِّج اللهُ عنكَ ، ودفعَتْ إِليَّ خمسَ مِئَةِ دينارٍ ، وثياباً ، وطيباً ، وطعاماً ، وانصرفَتْ ، وقد أَضرمَت بقلبيَ ناراً ، أَورثَتْها النظرَةُ الأُولىٰ ، فقلْتُ : الأَبياتَ . . . أَعني السابقَةَ ، ولَم يزلْ رسولُها يعاودُني بالإحسانِ ، وملاطَفَةِ السجَّانِ ، إِلىٰ أَنْ خرجْتُ ، وعظُمَ شأْني عندَ الخليفَةِ ، فخطبتُها ، فامتَنَعَ أَبوها ، فكانَ لي سجنُ هَواها أَعظمَ مِنَ السِّجْنِ السابقِ ، فلمْ أَرَ إِلاَّ أَنْ أَتيتُ إِبراهيمَ بنَ

المقتدرِ ، فأَخبرتُهُ بذلكَ ، وكانَ أَبوها صنيعتَهُ ، فركِبَ إِليهِ ، ولم يفارِقْهُ حتَّىٰ عقدَ لي بِها ، ولابنِ صالحٍ فيها عدَّةُ قصائِدَ ، وفي ٱبنِ المقتَدِرِ عدَّةُ مدائِحَ ، ولهـٰذهِ الأَبياتِ قصَّةٌ أُخرىٰ ، كَما لِبَيْتَيْ عليِّ بنِ محمَّدٍ حديثٌ ممتِعٌ ، غيرَ أَنَّا لا نُطيلُ بِهما ، وربَّما تأْتي لَهما فرصةٌ أُخرىٰ ، وما كانَ أَحقَّ ٱبنِ الجونِ بقولِ أَبي فراسٍ [في « ديوانهِ » ١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا رُبَّ دَارٍ لَمْ تُخِفْنِيْ مَنِيْعَةٍ ... طَلَعْتُ عَلَيْهَا بِٱلرَّدَىٰ أَنَا وَٱلْفَجْرُ

وَسَـاحِبَـةِ ٱلأَذْيَـالِ نَحْـوِيْ لَقِيْتُهَـا ... فَلَمْ يَلْقَهَا جَافِيْ ٱلْجَنَابِ وَلاَ وَعْرُ

وَهَبْتُ لَهَا مَا حَازَهُ ٱلْجَيْشُ كُلَّهُ ... وَرُحْتُ وَلَمْ يُكْشَفْ لأَبْيَاتِهَا سِتْرُ

بل ما أَرىٰ الحمدانيَّ إِلاَّ ناظراً إِلىٰ هـٰذهِ القصَّةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَذَرْتُهُمْ وَعَرَفْتُ ذَنْبِيَ أَنَّنِيْ	عَيَّرْتُهُمْ فَلَقِيْتُ فِيْهِ مَا لَقُوْا

يقولُ : إِنَّهُ عذرَ العُشَّاقَ لمَّا ذاقَ ما ذاقوهُ مِنَ الامْتِحانِ ، وجهدِ البلاءِ ، وعرفَ أَنَّ ذنبَهُ الذي أَوقعَهُ في العشقِ هُوَ تعييرُهُ إِيَّاهُم ، فكانَ جزاءُ ذلكَ أَنِ ٱبتلاهُ اللهُ بِما ٱبتلاهُم ، وقد أَخرجَ الترمذيُّ وحسَّنَهُ : « **لاَ تُظْهِرِ ٱلشَّمَاتَةَ بِأَخِيْكَ ، فَيَرْحَمُهُ ٱللهُ وَيَبْتَلِيْكَ** »[1] .

من عيَّب.. ابتلي

وأَخرجَ السيوطيُّ في « جامعِهِ » مرفوعاً : « **ٱلْبَلاَءُ مُوَكَّلٌ بِـٱلْمَنْطِـقِ** »[2] ، « **فَلَـوْ أَنَّ رَجُـلاً عَيَّـرَ رَجُـلاً بِـرَضَـاعِ كَلْبَـةٍ . . لَرَضَعَهَا** »[3] .

ويؤثَرُ عَنِ ٱبنِ الخطَّابِ أَنَّهُ كانَ يقولُ : لَو عيَّرتُ ٱمرأَةً بالحَبَلِ . . لَخَشيتُ أَنْ أَحبَلَ .

ويمكنُ أَنْ يدخلَ تحتَ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] .

---

(١) أخرجه عن واثلة رضي الله عنه الترمذي (٢٥٠٨) وقال : حسن غريب .

(٢) أخرج عن حذيفة رضي الله عنه شطره القضاعي كما في « كنز العمال » (٧٨٤٥) ، وذكره العجلوني عن جماعة في « كشف الخفاء » (٩٢٦) مع جميع شواهده ، فأفاد وأجاد .

(٣) أخرجه عن ابن مسعود رضي الله عنه بتمامه الخطيب في « تاريخ بغداد » كما في « كنز العمال » (٧٨٦٧) .

وقولِهِ تقدَّسَتْ أَسماؤُهُ : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠] .

وقولِهِ تبارَكَ ثناؤُهُ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ * عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ * هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [المطففين : ٣٤ـ٣٦]

وقالَ ٱبنُ مَطيرٍ [في « ديوانهِ » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّكَ حُبّاً لَنْ أُعَنِّفَ بَعْدَهُ ... مُحِبّاً وَلَكِنِّي إِذَا لِيمَ عَاذِرُهُ

وقالَ عليُّ بنُ الجهمِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كُنْتُ بِٱلْعُشَّاقِ أَهْزَأُ مَرَّةً ... فَهَا أَنَا لِلْعُشَّاقِ أَصْبَحْتُ بَاكِيَا

وقالَ أَبو الشيصِ [مِنَ الوافرِ] :

وَكُنْتُ إِذا رَأَيْتُ فَتىً يُبَكِّي ... عَلَىٰ شَجَنٍ هَزَأْتُ إِذا خَلَوْتُ
وَأَحْسِبُنِي أَدَالَ ٱللهُ مِنِّي ... فَصِرْتُ إِذا بَصُرْتُ بِهِ بَكَيْتُ[1]

وقالَ الأَضبطُ بنُ قريعٍ [مِنَ الخفيفِ] :

لاَ تُهِينَ ٱلْفَقِيرَ عَلَّكَ أَنْ تَرْ ... كَعَ يَوْماً وَٱلدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهْ

وقالَ عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ بنِ إِبراهيمَ بنِ محمَّدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرِ ٱبنِ أَبي طالبٍ ، رضوانُ اللهِ عليهِم [في « صبح الأعشىٰ » ٢/ ٣٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا بَدَا لِيْ أَنَّهَا لاَ تُحِبُّنِي ... وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّيْ بِمُنْجَلِي
تَمَنَّيْتُ أَنْ تَهْوَىٰ سِوَايَ لَعَلَّهَا ... تَذُوقُ صَبَابَاتِ ٱلْهَوَىٰ فَتَرِقَّ لِيْ

---

(١) أدالَ : قَلَبَ عليَّ الزمانَ .

فَمَا كَانَ إِلاَّ عَنْ قَلِيْلٍ وَأُشْغِفَتْ بِحَبِّ غَزَالٍ أَدْعَجِ ٱلطَّرْفِ أَكْحَلِ
وَعَـذَّبَهَـا حَتَّـىٰ أَذَابَ فُـؤَادَهَـا وَجرَّعَهَا مُرَّ ٱلْهَوَىٰ وَٱلتَّذَلُّلِ
فَقُلْتُ لَهَا : هَـٰذا بِذَاكَ فَأَطْرَقَتْ حَيَاءً وَقَالَتْ: كُلُّ مَنْ عَايَبَ ٱبْتُلِيْ

وفي الأَبياتِ مِنَ التديُّثِ والسخافةِ ، وقلَّةِ الغيرَةِ ، وهتكِ السترِ ، ما لا غايةَ بعدَهُ ، فهُوَ أَقبحُ مِن قولِ جميلٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٥٦٣ مِنَ الطَّويلِ] : يجب أن تكون غيوراً

أَهِيْمُ بِدَعْدٍ مَا حَيِيْتُ وَإِنْ أَمُتْ فَيَا لَيْتَ شِعْرِيْ مَنْ يَهِيْمُ بِهَا بَعْدِيْ

وقولِ الفرزدَقِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١١ـ٢١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمَـا دَلَّتَـانِـيْ مِـن ثَمَـانِيْـنَ قَـامَـةً كَمَا ٱنْقَضَّ بَازٍ أَكْتَمُ ٱلرِّيْشِ كَاسِرُهْ
فَلَمَّا ٱسْتَوَتْ رِجْلاَيَ فِيْ ٱلأَرْضِ قَالَتَا: أَحَـيٌّ فَيُـرْجَـىٰ أَمْ قَتِيْـلٌ نُحَـاذِرُهْ ؟
فَقُلْتُ: ٱرْفَعُوْا ٱلأَسْبَابَ لاَ يَشْعُرُوْا بِنَا وَأَسْـرَعْـتُ فِـيْ أَطْـرَافِ لَيْـلٍ أُبَـادِرُهْ
مَخَـافَـةَ بَـوَّابَيْـنِ أَنْ يَشْعُـرَا بِنَـا وَأَحْمَرَ مِنْ سَاجٍ تَصِرُّ مَسَامِرُهْ[(١)]

وقولِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ [في « قرى الضيف » ١/ ٣٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَلَّقْتُهُ سَكْرَانَ مِنْ خَمْرَةِ ٱلصِّبَا بِهِ غَفْلَةٌ عَنْ لَوْعَتِيْ وَنَحِيْبِيْ
وَشَارَكَنِيْ فِيْ حُبِّهِ كُلُّ مَاجِدٍ يُشَارِكُنِيْ فِيْ مُهْجَتِيْ بِنَصِيْبِ
فَلاَ تُلْزِمُوْنِيْ غَيْرَةً مَا أَلِفْتُهَا فَـإِنَّ حَبِيْبِـيْ مَـنْ أَحَـبَّ حَبِيْبِـيْ

وقولِ الناظمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَذَاقَ ٱلْغَـوَانِـيْ حُسْنُـهُ مَـا أَذَقْنَنِـيْ وَعَفَّ فَجَازَاهُنَّ عَنِّيْ عَلَىٰ ٱلصَّرْمِ[(٢)]

---

(١) أحمر من ساجٍ : أي بابٌ من خشبِ الساجِ .
(٢) الصَّرمُ : الانقطاعُ .

فإِنَّهُ كالصريحِ ، في أَنَّ حبائِبَهُ لَولا عفافُ الممدوحِ . . لهتكْنَ الأَعراضَ ، وكأَنَّهُ ٱستحسَنَ كلامَ عليٍّ ، فأَحَبَّ أَن لا يخلُوَ ديوانُهُ عَن مثلِهِ ، وقد بالغَ ٱبنُ الجعبريِّ في الردِّ علىٰ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ إِذ قالَ [في « المثل السائر » ٢/٣٥٩ مِنَ الخفيفِ] :

وَلَقَدْ سَرَّنِيْ صُدُوْدُكِ عَنِّيْ ... فِيْ طِلاَبِيْكِ وَٱمْتِنَاعُكِ مِنِّيْ
حَذَراً أَنْ أَكُوْنَ مِفْتَاحَ غَيْرِيْ ... وَإِذَا مَا خَلَوْتِ كُنْتِ ٱلتَّمَنِّيْ

وقالَ ٱبنُ مطروحٍ [في « المستطرف » ٢/٤٠١ مِنَ الوافرِ] :

فلَوْ أَضْحَىٰ عَلَىٰ تَلَفِيْ مُصِرّاً ... لَقُلْتُ : مُعَذِّبِيْ بِٱللهِ زِدْنِيْ
وَلاَ تَسْمَحْ بِوَصْلِكَ لِيْ فَإِنِّيْ ... أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْكَ فَكَيْفَ مِنِّيْ ؟!

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ لأَحْسُدُ نَاظِرَيَّ عَلَيْكَا ... حَتَّىٰ أَغُضَّ إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَا
وَأَرَاكَ تَخْطُرُ فِيْ شَمَائِلِكَ ٱلَّتِيْ ... هِيَ فِتْنَتِيْ فَأَغَارُ مِنْكَ عَلَيْكَا
وَلَوِ ٱسْتَطَعْتُ مَنَعْتُ لَفْظَكَ غَيْرَةً ... كَيْ لاَ أَرَاهُ مُقَبِّلاً شَفَتَيْكَا
خَلُصَ ٱلْهَوَىٰ لَكَ وَٱصْطَفَتْكَ مَوَدَّتِيْ ... حَتَّىٰ أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ مَلَكَيْكَا

وفيهِ غلوٌّ لا يقبل ، إِنَّما المقبولُ ما كانَ مِن مثلِ قولِ كُشاجمٍ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الوافرِ] :

وَعَذَّبَنِيْ قَضِيْبٌ فِيْ كَثِيْبٍ ... تَشَارَكَ فِيْهِ لِيْنٌ وَٱنْدِمَاجُ
أَغَارُ إِذَا دَنَتْ مِنْ فِيْهِ كَأْسٌ ... عَلَىٰ دُرٍّ يُقَبِّلُهُ زُجَاجُ

وقدِ ٱستحسنهُ الناظِمُ فنقلَهُ إِلىٰ غيرِ موضعِهِ ، ولم يقعْ إِلاَّ في سوءِ الأَدَبِ ، إِذ جاءَ في ممدوحِهِ بِما لا يحتمَلُ إِلاَّ في ربَّاتِ

الخدورِ ، حيثُ قالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٩٣ مِنَ الوافرِ] :

أَغَارُ مِنَ ٱلزُّجَاجَةِ حِيْنَ تَجْرِيْ ... عَلَىٰ شَفَةِ ٱلأَمِيْرِ أَبِيْ حُسَيْنِ

وما أَحسنَ قولَ كثيِّرٍ [في « ديوانهِ » ١٠١-١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِيْئِيْ بِنَا أَوْ أَحْسِنِيْ لاَ مَلُوْمَةٌ ... لَـدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـةٌ إِنْ تَقَلَّـتِ

وَإِنِّي وَإِنْ صَدَّتْ لَمُثْنٍ وَصَادِقٌ ... عَلَيْهَا بِمَا كَانَتْ إِلَيْنَا أَزَلَّتِ[1]

وَمَا أَنَا بِٱلدَّاعِيْ لِعَزَّةَ بِٱلْجَوَىٰ ... وَلاَ شَامِتٌ إِنْ نَعْلُ عَزَّةَ زَلَّتِ

وقولَ ديكِ الجنِّ ، وقد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ [في « ديوانه » ١٨٨ مِنَ البسيطِ] :

كَيْفَ ٱلدُّعَاءُ عَلَىٰ مَنْ جَارَ أَوْ ظَلَمَا ... وَمَالِكِيْ ظَالِمٌ فِيْ كُلِّ مَا حَكَمَا ؟

لاَ آخَـذَ ٱللهُ مَـنْ أَهْـوَىٰ بِجَفْـوَتِـهِ ... عَنِّيْ وَلاَ ٱقْتَصَّ لِيْ مِنْهُ وَلاَ ٱنْتَقَمَا

ذو النـون المصـري والفتيات الطائفات

ويروىٰ عَن ذي النونِ المصريِّ أَنَّهُ قالَ : رأَيتُ فتاةً علىٰ غايةٍ مِنَ الجمالِ ، متعلِّقةً بأَستارِ البيتِ ، تقولُ[2] :

أَمَـا لِفَتَـاةٍ بَـاعَـدَ ٱلْهَجْـرُ بَيْنَهَـا ... وَبَيْنَ ٱلَّذِيْ تَهْوَاهُ يَا رَبِّ مِنْ وَصْلِ

حَجَجْتُ وَلَمْ أَحْجُجْ لِسُوْءٍ عَمِلْتُهُ ... وَلَـٰكِنْ لِتُعْدِيْنِيْ عَلَىٰ قَاطِعِ ٱلْحَبْلِ

ذَهَبْتُ بِعَقْلِـيْ فِـيْ هَـوَاهُ صَغِيْـرَةً ... فَرُدَّ بِطِيْبِ ٱلْوَصْلِ مَا ضَاعَ مِنْ عَقْلِيْ

وَإِلاَّ فَسَـاوِ ٱلْحُـبَّ بَيْنِـيْ وَبَيْنَـهُ ... فَإِنَّكَ يَا مَوْلاَيَ تُوْصَفُ بِٱلْعَدْلِ

قالَ : فصحتُ بِها ، فقالَتْ : إِليكَ عنِّي ، فلَو علمْتَ ما بي ، وَبينا أَنا أُراجِعُها الكلامَ ، وأَرميها بالملامِ . . إِذ جاءَتْ أُخرىٰ ،

---

(١) أَزَلَّت إِليهِ نعمةً : أَسدَتها .

(٢) الأبيات من الطويل، وهي للمجنون في «ديوانه» (٢٣٢) .

وقالَتْ : لَشأني أَغربُ ، وقولِي أَعجَبُ ، وأَنشأَتْ تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

صَبرْتُ وَكَانَ ٱلصَّبْرُ خَيرَ مَغَبَّةٍ ... وهَلْ جَزَعٌ يُجْدِي عَلَيَّ فَأَجْزَعُ ؟
صَبرْتُ عَلَىٰ مَا لَوْ تُحَمَّلُ بَعْضُهُ ... جِبَالُ شَرُوْرَىٰ أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ[1]

اعتراض المؤلف على نفسه

وبعدُ : فللأَديبِ أَن يعترضَ قولي : إِنَّ أَبياتَ عليِّ بنِ عبدِ اللهِ ، أَقبحُ مِن أَبياتِ عبدِ المحسنِ الصوريِّ ، ولا سبيلَ غيرُ الاعترافِ ؛ لأَنَّ الأَوَّلَ لم يرضَ بالاشتراكِ إِلاَّ بعدَ يأْسِهِ ، ونفضِ يدِهِ مِن محبوبِهِ ، بخلافِ الثاني ، فهُوَ في التديُّثِ أَظهرُ ، وفي الخساسَةِ أَدخَلُ .

الغيرة والأنفة العربية

وللهِ درُّ أَبي ذُؤَيبٍ في قولِهِ [في « الأغاني » ٦/ ٢٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تُـرِيـدِيْـنَ كَيْمَـا تَجْمَعِيْنِـيْ وَخَـالِـداً ... وَهَلْ يُجْمَعُ ٱلسَّيْفَانِ وَيْحَكِ فِيْ غِمْدِ ؟!

وقالَ ٱمرؤُ القيسِ [في « ديوانهِ » ١٦٩ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّـيْ بِحَبْلِـكِ وَاصِـلٌ حَبْلِـيْ ... وَبِـرِيْـشِ نَبْلِـكِ رَائِـشٌ نَبْلِـيْ[2]
مَا لَمْ أَجِدْكِ عَلَىٰ هُدَىٰ أَثَرٍ ... يَقْـرُوْ مِقَصَّـكِ قَـائِـفٌ قَبْلِـيْ[3]

---

(١) شَرُوْرَىٰ : واد بالشام ، محاط بسلسلة جبلية ، قال الشاعر :
سَقَوْنِيْ وَقَالُوْا لاَ تُغَنِّيْ وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ شَرُوْرَىٰ مَا سُقِيْتُ لَغَنَّتِ
وقال ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/ ٣٣٩) : هو جبل مطل على تبوك في شرقيها .

(٢) ريشُ النبلِ : ما يوضعُ في جانبي السهمِ من الريشِ ، وهوَ هنا كنايةٌ عن مجاراتها فيما لا يمسُّ الكرامة .

(٣) يقرو مقصَّكِ : يستقري أَثركِ . قائفٌ : الذي يقصُّ الأثرَ ويتتبَّعُهُ . قبلي : أي أَنَّه يريدها لنفسِه دون غيرِه ، وأَنَّه يَرجو أَلاَّ تكونَ قد نالَ حبَّها أَحدٌ قبلهُ .

وذَكَرْتُ هُنا أَبياتاً لِعُرْوَةَ بنِ أُذينَةَ ، لا تتَّصِلُ بالموضوعِ إلاَّ من حيثُ الاشتراكُ في الحبِّ الذي تمنَّتْهُ المرأَةُ في حديثِ ذِي النونِ ، ولا بأسَ بإيرادِها ؛ لرقَّتِها وعذوبتِها ، وهيَ [في «ديوانه» ٧٠ مِنَ الكاملِ] :

أبيات جميلة في الحب

إنَّ ٱلَّتِي زَعَمَتْ فُؤَادَكَ مَلَّهَا ... خُلِقَتْ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوىً لَهَا

فَبِكَ ٱلَّذِي زَعَمَتْ بِهَا فَكِلاكُمَا ... أَبْدَىٰ لِصَاحِبِهِ ٱلصَّبَابَةَ كُلَّهَا

حَتَّامَ تَكْتُمُ فِيْ ٱلْحَشَا مِنْ حُبِّهَا ... وَجْداً لَوَ ٱصْبَحَ فَوْقَهَا لأَظَلَّهَا

وَيَبِيتُ تَحتَ جَوَانِحِيْ حُبٌّ لَهَا ... لَوْ كَانَ فَوْقَ فِرَاشِهَا لأَقَلَّهَا[1]

وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوِسَ سَلْوَةٍ ... شَفَعَ ٱلضَّمِيْرُ إِلَىٰ ٱلْفُؤَادِ فَسَلَّهَا

بيْضَاءُ بَاكَرَهَا ٱلنَّعِيْمُ فَصَاغَهَا ... بِلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وَأَجَلَّهَا

لَمَّا عَرَضْتُ مُسَلِّماً فِيْ حَاجَةٍ ... أَخْشَىٰ صُعُوْبَتَهَا وَأَرْجُوْ ذُلَّهَا

مَنَعَتْ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِيْ ... مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقَلَّهَا

فَدَنَا وَقَالَ : لَعَلَّهَا مَعْذُوْرَةٌ ... مِنْ بَعْضِ رِقْبَتِهَا فَقُلْتُ : لَعَلَّهَا[2]

وقد أَنشدها لعبيدِ اللهِ بنِ عروةَ بنِ الزبيرِ في منزلِهِ بـ(العقيقِ) ، قالَ عروةُ بنُ عبيدِ اللهِ [في «الأغاني» ١٨/٣٤٠] : جاءَني أَبو السائِبِ المخزوميُّ يوماً ، وقالَ : لي إِليكَ حاجَةٌ ، قلتُ : ماهيَ ؟ قالَ : أَبياتُ ٱبنِ أُذينَةَ ، فأَمرتُ بطعامٍ فأُحضِرَ ، فقالَ : لاَ واللهِ حتَّىٰ أَرويَ الأَبياتَ ، فما زلْتُ أُردِّدُها عليهِ حتَّىٰ حفِظَها ، ثمَّ وثَبَ ، فقلْتُ لَهُ :

أبو السائب المخزومي يطلب العلم

(١) **الجوانحُ** : أوائل الضلوع تحت الترائب ممّا يلي الصدرَ ، كالضلوع ممّا يلي الظهرَ سميت بذلك ؛ لجنوحها على القلب . **أقلَّها** : هزّها .

(٢) **الرِّقْبَةُ** : ٱلحذرُ والخوفُ .

كما أَنتَ حتَّىٰ تأْكُلَ ، قالَ : واللهِ لا أَخلِطُ بروايتِها شيئاً غيرَها ، وقالَ : هٰذا واللهِ الودُّ الصادِقُ ، والعهدُ الدائِمُ ، لا ما كانَ مِنَ الهُذَلِيِّ في قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ أَهْلُكِ يَمْنَعُونَكِ رَغْبَةً عَنِّيْ فَأَهْلِيَ بِيْ أَضَنُّ وَأَرْغَبُ

إِنِّي لأَرجو مِنَ اللهِ أَن يغفِرَ لابنِ أُذينَةَ بتطلُّبِهِ لحبيبتِهِ المعاذيرَ ، ثمَّ انصرَفَ ولم يتناوَلْ شيئاً .

وحرصُ أَبي السائبِ عَليها إِلىٰ هٰذا الحدِّ ، ممَّا يمهِّدُ العذرَ لَنا في سوقِها ، معَ ضَعفِ المناسَبَةِ ، ومرَّ أَوائِلَ المجلسِ التاسع ما يشبهُ قولَ ابنِ أُذينَةَ : (لأَظَلَّهَا) ، وقولَهُ : (لأَقَلَّهَا) ، فيما جرىٰ بينَ نصرِ بنِ حجَّاجٍ ، وزوجِ مجاشِعِ بنِ مسعودٍ .

وكانَ أَبو السائبِ هٰذا من كبارِ الصالحينَ ، إِلاَّ أَنَّهُ كانَ فَكِهاً ، خفيفَ الظلِّ ، كما هوَ الأَغلبُ علىٰ أَهلِ الحجازِ ، ولَهُ ما لا يُحصىٰ مِنَ النَّوادِرِ .

فمِمَّا يتَّصِلُ مِنها ببعضِ ما تقدَّمَ أَنَّهُ كانَ يسايرُ الحسنَ بنَ زيدٍ أَميرَ (المدينَةِ) ، فمرَّ وإِيَّاهُ بنساءٍ ، فسلَّمَ عليهِنَّ أَبُو السائِبِ ، فنهاهُ الحَسَنُ ، فلَم ينتهِ ، فتمثَّلَ الأَميرُ لتغازُلِ أَبي السائبِ بقولِهِ [في « ديوانِ المجنون » ٢٧٠ مِنَ البسيطِ] :

أَرَىٰ الإِزَارَ عَلَىٰ لَيْلَىٰ فَأَحْسُدُهُ إِنَّ الإِزَارَ عَلَىٰ مَا ضَمَّ محْسُوْدُ

فقالَ لَهُ : لِمَنْ هٰذا ، بأَبي أَنتَ وأُمِّي ؟ قالَ : يقولُهُ قيسٌ ، فتخلَّفَ عَن مسايرتِهِ ، ثمَّ عادَ وهُوَ حاسِرُ الرأْسِ ، فقالَ لَهُ : أَينَ عمامتُكَ ؟ قالَ : تصدَّقْتُ بِها علىٰ الشيطانِ الذي أَلقىٰ بهٰذا البيتِ علىٰ لسانِهِ .

وقد أَغارَ منصورُ النميريُّ علىٰ البيتِ الأَخيرِ مِن أَبياتِ عروةَ بنِ أُذينَةَ ، فقالَ [في « ديوانِ صريعِ الغواني » ٣٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

لعَلَّ لهَا عُذراً وأَنتَ تلُومُ ... ورُبَّ امْرِىءٍ قَدْ لامَ وهُوَ مَلِيْمُ

* * *

تَيَمَّمْتُ لِهْباً أَبْتَغِي ٱلْعِلْمَ عِنْدَهُمْ ... وَقَدْ رُدَّ عِلْمُ ٱلْعَائِفِينَ إِلَىٰ لِهْبِ[1]
فَقُلْتُ لَهُمْ : مَاذَا تَرَوْا فِي سَوَانِحٍ ... وَصَوْتِ غُرَابٍ يَفْحَصُ ٱلْوَجْهَ بِٱلتُّرْبِ؟[2]
فَقَالُوا : جَرَىٰ ٱلظَّبْيُ ٱلسَّنِيْحُ بِبَيْنِهَا ... وَنَادَىٰ غُرَابٌ بِٱلْفِرَاقِ وَبِٱلسَّلْبِ[3]
فَإِلاَّ تَكُنْ مَاتَتْ فَقَدْ حَالَ دُونَهَا ... خِبَاءُ خَلِيْلٍ بَاطِنٍ مِنْ بَنِي كَعْبِ[4]

فألفاها ـ كما قالوا ـ تزوَّجت بِٱبنِ عمٍّ لَها ، فأَخذَهُ الهُلاَسُ ، فكُوِيَ مِن أَجلِها جَنْباهُ .

ليس كل غراب يُتَشاءم منه

وَخرجَ لِهبيٌّ في حاجتِهِ [كما في « صبح الأعشى » ٤٥٦/١] ومعَهُ سقاءٌ ، فلمَّا عطِشَ . . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فإِذا غرابٌ ينعَبُ ، فأَثارَ راحلَتَهُ ومضىٰ ، فلمَّا جهدَهُ العطَشُ . . أَناخَ راحلَتَهُ ليشرَبَ ، فنعَبَ الغرابُ وتمرَّغَ في الترابِ ، فضربَ الرجُلُ سقاءَهُ بسيفِهِ ، فإِذا فيهِ أَسودُ سالخٌ[5] ، فقتلَهُ ، ثمَّ سارَ فإِذا غرابٌ واقعٌ علىٰ سدرَةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقَعَ علىٰ سلَّةٍ ، فصاحَ بهِ ، فوقعَ علىٰ صخرَةٍ ، فٱنتهىٰ إِليها ، فأَثارَ كنزاً ، فاحتملَهُ إِلىٰ أهلِهِ ، ولمَّا أخبرَ أَباهُ . . وجَدَ عندَهُ مِنَ ٱلْعِلمِ مثلَ الذي عمِلَ بهِ .

ومنهُ تَعْرِفُ أَنَّ التشاؤُمَ بالغرابِ ليسَ علىٰ إِطلاقِهِ ، بل فيهِ تفصيلٌ يطولُ بيانُهُ ، وأَظنُّ أَنْ قَدِ ٱستوفاهُ أَبو عثمانَ الجاحِظُ في كتابهِ « الحيوانُ » ، وقد زَجَرْتُ ٱلْغِربانَ لِلتيامُنِ في عدَّةِ قصائِدَ ، فكانَ

---

(١) العائفُ : الذي يزجرُ الطيرَ ، فيتشاءَمُ إِن طارت يساراً ، ويتفاءَل إِن طارَت يميناً مِنَ اليُمنِ . بنو لهبٍ : هم قبيلةٌ مشهورةٌ بالعيافةِ والزجرِ .
(٢) فحصَ الترابَ : حفَرَهُ باحثاً فيهِ .
(٣) السوانحُ ـ جمعُ سانحٍ ـ : وهوَ الطيرُ الذي يمرُّ عن يسارِ المسافرِ .
(٤) الخليلُ الباطنُ : الصديقُ الخفيُّ .
(٥) أسود سالخ : اسم الأسود من الحيَّات .

المجلس الثالث عشر

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

أَبَنِي أَبِيْنَا نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ	أَبَداً غُرَابُ الْبَيْنِ فِيْهَا يَنْعِقُ
نَبْكِي عَلَىٰ الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ	جَمَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتفرَّقُوْا

مسكين المتنبي لا يعرف السعادة!!

(أَبَنِيْ أَبِيْنَا) : نِداءٌ لجميعِ الناسِ ؛ لأنَّ أَباهُم آدمُ ، ويجوزُ أَنْ يريدَ بهِ قوماً مخصوصينَ ، يقولُ : نحنُ نازلونَ في ديارٍ يتفرَّقُ أهلُها بالموتِ ، وإِنَّما ذكرَ الغرابَ كنايةً عنهُ ؛ لأَنَّ العربَ لا تتشاءَمُ بشيءٍ تشاؤُمَها بالغربانِ .

كثير عزة والغراب الناعق

حكيَ [في « الأغاني » ٩/ ٤٤] : أنَّ كُثيِّراً تعشَّقَ امرأةً مِن خزاعةَ يقالُ لها : أُمُّ الحويرثِ ، فشبَّبَ بِها ، فكرِهَتْ أَن يفضَحَها كَما فضَحَ عزَّةَ ، فقالَتْ لَهُ : إِنَّكَ فقيرٌ ، فابتَغِ لكَ مالاً ، ثمَّ ارجعْ وَاخطُبني ، وأَعطتْهُ عهدَها أَن لا تتزوَّجَ حتَّىٰ يرجعَ ، فمدَحَ عبدَ الرحمٰنِ الأزديَّ ، وأصابَ منهُ ما يريدُ ، وبعقِبِ انصرافِهِ مِن عندِهِ سنَحَتْ لَهُ الظباءُ ، ورأَىٰ غراباً يفحَصُ الترابَ بوجهِهِ فتطيَّرَ مِن ذلكَ ، واستفتىٰ بعضَ اللِّهْبِيِّينَ فأَجابَهُ بما لا يسرُّهُ ، فقالَ [في « ديوانه » ٥٩-٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

الأمرُ كما تفاءَلْتُ مِنَ ٱلْخَيرِ ، ومرَّ بعضُ ما يتعلَّقُ بالفألِ في المجلسِ العاشِرِ .

العيب على المتنبي

وقد عابوا علىٰ الناظِمِ ٱنتقالَهُ مِنَ ٱلغزَلِ إلىٰ الوعظِ ، ثمَّ توثُّبَهُ مِنَ ٱلْوَعظِ إلىٰ المديحِ ، وقالوا : إنَّما يحسنُ مثلُهُ في الرَّثائي ، كَما ٱنتقَدوا علىٰ أَبي تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١/ ١٣٤ مِنَ الخفيفِ] :

غَـرَّبَتْـهُ ٱلْعُـلاَ عَلَـىٰ كَثْـرَةِ ٱلأَهْـ ـلِ فَأَضْحَىٰ فِي ٱلأَقْرَبِيْنَ جَنِيْبَا[1]

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طُوْ سٍ مُقِيْمَـاً لَمَـاتَ فِيْهَـا غَـرِيْبَـا

وقالوا : لَم يوقعْهُ في ذِكرِ الموتِ إلاَّ عثْرَةُ اللِّسانِ ، التي أَفضَتْ بهِ إلىٰ التنكيدِ والتنْغيصِ .

الحلم على الجاهل

وإنِّي لأَتعجَّبُ من حلمِ معاويَةَ وسعَةِ صدرِهِ ، وتَغابيهِ عَن سيِّئاتِ قاصديهِ ، فقد ذُكرَ أَنَّ الأَخطلَ قدِمَ عليهِ مادحاً ، فقالَ لَهُ : إنْ كنتَ شبَّهتَني بالحيَّةِ أَوِ ٱلأَسدِ . . فلا حاجةَ لي في ذلكَ ، وإنْ كُنتَ قلْتَ كما قالَتِ ٱلْخنساءُ [في « ديوانها » ١١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا بَلَغَتْ كَفُّ ٱمْرِىءٍ مُتَنَاوَلاً مِنَ ٱلْمَجْدِ إلاَّ وَٱلَّذِيْ نِلْتَ أَطْوَلُ

وَلاَ بَلَغَ ٱلْمُهْدُوْنَ فِي ٱلْقَوْلِ مِدْحَةً وَإنْ صَدَقُوْا إلاَّ ٱلَّذِيْ فِيْكَ أَفْضَلُ

. . فهاتِ ، فقالَ : لَقَد قلتُ بيتينِ ها هُما ، بدونِ ما قالتْ ، قالَ : أَنشِدْ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إذَا مِتَّ مَاتَ ٱلْعُرْفُ وَٱنْقَطَعَ ٱلنَّدَىٰ وَلَـمْ يَبْـقَ إلاَّ مِـنْ قَلِيْـلٍ مُصَـرَّدِ

وَرُدَّتْ أَكُـفُّ ٱلـرَّاغِبِيْـنَ وَأَمْسَكُـوْا عَنِ ٱلدِّيْنِ وَٱلدُّنْيَا بِخُلْفٍ مُجَرَّدِ

---

(١) الجنيبُ : الغريبُ ، يقولُ : جَعلَتِ المكارمُ والعُلاَ هذا الممدوحَ غريباً في الناسِ ، فلا يوجدُ له نظيرٌ فيهم .

فوصلَهُ وأَحسنَ إِليهِ ، معَ أَنَّهُ لم يتركْ شيئاً مِن القحَةِ والنَّغاصَةِ إِلاَّ وأَخذَ بنواحيهِ ، فَهما شرٌّ مِمَّا سبقَ عن أَبي تمَّامٍ ؛ لزيادَتِهما عليهِ بالإِنذارِ ، بانقطاعِ الأَثرِ ، فحقُّ صاحبِهما أَنْ يُضربَ في القَذالِ[1] ، أو يسجنَ مَعَ الأَنذالِ ، إِلاَّ أَنَّهُ لا يُستنكرُ مِن معاويَةَ ـ إِنْ كانَ صاحِبَ القصَّةِ ـ مثلُ ذلكَ ، فقدْ كانَ مَضرِبَ المثَلِ فيهِ ، وإِنْ كانَ مروانَ . . فما غضَّ جفنَهُ عمَّا فيهما مِنَ الخِذلانِ غيرُ تعصُّبِهِ للأَخطلِ ، فقد كانَ معروفاً بذلِكَ .

التشاؤم والطِّيَرة

وكانَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ بنِ عليٍّ يسايرُ السفَّاحَ ، وبينا هُما ينظرانِ إِلىٰ بناءٍ فرغَ منْهُ السفَّاحُ . . قالَ لعبدِ اللهِ : هاتِ ما عندَكَ ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَلَـمْ تَـرَ مَـالِكـاً لَمَّـا تَبَنَّـىٰ ... بِنَـاءً نَفْعُـهُ لِبَنِـي بَقِيْلَـهْ
بِـرُجْحَـانٍ يُعَمِّـرُ عُمْـرَ نُـوحٍ ... وأَمْـرُ ٱللهِ يَحْـدُثُ كُـلَّ لَيْلَـهْ

فأَبدىٰ السفَّاحُ نواجِذَهُ لغيرِ تبسُّمٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : عفواً يا أَميرَ المؤمنينَ ؛ فإِنَّها غفلَةُ الشيوخِ ، وبوادِرُ الخواطِرِ ، قالَ : صدقْتَ ، فخُذ في غيرِهِ .

وأَنشدَ بعضُهم لأَبي مسلمٍ الخراسانيِّ ، في يومِ قتلِهِ [كما في « سير أعلام النبلاء » ٦/ ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيأْتِيْكَ مَا أَفْنَىٰ ٱلْقُرُوْنَ ٱلَّتِيْ مَضَتْ ... وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجُرْهُمِ
وَمَنْ كَانَ أَدْنَىٰ مِنكَ عِزّاً وَمَفْخَراً ... وَأَنْهَضَ بِٱلْجَيْشِ ٱللُّهَامِ ٱلْعَرَمْرَمِ

فقالَ أبو مُسلمٍ : هَـٰذَا معَ الأَمانِ الذي مَعي؟ فقالَ ذلكَ المنشدُ :

---

(١) القَذالُ : مُؤَخَّرُ الرأسِ .

كلُّ عبدٍ لي حرٌّ إن كانَ هـٰذا الشيءُ مِن أَمركَ ، وإنَّما هُوَ خاطرٌ جرىٰ علىٰ لساني ، فقالَ : بئْسَ واللهِ الخاطِرُ ، فما غابَتْ شمسُهُ حتَّىٰ تحكَّمَ في رأسِهِ الحُسامُ ، والأَشبَهُ أَنْ يكونَ صاحِبَ القصَّةِ هُوَ ٱبنُ هبيرَةَ ؛ إذ هُوَ الذي يحملُ الأمانَ الضخْمَ .

وكثيراً ما جرَتْ نظائِرُ هـٰذِهِ الأَقاصيصِ للنَّاسِ في الطِّيَرَةِ .

مِن ذلكَ حديثُ مروانَ بنِ محمَّدٍ الجعديِّ ، وحديثُ الأَمينِ مع قينتِهِ .

التذكير بالموت وقت اللذات

وقالَ بعضُ الملوكِ : ما لهـٰؤلاءِ الشعراءِ ـ قاتلَهَم اللهُ ـ ربَّما ذكَّرونا شيئاً نحنُ أَكثَرُ لَهُ ذكراً مِنهم ، فينغِّصونَ عَلينا ، وما يعني إلاَّ الموتَ .

وخرجَ النعمانُ بنُ المنذِرِ مرَّةً يتنزَّهُ ومعَهُ عديُّ بنُ زيدٍ العبَّاديُّ ، فلمَّا ٱطمأَنَّ بِهمُ ٱلمَجلسُ في ظلِّ شجرَةٍ . . قالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/٤٥٠٣] : أَتدري ما تقولُ هـٰذِهِ الشجرَةُ؟ قالَ : لا ، قالَ : فإِنَّها تقولُ [مِنَ الرَّمَلِ] :

رُبَّ نَـاسٍ قَـدْ أَنَـاخُـوْا قَبْلَنَـا ... يَشْرَبُوْنَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلاَلْ
عَصَـفَ ٱلـدَّهْـرُ بِهِـمْ فَـٱنْقَلَبُـوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالاً بَعْدَ حَالْ

فٱنقبضَ الملكُ ، وٱنكَسفَ بالُهُ ، وتنغَّصَ عيشُهُ ، وعادَ من فورِهِ إلىٰ منزلِهِ .

وخرجَ مرَّةً أُخرىٰ للصيدِ ومعَهُ عديٌّ ، فمرُّوا بآرَام ـ وهيَ ٱلقبورُ ـ فقالَ عديٌّ [بنحوه في « بغية الطلب » ١٠/٤٥٠٣] : أَبيتَ ٱللَّعنَ ، تدري ما تقولُ هـٰذِهِ الآرامُ؟ قالَ : لا ، قالَ : إنَّها تقولُ [مِنَ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

أَيُّهَـا ٱلـرَّكْـبُ ٱلْمُخِبُّـو ... نَ عَلَـىٰ الأَرْضِ تَمُـرُّوْنْ
فَكَمَـا كُنْتُـمْ فَكُنَّـا ... وَكَمَـا كُنَّـا تَكُـوْنُـوْنْ

قالَ : أَعذهُ ، فأَعادَهُ ، فأنكسَرَ لهُ ، وتركَ صيدَهُ .

وقد أَثنىٰ ٱبنُ جنيٍّ علىٰ الناظِمِ في هـٰذا الاقتضابِ ، وقالَ : إنَّهُ مِن حسنِ التصرُّفِ ، ولم يظهَر لي وجهُ ذلكَ ، وكانَ عليهِ أَن يبيِّنَهُ ، إلاَّ أَن يقالَ في مناسبَةِ الوعظِ للغزَلِ : إنَّ الجمالَ زهرةُ ربيعٍ ، سرعانَ ما يلحقُها الذبولُ ، وفي مناسبَتِهِ لِلمديحِ : إنَّ الدنيا خَبَرٌ ، ولا يبقىٰ إلاَّ الأَثَـرُ ، والعيشُ حقيـرٌ ، والعمرُ قصيرٌ ، ولـٰكـنَّ مَـن يـدَّخِـرُ المَكرُماتِ . . يعيشُ بالذكرِ الجميلِ وإنْ فاتَ ، وهـٰذا ما لا أَظنُّهُ يخطرُ ببالِ الناظمِ ، حتَّىٰ يوجِّهَ بهِ لكلامِهِ ، ثمَّ إنَّ الدنيا قد دلَّتْ علىٰ عيبِها بنفسِها ، قالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [صريعُ الغواني في « ديوانهِ » ١٢٢ مِنَ البسيطِ] :

دَلَّتْ عَلَىٰ عَيْبِهَا ٱلدُّنْيَا وَصَدَّقَهَا ... مَا ٱسْتَرْجَعَ ٱلدَّهْرُ مِمَّا كَانَ أَعْطَانِي

حقارة الدنيا والكلام علـى المـوت وذكـر قصص في ذلك

وقالَ ٱبنُ أَبي طالبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ [في « نهج البلاغة » ٧٣] : ما أَصِفُ من دارٍ!! أَوَّلُها عناءٌ ، وآخرُها فناءٌ ، حلالُها حسابٌ ، وحرامُها عقابٌ ، من أَمِنَ فيها . . سَقِمَ ، ومَن مرضَ فيها . . ندِمَ ، ومن ٱستغنىٰ فيها . . فُتِنَ ، ومَنِ ٱفتقَرَ فيها . . حَزِنَ .

وقالَ بعضُهم : ٱنصرفْتُ مِن مجلسِ حمَّادِ الراويةِ[1] ، فقيلَ لي : ما حدَّثكُم؟ قلتُ : حدثَنا عَنِ ٱلنَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « لَوْ لَمْ يَكْسَبِ ٱبْنُ آدمَ إلاَّ ٱلصِّحَّةَ وَٱلسَّلامَةَ . . لَكَفَىٰ بِهِمَا دَاءً »[2] ، فقيلَ :

---

(١) حماد الراوية : هو حماد بن سابور بن مبارك الشيباني العلامة الإخباري ، المكين النديم للوليد بن عبد الملك مات في دولة المهدي سنة : (١٦٠)هـ وسمِّي الراوية لأنه قال للخليفة : إني لأروي لكل شاعر تعرفه أو لا تعرفه ، وأنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة للجاهلية ، ثم سرد (٢٩٠٠) قصيدة فأعطاه مئة ألف درهم .

(٢) ذكره عن ابن عباس رضي الله عنهما المتقي الهندي في « كنز العمال » =

قاتلَ اللهُ حميداً حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ بَصَرِي قَدْ رَابَنِي بَعْدَ صِحَّة ... وَحَسْبُكَ دَاءً أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا

وقالَ [في « ديوانِ عمرو بنِ قَمئة » ٧٧ مِنَ الكاملِ] .

وَدَعَوْتُ رَبِّي بِٱلسَّلاَمَةِ جَاهِداً ... لِيُصِحَّنِي فَـإِذَا ٱلسَّـلاَمَـةُ دَاءُ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٤ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لَـوْ لَـمْ يُـوَكَّـلْ بِـٱلفَتَـىٰ ... إِلاَّ ٱلسَّـــلاَمَـــةُ وَٱلنِّعَـــمْ

وَتَـــدَاوَلاَهُ لأَوْشَكَـــا ... أَنْ يُسْلِمَـــاهُ إِلَـــىٰ ٱلْهَـــرَمْ

ونظرَ أعرابيٌّ إلىٰ الهلالِ فقالَ : ما لي ولَهُ ؟ مُحِلُّ دَينٍ ، ومقرِّبُ حَينٍ[1] .

وقالَ عبدَةُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا سَلَخْتُ ٱلشَّهْرَ أَهْلَلْتُ مِثْلَهُ ... كَفَىٰ قَاتِلاً سَلْخِي ٱلشُّهُوْرَ وَإِهْلاَلِي

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٦٢٨ مِنَ البسيطِ] :

تَظَـلُّ تَفْـرَحُ بِـٱلأَيَّـامِ تَقْطَعُهَـا ... وكُلُّ يَوْمٍ مَضَىٰ يُدْنِي مِنَ ٱلأَجَلِ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٠ـ١٣١ مِنَ الخفيفِ] :

أَبَـداً تَسْتَـرِدُّ مَـا تَهَـبُ ٱلـدُّنْـ ... ـيَا فَيَا لَيتَ جُوْدَهَا كَانَ بُخْلاَ

وَهِيَ مَعْشُوْقَةٌ عَلَىٰ ٱلغَدْرِ لاَ تَحْـ ... ـفَـظُ عَهْـداً وَلاَ تُتَمِّـمُ وَصْـلاَ

شِيَـمُ ٱلغَـانِيَـاتِ فِيْهَـا فَـلاَ أَدْ ... رِيْ لِذَا أَنَّثَ ٱسْمَهَا ٱلنَّاسُ أَمْ لاَ

= (٦٧٢٢) وعزاه إلى ابن عساكر ، ولفظه : « لو لم يكن لابن آدم إلا الصحة والسلامة لكفاه بهما داء قاتلاً » .

(١) الحَيْنُ : الهلاكُ والموتُ .

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ فَارَقَ ٱلنَّاسُ ٱلأَحِبَّةَ قَبْلَنَا وَأَعْيَىٰ دَوَاءُ ٱلمَوْتِ كُلَّ طَبِيْبِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٨-٩-١٨ مِنَ الوافرِ] :

نُعِدُّ ٱلْمَشْرَفِيَّةَ وَٱلْعَوَالِيْ وَتَقْتُلُنَا ٱلمَنُوْنُ بِلاَ قِتَالِ[1]

وَنَرْتَبِطُ ٱلسَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ وَمَا يُنْجِيْنَ مِنْ خَبَبِ ٱللَّيَالِيْ[2]

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ ٱلدُّنْيَا قَدِيْماً وَلٰكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلىٰ ٱلوِصَالِ

نَصِيْبُكَ فِيْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيْبٍ نَصِيْبُكَ فِيْ مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

يُدَفِّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَتَمْشِيْ أَوَاخِرُنَا عَلَىٰ هَامِ ٱلأَوَالِيْ

وقد لاذَ في الأخيرِ بقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانه » ٤٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ هَالِكٌ وَٱبْنُ هَالِكٍ وَذُوْ نَسَبٍ فِيْ ٱلْهَالِكِيْنَ عَرِيْقُ

وقولِهِ أَيضاً [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَا ٱبْنَ ٱلَّذِيْنَ فَنُوْا وَبَادُوْا أَمَا وَٱللهِ مَا بَادُوْا لِتَبْقَىٰ

وقولِ أَبي العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٦٠١ مِنْ مخلَّعِ البسيطِ] :

كَيْفَ بَقَاءُ ٱلْفُرُوْعِ يَوْماً وَقَدْ ذَوَتْ قَبْلَهَا ٱلأُصُوْلُ ؟!

وقد قالَ متمِّمُ بنُ نويرَةَ [مِنَ الكاملِ] :

وَعَدَدْتُ آبَائِيْ إِلَىٰ عِرْقِ ٱلثَّرَىٰ فَدَعَوْتُهُمْ وَعَلِمْتُ أَنْ لَمْ يَسْمَعُوْا

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلاَ مَحَالَةَ أَنَّنِيْ لِلْحَادِثَاتِ فَهَلْ تَرَانِيْ أَجْزَعُ ؟

---

(١) المشرفيَّةُ : السيوفُ . العوالي : الرماحُ .

(٢) المقرباتُ من الخيلِ : الكرامُ التي تربطُ لكرامتها على أصحابِها ، أو لفرط الحاجةِ إليها . الخَبَبُ : عَدْوٌ لا يستفرغُ الجهدَ .

وقد سبقَ إليهِ الإمامُ الغالِبُ في قولِهِ [في « شرح النهج » ٩/ ٩١] :

(وقد مضت أصول نحن فروعها وما بقاء ٱلفرعِ بعد ذهاب أصلِهِ)

وقد قالَ الأَوَّلُ [في « ديوانِ لبيدٍ » ٢٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنتَ لَمْ تَصْدُقْكَ نَفْسُكَ فَٱنتَسِبْ لَعَلَّـكَ تَهْـدِيْـكَ ٱلْقُـرُوْنُ ٱلأَوَائِـلُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مِنْ دُوْنِ عَدْنَانَ وَالِداً وَدُوْنِ مَعَـدٍّ فَلْتَـزُعْـكَ ٱلْعَـوَاذِـلُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٥٧٦ مِنَ الكاملِ] :

وَمَتَىٰ وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ إِلاَّ تَارِكاً لِحَمِيْمِهِ فِيْ ٱلتُّرْبِ أَوْ مَتْرُوْكَا

وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٨٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يُسَـارُ بِنَـا قَصْـدَ ٱلْمَنُـوْنِ وَإِنَّـنَـا لَنُشْغَفُ أَحْيَاناً بِطَيِّ ٱلْمَرَاحِلِ

عِجَالاً مِنَ ٱلدُّنْيَا بِأَسْرَعِ سَيْرِنَا إِلَـىٰ آجِـلٍ مِنْهَـا شَبِيْـهٍ بِعَـاجِـلِ

أَوَاخِرُ مِنْ عَيْشٍ إِذَا مَا ٱمْتَحَنْتَهَا تَأَمَّلْتَ أَمْثَالاً لَهَا فِيْ ٱلأَوَائِلِ

وقالَ الأَصمعيُّ : قدِمَ علينا أعرابيٌّ ، فأَقامَ عندَنا أَيّاماً ، ثمَّ رجعَ إِلىٰ الباديَةِ ، فسأَلَ عَن إِخوانِهِ وأَترابِهِ ، فقيلَ لهُ : ماتوا ، فٱسترجَعَ وبكىٰ ، وأَنشأَ يقولُ [في « ديوان أبي العتاهيةِ » ٣٣ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَـا مَـوْتُ لَـمْ أَرَ مِنْـكَ بُـدًّا أَبَيْـتَ فَمَـا تَحِيْـدُ وَلاَ تُحَـابِـيْ

كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَىٰ مَشِيْبِيْ كَمَا هَجَمَ ٱلْمَشِيْبُ عَلَىٰ شَبَابِيْ

وقالَ آخرُ [في « المدهش » ٤٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا ٱلْمَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَبِيْبَـكَ فَـاْعْلَـمْ أَنَّهَـا سَتَعُـوْدُ

وقالَ لبيدٌ [في « ديوانهِ » ٣٠٨ مِنَ الكاملِ] :

صَـادَفْـنَ مِنْهَـا غِـرَّةً فَـأَصَبْنَهَـا إِنَّ ٱلْمَنَـايَـا لاَ تَطِيْشُ سِهَـامُهَـا

ولمَّا دخلَ عليٌّ ٱبنُ أَبي طالِبٍ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مدائِنَ كسرىٰ . . نظرَ إِلىٰ الإِيوانِ ، فأنشدَهُ بعضُ مَن حضرَ قولَ الأسودِ بنِ يعفرَ [في « الأغاني » ١٣/ ٢١ مِنَ الكاملِ] :

مَـاذَا أُؤَمِّـلُ بَعْـدَ آلِ مُحَـرِّقٍ ... تَـرَكُـوا مَنَـازِلَهُـمْ وَبَعْـدَ إِيَـادِ
أَهْلِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَىٰ مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَـأَنَّمَـا كَـانُـوا عَلَـىٰ مِيْعَـادِ
فَأَرَىٰ ٱلنَّعِيْمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَىٰ بِهِ ... يَـوماً يَصِيْـرُ إِلَـىٰ بِلَـىً وَنَفَـادِ

فقالَ عليٌّ [في « الأغاني » ١٣/ ٢١] : أبلغُ من ذلكَ قولُهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَٰكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان : ٢٥ـ٢٩] .

وقالَ بعضُهم في رِثاءِ الزهراءِ بـ(الأندلسِ) [في « نفح الطيب » ١/ ٥٢٧ مِنَ السَّريعِ] :

وَقَفْـتُ بِـالـزَّهْـرَاءِ مُسْتَعْبِـراً ... مُعْتَبِـراً أَنْـدُبُ أَشْتَـاتَـا
فَقُلْتُ : يَا زَهْرَا أَلاَ فَارْجِعِيْ ... قَالَتْ : وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا ؟!
فَلَـمْ أَزَلْ أَبْكِـيْ وَأَبْكِـيْ بِهَـا ... هَيْهَـاتَ يُغْنِيْ الـدَّمْـعُ هَيْهَـاتَـا
كَـأَنَّمَـا آثَـارُ مَـنْ قَـدْ مَضَـىٰ ... نَـوَائِـحٌ يَنْـدُبْـنَ أَمْـوَاتَـا

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٧٠ مِنَ الكاملِ] :

أَيْنَ ٱلَّذِيْ ٱلهَرَمَانِ مِنْ بُنْيَانِهِ ... مَا حَالُهُ مَا يَوْمُهُ مَا ٱلمَصْرَعُ[1]؟

---

(١) الهَرَمَانِ : بناء عظيم بأرضِ (مصرَ) ، واختلف بهما اختلافاً كثيراً ، ٱرتفاعُ كلِّ واحدٍ منهما أربعُ مئةِ ذراعٍ ، وهما ثابتانِ ، ولا يُعرفُ الباني لهما ، وقال =

تَتَخَلَّفُ ٱلآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا حِيناً وَيُدْرِكُهَا ٱلْفَنَاءُ فَتَتْبَعُ

وقالَ سلمَةُ بنُ زيدٍ الفهميُّ يصفُ حالَ قومِهِ [مِنَ الخفيفِ] :

دَرَجَ ٱللَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ عَلَىٰ فَهْـمِ بْنِ عَمْرٍو فَأَصْبَحُوْا كَالرَّمِيْمِ
وَخَلَتْ دَارُهُمْ فَأَضْحَتْ يَبَاباً بَعْدَ عِزٍّ وَثَرْوَةٍ وَنَعِيْمِ
وَكَذَاكَ ٱلزَّمَانُ يَذْهَبُ بِالنَّا سِ وَتَبْقَىٰ دِيَارُهُمْ كَالرُّسُوْمِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٢٩٧ مِنَ الوافرِ] :

هَبِ ٱلدُّنْيَا تُسَاقُ إِلَيْكَ عَفْواً أَلَيْسَ مَصِيْرُ ذَلِكَ لِلزَّوَالِ
فَمَا تَرْجُوْ بِشَيْءٍ لَيْسَ يَبْقَىٰ وَشِيْكاً مَا تُغَيِّرُهُ ٱللَّيَالِيْ

ولقد أَجادَ طرفَةُ بنُ العبدِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٣٦-٣٧-١٥٠-١٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلْعُمْرَ كَنْزاً نَاقِصاً كُلَّ لَيْلَةٍ وَمَا تَنْقُصُ ٱلأَيَّامُ وَٱلْعُمْرُ يَنْفَدِ
لَعَمْرُكَ إِنَّ ٱلْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ ٱلْفَتَىٰ لَكَالطِّوَلِ ٱلْمُرْخَىٰ وَثِنْيَاهُ فِيْ ٱلْيَدِ[1]
إِذَا شَاءَ يَوْماً قَادَهُ بِزِمَامِهِ وَمَنْ كَانَ فِيْ حَبْلِ ٱلْمَنِيَّةِ يَنْقَدِ
أَرَىٰ ٱلْمَوْتَ لاَ يَرْعَىٰ عَلَىٰ ذِيْ جَلاَلَةٍ وَإِنْ كَانَ فِيْ ٱلدُّنْيَا عَزِيْزاً بِمَقْعَدِ
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِيْ وَإِنِّيْ لَوَاجِلٌ أَفِيْ ٱلْيَوْمِ إِقْدَامُ ٱلْمَنِيَّةِ أَوْ غَدِ
لَعَمْرُكَ مَا ٱلأَيَّامُ إِلاَّ مُعَارَةٌ فَمَا ٱسْطَعْتَ مِنْ مَعْرُوْفِهَا فَتَزَوَّدِ

وقالَ أعشىٰ وائِلٍ [مِنَ الخفيفِ] :

ذَاكَ عَيْشٌ شَهِدْتُهُ ثُمَّ وَلَّىٰ كُلُّ عَيْشٍ مَصِيْرُهُ لِلزَّوَالِ

وخرَجَ الإِمامُ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ مرَّةً إِلىٰ الجبَّانَةِ ، ووقفَ علىٰ

= الواحديُّ : أَحدُهُما : قبرُ شدَّادِ بنِ عادٍ ، والآخرُ : قبرُ إرمَ ذاتِ العمادِ .

(١) الطولُ : الحبلُ . ثِنْياهُ : ما أنثنىٰ منهُ .

المقابرِ ، ثمَّ قالَ [في «المستطرف» ٢/٦١٠] : يا أَهلَ التُّربَةِ ، يا أَهلَ الكُربَةِ ، يا أَهلَ الغُربَةِ ، أَمَّا الأَزواجُ . . فقد نكَحَتْ ، وأَمَّا الأَموالُ . . فقد قُسِمَتْ ، وأَمَّا الدُّورُ . . فقدْ سُكِنَتْ ، هٰذا خبرُ ما عندَنا ، فما خبرُ ما عندَكُمْ ؟ ثمَّ قالَ : أَمَا لَو أُذِنَ لَهم في المقالِ . . لَقالُوا : إن خيرَ الزادِ التقوىٰ .

ويروىٰ : أَنَّ المتوكِّلَ العبَّاسيَّ بلغَهُ عَنِ ٱلهَادي الدعاءُ إِلىٰ نفسِهِ ، وأَنَّهُ يكاتِبُ في ذلكَ ، فأَمرَ بكبْسِ دارِهِ وإِشخاصهِ علىٰ حالِهِ ، فأَلفَوهُ يتهجَّدُ ، فجاؤوا بهِ ، وعرَّفوهُ براءَتَهُ ، فلاطفَهُ وقضىٰ حاجتَهُ ، والتمسَ منهُ أَن يرويَ لهُ شعراً، فٱعتذرَ بقلَّةِ روايتهِ فأَلَحَّ عليهِ، فقالَ [الأبيات في «المستطرف» ٢/ ٦٠٥ مِنَ البسيطِ] :

بَاتُوا عَلَىٰ قُلَلِ ٱلأَجْبَالِ تَحرُسُهُمْ غُلْبُ ٱلرِّجَالِ فَمَا أَغْنَتْهُمُ ٱلقُلَلُ
وَٱسْتُنْـزِلُوْا بَعْدَ عِزٍّ عَنْ مَعَاقِلِهِـمْ وَٱسْتُوْدِعُوْا حُفَراً يَا بِئْسَ مَا نَزَلُوْا
نَادَاهُمُ صَارِخٌ مِنْ بَعْدِ مَا قُبِرُوْا : أَيْـنَ ٱلأَسِـرَّةُ وَٱلتِّيْجَـانُ وَٱلْحُلَـلُ ؟
أَيْـنَ ٱلْـوُجُـوْهُ ٱلَّتِـيْ كَـانَـتْ مُنَعَّمَـةً مِنْ دُوْنِهَا تُضْرَبُ ٱلأَسْتَارُ وَٱلْكُلَلُ ؟
فَأَفْصَحَ ٱلْقَبْرُ بِٱلْمَعْنَىٰ وَقَالَ لَهُ : تِلْـكَ ٱلْـوُجُـوْهُ عَلَيْهَـا ٱلـدُّوْدُ يَقْتَتِـلُ
يَا طَالَمَا أَكَلُوا دَهْراً وَمَا شَرِبُوْا فَأَصْبَحُوْا بَعْدَ ذَاكَ ٱلأَكْلِ قَدْ أُكِلُوْا

وقالَ القطبُ الحدَّادُ [في «ديوانه» ٥٠٦ مِنَ البسيطِ] :

تِلْكَ ٱلْقُصُورُ وَتِلْكَ ٱلدُّوْرُ خَاوِيَةٌ يَصِيْحُ فِيْهَا غُرَابُ ٱلْبَيْنِ بِٱلْوَهَنِ
فَلَوْ مَرَرْتَ بِهَا وَٱلْبُوْمُ يَنْدُبُهَا فِيْ ظُلْمَةِ ٱللَّيْلِ لَمْ تَلْتَذَّ بِٱلْوَسَنِ

وقالَ مِن أُخرىٰ [في «ديوانه» ٤٤٦ مِنَ البسيطِ] :

يَا صَاحِبِيْ إِنَّ دَمْعِيْ ٱلْيَوْمَ يَنْهَمِلُ عَلَىٰ ٱلْخُدُوْدِ حَكَاهُ ٱلْعَارِضُ ٱلْهَطِلُ
وَفِيْ ٱلْفُؤَادِ وَفِيْ ٱلأَحْشَاءِ نَارُ أَسَىً إِذَا أَلَـمَّ بِهَـا ٱلتَّـذْكَـارُ تَشْتَعِـلُ

عَلَىٰ ٱلأَحِبَّةِ وَٱلإِخْوَانِ إِذْ رَحَلُوْا ... إِلَىٰ ٱلْمَقَابِرِ وَٱلأَلْحَادِ وَٱنْتَقَلُوا
كُنَّا وَكَانُوْا وَكَانَ ٱلشَّمْلُ مُجْتَمِعاً ... وَٱلـدَّارُ آهِلَـةٌ وَٱلْحَبْـلُ مُتَّصِـلُ
حَدَا بِهِمْ هَاذِمُ ٱللَّذَّاتِ فِيْ عَجَلٍ ... فَلَمْ يَرِيْمُوْا وَعَنْ أَحْبَابِهِمْ شُغِلُوْا
وَغَـافِـلٍ لَيْـسَ بِـٱلْمَغْفُوْلِ عَنْـهُ وَإِنْ ... طَالَ ٱلْمَدَىٰ غَرَّهُ ٱلإِمْهَالُ وَٱلأَمَلُ
قُلْ لِلْحَزِيْنِ ٱلَّذِيْ يَبْكِيْ أَحِبَّتَهُ ... ٱبْـكِ لِنَفْسِـكَ إِنَّ ٱلأَمْـرَ مُقْتَبِـلُ

ومَاتَ لبعضِ الخلفاءِ ولدٌ ، كانَ ألذَّ لهُ مِنَ ٱلمُنىٰ ، وأعجبَ إليهِ مِنَ ٱلعَافيَةِ ، وأعذبَ لديهِ مِن صوبِ الغمامِ ، فتنكَّرَ حالُهُ ، وٱمتنعَ عَنِ ٱلشَّرابِ والطعامِ ، حتَّىٰ دخلَ عليهِ بعضُهم ، فقالَ لهُ [بنحوها في « البيان والتبيين » ١/٦٠٥] : إنَّ ٱلقُرآنَ عَليكم نزلَ ، فأنتمْ أعرفُ بتأويلِهِ ، وإنَّ النبيَّ مِنكم ٱبتُعِثَ ، فأنتم أعرفُ بسنَّتِهِ ، وإنَّا لا نُعلِّمُكَ شيئاً [نراكَ] جهلتَهُ ، وإنَّما نذكِّرُكَ بِما لعلَّ المصيبةَ أنستْكَ إيَّاهُ ، وهـٰذهِ الأبياتُ قالَها بعضُ مَن أصابَهُ مثلُ ما أصابكَ ، وأنشدَ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَـلِ ٱلـدَّهْـرُ إِلاَّ لَيْلَـةٌ وَنَهـارُهَـا ... وَيَوْمٌ إِلَىٰ يَوْمٍ وَشَهْرٌ إِلَىٰ شَهْرِ
سَرَيْنَا وَأَدْلَجْنَا فَكَانَتْ رِكَابُنَا ... تَسِيْرُ بِنَا فِيْ غَيْرِ بَحْرٍ وَلاَ بَرِّ
مَنَايَا يُقَرِّبْنَ ٱلْبَعِيْدَ إِلَىٰ ٱلْبِلَىٰ ... وَيُدْنِيْنَ أَشْلاَءَ ٱلْكِرَامِ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ
وَيَتْـرُكْـنَ أَزْوَاجَ ٱلْغَيُـوْرِ لِغَيْـرِهِ ... وَيَقْسِمْنَ مَا بَقَّىٰ ٱلشَّحِيْحُ مِنَ ٱلْوَفْرِ(١)
لَعَمْرِيْ لَئِنْ أَتْبَعْتَ عَيْنَيْكَ مَا مَضَىٰ ... مَعَ ٱلدَّهْرِ أَوْ سَاقَ ٱلْحِمَامُ إِلَىٰ ٱلْقَبْرِ
لَتَسْتَنْفِدَنْ مَاءَ ٱلشُّؤُوْنِ بِأَسْرِهَا ... وَلَوْ كُنْتَ تُمْرِيْهِنَّ مِنْ ثَبَجِ ٱلْبَحْرِ
تَبَيَّـنْ فَـإِنْ كَـانَ ٱلْبُكَـا رَدَّ هَـالِكـاً ... عَلَىٰ أَحَدٍ فَٱجْهَدْ بُكَاكَ عَلَىٰ عَمْرِو
وَلاَ تَبْكِ مَيْتاً بَعْدَ مَيْتٍ أَجَنَّهُ ... عَلِيٍّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِيْ بَكْرِ(٢)

---

(١) الوفر من المال والمتاع : الكثير الواسع .
(٢) الأَبياتُ الأَربعُ الأُوَلُ لأَبي العتاهيَةِ في « ديوانهِ » (٥٥٢ـ٥٥٣) ، وكذا في =

وأظنُّ الأبياتَ تداخلَتْ علىٰ الزجَّاجِ ؛ فإنِّي أَحفظُها من « أَماليهِ » ، مَعَ أني رأَيْتُها بعدَ ذلكَ متفرِّقَةً لِغيرِ واحِدٍ ، ثمَّ قالَ لِلْخليفَةِ وهٰذا بيتٌ واحدٌ أُعزِّيكَ بهِ وهُوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَوَّنَ بَعْضَ ٱلْوَجْدِ عَنِّيَ أَنَّنِيْ أُجَاوِرُهُ فِي دَارِهِ ٱلْيَوْمَ أَوْ غَدَا[1]

وقد سبقَ لَنا في المجلسِ السابعِ أَنْ ذكرَنا هٰذا البيتَ ، معَ ما يناسبُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

لَوْلاَ مُفَارَقَةُ ٱلأَحْبَابِ مَا وَجَدَتْ لَهَا ٱلْمَنَايَا إِلىٰ أَرْوَاحِنَا سُبُلاَ

ويروىٰ : أَنَّ الفضلَ بنَ سهلٍ أُصيبَ بِٱبنٍ يقالُ لَهُ العبَّاسُ ، فٱشتدَّ جزَعُهُ عليهِ ، فدخَلَ عليهِ إِبراهيمُ بنُ موسىٰ بنِ جعفرٍ العلويُّ يعزيِّهِ ، وأَنشدَهُ [مِنَ الكاملِ] :

اِصْبِرْ نَكُنْ بِكَ صَابِرِيْنَ فَإِنَّمَا صَبْرُ ٱلرَّعِيَّةِ بَعْدَ صَبْرِ ٱلرَّاسِ
خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَبَّاسِ رَبُّكَ بَعْدَهُ وَٱللهُ خَيْرٌ مِنْكَ لِلْعَبَّاسِ

= « أمالي الزجاجي » (ص/١٠١) ، وآخرُ بيتين للحُطيئَةِ في « ديوانهِ » (١٦٣) ، بل قال محقق « أمالي الزجاجي » (ص/٨ـ٩) عبد السلام هارون : هو عبد الله بن أراكة الثقفي وعزاه لـ : « أمالي المرتضى » و« حماسة » ابن الشجري ، وقال في « العقد » (٣/ ٣٠٦) لأراكة الثقفي ويبدو أنه الصواب .

وزادها بيتاً وهو ثالثها فصارت خمسة :

فقلت لعبد الله إذ حنَّ باكياً تعزَّ ، وماء العين منهمرٌ يجري

(١) جاء في « البيان والتبيين » (٤/ ٩٧) أن منشد الشعر يحيى بن منصور ، ولم يصرح بنسبته إليه .

وما أحسنَ ما قالهُ إبراهيمُ بنُ مهديٍّ ، وهوَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ وَإِنْ قُدِّمْتِ قَبْلِيْ لَعَالِمٌ بِأَنِّيْ وَإِنْ أَبْطَأْتُ عَنْكِ قَرِيْبُ
وَإِنَّ صَبَاحاً نَلْتَقِيْ فِيْ مَسَائِهِ صَبَاحٌ إِلَىٰ قَلْبِيْ ٱلْغَدَاةَ حَبِيْبُ

وقالَ سلمةُ بنُ يزيدَ في رثائِهِ لمسلمَةَ بنِ مغراءَ ، وكانَ أخاً لهُ مِن أُمِّهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنْتُ إِذَا يَنْأَىٰ بِهِ بَيْنُ لَيْلَةٍ يَبِيْتُ عَلَىٰ ٱلأَحْشَاءِ مِنْ بَيْنِهِ جَمْرُ
فَهَـٰذَا لِبَيْنٍ قَدْ عَلِمْنَا إِيَابَهُ فَكَيْفَ لِبَيْنٍ كَانَ مَوْعِدَهُ ٱلْحَشْرُ ؟
وَهَوَّنَ وَجْدِيْ أَنَّنِيْ سَوْفَ أَغْتَدِيْ عَلَىٰ إِثْرِهِ يَوْماً وَإِنْ نُفِّسَ ٱلْعُمْرُ

وممَّا جاءَ في مجرَّدِ التفجُّعِ ، المنادي بحقارَةِ الدنيا ، وسرعَةِ فراقِها ، ما حكاهُ الأصمعيُّ قالَ : رأيتُ ٱمرأةً بالباديَةِ تطوفُ علىٰ راحلتِها بقبرٍ ، وهِيَ تبكي وتنشدُ [مِنَ الكاملِ] :

يَا قَبْرَ سَيِّدِنَا ٱلْمِجَنَّ سَمَاحَةً صَلَّىٰ ٱلإِلَـٰهُ عَلَيْكَ يَا قَبْرُ
مَا ضَرَّ لَحْداً أَنْتَ سَاكِنُهُ أَنْ لاَ يَمُرَّ بِأَرْضِهِ ٱلْقَطْرُ
فَلْيَنْبُعَنَّ سَمَاحُ جُودِكَ فِيْ ٱلثَّرَىٰ وَلْيُوْرِقَنَّ بِقُرْبِكَ ٱلصَّخْرُ
وَإِذَا غَضِبْتَ تَصَدَّعَتْ فَرَقاً مِنْكَ ٱلْجِبَالُ وَخَافَكَ ٱلذُّعْرُ[1]
وَإِذَا رَقَدْتَ فَأَنْتَ مُنْتَبِهٌ وَإِذا ٱنْتَبَهْتَ فَوَجْهُكَ ٱلْبَدْرُ

قالَ : فأعجبَني شعرُها ، ودنوتُ لأسألَها ، فسقطَتْ مَيْتَةً ، وقد طرقَ سَمعي بعضُ هـٰذِهِ الأبياتِ أَوْ كلُّها باللفظِ أو بالمعنىٰ ، في رثاءِ الإمامِ الغالبِ سيِّدِنا عليِّ ٱبنِ أَبي طالِبٍ .

---

(١) الذعرُ : الفزعُ .

ويروىٰ : عَنِ ٱلأصمعيِّ ـ أيضاً ـ أو عَن غيرِهِ : أَنَّ ٱمرأَةً وقفَتْ علىٰ قبرٍ ، فبكَتْ وأَبكَتْ ، ثمَّ أَنشأَتْ تقولُ [مِنَ الكاملِ] :

مَا حَالُ مَنْ سَكَنَ ٱلثَّرَىٰ مَا حَالُهُ   مَا حَالُهُ ٱنْقَطَعَتْ هُنَاكَ حِبَالُهُ ؟

أَمْسَىٰ وَلاَ رَوْحُ ٱلْحَيَاةِ يُصِيبُهُ   يَوْماً وَلاَ لُطْفُ ٱلْحَبِيبِ يَنَالُهُ

أَمْسَىٰ قَدِ ٱمْتَحَشَتْ مَحَاسِنُ وَجْهِهِ   وَتَقَطَّعَتْ فِي لَحْدِهِ أَوْصَالُهُ

أَمْسَىٰ غَرِيباً مُفْرَداً فِيْ حُفْرَةٍ   وَتَشَتَّتَتْ بَعْدَ ٱلنِّظَامِ عِيَالُهُ

وَتَبَدَّلَتْ مِنْهُ ٱلْمَجَالِسُ غَيْرَهُ   وَتَقَسَّمَتْ مِنْ بَعْدِهِ أَمْوَالُهُ

ويروىٰ : أَنَّ فاطمةَ بنتَ الحسنِ بنِ عليٍّ ، نظرَتْ إِلىٰ جنازَةِ الحسنِ بنِ الحسينِ ، فأُغْشِيَ عَلَيها ، ولمَّا أَفاقَتْ . . قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَانُوْا رَجَاءً ثُمَّ عَادُوْا رَزِيَّةً   لَقَدْ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزَايَا وَجَلَّتِ[1]

---

(١) الرَّزايا : المصائِبُ . والمعنىٰ : أَنَّ بني هاشمٍ كانوا ملجأً للنَّاسِ في حوائِجِهم ، وغوثاً لهم في شدائِدِهم ، فلمَّا ٱستشهدوا . . صاروا مصيبةً عليهم ، فما أَشَدَّ تلكَ المصيبةَ وأَعظمَها .

وهذا البيتُ أَحدُ أَبياتٍ لسليمانَ بنِ قتَّةَ قالَهُ في الحُسينِ ـ رَضيَ ٱللهُ عنهُ ـ وفي أَصحابِهِ حينَ ٱستُشهِدوا ، ومنَ ٱلأبياتِ كما في « ديوان الحماسة » (١/٣٩٩) :

مَرَرْتُ عَلَىٰ أَبْيَاتِ آلِ مُحَمَّدٍ   فَلَمْ أَرَهَا أَمْثَالَهَا يَوْمَ حُلَّتِ

فَلاَ يُبْعِدِ ٱللهُ ٱلدِّيَارَ وَأَهْلَهَا   وَإِنْ أَصْبَحَتْ مِنْهُمْ بِرَغْمِيْ تَخَلَّتِ

أَلاَ إِنَّ قَتْلَىٰ ٱلطَّفِّ مِنْ آلِ هَاشِمٍ   أَزَلَّتْ رِقَابَ ٱلْمُسْلِمِيْنَ فَذَلَّتِ

ويروى البيت أيضاً بلفظ :

وَكَانُوْا غِيَاثاً ثُمَّ أَضْحَوْا رَزِيَّةً   أَلاَ عَظُمَتْ تِلْكَ ٱلرَّزَايَا وَجَلَّتِ

ثمَّ ضربَتْ علىٰ قبرِهِ فسطاطاً ، أَقامَت فيهِ سنَةً ، ثمَّ ٱنصرفَتْ ، فيقالُ : إِنَّها سمعَتْ هاتفاً يقولُ : هل وَجدوا ما طَلَبوا؟ فقالَ لهُ آخرُ : بل أَيِسوا فٱنقلبُوا .

وحجَّتِ ٱمرأَةٌ مِنَ ٱلعَرَبِ ، معَها ٱبنٌ لَها أُصيبَتْ بهِ ، ولمَّا دفَنوهُ . . قامَتْ علىٰ قبرِهِ وهيَ موجَعةٌ تقولُ [في «جمهرة خطب العرب» ٣/٢٧٣] : يا بُنَيَّ ، واللهِ لقد غذوتُكَ رضيعاً ، وفقدتُكَ سريعاً ، وكأَنْ لم تكنْ بينَ الحالتينِ مدةٌ أَلتذُّ فيها بعيشِكَ ، وأَتمتَّعُ فيها بالنظرِ إِليكَ ، وما بقيَ من عمري أَذوبُ فيهِ كمداً عليكَ ، ثمَّ قالَتْ :

اللَّهُمَّ : منكَ العدلُ ، ومِن خلقكَ الجَورُ ، وهبتَهُ قُرَّةَ عينٍ لي ، فلم تمتِّعني بهِ كثيراً ، بل سلبتَنيهِ وشيكاً ، ثمَّ أَمرتَني بالصبرِ ، ووعدتَني عليهِ بالأجرِ ، فصدَّقْتُ وعدَكَ ، ورضيتُ قضاءَكَ ، فٱرحمِ ٱللهمَّ غربتَهُ ، وٱستُرْ عورَتَهُ يومَ تنكشفُ العوراتُ ، وتظهرُ السَّوْءَاتُ ، ورحمَ اللهُ مَن ترحَّمَ علىٰ مَنِ ٱستودعتُهُ الردمَ ، ووسَّدْتُهُ الثرىٰ ، ثم قالَت :

أَيْ بُنَيَّ ، لقد تزودْتُ مِنَ ٱلدُّنيا لسفَري ، فليتَ شعريَ! ما زادُكَ لسفرِكَ ويومِ معادِكَ؟

اللَّهُمَّ : إِني أَسأَلكَ الرضا عنهُ برضايَ عنْهُ ، ثمَّ قالَتِ :

ٱستودَعتُكَ اللهَ الذي ٱستودَعَنيكَ جنيناً في الأحشاءِ ، وأَذاقني عليكَ غصَّةَ الثكلىٰ ، وا ثُكلَ الأُمَّهاتِ ، وحرارةَ قلوبِهنَّ ، وأَطولَ سهرِهنَّ وكثرةَ عنائِهنَّ .

وذكرَ غيرُ واحدٍ : أَنَّهُ لمَّا هلكَ حنظلةُ بنُ نهدِ بنِ زيدٍ . . لم يدفَنْ ثلاثةَ أَيَّامٍ ، حتَّىٰ أَتاهُ مِن كلِّ حيٍّ وجوهُهُم ، فقامَتِ ٱلخُطباءُ بالتعزيَةِ ، وقيلَتْ فيهِ الأَشعارُ ، حتَّىٰ عُدَّ ذلكَ اليومُ من أَكبرِ مواسمِ

العرَبِ ، فلمَّا وُوْرِيَ في حفرتِهِ . . قامَ جديلَةُ بنُ أَسدِ بنِ ربيعَةَ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هـٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ ، فَكَّاكُ الأَسيرِ ، وطارِدُ العسيرِ ، فهل منكُمُ ٱليَومَ مجازٍ بفعلِهِ ، أو حاملٌ عنهُ من ثقلِهِ ؟ كلاَّ ، وأَجل ، إنَّ معَ كلِّ جرعَةٍ لكم شَرَقاً ، وفي كلِّ أكلَةٍ لَكم غُصصاً ، لا تنالونَ نعمةً إلاَّ بفراقِ أُخرىٰ ، ولا يَستقبلُ معمَّرٌ يوماً مِن عمرِهِ إلاَّ بهدْمِ آخرَ مِن أَجلِهِ ، ولا يجدُ زيادَةً في أكلِهِ إلاَّ بنفادِ ما قبلَهُ مِن رزقِهِ ، ولا يحيا لَهُ أَثَرٌ إلاَّ ماتَ أَثرٌ ، إنَّ في هـٰذا لعبراً ومزدجراً لِمَن نظرَ ، لو أَصابَ أَحدٌ سُلَّماً إلىٰ البقاءِ ، ووجدَ سبيلاً عَن الفَنَاءِ . . لكانَ ٱبنَ داوودَ المقرونَ لهُ بالنبوَّةِ ، ملكَ الإنسِ والجنِّ[1] ، ثمَّ ذكرَ شعراً طويلاً لا حاجَةَ بنا إليهِ .

وقامَ بعدَهُ ٱبنُ كُثَيِّرِ بنِ عذرَةَ بنِ سعدِ بنِ تميمٍ فقالَ :

أَيُّها الناسُ ، هـٰذا حنظلَةُ بنُ نهدٍ معدنُ الحُكماءِ ، وعزُّ الضعَفاءِ ، معطي ٱليانِعَ ، ومطعمُ الجائِعَ ، فهل منكُم لهُ مانعٌ ، أَو لِمَا حلَّ بهِ دافِعٌ؟!

أَيُّها الناسُ ، إنَّما البقاءُ بعدَ الفناءِ ، وقد خُلِقنا ولم نَكُ شيئاً ، وسنعودُ إلىٰ ذلكَ ، إنَّ العواريَ اليومَ ، والهباتِ غداً ، وَرِثنا مَن قَبلنا ، ولَنا وارثونَ ، ولاَ بُدَّ من رحيلٍ عَن محلٍّ نازلٍ ، وقد أَصبَحتُم في منزلٍ لا يستَتِبُّ فيهِ سرورٌ بيُسرٍ . . إلاَّ تبعَهُ حصيرٌ بعسرٍ ، ولا تطولُ فيهِ حياةٌ مَرجُوَّةٌ . . إلاَّ ٱخترمَها موتٌ مخيفٌ ، ولا يوثَقُ فيهِ بخلُقٍ باقٍ . . إلاَّ وسيتبعُهُ سابقٌ ماضٍ ، فأَنتم أَعوانٌ لِلْحتوفِ علىٰ

---

(١) أي : سليمان بن داوود عليهما السلام .

أَنفسِكم ، لَها بكلِّ سبسبٍ[1] مِنكم صريعٌ مجتزَرٌ ، معازِبٌ[2] منتظرٌ ، هٰذهِ أَنفسكُم تسوقُكُم إِلىٰ العَناءِ ، فَلِمَ تطلبونَ البقاءَ؟ ٱطلبوا الخيرَ ومُوليَهُ ، وٱحذَروا الشَّرَّ ومُبديَهُ ، وٱعلموا أَنَّ خيراً مِنَ ٱلخيرِ معطيهِ ، وشرّاً مِنَ ٱلشرِّ فاعلُهُ ، ثم أَنشأَ يقولُ شعراً لا نُكثِرُ بهِ[3] .

وكتبَ القاضي الفاضلُ لأَحدِ أَبناءِ صلاحِ الدينِ الأَيوبيِّ ، حينَما ماتَ بطاقَةً يقولُ فيها [في « السير » ٢١/ ٢٩٠] : كتبتُ إِلىٰ مَولانا الظاهرِ ، أَحسنَ اللهُ عزاءَهُ ، وجبرَ مصابَهُ ، وجعلَ فيهِ الخَلَفَ في الساعَةِ التي زُلزِلَ المسلمونَ فيها زلزالاً شديداً ، وقد حَفَرتِ ٱلدموعُ المحاجِرَ ، وبلغَتِ ٱلقلوبُ الحناجِرَ ، وقد ودَّعْتُ أَباكَ ومَخدومِيَ وداعاً لا لقاءَ بعدَهُ ، وأَسلمتُهُ إِلىٰ اللهِ ، مغلوبَ الحيلَةِ ، ضعيفَ القوَّةِ ، راضياً عَنِ اللهِ تعالىٰ ، وبالبابِ من الجنودِ المجنَّدَةِ ، والأَسلحَةِ المغمَّدَةِ ، ما لا يدفَعُ بلاءً ، ولا يرُدُّ قضاءً ، وتدْمَعُ العينُ ، ويخشعُ القلبُ ، ولا نقولُ إِلاَّ ما يُرضي الربَّ : وإِنَّا عليكَ يا يوسفُ لمحزونونَ ، وأَمَّا ما يحتاجُ إِليهِ من الوَصايا . . فقد شغلَني عنهُ المصابُ ، ولائحُ الأَمرِ إِنَّهُ إِن وقَعَ ٱتفاقٌ . . فما عدمتُم إِلاَّ شخصَهُ الكريمَ ، وإِنْ كانَ غيرَ ذلكَ . . فالمصائِبُ المستقبلَةُ أَهونُها موتُهُ ، وهوَ الهَولُ العظيمُ .

---

(١) السبسبُ : المفازةُ .

(٢) المعازبُ : البعيدُ .

(٣) ذكرَ الشيخُ أَبو نُعيم في « الحليةِ » (٤/ ٣١) وٱبنُ كثيرٍ في « البدايةِ والنهايَةِ » (٩/ ٢٨٢) : هذا الكلامَ الذي تقدَّمَ كُلَّهُ الذي عزاهُ الشيخُ لابنِ جديلةَ ، والذي عزاهُ إِلىٰ ٱبنِ كثيرٍ علىٰ أَنَّهُ موعظةٌ لوهبِ بنِ منبِّهٍ اهـ .

وبعضُ هـٰذا ـ معَ ما سبقَ ـ ناظِرٌ إِلىٰ ما صنعَ عمرُو بنُ العاصِ ، فقد رويَ : أَنَّهُ لمَّا حضرَهُ الموتُ . . ٱستدعىٰ عساكرَهُ ، وأَمرَهم بأَنْ يستَلْئِمُوا ، وأَمرَ بالفرسانَ فرَكِبوا ، ولمَّا ٱجتمَعوا علىٰ بَكرَةِ أَبيهِم . . قالَ : لقد نزلَ بي مَن الأَمرِ ما تَرونَ ، فهَل تملكونَ لي نفعاً ، أَو تغنُونَ عنِّي دفعاً؟ وهوَ يعرفُ أَنَّهم لا يقدرونَ علىٰ شيءٍ ، ولـٰكنَّهُ أَرادَ ٱستخراجَ العبرَةِ مِنهم ، وأَنْ يريَهم حقارَةَ الدُّنيا ، وأَنَّ ما حُشِرَ لَهُ مِنْ جنودِ (مصرَ) الفيحاءِ لا يُغني فتيلاً ولا نقيراً مِن أَمرِ اللهِ ، فسبحانَ مَن لا يدومُ إِلاَّ ملكُهُ .

وأَلَمَّ بهِ الناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤ مِنَ الكاملِ] :

مَا زِلْتَ تَدْفَعُ كُلَّ أَمْرٍ فَادِحٍ حَتَّىٰ أَتَىٰ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِيْ لاَ يُدْفَعُ
فَظَلِلْتَ تَنْظُرُ لاَ رِمَاحُكَ شُرَّعٌ فِيْمَا عَرَاكَ وَلاَ سُيُوْفُكَ قُطَّعُ
بِأَبِيْ ٱلْوَحِيْدُ وَجَيْشُهُ مُتَكَاثِرٌ يَبْكِيْ وَمِنْ شَرِّ ٱلسِّلاَحِ ٱلأَدْمُعُ

ومِن كلام قالَهُ الإِمامُ ، وهُوَ يجهِّزُ رسولَ اللهِ ﷺ [في « نهج البلاغة » ٢٧٢] : بأَبي أَنتَ وأُمِّي يا رَسولَ اللهِ ، لقدِ ٱنقطَعَ بموتِكَ ما لا ينقطِعُ بموتِ غيركَ من النُّبوَّةِ والأَنباءِ وأَخبارِ السماءِ ، وخُصِّصْتَ حتَّىٰ صِرْتَ مسلِّياً عمَّن سواكَ ، وعُمِّمْتَ حتَّىٰ صارَ الناسُ فيكَ سواءً ، ولولا أَنَّكَ أَمرتَ بالصبرِ ، ونهيتَ عَنِ ٱلجزَعِ . . لأَنفذْنا عليكَ ماءَ الشؤونِ ، ولكانَ الداءُ مماطلاً ، والكمدُ محالفاً ، وقلاَّ لكَ ، ولـٰكنَّهُ ما لا يُملَكُ ردُّهُ ، ولا يُستَطاعُ دفعُهُ ، بأَبي أَنتَ وأُمي ، ٱذكرْنا عندَ ربِّكَ ، وٱجعَلْنا مِن بالِكَ .

ولَمَّا دُفِنَ ﷺ . . قامَ علىٰ قبرِهِ فقالَ [في « نهج البلاغة »] : إِنَّ الصبرَ لجميلٌ إِلاَّ عنكَ ، وإِنَّ الجزعَ لقبيحٌ إِلاَّ عليكَ ، وإِنَّ المُصابَ بكَ لجليلٌ ، وإِنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ .

وإنَّهُ وايمُ اللهِ لَمِن أفصحِ الكلامِ ، أمَّا قولُهُ : إنَّ الصبرَ لجميلٌ إلاَّ عنكَ : فقد تَلقَّفَهُ الشعراءُ مِنهُ ، قالَ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كَانَ يُدْعَىٰ لابِسُ ٱلصَّبْرِ حَازِماً   فَقَدْ صَارَ يُدْعَىٰ حَازِماً حِيْنَ يَجْزَعُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣١ مِنَ الكاملِ] :

ٱلصَّبْـرُ أَجْمَـلُ غَيْـرَ أَنَّ تَلَـذُّذاً   فِيْ ٱلْحُبِّ أَوْلَىٰ أَنْ يَكُوْنَ جَمِيْلاَ

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٣ مِنَ الكاملِ] :

أَجِدُ ٱلْجفَاءَ عَلَىٰ سِوَاكِ مُرُوْءَةً   وَٱلصَّبْرَ إِلاَّ فِيْ نَوَاكِ جَمِيْلاَ[1]

وقالَ غيرُهُ [ـ وهو السري الرفاء ـ في « المستطرف » ٢/ ٣٩٨ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلصَّبْرُ يُحْمَدُ فِيْ ٱلْمَوَاطِنِ كُلِّهَا   إِلاَّ عَلَيْـكَ فَـإِنَّـهُ مَـذْمُـوْمُ

وقالتِ ٱلخنساءُ قبلَ ذلكَ [في « ديوانها » ١٢٥ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ يَا صَخْرُ إِنْ أَبْكَيْتَ عَيْنِيْ   فَقَدْ أَضْحَكْتَنِيْ دَهْراً طَوِيْلاَ

بَكَيْتُـكَ فِـي نِسَـاءٍ مُعْـوِلاَتٍ   وَكُنْتُ أَحَقَّ مَنْ أَبْدَىٰ ٱلْعَوِيْلاَ

دَفَعْتُ بِكَ ٱلْجَلِيْلَ وَأَنْتَ حَيٌّ   فَمَنْ ذَا يَدْفَعُ ٱلْخَطْبَ ٱلْجَلِيْلاَ ؟

إِذَا قَبُـحَ ٱلْبُكَـاءُ عَلَـىٰ قَتِيْـلٍ   رَأَيْتُ بُكَاءَكَ ٱلْحَسَنَ ٱلْجَمِيْلاَ

وأمَّا قولُهُ[2] : وإنَّهُ بعدَكَ لقليلٌ . . فقد سبقَ ما يناسبُهُ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٦٣ من البسيط] :

بِمَا بِجَفْنَيْكِ مِنْ سِحْرٍ صِلِي دَنِفاً   يَهْوَىٰ ٱلْحَيَاةَ وَأَمَّا إِنْ صَدَدْتِ فَلاَ

---

(١) الجفاءُ : الامتناعُ . النوىٰ : البعدُ .

(٢) أي : الإمامِ في رثائِهِ ﷺ .

ومِن ذلكَ قولُ زيادٍ في رِثاءِ حبيبِ بنِ المهلَّبِ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَأَبكِيكَ مَا فَاضَتْ دُمُوْعِيْ فَإِنْ تَغِضْ فَحَسْبُكَ مِنِّيْ مَا تَجُنُّ ٱلْجَوَانِحُ
كَأَنْ لَمْ يَمُتْ حَيٌّ سِوَاكَ وَلَمْ تَقُمْ عَلَىٰ أَحَدٍ إِلاَّ عَلَيْكَ ٱلنَّوَائِحُ
لَئِنْ حَسُنَتْ فِيكَ ٱلْمَرَاثِيْ وَصَوْغُهَا لَقَدْ حَسُنَتْ مِنْ قَبْلُ فِيكَ ٱلْمَدَائِحُ
فَمَا أَنَا مِنْ رُزْءٍ وَإِنْ جَلَّ جَازِعٌ وَلاَ بِسُرُوْرٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحُ(١)

وقولُهُ : (سأَبكيكَ ما فاضَت دُموعي . . إلىٰ آخرِ البيتِ) مناسِبٌ لِما سبقَ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٣١٨ مِنَ الخفيفِ] :

شَيْبُ رَأْسِيْ وَذِلَّتِيْ وَنُحُوْلِيْ وَدُمُوْعِيْ عَلَىٰ هَوَاكَ شُهُوْدِيْ

وقامَ بعضُهُم عندَ قبرٍ ، فبكىٰ وٱستبكىٰ ، ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِمَنْ جَدَثٌ أَبْصَرْتُهُ فَشَجَانِيْ وأَرْسَلَ فِيْ شَأْوِ ٱلْهُمُوْمِ عِنَانِيْ
وَقَفْتُ بِهِ حَيْرَانَ وَقْفَةَ هَائِمٍ أُعَالِجُ قَلْباً دَائِمَ ٱلْخَفَقَانِ
وَمَا بِيَ مَنْ فِيْ ٱلْقَبْرِ لَٰكِنْ رَأَيْتُهُ عَلَىٰ كَمَدٍ لاَ بُدَّ فِيْهِ أَرَانِيْ

وقد لَهِجَ أَبو الفضْلِ ٱبنُ العميدِ ، قبلَ نكبتِهِ التي قتلَ فيها ، بهٰذينِ البيتينِ [مِنَ الرَّمَلِ] :

سَكَنَ ٱلدُّنْيَا أُنَاسٌ قَبْلَنَا رَحَلُوْا عَنْهَا وَخَلَّوْهَا لَنَا
وَنَزَلْنَاهَا كَمَا قَدْ نَزَلُوْا وَنُخَلِّيْهَا لِقَوْمٍ بَعْدَنَا

وهي شبيهَةٌ بما سبقَ أَوائِلَ المجلسِ ، عَن عديِّ بنِ زيدٍ بلسانِ الآرامِ . ولي في الموضوعِ الكثيرُ الطيِّبُ ، منهُ قولي [في « ديوان المؤلف » ق ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ أَبْلَغَتْ دُنْيَاكُمُ فِيْ عِظَاتِهَا إِلَيْكُمْ فَهَلاَّ يَسْتَجِيْبُ سَمِيْعُ

---

(١) الأبيات لأشجع السلمي في « ديوان الحماسة » (١/ ٣٥٥).

فَكَمْ قَلَبَتْ ظَهْرَ ٱلْمِجَنِّ لأُمَّةٍ ؟ وَيَا رُبَّ شَمْلٍ عَادَ وَهُوَ صَدِيعُ
وَسَبْعُ ٱلثُّرَيَّا آيِلاَتٌ إِلَىٰ ٱلنَّوَىٰ وَإِنْ طَالَتِ ٱلأَيَّامُ وَهِيَ جَمِيعُ

والكلامُ في ذمِّ الدنيا ، وسرعَةِ فنائِها ، وكثرَةِ عنائِها ، والتواءِ أُمورِها ، وترادُفِ شرورِها ، ووشيكِ ٱنحلالِها ، وتقارُبِ زوالِها . . ما تئِطُّ منهُ بطونُ الأَسفار[1] ، ويتذكَّرُ لأَقلِّهِ أُولوا الأَبصارِ ، ومِن كونِهِ موضعَ ٱتفاقٍ بينَ الأُمَمِ . . لَم يكفِ ٱلاقتصارُ عليهِ في الخُطَبِ الجُمَعِيَّةِ ، كَما هُوَ مذكورٌ في المتونِ ، وربَّما يكونُ بعضُ ما سقناهُ في الكلامِ علىٰ بيتِ المَطْلعِ أَليَقَ بما يلي ، غيرَ أَنَّ الأَبياتَ آخذَةٌ برقابِ بعضِها بعضاً ، فلا بِدْعَ أَنْ كانَ الكلامُ عَليها مِن نوعٍ واحدٍ .

* * *

(١) الأَطيطُ : صوتُ الرِّحالِ إذا ثَقُلَ عليها الرُّكبانُ ، وهوَ هنا كنايةٌ عَن وفرة الكلام في ذم الدنيا في كتب الأقدمين .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٤ مِنَ الكامِلِ] :

أَيْنَ ٱلأَكَاسِرَةُ ٱلجَبَابِرَةُ ٱلأُلَىٰ	كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا

سبحان الدائم الباقي

توضيحٌ لسابقِهِ وتفريعٌ عليهِ ، وفي وَهمي أَنْ قد أَشرتُ مرَّةً إلىٰ حديثِ ٱبنِ الخطَّابِ ، وما تمثَّلَ بهِ مِنَ ٱلأبياتِ ، ولا بأْسَ بإِعادَتِهِ ؛ إِذ لم أَكُنْ علىٰ يقينٍ مِن ذكرِهِ ، فضلاً عَنِ ٱستيفائِهِ ، وحاصلُهُ : أَنَّهُ حجَّ . . فلمَّا كانَ بـ(ضَجْنَانَ)[1] قالَ : لا إِلٰهَ إلاَّ اللهُ العليُّ العظيمُ ، المعطي ما يشاءُ لِمَن يشاءُ ، لَقَد كنتُ أَرعىٰ للخطَّابِ بهٰذا الوادي مع أُخَيَّةٍ لي ، في مدارعِ الصوفِ ، وكانَ فظّاً ، يُتعِبُنا إِذا عمِلنا ، ويضربُنا إِذا قصَّرنا ، وقد أَمسيتُ اليومَ وما بَيني وبينَ اللهِ أَحدٌ ، ثمَّ أَنشدَ متمثِّلاً [الأبيات في « الأغاني » ٣/ ١٢١ وهي لورقة بن نوفل مِنَ البسيطِ] :

لاَ شَيْءَ مِمَّا تَرَىٰ تَبْقَىٰ بَشَاشَتُهُ	يَبْقَىٰ ٱلإلٰهُ وَيُوْدَىٰ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْماً خَزَائِنُهُ	وَٱلْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوْا
وَلاَ سُلَيْمَانَ إِذْ تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ لَهُ	وَٱلإِنْسُ وَٱلْجِنُّ فِيْمَا بَيْنَهَا بَرَدُ[2]
أَيْنَ ٱلْمُلُوْكُ ٱلَّتِيْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا	مِنْ كُلِّ أَوْبٍ إِلَيْهَا رَاكِبٌ يَفِدُ ؟
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُوْدٌ بِلاَ كَذِبٍ	لاَ بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْماً كَمَا وَرَدُوْا

يا ابن آدم . . إنك سائر إلى قبرك فتنبَّه

وقالَ ٱبنُ أَبي طالِبٍ [في « نهج البلاغة » ٢٦٦] : وٱعلَموا أَنَّكم علىٰ

---

(١) جبلٌ بناحيةِ (تهامةَ) .

(٢) البيت في « الأغاني » :

ولا سليمــان إذ دان الشعــوب لــه والجنُّ والإنسُ تجري بينها البُرُدُ

سبيلِ مَن مضىٰ قبلَكم ، مِمَّن كانَ أطولَ أعماراً ، وأَعْمَرَ دياراً ، وأبعدَ آثاراً ، أَصبحَتْ أَصواتُهم هامدةً ، ورياحُهُم راكدَةً ، وديارُهم خاليَةً ، وأَجسامُهم باليَةً ، قَدِ اْستبدَلوا القصورَ بالقبورِ ، والنمارقَ بالصخورِ ، وكَأنْ قَد صِرتُم إِلىٰ ما صاروا إِليهِ ، فاْرتهنكُم ذلكَ المضجَعُ ، وضمَّكُم ذلكَ المستودَعُ ، فكيفَ لَو تناهَتِ الأُمورُ ، وبُعثِرَتِ القُبورُ ، ورُدُّوا إِلىٰ اللهِ مولاهم الحقِّ ، وضَلَّ عَنْهُم ما كانوا يفترونَ .

واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴾

[السجدة : ٢٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًۢا ﴾ [مريم : ٩٨] .

ويقولُ : ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

[العنكبوت : ٤٠] .

ويقولُ : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴾ [الأنعام : ٦] .

ويقولُ : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾

[القصص : ٥٨] .

ويقولُ: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[يس: ٣١].

والآياتُ في الاعتبارِ بالقرونِ الماضيةِ أكثرُ مِن أَنْ تحصرَ .

وقالَ الشريفُ الرضيُّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٧٧-٨٨٠ مِنَ الخفيفِ] :

مَا أَقَلَّ ٱعتِبَارَنَا بِٱلزَّمَانِ ... وَأَشَدَّ ٱغْتِرَارَنَا بِٱلأَمَانِي

وَقَفَاتٌ عَلَىٰ غُرُوْرٍ وَأَقْدَا ... مٌ عَلَىٰ مَزْلَقٍ مِنَ ٱلحَدَثَانِ

كُلُّ يَوْمٍ رَزِيَّةٌ بِفُلاَنٍ ... وَوُقُوْعٌ مِنَ ٱلرَّدَىٰ بِفُلاَنِ

قَدْ مَرَرْنَا عَلَىٰ ٱلدِّيَارِ خُشُوْعاً ... وَرَأَيْنَا ٱلبِنَا فَأَيْنَ ٱلبَانِي ؟

أَيْنَ رَبُّ ٱلسَّدِيْرِ فَٱلْحِيْرَةِ ٱلبَيْـ ... ـضَاءِ أَمْ أَيْنَ صَاحِبُ الإِيْوَانِ ؟!

وَٱلسُّيُوْفُ ٱلْحِدَادُ مِنْ آلِ بَدْرٍ ... وَٱلْقَنَا ٱلصُّمُّ مِنْ بَنِي ٱلرَّيَّانِ

وَٱلْمَوَاضِيْ مِنْ آلِ جَفْنَةَ أَرْسَىٰ ... طُنُباً مُلْكُهُمْ عَلَىٰ ٱلْجَوْلاَنِ[1]

تَتَرَاءَاهُمُ ٱلوُفُوْدُ بَعِيْداً ... ضَارِبِيْنَ ٱلصُّدُوْرَ بِٱلأَذْقَانِ

فِيْ رِيَاضٍ مِنَ ٱلسَّمَاحِ غَوَانٍ ... وَجِبَالٍ مِنَ ٱلحُلُوْمِ رِزَانِ

وَهُمُ ٱلْمَاءُ لَذَّ لِلنَّاهِلِ ٱلظَّمْـ ... ـآنِ بَرْداً وَٱلنَّارُ لِلْحَيْرَانِ

مَا ثَنَتْ عَنْهُمُ ٱلْمَنُوْنُ يَداً شَوْ ... كَاءَ أَطْرَافُهَا مِنَ ٱلْمُرَّانِ[2]

عَطَفَ ٱلدَّهْرُ فَرْعَهُمْ فَرَآهُ ... بَعْدَ بُعْدِ ٱلذُّرَىٰ قَرِيْبَ ٱلمَجَانِي

وَثَنَتْهُمْ بَعْدَ ٱلْجِمَاحِ ٱلْمَنَايَا ... فِيْ عِنَانِ ٱلتَّسْلِيْمِ وَٱلإِذْعَانِ

لَيْسَ يَبْقَىٰ عَلَىٰ ٱلزَّمَانِ جَرِيْءٌ ... فِيْ إِبَاءٍ أَوْ عَاجِزٌ فِيْ هَوَانِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٨١-٣٨٢ مِنَ الكاملِ] :

أَوَ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ ٱلدَّهْرِ ... أَفَلاَ تُسِيْءُ ٱلظَّنَّ بِٱلْعُمْرِ

بَيْنَا ٱلْفَتَىٰ كَٱلطَّوْدِ تَكْنُفُهُ ... هَضَبَاتُهُ وَٱلْعَضْبُ ذُوْ ٱلأَثْرِ

---

(١) الطُّنبُ : حَبلُ الخباءِ . الجَوْلانُ : جبل بالشام معروف يقع جنوب غرب سورية .

(٢) المُرَّانُ : الرماحُ الصلبةُ .

يَـأْبَىٰ ٱلـدَّنِيَّـةَ فِـيْ عَشِيْـرَتِـهِ ... وَيُجَاذِبُ ٱلأَيْدِي عَلَىٰ ٱلْفَخْرِ
زَلَّ ٱلـزَّمَـانُ بِـوَطْءِ أَخْمَصِـهِ ... وَمَـوَاطِـىءُ ٱلأَقْـدَامِ لِلْعَثْـرِ
ثُـمَّ ٱنْثَنَـتْ كَـفُّ ٱلْمَنُـوْنِ بِـهِ ... كَٱلضِّغْثِ بَيْنَ ٱلنَّابِ وَٱلظُّفْرِ[1]
جَمَـعَ ٱلْجُنُـوْدَ وَرَاءَهُ وَكَـأَنَّمَـا ... لاَقَتْـهُ وَهُـوَ مُضَيَّـعُ ٱلظَّهْـرِ
وَبَنَىٰ ٱلْحُصُوْنَ تَمَنُّعَاً فَكَأَنَّمَا ... أَمْسَـىٰ بِمَضْيَعَـةٍ وَلاَ يَـدْرِيْ

ويروىٰ عَن أَبي الدرداءِ [بنحوه في « حلية الأولياء » ١/٢١٣] : أَنَّهُ قامَ علىٰ درجِ المسجدِ ، فقالَ : يا أَهلَ (دمشقَ) ، أَلا تسمعونَ مِن أَخٍ ناصحٍ لكُم؟ إِنَّ مَن كانَ قبلَكم جَمَعوا كثيراً ، وبَنَو مشيداً ، وأَمَّلوا بعيداً ، فأَصبحَ جمعُهم بُوراً ، وبنيانُهم قبوراً ، وأَملُهم غروراً ، وملكُهم هباءً منثوراً ، هـٰذهِ عادٌ قد ملأَتِ ٱلبلادَ أَهلاً ومالاً ، وخيلاً ورِجالاً ، فمَن يشتري تركاتِهم اليومَ بدرهمينِ؟!

لا يدوم إلا الحيُّ القيوم

وكم رأَينا في تصاريفِ الأَيَّامِ مِن والٍ عَزلَتْ ، وعالٍ أَنزلَتْ ، وحكيمٍ زَلزلَتْ ، ولَو أَردنا أن نُفِيضَ فيمَن سقاهُمُ الدهرُ كأْسَهُ ، وجرَّعَهُم بأْسَهُ ، وضرَبَ عليهم جرانَهُ ، وأَنزلَ بِهم حدثانَهُ . . لأَحْوَجَ ما رأَيناهُ بعيونِنا ، وسمعناهُ من قريبِ زمانِنا ، إِلىٰ تأْليفٍ مخصوصٍ .

ومرَّ في أَواخرِ المجلسِ الثاني ما يتصِلُ بالموضوعِ ، مع الإِحالَةِ علىٰ ما هنا .

تقلُّب أحوال الدنيا في الناس

وقد فتحَ (الأَندلُسَ) موسىٰ بنُ نُصَيْرٍ ، فكانَتِ ٱلْغَنَائِمُ تُحمَلُ إِليهِ ، فيَرمي بالذهَبِ رميه الحجارَةَ ، ولا يلتقِطُ إِلاَّ ما كانَ مِن خالِصِ الجوهَرِ ، ثمَّ لَم تطلِ الأَيَّامُ . . حتَّىٰ ماتَ يسأَلُ النَّاسَ بمنىً ، علىٰ ما في بعضِ الرواياتِ .

---

(١) الضِّغثُ : قبضةُ حشيشٍ مختلطةُ الرطبِ باليابسِ .

ولمَّا زرتُ (قيدونَ) في سنةِ : (١٣٢٩هـ) دخلَ عليَّ جماعَةٌ مِن آلِ العموديِّ ، لا يقِلُّونَ عَن خمسينَ ، في غررٍ مليحَةٍ ، ووجوهٍ صبيحَةٍ ، وقاماتٍ مديدَةٍ ، وأجسامٍ شديدَةٍ ، وأفكارٍ بعيدَةٍ ، ولمَّا سألتُهم عَن حالِهم . . ذكَروا ما كانَ لهم من بسطَةٍ وصولَةِ الملكِ في سائِرِ بلادِ (دوعَنَ) ، ثمَّ ما ضرَبَ علىٰ أيديهِمُ ٱلدَّهْرُ ، وٱستردَّتْ ما أعطتْهُم الأيّامُ ، وما زالوا يشرحونَ لي الحالَ ، ويكثرونَ مِنَ ٱلتَّألُّمِ ، ويلتمسونَ مني الدعاءَ . . حتَّىٰ ٱغرورقَتْ عينيَّ ، وتندَّىٰ خدِّي ، ولمَّا رآني أحدُهم بتلكَ الرِّقَةِ . . قالَ : لا تحزَنْ ، فقد كنَّا واللهِ أهلاً لِمَا نزلَ بنا ، وما أصابَنا إنَّما هوَ بما كسبتْهُ أيدينا ، فقد ولاَّنا اللهُ ولايةً لم نُحسِنْ سياستَها ، بل أبدَلْنا العدلَ جوراً ، والحِلْمَ جهلاً ، ولم نشكرِ النعمةَ ، فسُلِبَتْ عنَّا .

وما أخذَها إلاَّ من قولِ يحيىٰ البرمكيِّ ، وقد سألَهُ الفضلُ في محبسِهِ عن أسبابِ نكبتِهِم ، فإنَّهُ قالَ [بنحوه في « السير » ٩/ ٦١] : ليسَتْ إلاَّ دعوةَ مظلومٍ سرَتْ بليلٍ ونحنُ نائِمونَ .

وقدِ ٱتفقَ أن تقوَّضَ علىٰ يدِ فحلِ (حضرموتَ) ـ السلطانِ عوضِ بنِ عمرَ القعيطي ـ عدَّةُ دولٍ في عهدٍ قريبٍ :

مِنها : دولَةُ آلِ العموديِّ المذكورينَ ، ودولَةُ آلِ بُرَيكٍ ، ودولَةُ النقيبِ الكساديِّ ، ودولَةُ آلِ عمرَ باعمرَ ، ودولَةُ العولقيِّ ، ودولَةُ بنِ مساعدٍ ، ودولَةُ منصورِ بنِ عمرَ الكثيريِّ ، وغيرُهم .

الدنيا دولاب يدور

وما أحسنَ قولَ بعضِهم وقد مرَّ بديارِ قومٍ كرامٍ ، كانوا . . فبانوا [كما في « المستطرف » ٢/ ٦٠٧ مِنَ البسيطِ] :

هَـٰذِيْ مَنَـازِلُ أَقْـوَامٍ عَهِـدْتُهُـمُ ... يُوْفُوْنَ بِٱلْعَهْدِ مُذْ كَانُوْا وَبِٱلذِّمَمِ
تَبْكِيْ عَلَيْهِمْ دِيَارٌ كَانَ يُطْرِبُهَا ... تَرَنُّمُ ٱلْمَجْدِ بَيْنَ ٱلْجُوْدِ وَٱلْكَرَمِ

وقالَ أَحدُ بني أُميَّةَ ، وهوَ الأَبيورديُّ [في « ديوانهِ » ٥٨٦_٥٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

مَلَكْنَا أَقَالِيمَ ٱلْبِلَادِ فَأَذْعَنَتْ ... لَنَا رَغْبَةً أَوْ رَهْبَةً عُظَمَاؤُهَا
فَلَمَّا ٱنْتَهَتْ أَيَّامُنَا عَلِقَتْ بِنَا ... شَدَائِدُ أَيَّامٍ قَلِيلٌ رَخَاؤُهَا
وَكَانَ إِلَيْنَا فِيْ ٱلسُّرُوْرِ ٱبْتِسَامُهَا ... فَصَارَ عَلَيْنَا فِيْ ٱلْهُمُوْمِ بُكَاؤُهَا
وَصِرْنَا نُلَاقِيْ ٱلنَّائِبَاتِ بِأَوْجُهٍ ... رِقَاقِ ٱلْحَوَاشِيْ كَادَ يَقْطُرُ مَاؤُهَا
إِذَا مَا هَمَمْنَا أَنْ نَبُوْحَ بِمَا جَنَتْ ... عَلَيْنَا ٱللَّيَالِيْ لَمْ يَدَعْنَا حَيَاؤُهَا

وأَشهدُ باللهِ إِنَّهُ لَمِن صريحِ القولِ ، ونادرِ الشعرِ ، ومنقَّحِ الكلامِ .

ويُحكىٰ : أَنَّهُ لمَّا فرغَ فخرُ الدولَةِ بنُ بُوَيْهِ مِنَ ٱلقلعَةِ التي ٱستحدثَها علىٰ جبلِ طبرَك . . نزلَ بها مرتاحاً ، فٱشتهىٰ طرائِحَ لحمِ البقَرِ ، فنُحِرَتْ واحدَةٌ مِنها بينَ يديهِ ، وطَفِقَ أَصحابُهُ يطبخونَ لَهُ مِن أَطائبِها ، وهوَ ينالُ مِنها ، ويأْكُلُ مِن عناقيدِ الكرمِ ، ويشرَبُ مِنَ ٱلكؤُوسِ ، فلم يلبَثْ أَنْ لَوىٰ عليهِ جوفُهُ ، وٱتصلَ علىٰ الأَلَمِ صوتُهُ ، إِلىٰ أَن جثَمَ عليهِ موتُهُ ، فقالَ أبو الفرجِ الساويُّ [في « قرى الضيف » ٣/٤٥٨ مِنَ الوافرِ] :

هِيَ ٱلدُّنْيَا تَقُوْلُ بِمِلْءِ فِيْهَا ... حَذَارِ حَذَارِ مِنْ بَطْشِيْ وَفَتْكِيْ
وَلاَ يَغْرُرْكُمُ حُسْنُ ٱبْتِسَامِيْ ... فَقَوْلِيْ مُضْحِكٌ ، وَٱلْفِعْلُ مُبْكِيْ
بِفَخْرِ ٱلدَّوْلَةِ ٱعْتَبِرُوْا فَإِنِّيْ ... أَخَذْتُ ٱلْمُلْكَ مِنْهُ بِسَيْفِ هُلْكِ
فَأَمْسَىٰ بَعْدَ مَا قَرَعَ ٱلْبَرَايَا ... أَسِيْرَ ٱلْقَبْرِ فِيْ ضِيْقٍ وَضَنْكِ
أُقَدِّرُ أَنَّهُ لَوْ عَادَ يَوْماً ... إِلَىٰ ٱلدُّنْيَا تَسَرْبَلَ ثَوْبَ نُسْكِ
دَعِيْ يَا نَفْسُ فِكْرَكِ فِيْ مُلُوْكٍ ... مَضَوْا وَعَلَىٰ ٱلَّذِيْ قَدَّمْتِ فَٱبْكِيْ

هِيَ الدُّنْيَا كَمِثْلِ الطِّفْلِ بَيْنَا ... يُقَهْقِهُ إِذْ بَكَىٰ مِنْ بَعْدِ ضِحْكِ
أَلاَ يَا قَوْمَنَا انْتَبِهُوا فَإِنَّا ... نُحَاسَبُ فِيْ الْقِيَامَةِ دُوْنَ شَكِّ

أَلا أَينَ أَربابُ الحصونِ ، والمالِ المصونِ؟

أينَ مَن مَلؤُوا الخزائِنَ ، وشيَّدُوا المدائِنَ ، وراضوا الصِّعابَ ، وأخضعوا الرقابَ؟

لَقد أَسرهُم هاذِمُ اللذَّاتِ ، ومفرِّقُ الجماعاتِ ، فأَيَّموا[1] النسوانَ ، وأَيتموا الولدانَ ، ودَخلوا في خبرِ كانَ [قيل مِنَ البسيطِ] :

أَمَا سَمِعْتَ بِأَمْلاَكٍ مَضَوْا أَمَماً ... شُمِّ الأُنُوْفِ بِرَوْضِ الْمُلْكِ قَدْ عَرَشُوْا
إِنْ دُوفِعُوْا دَفَعُوا أَوْ زُوْحِمُوْا زَحَمُوْا ... أَوْ غُولِبُوْا غَلَبُوْا أَوْ بُوْطِشُوْا بَطَشُوْا
جَاءَتْهُمُ وَجُنُوْدُ اللهِ غَالِبَةٌ ... كَتَائِبٌ لِلْمَنَايَا مَا بِهَا دَهَشُ

وما أَحسنَ قولَ كثيِّرٍ أَو غيرِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٤٧٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنُحْدِثُ رَوْعَاتٍ لَدَىٰ كُلِّ فَزْعَةٍ ... وَنُسْرِعُ نِسْيَاناً وَمَا جَاءَنَا أَمْنُ
كَأَنَّا ـ وَلاَ كُفْرَانَ للهِ رَبِّنَا ـ ... لَكَالْبُدْنِ ، لاَ تَدْرِيْ مَتَىٰ يَوْمُهَا الْبُدْنُ

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٧٤ مِنَ الكاملِ] :

نَلْقَىٰ الْمَنُوْنَ حَقَائِقاً وَكَأَنَّنَا ... مِنْ غِرَّةٍ نَلْقَىٰ بِهِنَّ شُكُوْكَا[2]

وفي سياقٍ لِلِسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ـ ما معناهُ إن أخطأْتُ لفظَهُ ـ [في « نفح الطيب » ٦/ ٣٢٤] : يا مشتغلاً بدارِهِ ، ورَمِّ جدارِهِ عَنْ إسراعِهِ إِلىٰ النجاةِ وبِدارِهِ ، يا مَن أَنذَرَهُ شيبُ عذارِهِ ، وأثقلَهُ حمْلُ أَوزارِهِ ،

---

(١) الأَيِّمُ منَ النساءِ : من لا زوجَ لها ، بكراً كانت أم ثيباً .
(٢) الغِرَّةُ : الغفلةُ .

يا مُعتَلِفاً ينتظِرُ هجومَ جزَّارِهِ ، يا مختلِساً يهابُ تفتيشَ ما تحتَ إزارِهِ ، كأنِّي بكَ قد أوثقَكَ الشدُّ ، وجزرَ منكَ المدُّ ، واليمينُ تنقبِضُ ، والأُخرىٰ تُمَدُّ ، واللسانُ يَقولُ : يا لَيتَنا نُرَدُّ .

وقالَ أَبو العاليَةِ [مِنَ الكامِلِ] :

أَيْنَ ٱلأُولَىٰ كَنَزُوْا ٱلذَّخَائِرَ وَٱبْتَنَوْا ... تِلْكَ ٱلْمَصَانِعَ وَٱلْقُصُورَ ٱلْعَالِيَهْ ؟

دَرَجُوْا فَأَصْبَحَتِ ٱلْمَنَازِلُ مِنْهُمُ ... عُطْلاً وَأَصْبَحَتِ ٱلْمَسَاكِنُ خَالِيَهْ

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ قَبْلَنَا قَوْمٌ رَجَوْا أَنْ يُقَوِّمُوْا ... بِـلاَ تَعَـبٍ عَيْشـاً فَلَـمْ يَتَقَـوَّمَـا

وقالَ آخرُ [مِنَ السَّريعِ] :

عِشْ مُوْسِراً فِيْ ٱلنَّاسِ أَوْ مُعْسِراً ... لاَ بُـدَّ فِـيْ ٱلـدُّنْيَـا مِـنَ ٱلْغَـمِّ

وَكُلَّمَـــا زَادَكَ مِـــنْ نِعْمَـــةٍ ... زَادَ ٱلَّـــذِيْ زَادَكَ فِـــيْ ٱلْهَـــمِّ

وقالَ آخرُ [مِنَ السَّريعِ] :

أُفٍّ مِـنَ ٱلـدُّنْيَـا وَأَسْبَـابِهَـا ... فَـــإِنَّهَـا لِلْهَـمِّ مَخْلُـوْقَـهْ

هُمُـوْمُهَـا مَـا تَنْقَضِـيْ سَـاعَـةً ... عَـنْ مَلِـكٍ فِيْهَـا وَلا سُـوْقَـهْ

ويعجبُني في الموضوعِ رثاءُ أبي البقاءِ لـ(الأَندلُسِ) ، وٱبنُ اللَّبَّانَةِ لِبَنِي عبَّادٍ ، وأَصلُهُ شِعرُ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ ، الذي يقولُ فيهِ يونسُ بنُ حبيبٍ النحويُّ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/١٤١] : لو تمنَّيتُ أَن أَقولَ الشعرَ . . لَما تمنَّيتُ أَنْ أَقولَ إلاَّ مثلَ قولِ عديِّ بنِ زيدٍ العباديِّ [مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَـا ٱلشَّـامِـتُ ٱلْمُعَيِّرُ بِـٱلـدَّهْـ ... ـرِ أَأَنْـتَ ٱلْمُبَـرَّأُ ٱلْمَـوْفُـوْرُ ؟

أَمْ لَدَيْكَ ٱلْعَهْدُ ٱلْقَدِيْمُ مِنَ ٱلأَيَّـ ... ـامِ بَـلْ أَنْـتَ جَـاهِـلٌ مَغْـرُوْرُ

مَنْ رَأَيْتَ ٱلْمَنُوْنَ جازَتْهُ أَمْ مَنْ ... ذَا عَلَيْهِ مِنَ أَنْ يُضَامَ خَفِيْرُ[1] ؟
أَيْنَ كِسْرَىٰ كِسْرَىٰ ٱلْمُلُوْكِ أَنُوْشَرْ ... وَانَ بَلْ أَيْنَ قَبْلَهُ سَابُوْرُ ؟
وَبَنُوْ ٱلأَصْفَرِ ٱلْكِرَامُ مُلُوْكُ ٱلـ ... ـرُّوْمِ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمُ مَذْكُوْرُ
وَأَخُوْ ٱلْحَضْرِ إِذْ بَنَاهُ وَإِذْ دِجْـ ... ـلَةُ تُجْبَىٰ إِلَيْهِ وَٱلْخَابُوْرُ
شَادَهُ مَرْمَراً وَجَلَّلَهُ كِلْـ ... ـساً فَلِلطَّيْرِ فِيْ ذُرَاهُ وُكُوْرُ[2]
لَمْ يَهَبْهُ رَيْبُ ٱلزَّمَانِ فبَادَ ٱلْـ ... ـمُلْكُ عَنْهُ فَبَابُهُ مَهْجُوْرُ
وَتَذَكَّرْ رَبَّ ٱلْخَوَرْنَقِ إِذْ أَشْـ ... ـرَفَ يَوْماً وَلِلْهُدَىٰ تَذْكِيْرُ[3]
سَرَّهُ مُلْكُهُ وَكَثْرَةُ مَا يَمْـ ... ـلِكُ وَٱلْبَحْرُ مُعْرِضاً وَٱلسَّدِيْرُ[4]
فَٱرْعَوَىٰ قَلْبُهُ فَقَالَ وَمَا غِبْـ ... ـطَةُ حَيٍّ إِلَىٰ ٱلْمَمَاتِ يَصِيْرُ
ثُمَّ بَعْدَ ٱلْفَلاَحِ وَٱلْمُلْكِ وَٱلإِمَّـ ... ـةِ وَارَتْهُمُ هُنَاكَ ٱلْقُبُوْرُ[5]
ثُمَّ صَارُوا كَأَنَّهُمْ وَرَقٌ جَفَّ ... فَأَلْوَتْ بِهِ ٱلصَّبَا وَٱلدَّبُوْرُ[6]

وقالَ الشعبيُّ : ما أَرىٰ لَنا ولِلدنيا مثلاً .. إلاَّ قولَ كثيِّرٍ [في « ديوانه » ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسِيئِيْ بِنَا أَوْ أَحْسِنِيْ لاَ مَلُوْمَةً ... لَـدَيْنَـا وَلاَ مَقْلِيَّـةً إِنْ تَقَلَّـتِ

---

(١) الخفيرُ : المجيرُ .
(٢) المرمَرُ : الرُّخامُ .
(٣) الخورنقُ : أَسمُ قصرٍ في (العراقِ) ، فارسيٌّ مُعَرَّبٌ ، بناهُ النُّعمانُ الأكبرُ الذي يقالُ لهُ : الأعورُ ، وهوَ الذي لبسَ المسوحَ ، فساحَ في الأرضِ .
(٤) البحرُ : يراد به هنا الفراتُ . السَّديرُ : نهر بـ(الحيرةِ) .
(٥) الإِمَّةُ : الحالةُ .
(٦) أَلوَتْ به : ذهبتْ بهِ . الصَّبا : ريحٌ ومهبُّها المستوي أن تهبَّ من مطلع الشمسِ إذا آستوىٰ الليلُ والنهارُ . الدَّبُورُ : هي الريحُ التي تقابلُ الصَّبا .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانه » ٣٧٣ مِنَ الخفيفِ] :

كُلُّنَـا يُكْثِـرُ ٱلْمَـذَمَّـةَ لِلـدُّنْـ ـيـا وَكُـلٌّ بِحُبِّهَـا مَفْتُـوْنُ

وقالَ أَبو نواسٍ [وهو لسليمان بن يزيد العدوي من قصيدة له شائعة ، كما في « روضة العقلاء » ٢٧٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يَذُمُّوْنَ دُنْيَا لاَ يُرِيحُوْنَ دَرَّهَا وَلَمْ أَرَ كَالدُّنْيَا تُذَمُّ وَتُحْلَبُ

وقالَ سابقٌ البربريُّ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ٣٢٣ مِنَ البسيطِ] :

اَلنَّفْسُ تَكْلَفُ بِالدُّنْيَا وَقَدْ عَلِمَتْ أَنَّ ٱلسَّلاَمَةَ مِنْهَا تَرْكُ مَا فِيْهَا[1]

وقد سبقَ في شرحِ البيتِ الذي قبلَ ما نحنُ فيهِ قولُ الناظِمِ [في « العُكبريّ » مِنَ الخفيفِ] :

وَهِيَ مَعْشُوْقَةٌ عَلَىٰ ٱلْغَدْرِ لاَ تَحْـ ـفَـظُ عَهْـداً وَلاَ تُتَمِّـمُ وَصْـلاَ

---

(١) وقبلَهُ :

أَمْـوَالُنَـا لِـذَوِيْ ٱلْمِيْـرَاثِ نَجْمَعُهَـا وَدُوْرُنَـا لِخَـرَابِ ٱلـدَّهْـرِ نَبْنِيْهَـا

وبعدَهُ :

فَلاَ ٱلإِقَامَةُ تُنْجِيْ ٱلنَّفْسَ مِنْ تَلَفٍ وَلاَ ٱلْفِـرَارُ مِـنَ ٱلأَحْـدَاثِ يُنْجِيْهَـا
وَكُـلُّ نَفْـسٍ لَهَـا زَوْرٌ يُصَبِّحُهَـا مِـنَ ٱلْمَنِيَّـةِ يَـوْمـاً أَوْ يُمَسِّيْهَـا

وممَّا يناسبُ الموضوعَ قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ :

حَتَّىٰ مَتَىٰ تَسْقِيْ ٱلنُّفُوْسَ بِكَأْسِهَا رَيْـبُ ٱلْمَنُـوْنِ وَأَنْـتَ لاَهٍ تَـرْتَـعُ
أَفَقَـدْ رَضِيْـتَ بِـأَنْ تُعَلَّـلَ بِـالْمُنَـىٰ وَإِلَـىٰ ٱلْمَنِيَّـةِ كُـلَّ يَـوْمٍ تُـدْفَـعُ
أَحْـلاَمُ نَـوْمٍ أَوْ كَظِـلٍّ زَائِـلٍ إِنَّ ٱللَّبِيْـبَ بِمِثْلِهَـا لاَ يُخْـدَعُ
فَتَـزَوَّدَنَّ لِيَـوْمِ فَقْـرِكَ دَائِبـاً وَٱجْمَـعْ لِفَقْـرِكَ لاَ لِغَيْـرِكَ تَجْمَـعُ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٤ مِنَ المتقاربِ] :

تَفَانَىٰ ٱلرِّجَالُ عَلَىٰ حُبِّهَا وَمَا يَحْصُلُونَ عَلَىٰ طَائِلِ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٨ مِنَ الوافرِ] :

وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ ٱلدُّنْيَا قَدِيماً ؟! وَلَكِنْ لاَ سَبِيْلَ إِلَىٰ ٱلوِصَالِ

تجمع الدنيا بإرادتك وتتركها رغم أنفك

أَمَّا قولُ الناظِمِ : (كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ) .. فمعناهُ : أَنَّها لَم تبقَ لَهُم ، ولَم تنفعْهُم ، وإلاَّ .. فَلا يزالُ كثيرٌ من دفائِنِ السابقينَ مطموراً تحتَ الترابِ ، باقياً علىٰ حالِهِ حتَّىٰ اليومِ ، ولا سيَّما في البلادِ التي لم تطأْها أَقدامُ الأَجانبِ ، كالأَكثرِ من ذخائِرِ ملوكِ حِمْيَرَ في (مأرِبَ) و(الهجَرِ) و(شَبْوَةَ)[1] ؛ بدليلِ ما يظهَرُ من نماذِجِها كلَّما جرفَتِ السيولُ ، وقد قلتُ في سينيَّتي ، أُخاطِبُ الديارَ ، لَمَّا كثُرَ ما رأَيتُ مِنِ ٱختلافِ رواةِ الأَخبارِ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٣٢ مِنَ الخفيفِ] :

حَدِّثِيْنَا عَنِ ٱلتَّبَابِعِ إِذْ كُنْـ ـتِ عَلَىٰ عَهْدِهِمْ بِحُلَّةِ عُرْسِ[2]
وَلِمَنْ تُخَبِّئِنَّ مَا ٱدَّخَرُوْهُ مِنْ كُنُوْزٍ مُغَطَّيَاتٍ بِكَبْسِ[3] ؟
وَصِفِيْ كِنْدَةَ ٱلْمُلُوْكَ فَيَا رُ بَّ كَرِيْمٍ فِيْهِمُ وَيَا رُبَّ جِبْسِ[4]
قَادَةُ ٱلْحَرْبِ وَٱلْكَلاَمِ وَلَكِنْ لاَ يُبَالُوْنَ فِيْ ٱلْمَلاَمِ بِغَمْسِ[5]

(١) (مأرِبُ) و(هَجَرُ) و(شبوَةُ) : أَسماءُ أَماكِنَ في (اليمنِ) .
(٢) التبابعُ : ملوك (اليمنِ) ـ واحدُهم تُبَّع ـ وسمُّوا كذلكَ ؛ لأنهم كان يتبعُ بعضهم بعضاً .
(٣) بكبسٍ : بترابٍ .
(٤) الجبسُ : اللئيمُ .
(٥) بغمسٍ : أي بغمسِ أنفسهم فيما يلامُ عليهِ .

مسألة أصولية حول الدنيا

وبعدُ : فها هنا مسألةٌ مِن أُمَّهاتِ المسائلِ ، لولا ضيقُ الوقتِ ، وضعفُ المناسبةِ للأبحاثِ الأُصوليَّةِ . . لكانَ الواجبُ أَن نتوسَّعَ فيها كثيراً ، ولكنَّا نطلِقُ مِنَ ٱلعَنَانِ بقدرِ ما تحصُلُ بهِ الفائِدَةُ ، وينحلُّ منهُ الإشكالُ الذي أَشرْنا إليهِ أَوائِلَ المجلسِ السادسِ ، وذلكَ أَنَّهُ ما مِنْ نبيٍّ ، ولا حكيمٍ ، ولا شاعرٍ ، ولا خطيبٍ . . إلاَّ ذَمَّ الدنْيا ، وٱشتكىٰ مِن توالي آفاتِها ، وترادُفِ حسراتِها ، وتتابُعِ مُوجعاتِها ؛ إذ لا لَذَّةَ فيها إلاَّ مصحوبةٌ بأَلَمٍ ، ولا راحَةَ إلاَّ ممزوجَةٌ بنكَدٍ ، لَمْ تَصْفُ لِشَقيٍّ ولا تقيٍّ ، ولا مأمورٍ ولا أَميرٍ ، ولا غنيٍّ ولا فقيرٍ ، ومعَ هٰذا فدَهَمَاءُ النَّاسِ[1] مصفقونَ علىٰ حبِّها[2] ، والتكالُبِ عَليها ، ومِن ذلكَ نشأَ التخاصُمُ والتقاطُعُ ، فزادَ النكَدُ ، وكثُرَ التعبُ ، وتشوَّشَتِ ٱلْحَياةُ ، وتكدَّرَ العيشُ ، وتضاعفَتِ ٱلشُّرورُ والآلامُ ، والقليلُ مِنَ ٱلصُّوفيَّةِ والفلاسفَةِ ٱطَّرَحوها جملةً ، وأَعرَضوا عَنها رأْساً ، وليسَ هٰذا في شيءٍ مِنَ ٱلصَّوابِ ؛ إذ لو تأَثَّرَهُمُ الناسُ . . لأَفضىٰ إلىٰ الخرابِ ، وٱنتهىٰ إلىٰ الانقراضِ ، ولٰكنَّ الذكرَ الذي لا يأتيهِ الباطلُ مِن بينِ يديهِ ولا مِن خلفِهِ . . قامَ بحلِّ هٰذِهِ العقدَةِ ، وكشَفَ هٰذا الإشكالَ ، فبيَّنَ في أَكثرِ الآياتِ مذامَّ الدنيا وحقارَتَها ، وقلَّةَ خطرِها ؛ كبحاً لِجماحِ الشهوَةِ المذمومِ ، وغضّاً لعنانِ الحِرْصِ ٱلْممقوتِ ، ونبَّهَ علىٰ أَن لا بُدَّ مِنها ، بَلْ أَلزمَ القيامَ بعمارتِها ، وأَوجَبَ مراعاةَ أَسبابِها في مثلِ قولِهِ : ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص : ٧٧] . والأَصلُ في الأَمرِ الجازِمِ الوجوبُ .

---

(١) دُهَمَاءُ الناسِ : الجماعةُ منهم .

(٢) مصفقونَ : مجتمعونَ .

وقولِهِ : ﴿ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

وإنَّما أَطنبَ في الأَولِ ، واكتفىٰ بالإيجازِ في الثاني ؛ وُكُولاً إلىٰ الطبعِ ، وإحالَةً علىٰ الداعيَةِ ، كما رتَّبَ الحدَّ علىٰ شربِ الخمرِ ، ولم يرتِّبْهُ علىٰ شربِ البولِ ، وهٰذا كلُّهُ مِن بدائعِ القرآنِ ، الذي لا تفنىٰ عجائِبَهُ ، ولا تُطفَأُ مصابِيحُهُ ، ولا يخمُدُ برهانُهُ ، ولا تهدَمُ أَركانُهُ ، وقد نصُّوا في المتونِ علىٰ أَنَّ الحِرَفَ والصنائِعَ ، وكلَّ ما يتمُّ بهِ المعاشُ . . معدودٌ من فروضِ الكفاياتِ ، والذي اعتمدَهُ ابنُ حجرِ الهيتميُّ ، تبعاً لإمامِ الحرمينِ ، تفضيلُ فرضِ الكفايَةِ علىٰ فرضِ العينِ ، إلاَّ أَنَّ في « التحفَةِ » ما نصُّهُ : (تنبيهٌ : لا يحتاجُ في هٰذِهِ - والضميرُ عائِدٌ إلىٰ الحِرَفِ والصنائِعِ وما يتمُّ بهِ أَمرُ المعاشِ - لأَمْرِ الناسِ بِها ؛ لأَنَّ فِطَرَهُم مجبولَةٌ عَلَيها ، ولٰكنْ لَو تمالَؤُوا علىٰ تركِ واحدَةٍ مِنها . . أَثِموا ، وقُوتِلُوا كَما هُوَ قياسُ بقيَّةِ فروضِ الكفايَةِ) . انتهىٰ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ ٱلْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ	حَتَّىٰ قَضَىٰ ، فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

معناهُ ظاهرٌ ، وهُوَ مِن قولِ أَشجَعَ [في « ديوانهِ » ١٩٩ مِنَ الطَّويلِ] : شرح المطلع

وَأَصْبَحَ فِيْ لَحْدٍ مِنَ ٱلأَرْضِ ضَيِّقٍ وَكَانَتْ بِهِ حَيّاً تَضِيْقُ ٱلصَّحَاصِحُ[1]

وعمَّا قليلٍ يأْتي معَ ما يناسبُهُ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وأَنَّكَ فِيْ ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيْكُمَا [عَلَىٰ أَنَّهُ مِن سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ]

ويتَّصِلُ بِهِ ما سبقَ أَوائِلَ المجلسِ عَنِ ٱبنِ العاصِ ، وعَنِ ٱلْقَاضي الفاضلِ ، وغيرُ ذلكَ .

وللقاضي أَبي يعلىٰ في رِثاءِ مخلِّصِ ٱلدَّولَةِ ما نصُّهُ [كما في « وفيات الأعيان » ٥/ ٢٧٢ مِنَ الطَّويلِ] :

قَضَىٰ ٱللهُ أَنْ يَرْدَىٰ ٱلأَمِيْرُ وَهَـٰذِهِ صَـوَافِنُـهُ مَـوْقُـوْرَةٌ وَصَـوَاهِلُـهْ
وَكُلُّ فَتىً كَٱلْبَرْقِ إِبْرِيْقُ غِمْدِهِ إِذَا شَـامَـهُ أَوْ كَـٱلـذُّبَـالَـةِ ذَابِلُـهْ
فَلَيْتَ ظِبَاهُ صَلَّتِ ٱلْيَوْمَ خَلْفَهُ فَظَلَّتْ عَلَىٰ غَيْرِ ٱلصِّيَامِ صَوَاهِلُهْ

وهيَ من قصيدَةٍ شاعرَةٍ ، ٱستوفاها ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيَّاتِ الأَعيانِ » ٥/ ٢٧٠-٢٧٢] في ترجمةِ مخلِّصِ الدولَةِ ، وٱسمهُ مقلَّدُ بنُ نصرِ بنِ منقذٍ .

---

(١) الصحاصِحُ : الأَراضي المستويةُ .

مَلَك الموت وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّ مَلَكَ ٱلْمَوتِ دخلَ عَلَىٰ داوودَ ـ عليهِ السلامُ ـ فقالَ لهُ : مَن أَنتَ ؟ قالَ : أَنا الذي لا يهابُ الملوكَ ، ولا تَمنَعُ منهُ القصورُ ، ولا يقبلُ الرِّشا . قالَ : إِذَنْ أَنتَ ملكُ الموتِ ، ولٰكنِّي لَم أَستعدَّ بعدُ ، فقالَ لهُ : يا داوودُ ، أَينَ جارُكَ فلانٌ ؟ أَينَ قريبُكَ فلانٌ ؟ قالَ : ماتا ، قالَ : أَما كانَ لكَ فيهِم عبرَةٌ ؟ ثمَّ قبضَهُ .

وفيهِ : أَنَّ الأَنبياءَ لاَ يُقبَضونَ مَا لَمْ يُخيَّروا ، ففيهِ إِشكالٌ ، وقد وضَّحنا ما كانَ من نوعِهِ في صكَّةِ موسىٰ عليهِ السلامُ لملَكِ الموتِ ، من كتابِنا « بَلابِلُ ٱلتَّغريْدِ » .

الملِكُ ومَلَك الموت

وذكرَ الغزاليُّ : أَنَّ بعضَ الملوكِ خرجَ علىٰ قومِهِ في زينتِهِ ، وركبَ معَهُ عساكرُهُ ، فنفخَ الشيطانُ في أَنفِهِ ، حتَّىٰ كادَ أَن يطيرَ كِبراً وتعاظُماً ، وبينا هُوَ في موكِبِهِ . . إِذ أَخذَ بلجامِهِ رجلٌ عليهِ آثارُ الفقرِ والضعفِ ، فٱستشاطَ غضباً ، وقالَ : خلِّ اللجامَ ، فقالَ لهُ : لا بدَّ من مسارَّتِكَ ، فانزعَجَ وٱنكَسَرَ ، ولَمَّا علمَ أَنَّهُ ملكُ الموتِ . . ٱستخذىٰ ، وخارَت قواهُ ، وٱستمهَلَهُ فلم يمهِلْهُ ، بل أَخذَهُ علىٰ هيئَتِهِ .

لا تدري أين تكون المنية

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٤] : أَنَّهُ كانَ لحسَّانَ ٱبنٌ ، يطعمُهُ الزُّبْدَ بالعَسَلِ ، فشرِقَ وماتَ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

اِعْمَلْ وَأَنْتَ صَحِيْحٌ مُطْلَقٌ فَرِحٌ ... مَا دُمْتَ وَيْحَكَ يَا مَغْرُوْرُ فِيْ مَهَلِ
يَرْجُوْ ٱلْحَيَاةَ صَحِيْحٌ رُبَّمَا كَمَنَتْ ... لَهُ ٱلْمَنِيَّةُ بَيْنَ ٱلزُّبْدِ وَٱلْعَسَلِ

أبو دلف يتزود لموته

ويروىٰ [في « المستطرف » ٢/ ٥٧٣] : أَنَّ أَبا دلفٍ العجليَّ ـ الذي سبقَ ذكرُهُ غيرَ مرَّةٍ ـ قدمَ عليهِ في علَّتِهِ عشرَةٌ مِن آلِ عليٍّ ، فحُجبوا مدَّةً ،

حتَّىٰ رأَىٰ رؤْيا فأَذِنَ لَهم ، فقالَ لَهُ أَحدُهم : نحنُ مِن أَهلِ بيتِ رسولِ اللهِ ، وقد حطَّمَتْنا المصائِبُ ، وأَجْحَفَتْ بِنا النوائِبُ ، فإِنْ رأَيتَ أن تجبُرَ كسيراً ، وتغنيَ فقيراً . . فأفعَلْ ، فقالَ لخادِمِهِ : أَجلسني ، وأَقبلَ يلاطفُهم ، ويعتذِرُ إِليهم ، وقالَ : لِيَكتُبْ كلٌّ مِنكم بيدِهِ أَنَّهُ قبضَ مِنِّي أَلفَ دينارٍ ، ثمَّ أَعطاهُم ذلكَ ، وحمَّلَهم ، وكساهُم ، وزوَّدَهم ، ودفَعَ لكلِّ واحدٍ أَلفَ درهمٍ[1] ؛ حتَّىٰ يصِلوا بالدنانيرِ كاملةً إِلىٰ أهاليهم ، ثمَّ قالَ لخادِمِهِ : إِذا أَنا مِتُّ . . فأجعَلْ هٰذهِ الرقاعَ في كَفَني ؛ لأَلقىٰ بِها محمَّداً ﷺ .

ومعَ هٰذا فقد رُؤِيَ في دارٍ ضيِّقَةٍ موحشَةٍ ، فقيلَ لَهُ : ما حالُكَ ؟ فأَنشدَ [الأبيات في « نفح الطيب » ٦/٣٢٦ مِنَ الوافر] :

وَلَـوْ أَنَّـا إِذَا مِتْنَـا تُـرِكْنَـا ... لَكَـانَ ٱلْمَـوْتُ رَاحَـةَ كُـلِّ حَـيِّ
وَلَٰكِنَّـا إِذَا مِتْنَـا بُعِثْنَـا ... وَنُسْأَلُ بَعْـدَهَـا عَـنْ كُـلِّ شَـيِّ

ويذكرُ : أَنَّهُ قدمَ (الكوفَةَ) أَميرٌ ، لم يبقَ صغيرٌ ولا كبيرٌ إِلاَّ خرجَ لمقابلتِهِ ، ومشاهدَةِ موكبِهِ يومَ دخولِهِ ، فطُعِنَ بعدَ أَيَّامٍ ، ومعَ دفنِهِ أَقبلَ ثلاثةُ نفرٍ لا رابعَ لَهم ، يحملونَ جنازَةَ فقيرٍ ، دفَنوها علىٰ مقربَةٍ منهُ ، فما هِيَ إِلاَّ أَيامٌ قليلَةٌ . . حتَّىٰ لَم يعُد أَحدٌ يميِّزُ ما بينَ القبرينِ .

تموت ولا ينفعك إلا عملك

وزهدَ بعضُ أَبناءِ الملوكِ فيما عليهِ والدُهُ ، ولزِمَ المقابرَ ، فقيلَ لَهُ في ذلكَ ، فقالَ : إِنَّ لي زمناً أُريدُ أَن أُفرِّقَ بينَ عظامِ الفقراءِ والملوكِ فلم أَقدرْ .

---

(١) إضافةً إلىٰ الألف دينار .

وفي « النهجِ » [٣٥٨] : وما أَصنعُ بفَدَكَ[١] وغيرِ فَدَكَ ، والنفْسُ مظانُّها فِي غدٍ جَدَثٌ ، تنقطِعُ في ظلمتِهِ آثارُها ، وتغيبُ أَخبارُها ، وحفرةٌ لو زيدَ في فسحتِها ، وأَوسَعَتْ يَدَاْ حافِرها . . لأَضغَطَها الحجَرُ والمدَرُ ، وسدَّ فُرجَها الترابُ المتراكِمُ ، وإِنَّما هيَ نَفْسي أُروِّضُها بالتقوىٰ ؛ حتَّىٰ تأتيَ آمنةً يومَ الفَزعِ الأَكبرِ ، أو ما يقربُ مِن هٰذا .

* * *

(١) فَدَك : اسم مكان قريب من خيبر ، تركه ﷺ ولم يقسمه أبو بكر بين ورثته ، وأبلغهم قوله ﷺ : « لا نورث ما تركناه صدقة » و« نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » رواه بألفاظ متعددة عدد من الصحابة . انظر البخاري (٤٠٣٣) و(٥٦٥٨) و(٦٧٢٨) و« الإحســان » (٦٦٠٧) و(٦٦٠٨) و(٦٦٠٩) وإلىٰ (٦٦١٢) .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا	أَنَّ الْكَلامَ لَهُمْ حَلالٌ مُطْلَقُ

معناهُ ظاهِرٌ ، والغالبُ أَنَّ الأَخرسَ لا يكونُ إِلاَّ أَصمَّ ، ولكنَّ الميْتَ بخلافِ ذلكَ ، ففي « الصحيحِ » : أَنَّهُ ﷺ قامَ علىٰ قتلىٰ قريشٍ في القليبِ يناديهِمْ بأسمائِهِم ، فقالَ لَهُ عمرُ : ما تخاطِبُ مِن أَقوامٍ قد جيَّفُوا ، قَالَ : « والَّذِيْ بَعَثَنِيْ بِالْحَقِّ ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُوْلُ مِنهُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيْعُوْنَ الْجَوابَ »[1] .

الميت يسمع.. ولكنه لا يستطيع الكلام

وقالَ ابنُ عبدِ البرِّ : ثبتَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُرُّ عَلَىٰ قَبْرِ أَخِيْهِ ، كَانَ يَعْرِفُهُ فِيْ الدُّنْيَا ، فَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ . وَإِلاَّ رَدَّ اللهُ عَلَيهِ رُوْحَهُ حَتَّىٰ يَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ »[2] .

وثبتَ عنهُ : أَنَّ الميْتَ يسمَعُ قرعَ نعالِ المشيعينَ إِذَا انصرَفوا عنهُ[3] .

---

(١) أخرجه عن أبي طلحة الأنصاري رضي الله عنه البخاري (٣٩٧٦) في المغازي ، ومسلم (٢٨٧٥) في الجنة . وعن أنس رضي الله عنه عند مسلم (٢٨٧٣) و(٢٨٧٤) .

(٢) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما في « التمهيد » ، والشوكاني في « نيل الأوطار » (٣/ ٢) ، ونحوه في « كنز العمال » عن أبي هريرة رضي الله عنه (٤٢٦٠١) و(٤٢٦٠٢) وعزاه إلى أبي الشيخ والديلمي وتمام والخطيب وابن عساكر وابن النجار .

(٣) وذلكَ في الحديثِ الذي أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاريُّ (١٢٧٣) في الجنائز، وبنحوه: مسلم (٢٨٧٠) في الجنة قال: «اَلْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِيْ قَبْرِهِ=

وقالَ : « مَا مِنْ رَجُلٍ يَزُوْرُ قَبْرَ أَخِيْهِ ، وَيَجْلِسُ عِنْدَهُ . . إلاَّ ٱسْتَأْنَسَ بِهِ حَتَّىٰ يَقُوْمَ »[1] .

وفي المسألَةِ الأُولىٰ مِن كتابِ « الروح » للعلاَّمَةِ ٱبنِ القيِّمِ . . ما لا يُحصىٰ مِن ذلكَ ، وشيءٌ مِن ذلكَ لا يعارِضُ أمثالَ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ ﴾ [النمل : ٨٠] ؛ لأَنَّ المرادَ مِنَ ٱلآيَةِ أَنَّ أمواتَ القلوبِ لا يسمعونَ سماعَ الاهتداءِ ، ولا ينتفعونَ بالتذكيرِ .

وقد رويَ عَنِ ٱلنَّبيِّ ﷺ : أَنَّهُ لَمَّا دفنَ وَلَدَهُ إِبراهيمَ . . وَقَفَ عَلَىٰ قَبْرِهِ وَقَالَ : « يَا بُنَيَّ ، ٱلْقَلْبُ يَحْزَنُ ، وَٱلْعَيْنُ تَدْمَعُ ، وَلاَ نَقُوْلُ مَا يُسْخِطُ ٱلرَّبَّ ، وَإِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُوْنَ ، يَا بُنَيَّ : قُلْ : اللهُ رَبِّيْ ، وَٱلإِسْلاَمُ دِيْنِيْ ، وَرَسُوْلُ اللهِ أَبِيْ »[2] ، فبكتِ ٱلصحابةُ ، وبكىٰ عمرُ بنُ الخطَّابِ بكاءً ٱرتفعَ لهُ صوتُهُ ، فٱلتفتَ إِليهِ النبيُّ ﷺ فقالَ : « ما يبكيكَ يا عمَرُ ؟ » فقالَ : يا رسولَ ٱللهِ ، هٰذا ولدُكَ ، وما بلغَ الحُلُمَ ، ولا جرىٰ عليهِ القلَمُ ، فما حالُ من ماتَ وليسَ لَهُ ملقِّنٌ مثلَكَ يلقِّنُهُ التوحيدَ ؟ فنزلَ علىٰ إِثْرِ ذلكَ قولُهُ تعالَىٰ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

= وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ ، حَتَّىٰ إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ . . . أَتَاهُ مَلَكَانِ فَأَقْعَدَاهُ ، فَيَقُوْلاَنِ لَهُ : مَا كُنْتَ تَقُوْلُ فِيْ هَذَا ٱلرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ ؟ فَيَقُوْلُ : أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُوْلُهُ ، فَيُقَالُ : اُنْظُرْ إِلَىٰ مَقْعَدِكَ مِنَ ٱلنَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَداً مِنَ ٱلْجَنَّةِ » .

(١) أورده عن عائشة رضي الله عنها العراقي في « تخريج أحاديث الإحياء » (٤/ ٤٧٥) : أخرجه ابن أبي الدنيا في « القبور » وقال : فيه عبد الله بن سمعان لم أقف على حاله .

(٢) أخرج عن أنس رضي الله عنه نحوه البخاري (١٣٠٣) .

وفيهِ دليلٌ علىٰ سؤَالِ الصبيانِ ، وهُوَ أحدُ قولينِ ، ٱختارَ النوويُّ في « الروضَةِ » و « شَرْحِ ٱلْمُهَذَّبِ » الثاني .

وعبارَةُ « التحفَةِ » لابنِ حجرٍ : ويستحبُّ تلقينُ بالغٍ عاقلٍ ، أَو مجنونٍ سبقَ لهُ تكليفٌ ، ولَو شهيداً ، كَما ٱقتضاهُ إطلاقُهم بعدَ تمامِ الدفْنِ ؛ لخبرٍ فيهِ ، وضَعْفُهُ ٱعتُضِدَ بشواهِدَ علىٰ أنَّهُ مِنَ ٱلفضائِلِ[1] ، فٱندفعَ قولُ ٱبنِ عبدِ السلامِ : إنَّهُ بدعَةٌ . ٱنتهىٰ .

قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء

وذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [« وفيَاتُ الأعيانِ » ٥/٣٧] وغيرُهُ : أَنَّهُ ٱجتمَعَ نفرٌ عندَ قبرِ المعتمدِ بنِ عبادٍ ، مِنَ ٱلشعراءِ الذينَ كانوا يقصدونَهُ بالمدائحِ ، فيجزِلُ لهمُ ٱلمَنائحَ ، فرثَوهُ بقصائِدَ أَنشدوها عندَ قبرِهِ ، من أَحسنِها قولُ بعضِهِم [وهو ابو بحرٍ عبدُ الصمد مِنَ الكاملِ] :

مَلِكَ ٱلْمُلُوْكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادِيْ ... أَمْ قَدْ عَدَتْكَ عَنِ ٱلسَّمَاعِ عَوَادِيْ ؟

لَمَّا نُقِلْتَ عَنِ ٱلْقُصُوْرِ وَلَمْ تَكُنْ ... فِيْهَا كَمَا قَدْ كُنْتَ فِيْ ٱلأَعْيَادِ

أَقْبَلْتُ نَحْوَكَ فِيْ ٱلثَّرَىٰ لَكَ خَاضِعاً ... وَجَعَلْتُ قَبْرَكَ قِبْلَةَ ٱلإِنْشَادِ

ولمَّا فرغَ مِن إنشادِها . . قبَّلَ الثرىٰ ، ومرَّغَ جسمَهُ ، وعفَّرَ خدَّهُ ، وبكىٰ وأَبكىٰ مَن حضرَ ، والشاهدُ في قولِهِ : (أَسَامِعٌ فَأُنَادِيْ) .

---

(١) أخرجه عن أبي أمامة رضي الله عنه الطبراني في « الدعاء » (١٢١٤) وفي « الكبير » (٨/ ٢٩٨) وذكره الهيثمي في « مجمع الزوائد » (٣/ ٤٥) وقال : في إسناده جماعة لم أعرفهم ، وقال ابن القيم : لا يصح رفعه ، وقال النواوي في « الأذكار » (ص/ ٢٧٤) : ليس بالقائم إسناده ، ثم قال : ولكن اعتضد بشواهد وبعمل أهل الشام به قديماً .

وأمَّا قولُ الناظِمِ : (مُطْلَقُ) . . فقالَ قومٌ إِنَّهُ حشوٌ لاَ حاجَةَ إِليهِ إِلاَّ اجتلابُ القافيَةِ ، علىٰ أَنَّهُ يمكنُ أَن تتأَوَّلَ لَهُ بما ليسَ في حسابِهِ ، وذلكَ أَنَّ الكلامَ بعدَ الموتِ لو قدروا عليهِ . . لكانَ حلالاً مطلقاً ؛ لارتفاعِ التكليفِ ، فلا حرمَةَ فيهِ إِذَنْ قطُّ ، بخلافِهِ أَيَّامَ الحياةِ . . فإِنَّ منهُ الحلالَ ، ومنهُ الحرامَ ، وهـٰذا إِنَّما يتمُّ علىٰ القولِ بأَنْ لا تكليفَ في البرزَخِ ، وهو ما يشملُهُ إِطلاقُهم .

وزعمَ العلامَةُ ابنُ القيِّمِ أَنَّ البرزَخَ دارُ تكليفٍ ، وأَنَّهُ لا يترفعُ بالموتِ ، ولوِ ارتفعَ . . لم يكُن للسؤَالِ حاجَةٌ ، وقد يجابُ عنهُ : بأَنَّ حكمةَ السؤَالِ أَنْ يظهَرَ بعدَ الموتِ عنوانُ ما كانَ عليهِ الإِنسانُ في أَيَّامِ الحياةِ ؛ لأَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ أَجرىٰ أَمرَ العبادِ علىٰ المتعارَفِ بينَهم في دارِ الدنيا ، وإِلاَّ . . فأَيُّ حاجَةٍ إِلىٰ المحاسَبَةِ والمراقَبَةِ ، ووزنِ الأَعمالِ والصحائِفِ ؟ معَ أَنَّهُ أَعلمُ بكلِّ شيْءٍ : ﴿ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ * هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : ٥ـ٦] .

ويمكنُ الجوابُ ـ أَيضاً ـ عمَّا وردَ من عبادَةِ أَهلِ الجنَّةِ ، وصلاةِ الأَنبياءِ في قبورِهِم ، وما أَشبَهَ ذلكَ . . بأَنَّهُ لا يلزمُ منهُ التكليفُ ؛ لظهورِ أَنَّهُ مجردُ تعبُّدٍ ، أَو خالصُ تلذُّذٍ ؛ بدليلِ ما أَخرجَهُ مسلمٌ [في (الجنة وصفة نعيمها) (٢٨٣٥)] : أَنَّهُم « يُلْهَمُوْنَ ٱلتَّسْبِيْحَ وَٱلتَّحْمِيْدَ كَمَا تُلْهَمُوْنَ ٱلنَّفَسَ » وقولِ الفقهاءِ : أَنَّ سجودَ نبيِّنا ﷺ يومَ القيامَةِ . . كانَ بطهارَةِ غسلِ الموتِ . . لا يلزمُهُ القولُ بالتكليفِ ؛ لأَنَّنا إِنَّما نمنَعُ منهُ ما يترتَّبُ عليهِ العقابُ .

والأَسلَمُ : تفويضُ العلمِ إِلىٰ اللهِ جلَّ شأْنُهُ ، ما لم يَرِدِ النصُّ الصريحُ ، وقدِ استشكَلَ ابنُ الفاكهانيِّ المالكيُّ حديثَ الترمذيِّ :

« مَا مِنْ أَحَدٍ سَلَّمَ عَلَيَّ . . إلاَّ رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ رُوْحِيْ حتَّىٰ أَرُدَّ عَلَيْهِ السَّلامَ »[1] ، معَ ٱستحالَةِ خلوِّ الوجودِ مِن مسلِّمٍ عليهِ في ليلٍ أَو نهارٍ ، وعدَمِ السَّآمَةِ معَ ديمومَةِ حياتِهِ . ثمَّ أَجابَ : بأَنَّ الروحَ مَجَازٌ عَنِ النطقِ ، وٱستبعَدَهُ الإمامُ السيوطيُّ ، وقالَ : إِنَّه مدفوعٌ بالنقلِ والعقْلِ .

أَمَّا النقلُ : فالأَخبارُ الواردَةُ عَن أَحوالِ الأَنبياءِ في البرزَخِ مصرِّحَةٌ بأَنَّهم ينطقونَ ، كيف شاؤوا ، بَل والشهداءُ وسائِرُ المؤمنينَ كذلِكَ ، إلاَّ مَن ماتَ مِن غيرِ وصيَّةٍ ، فقد أَخرجَ أَبو الشيخِ في كتابِ (الوصايا) : « مَنْ لَمْ يُوْصِ . . لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِيْ ٱلْكَلاَمِ مَعَ ٱلْمَوْتَىٰ » ، قِيلَ : يا رسولَ اللهِ ، وهَل تتكلَّمُ الموتىٰ ؟ قالَ : « نَعَمْ ، وَيَتَزَاوَرُوْنَ »[2] .

وأَمَّا العقلُ : فلأَنَّ ٱلحبسَ عَنِ ٱلنطقِ في بعضِ الأَوقاتِ نوعُ حصرٍ وتعذيبٍ ، ولهـٰذا عُذِّبَ بهِ تاركُ الوصيَّةِ ، والنبيُّ ﷺ مُنَزَّهٌ عن ذلكَ ، ولا يلحقُهُ حصرٌ بعدَ وفاتِهِ أَصلاً بوجهٍ مِنَ ٱلوجوهِ ، وأَجابَ عَنِ الحديثِ بأَجوبَةٍ كثيرَةٍ ، أَقواها عندَهُ : أَنَّ المعنىٰ ما مِنْ أَحدٍ سلَّم عليَّ . . إلاَّ قد ردَّ اللهُ عليَّ روحي قبلَ ذلكَ فأَردَّ عليهِ ، وإِنَّما جاءَ الإِشكالُ من ظنِّ أَنَّ جملَةَ (رَدَّ ٱللهُ عَلَيَّ) بمعنىٰ الحالِ أَوِ الاستقبالِ ، وظنِّ أَنَّ (حتَّىٰ) تعلِيْلِيَّةٌ ، وليسَ كذلكَ ، وبهـٰذا يندفعُ

(١) بل أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه أبو داوود (٢٠٤١) ، والبيهقي في « السنن الكبرى » (٥/ ٢٤٥) قال عنه النواوي في « المجموع » (٨/ ٢٠٠) : رواه أبو داوود بإسناد صحيح .

(٢) أورده عن قيس بن وابصة رضي الله عنه الهندي في « كنز العمال » (٤٦٠٨٠) و(٤٦٠٨٦) وعزاه إلى أبي الشيخ في « الوصايا » .

مِن أَصلِهِ الإِشكالُ ، ويتأَكَّدُ هٰذا بورودِ الحديثِ عندَ البيهقيِّ في كتابِ « حياةِ الأَنبياءِ » [ص/١٣] بلفظِ : « إِلاَّ وقد رَدَّ ٱللهُ عليَّ رُوْحِيْ »(١) فصرَّحَ فيهِ بلفظِ : « وَقَدْ » ، فحمدْتُ اللهَ كثيراً . ٱنتهىٰ كلامُهُ بلقطٍ وٱختصارٍ .

المـوت... آه مـن المـوت كـم فعـل الأعاجيب

وبعدُ : فطالَما أَخرسَتِ ٱلْمَنايا مِن فصيحِ لسانٍ ، وأَميرِ بيانٍ ، وغزيرِ بدائعَ ، وكثيرِ روائعَ [مِنَ البسيطِ] :

وَذِيْ بيَانٍ إِذَا مَا قَالَ أَوْ خَطَبَا	يَأْتِي بِسِحْرٍ يَزِيْنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلأَدَبَا
يَأْتِيْ بِسَهْلٍ مِنَ ٱلأَلْفَاظِ مُمْتَنِعٍ	جَزْلٍ يُصِيبُ ٱلْمَعَانِيْ آيَةً عَجَبَا
رَمَتْهُ هَٰذِيْ ٱلْمَنَايَا وَهْيَ صَائِبَةٌ	سَهْماً فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ رَمَتْ فَكَبَا

(١) قال محققه محمد بن محمد الخانجي البوسنوي : حديث أبي هريرة أخرجه أحمد وأبو داوود والمصنف في كتابه « شعب الإيمان » وكتابه « الدعوات الكبير » وفي الحديث إشكال : وهو أن ظاهرهُ مفارقة روح النبي ﷺ لبدنه الشريف في بعض الأوقات وهو مخالف للأحاديث الدالة على حياة الأنبياء ، وقد أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة فأجاب السيوطي في كتابه « إنباه الأذكياء » بخمسة عشر جواباً يراجعها من شاء . ومال البيهقي إلى أن قوله ﷺ « ردَّ الله إليَّ روحي » جملة حالية يقدَّر فيها قد وقاعدة العربية : أن جملة الحال إذا وقعت فعلاً ماضياً قدرت فيها قد كقوله تعالىٰ : ﴿ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ أي : وقد حصرت ، ويبقى الإشكال في حتى لأن الظاهر أنها للتعليل ، فأجاب السيوطي أنها لمجرد العطف فصار تقدير الحديث : ما من أحد يسلم علي إلا قد ردَّ الله علي روحي قبل ذلك ، وأرد عليه ، وأجاب الشهاب الخفاجي بأن الأنبياء والشهداء أحياء ، وحياة الأنبياء أقوى ، وإذا لم يسلط عليهم الأرض فهم كالنائمين ، والنائم لا يسمع ولا ينطق حتى يتنبه ؛ لحديث : أنه ﷺ إذا صلى عليه يستيقظ من النوم ، فالمراد برد الروح الإرسال الذي في قوله تعالىٰ : ﴿ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ الآية ، لأن روحه ﷺ تقبض قبض الممات ثم تنفخ وتعاد كموت الدنيا وحياتها . اهـ .

فَأَخرَسَتْهُ فَمَا يُبْدِيْ بِضَاحِكَةٍ   وَلاَ يَرُدُّ جَوَاباً هَانَ أَوْ صَعُبَا

فالموتُ أَمرٌ عظيمٌ ، وخَطبٌ جسيمٌ ، وشيءٌ مهولٌ ، لَولا كثرَةُ الأَعراضِ والذُّهولُ ، ولَئِنْ سكَتَ الميْتُ بجوارِحِهِ . . فقد نطَقَ حالُهُ بعظيمِ جوائِحِهِ ، فقد جاءَ عَن أَميرِ المؤمنينَ أَنَّهُ قالَ بعدَ ما طُعِنَ [كما في « نهج البلاغة » ١٦٨ـ١٦٩] : إِنَّمَا كنتُ لكُم جاراً ، جاورَكم بدَني أَيَّاماً ، وستُعقِبون منِّي جثَّةً خلاءَ ، ساكنَةً بعدَ حراكٍ ، صامتَةً بعدَ نطوقٍ ، فليعِظْكُم هُدوِّي ، وسكونُ أَطرافي ، وخفوتُ إِطراقي ؛ فإِنَّهُ أَوعظُ للمعتبرينَ مِن المنطقِ البليغِ ، والقولِ المسموعِ ، وداعي لَكُم وداعُ أمرىءٍ مُرصَدٍ لِلتَّلاقي ، غداً ترونَ أَيَّامي ، ويكشف لَكُم عن سرائِري ، وتعرفونِي إِذا خَلا مَكَاني ، وقامَ غَيري مَقَامي .

وقالَ أَبو العتاهيَةِ ، فيما يناسِبُ شِقَّ كلامِ الإِمامِ الأَوَّلِ ، يرثي عليَّ بنَ ثابتٍ [في « ديوانهِ » ٤٤٢ مِنَ الوافرِ] :

بَكَيْتُكَ يَا أُخَيَّ بِدَمْعِ عَيْنِيْ   فَلَمْ يُغْنِ ٱلْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيَّا
طَوَتْكَ خُطُوْبُ دَهْرِكَ بَعْدَ نَشْرٍ   كَذَاكَ خُطُوْبُهُ نَشْراً وَطَيَّا
وَلَوْ نَشَرَتْ قُوَاكَ لِيَ ٱلْمَنَايَا   شَكَوْتُ إِلَيْكَ مَا صَنَعَتْ إِلَيَّا
وَكَانَتْ فِيْ حَيَاتِكَ لِيْ عِظَاتٌ   وَأَنْتَ ٱلْيَوْمَ أَوْعَظُ مِنْكَ حَيَّا

ولي في المعنىٰ [في « ديوان المؤلف » ١١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَغَرَّكَ مِنْ هَـٰذِيْ ٱلْقُبُوْرِ صُمُوْتُهَا   وَأَبْلَغُ وَعْظٍ لَوْ عَلِمْتَ سُكُوْتُهَا
تَقُوْتُكَ هَـٰذِيْ ٱلأَرْضُ مِنْ فَضْلِ قُوْتِهَا   لأَنَّكَ مَهْمَا طَالَ عُمْرُكَ قُوْتُهَا

وتعلَّقَ بآخرِ كلامِ الإِمامِ ، أَبو تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٢/ ٢٨٤ مِنَ السَّريعِ] :

رَاحَتْ وُفُوْدُ ٱلْأَرْضِ عَنْ قَبْرِهِ فَارِغَةَ ٱلْأَيْدِيْ مِلَاءَ ٱلْقُلُوْبْ
قَدْ عَلِمَتْ مَا رُزِئَتْ إِنَّمَا يُعْرَفُ قَدْرُ ٱلشَّمْسِ بَعْدَ ٱلْغُرُوْبْ

والناظِمُ في قولِهِ [في « العُكْبَرِيّ » ١/ ٢٢ مِنَ الكاملِ] :

وَنَذُمُّهُمْ وَبِهِمْ عَرَفْنَا فَضْلَهُمْ وَبِضِدِّهَا تَتَمَيَّزُ ٱلْأَشْيَاءُ

وأَبو فراسٍ في قولِهِ [في « ديوانه » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

سَيَفْقِدُنِيْ قَوْمِيْ إِذَا جَدَّ جِدُّهُمْ وَفِيْ ٱللَّيْلَةِ ٱلظَّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ ٱلْبَدْرُ

والمعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ٧١ مِنَ السَّريعِ] :

وَٱلشَّيْءُ لَا يُعْرَفُ مِقْدَارُهُ إِلَّا إِذَا قِيْسَ إِلَىٰ ضِدِّهِ

ويعجبني في سكوتِ الأمواتِ ، وٱنقطاعِ أَخبارِهِم .. قولُ التهاميِّ [في « ديوانه » ٤٦٨ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلشَّرْقُ نَحْوَ ٱلْغَرْبِ أَقْرَبُ شُقَّةً مِنْ بَعْدِ هَٰذِيْ ٱلْخَمْسَةِ ٱلْأَشْبَارِ[1]

وقولُ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا غُيِّبَ ٱلْمَرْءُ ٱسْتَسَرَّ حَدِيْثُهُ وَلَمْ تُخْبِرِ ٱلْأَفْكَارُ عَنْهُ بِمَا يُغْنِيْ
تَضِلُّ ٱلْعُقُوْلُ ٱلْهِبْزِرِيَّاتُ رُشْدَهَا وَلَمْ يَسْلَمِ ٱلرَّأْيُ ٱلسَّدِيْدُ مِنَ ٱلْأَفْنِ[2]

وهوَ ممَّا قد ذكرناهُ عَن قيسٍ ، أَو عَنِ المجنونِ ، في قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

دَنَتْ بِأُنَاسٍ عَنْ تَنَاءٍ زِيَارَةٌ وَشَطَّ بِلَيْلَىٰ عَنْ دُنُوٍّ مَزَارُهَا

---

(١) الشُّقَّةُ ـ بالضمِّ والفتحِ ـ : الناحيةُ يقصدُها المسافرُ .
(٢) الهبزريَّاتُ : العقولُ القويَّةُ المحكمةُ ، جمعُ هبزريٍّ ، وهو : الرجلُ القويُّ .
الأَفنُ : ضعفُ الرأيِ ، والمأفونُ الذي لا عقلَ لهُ .

وَإِنَّ مُقِيمَـاتٍ بِمُنْقَطَـعِ ٱللِّـوَىٰ   لأَقْرَبُ مِنْ لَيْلَىٰ وَهَاتِيْكَ دَارُهَا

وقلتُ في بعضِ المراثيِّ [في « ديوان المؤلف » ق ٧٠ مِنَ الكاملِ] :

سَفَرٌ عَلَىٰ قُرْبِ ٱلْمَسَافَةِ مَا لَهُ   خَبَـرٌ وَلَـٰكِـنَّ ٱلسُّكُـوْتَ كَـلاَمُ

ويؤثَرُ عِنِ ابنِ الخطَّابِ ـ أَو عَن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ـ كلامٌ طويلٌ عمَّا يقولهُ الميْتُ بعدَ أَيَّامٍ مِن دفنِهِ ، يُطيشُ العقولَ ، ويزعِجُ القلوبَ .

وما أَحسنَ قولَ صلةَ بنِ أَشيَمَ لأَخيهِ وقد دفنَهُ [كما في « جمهرة خطب العرب » ٤٩٩/٢ مِنَ الطَّويل] :

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيْمَةٍ   وَإِلاَّ فَـإِنِّـي لاَ إِخَـالُـكَ نَـاجِيَـا

وقولَ الآخرِ [كما في « نفح الطيب » ٢٥٩/٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَـمْ أُنَـاسٍ فِـيْ نَعِيْـمٍ عُمِّـرُوْا   فِـيْ ذُرَىٰ مُلْـكٍ تَعَـالَـىٰ وَسَبَـقْ
سَكَـتَ ٱلـدَّهْـرُ زَمَـانـاً عَنْهُـمُ   ثُـمَّ أَبْكَـاهُـمْ دَمـاً حِيْـنَ نَطَـقْ

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٦ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ وَلِمَّتِيْ	مُسْـوَدَّةٌ وَلِمَـاءِ وَجْهِـيَ رَوْنَـقُ

شرح المطلع والكلام على المتنبي

يقولُ : إِنَّهُ يبكي على شبابِهِ في حينِ وجودِهِ ؛ خشيَةَ ما يتوقَّعُهُ مِن فراقِهِ ، وقد تكرَّرَ في « ديوانِهِ » الأَسفُ على الشباب ، معَ زعمِهِ أَنَّهُ كانَ يتمنَّاهُ ، بشهادةِ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٨٨-١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

مُنًى كُنَّ لِيْ أَنَّ ٱلبَيَاضَ خِضَابُ ... فَيَخْفَىٰ بِتَبْيِيضِ ٱلْقُرُوْنِ شَبَابُ

لَيَالِـيَ عِنْـدَ ٱلبِيْـضِ فَـوْدَايَ فِتْنَـةٌ ... وَفَخْرٌ وَذَاكَ ٱلْفَخْرُ عِنْدِيَ عَابُ[1]

فَكَيْفَ أَذُمُّ ٱلْيَوْمَ مَا كُنْتُ أَشْتَهِيْ ... وَأَدْعُوْ بِمَا أَشْكُوْهُ حِيْنَ أُجَابُ ؟!

جَلاَ ٱللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَىٰ كُلَّ مَسْلَكٍ ... كَمَا ٱنْجَابَ عَنْ لَوْنِ ٱلنَّهَارِ ضَبَابُ[2]

غيرَ أَنَّهُ لا ينكرُ مع ما نقرِّرُهُ كلَّ حينٍ مِن تناقضِهِ ، وتقلُّبِ أَطوارِهِ ، فهُوَ تارةً يغايِرُ الناسَ بمثْلِ ما سمعْتَ مِن هٰذهِ الأَبياتِ ، وأُخرىٰ يوافقُهم **فيقولُ** [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٣٤-٣٥ مِنَ البسيطِ] :

ضَيْفٌ أَلَمَّ بِرَأْسِيْ غَيْرَ مُحْتَشِمِ ... [وَٱلسَّيْفُ أَحْسَنُ فِعْلاً مِنْهُ بِاللِّمَمِ]

[إِبْعَدْ بَعِدْتَ بَيَاضاً لاَ بَيَاضَ لَهُ] ... لأَنْتَ أَسْوَدُ فِيْ عَيْنِيْ مِنَ ٱلظُّلَمِ

ويقولُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٣٠ مِنَ الخفيفِ] :

آلَـةُ ٱلْعَيْـشِ صِحَّـةٌ وَشَبَـابُ ... فَـإِذَا وَلَّيَـا عَـنِ ٱلْمَـرْءِ وَلَّـىٰ

---

(١) **الفَودان** : جانبا الرأسِ يميناً وشمالاً .

(٢) **أنجابَ** : أنكشفَ .

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٧٧ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ أَرَانِي شَبَابِيْ ٱلرُّوْحَ فِيْ بَدَنِيْ وَقَدْ أَرَانِيْ مَشِيْبِيْ ٱلرُّوْحَ فِيْ بَدَلِيْ

ويقولُ [في « العُكبريّ » ١/ ١٧٠ مِنَ البسيطِ] :

لَيْتَ ٱلْحَوَادِثَ أَعْطَتْنِيْ ٱلَّذِيْ أَخَذَتْ مِنِّيْ بِحِلْمِيْ ٱلَّذِيْ أَعْطَتْ وَتَجْرِيْبِيْ

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٥٦ مِنَ الوافرِ] :

مَتَىٰ لَحَظَتْ بَيَاضَ ٱلشَّيْبِ مِنِّيْ فَقَدْ وَجَدَتْهُ مِنْهَا فِيْ ٱلسَّوَادِ

الكلام على الشيب

والأخيرُ من قولِ أَبي دُلَفٍ العجليِّ [في « الأغاني » ٨/ ٢٥٧ مِنَ البسيطِ] :

فِيْ كُلِّ يَوْمٍ أَرَىٰ بَيْضَاءَ قَدْ طَلَعَتْ كَـأَنَّمَـا طَلَعَـتْ فِـي نَـاظِـرِ ٱلْبَصَـرِ

ونظرَ إِليهِ البُحتريُّ في قولِهِ [في « ديوانه » ٣/ ١٥٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدِدْتُ بَيَاضَ ٱلسَّيْفِ يَوْمَ لَقِيْنَنِيْ مَكَانَ بَيَاضِ ٱلشَّيْبِ لاَحَ بِمَفْرِقِيْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ قُبْحَ ٱلْبَيَاضِ فِيْ شَعَرِ ٱلرَّأْ سِ كَقُبْحِ ٱلْبَيَاضِ فِيْ ٱلأَحْدَاقِ

فأَخذَهُ التهاميُّ وقالَ [في « ديوانهِ » ١٧٨ مِنَ البسيطِ] :

سَوَادُ رَأْسِكَ عِنْدَ ٱلْهَائِمَاتِ بِهِ مُعَـادِلٌ لِسَـوَادِ ٱلْقَلْـبِ وَٱلْبَصَـرِ

وقالَ أَيضاً [في « ديوانه » ٣٣٣ـ٣٣٤ مِنَ البسيطِ] :

عَبَسْنَ مِنْ شَعَرٍ فِيْ ٱلرَّأْسِ مُرْتَسِمٍ لاَ يُنْفِرُ ٱلْبِيْضَ مِثْلُ ٱلْبِيْضِ فِيْ ٱللِّمَمِ[1]
ظَنَّتْ شَبِيْبَتَهُ تَبْقَىٰ وَمَا عَلِمَتْ أَنَّ ٱلشَّبِيْبَةَ مَرْقَاةٌ إِلَىٰ ٱلْهَرَمِ[2]

---

(١) عبسنَ : انقبضت وجوههنَّ . اللِّممُ : ـ جمع لِمَّةٍ ـ : وهوَ الشعرُ المجاورُ شحمةَ الأُذنِ .

(٢) المرقاةُ : السُّلَّمُ .

وَكُلَّمَا ٱعْتَاضَ رَأْسِيْ غَيْرَ صِبْغَتِهِ ... فَٱلشَّيْبُ فِيْ ٱلرَّأْسِ دُوْنَ ٱلشَّيْبِ فِيْ ٱلشِّيَمِ
مَا خَانَ عَزْمِيْ وَلاَ حَزْمِيْ وَلاَ خُلُقِيْ ... وَلاَ وَفَـائِـيْ وَلاَ دِيْنِـيْ وَلاَ كَـرَمِـيْ

والأخيرانِ ينظرانِ إلىٰ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٩٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱلجِسْمِ نَفْسٌ لاَ تَشِيْبُ بِشَيْبِهِ ... وَلَوْ أَنَّ مَا فِيْ ٱلوَجْهِ مِنْهُ حِرَابُ
لَهَـا ظُفُـرٌ إِنْ كَـلَّ ظُفْـرٌ أُعِـدُّهُ ... وَنَابٌ إِذَا لَمْ يَبْقَ فِيْ ٱلفَمِ نَابُ
يُغَيِّرُ مِنِّيْ ٱلـدَّهْـرُ مَـا شَـاءَ غَيْـرَهَـا ... وَأَبْلُغُ أَقْصَىٰ ٱلعُمْرِ وَهْيَ كَعَابُ(١)

والأَصلُ قولُ غيلانَ بنِ سلمَةَ الثقفيِّ ـ رضيَ اللهُ عنهُ ـ [كما في « الأغاني » ١٧/٥١٤ مِنَ الكامِلِ] :

لَمْ يَنْتَقِصْ مِنِّيْ ٱلْمَشِيْبُ قُلاَمَةً ... اَلآنَ حِيْـنَ بَـدَا أَلَـبُّ وَأَكْيَـسُ
وَٱلشَّيْـبُ إِنْ يَحْلُـلْ فَـإِنَّ وَرَاءَهُ ... عُمُـراً يَكُـوْنُ خِـلاَلَـهُ مُتَنَفَّـسُ

وقولُ الحارثِ بنِ السُّلَيكِ الأزديِّ [في « مجمع الأمثال » ١/١٢٣ مِنَ البسيطِ] :

وَعَيَّـرَتْ أَنْ رَأَتْنِـيْ لاَبِسـاً كِبَـراً ... وَغَايَةُ ٱلنَّفْسِ بَيْنَ ٱلْمَوْتِ وَٱلْكِبَرِ
فَإِنْ بَقِيْتِ رَأَيْتِ ٱلشَّيْبَ رَاغِمَةً ... وَفِيْ ٱلتَّفَرُّقِ مَا يَقْضِيْ مِنَ ٱلغِيَرِ
وَإِنْ يَكُنْ قَدْ عَلاَ رَأْسِيْ وَغَيَّرَهُ ... صَرْفُ ٱلزَّمَانِ وَتَغْيِيْرٌ مِنَ ٱلشَّعَرِ
فَقَـدْ أَرُوْحُ لِلَـذَّاتِ ٱلفَتَـىٰ جَـذِلاً ... وَهِمَّتِيْ لَمْ تَشِبْ فَٱسْتَخْبِرِيْ أَثَرِيْ

ولهٰذهِ الأبياتِ حديثٌ ظريفٌ ، يغلبُ على ظنِّي أنَّهُ في (ثكلتْكَ أُمُّكَ ، قد تجوعُ الحرَّةُ ولا تأكُلُ بثديَيْها)(٢) مِنْ « أمثالِ الميدانيِّ » [١/١٢٣] .

---

(١) الكَعابُ ـ بالفتحِ ـ : الجاريةُ حينَ يبدو الثديُ لها للنهودِ .
(٢) القصةُ قد ذكرناها فيما مضىٰ تعليقاً .

قالَ ٱبنُ المعتزِّ [مِنْ مُخلَّعِ البسيطِ] :

قَالَتْ وَقَدْ رَاعَهَا مَشِيبِي : كُنْتَ ٱبْنَ عَمٍّ فَصِرْتَ عَمَّا
وَٱسْتَهْزَأَتْ بِيْ فَقُلْتُ أَيْضاً : قَدْ كُنْتِ بِنْتاً فَصِرْتِ أُمَّا
كُفِّي وَلاَ تُكْثِرِي مَلاَمِي وَلاَ تَزِيدِي ٱلْعَلِيلَ سُقْمَا
مَنْ شَابَ أَبْصَرْنَهُ ٱلْغَوَانِي بِعَيْنِ مَنْ قَدْ عَمِي وَصَمَّا
لَوْ قِيلَ لِيْ : ٱخْتَرْ عَمىً وَشَيْباً أَيُّهُمَا شِئْتَ لَقُلْتُ : أَعْمَىٰ

نسأَلُ اللهَ العافيَةَ ؛ فلقدْ أَسرَفَ علىٰ نفسِهِ بما لَنْ يسلمَ مِن سوءِ مغبَّتِهِ ، كَما لَم ينجُ العبدُ الصالحُ عليهِ السلامُ من نتيجَةِ قولِهِ : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] .

وقد ذكرناهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، ولَئِنْ سَلِم هـٰذا الشاعرُ . . فَلا لكرامَةٍ علىٰ اللهِ ؛ ولـٰكنَّهُ الاستدراجُ ، والتأجيلُ إِلىٰ اليوم الذي يشتَدُّ فيهِ الجَزاءُ علىٰ مَن أَساءَ الأدبَ ، وأَوَّلُ أَبياتِهِ ناظِرٌ إِلىٰ قولِ الأَخطلِ [في « ديوانه » ٣٨٦ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا دَعَوْنَكَ عَمَّهُنَّ فَإِنَّهُ نَسَبٌ يَزِيدُكَ عِنْدَهُنَّ خَبَالاَ
وَإِذَا دَعَوْنَكَ يَا أُخَيَّ فَإِنَّهُ أَدْنَىٰ وَأَقْرَبُ خُلَّةً وَوِصَالاَ

وهوَ مِن قولِ النمرِ بنِ تولَبٍ ـ رحمةُ اللهِ عليهِ ـ [في « ديوانه » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعَانِيَ ٱلْغَوانِيْ عَمَّهُنَّ وَخِلْتُنِيْ لِيَ ٱسْمٌ فَمَا أُدْعَىٰ بِهِ وَهْوَ أَوَّلُ

وقالَ ٱبنُ زهرٍ الأَندلسيُّ [في « نفح الطيب » ٢/٧٢٩ مِنَ البسيطِ] :

كَانَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِيْ يَا أُخَيَّ وَقَدْ أَضْحَتْ سُلَيْمَىٰ تُنَادِي ٱلْيَوْمَ يَا أَبَتَا

وقد غايرَتْ في ذلكَ أُمُّ الضحّاكِ حيثُ تقولُ [مِنَ الطّويلِ] :

فَيَا رَبِّ لاَ تَجْعَلْ حَيَاتِيْ وَبَهْجَتِيْ لِشَيْــخٍ يُعَنِّيْنِــيْ وَلاَ لِغُــلاَمِ
فَنُبِّئْتُ أَنَّ ٱلشَّيْخَ يَعْذِلُ أَهْلَهُ وَفِيْ شِرَّةٍ حَالُ ٱلْفَتَىٰ وَعُرَامِ[1]
وَلَٰكِنْ صُمُلٍّ قَدْ عَلاَ ٱلشَّيْبُ رَأْسَهُ فَـرُوْجٍ لأَحْـرَاحِ ٱلنِّسَـاءِ هُمَـامِ[2]

وجارَاها ، وأَحسنَ ما شاءَ أَبو الأَسودِ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١١٣ مِنَ الطّويلِ] :

أَبَىٰ ٱلْقَلْبُ إِلاَّ أُمَّ عَمْرٍو وَحُبَّهَا عَجُوْزاً وَمَنْ يَعْشَقْ عَجُوْزاً يُفَنَّدِ
كَبُرْدِ ٱلْيَمَانِيْ قَدْ تَقَادَمَ عَهْدُهُ وَرَقْعَتُهُ مَا شِئْتَ فِيْ ٱلعَيْنِ وَٱلْيَدِ

البكاء على الشباب

أَمّا البكاءُ علىٰ الشبابِ . . فمِن أَحسنِ ما فيهِ قولُ منصورٍ النُميريِّ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

مَا تَنْقَضِيْ حَسْرَةٌ مِنِّيْ وَلاَ جَزَعُ إِذَا ذَكَرْتُ شَبَاباً لَيْسَ يُرْتَجَعُ
بَـانَ ٱلشَّبَـابُ وَفَـاتَتْنِـيْ بِشِـرَّتِـهِ صُرُوْفُ دَهْرٍ وَأَيَّامٌ لَهَا خِدَعُ
مَا كِدْتُ أُوْفِيْ شَبَابِيْ كُنْهَ غُرَّتِهِ حَتَّىٰ ٱنْقَضَىٰ فَإِذَا ٱلدُّنْيَا لَهُ تَبَعُ
مَا كَانَ أَقْصَرَ أَيَّامَ ٱلشَّبَابِ وَمَا أَبْقَىٰ حَلاَوَةَ ذِكْرَاهُ ٱلَّتِيْ يَدَعُ

فلقد بكىٰ الرشيدُ مِن هٰذهِ الأَبياتِ ، وقالَ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٣] : صدقْتَ يا نُميريُّ ، لا خيرَ في دنيا لا يُستَمتَعُ فيها بحلاوةِ الشبابِ وأَيّامِهِ .

---

(١) العُرامُ : الشديدُ القويُّ الشرسُ .
(٢) الصُّمُلُّ : الشديدُ الخُلُقِ العظيمُ . فروجٌ : صيغةُ مبالغةٍ مِن فارجٍ ، والمعنىٰ : أَنّها تدعو اللهَ عز وجلَّ أَنْ يرزقَها زوجاً يكفيها مُؤْنَةَ النّكاحِ ، ولا يُقصِّرَ في حقِّها فيهِ . الأحراحُ : الفُروجُ . الهُمامُ : المَلِكُ العظيمُ الهمَّةِ والسيِّدُ الشجاعُ .

المعتصم يعجب بقصيدة للنميري

وهـٰذا البيتُ مِن قصيدَةٍ لَهُ جزلَةٍ مختارَةٍ ، حتَّىٰ لَقد ٱجتمَعَ الشعراءُ ببابِ المعتصِمِ ، فبعَثَ إليهِمْ [كما في « الأغاني » ١٩/٨١] : مَن كانَ مِنكُم يحسنُ أَن يقولَ مثلَ قولِ منصورٍ النُميريِّ في الرشيدِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوْفَ أَوْدِيَةٌ أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ
أَيُّ ٱمْرِىءٍ بَاتَ مِنْ هَارُوْنَ فِيْ سَخَطٍ؟ فَلَيْسَ بِـٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ
إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ أَوْ ضَـاقَ أَمْـرٌ ذَكَـرْنَـاهُ فَيَتَّسِـعُ

.. فليدخُل ، فيقالُ [كما في « الأغاني » ١٩/٨١] : إِنَّ محمَّدَ بنَ وهيبٍ دخَلَ يومئذٍ ، وأَنشدَ المعتصمَ قصيدتَهُ التي يقولُ فيها [مِنَ البسيطِ] :

ثَـلاَثَـةٌ تُشْـرِقُ الـدُّنْيَـا بِبَهْجَتِهِـمْ شَمْسُ ٱلضُّحَىٰ وَأَبُوْ إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ

فٱهتزَّ لَها ، وأَحسنَ جائزَتَهُ . وما هُوَ بالحَكَمِ التُّرضىٰ حكومَتُهُ في المساواةِ بينَ القصيدتينِ ؛ فإِنَّ بينَهما بُعدَ المشرقينِ .

وقد أَغارَ الناظِمُ علىٰ قولِ منصورٍ : (فإِذا الدنيا لَهُ تبعٌ) فيما سبقَ من قولِهِ : (فإِذا وَلَّيا عَنِ ٱلْمَرءِ وَلَّىٰ) ، وأَغارَ أَيضاً علىٰ قولِهِ : (أَو ضاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ) حيثُ قالَ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/٣٠٣ مِنَ الكاملِ] :

مَلِـكٌ إِذَا مَـا الـرُّمْـحُ أَدْرَكَـهُ طَنَـبٌ ذَكَـرْنَـاهُ فَيَعْتَـدِلُ

ولاذَ بهِ المعريُّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٢١ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ كَتَـبَ ٱسْمَـهُ مَلِـكٌ هَـزِيْـمٌ عَلَـىٰ رَايَـاتِـهِ وَالَـىٰ ٱلْفُتُـوْحَـا

دواء عجيب لتسهيل الولادة.. اقرأه ولا تطبقه!!!

ولبيتِ النميريِّ قصَّةٌ ، حاصلُها [كما في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : أَنَّهُ جاءَ إِلىٰ صديقٍ لَهُ وهوَ قلقُ الخاطِرِ ، منزعِجُ ٱلْفكرِ ، مُبَلْبَلُ البَالِ ، فسأَلَهُ صاحبُهُ عَنْ موجِبِ ذلكَ ، فقالَ لَهُ : تركْتُ زوجتي في المخاضِ ، وقد عسُرَ عَلَيها الولادُ ، وهيَ يَدي ورجلي ، ورُوحي ورَاحَتي ، قالَ لَهُ : أَلستَ القائِلَ : (أَوْ ضاقَ أَمرٌ ذكَرْنَاهُ فيَتَّسعُ)؟ قالَ : بلىٰ ، قالَ : فٱذهبْ ، فٱكتبْ علىٰ فرجها : هارونُ الرشيدُ ؛ حتَّىٰ يحصلَ الفرَجُ ، ويتَّسعَ المضيَّقُ ، فبلغَتِ ٱلرَّشيدَ ، وٱختلفَتِ الروايَةُ ، فمِن قائِلٍ : إِنَّهُ ٱستطرفَها ، ومِن قائِلٍ : إِنَّهُ عاقَبَ الرجلَ ، وقيلَ [في « الأغاني » ١٣/١٦٧] : إِنَّ الرجُلَ نمَّ علىٰ النميريِّ عندَ الرشيدِ بميلِهِ إِلىٰ العلويِّينَ ، وأَنَّهُ لا يريدُ بهارونَ إِلاَّ عليَّ ٱبنَ أَبي طالِبٍ ، مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُوْنَ مِنْ مُوْسَىٰ »[1] ، وأَنشدَ لَهُ [مِنَ البسيطِ] :

آلُ ٱلرَّسُوْلِ خِيَارُ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... وَخَيْـرُ آلِ رَسُـوْلِ ٱللهِ هَـارُوْنُ

وأَنَّ الرشيدَ أَرسلَ بعدَ ذلكَ إِلىٰ النميريِّ من يبعَجُ بطنَهُ ، فأَلفاهُ منصَرَفَ الناسِ مِن جنازَتِهِ ، وكانَ النميريُّ متمكِّناً عندَ الرشيدِ بنفاقِهِ ، الذي مِن أَظهرِ آياتِهِ قولُهُ [مِنَ الوافرِ] :

بَنِيْ حَسَنٍ وَقُلْ لِبَنِيْ حُسَيْنٍ ... عَلَيْكُـمْ بِـٱلسَّـوَاءِ مِـنَ ٱلأُمُـوْرِ

أَمِيطُوْا عَنْكُمُ كَذِبَ ٱلأَمَانِيْ ... وَأَحْـلاَمـاً يَعُـدْنَ عِـدَاتِ زُوْرِ

إِنَّ ٱلنَّبِـيَّ أَبَـاً وَيَـأْبَـىٰ ... مِنَ ٱلأَحْزَابِ سَطْرٌ فِيْ سُطُوْرِ[2]

---

(١) أخرجه عن سعد ٱبن أبي وقاص رضي الله عنه مسلم (٢٤٠٤) في (فضائل الصحابة) وفيه : « أما ترضىٰ أن تكون منِّي بمنزلة هارون من موسىٰ » .

(٢) البيتُ مكسورٌ عروضياً ولعل صوابَهُ :

وَلَـمْ يَكُـنِ ٱلنَّبِـيُّ أَبـاً ، وَيَـأْبَـىٰ ... مِـنَ ٱلأَحْـزَابِ سَطْـرٌ فِـيْ سُطُـوْرِ

يريدُ قولَهُ: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، حتَّىٰ لَيُقالُ: إِنَّ الرشيدَ حكمَهُ في بيتٍ بما أَرضىٰ لِهواهُ في هٰذا الشعْرِ.

المشيب والشباب والبكاء عليهما

ومِن بدائِعِ الفرزدَقِ قولُهُ يبكي الشبابَ [في «ديوانِهِ» ١/٣٧٢ مِنَ الكاملِ]:

قَالَتْ: وَكَيْفَ يَمِيلُ مِثْلُكَ لِلصِّبَا ... وَعَلَيْكَ مِنْ سِمَةِ ٱلْحَلِيْمِ وَقَارُ؟
وَٱلشَّيْبُ يَنْهَضُ فِي ٱلسَّوَادِ كَأَنَّهُ ... لَيْـلٌ يَصِيْـحُ بِجَـانِبَيْـهِ نَهَـارُ

وقالَ العربيُّ [أبو العتاهيةِ في «ديوانِهِ» ٣٢ مِنَ الوافرِ]:

أَلاَ لَيْـتَ ٱلشَّبَـابَ يَعُـوْدُ يَـوْمـاً ... فَـأُخْبِـرَهُ بِمَـا فَعَـلَ ٱلْمَشِيْـبُ

وقالَ دِعبِلٌ [في «ديوانِهِ» ٢٠٣ مِنَ الكاملِ]

أَيْـنَ ٱلشَّبَـابُ؟ وَأَيَّـةً سَلَكَـا؟ ... لاَ، أَيْنَ يُطْلَبُ؟ ضَلَّ، بَلْ هَلَكَا
لاَ تَعْجَبِيْ يَـاسَلْـمُ مِـنْ رَجُـلٍ ... ضَحِكَ ٱلْمَشِيْبُ بِرَأْسِهِ فَبَكَىٰ

وقد أَخذ أَصلَ المعنىٰ مِن قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [صريعُ الغواني في «ديوانِهِ» ٣٠٦ مِنَ السَّريعِ]:

مُسْتَعْبِـرٌ يَبْكِـيْ عَلَـىٰ دِمْنَـةٍ ... وَرَأْسُـهُ يَضْحَـكُ فِيْـهِ ٱلْمَشِيْـبُ

أَو مِن قولِ ٱبنِ مطيرٍ [في «ديوانِهِ» ٢٧ مِنَ الخفيفِ]:

[كُـلَّ يَـوْمٍ بِـأُقْحُـوَانٍ جَـدِيْـدٍ] ... تَضْحَكُ ٱلأَرْضُ مِنْ بُكَاءِ ٱلسَّمَاءِ

ومِن أَبكىٰ ما يكونُ علىٰ الشبابِ.. قولُ أَبي الغُصْنِ الأَسديِّ [مِنَ الوافرِ]:

أَتَـأْمَـلُ رَجْعَـةَ ٱلـدُّنْيَـا سَفَـاهـاً ... وَقَدْ صَارَ ٱلشَّبَابُ إِلَىٰ ٱلذَّهَابِ
فَلَيْـتَ ٱلْبَـاكِيَـاتِ بِكُـلِّ أَرْضٍ ... جُمِعْنَ لَنَا فَنُحْنَ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ

وقالَ محمَّدُ بنُ أَبي حازمٍ [في « ديوانهِ » ٨٧ مِنَ البسيطِ] :

لاَ حِيْنَ صَبْرٍ فَخَلِّ ٱلدَّمْعَ يَنْهَمِلُ   فَقْدُ ٱلشَّبَابِ بِيَوْمِ ٱلْمَرْءِ مُتَّصِلُ
لاَ تَكْذِبَنَّ فَمَا ٱلدُّنْيَا بِأَجْمَعِهَا   مِنَ ٱلشَّبَابِ بِيَوْمٍ وَاحِدٍ بَدَلُ
كَفَاكَ بِٱلشَّيْبِ ذَنْباً عِنْدَ غَانِيَةٍ   وَبِٱلشَّبَابِ شَفِيْعاً أَيُّهَا ٱلرَّجُلُ

وقالَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ بنِ الحسنِ السبطِ ـ رضوانُ اللهِ عليهم ـ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْ أَنَّ أَسْرَابَ ٱلدُّمُوْعِ ثَنَتْ   شَرْخَ ٱلشَّبَابِ عَلَىٰ ٱمْرِىءٍ قَبْلِي[1]
لَبَكَيْتُهُ دَهْرِي بِأَرْبَعَةٍ   فَسَفَحْتُهَا سَجْلاً عَلَىٰ سَجْلِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٣٤٣ـ٢٣٤٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَلْحَ مَنْ يَبْكِي شَبِيْبَتَهُ   إِلاَّ إِذَا لَمْ يَبْكِهَا بِدَمِ[2]
لَسْنَا نَرَاهَا حَقَّ رُؤْيَتِهَا   إِلاَّ زَمَانَ ٱلشَّيْبِ وَٱلْهَرَمِ
وَلَرُبَّ شَيْءٍ لاَ يُبَيِّنُهُ   وُجْدَانُهُ إِلاَّ مَعَ ٱلْعَدَمِ
كَٱلشَّمْسِ لاَ تَبْدُوْ فَضِيْلَتُهَا   حَتَّىٰ تَغَشَّىٰ ٱلأَرْضُ بِٱلظُّلَمِ

وقالَ آخرُ [وهو أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٣٥٣ مِنَ الكاملِ] :

الشَّيْبُ إِحْدَىٰ ٱلْمِيتَتَيْنِ تَقَدَّمَتْ   إِحْدَاهُمَا وَتَأَخَّرَتْ إِحْدَاهُمَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

لَوْ رَأَىٰ ٱللهُ أَنَّ فِيْ ٱلشَّيْبِ فَضْلاً   جَاوَرَتْهُ ٱلأَبْرَارُ فِيْ ٱلْخُلْدِ شِيْبَا

---

(١) شرخُ الشباب : أوَّلُهُ وقوَّتُهُ ونضارتُهُ .
(٢) لاحَ : أشفق وبكىٰ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٧ مِنَ الخفيفِ] :

شُعْلَةٌ فِيْ ٱلْمَفَارِقِ ٱسْتَوْدَعَتْنِيْ فِيْ صَمِيْمِ ٱلْفُؤَادِ ثُكْلاً صَمِيْمَا[(١)]

تَسْتَثِيْرُ ٱلْهُمُوْمُ مَا ٱكْتَنَّ مِنْهَا صُعُداً وَهِيَ تَسْتَثِيْرُ ٱلْهُمُوْمَا[(٢)]

دِقَّةٌ فِيْ ٱلْحَيَاةِ تُدْعَىٰ جَلاَلاً مِثْلَ مَا سُمِّيَ ٱللَّدِيْغُ سَلِيْمَا

حَلَّمَتْنِيْ زَعَمْتُمُ وَأَرَانِيْ قَبْلَ هَـٰذَا ٱلتَّحْلِيْمِ أُدْعَىٰ حَلِيْمَا[(٣)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٩٨ـ٣٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَا ٱلشَّيْبُ مُخْتَطّاً بِفَوْدَيَّ خِطَّةً سَبِيْلُ ٱلْفَتَىٰ فِيْهَا إِلَىٰ ٱلْمَوْتِ مَهْيَعُ[(٤)]

هُوَ ٱلزَّوْرُ يُجْفَىٰ، وَٱلْمُعَاشَرُ يُجْتَوَىٰ وَذُوْ ٱلإِلْفِ يُقْلَىٰ، وَٱلْجَدِيْدُ يُرَقَّعُ[(٥)]

لَهُ مَنْظَرٌ فِيْ ٱلْعَيْنِ أَبْيَضُ نَاصِعٌ وَلَـٰكِنَّهُ فِيْ ٱلْقَلْبِ أَسْوَدُ أَسْفَعُ[(٦)]

وَنَحْنُ نُزَجِّيْهِ عَلَىٰ ٱلْكُرْهِ وَٱلرِّضَا وَأَنْفُ ٱلْفَتَىٰ مِنْ وَجْهِهِ وَهْوَ أَجْدَعُ[(٧)]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١١٥ـ١١٦ مِنَ البسيطِ] :

سِتٌّ وَعِشْرُوْنَ تَدْعُوْنِيْ فَأَتْبَعُهَا إِلَىٰ ٱلْمَشِيْبِ وَلَمْ تَظْلِمْ وَلَمْ تَحُبِ[(٨)]

يَوْمِيْ مِنَ ٱلدَّهْرِ مِثْلُ ٱلدَّهْرِ تَجْرِبَةً حَزْماً وَعَزْماً وَسَاعِيْ مِنْهُ كَٱلْحِقَبِ[(٩)]

---

(١) الصميمُ : الخالصُ .

(٢) تستثيرُ : تحرِّكُ ، والضميرُ يعودُ إلىٰ الثُّلَّةِ منَ الشيبِ . اكتنَّ : استترَ . صُعُداً : ارتفاعاً .

(٣) حلَّمتني : صيَّرتني حليماً .

(٤) الفَودُ : جانبُ الرأسِ . الخطَّةُ : الطريقةُ . المَهْيَعُ : الطريقُ الواسعُ .

(٥) الزَّورُ : الزائرُ . يُجفى : يُهجرُ . يُجتوىٰ: يكرهُ . يُقلىٰ : يبغضُ .

(٦) أسفعُ : خالصُ السوادِ .

(٧) نزجِّيهِ : نسوقهُ . أَجدعُ : مقطوعٌ .

(٨) لم تحُبِ : لم تأثمْ .

(٩) الساعُ : مفردها الساعةُ . الحِقَبُ ـ مفرده حِقبةٌ ـ : وهي المدَّةُ الطويلةُ منَ =

وَأَصْغِرِيْ أَنَّ شَيْباً لاَحَ بِيْ حَدَثاً ... وَأَكْبِرِيْ أَنَّنِي فِيْ ٱلْمَهْدِ لَمْ أَشِبِ[1]
وَلاَ يُـؤَرِّقْـكِ إِيْمَاضُ ٱلْقَتِيْرِ بِـهِ ... فَـإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ ٱلرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ[2]

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/١١٩٨ مِنَ الكاملِ] :

تَـرَكَ ٱلسَّـوَادَ لِـلاَبِسِيْـهِ وَبَيَّضَـا ... وَنَضَا مِنَ ٱلسِّتِّيْنَ عَنه مَا نَضَا[3]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٢٠٧ـ١٢٠٩ مِنَ الخفيفِ] :

لاَبِسٌ مِـنْ شَبِيْبَـةٍ أَمْ نَـاضِـيْ ؟ ... وَمُلِيْحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضِيْ[4] ؟
فَهَلِ ٱلْحَادِثَاتُ يَا ٱبْنَ عُوَيْفٍ ... تَارِكَاتِيْ وَلُبْسَ هَـٰذَا ٱلْبَيَاضِ ؟

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٥٦ مِنَ البسيطِ] :

وَجِدَّةُ ٱلشَّعَرَاتِ ٱلسُّوْدِ يُرْجِعُهَا ... بِيْضاً تَتَابُعُ مَرِّ ٱلْبِيْضِ وَٱلسُّوْدِ[5]
لَوْ كَانَ فِيْ ٱلْحِلْمِ مِنْ جَهْلٍ مَضَىٰ عِوَضٌ ... لَمْ أَذْمُمِ ٱلشَّيْبَ فِيْ قَوْلِيْ وَمَعْقُوْدِيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٥٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا لَقِيْنَاهُنَّ وَٱلشَّيْبُ شَفْعُنَا ... تَغَابَيْنَ أَوْ كَلَّمْنَنَا بِٱلسَّوَالِفِ[6]

وقالَ [في « ديوانه » ١/٩٩ مِنَ الوافرِ] :

أَقُـوْلُ لِلِمَّتِـيْ إِذْ أَسْـرَعَـتْ بِـيْ ... إِلَىٰ ٱلشَّيْبِ : ٱخْسَرِيْ فِيْهِ وَخِيْبِيْ!

= الوقتِ ، ومنهُ قولهُ تعالىٰ ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [عم : ٢٣] .
(١) أَصغِري وأَكبري : فِعْلا أمرٍ معناهما ليصغُر وليكبُر .
(٢) إيماضُ : لمعانُ . القتيرُ : الشيبُ .
(٣) نضا الثوبَ : نزعهُ وألقاهُ .
(٤) المُليحُ : المشفقُ الخائفُ الحذِرُ .
(٥) الجِدَّةُ : كونُ الشيءِ جديداً .
(٦) الشيبُ شفعنا : أي ثانينا . السوالفُ ـ جمع سالفةٍ ـ : وهيَ العنقِ . والمقصودُ : أنهنَّ يُعرضنَ عنهُ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٣٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَنَتْ طَرْفَهَا دُوْنَ ٱلْمَشِيْبِ، وَمَنْ يَشِبْ فَكُـلُّ ٱلْغَـوَانِـيْ عَنْـهُ مُثْنِيَـةُ ٱلطَّـرْفِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٠٩ مِنَ ٱلخفيفِ] :

غَلَّسَ ٱلشَّيْـبُ أَوْ تَعَجَّـلَ وِرْدُهْ وَٱسْتَعَارَ ٱلشَّبَابَ مَنْ لاَ يَرُدُّهْ[1]

لاَ تَلُمْنِيْ عَلَىٰ ٱلضَّنَا بَعْدَمَا صَـ ـوَّحَ رَوْضُ ٱلصِّبَا وَأَنْهَجَ بُرْدُهْ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلشَّيْبُ مَهْرَبُ مَنْ جَارَىٰ مَنِيَّتَهُ وَلاَ نَجَاءَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ ٱلْهَرَبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٥٣ـ٩٥٤ مِنَ البسيطِ] :

فِيْ ٱلشَّيْبِ زَجْرٌ لَهُ لَوْ كَانَ يَنْزَجِرُ وَبَـالِـغٌ مِنْـهُ لَـوْلاَ أَنَّـهُ حَجَـرُ

اِبْيَضَّ مَا ٱسْوَدَّ مِنْ فَوْدَيَّ وَٱرْتَجَعَتْ جَلِيَّةُ ٱلصُّبْحِ مَا قَدْ أَغْفَلَ ٱلسَّحَرُ

وَلِلْفَتَىٰ مُهْلَـةٌ فِـيْ ٱلْحُـبِّ وَاسِعَـةٌ مَا لَمْ يَمُتْ فِيْ نَوَاحِيْ رَأْسِهِ ٱلشَّعَرُ

وقالَ المعرّيُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٤٦ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ تَعَوَّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ فَمَا وَجَدْتُ لأَيَّامِ ٱلصِّبَا عِوَضَا

وقالَ [البُحتريُّ في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٨١ مِنَ الخفيفِ] :

هَاهُوَ ٱلشَّيْبُ لاَئِماً فَأَفِيْقِيْ! وَٱتْـرُكِيْـهِ إِذْ كَـانَ غَيْـرَ مُفِيْـقِ

وقالَ [المعريُّ في « سقطِ الزندِ » ١١٢ مِنَ الوافرِ] :

وَعِيْشَتِـيَ ٱلشَّبَـابُ وَلَيْـسَ مِنْهَـا صِبَـايَ وَلاَ ذَوَائِبِـيَ ٱلْهِجَـانُ[3]

---

(١) الغَلَسُ : ظلمةُ آخرِ الليلِ .

(٢) أنهجَ الثوبُ : بليَ .

(٣) الذوائبُ الهجانُ : البيضُ .

[وقيل مِنَ الوافرِ] :

وَكَالنَّارِ الْحَيَاةُ فَمِنْ دُخَانٍ أَوَائِلُهَا وَآخِرُهَا رَمَادُ

وقالَ صردرٌ [مِنَ الكاملِ] :

لَمْ أَبْكِ أَنْ رَحَلَ الشَّبَابُ وَإِنَّمَا أَبْكِي لأَنْ يَتَقَارَبَ الْمِيعَادُ
شَعْرُ الْفَتَىٰ أَوْرَاقُهُ فَإِذَا ذَوَىٰ جَفَّتْ عَلَىٰ آثَارِهِ الأَعْوَادُ

الشيب قبل الأوان مؤلم

وفي بعضِ ما سبقَ ـ خصوصاً عَن أَبي تمَّامٍ ـ شكايَةٌ مِن نزولِ الشيبِ قبلَ أَوانِهِ ، وأَصلُهُ قولُ أَبي نواسٍ [في « ديوانهِ » ٣٣٠ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا عَدَدْتُ سِنِيَّ عُمْرِيَ لَمْ أَجِدْ لِلشَّيْبِ عُذْراً فِي النُّزُولِ بِرَاسِي

وقالَ كُشاجمٌ [في « ديوانهِ » ٤٩٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا فَكَّرْتُ فِيْ شَيْبِي وَسِنِّي عَتَبْتُ عَلَيْهِ فِيمَا نَالَ مِنِّي
كَأَنَّ الشَّيْبَ غَارَ عَلَىٰ الْغَوَانِي فَعَرَّضَهُنَّ لِلإِعْرَاضِ عَنِّي

وقالَ الناظمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/١٢٣ ـ ١٢٤ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ يُمْكِنُنِي سَفَرْتُ عَنِ الصِّبَا فَالشَّيْبُ مِنْ قَبْلِ الأَوَانِ تَلَثُّمُ[1]
وَلَقَدْ رَأَيْتُ الحَادِثَاتِ فَلاَ أَرَىٰ شَيْباً يُمِيتُ وَلاَ سَوَاداً يَعْصِمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَلْ أَنَا إِلاَّ ابْنُ الثَّلاَثِينَ لَمْ تَشِبْ لِدَاتِي وَلَكِنَّ الْخُطُوبَ تُضِيمُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

قَدْ رَأَيْنَاهُ بِالْعَشِيِّ غُلاَماً فَغَدَوْنَا نَعُدُّهُ فِي الْكُهُوْلِ

---

(١) سفرتُ : أظهرتُ وكشفتُ ، وسفرَ وجهُ زيدٍ : أشرقَ . التلثُّمُ : سترُ الوجهِ .

وقالَ الموسَويُّ [وهو الشريفُ الرضيُّ في « ديوانهِ » ٦٨٨ مِنَ السَّريعِ] :

عَجِّلْتَ يَا شَيْبُ عَلَىٰ مَفْرِقِيْ وَأَيُّ عُـذْرٍ لَـكَ أَنْ تَعْجَـلاَ
وَكَيْـفَ أَقْـدَمْـتَ عَلَـىٰ عَـارِضٍ مَا ٱسْتَغْرَقَ ٱلنَّبْتَ وَلاَ ٱسْتَكْمَلاَ ؟
يَـا زَائِـراً مَـا جَـاءَ حَتَّـىٰ مَضَـىٰ وعَـارِضاً مَا غَامَ حَتَّىٰ ٱنْجَلَىٰ
وَمَـا رَأَىٰ ٱلـرَّاؤُوْنَ مِـنْ قَبْلِهَـا زَرْعـاً ذَوَىٰ مِـنْ قَبْـلِ أَنْ يُبْقِـلاَ

وقالَ أَبو فراسٍ الحمدانيُّ [في « ديوانهِ » ١٥١ مِنَ الوافرِ] :

وَمَـا أَرْبَـتْ عَلَـىٰ ٱلْعِشْـرِيْـنَ سِنِّـيْ فَمَا عُذْرُ ٱلْمَشِيْبِ إِلَىٰ عِذَارِيْ ؟!

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٤٥ مِنَ البسيطِ] :

ثَوبُ ٱلشَّبَابِ عَلَيَّ ٱلْيَوْمَ بَهْجَتُهُ وَسَوْفَ تَنْزِعُهُ عَنِّيْ يَدُ ٱلْكِبَرِ
أَنَا ٱبْنُ عِشْرِيْنَ مَا زَادَتْ وَلاَ نَقَصَتْ إِنَّ ٱبْنَ عِشْرِيْنَ مِنْ شَيْبٍ عَلَىٰ خَطَرِ

ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه؟

وقد سبقَ ـ ولا سيَّمَا فيما سقناهُ عَن أَبي عبادَةَ ـ عذرُ المشيبِ إِذا جاءَ في وقتِهِ ، ومنهُ قولُ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » مِنَ الكاملِ] :

أَدْرَىٰ غُرَابَ ٱلشَّيْبِ فَوْقَ مَفَارِقِيْ رَكْضُ ٱلسِّنِيْنَ ٱلرَّاكِضَاتِ أَمَامِيْ

ولعلَّهُ أَرادَ الغرابَ الأَبقعَ ، أو مِن حيثُ إِنذارُهُ بالرحيلِ ، وإِلاَّ . . فلونُهُ غيرُ مناسِبٍ للشيبِ ، وقولُهُ أَيضاً ، وهو ما يُعْجِبُنِي ؛ لموافقتِهِ لسنِّي [وهو في « ديوانهِ » ١/ ٣٦٠ـ٣٦١ مِنَ السَّريعِ] :

فَكَّرْتُ فِيْ خَمْسِيْنَ عَاماً مَضَتْ كَـانَـتْ أَمَـامِـيَ ثُـمَّ خَلَّفْتُهَـا
لَـوْ أَنَّ عُمْـرِيْ مِئَـةً هَـدَّنِـيْ تَـذَكُّـرِيْ أَنِّـيْ تَنَصَّفْتُهَـا

وقولُ أَبي عبادَةَ أَيضاً [في « ديوانهِ » ١/ ١٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ رَدَّتِ ٱلْخَمْسُوْنَ رَدَّ صَرِيْمَةٍ إِلَىٰ ٱلشَّيْبِ ما وَلَّىٰ عَنِ ٱلشَّيْبِ يَهْرُبُ

وقولُهُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ كَانَ قَدْ عَبَثَ ٱلْمَشِيبُ بِلِمَّتِيْ   فَلَقَدْ أَخَذْتُ مِنَ ٱلشَّبَابِ نَصِيْبِيْ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَمَــنْ يَطَّلِــعْ شَــرَفَ ٱلأَرْبَعِيْـ   ـنَ يُحَيِّ مِنَ ٱلشَّيْبِ زَوْراً غَرِيْباً

وقولُ آخرَ [وهو أبو الأسود الدؤلي في « الأغاني » ١٢/ ٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

أَفْنَىٰ ٱلشَّبَابَ ٱلَّذِيْ حَاوَلْتُ جِدَّتَهُ   مَـرُّ ٱلْجَـدِيْـدَيْـنِ مِـنْ آتٍ وَمُنْطَلِـقِ
لَمْ يُبْقِيَا لِيَ مِنْ طُوْلِ ٱخْتِلاَفِهِمَا   شَيْئاً أَخَافُ عَلَيْهِ لَذْعَةَ ٱلْحِدَقِ

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٦١ مِنَ الكاملِ] :

وَلَقَدْ سَلَوْتُ عَنِ ٱلشَّبَابِ كَمَا سَلاَ   غَيْـرِيْ وَلَـٰكِـنْ لِلْحَـزِيْـنِ تَـذَكُّـرُ

وكتبَ الحجَّاجُ إِلىٰ قتيبةَ بنِ مسلمٍ [في « الأغاني » ٢٠/ ٦٤] :

أَمَّا بعدُ : فإِنِّي نظرتُ في سنِّي ، فإِذا أَنا قد بلَغْتُ الخمسينَ ، وأَنتَ نحوٌ منِّي في السنِّ ، وإِنَّ آمرأً قد سارَ خمسينَ حِجَّةً إِلىٰ منهَلٍ . . لقمينٌ أَنْ يَرِدَهُ .

من سار على الدرب . . وصل

فأَخذَهُ بعضُهم فقالَ [أبو العتاهيةِ في « ديوانهِ » ٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ آمْرَأً قَدْ سَارَ خَمْسِيْنَ حِجَّةً   إِلَـىٰ مَنْهَـلٍ مِـنْ وِرْدِهِ لَقَـرِيْـبُ
فَإِنْ كَانَتِ ٱلسِّتُّوْنَ سِنَّكَ لَمْ يَكُنْ   لِـدَائِـكَ إِلاَّ أَنْ تَمُـوْتَ طَبِيْـبُ

وقالَ آبنُ المعتزِّ [مِنَ البسيطِ] :

إِحْدَىٰ وَخَمْسُوْنَ لَوْ مَرَّتْ عَلَىٰ حَجَرٍ   لَكَانَ مِنْ حُكْمِهَا أَنْ يَفْلَقَ ٱلْحَجَرُ

أَمَّا المشيبُ : فإِنَّهُ مكروهٌ لقاؤُهُ ، محبوبٌ بقاؤُهُ ، وأَنشدَ آبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ صَاحِبٌ مَا كُنْتُ أَهْوَىٰ لِقَاءَهُ ... فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا كَانَ أَكْرَمَ صَاحِبِ
عَزِيْزٌ عَلَيْنَا أَنْ يُفَارِقَ بَعْدَ مَا ... تَمَنَّيْتُ دَهْراً أَنْ يَكُوْنَ مُجَانِبِيْ

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ذيلِ ديوانه » ٣١١] مِنَ البسيطِ :

ٱلشَّيْبُ كُرْهٌ وَكُرْهٌ أَنْ يُفَارِقَنِيْ ... فَاعْجَبْ لِشَيْءٍ عَلَىٰ ٱلْبَغْضَاءِ مَوْدُوْدِ
يَمْضِيْ ٱلشَّبَابُ وَيَأْتِيْ بَعْدَهُ خَلَفٌ ... وَٱلشَّيْبُ يَذْهَبُ مَفْقُوْدٌ بِمَفْقُوْدِ

وقيلَ لأَبي العيناءِ : كيفَ أنتَ؟ قالَ : في الداءِ الذي يتمنَّىٰ الناسُ بقاءَهُ .

وقيلَ لأعرابيٍّ ضعيفٍ مِنَ ٱلكِبَرِ : لقد أذنبَ إليكَ الدهرُ ، فقالَ : أطالَ اللهُ بقاءَ ذنبِهِ إليَّ .

وقالَ البحتريُّ [في « ديوانه » ١/٩٩ مِنَ الوافرِ] :

يَعِيْبُ ٱلْغَانِيَاتُ عَلَيَّ شَيْبِيْ ... وَمَنْ لِيْ أَنْ أُمَتَّعَ بِـٱلْمَعِيْبِ

بغض النساء الشيب

أمَّا كرهُ النساءِ للشيبِ : فلَم يخرجْ منهُنَّ إلاَّ ما سبقَ عَن أُمِّ الضحَّاكِ ؛ ولهٰذا صانَ اللهُ نبيَّهُ ﷺ عَن كثرتِهِ ، وماتَ وما في لحيتِهِ ورأسِهِ منهُ عشرونَ شعرةً[١] ، علىٰ ٱختلافٍ في الرواياتِ ، قرَّرناهُ مَعَ ما يتعلَّقُ بهِ ، وما ٱختُلِفَ فيهِ مِن أَسبابِهِ في « حاشيتِنا علىٰ الشمائلِ » .

ويحكىٰ [في « المستطرف » ٢/٦٩] : أنَّهُ مرَّ أَشمطُ[٢] بِٱمرأَةٍ بديعةِ

---

(١) أخرجه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما الترمذي في « الشمائل » (٤٠) ، وابن ماجه (٣٦٣٠) قال عنه في « الزوائد » : هذا إسناد صحيح ، رجاله ثقات . وفيه : (إنما كان شيب رسول الله ﷺ نحواً من عشرين شعرة بيضاء) .
(٢) الشَّمَطُ : بياضُ شعرِ الرأسِ وٱختلاطهُ بسوادهِ .

ٱلجمَالِ ، فقالَ : يا هـٰذهِ ، إِنْ كانَ لكِ زوجٌ . . فبارَكَ اللهُ لكِ فيهِ ، وإلاَّ . . فأَخبرينا ، قالَتْ : كأَنَّكَ تخطبُني ، قالَ : نعم ، قالَتْ : إِنَّ فِيَّ عيباً ما أَراكَ ترضاهُ ، قالَ : وما هوَ؟ قالَتْ : شَيبٌ غلبَ علىٰ سوادِ رأسي ، فثنىٰ عِنَانَ فرسِهِ ، فقالَتْ : علىٰ رسلِكَ ، وكشفَتْ لَهُ عَنِ ٱلفاحِمِ الأَثيَثِ ، وقالَتْ لَهُ : أَشيباً ترىٰ؟ قالَ : لا واللهِ ، قالَت : وأَزيدُكَ علىٰ ذلكَ أَنِّي لَم أَبلُغِ ٱلعشرينَ ، ولـٰكن أَحببتُ إِعلامَكَ علىٰ أَنِّي أَكرهُ منكَ ما تكرهُ منِّي .

فتنوَّعَ الشعراءُ في معناهُ ، قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٠٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

أَعِرْ طَرْفَكَ ٱلْمِرْآةَ وَٱنْظُرْ فَإِنْ نَبَا ... بِعَيْنِكَ عَنْهُ ٱلشَّيْبُ فَٱلْبِيْضُ أَعْذَرُ

إِذَا شَنِئَتْ عَيْنُ ٱلْفَتَىٰ عَيْبَ نَفْسِهِ ... فَعَيْـنُ سِـوَاهُ بِـٱلشَّنَـاءَةِ أَعْـذَرُ

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانهِ » ٢/ ٣٥٨ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَبْغَضْتُ نَفْسِيْ فِيْ مَشِيْبِيْ ... فَكَيْفَ تُحِبُّنِيْ ٱلْبِيْضُ ٱلْكِعَابُ ؟

وقالَ الناظِمُ [مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ شَيْبَ ٱلرِّجَالِ مِنَ ٱلْغَوَانِيْ ... بِمَـوْقِـعِ شَيْبِهِـنَّ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ

ومِنَ ٱلْمُغالطاتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي العلاءِ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ٢٩٦ مِنَ الخفيفِ] :

خَبِّرِيْنِيْ مَاذَا كَرِهْتِ مِنَ ٱلشَّيْـ ... ـبِ فَلاَ عِلْمَ لِيْ بِذَنْبِ ٱلْمَشِيْبِ

أَضِيَـاءُ ٱلنَّهَـارِ أَمْ وَضَـحُ ٱللُّـؤْ ... لُـؤِ أَمْ كَـوْنُـهُ كَثَغْـرِ ٱلْحَبِيْـبِ

وَٱذْكُرِيْ لِيْ فَضْلَ ٱلشَّبَابِ وَمَا يَجْـ ... ـمَـعُ مِـنْ مَنْظَـرٍ يَـرُوْقُ وَطِيْـبِ

غَـدْرُهُ بِـٱلْخَلِيْـلِ أَمْ حُبُّـهُ لِلْـ ... ـغَـيِّ أَمْ أَنَّـهُ كَـدَهْـرِ ٱلأَرِيْـبِ

وقالَ آخرُ [في «المستطرف» ٢/ ٦٩ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ: أَرَىٰ مِسْكَةَ ٱللَّيْلِ ٱلْبَهِيْمِ وفَتْ ... كَافُوْرَةً أَخْلَقَتْهَا رَاحَةُ ٱلزَّمَنِ

فَقُلْتُ: طِيْبٌ بِطِيْبٍ وٱلتَّبَدُّلُ فِيْ ... رَوَائِحِ ٱلطِّيْبِ أَمْرٌ غَيْرُ مُمْتَهَنِ

قَالَتْ: صَدَقْتَ وَلٰكِنْ لاَ سَوَاءَ فَإِ ... نَّ ٱلْمِسْكَ لِلْعُرْسِ وَٱلْكَافُوْرَ لِلْكَفَنِ

وبهٰذا ذكرتُ قولَ الآخرِ [في «المستطرف» ٢/ ٦٩ مِنَ البسيط] :

سَأَلْتُهَا قُبْلَةً يَوْماً وَقَدْ نَظَرَتْ ... شَيْبِيْ وَقَدْ كُنْتُ ذَا مَالٍ وَذَا نِعَمِ

فَأَعْرَضَتْ وَتَوَلَّتْ وَهْيِ قَائِلَةٌ ... لاَ وَالَّذِي أَوْجَدَ ٱلأَشْيَاءَ مِنْ عَدَمِ

مَا كَانَ لِيْ فِيْ بيَاضِ ٱلشَّيْبِ مِنْ أَرَبٍ ... أَفِيْ حَيَاتِيْ يَكُوْنُ ٱلْقُطْنُ حَشْوَ فَمِيْ

ومِنَ المغالطاتِ فيهِ، ما سبقَ عَن أَبي تمَّامٍ مِن قولِهِ [في «ديوانه» ١/ ١١٦ مِنَ البسيطِ]:

[وَلاَ يُؤَرِّقْكَ إِيْمَاضُ ٱلْقَتِيْرِ بِهِ] ... فَإِنَّ ذَاكَ ٱبْتِسَامُ ٱلرَّأْيِ وَٱلأَدَبِ

وقد قالَ أَبو الحسنِ عليُّ بنُ طاهرِ بنِ منصورٍ [مِنَ الخفيفِ] :

أَعْرَضَتْ حِيْنَ أَبْصَرَتْ شَعَرَاتٍ ... فِيْ عِذَارِيْ كَأَنَّهُنَّ ٱلثَّغَامُ[1]

قُلْتُ: هٰذَا تَبَسُّمُ ٱلدَّهْرِ، قَالَتْ: ... قَدْ سَعَىٰ فِيْ صُدُوْدِكَ ٱلإِبْتِسَامُ

ويعجبني بمناسبةِ الشيبِ قولُ ٱبنِ الفارضِ [في «ديوانه» ٤٠ مِنَ الطَّويلِ]:

وَأَبْعَدَنِيْ عَنْ أَرْبُعِيْ بُعْدُ أَرْبَعٍ ... شَبَابِيْ وَعَقْلِيْ وَٱرْتِيَاحِيْ وَصِحَّتِيْ

فَلِيْ بَعْدَ أَوْطَانِيْ سُكُوْنٌ إِلَىٰ ٱلْفَلاَ ... وَبِالْوَحْشِ أُنْسِيْ إِذْ مِنَ ٱلإِنْسِ وَحْشَتِيْ

وَزَهَّدَ فِيْ وَصْلِيْ ٱلْغَوَانِيَ إِذْ بَدَا ... تَبَلُّجُ صُبْحِ ٱلشَّيْبِ فِيْ جُنْحِ لِمَّتِيْ

فَرُحْنَ بِحُزْنٍ جَازِعَاتٍ بُعَيْدَ مَا ... فَرِحْنَ بِحَزْنِ ٱلْجِزْعِ بِيْ لِشَبِيْبَتِيْ

---

(١) الثغامُ : نبتٌ على شكلِ الحليِّ ، يكونُ في الجبلِ أَخضرَ ثم يبيضُّ إذا يبسَ .

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ بعضُ هٰذهِ ، غيرَ أَنَّ كلامَ الشيخِ لا يُملُّ ، وقولُهُ : (وَبِالْوَحْشِ أُنسِيْ) هوَ مِن قولِ تأبَّطَ شرّاً ، وقد مرَّ أَيضاً [مِنَ الطَّويلِ] :

عَوَىٰ ٱلذِّئْبُ فَٱسْتَأْنَسْتُ بِٱلذِّئْبِ إِذْ عَوَىٰ وَصَـوَّتَ إِنْسَـانٌ فَكِـدْتُ أَطِيْـرُ

وكانَ الربيعُ كثيراً ما ينشدُ [مِنَ الكاملِ] :

لَيْتَ ٱلْكِلاَبَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً وَإِنَّنَا لاَ نَرَىٰ مِمَّنْ نَرَىٰ أَحَدَا
إِنَّ ٱلْكِلاَبَ لَتَهْدَا فِيْ مَرَابِضِهَا وَٱلنَّاسُ لَيْسَ بِهَادٍ شَرُّهُمْ أَبَدَا

[وقال آخر في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٨٣ من البسيط] :

شَرُّ ٱلسِّبَاعِ ٱلضَّوَارِيْ دُوْنَهُ وَزَرٌ وَٱلنَّاسُ أَشْرَارُهُمْ مَا دُوْنَهَا وَزَرُ
كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوْا لَمْ يُؤْذِهِمْ سَبُعٌ وَمَا نَرَىٰ بَشَراً لَمْ يُؤْذِهِ بَشَرُ

قصائد للمؤلف في الموضوع

ولي فيما يتعلَّقُ بالمشيبِ ما لا ينحطُّ إِلىٰ التقصيرِ ، إِن لم يرتفعْ إِلىٰ الإِجادَةِ ، منهُ [في « ديوانِ المؤلف » ٣٥٣ـ٣٥٤ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تُنْكِرِيْ أَنْ رَيْتِ فَوْدِيَ أَشْيَبَا أَوَلَيْسَ أَوْقَرَ فِيْ ٱلنُّفُوْسِ وَأَهْيَبَا
مَا شِبْتُ مِنْ كِبَرٍ وَلَـٰكِنْ هِمَّةٌ مِنْ شَأْنِ حَامِلِ مِثْلِهَا أَنْ يَتْعَبَا
وَسَلِيْ ٱلزَّمَانَ يُفِدْكِ عَنْ صَبْرِيْ لَهُ وَسَتَعْذُرِيْنِيْ إِنْ سَأَلْتِ عَنِ ٱلنَّبَا
مَا زِلْتُ أَعْرِكُ أُذْنَهُ وَغَنِمْتُ إِذْ أَخَذَ ٱلْغُرَابَ عَلَيَّ بَازٍ أَشْهَبَا
يَجْلُوْ دُجَىٰ شَعْرِيْ صَبَاحُ تَجَارِبِيْ وَكَذَاكَ ضَوْءُ ٱلصُّبْحِ يَجْلُوْ ٱلْغَيْهَبَا
مَا فَلَّ مِنْ عَزْمِيْ ٱلْمَشِيْبُ وَلَمْ يَكُنْ لِيَـزِيْـدَنِـيْ إِلاَّ مَضَـاءً فِـيْ إِبَـا
فَـلأُجْـرِيَـنَّ ٱلْعَـزْمَ مِـلْءَ عِنَـانِـهِ حَتَّـىٰ يُبَلِّغَنِـيْ سُـرَاهُ ٱلْمَطْلَبَـا
وَلأَنْفُضَنَّ ٱلْعَجْزَ فِيْ نَصْرِ ٱلْهُدَىٰ عَنِّيْ فَإِنَّ ٱلسَّيْلَ قَدْ بَلَغَ ٱلزُّبَىٰ[1]

---

(١) هذا مثل أورده الميداني في «مجمع الأمثال» (٤٣٦) ويضرب لما جاوز الحدَّ .

ومن أُخرىٰ تقدمتُ بِها يومَ لاقيتُ الإمامَ[1] ـ حفظَهُ اللهُ تعالىٰ ـ [مِنَ الطَّوِيلِ] :

وَكَابَدْتُ فِيْ سَيْرِيْ إِلَيْكَ مَصَاعِباً ... بِهَا قَبْلَ وَقْتِ ٱلشَّيْبِ مِنِّيْ وَهَىٰ ٱلْعَظْمُ
وَإِنْ قُمْتُ فِيْ وَجْهِ ٱلوَذِيْلَةِ لاَحَ لِيْ ... بَيَاضٌ بِهِ اغْتَاصَتْ غَدَائِرِيَ ٱلسُّحْمُ[2]

ولمَّا بلغَتْ مطيَّتي ذروَةَ العقدِ الخامِسِ ، ورأَيتُ ما رأَيتُ من عوارضِ المشيبِ ، جاشَتِ ٱلجائِشَةُ ، فقلتُ في معارضَةِ الشريفِ الرضيِّ [في « ديوانِ المؤلف » ٢٠٧ـ٢١٢ مِنَ الطَّوِيلِ] :

عَذِيْرِيْ مِنَ ٱلْخَمْسِيْنَ حَلَّتْ بِعَقْوَتِيْ ... وَمِنْ مُوْجِعَاتِ ٱلدَّهْرِ تَنْقضُ قُوَّتِيْ[3]
وَبِيْضٍ بِمَرْأَىٰ ٱلعَيْنِ سُوْدٌ لَدَىٰ ٱلنُّهَىٰ ... تَحَكَّمْنَ فِيْ رَأْسِيْ وَوَجْهِيْ بِسَطْوَةِ
وَفَضْلِ أَدِيْمٍ لاَحَ لِيْ مِنْ وَذِيْلَةٍ ... ضُحىً فَٱسْتَحَالَتْ ظُلْمَةً مِنْهُ صَحْوَتِيْ
فُضُوْلٌ بِلاَ فَضْلٍ وَنُوْرٌ بِلاَ بَهاً ... وَرَكْضٌ عَلَىٰ شَهْبَاءَ تَجْرِيْ لِهُوَّةِ
عَلَىٰ أَنَّنِيْ لَمْ أُعْطِ فَضْلَ مَقَادَتِيْ ... لِضَعْفٍ وَلَمْ تَقْصُرْ عَنِ ٱلْمَجْدِ خُطْوَتِيْ
فَلاَ يَشْمَتِ ٱلأَعْدَاءُ فَٱلضَّرْعُ حَافِلٌ ... وَمَا فَاتَ مِمَّا فِيْ ٱلإِنَا غَيْرُ رِغْوَةِ
لَقَدْ طَارَ عَنْ فَوْدِيْ ٱلْغُرَابُ وَإِنَّمَا ٱلْـ ... ـعِرَابُ تَرَانِيْ وَاثِباً كُلَّ صَهْوَةِ[4]
فَمَا خَانَنِيْ صُنْعُ ٱلْمَشِيْبِ بِلِمَّتِيْ ... وَلاَ فَلَّ مِنْ عَزْمِيْ وَلاَ مِنْ فُتُوَّتِيْ

---

(١) لعله الإمام : يحيى حميد الدين إمام اليمن . . حيث كانت له صلة ومواصلة بالمؤلف .
(٢) الوَذيلَةُ : المرآةُ .
(٣) عذيري من الخمسينَ : هاتِ للخميسنَ سنةً عذراً فيما فعلَتْ بي . حلَّت بعَقوتي : نزلت بساحتي .
(٤) طارَ عن فَوديَّ الغرابُ : ذهبَ عن رأسي الشعرُ الأَسودُ . العِرابُ : الخيلُ التي ليسَ فيها عِرقٌ هجينٌ .

وَلاَ غَضَّ حَتَّىٰ مِنْ عِنَانِ صَبَابَتِيْ ... وَلاَ رَيْثَ مَنْ بِيْضِ ٱلدُّمَىٰ نَوْعَ جَفْوَةِ[1]

وَلاَ ذَلَّلَتْ هُوْجُ ٱلْخُطُوْبِ مَطَامِحِيْ ... وَلاَ قَرَّعَتْ سُوْدُ ٱلْمَصَائِبِ مَرْوَتِيْ[2]

حُسَـامٌ يَمَـانِـيٌّ يَـزِيْـدُ مَضَـاؤُهُ ... إِذَا رَقَّ جِسْماً عَادَ مَأْمُوْنَ نَبْوَةِ

قُيُوْنُ ٱمْتِحَانٍ زِنَّ مَرْأَىٰ فِرِنْدِهِ ... وَأَعْدَدْنَهُ لِلْفَتْكِ فِيْ كُلِّ هَبْوَةِ[3]

تَقَلَّبْتُ فِيْ خِصْبِ ٱلزَّمَانِ وَبُؤْسِهِ ... فَمَا عَلِقَتْ مِنِّيْ ٱللَّيَالِيْ بِهَفْوَةِ

قَرِيْبٌ لَدَىٰ ٱلسَّرَّاءِ لَيِّنُ جَانِبٍ ... وَفِيْ حَالَةِ ٱلضَّرَّاءِ تَشْتَدُّ نَخْوَتِيْ

فَلَمْ يَنْتَقِصْنِيْ ٱلْفَقْدُ حَبَّةَ خَرْدَلٍ ... وَلاَ زَادَ فِيَّ ٱلْوَجْدُ آثَارَ نَشْوَةِ

وَرَاجَعْتُ أَعْمَالِيْ فَلَمْ أَرَ نُقْطَةً ... تَمَسُّ بِتَارِيْخِيْ ٱلنَّقِيِّ لِصَبْوَةِ

وَلَٰكِنَّهَـا فَضْـلٌ وَنُبْـلٌ وَعِفَّـةٌ ... صَعِدْتُ بِهَا فِيْ ٱلْمَجْدِ أَمْنَعَ ذِرْوَةِ

وَقُـوْرٌ إِذَا خَـفَّ ٱلْحَلِيْـمُ وَرَابِـطٌ ... لَدَىٰ ٱلْهَوْلِ لاَ تَنْحَلُّ لِلْخَطْبِ حَبْوَتِيْ

وَإِنْ نَالَتِ ٱلأَيَّامُ مِنِّيْ بِحَرْبِهَا ... أَذَاةً فَفِيْ خَيْرِ ٱلنَّبِيِّيْنَ أُسْوَتِيْ

وَفِيْمَا جَرَىٰ لِلْمُرْتَضَىٰ وَلِزَوْجِهِ ... وَأَوْلاَدِهِ فِيْ سَاعَةِ ٱلْكَرْبِ سَلْوَتِيْ

فَـلاَ تَضْحَـكُ ٱلأَيَّـامُ إِلاَّ لِسَفْلَـةٍ ... وَلاَ تَلْتَقِـيْ ٱلأَبْطَـالَ إِلاَّ بِعُنْـوَةِ

فَكَمْ كَابَدُوْا فِيْ ٱلْحَقِّ مِنْ مِحْنَةٍ وَكَمْ ... لَقُوْا مِنْ بَلاَيَا كُلَّ مُمْسٍ وَغُدْوَةِ

وَلَوْلاَهُمُ لِلدِّيْنِ مَا قَامَ قَائِمٌ ... وَلاَ أَصْبَحَ ٱلإِسْلاَمُ رَوْضاً بِرَبْوَةِ

وَلَٰكِـنْ جِهَـادٌ فِيْـهِ تَسْتَبِـقُ ٱلطُّـلاَ ... وَأَجْسَادُهَا بَعْدَ ٱحْتِجَاجٍ وَدَعْوَةِ[4]

---

(١) الدُّمىٰ : يريدُ بها النساءَ .

(٢) هوجُ الخطوبُ : الأحداثُ الشديدةُ . مَروتي : صخرتي ، وأَصلُ المروِ الصخرُ الأملسُ .

(٣) قُيُونٌ ـ جمعُ قينٍ ـ : وهو الحدَّادُ . فِرِندُهُ : وشيُهُ . الهبوَةُ : الغبارُ ، يريدُ الحربَ .

(٤) الطُّلا : الأَعناقُ .

حُرُوْبٌ إِذَا عَضَّتْ رَحَاهَا ثِفَالُهَا ... فَمَا ثَمَّ إِلاَّ ٱلْهَامُ فِيْ كُلِّ لَهْوَةِ[1]

أَذَالُوْا لَهَا تَحْتَ ٱلْقَسَاطِلِ أَوْجُهاً ... تَشُقُّ ٱلدُّجَا ، فِيْهَا ضِيَاءُ ٱلنُّبُوَّةِ[2]

أُولَئِكَ آبَائِيْ وَعِزِّيْ وَسُؤْدُدِيْ ... وَفَخْرِيْ وَذُخْرِيْ وَٱعْتِصَامِيْ وَقُدْوَتِيْ

جَرَىٰ فِيْ عُرُوْقِيْ حُبُّهُمْ وَبِجَاهِهِمْ ... لِيَ ٱلأَمْنُ فِي ٱلدَّارَيْنِ مِنْ كُلِّ شَقْوَةِ

إِذَا زَارَنَا مِنْهُمْ خَيَالٌ تَضَوَّعَتْ ... رُبَانَا بِأَزْكَىٰ مِنْ أَرِيْجِ ٱلأَلُوَّةِ[3]

سَأَمْضِيْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ جُهْدَ طَاقَتِيْ ... وَإِنْ صَدَّنِيْ شَعْبِيْ وَقَوْمِيْ وَإِخْوَتِيْ

فَفِيْنَا خُلُوْفٌ مِنْ بَنِيْهِمْ تَنَكَّبُوْا ... طَرِيْقَتَهُمْ ظُلْماً لِحَقِّ ٱلأُبُوَّةِ

مَذَامِيْمُ لاَ بَغْياً أَهَانُوْا ، وَلاَ هُدىً ... أَعَانُوْا ، وَلَكِنْ فِيْ رِضَا كُلِّ شَهْوَةِ

وَيَا لَيْتَهُمْ كَانُوْا كَفَافاً وَلاَ ٱعْتَدَوْا ... وَلاَ فَتَحُوْا لِلشَّرِّ أَشْأَمَ كُوَّةِ

مَنَاسِبُ عَنْ مَرْقَاتِهَا ٱلطَّعْنُ يَرْتَمِيْ ... وَلَكِنَّمَا ٱلأَعْمَالُ ضِدُّ ٱلْبُنُوَّةِ[4]

يَعُدُّوْنَ إِعْلاَنِيْ ٱلصَّوَابَ جَرِيْمَةً ... وَيَفْرُوْنَنِيْ إِنْ كُنْتُ عَنْهُمْ بِنَجْوَةِ

تَغَرَّبْتُ عُقْرَ ٱلدَّارِ فِيْهِمْ فَجُلُّهُمْ ... يَقُوْلُوْنَ : تَعْساً لاَ لَعاً عِنْدَ كَبْوَتِيْ[5]

وَكَمْ فَتَلُوْا لِيْ فِيْ ٱلْغَوَارِبِ وَٱلذُّرَىٰ ... وَكَمْ رَوَّجُوْا مَيْناً لِكَيْدِيْ بِرِشْوَةِ

فَلَمْ يَجِدُوْا بِٱلْعَجْمِ فِيْ ٱلْعُوْدِ مَغْمَزاً ... وَلاَ هِمَّتِيْ كَانَتْ عَلَيْهِمْ بِرَخْوَةِ[6]

---

(١) **ثِفالُها** ـ جمعُ ثِفالٍ ككتابٍ ـ : وهوَ جلدٌ يوضعُ تحت الرحىٰ يقمُّ عليهِ الدقيقُ ، وهو مثلٌ لشدَّةِ الحربِ ، وفي حديث عليٍّ رضي الله عنه : « وتدقُّهم الفتنُ دقَّ الرحى بثفالِها » ، أي : تدقُّهم دقَّ الرحىٰ للحبِّ إذا كانت مثقَّلةً ، ولا تثفلُ إلا عندَ الطحنِ . **اللهوةُ** : ما يُلقى في فمِ الرحى من الحبوبِ للطحنِ .

(٢) **أذالوا** : أَماتوا واسترخصوا في سبيلها . **القساطلُ** : غبارُ الحربِ .

(٣) **تضوَّعت** : فاحت . **أَريجُ** : رائحة . **الأَلُوَّةُ** : العودُ الذي يتبخَّرُ بهِ .

(٤) **المَناسبُ** : أنسابهم شريفةٌ عاليةٌ ، ولكنَّ أعمالَهم سيِّئةٌ ضدَّ ما ينتسبونَ إليهِ .

(٥) **لا لعاً**: لا أنتعاشَ لك من كبوتِكَ، يقولُ العربُ في الدعاءِ عليهِ: تعساً لا لَعاً لهُ.

(٦) **العَجمُ في العودِ** : يقالُ : عجمَ العودَ ، إذا لاكهُ للاختبارِ .

وَكَمْ قَدْ تَحَدَّيْتُ ٱلْمُرَابِيْنَ فَٱنْثَنَوْا ... وَهَابُوْا كِفَاحِيْ فِيْ ٱلْجِدَالِ بِجَلْوَةِ

وَكَمْ بِدْعَةٍ أَحْيَوْا وَكَمْ سُنَّةٍ مَحَوْا ... فَقَدْ لَبِسُوْا ٱلإِسْلاَمَ مَقْلُوْبَ فَرْوَةِ

وَمَا لِيْ سِوَىٰ حُسْنِ ٱنْتِظَارِيْ عِنَايَةً ... مِنَ ٱللهِ لِيْ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ وَقُوَّةِ

وَوَعْدٍ مِنَ ٱلْمَوْلَىٰ ٱلإِمَامِ بِنَجْدَةٍ ... غَدًا نَجْزُهَا مِنِّيْ عَلَىٰ قَابِ غَلْوَةِ[1]

وَبِٱلْخَمْسَةِ ٱلأَزْوَاجِ أَسْتَجْلِبُ ٱلْمُنَىٰ ... وَأَسْتَدْفِعُ ٱلْبَلْوَىٰ فَهُمْ خَيْرُ عُزْوَةِ

ولمَّا تقاطرتِ الفصولُ ، وٱتسقتِ ٱلمواضيعُ ، وأَخذَ الكلامُ برقابِ بعضِهِ . لم يُمكِنَّا قطعهُ ، معَ رقَّةِ الانسجامِ ، وخفَّةِ النسيمِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وقلَّةِ الفضولِ ، وعدمِ الحشوِ ، وكنتُ أكرهُ أَن أُثقلَ بمثلِها مِن شعري ، ثمَّ رأَيتُ أَنَّ المنصفَ لَن يزيدَ بِها إِلاَّ ٱرتياحاً ، وأَمَّا البَغيضُ . . فكلُّ ما أَقولُ ثقيلٌ عليهِ ، ولو من بعيدٍ ، فأَجرَرْتُها رسنَ القلمِ ، لتزيدَ المقيتَ غيظاً ، وتفيضَ الإحسانَ فيضاً ، وممَّا لي أَيضاً في الموضوعِ قولي [في « ديوانِ المؤلفِ » ٢٩٤ مِنَ البسيطِ] :

رُدُّوْا عَلَىٰ لِمَّتِيْ ٱلْحِبْرَ ٱلَّذِيْ نَصَلاَ ... حَتَّىٰ أُطَالِعَ مَا فِيْ عَهْدِهِ حَصَلاَ[2]

فَإِنَّهَا ذِكْرَيَاتٌ كُلَّمَا ٱبْتَسَمَتْ ... لِلْقَلْبِ آنَسَ مِنْهَا نَشْوَةً فَسَلاَ

مَرْسُوْمَةٌ فِيْ ضَمِيْرِيْ وَهْيَ جَالِيَةٌ ... مِنَ ٱلْمَحَاسِنِ يَكْسُوْهَا ٱلْهَوَىٰ حُلَلاَ

مَرَّ ٱلزَّمَانُ بِهَا عَجْلَىٰ وَعَوَّضَنِيْ ... عَنْهَا حُلُوْماً فَلَمْ أَقْنَعْ بِهَا بَدَلاَ

كَأَنَّ قَادِمَتَيْ نَسْرٍ تَعَلَّقَتَا ... فِيْهَا فَوَلَّتْ سِرَاعاً بَيْنَ لاَ وَبَلَىٰ[3]

---

(١) الغَلوةُ : قدرُ رميةِ السهمِ .

(٢) اللِّمَّةُ : الشَّعرُ المجاورُ شحمةَ الأذنِ . الحبرُ : المقصودُ به هنا سوادُ الشَّعرِ الذي ذهبَ وحلَّ مكانهُ الشيبُ .

(٣) قادِمَتَيْ نسرٍ : ريشاتٌ في مقدَّمِ جناحيهِ .

أَلْفَيْتُ كُلَّ مُصَابٍ جَلَّ مَوْقِعُهُ ... فِيْ جَنْبِ مَا فَاتَنِيْ مِنْ صَفْوِهَا جَلَلاَ
فِيْهَا أَرَىٰ اَلْبَالَ رِخْواً، وَاَلزَّمَانَ رِضاً ... وَاَلْعَيْشَ غَضّاً ، وَأَسْبَابَ اَلْمُنَىٰ ذُلُلاَ
وَاَلْجَوَّ طَلْقاً، وَشَمْلَ الأُنْسِ مُجْتَمِعاً ... وَاَلْحَظَّ يَبْسُطُ فِيْ إِقْبَالِهِ الأَمَلاَ

وهيَ مِن نوعِ السابقَةِ ، علىٰ أنَّهَا أشدُّ متناً ، وأكثرُ حسناً ، وأجملُ شارَةً ، وأحلىٰ إشارَةً .

من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي

والكلامُ يطولُ في فوائِدِ الشيبِ ، ومنِها : ردعُهُ عَنِ اَلْغَيِّ .

قالَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ : ما وعظَني شِعْرٌ ما وعظَني قولُ عمرانَ بنِ حِطَّانَ [في « ديوانِ دريدِ بنِ الصمةِ » ٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّىٰ عَلاَ اَلشَّيْبُ رَأْسَهُ ... فَلَمَّا عَلاَهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : اَبْعَدِ

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانه » ١٠٢ـ١٠٣ مِنَ الكاملِ] :

أَهْلاً وَسَهْلاً بِاَلْمَشِيْبِ فَإِنَّهُ ... سِمَةُ اَلْعَفِيْفِ وَحِلْيَةُ اَلْمُتَحَرِّجِ
ضَيْفٌ أَلَمَّ بِمَفْرِقِيْ فَقَرَيْتُهُ ... رَفْضَ اَلْغَوَايَةِ وَاَقْتِصَادَ اَلْمَنْهَجِ

وقالَ الببغا [مِنَ البسيطِ] :

لاَ عُذْرَ بَعْدَ عِذَارٍ شَابَ أَكْثَرُهُ ... فَاَلشَّيْبُ أَوْعَظُ إِعْذَارٍ وَإِنْذَارِ

وقالَ اَبنُ أَبي طاهرٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَكِبْتُ اَلصِّبَا حَتَّىٰ إِذَا مَا وَنَىٰ اَلصِّبَا ... نَزَلْتُ مِنَ اَلتَّقْوَىٰ بِأَكْرَمِ مَنْزِلِ
وَدِيْنُ اَلْفَتَىٰ بَيْنَ اَلتَّنَسُّكِ وَاَلنُّهَىٰ ... وَدُنْيَا اَلْفَتَىٰ بَيْنَ اَلصِّبَا وَاَلتَّغَزُّلِ

وما أَحسنَ قولَ الإمامِ اَبنِ دقيقِ العيدِ [في « شذرات الذهب » ٦/٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّيْتُ أَنَّ اَلشَّيْبَ عَاجَلَ لِمَّتِيْ ... وَقَرَّبَ مِنِّيْ فِيْ صِبَايَ مَزَارَهُ
لآخُذَ مِنْ عَصْرِ اَلشَّبَابِ نَشَاطَهُ ... وَآخُذَ مِنْ عَصْرِ اَلْمَشِيْبِ وَقَارَهُ

ونظرَ إياسُ بنُ معاويَةَ إلىٰ شعرةٍ بيضاءَ لاحَتْ في لحيتِهِ . . فقالَ : واللهِ لا أراني سميراً بعدَها لحاجاتِ بني تميمٍ ، فلزمَ بيتَهُ ، ولَم يدخُلْ بعدَ ذلكَ علىٰ السلطانِ .

وكانَ الواحدُ مِنَ السلفِ الطيِّبِ إذا بلغَ الأربعينَ . . حمَلَ عَصا السفرِ ، وطوىٰ فراشَ النومِ ، وأقبلَ علىٰ عملِ الآخرَةِ ، ومَن لَم يردعْهُ الشيبُ عَنِ الغوايَةِ ، ولَم يأخذْ بعَنَانِهِ إلىٰ طُرُقِ الهدايَةِ . . فقد تُوُدِّعَ مِنهُ ، ومِنْ هـٰؤلاءِ أبو نواسٍ ؛ بشهادَةِ قولِهِ [في « ديوانه » ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

يَقُوْلُوْنَ فِيْ ٱلشَّيْبِ ٱلْوَقَارُ بِأَهْلِهِ وَشَيْبِيْ بِحَمْدِ ٱللهِ غَيْرُ وَقَارِ[1]

وفي « صحيحِ مسلمٍ » : « أَنَّ أَبْغَضَ الخلقِ إلَىٰ ٱللهِ . . شَيْخٌ زَانٍ »[2] .

---

(١) قالوا : إنَّ الرشيدَ لمَّا سمعَ هـٰذهِ القصيدةَ . . أنكرَ هـٰذا البيتَ ، وقالَ للفضلِ : قل لهـٰذا الماجنِ : أتقولُ : إنَّ الشيبَ غيرُ وقارٍ وهـٰذا رسول الله ﷺ يقولُ : « لا يشيبُ المؤمنُ في الإسلامِ إلا كان ذلكَ حجاباً لهُ من النارِ ؟! » فلمَّا أُحضِرَ وسئِلَ . . قالَ : لا أُنكرُ الوقارَ في الشيبِ ، ولا ما جاءَ الخبرُ بهِ ، ولـٰكنِّي قلتُ : وشيبيْ أنا غيرُ وقارٍ ؛ لِما أجاوزُ به من تعجيلِ الذنوبِ وتأخيرِ التوبةِ ، والبيتُ الذي بعدهُ يشهدُ لي ، فلمَّا أُخبرَ الرشيدُ بقولهِ . . ضحكَ ، وقالَ : هوَ أعلمُ بسريرتهِ وقبحِ عملهِ .

والبيتُ الذي بعده :

إِذَا كُنْتُ لاَ أَنْفَكُّ عَنْ طَاعَةِ ٱلْهَوَىٰ .. فَإِنَّ ٱلْهَوَىٰ يَرْمِيْ ٱلْفَتَىٰ بِبَوَارِ

(٢) طرف حديث أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (١٠٧) في الإيمان وهو قوله : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر » .

وقالَ بعضُ المتهوِّرينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَعَمْرِيْ لَئِنْ حَلَّ ٱلْمَشِيْبُ بِلِمَّتِيْ ... لَقَدْ كَانَ مَا أَحْلَلْتُ بِالشَّيْبِ أَعْظَمَا

سَلِ ٱلشَّيْبَ عَنِّيْ هَلْ عَرَفْتُ وَقَارَهُ ... وَهَلْ عِفْتُ حَوْباً أَوْ تَجَنَّبْتُ مَأْثَمَا ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ يَكْتَهِلْ مِنِّيْ ٱلْقَذَالُ فَإِنَّنِيْ ... فِـيْ ٱلْغَـانِيَـاتِ وَحُبِّهِـنَّ غُـلَامُ

ومِنهم من يرتدعُ نوعاً ، ومِنْ هٰؤلاءِ بشَّارٌ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٨٩ـ١٩٠ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْمَشِيْبَ وَمَا تَرَىٰ بِمَفَارِقِيْ ... صَرَفَ ٱلْغَوَايَةَ فَٱنْصَرَفْتُ كَرِيْمَا

وَصَحَوْتُ إِلاَّ مِنْ لِقَاءِ مُحَدِّثٍ ... حَسَنِ ٱلْحَدِيْثِ يَزِيْدُنِيْ تَعْلِيْمَا

والبُحتريُّ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٧١ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ وَإِنْ جَانَبْتُ بَعْضَ بِطَالَتِيْ ... وَتَوَهَّمَ ٱلْوَاشُوْنَ أَنِّيَ مُقْصِرُ

لَيَشُوْقُنِيْ سِحْرُ ٱلْعُيُوْنِ ٱلْمُجْتَلَىٰ ... وَيَرُوْقُنِيْ وَرْدُ ٱلْخُدُوْدِ ٱلأَحْمَرُ

ولَولا ما عُرِفَ مِن حالِ بشَّارٍ ، وتهتُّكِهِ . . لَمَا كانت بيتاهُ إلاَّ دليلاً كافياً علىٰ صحَّةِ توبتِهِ ، وصدقِ أَوبتِهِ ، ولٰكنَّا توسَّطْنا في الحكمِ عليهِ ؛ إِذ جعلناهُ مِنَ ٱلْمُذَبذَبينَ .

ومعَ ما أَكثرَ الناسُ مِنَ ٱلْبكاءِ علىٰ الشبابِ ، والتأَسُّفِ علىٰ أَيَّامِهِ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهُم [في « قرى الضيف » ٤/ ٨٤ مِنَ الكاملِ] :

شَيْآنِ لَوْ بَكَتِ ٱلدِّمَاءَ عَلَيْهِمَا ... عَيْنَـاكَ حَتَّـىٰ يُـؤْذِنَـا بِـذَهَـابِ

لَمْ يَبْلُغَا ٱلْمِعْشَارَ مِنْ حَقَّيْهِمَا ... فَقْدُ ٱلشَّبَابِ وَفُرْقَةُ ٱلأَحْبَابِ

من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً

. . فإِنَّ مِن لُطفِ اللهِ بعبادِهِ أَنَّهم لا يُحِسُّونَ لَه أَلماً ؛ لأَنَّهُ لا يجيءُ إِلاَّ تدريجاً ؛ ولهٰذا قالوا [ومنهم الشعبيُّ في « المستطرف »

٢/ ٦٩] : إنَّ الشيبَ علَّةٌ لا يعادُ مِنها ، ومصيبةٌ لا يعزَّىٰ عَليها .

قالَ محمودٌ الورَّاقُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٨٤ مِنَ المتقاربِ] :

أَلَيْـسَ عَجِيبـاً بِـأَنَّ ٱلْفَتـىٰ ... يُصَابُ بِبَعْضِ ٱلَّذِيْ فِيْ يَدَيْهْ

فَمِـنْ بَيْـنِ بَـاكٍ لَـهُ مُـوْجَـعٍ ... وَبَيْـنِ مُعَنّـىً مُعَـزٍّ إِلَيْـهْ

وَيَسْلُبُـهُ ٱلـدَّهْـرُ سَلْـخَ ٱلشَّبَـا ... بِ وَلَيْـسَ يُعَـزِّيْـهِ خَلْـقٌ عَلَيْـهْ

وقالَ محمَّدُ بنُ الحسنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلشَّيْبَ مُذْ جَاوَزْتُ خَمْسِيْنَ حِجَّةً ... يَدِبُّ دَبِيْبَ ٱلصُّبْحِ فِيْ غَسَقِ ٱلظُّلَمْ

هُـوَ ٱلسُّقْـمُ إِلاَّ أَنَّـهُ غَيْـرُ مُؤْلِـمٍ ... وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلشَّيْبِ سُقْماً بِلاَ أَلَمْ

البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه

أَمَّا بكاءُ الناظِمِ لشيبِهِ في أَيَّامِ شبابِهِ.. فعلىٰ حدِّ **قولِهِ** [في «العُكبَرِيِّ» ٣/ ٢٢٤ مِنَ الوافرِ]:

أَشَـدُّ ٱلغَـمِّ عِنْـدِيْ فِـيْ سُـرُوْرٍ ... تَيَقَّـنَ عَنْـهُ صَـاحِبُـهُ ٱنْتِقَـالاَ

وقد تكرَّرَ في « ديوانِهِ » ، فمنْهُ **قولُهُ** [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٦٢ مِنَ الكاملِ] :

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ بَيْنَهُمْ مِنْ قَبْلِهِ ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُ حَائِناً أَنْ يَحْذَرَا

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٨٩ مِنَ الوافرِ] :

أَرَىٰ أَسَفِـيْ وَمَـا سِـرْنَـا بَعِيْـداً ... فَكَيْفَ إِذَا غَدَا ٱلسَّيْرُ ٱبْتِرَاكَا ؟

وقولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ كَانَ فِيْ ٱلسَّرَّاءِ فِيْ حَالِ مُعْجَبٍ ... فَمَحْصُـوْلُـهُ مِنْهَـا عَلَـىٰ حَـالِ نَـادِمِ

وبعضُهُ مِن قولِ سُحيمٍ [في « ديوانِهِ » ٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَوْقاً وَلَمَّا يَمْضِ لِيْ غَيْرُ لَيْلَةٍ؟ ... فَكَيْفَ إِذَا جَدَّ ٱلْمَطِيُّ بِنَا عَشْرَا؟!

وقالَ أَشجعُ [في «ديوانهِ» ٢٢٦ مِنَ المتقاربِ] :

فَهَـا أَنْـتَ تَبْكِـيْ وَهُـمْ جِيْـرَةٌ فَكَيْـفَ تَكُـوْنُ إِذَا وَدَّعُـوْا ؟!

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كُنْتُ أَبْكِيْ خِيْفَةً لِفِرَاقِهِ فَكَيْفَ إِذَا بَانَ ٱلْحَبِيْبُ وَوَدَّعَا

وقالَ قيسٌ [ابن ذريح في «الأغاني» ٩/ ٢٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ كُنْتُ أَبْكِي وَٱلنَّوَىٰ لاَ أَظُنُّهُ بِنَا وَبِكُمْ لَمْ نَدْرِ مَا هُوَ صَانِعُ[1]

وقالَ أَبو المطاعِ ذو القرنينِ ٱبنُ حمدانَ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ كَانَ شَكِّيْ فِيْ ٱلْفِرَاقِ يَرُوْعُنِيْ فَكَيْفَ يَكُوْنُ ٱلْيَوْمَ وَهْوَ يَقِيْنُ ؟

وقالَ قيسٌ أَيضاً [المجنونُ في «ديوانهِ» ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لأَبْكِيْ ٱلْيَوْمَ مِنْ حَذَرِيْ غَداً فِـرَاقَـكِ وَٱلْحَيَّـانِ مُجْتَمِعَـانِ

وقالَ الأَحوصُ [في «ديوانهِ» ١٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلنَّـوَىٰ مُطْمَئِنَّـةٌ بِنَا وَبِكُمْ؛ مِنْ خَوْفِ مَا ٱلْبَيْنُ صَانِعُ[2]

وقالَ كُثَيِّرُ بنُ عبدِ الرحمـٰنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ عَلَىٰ شَحْطِ ٱلنَّوَىٰ كَثْرُ ٱلْبُكَا لَقَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَٱلْمَـزَارُ قَـرِيْـبُ

وأَنشدَ ثعلبُ للعبَّاسِ بنِ الأَحنفِ [في «ديوانه» ٣٣ مِنَ المنسرحِ] :

قَـدْ كُنْـتُ أَبْكِـيْ وَأَنْـتِ رَاضِيَـةٌ حِذَارَ هَـٰذَا ٱلصُّدُوْدِ وَٱلْغَضَبِ

---

(١) النَّوىٰ : البُعدُ .

(٢) النَّوىٰ : الدارُ .

وقالَ الحماسيُّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٢٤ مِنَ الوافرِ] :

فَيَبْكِـيْ إِنْ نَـأَوْا شَـوْقـاً إِلَيْهِـمْ ... وَيَبْكِي إِنْ دَنَوْا خَوْفَ ٱلْفِرَاقِ

ولا يَبعدُ عمَّا نحنُ فيهِ قولُ عروةَ بنِ أُذينةَ [في « ديوانِهِ » ١٣ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ خُزَامَىٰ طَلَّةٍ صَاغَهَا ٱلنَّدَىٰ ... وَفَأْرَةَ مِسْكٍ ضَمَّنَتْهَا ثِيَابُهَا[١]

إِذَا ٱقْتَرَبَتْ سَعْدَىٰ لَهِجْتَ بِحُبِّهَا ... وَإِنْ تَغْتَرِبْ يَوْماً يَرُعْكَ ٱغْتِرَابُهَا

وَكِدْتَ لِذِكْرَاهَا تَطِيْرُ صَبَابَةً ... وَغَالَبْتَ نَفْساً زَادَ شَوْقاً غِلَابُهَا

فَفِيْ أَيِّ هَـٰذَا رَاحَةٌ لَكَ عِنْدَهَا؟! ... سَـوَاءٌ لَعَمْـرِيْ نَـأْيُهَـا وَٱقْتِـرَابُهَـا

وقد مرَّ بعضُ ما يشبِهُ هـٰذا في المجلسِ الثاني ، قبيلَ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٩٧ مِنَ المنسرحِ] :

بَـانُـوْا بِخُـرْعُـوْبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ ... يَكَـادُ عِنْـدَ ٱلْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا[٢]

وفي المجلسِ الثاني عشرَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٢ مِنَ الكاملِ] :

مَـا لَاحَ بَـرْقٌ أَوْ تَـرَنَّـمَ طَـائِـرٌ ... إِلاَّ ٱنْثَنَيْـتُ وَلِـيْ فُـؤَادٌ شَيِّـقُ

لله در الأمل ما أعظمه

هـٰذا ، والشوطُ بطينٌ ، والدنيا تعبٌ ، والافتراقُ نكدٌ ، والعيشُ ضيِّقٌ ، والراحةُ مُحالٌ ، ولـٰكنْ ما أَحسنَ قولَ الطغرائيِّ [في « ديوانِهِ » ٣٠٦ مِنَ البسيطِ] :

أُعَلِّـلُ ٱلنَّفْـسَ بِـالآمَـالِ أَرْقُبُهَـا ... مَا أَضْيَقَ ٱلْعَيْشَ لَوْلاَ فُسْحَةُ ٱلأَمَلِ

---

(١) الخُزامىٰ : نباتٌ طيِّبُ الرائحةِ ، من فصيلةِ الزنبقيَّاتِ . طلَّةٌ : المطرُ الخفيفُ الضعيفُ . فأْرةُ المسكِ : وعاء المسكِ .

(٢) الخرعوبةُ : المرأةُ الشابةُ اللينةُ الطويلةُ الطريَّةُ ، وقالَ الجوهريُّ : الدقيقةُ العظامِ الناعمةُ . الكَفَلُ : الردفُ .

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ يستحسنُ قولَ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ [في « ديوانهِ » ٧٥ مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْمَرْءُ سَاعٍ لأَمْرٍ لَيسَ يُدْرِكُهُ ... وَٱلْعَيْشُ شُحٌّ وَإِشْفَاقٌ وَتأْمِيلُ[1]

وقد مرَّ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ بعضُ ما يتعلَّقُ بالأَمانيِّ ، ونزيدُ هُنا أَنَّ العمادَ الكاتِبَ أَغارَ علىٰ بيتِ الطغرائِيِّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا هَـٰذِهِ ٱلأَيَّامُ إِلاَّ صَحَائِفٌ ... نُؤَرَّخُ فِيهَا ثُمَّ نُمْحَىٰ وَنُمْحَقُ

وَلَمْ أَرَ عَيْشاً مِثْلَ دَائِرَةِ ٱلْمُنَىٰ ... تُوَسِّعُهَا ٱلآمَالُ وَٱلْعَيْشُ ضَيِّقُ

وقالَ آخرُ [أبو الفتح البُستي كما في « النجوم الزاهرة » ٤/ ٢٢٩ مِنَ الوافرِ] :

أُعَلِّلُ بِٱلْمُنَىٰ قَلْبِي لأَنِّي ... أُفَرِّجُ بِٱلأَمَانِي ٱلْهَمَّ عَنِّي

وَأَعْلَمُ أَنَّ وَصْلَكِ لاَ يُرَجَّىٰ ... وَلَـٰكِنْ لاَ أَقَلَّ مِنَ ٱلتَّمَنِّي

وقالَ أَبو الحسينِ الجزَّارُ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيْتَ شِعْرِيْ مَا ٱلْعُذْرُ لَوْلاَ قَضَاءُ ٱلـ ... ـلّٰهِ فِي رِزْقِهِ وَفِيْ حِرْمَانِيْ

وَلَقَدْ كِدْتُ أَنْ أَهِيْمَ بِحَمْلِ ٱلسَّـ ... ـهْمِ لَوْلاَ تَعَلُّلِيْ بِٱلأَمَانِي

وقالَ أَبو عبادَةَ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْلاَ ٱلرَّجَاءُ لَمِتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلنَّوَىٰ ... لَـٰكِنَّ قَلْبِيَ بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

تأمل الدنيا ولا تركنن اليها

ومَنِ ٱعتقدَ حالَ الدنيا ، وأَنَّها تغرُّ ثُمَّ تمرُّ . . يفرحُ بحُلوِها ، ولم يجزَعْ لمُرِّها ، قالَ أَبو عمرٍو ابنِ العلاءِ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣١٨] : كنتُ أَدورُ في ضيعَةٍ لي ، معَ شدَّةِ الحرِّ ، فسمعْتُ هاتفاً يقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْرَأً دُنْيَاهُ أَكْبَرُ هَمِّهِ ... لَمُسْتَمْسِكٌ مِنْهَا بِحَبْلِ غُرُورِ

[فالتفتُّ فلَم أَرَ أَحداً فجعلتُهُ نقشَ خاتَمي] .

---

(١) «البيان والتبيين» (١/ ١٣٣) .

وقالَ الأَصمعيُّ : وجدْتُ لسعيدِ بن وهيبٍ بيتينِ كأنَّما أخذَهما من قولِهِ تعالىٰ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام : ٤٤] ، وهُما قولُهُ [بل الأبيات لأبي العتاهية في « ديوانهِ » ٥٣٦ مِنَ البسيطِ] :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِٱلأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ وَلَمْ تَخَفْ غِبَّ مَا يَأْتِي بِهِ ٱلْقَدَرُ
وَسَالَمَتْكَ ٱللَّيَالِي فَٱغْتَرَرْتَ بِهَا وَعِنْدَ صَفْوِ ٱللَّيَالِي يَحْصُلُ ٱلْكَدَرُ

وما أَحسنَ قولَ البُحتريِّ [بل القائل أبو علي المسبِّحي كما في « قرى الضيف » ٤/١٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

هَلِ ٱلدَّهْرُ إِلاَّ سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِي بِمَا كَانَ فِيهَا مِنْ بَلاَءٍ وَمِنْ خَفْضِ ؟!
فَهَوِّنْكَ لاَ تَحْفَلْ إِسَاءَةَ عَارِضٍ وَلاَ فَرْحَةً تَأْتِي فَكِلْتَاهُمَا تَمْضِي

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا ٱكْتَأَبَتْ نَفْسٌ فَدَامَ ٱكْتِئَابُهَا وَلاَ ٱبْتَهَجَتْ نَفْسٌ فَدَامَ ٱبْتِهَاجُهَا

وقالَ آخرُ [البُحتريُّ في « ديوانهِ » ١/ ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ عَرَفَ ٱلأَيَّامَ لَمْ يَرَ خَفْضَهَا نَعِيماً ، وَلَمْ يَعْدُدْ تَصَرُّفَهَا بَلْوَىٰ

وقال الرضيُّ أَوِ المرتضىٰ [المرتضىٰ في « ديوانهِ » ٣/ ٤٩٤ مِنَ البسيطِ] :

وَكَيْفَ آنَسُ بِٱلدُّنْيَا وَلَسْتُ أَرَىٰ إِلاَّ ٱمْرَأً قَدْ تَعَرَّىٰ مِنْ عَوَارِيهَا ؟
نَصَبُوا إِلَيْهَا بِآمَالٍ مُخَيَّبَةٍ كَأَنَّنَا مَا نَرَىٰ عُقْبَىٰ أَمَانِيهَا
فِي وَحْشَةِ ٱلدَّارِ مِمَّنْ كَانَ يَسْكُنُهَا كُلُّ ٱعْتِبَارٍ لِمَنْ قَدْ ظَلَّ يَأْوِيهَا
لاَ تَكْذِبَنَّ فَمَا قَلْبِي لَهَا وَطَنٌ وَقَدْ رَأَيْتُ طُلُوْلاً مِنْ مَغَانِيهَا

وقالَ أَبو عبادةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٣١ـ٢٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ تَسْتَزِدْ فَضْلاً مِنَ ٱلْعُمْرِ تَغْتَرِفْ بِسَجْلَيْكَ مِنْ شَهْدِ ٱلْخُطُوْبِ وَصَابِهَا[1]

---

(١) السجلُ : الدلوُ العظيمةُ . الشَّهدُ : العَسَلُ . الصابُ : العلقمُ .

تُشَذِّبُنَا ٱلدُّنْيَا بِأَخْفَضِ سَعْيِهَا وَغَوْلُ ٱلأَفَاعِي لِمَّةٌ مِنْ لُعَابِهَا[1]

يُسَرُّ بِعُمْرَانِ ٱلدِّيَارِ مُضَلَّلٌ وَعُمْرَانُهَا مُسْتَأْنَفٌ مِنْ خَرَابِهَا

وَلَمْ أَرْتَضِ ٱلدُّنْيَا أَوَانَ مَجِيئِهَا فَكَيْفَ ٱرْتِضَائِيهَا أَوَانَ ذَهَابِهَا ؟!

أَقُولُ لِمَكْذُوبٍ مِنَ ٱلدَّهْرِ زَاغَ عَنْ تَخَيُّرِ آرَاءِ ٱلْحِجَا وَٱنْتِخَابِهَا

سَيُرْدِيكَ أَوْ يُثْوِيكَ أَنَّكَ مُحْلِسٌ إِلَىٰ شُقَّةٍ يُبْكِيكَ بُعْدُ مَآبِهَا[2]

وَهَلْ أَنْتَ فِي مَرْمُوسَةٍ طَالَ أَخْذُهَا مِنَ ٱلنَّاسِ إِلاَّ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا[3]

ومِنها والضميرُ فيهِ عائدٌ إِلىٰ الحبيبَةِ [البحتريُّ في « ديوانهِ » ١/ ٢٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

يُفَاوِتُ مِنْ تَأْلِيفِ شَعْبِيْ وَشَعْبِهَا تَنَاهِيْ شَبَابِيْ وَٱبْتِدَاءُ شَبَابِهَا[4]

ثُمَّ إِنَّ قولَهُ : (إِلاَّ حَفْنَةٌ مِنْ تُرَابِهَا) شبيهٌ بقولي مِن قطعةٍ مرَّ بعضُها [في « ديوان المؤلف » ق : ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلنَّاسُ إِلاَّ ٱلطِّينُ وَٱلْعَكْسُ صَالِحٌ فَلِلّٰهِ ذَاتٌ عَدَّدَتْهَا نُعُوتُهَا

ويشهدُ اللهُ والرقيبُ الأدنىٰ عليَّ ، أَنِّي لَم أَكن وقفتُ علىٰ ما قالَهُ البُحتريُّ إِلاَّ بعدَ مدَّةٍ مِن إِنشائِي لتلكَ القطعَةِ ، التي من جملتِها البيتُ ، وللهِ الحمدُ ؛ إِذ دلتِ ٱلمواردَةُ علىٰ إِصابَةِ المرمىٰ ، وتطبيقِ المحزِّ ؛ فقد حكيَ [في « الإيضاح في علوم البلاغة » ١/ ٣٨٠] : أَنَّ ٱبنَ ميَّادَةَ أَنشدَ لنفسِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) شذَّبَ الشجرَ : أَسقط ما عليهِ مِنَ الأغصانِ .

(٢) محلسٌ : متخِذٌ حِلْساً ، وهوَ ما يوضعُ فوق الرحلِ ، والمعنىٰ : أنك متهيِّءٌ للرحيلِ .

(٣) المرموسةُ : مشتقَّةٌ من رمسَ ، غطَّىٰ ودفنَ .

(٤) الشَّعبُ : ما تفرَّقَ من الشيءِ .

مُفِيْـدٌ وَمِتْـلَافٌ إِذَا مَـا أَتَيْتُـهُ تَهَلَّـلَ وَاْهْتَـزَّ اْهْتِـزَازَ اْلْمُهَنَّـدِ

فَقالوا لَهُ : أَينَ يُذْهَبُ بكَ ؟ هٰذا البيتُ موجودٌ في « ديوانِ الحُطيئَةِ »[٥١] ، فقالَ : الآنَ علمتُ أَنِّي شاعرٌ ؛ إِذ وافقتُهُ علىٰ قولِهِ ولَم أَسمعْهُ .

* * *

المجلس الرّابع عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّب المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٧ مِنَ الكاملِ] :

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ ... مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُوْرُهَا لاَ تُوْرِقُ

يقولُ : إِنَّهُ يتعجَّبُ مِنْ صخورِ أَرضِهم ، كَيْفَ لاَ تُورِقُ ، وقد شملَها جودُهُم ، وأَنعشَها وُجودُهُم ، وهوَ مِنْ قولِ ٱلعربيِّ [مِنَ ٱلبسيطِ] :

الجود الذي تورق منه الصخور

لَـوْ أَنَّ رَاحَتَـهُ مَـرَّتْ عَلَـىٰ حَجَـرٍ ... صَلْدٍ.. لأَوْرَقَ فِيْهَا ذَلِكَ ٱلْحَجَرُ

وقالَ أَبو صخرٍ ٱلهُذليُّ ، أَو قيسٌ ، علىٰ ٱختلافٍ في الرِّوايةِ [بل قيسٌ في « ديوانهِ » ١٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

تَكَـادُ يَـدِيْ تَنْـدَىٰ إِذَا مَـا لَمَسْتَهَـا ... وَتَنْبُتُ فِيْ أَطْرَافِهَا ٱلْوَرَقُ ٱلْخُضْرُ

وقالَ مسلمُ بنُ ٱلوليدِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

لَـوْ أَنَّ كَفّـاً أَعْشَبَـتْ لِسَمَـاحَـةٍ ... لَبَـدَا بِـرَاحَتِـهِ ٱلنَّبَـاتُ ٱلأَخْضَـرُ

وقالَ أَبو الشَّمَقْمَقِ ـ وكانَ معَ طاهرِ بنِ ٱلحسينِ في حَرَّاقَةٍ بـ(دِجلةَ) ـ [في « ٱلبدايةِ والنِّهايةِ » ١٠/ ٣٦٠ مِنَ ٱلمتقاربِ] :

عَجِبْـتُ لِحَـرَّاقَـةِ ٱبْـنِ ٱلْحُسَيْـ ... ـنِ كَيْـفَ تَعُـوْمُ وَلاَ تَغْـرَقُ ؟

وَبَحْـرَانِ مِـنْ فَـوْقِهَـا وَاحِـدٌ ... وَآخَـرُ مِـنْ تَحْتِهَـا مُطْبِـقُ

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَاكَ عِيدَانُهَا ... وَقَدْ مَسَّهَا كَيْفَ لاَ تُورِقُ ؟

وقالَ أَبو عُبادةَ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] ـ وأَظنُّني قد سقتُهُ فِي الكلامِ علىٰ قولِهِ : (يُعْطِيْ فَلاَ مَطْلُهُ يُكَدِّرُهَا . . . . .) ـ :

مَوَاهِبُ أَعْدَادُ ٱلأَمَانِيْ وَخَلْفَهَا ... عِدَاتٌ يَكَادُ ٱلْعُوْدُ مِنْهُنَّ يُورِقُ

وقالَ [في «ديوانه» ٣/ ١٣٧ من الطويل] :

لَهُ هِزَّةٌ مِنْ أَرْيَحِيَّةِ جُوْدِهِ ... تَكَادُ لَهَا ٱلأَرْضُ ٱلْجَدِيْبَةُ تُعْشِبُ

ومرَّ أَيضاً عَنِ الأَصمعيِّ قولُ الأَعرابيَّةِ [مِنَ ٱلكاملِ] :

فَلَيَنْبُعَنَّ سَمَاحُ جُوْدِكَ فِيْ ٱلثَّرَىٰ ... وَلَيُورِقَنَّ بِقُرْبِكَ ٱلصَّخْرُ

وقالَ بعضُهم يمدحُ أَبا دلفٍ العجليَّ [مِنَ ٱلبسيط] :

وَلَوْ يَجُوْزُ لَقَالَ ٱلنَّاسُ كُلُّهُمُ ... لَوْلاَ أَبُوْ دُلَفٍ لَمْ يُوْرِقِ ٱلشَّجَرُ

قَرْمٌ إِذَا مَا حَوَىٰ فِيْ كَفِّهِ حَجَراً ... يَفِيْضُ فِيْ كَفِّهِ مِنْ جُوْدِهِ ٱلْحَجَرُ

وقالَ شاعرُ (المعرَّةِ) [في «سقطِ الزندِ» ٢٦٠ مِنَ ٱلكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلاَ تَسَعُّرُ بَأْسِهِ ... لاخضَرَّ فِيْ يُمْنَىٰ يَدَيْهِ ٱلأَسْمَرُ[1]

وقد سبقَ ذكرُ البيتِ المختلَفِ في نسبتِهِ وهوَ [في «ديوان أبي تمّام» ٢/ ١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ فِيْ كَفِّهِ غَيْرُ رُوْحِهِ ... لَجَادَ بِهَا فَلْيَتَّقِ ٱللهَ سَائِلُهْ

وقبلَهُ ـ وهوَ موضعُ الشاهِدِ ـ :

يَمُرُّ عَلَىٰ ٱلْوَادِيْ فَتَبْكِيْ رِمَالُهُ ... عَلَيْهِ وَبِٱلنَّادِيْ فَتَبْكِيْ أَرَامِلُهْ

---

(١) التسعُّرُ : الالتهابُ . الأَسمرُ : الرُّمحُ .

ولن تبكيَ الرمالُ . . إلاَّ وقدِ ٱستعيرَتْ لَها الحياةُ التي تنمو بجودِ الممدوحِ .

وقالَ ٱبنُ حيُّوسٍ يمدحُ الصاحبَ بنَ عبَّادٍ [في « وفيات الأعيان » ٤٤١/٤ مِنَ الطَّويلِ] :

مِنَ ٱلنَّفَرِ ٱلْعَالِيْنَ فِيْ ٱلسِّلْمِ وَٱلْوَغَىٰ　　وَأَهْـلِ ٱلْمَعَـالِـيْ وَٱلْعَـوَالِـيْ وَآلِهَـا
إِذَا نَزَلُوا ٱخْضَرَّ ٱلثَّرَىٰ مِنْ نُزُوْلِهِمْ　　وَإِنْ نَازَلُوا ٱحْمَرَّ ٱلْقَنَا مِنْ نِزَالِهَا

قالَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفياتِ الأَعيانِ » ٤٤١/٤] : هـٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، الذي لا يشوبُهُ شيءٌ مِنَ ٱلحشوِ .

وإِنِّي لأَتعجَّبُ مِنَ ٱلقاضي في مبالغتِهِ بمدحِ ذَينِ ٱلبيتينِ إِلىٰ هـٰذا ٱلحدِّ، مَعَ أَنَّهُ النَّاقدُ ٱلبصيرُ ، غيرُ مدافَعٍ ، وٱلحالُ أَنَّ عليهِما ملاحظتينِ :

ٱلأُولىٰ : في قافيةِ ٱلبيتِ ٱلأَوَّلِ ؛ فإِنَّهُ لا داعيَ لَها بعدَ سبقِ ٱلأَهلِ غيرَ ٱلاجتلابِ .

والثانيةُ : في تأْنيثِ الضَّميرِ مِن ضربِ ٱلبيتِ الثَّاني معَ تذكيرِهِ في عروضِهِ ، وكلُّ ذلكَ ممَّا يتنزَّهُ عنهُ أَهلُ ٱلإِحسانِ .

مسألة بلاغية في الغلو

وفي بعضِ ٱلأَبياتِ التَّي سُقناها غلوٌّ لا يُقبَلُ ، ولَو جرىٰ أَبو الطَّيِّبِ علىٰ عادتِهِ مِنَ ٱلإِغراقِ . . لادَّعَىٰ إِيراقَ الشَّجَرِ ، ومِنَ ٱلمقرَّرِ أَنَّهُ لا يقبلُ مِنَ ٱلمبالغَةِ إِلاَّ :

١ـ ما أَمكنَ وجودُهُ عقلاً وعادَةً، كقولِهِ ﷺ: «لَخَلُوْفُ فَمِ ٱلصَّائِمِ . . أَطْيَبُ عِنْدَ ٱللهِ مِنْ رِيْحِ ٱلْمِسْكِ »[1] ؛ فإِنَّهُ ممكنٌ عادةً وعقلاً .

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) في الصوم .

وكقولِ ٱمْرِئِ القيسِ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَادَىٰ عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ … دِرَاكاً وَلَمْ يَنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلِ[(١)]

وقولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَصْرَعُ أَيَّ ٱلْوَحْشِ قَفَّيْتُهُ بِهِ … وَأَنْزِلُ عَنْهُ مِثْلَهُ حِينَ أَرْكَبُ[(٢)]

وهوَ ما يسمُّونَهُ : (التَّبليغَ) .

٢ـ أَو ما أَمكنَ عقلاً لا عادةً ، ومثَّلوا لهُ بقولِ عَمرِو بنِ ٱلأَهتمِ [بل القائل عمير بن كريم التغلبي كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٨ مِنَ الوافرِ] :

وَنُكْـرِمُ جَـارَنَـا مَـا دَامَ فِينَـا … وَنُتْبِعُـهُ ٱلْكَـرَامَـةَ حَيْـثُ مَـالاَ

وفيهِ نظرٌ ؛ لإمكانِ أَنَّ ٱلمعنىٰ تزويدُهُ بما يكونُ معهُ في كلِّ جهةٍ ينتحي إِليها، وهٰذا موجودٌ بكثرةٍ في أَحوالِ ٱلكِرامِ، وأَربابِ ٱلمروءاتِ، فلا يستحيلُ عادةً كما زَعموا ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : (ٱلإِغراقَ) .

٣ـ أَو ما لا يمكنُ عقلاً ولا عادةً ، كقولِ أَبي نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٤١٣ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَأَخَفْتَ أَهْلَ ٱلشِّرْكِ حَتَّىٰ إِنَّهُ … لَتَخَافُكَ ٱلنُّطَفُ ٱلَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وكلُّ ما سبقَ في ٱلمجلسِ ٱلأَوَّلِ ، مِن مثلِ قولِ النَّاظِمِ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ١٨٦ مِنَ ٱلبسيطِ] :

كَفَىٰ بِجِسْمِي نُحُولاً أَنَّنِي رَجُلٌ … لَوْلاَ مُخَاطَبَتِي إِيَّاكَ لَمْ تَرَنِي

---

(١) عادىٰ : والىٰ الجريَ حتى جمعَ بين الثورِ والبقرِ ، على تباعدِ ما كان بينهما . دراكاً : سريعاً . لم ينضحْ : لم يعرقْ .

(٢) قفَّيتُهُ : تبعتُهُ .

وهوَ ما يسمُّونهُ : (ٱلغلوَّ) وهوَ مردودٌ ما لَمْ يقترِنْ بهِ ما يُخرِجُهُ عَنِ ٱلامتناعِ ، كقولِهِ جلَّ شأنُهُ في النُّورِ ٱلمبينِ ، والحبْلِ ٱلمتينِ : ﴿ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٠] .

وقولِهِ : ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] .

وقولِهِ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴾

[مريم: ٩٠].

وقولِهِ : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور : ٣٥] .

وكَما يروىٰ عنهُ ﷺ : «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ وَإِنْ كَانَ ٱلْمَاءَ ٱلْقَرَاحَ»[1] .

فإسكارُ ٱلماءِ ٱلخالِصِ مستحيلٌ ، وإنَّما كساهُ ٱلقَبولَ ٱقترانُهُ بـ (إِنْ) الموجودَةِ ؛ لفرضِ ٱلمَحالِ وقوعَهُ .

ومثَّلوا لهُ أَيضاً بقولِ ٱلمعرِّيِّ [في « سقطِ الزندِ » ١٠٣ مِنَ ٱلوافرِ] :

شَجَـا رَكْبـاً وَأَفْـرَاسـاً وَإِبْـلاً ... وَزَادَ فَكَادَ أَنْ يَشْجُوْ ٱلرِّحَالاَ

وقولِ حَمديسٍ [في « ديوانهِ » ٣٢٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

وَيَكَادُ يَخْرُجُ سُرْعَةً عَنْ ظِلِّهِ ... لَوْ كَانَ يَرْغَبُ فِيْ فِرَاقِ رَفِيْقِ

وعندي أَنَّهُ ليسَ مِنَ ٱلمقبولِ ، وإنَّما ٱلمقبولُ ما قالَهُ ٱلمعرِّيُّ في معناهُ ، وهوَ [في « سقطِ الزَّندِ » ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمَّـا لَـمْ يُسَـابِقْهُـنَّ شَـيْءٌ ... مِـنَ ٱلْحَيَـوَانِ سَـابَقْـنَ ٱلظِّـلاَلاَ

---

(١) القَراحُ : الخالصُ . والحديثُ أخرجهُ الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٣/ ٢٥٠) ، والجملة الأولىٰ منه ثابتة في «الصحيحين» وغيرهما عن أبي موسىٰ ، بل وثابتة عن جماعة من الصحابة عند غيرهما من أصحاب السنن والمسانيد . انظر صحيح الجامع الصغير رقم (٤٥٥٠) .

البخل الذي تجف منه البحار

وفي عكسِ ما يمدحُ بهِ النَّاظِمُ مِن سماحَةِ ٱلكفِّ . . يقولُ جريرٌ [الأبياتُ في « روضةِ العقلاء » (١/ ٢٤١) غير معزوةٍ لقائلٍ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّمَا خُلِقَتْ كَفَّاهُ مِنْ حَجَرٍ   فَلَيْسَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَٱلنَّدَىٰ عَمَلُ

يَـرَىٰ تَيَمُّمَـهُ بِـٱلشَّـطِّ نَـافِلَـةً   مَخَافَةَ أَنْ يُرَىٰ فِيْ كَفِّهِ بَلَلُ

ويقولُ الأَخطلُ [في « ديوانهِ » ٢٤٩ مِنَ ٱلكاملِ] :

كَفُّ ٱلْيَدَيْنِ مِنَ ٱلْعَطِيَّةِ مُمْسِكٌ   مَـا إِنْ تَبِـضَّ صِفَـاتُـهُ بِبَـلاَلِ

وقالَ ٱبنُ عبدِ ربِّهِ [في « ديوانهِ » ١١٠ مِنَ ٱلبسيطِ] :

يَـرَاعَـةٌ غَـرَّنِـي مِنْهَـا وَمِيْـضُ سَنـاً   حَتَّىٰ مَدَدْتُ إِلَيْهِ ٱلْكَفَّ مُقْتَبِسَا[1]

فَصَادَفَتْ حَجَراً لَوْ كُنْتَ تَضْرِبُهُ   مِنْ لُؤْمِهِ بِعَصَا مُوْسَىٰ لَمَا ٱنْبَجَسَا!

كَأَنَّمَا صِيْغَ مِنْ لُؤْمٍ وَمِنْ كَذِبٍ   فَكَانَ ذَاكَ لَهُ رُوْحاً وَذَا نَفَسَا

عود على بدء في الكرم

وفيما يوافقُهُ يقولُ حجبَةُ بنُ ٱلمضربِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أُنَاسٌ إِذَا مَا ٱلدَّهْرُ أَظْلَمَ وَجْهُهُ   فَأَيْدِيْهِمُ بِيْضٌ وَأَوْجُهُهُمْ غُرُّ

يَصُوْنُوْنَ أَحْسَاباً وَمَجْداً مُؤَثَّلاً   بِبَذْلِ أَكُفٍّ دُوْنَهَا ٱلْمُزْنُ وَٱلْبَحْرُ

فَلَوْ لاَمَسَ ٱلصَّخْرُ ٱلأَصَمُّ أَكُفَّهُمْ   أَفَاضَ يَنَابِيْعَ ٱلنَّدَىٰ ذَلِكَ ٱلصَّخْرُ

ويقولُ أبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَعَوَّدَ بَسْطَ ٱلْكَفِّ حَتَّىٰ لَوَ ٱنَّهُ   ثَنَاهَا لِقَبْضٍ لَمْ تُطِعْهُ أَنَامِلُهْ

ويقولُ ٱبنُ الرُّوميِّ [في « ديوانهِ » ٥/ ٢٠٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

مُقَبَّلُ ظَهْرِ ٱلْكَفِّ وَهَّابُ بَطْنِهَا   لَهُ رَاحَةٌ فِيْهَا ٱلْحَطِيْمُ وَزَمْزَمُ

---

(١) اليراعةُ : حشرةٌ صغيرةٌ يكون منها شبيهُ الضوءِ بالليلِ .

ولقد أخطأ ابنُ الرُّوميِّ ، إذ توهَّمَ أنَّ المقبَّلَ الحطيمُ ، وإنَّما يُقبَّلُ الرُّكنُ الأسودُ ، وليسَ بهِ .

ويقولُ النَّاظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٣١ مِنَ الكاملِ] :

عَجَباً لهُ حِفظُ العِنانِ بِأنمُلٍ ... مَا حِفظُهَا الأشْيَاءَ مِنْ عادَاتِهَا

وفي العجُزِ ما لا يخفىٰ مِن سوءِ الأدَبِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ ٱلمتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٣٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتَفُوْحُ مِنْ طِيْبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ	لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ

شرح المطلع

يقولُ : إِنَّ الثَّناءَ عليهِم موجودٌ في كلِّ مكانٍ ، ومنهُ تفوحُ الرَّوائِحُ الطَّيِّبَةُ ، وللهِ درُّ ٱلقائِلِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ أَرِيْجُ ٱلْمِسْكِ مَا تَجِدُوْنَهُ وَلَٰكِنَّهُ ذَاكَ ٱلثَّنَاءُ ٱلْمُخَلَّفُ

الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى

وهوَ معنىً شائِعٌ ذائِعٌ ، يتَّصِلُ بهِ كثيرٌ ممَّا سبقَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَنُّ شَوْقاً فَلَوْلاَ أَنَّ رَائِحَةً تَزُوْرُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

وقد أَحلنا علىٰ ما هُنا قبيلَ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٣١٧ مِنَ الخفيفِ] :

هَٰذِهِ مُهْجَتِيْ لَدَيْكِ لِحَيْنِيْ فَٱنْقُصِيْ مِنْ عَذَابِهَا أَوْ فَزِيْدِيْ[1]

وقالَ ٱلمجنونُ ، أَو مسلمُ بنُ ٱلوليدِ [بل مسلمٌ في « ديوانهِ » ٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَادُوْا لِيُخْفُوْا قَبْرَهَا عَنْ مُحِبِّهَا وَلَٰكِنَّ طِيْبَ ٱلْقَبْرِ دَلَّ عَلَىٰ ٱلْقَبْرِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٧١٤ مِنَ السَّرِيعِ] :

إِنْ جَاءَ مَنْ يَبْغِيْ لَنَا مَنْزِلاً قُوْلُوْا لَهُ يَمْشِيْ وَيَسْتَنْشِقُ

---

(١) الحَينُ : الهلاكُ .

وقالَ [في « ديوانِه » ٤/ ١٤٩٠ مِنَ الكاملِ] :

أَعبَقْتَهُ مِنْ رِيحِ طِيبِكَ عَبْقَةً كَادَتْ تَكُونُ ثَنَاءَكَ ٱلْمَسْمُوعَا

وقالَ ٱبنُ عِمارَةَ السُّلَميُّ [في « الأغاني » ١/ ٢٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يَبِينُ ظَلَامُ ٱللَّيْلِ مِنْ حُسْنِ وَجْهِهَا وَتَهْدِي بِطِيبِ ٱلرِّيحِ مَنْ جَاءَ مِنْ نَجْدِ

وقالَ أبو عُبادَةَ [في « ديوانِه » ٢/ ١٢٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَاوَلْنَ كِتْمَانَ ٱلتَّرَحُّلِ فِي ٱلدُّجَىٰ فَنَمَّ بِهِنَّ ٱلْمِسْكُ لَمَّا تَضَوَّعَا

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَخفَوْا عَلَىٰ تِلْكَ ٱلْمَطَايَا مَسِيْرَهُمْ فَنَمَّ عَلَيْهِمْ فِي ٱلظَّلَامِ ٱلتَّنَسُّمُ

وقالَ آخرُ [وهوَ عبدُ اللهِ بنُ محمدِ بنِ البوَّابِ كما في « الأغاني » ٢٣/ ٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ رَكْباً يَمَّمُوكَ لَقَادَهُمْ أَرِيجُكَ حَتَّىٰ يَسْتَدِلَّ بِكَ ٱلرَّكْبُ

وقالَ الطغرائِيُّ [في « ديوانِه » ٣٠٤ مِنَ البسيطِ] :

فَسِرْ بِنَا فِي ذِمَامِ ٱللَّيْلِ مُعْتَسِفاً فَنفحَةُ ٱلطِّيْبِ تَهْدِينَا إِلَىٰ ٱلْحُلَلِ(١)

وقالَ بعضُهُم يمدحُ أهلَ البيتِ [مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ يُوْجَدُ رِيحُ مَجْدٍ فَائِحاً لَوَجَدْتَهُ مِنْهُمْ عَلَىٰ أَمْيَالِ
نُورُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْمَكَارِمِ فِيهِمُ مُتَوَقِّدٌ فِي ٱلشِّيْبِ وَٱلأَطْفَالِ

---

(١) العسفُ : ركوبُ المفازةِ وقطعُها بغيرِ قصدٍ ولا هدايةٍ ولا توخّي طريقٍ مسلوكٍ .

وقد تمثَّلَ بهِما مسلمُ بنُ بلالٍ لجعفرِ بنِ سليمانَ حينَما خطَبَ خُطبةً لم يعرفِ ٱلناسُ أهيَ أَحسنُ أَم وجهُهُ ؟

والمعنىٰ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٧ مِنَ الوافرِ] :

أَدِلَّتُهَا رِيَاحُ ٱلْمِسْكِ مِنْهُ ... إِذَا فَتَحَتْ مَنَاخِرَهَا ٱنْتِشَاقَا

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٩٣ مِنَ الوافرِ] :

وَذَاكَ ٱلنَّشْرُ عِرْضُكَ كَانَ مِسْكًا ... وَهَـٰذَا ٱلشِّعْرُ فِهْرِيْ وَٱلْمَدَاكَا[1]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

أَرِجَ ٱلطَّرِيْقُ فَمَا مَرَرْتَ بِمَوْضِعٍ ... إِلاَّ أَقَامَ بِهِ ٱلشَّذَا مُسْتَوْطِنَا[2]

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ٤٥ مِنَ الوافرِ] :

تَنَفَّسُ وٱلْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ ... فَنَعْرِفُ طِيْبَ ذَلِكَ فِيْ ٱلْهَوَاءِ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا سَارَتِ ٱلأَحْدَاجُ فَوْقَ نَبَاتِهِ ... تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ[3]

وقولُهُ : (أَقَامَ بِهِ ٱلشَّذَا مُسْتَوْطِنَا) مأخوذٌ ممَّا جاءَ في صفتِهِ ﷺ . . أَنَّهُ إِذا مرَّ في مكانٍ . . عُرِفَ مِن طيبِهِ مرورُهُ بهِ، وإذا جلسَ بموضِعٍ . .

---

(١) النشرُ : الرائحةُ الطيبةُ . الفهرُ : الحجرُ الذي يسحقُ بهِ الطيبُ . المداكُ : الصلايةُ التي يداكُ عليها ، والدوكُ : الدقُّ والطحنُ .

(٢) أرِجَ الطيبُ : فاحَ . الشذا : حدَّةُ الرائحةِ .

(٣) الأحداجُ : مراكبُ النساءِ . تفاوَحَ : تفاعَلَ من فاحَ يفوحُ . الرندُ : نبتٌ طيِّبُ الرائحةِ .

بقيَ عَرفُهُ[1] فيهِ أيَّاماً بعدَهُ، وإذا صافَحَهُ إنسانٌ ، أَو وضعَ يدَهُ علىٰ رأسِ صبيٍّ . . عُرِفَ ذلكَ ؛ لطيبِ ريَّاهُ .

وإنَّما سُمِّيَتْ دارُهُ (طيبةَ) ؛ لكثرَةِ ما يفوحُ بها من روائحِ الطيبِ .

وقولُهُ : (تنفَّسُ وَٱلْعَوَاصِمُ مِنْكَ عَشْرٌ) . . . إلىٰ آخرِهِ أَلَمَّ فيهِ بقولِ مهلهل [في « الأغاني » ٥/٥٨ مِنَ الوافرِ] : أكذب الشعر

فَلَوْلاَ ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحِجْرٍ صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

فبينَ (حجرٍ) وبينَ موضِعِ الواقعَةِ عَشَرَةُ أيَّامٍ ، وأكثرُ ما يسمعُ الصوتُ في العادَةِ معَ سكونِ الهواءِ من مقدارِ ميلٍ ؛ ولهـٰذا قالَ بعضُهم : إنَّ هـٰذا أكذبُ بيتٍ قالتْهُ العربُ ، ومعَ ذلكَ فقد نظرَ إليهِ صاحبُنا بعينِ الاستحسانِ ؛ لأنَّهُ يتصيَّدُ الإغرابَ مِن حيثُما كانَ ، فنقلَ المسموعَ إلىٰ المشمومِ ، غيرَ أنَّ الحازميَّ ذكرَ عَنِ ٱلعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٧٧] : أنَّهُ كانَ يقفُ علىٰ (سَلْعٍ) ـ وهوَ جبلٌ عندَ (المدينَةِ) ـ فينادي غلمانَهُ وهُم بالغابَةِ ، وذلكَ مِن آخرِ الليلِ ، وبينَ الغابَةِ و(سَلْعٍ) . . ثمانيَةُ أميالٍ .

وذكرَ المبرِّدُ : أنَّ غارةً جاءَتْ وقتَ الصبحِ . . فصاحَ ٱلعبَّاسُ بأعلىٰ صوتِهِ : واصباحاهُ ، فلم تسمعْهُ حامِلٌ في الحيِّ إلاَّ وضعَتْ .

ولئِن قيلَ : إنَّ أكثرَ الشواهِدِ التي سقْنا ليسَتْ في طيبِ الثناءِ ، وإنَّما هيَ في طيبِ الذاتِ ، وبينهُما بَونٌ ، فالجوابُ : أنَ طيب الثناء تابع لطيب الذات

---

(١) العَرفُ : الرائحةُ الطيبةُ . قال الشيخ عبد الله سراج الدين في كتاب « محمد رسول الله ﷺ » (ص/ ٣٠) : رواه أبو يعلى والبراز بإسناد صحيح .

لا مشاحَّةَ ؛ لأنَّ طيبَ الذاتِ متبوعٌ بطيبِ الثناءِ لا محالَةَ ، والجامعُ مجرَّدُ الطيبِ .

ويعجبُني قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٠٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

يَطِيبُ تُرَابُ ٱلأَرْضِ إِنْ نَزَلُوْا بِهَا وَيَخْتَالُ أَنْ تَعْلُوْ عَلَيْهَا ٱلْمَنَابِرُ

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ الثناءِ قولُ أَبي تمَّامٍ [مِنَ الكاملِ] :

عَذُبَتْ مَمَادِحُهُ بِأَفْوَاهِ ٱلْوَرَىٰ فَثَنَاؤُهُ يَنْتَابُ كُلَّ مَكَانِ

بل ربَّما كانَ أَصلاً لبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ .

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٨٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَذُّ مِنَ ٱلصَّهْبَاءِ بِٱلْمَاءِ ذِكْرُهُ وَأَحْسَنُ مِنْ يُسْرٍ تَلَقَّاهُ مُعْدِمُ[1]

وقد سبقَ ـ في غيرِ هٰذا المجلسِ ـ قولُ الحماسيِّ [خلف بن خليفة كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٣٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

عِذَابٌ عَلَىٰ ٱلأَكْبَادِ مَا لَمْ يَذُقْهُمُ عَدُوٌّ وَفِيْ ٱلأَفْوَاهِ أَسْمَاؤُهُمْ تَحْلُوْ

وقالَ آخرُ [وهو شرف الدين القيرواني كما في « خزانة الأدب » ٢/ ٣٨٨ مِنَ البسيطِ] :

جَاوِرْ عَلِيّاً وَلاَ تَحْفَلْ بِحَادِثَةٍ إِذَا ٱدَّرَعْتَ فَلاَ تَسْأَلْ عَنِ ٱلأَسَلِ
سَلْ عَنْهُ وَٱسْمَعْ بِهِ وَٱنْظُرْ إِلَيْهِ تَجِدْ مِلْءَ ٱلْمَسَامِعِ وَٱلأَفْوَاهِ وَٱلْمُقَلِ

وأَهدىٰ الصاحبُ بنُ عبَّادٍ قارورَةَ عطرٍ لبعضِ القضاةِ ، وكتبَ علَيها [في « ديوانهِ » ٢٥٣ مِنَ الكاملِ] :

يَا أَيُّهَا ٱلْقَاضِيْ ٱلَّذِيْ نَفْسِيْ لَهُ مَعْ قُرْبِ عَهْدِ لِقَائِهِ أَشْتَاقُهُ
أُهْدِيْهِ عِطْراً مِثْلَ طِيْبِ ثَنَائِهِ فَكَأَنَّمَا أُهْدِيْ لَهُ أَخْلاَقَهُ

---

(١) الصهباء : من أَسماءِ الخمرِ .

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ [في « ديوانهِ » ٥١ مِنَ الكاملِ] :

قَدْ طَيَّبَ ٱلأَفْوَاهَ طِيْبُ ثَنَائِهِ   مِنْ أَجْلِ ذَا تَجِدُ ٱلثُّغُوْرَ عِذَابَا

وقالَ يزيدُ بنُ الطَّثَرِيَّةِ [في « ديوانهِ » ٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ وَإِنْ أَحْمَوْا عَلَيَّ كَلاَمَهَا   وَحَالَتْ أَعَادٍ دُوْنَنَا وَحُرُوْبُ
لَمُثْنٍ عَلَىٰ لَيْلَىٰ ثَنَاءً تُزِيْنُهُ   قَوَافٍ بِأَفْوَاهِ ٱلرِّجَالِ يَطِيْبُ

الذكر الجميل والثناء الحسن.. جدير بأن يطلب من الله

ولا شكَّ أَنَّ الذكرَ الجميلَ.. يهزُّ الرؤُوسَ ، ويخلبُ النفوسَ ؛ ولهـٰذا سأَلَهُ الخليلُ عليهِ السلامُ ، فقالَ : ﴿وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ [الشعراء : ٨٤] ، وممَّا يتَّصلُ بذلكَ قولُ ذي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ٢/ ١٢١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَاتَ فَوْقَ ٱلرَّحْلِ أَحْيَيْتُ رُوْحَهُ   بِذِكْرَاكِ ، وَٱلْعِيْسُ ٱلْمَرَاسِيْلُ جُنَّحُ

يقولُ : إِنَّ طِيبَ ذكرِهِ يوقظُ النائِمَ ، وينعِشُ الساكِنَ ، ويحرِّكُ الجامِدَ ، وهوَ من كلمةٍ لهُ جزلةٍ ، منقَّحَةِ المعنىٰ واللفظِ ، يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٢/ ١١٩٢ـ١٢١٥ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ حِيْنَ رَاهَقْتُ ٱلثَّلاَثِيْنَ وَٱرْعَوَتْ   لِدَاتِيْ وَكَادَ ٱلْحِلْمُ بِٱلْجَهْلِ يَرْجَحُ
إِذَا خَطَرَتْ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ خَطْرَةٌ   عَلَىٰ ٱلْقَلْبِ كَادَتْ فِيْ فُؤَادِيَ تَجْرَحُ
تَصَرَّفُ أَهْوَاءُ ٱلْقُلُوْبِ وَلاَ أَرَىٰ   نَصِيْبَكِ مِنْ قَلْبِيْ لِغَيْرِكِ يُمْنَحُ
إذا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّيْنَ لَمْ يَكَدْ   رَسِيْسُ ٱلْهَوَىٰ مِنْ حُبِّ مَيَّةَ يَبْرَحُ
أَنِيْنٌ وَشَكْوَىٰ بِٱلنَّهَارِ طَوِيْلَةٌ   عَلَيَّ وَمَا يَأْتِيْ بِهِ ٱللَّيْلُ أَبْرَحُ
ذَكَرْتُكِ إِذْ مَرَّتْ بِنَا أُمُّ شَادِنٍ   أَمَامَ ٱلْمَطَايَا تَشْرَئِبُّ وَتَسْنَحُ(١)

(١) أمُّ شادنٍ : ظبيةٌ معها ولدُها حينَ شدنَ وقويَ ومشى . تشرئِبُّ : تشرفُ . تسنحُ : تعرضُ .

مِنْهَا :

هِجَانُ ٱلثَّنَايَا مُغْرِباً لَوْ تَبَسَّمَتْ ... لأَخْرَسَ عَنْهُ كَادَ بِٱلْقَوْلِ يُفْصِحُ

لَئِنْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيَّ كَمَا أَرَىٰ ... تَبَارِيحَ مِنْ مَيٍّ فَلَلْمَوْتُ أَرْوَحُ[1]

هٰذا واللهِ الشعرُ الخالصُ ، والكلامُ المنقَّحُ ، والقولُ المختارُ ، وقد كانَتْ عندَنا نونيَّةُ ٱبنِ زيدونَ[2] في الاعتبارِ الأولِ . . حَتَّىٰ

---

(١) تباريحُ : عذابٌ ومشقَّةٌ .

(٢) قصيدة مشهورة للوزير أحمد بن زيدون ؛ كتب بها إلىٰ وَلَّادةَ بنت المستكفي بالله في (قرطبة)، بعد مفارقته لها، ويأسه من لقائها، يتشوقها ويستديم عهدها ، ومنها هذه الأبيات :

أَضْحَىٰ ٱلتَّنَائِي بَدِيْلاً مِنْ تَدَانِيْنَا ... وَنَابَ عَنْ طِيْبِ لُقْيَانَا تَجَافِيْنَا

أَلاَ وَقَدْ حَانَ صبحُ ٱلْبَيْنِ صَبَّحَنَا ... حَيْنٌ فَقَامَ بِنَا لِلْحَيْنِ نَاعِيْنَا

ومنها :

أَنَّ ٱلزَّمَانَ ٱلَّذِي مَا زَالَ يُضْحِكُنَا ... أُنساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِيْنَا

غِيظَ ٱلْعِدَا مِنْ تَسَاقِيْنَا ٱلْهَوَىٰ فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ فَقَالَ ٱلدَّهْرُ آمِيْنَا

فَٱنْحَلَّ مَا كَانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنَا ... وَٱنْبَتَّ مَا كَانَ مَوْصُولاً بِأَيْدِيْنَا

وَقَدْ نَكُونُ وَمَا يُخْشَىٰ تَفَرُّقُنَا ... فَٱلْيَوْمَ نَحْنُ وَمَا يُرْجَىٰ تَلاَقِيْنَا

ومنها :

بِنْتُمْ وَبِنَّا فَمَا ٱبْتَلَّتْ جَوَانِحُنَا ... شَوْقاً إِلَيْكُمْ وَلاَ جَفَّتْ مَآقِيْنَا

حَالَتْ لِبَيْنِكُمُ أَيَّامُنَا فَغَدَتْ ... سُوْداً وَكَانَتْ بِكُمْ بِيضاً لَيَالِيْنَا

لاَ تَحْسَبُوْا نَأْيَكُمْ عَنَّا يُغَيِّرُنَا ... إِذْ طَالَمَا غَيَّرَ ٱلنَّأْيُ ٱلْمُحِبِّيْنَا

وَٱللهِ مَا طَلَبَتْ أَهْوَاؤُنَا بَدَلاً ... مِنْكُمْ وَلاَ ٱنْصَرَفَتْ عَنْكُمْ أَمَانِيْنَا

ومنها :

يَا جَنَّةَ ٱلْخُلْدِ أُبْدِلْنَا بِسِدْرَتِهَا ... وَٱلْكَوْثَرِ ٱلْعَذْبِ زَقُّوماً وَغِسْلِيْنَا =

وجدْناها عالةً علىٰ هٰذهِ في كثيرٍ مِن مَعانيها المختارَةِ .

مسألة نحوية حول (كاد):

وهاهنا نكتَةٌ ، وهيَ : قيلَ : إنَّ نفيَ كادَ للإثباتِ مطلقاً :

ماضياً كانَ : بشهادَةِ قولِهِ : ﴿ وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة : ٧١] . وقد فعَلوا فذَبحوها .

أَو مضارِعاً : فقد رويَ عَن عنبسةَ أنَّهُ قالَ [في « الأغاني » ١٨/٣٩] : قدمَ ذو الرُّمةِ الكوفةَ فاعترَضَ عليهِ ابنُ شبرمَةَ قولَهُ : (لَمْ يَكَدْ رَسِيْسُ الْهَوَىٰ) ، وقالَ : إنَّهُ يدلُّ علىٰ زوالِ رسيسِ الهوىٰ ، فلم ينفصل ذو الرُّمَّةِ بلِ اعترفَ بالغلَطِ ، وغيَّرَهُ بقولِهِ : (لَمْ أَجِدْ رَسِيْسَ الْهَوَىٰ) ، ولٰكن قالَ عنبسةُ : حدَّثتُ أبي بذلكَ . . فقالَ أخطأَ ابنُ شبرمَةَ في إنكارِهِ علىٰ ذي الرُّمَّةِ ، وأَخطأَ ذُو الرُّمةِ في اعترافِهِ وتغييرِهِ ، إنَّما هوَ كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ [النور : ٤٠] ، والمعنىٰ : أنَّهُ لم يرَها ؛ ولهٰذا قالَ ابنُ الحاجبِ : إذا دخلَ النفيُ علىٰ كادَ . . كانَ كالنفيِ الداخِلِ علىٰ سائرِ الأَفعالِ ، وفي البحثِ طولٌ يتعلَّقُ بهِ مِنَ الفقهِ قولُ ابنِ حجرٍ في « تحفتِهِ » :

قالَ البغويُّ : ولَو قالَ : ما كدتُ أَن أطلِّقَكِ . . كانَ إقراراً بالطلاقِ ، وسكتَ عليهِ ، وإنَّما يتأتَّىٰ علىٰ ما سبقَ مِن القيلِ ، وقدِ اعتمَدَ الرمليُّ في « النهايَةِ » : أَنْ لاَ يكونَ إقراراً ؛ لأَنَّ كادَ كغيرِها ،

= كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ وَالْوَصْلُ ثَالِثُنَا ... وَالسَّعْدُ قَدْ غَضَّ مِنْ أَجْفَانِ وَاشِيْنَا

إنْ كَانَ قَدْ عَزَّ فِيْ الدُّنْيَا اللِّقَاءُ بِكُمْ ... فِيْ مَوْقِفِ الْحَشْرِ نَلْقَاكُمْ وَتَلْقَوْنَا

إِنَّا قَرَأْنَا الأَسَىٰ يَوْمَ النَّوَىٰ سُوَراً ... مَكْتُوبَةً وَأَخَذْنَا الصَّبْرَ تَلْقِيْنَا

عَلَيْكِ مِنَّا سَلاَمُ اللهِ مَا بَقِيَتْ ... صَبَابَةٌ مِنْكِ نُخْفِيْهَا فَتُخْفِيْنَا

وهوَ الجاري كما سبقَ عَنِ ٱبنِ الحاجِبِ ، وعليهِ الأَكثرونَ في الاعتمادِ ، واللهُ أَعلمُ .

ثناء المؤلف على المتنبي

وبما أَنَّ العلمَ أَمانةٌ ، والإنصافَ واجِبٌ . . فَلا بُدَّ مِنَ ٱلاعترافِ للنَّاظِمِ بحسنِ الاتباعِ ، فيما تعلَّقَ بهِ مِن بيتِ ذي الرُّمَّةِ الأَوَّلِ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٥ـ٣٤٦ـ٣٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

شَدَوْا بِٱبْنِ إِسْحَاقَ ٱلْحُسَيْنِ فَصَافَحَتْ ذَفَارِيَهَا كِيْرَانُهَا وَٱلنَّمَارِقُ[1]

بِمَنْ تَقْشَعِرُّ ٱلأَرْضُ خَوْفاً إِذَا مَشَىٰ عَلَيْهَا وَتَرْتَجُّ ٱلْجِبَالُ ٱلشَّوَاهِقُ

فَتىً كَٱلسَّحَابِ ٱلْجَوْنِ يُخْشَىٰ وَيُتَّقَىٰ يُرَجَّىٰ ٱلْحَيَا مِنْهَا ، وَتُخْشَىٰ ٱلصَّوَاعِقُ

خَفِ ٱللهَ وَٱسْتُرْ ذَا ٱلْجَمَالَ بِبُرْقُعٍ فَإِنْ لُحْتَ ذَابَتْ فِيْ ٱلْخُدُوْرِ ٱلْعَوَاتِقُ[2]

أَمَا إِنَّهُ لَشِعرٌ تقفُّ لَهُ الشعورُ ، وتنشرِحُ الصدورُ ، ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] .

والأَولُ : هُوَ الذي تعلَّقَ فيهِ بأَذيالِ ذي الرُّمَّةِ ، وقد أَجادَ ، ولئِنْ أَجادَ فيهِ . . فلقَد أَربىٰ علىٰ الإجادَةِ في نظيرِهِ ، إِذ يقولُ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) شدَوا : غنَّوا . الذفرَىٰ : الموضعُ الذي يعرَقُ من البعير خلفَ الأذنينِ . النمارقُ ـ جمعُ نُمرُقةٍ ـ : وهيَ الوسادةُ تكونُ تحت الراكبِ ، والذي أرادهُ أبو الطيبِ هنا ، هيَ التي تكونُ قُدَّامَ الرحلِ ، يجعلُ الراكبُ عليها ساقهُ للاستراحةِ إذا أخرجَها منَ الغرزِ . وكيرانُها ـ جمعُ كورٍ ـ : وهوَ الرَّحلُ .

(٢) البرقعُ : نقابٌ للعربِ ، يغطَّى بهِ الجبينُ والوجهُ ، ولا يكونُ فيهِ إلا ثقبانِ للعينينِ تنظرانِ منهما . العواتقُ ـ جمعُ عاتقٍ ـ : وهيَ الجاريةُ المقاربةُ للاحتلامِ . الخدورُ ـ جمعُ خِدرٍ ـ : وهوَ الكِنُّ والبيتُ الذي يسترُ فيهِ العواتِقُ .

نَضَحْتُ بِذِكْرَاكُمْ حَرَارَةَ قَلْبِهَا فَسَارَتْ وَطُوْلُ ٱلأَرْضِ فِيْ عَيْنِهَا شِبْرُ[1]

هـٰذا ما لا يقدرُ أَحدٌ أَن يقولَ مِثلَهُ ، فهوَ مِن مواضعِ السجودِ في الشعْرِ ، وفي بعضِ معناهُ ولفظِهِ قولُهُ السابقُ في المجلسِ الثامنِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ كَانَ عَزْمِيْ بَيْنَ جَنْبَيْهِ حَثَّهُ وَخُيِّلَ طُوْلُ ٱلأَرْضِ فِيْ عَيْنِهِ شِبْرَا

والثاني : ناظرٌ إِلىٰ قولِ الكنديِّ يمدَحُ عمرَو بنَ هندٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَكَادُ تَمِيْدُ ٱلأَرْضُ بِٱلنَّاسِ إِنْ رَأَوْا لِعَمْرِو بنِ هندٍ غَضْبَةً وَهْوَ عَاتِبُ

وأَمَّا الثالثُ : فما أَخذَهُ إِلاَّ مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴾ [الرعد : ١٢] ، ولئِن سبقَهُ إِليهِ البُحتريُّ بقولِهِ [في « ديوانه » ٣/١٩٩٧ مِنَ الطَّويلِ] :

سَمَاحاً وَبَأْساً كَٱلصَّوَاعِقِ وَٱلْحَيَا إِذَا ٱجْتَمَعَا فِيْ ٱلْعَارِضِ ٱلْمُتَرَاكِمِ[2]

.. فبينَ البيتينِ شأْوٌ بعيدٌ ، وفرقٌ كبيرٌ ، والذوقُ حاكِمٌ ، والصنعةُ شاهدٌ ، وقدِ ٱتفقَ لي أَن أَخذْتُ بنصيبي مِن هـٰذا المعنىٰ ، فقلْتُ مِن قصيدَةٍ [في « ديوانِ المؤلِّفِ » ٤٠١ مِنَ البسيطِ] :

قُدُوْمُكُمْ كَٱلْحَيَا لَكِنْ صَوَاعِقُهُ عِنْدَ ٱلْعِدَا، وَٱلنَّدَىٰ يَغْشَىٰ ٱلْمَسَاكِيْنَا[3]

---

(١) المعنىٰ : أُبَرِّدُ بذكراكُم ، وبشعري الذي فيكمْ . . حرارةَ قلبِ هذهِ الناقةِ ، فتسرعُ ويقربُ عنها البعدُ ؛ لنشاطِها بذكراكُم ومدحِكُمْ .

(٢) الحيا : المطرُ . العارضُ : السحابُ .

(٣) صواعقُهُ عند العدا تصيبهُم بمرماها .

وَلا أُنكِرُ أَنَّ بيتَ المتنبي أَجزلُ وأَفخمُ ، غيرَ أَنَّ في هٰذا توازي ٱلعِدا والندىٰ ، والإفصاحُ بغشيانِهِ المساكينَ ، وهُمُ ٱلَّذينَ يراقبونَ الأَنواءَ ، ويستمطرونَ الغمامَ ، بخلافِ غيرِهِم مِنَ المترفينَ ، وقد سبقَ بعضُ أَبياتِ ذي الرُّمَّةِ وأَبياتِ الناظِمِ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، فَلا مؤَاخذَةَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ يَخْلُقِ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ	أَبَـداً وَظَنِّـي أَنَّـهُ لاَ يَخْلُـقُ

المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك

معناهُ ظاهرٌ : وفيهِ مِن الغلوِّ والمجازفَةِ ما لا غايَةَ وراءَهُ ، والأَمرُ في مثلِهِ إِلىٰ النيَّةِ ، فإِنْ أَرادَ حقيقَةَ العمومِ ، والترجيحَ علىٰ حضراتِ الأَنبياءِ . . فقد وقَعَ في صريحِ الكفرِ ، وإِلاَّ . . فلا ، أَلا ترىٰ لقولِ بعضِهِم في مدحِ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ القسريِّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ إِنَّ خَيْـرَ ٱلنَّـاسِ حَيّـاً وَمَيِّتـاً أَسِيرُ ثَقِيفٍ عِنْدَهُمْ فِيْ ٱلسَّلاَسِلِ

. . فإِنَّهُ لا يقلُّ عَن بيتِ الناظِمِ في العمومِ ، ولم يكفِّروهُ معَ ذلكَ ، ولَم يقولوا : إِنَّهُ فضَّلَ ممدوحَهُ علىٰ سيِّدِ البشَرِ ﷺ ؛ لأَنَّ كلَّ مَن ذكرَ الناسَ لا يريدُهم بجملتِهِم ، وإِنَّما يريدُ قوماً مخصوصينَ بالعهدِ ، أَوِ القرينَةِ ، ومَعَ هـٰذا . . فإِنَّها إِساءَةُ أَدبٍ ، ومجاوزَةُ حدٍّ ، وقلَّةُ مبالاةٍ ، وَقِحَةُ وجهٍ .

أبو الأسد وموسى الهادي

وما أَحسنَ ما فعلَ موسىٰ الهادي معَ أَبي الأَسدِ وقد مدحَهُ بقولِهِ [كما في « تاريخ الخلفاء » ١/ ٢٨٢ مِنَ البسيطِ] :

يَا خَيْرَ مَنْ عَقَدَتْ كَفَّاهُ حُجْزَتَهُ وَخَيْرَ مَنْ قَلَّدَتْهُ أَمْرَهَا مُضَرُ

فإِنَّهُ قالَ لَهُ : إِلاَّ مَن ، يا بائِسُ ، فقالَ قبلَ أَن يبلعَ ريقَهُ [مِنَ البسيطِ] :

إِلاَّ ٱلنَّبِـيَّ رَسُـوْلَ ٱللهِ إِنَّ لَـهُ فَخراً وَأَنْتَ بِذَاكَ ٱلْفَخْرِ تَفْتَخِرُ

فعرفَ أنَّهُ ٱرتجلَهُ ، وفتَّشَ صحيفتَهُ فلمْ يجدْهُ فيها ، فأَسنىٰ جائزَتَهُ ، وأكرَمَ وِفادَتَهُ .

سلم الخاسر والمهدي

ودخلَ سَلْمٌ الخاسرُ علىٰ المهديِّ فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَيْسَ أَحَقَّ ٱلنَّاسِ أَنْ يُدْرِكَ ٱلْغِنَىٰ مُـرَجِّـيْ أَمِيْـرِ ٱلْـمُـؤْمِنِيْـنَ وَسَـائِلُـهْ
لَقَدْ بَسَطَ ٱلْمَهْدِيُّ عَدْلاً وَنَائِلاً كَـأَنَّهُـمَـا عَـدْلُ ٱلنَّبِـيِّ وَنَـائِلُـهْ

فقالَ المهديُّ : أَمَّا ما ذكرتَ مِنَ الجودِ . . فواللهِ إِنَّ الدنيا لا تعدلُ عِنْدي هٰذا الخاتَمَ ، وأَمَّا العدلُ . . فإِنَّهُ لا يقاسُ برسولِ اللهِ ﷺ أَحَدٌ ، وإِنِّي لأَتحرَّاهُ جهدِيَ ، ثُمَّ أَمرَ لَهُ بعشَرَةِ آلافِ دينارٍ ، وعشَرَةِ أَثوابٍ ، وقَدِمَ عليهِ في السنَةِ الثانيةِ فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْخِلاَفَةَ لَمْ تَكُنْ بِخِلاَفَةٍ حَتَّىٰ ٱسْتَقَرَّتْ فِيْ بَنِيْ ٱلْعَبَّاسِ
شُدَّتْ مَنَاكِبُ مُلْكِهِمْ بِخَلِيْفَةٍ كَـالـدَّهْـرِ يُخْلَطُ لِيْنُهُ بِشِمَاسِ

فأَمرَ لهُ بعشرينَ أَلفَ دينارٍ ، ولمَّا كانَ العامُ الثالِثُ . . قدمَ عليهِ وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

أَفْنَىٰ سُؤَالَ ٱلسَّائِلِيْنَ بِجُوْدِهِ مَلِـكٌ مَـوَاهِبُـهُ تَـرُوْحُ وَتَغْتَـدِيْ
هٰـذَا ٱلْخَلِيْفَـةُ جُـوْدُهُ وَنَـوَالُـهُ نَفَـدَ ٱلسُّؤَالُ وَجُوْدُهُ لَـمْ يَنْفَـدِ

فأَمرَ لهُ بثلاثينَ أَلفاً ، وثلاثينَ ثوباً .

وأَقولُ : إِنَّ المهديَّ أَنصفَ في ٱعترافِهِ بمرجوحيَّتِهِ في العدْلِ ، وأَخطأَ في مسأَلةِ الجودِ . ومَن ذا الذي يُباري البحرَ البارِدَ العذبَ ، أَمسىٰ زاخراً ؟! وهلْ يستطيعُ أَحدٌ في العالَمِ أَنْ يقولَ : « مَنْ تَرَكَ

مالاً . . فَلِوَرَثَتِهِ ، ومَنْ تركَ دَيْناً أو ضَيَاعاً . . فعَلَيْنَا »[1] غيرُ سيِّدِ الأَنامِ ، وخيرُ مَن يشربُ صوبَ الغمامِ ؟ وكانَ الأَولىٰ بالمهديِّ . . أَن يؤدِّبَ سَلْماً علىٰ ما تهضَّمَ مِن محاسنِ الخلفاءِ الراشدينَ في القطعَةِ الثانيَةِ ، أَو ينبِّهَهُ ، أَو يستفصِلَهُ ، علىٰ الأَقلِّ .

أَمَّا الرشيدُ . . فقد سبقَ أَوائِلَ المجلسِ الخامسِ أَنَّهُ سكتَ علىٰ قولِ عليِّ بنِ الخليلِ [في « زهرة الآداب » ٢/ ٨٤١ مِنَ الكامل] :

خَيْــرُ ٱلْبَــرِيَّـةِ أَنْـتَ كُلِّهِــمِ   فِيْ يَوْمِكَ ٱلْغَادِيْ وَفِيْ أَمْسِ

وأَمَّا المأمونُ . . فلم يغضَب علىٰ ابنِ جبلَةَ لقولِهِ في أَبي دُلَفٍ [في « ديوانه » ٦٨ مِنَ المديدِ] :

كُلُّ مَنْ فِيْ ٱلأَرْضِ مِنْ عَرَبٍ   بَيْــنَ بَــادِيْــهِ إِلَــىٰ حَضَــرِهْ
مُسْتَعِيْــرٌ مِنْــكَ مَكْــرُمَــةً   يَكْتَسِيْهَــا يَــوْمَ مُفْتَخَــرِهْ

وإِنَّما حقدَ عليهِ بديعَ مدائِحِهِ ، كما سيأْتي أَوائِلَ المجلسِ السادسَ عشرَ ، وإِلاَّ . . فقدْ قالَ في الاعتذارِ عنهُ : أَنتمْ أَهلُ بيتٍ لا يقاسُ بِكُم ؛ لأَنَّ اللهَ ٱختصَّكُمْ علىٰ عبادِهِ ، وإِنَّما ذهبتُ إِلىٰ أَقرانِ القاسِمِ وَأَشكالِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ[2] .

الفرزدق وعبد الملك ابن مروان وشهامة نفس الفرزدق

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ١٠/ ٣٥١] : أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ أَكرمَ الفرزدَقَ حَتَّىٰ أَرضاهُ علىٰ مدحَةٍ مدحَهُ بِها ، ولمَّا ٱنصرَفَ

---

(١) أخرجه عن جابر مسلم (٨٦٧) في (الجمعة) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٢٣٩٨) في الاستقراض ، ومسلم (١٦١٩) ، وأبو داوود (٢٩٥٥) .

(٢) بَلْ هذانِ البيتانِ هُما اللذانِ أَغضبا المأمونَ وأَحفظاهُ علىٰ عليِّ بنِ جَبَلَةَ حتَّىٰ سَلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ . انظر « الأغاني » (٨/ ٢٦٣) .

الفرزدقُ . . أَخذَ يتغنَّىٰ ويقولُ [في « ديوانه » ٢١٤ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ تَخْتَمِلْ نَاقَةٌ مِنْ مَعْشَرٍ رَجُلاً مِثْلِيْ، إِذَا ٱلرِّيحُ ٱلْقَتْنِي عَلَىٰ ٱلْكُوْرِ

وكانَ عليهِ عينٌ أسرعَ بِها إلىٰ عبدِ الملكِ ، فٱستردَّهُ وقالَ لهُ : لئِن لَمْ تخرُج مِنها . . لآتينَّ عليكَ ، فأنشدَ من فورِهِ [في « ديوانهِ » ٢١٥ مِنَ البسيطِ] :

إِلاَّ قُـرَيْشـاً فَـإِنَّ ٱللهَ فَضَّلَهُـمْ مَـعَ ٱلنُّبُـوَّةِ بِـٱلإِسْـلاَمِ وَٱلنُّـوْرِ

تَرَىٰ وُجُوْهَ بَنِيْ مَرْوَانَ مُشْرِقَةً يَوْمَ ٱلنَّدَىٰ كَمَشْرُوْفَاتِ ٱلدَّنَانِيْرِ

فقالَ عبدُ الملكِ : أَولىٰ لَكَ .

والظاهرُ مِن حالِ عبدِ الملكِ أَنَّهُ لَم يكنْ في ذلكَ مدفوعاً مِن جهَةِ الدينِ ، وإِلاَّ . . فكيفَ يقنَعُ بمدحِ بني مروانَ ، مَعَ أَولويَّةِ بني هاشِمٍ بذلكَ النورِ والنبوَّةِ ؟

وكيفَ يقرُّ الحجَّاجَ ـ كما رويَ ـ علىٰ قولِهِ أَنَّ الخلفاءَ أَفضلُ مِنَ ٱلرُّسُلِ ؟!

و [روى الأصفهاني بنحوه في « الأغاني » ٨/ ٧١ أنه] : قدِمَ عليهِ جريرٌ ، وكانَ ساخطاً عليهِ ؛ لانقطاعِهِ إِلىٰ الحجَّاجِ ، حَتَّىٰ همَّ أَن يُركِبَ الأَخطلَ ـ وهوَ نصرانيٌّ ـ علىٰ ظهرِهِ[1] ، لَولَا مراجعَةُ جلسائِهِ لَهُ في ذلكَ ، ولٰكنَّهُ لمَّا ٱمتدحَهُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « ديوانه » ١/ ٨٩ مِنَ الوافرِ] :

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا وَأَنْدَىٰ ٱلْعَالَمِيْنَ بُطُوْنَ رَاحِ ؟

---

(١) أي : كادَ أَنْ يُركِبَ الأَخطلَ علىٰ ظهرِ جريرٍ .

. . تطلَّقَ لهُ ، ورضيَ عنهُ ، وأعطاهُ مئةً مِنَ ٱلإبلِ ، وصحفةً مِنَ ٱلفضَّةِ - أَو مِنَ ٱلذَّهَبِ فكُلُّ ذلكَ رويَ - فتعيَّنَ أَنَّ الذي دعاهُ إِلىٰ الإنكارِ علىٰ الفرزدَقِ . . إِنَّما هوَ الموجدَةُ عليهِ ، لحاجَةٍ في نفسِهِ :

إِمَّا لاستكثارِ ما أَعطاهُ علىٰ حدِّ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٣٦ مِنَ البسيطِ] :

وَيَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَهُمْ حَتَّىٰ يُكَدِّرَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَالمِنَنُ[1]

وإِمَّا لأَنَّ الفرزدَقَ كانَ شريفَ الهمَّةِ ، قويَّ النفْسِ ، والمستبدُّونَ لا يميلونَ إِلاَّ إِلىٰ المتصاغرينَ المتملِّقينَ الأَخسَّاءِ ، كذلكَ الذي قالَ لهُ : جَبِّ[2] ، ليُركِبَ الأَخطلَ علىٰ ظهرِهِ ، فجبَّىٰ ، وهوَ جريرٌ كما سبقَ ، بخلافِ الفرزدَقِ ، فقد بلغَ مِن تعاظمِهِ أَنَّهُ لا ينشدُ قائماً ، وقد مرَّ قولُ خالدٍ القسريِّ فيهِ [بل القائل ابن هبيرة كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/٣٤٦] : ما رأَيتُ أَشرفَ مِنَ ٱلفرزدَقِ ، هَجاني ملكاً ، ومدحَني سوقةً .

ولمَّا قالَ لهُ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ [في « الأغاني » ١/٣٢٣] : أَنشدني . . أَنشدَهُ قولَهُ [في « ديوانه » ١/٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَرَكْبٍ كَأَنَّ ٱلرِّيْحَ تَطْلُبُ عِنْدَهُمْ لَهَا تِرَةً مِنْ جَذْبِهَا بِٱلْعَصَائِبِ[3]

سَرَوْا يَخْبِطُوْنَ ٱللَّيْلَ وَهْيَ تَلُفُّهُمْ إِلَىٰ شُعَبِ ٱلأَكْوَارِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ[4]

---

(١) في « العكبري » البيت بلفظ المخاطب : (تَغْضَبُوْنَ) (رِفْدَكُمْ) .

(٢) الناقةُ الجبَّاءُ : هي التي لا سنامَ لها ، ومعنى جَبِّ هنا كأنه مأخوذ منها ؛ أي اقعد القرفصاء ، كالناقة التي لا سنامَ لها .

(٣) الترَةُ : الثأرُ . العصائبُ : العمائمُ .

(٤) شعبُ الأكوارِ : نواحيها . والكور : رحلُ البعيرِ .

إِذَا أَبْصَرُوْا نَاراً يَقُوْلُوْنَ: لَيْتَهَا ـ وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ ـ نَارُ غَالِبِ[1]

وكانَ يظنُّ أَنَّهُ ينشدُهُ مدحاً فيهِ ، فلمَّا لَم يَجِيءْ إلاَّ بذلكَ الفخرِ . ٱسودَّ وجهُهُ ، ولجأَ إلىٰ شعرٍ قالَهُ نصيبٌ ، لا يوزَنُ بشيءٍ ممَّا قالَهُ الفرزدَقُ ، ولا توضَعُ اليدُ علىٰ شيءٍ منهُ ، عَدا قولَهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَعَاجُوْا فَأَثْنَوْا بِالَّذِيْ أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوْا أَثْنَتْ عَلَيْكَ ٱلْحَقَائِبُ

وليسَ هَـٰذا ببدعٍ ، إذ كلُّ مَن كانَ كبيرَ القدْرِ ، جليلَ الخطَرِ . . تحومُ عليهِ غربانُ الأَحسادِ ، وتُفَوِّقُ إليهِ نبلانُ الأَحقادِ ، كما سبقَ تقريرُهُ في موضعِهِ ، وكَما قالَ عليُّ بنُ محمَّدٍ الأفوهُ [مِنَ البسيطِ] :

مُحَسَّدُوْنَ وَمَنْ يَعْلَقْ بِحَبْلِهِمِ مِنَ ٱلْبَرِيَّةِ يُصْبِحْ وَهْوَ مَحْسُوْدُ

وما أَرىٰ حادثَةَ الخوارزميِّ معَ بديعِ الزمانِ إلاَّ مِن هَـٰذا النوعِ ، فقد كانَ الأَوَّلُ فريدَ دهرِهِ ، منقطِعَ النظيرِ في عصرِهِ ، ولم يأْتِ البديعُ إلاَّ والخاصَّةُ كلُّهم أعداؤُهُ ، فصغَّروا مِن أَمرِهِ ما عظُمَ ، وكبَّروا مِن أَمرِ البديعِ ما صغُرَ ، حتَّىٰ كانَ ما كانَ ، ممَّا لم يأْتِ إلاَّ بروايةِ البديعِ وحدَهُ ، ولأَقلَّ مِنْ تلكَ التهمَةِ . . يعلَّلُ بل يردُّ الحديثُ .

وقدِ ٱتفقَ لي من هـٰذا النوعِ أَنْ وردَ (حضرموتَ) رجلٌ مِن (اليمنِ) ، منذُ خمسةِ شهورٍ ، أَخذَ يتفنَّجُ ويتحدَّىٰ ، حتَّىٰ أَكبرَهُ بعضُ الناسِ ، وفي الليلَةِ الأُولىٰ مِنْ محرَّمِ هـٰذِهِ السنَةِ ٱجتمعْنا بهِ ، في لفيفٍ مِنْ أَهلِ الوجاهَةِ والأَدَبِ ، فٱقترحوا علَينا المباراةَ في

(١) خصرت : بردت . غالب : أي أبيه .

الشعْرِ ، معَ تعيينِ الموضوعِ والقافيَةِ والبحرِ ، فانتبذْتُ عنهُم قليلاً في المجلسِ ، ولَم تمضِ ساعَةٌ وربعٌ . . حَتَّىٰ جهَّزْتُ قصيدَةً لا تقلُّ عَن أَربعينَ بيتاً ، وجاءَ هُوَ في نفسِ المدَّةِ بنحوٍ مِن أَربعَةٍ وعشرينَ بيتاً ، لا ترتفِعُ إِلىٰ الإجادَةِ ، ولا تنحطُّ إِلىٰ التقصيرِ ، غيرَ أَنَّها ٱنعقدَتْ بعدَ ذلكَ عدَّةُ مجالسَ ، يُقتَرَحُ علينا فيها النضالُ ، فنقولُ ويُفحَمُ ، كما سبقَ لنا ذكرُ ذلكَ في المجلسِ الثاني عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٩٧ مِنَ المنسرحِ] :

بَـانُـوْا بِخُـرْعُـوْبَـةٍ لَهَـا كَفَـلٌ   يَكَـادُ عِنْـدَ ٱلْقِيَـامِ يُقْعِـدُهَـا

ولَولا ٱنفراجُ الأَمرِ عمَّا لا يقبلُ الأَوهامَ والشكوكَ . . لَمثَّلوا ما جرىٰ علىٰ الخوارزميِّ مِنَ ٱلبديعِ ، فما أَشدَّ حرصَهم علىٰ ٱنهزامِنا وٱنتصارِهِ ، ولَو وَجدوا أَدنىٰ منفذٍ إِلىٰ التمويهِ والتشويهِ . . لَفَتلوا في كلِّ غارِبٍ ، وذرَوهُ ؛ لغمطِ فضلِنا وترجيحِهِ ، غيرَ أَنَّهُ بفضلِهِ تعالىٰ أَبىٰ أَنْ يردَّهُم إِلاَّ بغيظِهِم ، هَـٰذا مَعَ أَنَّ الشعرَ لا يتيسَّرُ لي في كلِّ وقْتٍ ، بَل قَد يكونُ الشروعُ فيهِ أَحياناً أَصعبُ عليَّ مِن قلعِ الأَسنانِ ، وأَنا أُحيلُ كلَّ ما يحصلُ لي مِنَ ٱلانتصارِ بالحجَّةِ علىٰ الخصومِ ـ معَ قلَّةِ البضاعَةِ ، وتوفُّرِ الدواعي لاضطهادي ـ علىٰ بركَةِ دُعاءِ المَشايخِ ، الذي لا يُحجَبُ عَن سماءِ الإجابَةِ ، وذكرْتُ عندَ هـٰذا قولَ الأَميرِ تميمِ بنِ المعزِّ [في « ديوانهِ » ٢٠٤ مِنَ السَّريعِ] :

أَرَىٰ أُنَـاسـاً سَـاءَنِـيْ ظَنُّهُـمْ   فِـيْ كُـلِّ مَـا قُلْـتُ مِـنَ ٱلشِّعْـرِ
فَنَـاظِرُوْنِـيْ فِيْـهِ أَوْ فَـٱشْـرَحُـوْا   شِعْـرِيَ إِنْ أَنْكَـرْتُـمُ أَمْـرِيْ
أَوْ لاَ ، فَقُوْلُوْا : حَسَدٌ قَاتِلٌ   مُسْتَمْكِنٌ فِيْ ٱلْقَلْبِ وَٱلصَّدْرِ

وقولُهُ أيضاً [في « ديوانِهِ » ١٨٧ مِنَ الخفيفِ] :

نَحْنُ أَهْلُ ٱلتُّقَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمُوَاسَا ... ةِ وَأَهْـلُ ٱلنَّـوَالِ وَٱلإِيْثَـارِ
فَـدَعُـوْا خُطَّـةَ ٱلعُـلاَ لِـذَوِيْهَـا ... مِـنْ بَنِـيْ بَيْـتِ أَحْمَـدَ ٱلأَبْـرَارِ
أَوْ فَلُوْمُوْا ٱلإِلَـٰهَ فِيْ أَنْ بَرَانَا ... فَوْقَكُمْ وَٱغْضَبُوْا عَلَىٰ ٱلْمِقْدَارِ

هل يجوز التسمي بـ: ملك الملوك وما شابهه؟

هـٰذا : وقدِ ٱختلَفَ العلماءُ في التسمِّي بملكِ الملوكِ [في « طبقات ابن السبكي » ٥/ ٢٧١] :

فأجازَهُ كثيرٌ ، مِنهُم : القاضي أبو الطيِّبِ الطبريُّ .

ومنعَهُ آخرونَ ، مِنهم : الماورديُّ ، وهُوَ الذي ٱعتمدَهُ ٱبنُ حجرٍ في « تحفتِهِ » ؛ لأنَّهُ الأسعدُ بالدليلِ ؛ إذ جاءَ في « الصحيحِ » : « أَخْنَعُ الأَسْمَاءِ عِنْدَ ٱللهِ رَجُلٌ تَسَمَّىٰ بِمَلِكِ ٱلأَمْلاَكِ »[1] .

وأَولُ مَن تسمَّىٰ بذلكَ ـ فيما أظنُّ ـ عضدُ الدولةِ ، وكانَ صديقَ الماورديِّ ، فعزمَ اللهُ لَهُ بالثباتِ ، وجزَمَ بالحرمَةِ ، وأمَّا بقيَّةُ العلماءِ . . فَصانعوا ، وأَفتَوا بالجوازِ ، بناءً علىٰ ما سبقَ مِن التأويلِ بإرادَةِ التخصيصِ ، فلم يكُن مِنَ ٱلأميرِ إلاَّ أَن زادَ في ٱحترامِ الماورديِّ ؛ لتصلُّبِهِ في الدينِ ، وقالَ : لو حابىٰ أحداً . . لَحاباني ، وأَخذَ في ٱطِّراحِ المقاربينَ لَه ، وهانَ قدرُهُم عليهِ ، قالَ ٱبن السبكيِّ [في « طبقاته » ٥/ ٢٧٢] : ولم تطلْ مدَّةُ العضُدِ بعدَ ذلكَ .

والظنُّ بالعضُدِ أَنَّهُ هوَ الذي ٱمتدحَهُ الناظِمُ بقصيدتِهِ التي يقولُ فيها [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥ مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٢٠٥) ، ومسلم (٢١٤٣) في (الآداب) . أخنع : أوضع وأذل وأرذل .

وَقَـدْ رَأَيـتُ ٱلْمُلُـوكَ قَـاطِبَـةً وَسِـرْتُ حَتَّـىٰ رَأَيْـتُ مَـوْلاَهَـا

وَمَـنْ مَنَـايَـاهُـمُ بِـرَاحَتِـهِ يَـأْمُـرُهَـا فِيهِـمُ وَيَنْهَـاهَـا

أَبَا شُجَاعٍ بِفَارِسٍ عَضُدَ ٱلدَّوْ لَـةِ فَنَّـاخُسْـرَ وشَهَنْشَـاهَـا[1]

وله فيه القصيدةُ المستهلَّةُ بقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٨٥ مِنَ الوافرِ] :

فِـدىً لَـكَ مَـنْ يُقَصِّـرُ عَـنْ مَـدَاكَـا فَـلاَ مَلِـكٌ إِذاً إِلاَّ فَـدَاكَـا

وممَّا ينسبُ لعضُدِ الدولَةِ ـ كما ذكرَهُ أبو منصورٍ الثعالبيُّ ، وغيرُهُ ـ قولُهُ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٥٩ مِنَ الرَّمَلِ] :

لَيسَ شُرْبُ ٱلرَّاحِ إِلاَّ فِيْ ٱلْمَطَرْ وَغِنَـاءٌ مِـنْ جَـوَارٍ فِـيْ ٱلسَّحَـرْ

غَـانِيَـاتٍ سَـالِبَـاتٍ لِلنُّهَـىٰ نَاغِمَاتٍ فِيْ تَضَاعِيْفِ ٱلْوَتَرْ

مُبْـرِزَاتِ ٱلْكَـأْسِ مِـنْ مَطْلَعِهَـا سَاقِيَاتِ ٱلرَّاحِ مَنْ فَاقَ ٱلْبَشَرْ

عَضُـدَ ٱلـدَّوْلَـةِ وَٱبْـنَ رُكْنِهَـا مَلِـكَ ٱلأَمْـلاَكِ غَـلاَّبَ ٱلْقَـدَرْ

نعوذُ باللهِ مِنَ ٱلتعرُّضِ لغضَبِ اللهِ ومقتِهِ ، ومنازعتِهِ في أَسمائِهِ وجبروتِهِ ، ثُمَّ أَشكلَ عليَّ الأمرُ : بأَنَّ وفاةَ عضدِ الدولَةِ كانت سنةَ : (٣٧٢هـ) ، ووفادَةُ الناظِمِ عليهِ ، كانَتْ سنةَ : (٣٥٤هـ) ، وٱبنُ السبكيِّ يقولُ : إِنَّ أَولَ مَن تسمَّىٰ (بشهنشاه) مِن آلِ بُوَيْهٍ كانَ في سنَةِ : (٤٢٩هـ) ، وأَنَّىٰ تكونُ الأَوَّلِيَّةُ فِي الاسمِ وقد أَطلقَها المتنبي علىٰ العضُدِ قبلَ هـٰذا التاريخِ بزمانٍ ؟ فليُتأَمَّلْ .

---

(١) أبا شجاعٍ : بدلٌ من قولِهِ : مولاها . قال في « العُكبَري » : قالَ أَبو الفتحِ : هذا البيتُ علىٰ أَنَّهُ قصيرُ الوزنِ ، قد جمعَ فيهِ كنيةَ الممدوحِ ، وبلدَهُ ، وٱسمهُ ، ولغتَهُ ، وسمَّاهُ ملكَ الملوكِ ، وهوَ مِن أَحسنِ الجمعِ والمدحِ .
فنَّاخُسْرُ : ٱسمٌ مِن أَسماءِ الأَسَدِ ، وهوَ ٱسمُ عَضُدِ الدَّولَةِ .

ويستحيلُ أَن يكونَ الماورديُّ هو صاحبُ عضدِ الدولَةِ ؛ إذ كانَتْ وفاةُ الماورديِّ سنةَ : (٤٥٠هـ) عَن ستَّةٍ وثمانينَ عاماً ، فسنُّهُ يومَ وفاةِ العضدِ لا يتجاوزُ التسعَ .

ودونَ التسمي بملِكِ الأَملاكِ التسمِّي بحاكِم الحكَّام ؛ فإِنَّهُ فظيعٌ ، وَلَـٰكِنَّهُ ليسَ بحرامٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بصريحٍ بل محتمِلٌ ، أَمَّا قاضي القضاةِ . . فقد أَطبَقَ العلماءُ علىٰ ٱستعمالِهِ ، ثمَّ لا يبعدُ أَن يكونَ الناظِمُ أَرادَ التوريَةَ في البيتِ الذي نتكلَّمُ عليهِ بسيِّدِ البشَرِ ﷺ ، لا بممدوحِهِ محمَّدِ بنِ أَوسٍ ، وبذلكَ يكونُ مِنَ الصادقينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كُوْرِهَا أَبَرَّ وَأَوْفَىٰ ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ[1]

وقد سبقَ عن منصورٍ النميريِّ نظيرَهُ في الكنايَةِ بهارونَ عن عليٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ، وقد مرَّ بعضُ ما يتَّصِلُ بهـٰذا الكلامِ في شرحِ قولِه : [في « العُكبريِّ » ٣/ ١٦١ مِنَ الطَّويلِ] :

[أَمِطْ عَنكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَأَنَّهُ] فَمَا أَحَدٌ فَوْقِي وَلاَ أَحَدٌ مِثْلِي

الغلو في المديح

وقالَ أَبو العلاءِ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٧٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْلاَ ٱنْقِطَاعُ ٱلْوَحْيِ بَعْدَ مُحَمَّدٍ قُلْنَـا مُحَمَّـدُ مِـنْ أَبِيْـهِ بَـدِيـلُ
هُـوَ مِثْلُـهُ فِـيْ ٱلْفَضْـلِ إلاَّ أَنَّـهُ لَـمْ يَـأْتِـهِ بِـرِسَـالَـةٍ جِبْـرِيْـلُ

قالَ القاضي عياضٌ : فصدرُ البيتِ الثاني شديدٌ ؛ لتشبيهِ غيرِ النبيِّ بالنبيِّ ﷺ ، وأَمَّا العجُزُ . . فمحتمِلٌ لوجهينِ :

(١) قالَهُ ساريةُ الديليُّ في « المستطرف » ١/ ٤٩١ وهو الذي ناداهُ سيِّدُنا عمرُ رضي اللهُ عنهُ بقولِهِ : يا ساريةُ ، الجبلَ الجبلَ .

أَحدِهما : أَنَّ هـٰذه الفضيلَةَ نقصَتِ الممدوحَ .

والآخرِ : ٱستغناؤُهُ عَنها ، وهـٰذهِ أَشَدُّ . ٱنتهىٰ .

ولا شكَّ أَنَّ الاحتمالَ الثاني زيادَةٌ في الكفْرِ ، وهُوَ غيرُ مستنكَرٍ مِنَ ٱلمعريِّ معَ تهجُّمِهِ علىٰ الأَنبياءِ ، وقِلَّةِ ٱحترامِهِ لَهُم ، كما في قولِهِ [مِنَ الخفيفِ] :

كُنْتَ مُوْسَىٰ وَافَتْهُ بِنْتُ شُعَيْبِ غَيْرَ أَنْ لَيْسَ فِيْكُمَا مِنْ فَقِيْرِ

فإِنَّ الاستدراكَ في الشطرِ الثاني لا يحتملُ غيرَ التحقيرِ والازدراءِ بالأَنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أَجمعينَ .

وقالَ الناظِمُ في مديحِ طاهرِ بنِ الحسينِ العلويِّ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٥٤ـ١٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَبْهَـرُ آيَـاتِ ٱلتِّهَـامِـيِّ أَنَّـهُ أَبُوْكُمْ وَأَجْدَىٰ مَا لَكُمْ مِنْ مَنَاقِبِ[1]

هُوَ ٱبْنُ رَسُوْلِ ٱللهِ وَٱبْنُ وَصِيِّهِ وَشِبْهُهُمَا شَبَّهْتُ بَعْدَ ٱلتَّجَارِبِ

غيرَ أَنَّ البلاغَةَ شيءٌ ، والدِّينَ شيءٌ آخرُ ، وهـٰؤلاءِ الشعراءُ

---

(١) قال الواحدي في شرح ديوان المتنبي ص ٣٣١ : قال أبو الفضل العروضي فيما أملاه عليّ : هذا بيتٌ حسن المعنى مستقيم اللفظ حتى لو قلت : إنه أمدح بيت في شعره لم أبعد عن الصواب ولا ذنب له [أي المتنبي] إذا جهل الناس غرضه واشتبه عليهم ؛ أما معناه :

إن قريشاً وأعداء النبيِّ ﷺ كانوا يقولون : إن محمداً صنبورٌ ـ أي منفرد أبتر لا عقب له فإذا مات استرحنا منه فأنزل الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ أي العدد الكثير ولست بالأبتر الذي قالوا : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾ ؛ فقال المتنبي : أنتم من معجزات النبي ﷺ وآيات لتصديقه وتحقيق قول الله تعالى . . وذلك أجدى ما لكم من مناقب .

ـ بالأغلَبِ ـ لا وازعَ لَهم مِنَ ٱلدِّينِ ، بل يمرُّونَ مَعَ خواطِرِهِم ، وينفثونَ بكلِّ ما توحي لَهُم ضمائِرُهُم ، ومِن ثَمَّ ضعفَ شعرُ بعضِ الصحابَةِ ، بما عقدَ من أَلسنتِهِم الحقُّ ، بقدرِ ماأَطلقَ من أَلسنَةِ مَن سواهُمُ ٱلباطِلُ ؛ ولهذا قالوا : أَظرفُ الناسِ الزنادقَةُ ؛ إِذ لا يتقيَّدونَ بشيءٍ مِن حرمَةِ الدينِ ، بل يضحَكونَ بما يحِلُّ وما لا يحِلُّ، وقد قيلَ [القائل أبو نواس كما في «مجمع الأمثال» (٦٢٧)]: تيهُ مُغَنٍّ، وظُرْفُ زِنْدِيْقٍ(١) .

ومِن محاسنِ الحجَّاجِ قولُهُ : ودِدْتُ لَو أَنِّي أَدركْتُ أَربعةً فقتَلْتُهم شرَّ القتلِ ، أَحدُهم عبيدُ اللهِ بنُ زيادِ بنِ ظبيانَ ، قالَ لَهُ ٱبنُ مسمعٍ : كثَّرَ اللهُ في العشيرَةِ مثلَكَ ، فقالَ : لقد سأَلْتَ ربَّكَ شططاً(٢) .

ثُمَّ إِنَّ بيتَ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ . . متداوَلُ المعنىٰ بينَ الشعراءِ ، قالَ أبو الشيصِ الخزاعيُّ [مِنَ الكاملِ] :

مَا كَانَ مِثْلَكَ فِيْ ٱلْوَرَىٰ فِيْمَنْ مَضَىٰ ... أَحَــدٌ وَظَنِّــيْ أَنَّــهُ لاَ يُخْلَــقُ

وقالَ أَيضاً [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ تَبْتَغِيْ مِثْلَهُمْ فِيْ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ ... طَلَبْتَ مَا لَيْسَ فِيْ ٱلدُّنْيَا بِمَوْجُوْدِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٣١٤ مِنَ الكاملِ] :

هَيْهَاتَ أَنْ يَأْتِيْ ٱلزَّمَانُ بِمِثْلِهِ ... إِنَّ ٱلــزَّمَــانَ بِمِثْلِــهِ لَبَخِيْــلُ

---

(١) وأراد بقوله : (ظرْف زنديق) : مطيعَ بن إياس ، ولقبه بشار بن برد ، وكان إذا وصف إنساناً بالظرف قال : أظرف من الزنديق ؛ لأن من تزندق كان له ظرف يباين به الناس .

(٢) «مجمع الأمثال» (٤٥٨٠) .

فأخذَهُ الناظِمُ وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٦ مِنَ الكاملِ] :

أَعْدَىٰ ٱلزَّمَانَ سَخَاؤُهُ فَسَخَا بِهِ   وَلَقَدْ يَكُوْنُ بِهِ ٱلزَّمَانُ بَخِيْلاَ

وفي هٰذا البيتِ دورٌ يفسدُهُ ، لأَنَّهُ كيفَ يعدي الزمانَ بسخائِهِ قبلَ وجودِهِ ؟ وكيفَ يجودُ بهِ الزمانُ قبلَ العدوىٰ ، وهوَ بخيلٌ ؟ إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ العدوىٰ كانَت في الأَزَلِ ، وهوَ حينئذٍ شبيهٌ بما نقرِّرُهُ مِن أَنَّ خلقَ النفْسِ الناطقَةِ . . يكونُ قبلَ ٱستعدادِ النطفَةِ لقَبولِها بزمَانٍ بعيدٍ ، وهُوَ الحَقُّ ، خلافاً للغزاليِّ ، وٱبنِ سينا ، والحكيمِ السهرورديِّ المقتولِ .

وقالَ البُحتريُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَئِـنْ طَلَبْـتُ شَبِيْهَـهُ إِنِّـيْ إِذَنْ   لَمُكَلِّفٌ طَلَبَ ٱلْمَحَالِ رِكَابِيَ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٥٩ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَطْلُبَـنَّ لَـهُ ٱلشَّبِيْـهَ فَـإِنَّـهُ   قَمَـرُ ٱلتَّـأَمُّـلِ مُـزْنَـةُ ٱلتَّـأْمِيْـلِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٤ مِنَ البسيطِ] :

إِلَىٰ مُقِلٍّ مِنَ ٱلأَكْفَاءِ لَوْ طَلَبُوْا   مَكَانَ مُشْبِهِهِ فِيْ ٱلأَرْضِ مَا عُلِمَا

وقالَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٤٠٦ مِنَ الكاملِ] :

فَتىً كَانَ يَأْبَىٰ قَدْرُهُ أَنْ يُرَىٰ لَهُ   نَظِيْـرٌ مُسَـاوٍ أَوْ شَبِيْـهٌ مُشَـاكِـلُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٤٠٦ مِنَ الكاملِ] :

مَا زَالَ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِيْنِ وَقَدْ أَرَىٰ   مَـنْ لاَ يَـزَالُ مُشَـاكِـلٌ يَلْقَـاهُ
لَيْسَ ٱلتَّفَرُّدُ بِٱلسِّيَادَةِ عِنْدَهُمْ   أَنْ يُـوْجَـدَ ٱلأَمْثَـالُ وَٱلأَشْبَـاهُ

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/٢٤٨ـ٢٤٩ مِنَ الكاملِ] :

دَانٍ عَلَىٰ أَيْدِي ٱلْعُفَـاةِ وَشَـاسِـعٌ   عَنْ كُلِّ نِدٍّ فِيْ ٱلنَّدَىٰ وَضَرِيْبِ[1]

كَٱلْبَدْرِ أَفْرَطَ فِيْ ٱلْعُلُوِّ وَضَوْؤُهُ   لِلْعُصْبَةِ ٱلسَّارِيْنَ جِدُّ قَـرِيْـبِ

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/١٦٨٨ مِنَ المتقاربِ] :

فَهَـلْ مِـنْ سَبِيْـلٍ إِلَـىٰ مِثْلِـهِ ؟   أَبَـىٰ ٱللهُ ذَاكَ عَلَـىٰ مَـنْ خَلَـقْ

وقالَ [مِنَ السَّريعِ] :

لَيْـسَ لَـهُ عَيْـبٌ سِـوَىٰ أَنَّـهُ   لاَ تَقَـعُ ٱلْعَيْـنُ عَلَـىٰ مِثْلِـهِ

وما زالَ الناظِمُ يحومُ علىٰ هـٰذا المعنىٰ . . حتَّىٰ ٱنقضَّ عليهِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/١٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا عَـزَّهُ فِيْهَـا مُـرَادٌ أَرَادَهُ   وَإِنْ عَزَّ إِلاَّ أَنْ يَكُوْنَ لَـهُ مِثْلُ

وقالَ الحصنيُّ [مِنَ الخفيفِ] :

لَـمْ يَكُـنْ فِـيْ خَلِيْقَـةِ ٱللهِ نِـدٌّ   لَكَ فِيْمَا مَضَىٰ وَلَيْسَ يَكُوْنُ

وقالَ آخرُ ـ وغالِبُ ظَنِّيْ أَنَّهُ عُمَارَةُ اليمنِيُّ يمدَحُ شاوِراً ـ [ظنُّ الشيخ المؤلف صحيح كما في « السير » ١٥/٢١١ مِنَ الكاملِ] :

ضَجِرَ ٱلْحَدِيْدُ مِنَ ٱلْحَدِيْدِ وَشَاوِرٌ   مِنْ نَصْرِ دِيْنِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَضْجَرِ

حَلَـفَ ٱلـزَّمَـانُ لَيَـأْتِيَـنَّ بِمِثْلِـهِ   حَنِثَـتْ يَمِيْنُـكَ يَـا زَمَـانُ فَكَفِّـرِ

ويروىٰ [في « وفيات الأعيان » ٣/٢٨٩] : أَنَّهُ لمَّا ماتَ إِلكِيا الهرَّاسيُّ . . حضرَهُ قاضي القضاةِ ٱبنُ الدامغانيِّ ، وأَبو طالِبٍ الزينبيُّ ، وقد

(١) العفاةُ : كلُّ طالبِ فضلٍ أَو رزقٍ . الشاسعُ : البعيدُ .

انتهت إليهما رئاسةُ الحنفيَّةِ ، وكانَ بينهُ وبينهُما تنافسٌ وتنافرٌ في أيَّامِ الحياةِ ، فوقفَ أحدُهما [وهو الدامغاني] عندَ رأسِهِ ، وتمثَّلَ بقولِ الشاعِرِ [مِنَ الوافرِ] :

وَمَا تُغْنِي ٱلنَّوَادِبُ وَٱلْبَوَاكِي وَقَدْ أَصْبَحَتَ مِثْلَ حَدِيثِ أَمْسِ

فأنشدَ الثاني متمثِّلاً بما يناسِبُ المقامَ ، وهوَ قولُ الآخرِ [مِنَ الكاملِ] :

عَقِمَ ٱلنِّسَاءُ فَلا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنَّ ٱلنِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقُمُ

وأكثرُ أُولئكَ الشعراءِ مُغالٍ فيما قالَ ، ومَن ذا الذي يوقِظُ مروءَتَهُ ، ويُنيمُ هواهُ ، ويزِنُ كلامَهُ ، وينظُرُ بعينِ الإنصافِ والمعدلَةِ فيما يقولُ ، ويترسَّمُ قانونَ المعريِّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ١٥٧ مِنَ البسيطِ] :

وَرَتِّبِ ٱلنَّظْمَ تَرْتِيبَ ٱلْحُلِيِّ عَلَىٰ ٱلشَّـ ـخْصِ ٱلْجَلِيِّ بِلاَ مَيْنٍ وَلاَ خَرَقِ[1]
فَٱلْحِجْلُ لِلْرِجْلِ وَٱلتَّاجُ ٱلْمُنِيفُ لِمَا فَوْقَ ٱلْحِجَاجِ وَعِقْدُ ٱلدُّرِّ لِلْعُنُقِ[2]

وما علمتُ أحداً وضعَ هٰذا المعنىٰ في موضعِهِ سوىٰ ابنِ عبَّاسٍ ؛ إذ يقولُ [في « جمهرة خطب العرب » ١/٣٤٧] : عقمَتِ ٱلنساءُ أَن تأتيَ بمثلِ عليِّ بنِ أَبي طالِبٍ ؛ لِعَهدي بهِ في (صِفِّينَ) عليهِ عمامَةٌ بيضاءُ ، يقفُ علىٰ الناسِ شرذمَةً شرذمَةً حتَّىٰ انتهىٰ إليَّ ، وأنا في كنفٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ، حولي غلمَةٌ مِن بني عبدِ المطَّلِبِ ، فقالَ :

---

(١) الجليُّ : العروس . يقولُ : إنَّ الشعرَ أَشبهُ بالحُليِّ ، وكلُّ نوعٍ منهُ يليقُ بعضوٍ من أعضاءِ البدنِ ، وكلُّ نوعٍ من الشعرِ يليقُ بواحدٍ من الممدوحينَ .
(٢) الحجلُ : هو الخَلخالُ .

يا معشرَ المسلمينَ تجلببُوا السكينةَ ، وكَمِّلوا ٱللَّأْمَةَ ، وأَقلِقوا السيوفَ ، وكافِحوا بالظُّبَا ، وصِلوا السيوفَ بالخُطَا ، فإِنَّكم بعينِ اللهِ ، ومعَ ٱبنِ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ . . وذكرَ خطبةً جزلةً طويلةً .

وصل السيوف بالخطا عند العرب

وقولُهُ : صِلوا السيوفَ بالخُطىٰ موجودٌ بكثرَةٍ عندَ العرَبِ ، منهُ قولُ كعبِ بنِ مالِكٍ [في « ديوانه » ١٩٤ مِنَ الكاملِ] :

نَصِلُ ٱلسُّيُوْفَ إِذَا قَصُرْنَ بِخَطْوِنَا ... قُـدُمـاً وَنُلْحِقُهَـا إِذَا لَـمْ تَلْحَـقِ

وقولُ ودَّاكِ بنِ ثميلٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٣ مِنَ الطَّويلِ] :

مَقَادِيمُ وَصَّالُوْنَ فِيْ ٱلرَّوْعِ خَطْوَهُمْ ... بِكُـلِّ رَقِيْـقِ ٱلشَّفْـرَتَيْـنِ يَمَـانِـيْ

إِذَا ٱسْتُنْجِدُوْا لَمْ يَسْأَلُوْا مَنْ دَعَاهُمُ ... لأَيَّـةِ حَـرْبٍ أَمْ بِـأَيِّ مَكَـانِ

وقالَ آخرُ [وهو الأخنسُ بن شهابٍ كما في « المثل السائر » ٢/ ٣٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَنُضَارِبُ

وقالَ نابغةُ بني الحارثِ بنِ كعبٍ [مِنَ الكاملِ] :

إِنْ تَسْـأَلِـيْ عَنَّـا سُمَـيَّ فَـإِنَّـهُ ... يَسْمُوْ إِلَىٰ فَخمِ ٱلْعُلاَ نَارَانَا

وَتَبِيْـتُ جَـارَتُنَـا حَصَـانـاً عِفَّـةً ... تَـرْضَـىٰ وَيَـأْخُـذُ حَقَّـهُ مَـوْلاَنَـا

وَنَقُوْمُ إِنْ طَرَقَ ٱلْمَنُوْنُ بِسَخْرَةٍ ... لِوَصَاةِ وَالِدِنَا ٱلَّذِيْ أَوْصَانَا

أَنْ لاَ نَفِـرَّ عَـنِ ٱلْكَتِيْبَـةِ أَقْبَلَـتْ ... حَتَّـىٰ تَـدُوْرَ رَحَـاهُـمُ وَرَحَـانَـا

وَتَعِيْشُ فِيْ أَحْلاَمِنَا أَشْيَاعُنَا ... مُرْداً وَمَا وَصَلَ ٱلْوُجُوْهَ لِحَانَا

وَإِذَا ٱلسُّيُوْفُ قَصُرْنَ طَوَّلَهَا لَنَا ... حَتَّىٰ نَنَالَ مِنَ ٱلْكُمَاةِ خُطَانَا

وقالَ حميدُ بنُ ثورٍ [في « ديوانهِ » ٨٨ـ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ أَنْ نَزَلْنَا بِٱلْفَضَاءِ وَمَالَنَا ... بِهِ مَعْقِلٌ إِلاَّ ٱلرِّمَاحُ ٱلشَّوَاجِرُ[1]

وَوَصْلُ ٱلْخُطَا بِٱلسَّيْفِ وَٱلسَّيْفِ بِٱلْخُطَا ... إِذَا ظُنَّ أَنَّ ٱلْمَرْءَ ذَا ٱلسَّيْفِ قَاصِرُ

وقالَ أبو سعيدٍ المخزوميُّ [مِنَ الخفيفِ] :

وَإِذَا مَا ٱلْحُسَامُ كَانَ قَصِيراً ... طَوَّلَتْهُ إِلَىٰ ٱلْعَدُوِّ بَنَانِي

وقالَ السموءَلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ قَصُرَتْ أَسْيَافُنَا كَانَ وَصْلُهَا ... خُطَانَا إِلَىٰ أَعْدَائِنَا فَتَطُولُ

وقالَ بشامَةُ بنُ حزنٍ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٠٣ مِنَ البسيطِ] :

إِذَا ٱلْكُمَاةُ تَنَحَّوْا أَنْ يَنَالَهُمُ ... حَدُّ ٱلسُّيُوفِ وَصَلْنَاهَا بِأَيْدِينَا

وقالَ غيرُهُ [في « البيان والتبيين » ١/ ٤٠٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَصَلْنَا ٱلرِّقَاقَ ٱلْمُرْهَفَاتِ بِخَطْوِنَا ... عَلَىٰ ٱلْهَوْلِ حَتَّىٰ أَمْكَنَتْنَا ٱلْمَضَارِبُ

شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه

قُلنا : إنَّ في كثيرٍ ممَّا سبقَ غُلُوّاً ، وقد علمْتَ ممَّا مرَّ أَنَّ الغلوَّ لا يُقبَلُ ، وشرٌّ مِن الغلوِّ أَن يقعَ فيهِ الشاعِرُ وهوَ يعتقِدُ خلافَهُ ، وفي مقدمَةِ هـٰؤلاءِ . . النـاظِمُ ؛ بشهادَةِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْلاَ فُضُولُ ٱلنَّاسِ جِئْتُكَ مَادِحاً ... بِمَا كُنْتُ فِي سِرِّيْ بِهِ لَكَ هَاجِيَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢١٣ مِنَ البسيطِ] :

مَدَحْتُ قَوْماً وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتُ لَهُمْ ... قَصَائِداً مِنْ إِنَاثِ ٱلْخَيْلِ وَٱلْحُصُنِ[2]

---

(١) المعقِلُ : الملجأُ . الرماحُ الشواجرُ : المختلفةُ المتداخِلةُ .

(٢) قالَ العُكبَريُّ : المعنىٰ : مدحتُ قوماً لَم يستحقُّوا المدحَ ؛ لبخلِهم وجهلهم ، =

في كثيرٍ مِن تلكَ الأَمثالِ .

وقالَ من قبلِهِ الكميتُ [في « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » ١/ ١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَـرَّظْتُكُـمْ لَـوْ أَنَّ تَقْـرِيـظَ مَـادِحٍ يُوَارِي عُوَاراً مِنْ أَدِيمِكُمُ ٱلنَّغْلِ[1]

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/ ٢٣ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّـيْ مَـدَحْتُـكِ كَـاذِبـاً فَـأَثَبْتِنِـيْ لَمَّا مَدَحْتُكِ مَا يُثَابُ ٱلْكَاذِبُ

وقالَ سَلْمٌ الخاسرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ تُعْطِنِيْ جِرْمٌ لأَنِّيْ ٱمْتَدَحْتُهَا فَمَا عَلِمَتْ جِرْمٌ لَهَا مَادِحاً قَبْلِيْ

وفي جِرمٍ ـ هٰؤلاءِ ـ يقولُ الآخرُ [وهو زيادٌ الأعجم كما في « طبقات فحول الشعراء » ٢/ ٦٩٨ مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـيْ لأُكْـرِمُ نَفْسِـيْ أَنْ أُكَلِّفَهَـا هِجَاءَ جِرْمٍ وَمَا يَهْجُوْهُمُ أَحَدُ

مَاذَا يَقُوْلُ لَهُمْ مَنْ كَانَ هَاجِيَهُمْ لاَ يَبْلُغُ ٱلنَّاسُ مَا فِيْهِمْ وَإِنْ جَهِدُوْا

وعكسَ المعنىٰ على سَلْمِ الخاسرِ أبو تمَّامٍ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرِيْمٌ مَتَىٰ أَمْدَحْهُ أَمْدَحْهُ وَٱلْوَرَىٰ مَعِـيْ وَإِذَا مَـا لُمْتُـهُ لُمْتُـهُ وَحْـدِيْ

وقالَ أَبو نُواسٍ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٤] : ما رأيتُ أكرمَ مِن جعفرِ بنِ يحيىٰ ، لقد قلتُ فيهِ [في « ديوانهِ » ١٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

= ولكن إنْ عشتُ . . غزوتُهم بخيلِ إناثٍ وذكورٍ ، وجعلَ الخيلَ كالقصائدِ المؤلَّفةِ التي مدحَهُم بها .

(١) النَّغَلُ : فسادُ الجلدِ في دِباغهِ . وأديمكم النغلُ : جلدكم الفاسد .

وَلَسْتُ وَإِنْ أَطْنَبْتُ فِيْ مَدْحِ جَعْفَرٍ ... بِأَوَّلِ إِنْسَانٍ خَرَىٰ فِيْ ثِيَابِهِ

فأَمر لي بعَشَرَةِ آلافِ درهَمٍ ، وقالَ : إغسلْ بهٰذا الخَرَا مِن ثيابِكِ .

وَلَـٰكِنَّ أَبا نواسٍ لَم يتحدَّثْ بهٰذا . . إلاَّ بعدَ أَن مضىٰ علىٰ البرامكَةِ زمانٌ طويلٌ ، وإلاَّ . . فقدْ كانَ جاحداً لفضلِهم .

وقد سبقَ معنُ بنُ زائدَةَ إلىٰ مثلِ هٰذه الفضيلَةِ ، فقدِ ٱستُؤْجرَ أَعرابيٌّ علىٰ إغضابهِ ، فتلقَّاهُ بقصيدَةٍ أَقذَعَ له فيها ، حتَّىٰ قالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَتَذْكُرُ إذْ قَمِيصُكَ جِلْدُ شَاةٍ ... وَإِذْ نَعْلاَكَ مِنْ جِلْدِ ٱلْبَعِيرِ[1]

فقالَ لَهُ : نعم ، أَذكرُ ذلكَ ولا أَنساهُ يا أَخا العربِ ، والحمدُ للهِ علىٰ ما تفضَّلَ وأَجملَ ، فقالَ لهُ [مِنَ الوافرِ] :

فَعَجِّلْ يَا ٱبْنَ نَاقِصَةٍ بِمَالٍ ... فَإِنِّيْ قَدْ عَزَمْتُ عَلَىٰ ٱلْمَسِيْرِ

فلم يَثُرْ لَهُ غضَبٌ ، ولا تحرَّكَ لَهُ عرقٌ ، بل أَمرَ لَهُ بمالٍ ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

قَلِيْلٌ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَإِنِّيْ ... لأَطْمَعُ مِنْكَ فِيْ ٱلشَّيْءِ ٱلْكَثِيْرِ

فأَضعفَهُ لَهُ حَتَّىٰ أَرضاهُ ، فتخلَّصَ إلىٰ مدحِهِ ، كذا رأَيتُ القصَّةَ مِن زمانٍ طويلٍ في « أعلامِ ٱلنَّاسِ » ، وما رأَيتُها في غيرِهِ ، واللهُ أَعلمُ بصحَّتِها[2] .

---

(١) البيت في « جمهرة الأمثال » (٢/ ٣٩) بإبدال (جلد شاة) بـ : (جِلْدُ تَيسٍ) .

(٢) روىٰ القصة صاحبُ «المنتظم حتى سنة [٢٥٧ هـ]» (٦/ ٢٨٠) عَنِ الأَصمعيِّ =

وقالَ ٱبنُ الروميِّ فيما نحنُ بسبيلِهِ [في « ديوانه » ٤/ ١٤٢٢ مِنَ الوافرِ] :

أَتَيْتُكَ مَادِحاً فَهَجَوْتَ شِعْرِيْ   فَكَـانَـتْ هَفْـوَةً مِنِّـيْ وَغَلْطَـهْ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٣/ ١٨٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

هُمُ سَرَقُوْا طِرْفِيْ وَقَدْ جِئْتُ مَادِحاً   لَهُمْ ، إِنَّ بَعْضَ ٱلْمَدْحِ إِثْمٌ وَبَاطِلُ[١]

ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً

ومِن هـٰذا البابِ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ١٨] : أَنَّ الأَحنفَ بنَ قيسٍ كانَ عندَ معاويَةَ بالموسمِ ، بعدَ عقدِهِ البيعَةَ ليزيدَ ، وقد نُصِبَ له قبَّةٌ ، وليزيدَ أُخرىٰ ، فكانَ الناسُ يسلِّمونَ عليهِ ، ويُثنُّونَ إِلىٰ يزيدَ ، فسلَّمَ عليهِ أَحدُ العربِ ثمَّ ذهبَ إِلىٰ يزيدَ ، ثمَّ رجَعَ إِلىٰ معاويَةَ ، وقالَ : أَشهدُ باللهِ أَنَّكَ لو لم تولِّ هـٰذا عهدَ المسلمينَ . . لكنتَ أضعتَهم ، فٱرتاحَ لَها معاويَةُ ، وقالَ للأَحنفِ : ما تقولُ يا أَبا بحرٍ ؟ قالَ : نخافُ اللهَ إِن كذَبنا ، ونخافُكُم إِن صدَقْنا ، قالَ : يَكْفينا منكَ السكوتُ ، ثُمَّ خرجَ الأَحنفُ ولاقىٰ الرجُلَ ، فقالَ لَه : أَرأَيتَ

= قِصَّةً تشبِهُها حيثُ قالَ : كانَ أَعرابيَّانِ متواخيينِ ، غيرَ أَنَّ أحدَهُما ٱستوطَنَ الرِّيفَ والآخرَ ٱختلَفَ إِلىٰ الحجَّاجِ فٱستعملَهُ علىٰ (أَصفهانَ) ، فسمعَ بِهِ أَخوهُ الذي بالباديَةِ ، فضربَ إِليهِ ، فأَقامَ ببابِهِ حيناً لا يصلُ إِليهِ ، ثُمَّ أَذِنَ لهُ بالدُّخولِ ، وأَخذَهُ الحاجبُ ، فمشىٰ بهِ وهوَ يقولُ : سلامٌ علىٰ الأَميرِ ، فلَم يلتفِتْ إِلىٰ قولِهِ ، ثُمَّ قالَ :

فَلَسْـتُ مُسَلِّمـاً مَـا دُمْـتُ حَيّـاً   عَلَـىٰ زَيْـدٍ بِتَسْلِيْـمِ ٱلأَمِيْـرِ

فقالَ زيدٌ : لا أُبالي . فقالَ الأَعرابيُّ :

أَتَـذْكُـرُ إِذْ لِحَـافُـكَ جِلْـدُ شَـاةٍ   وَإِذْ نَعْـلاَكَ مِـنْ جِلْـدِ ٱلْبَعِيْـرِ

فقالَ : نَعم . فقالَ الأَعرابيُّ :

فَسُبْحَـانَ ٱلَّـذِيْ أَعْطَـاكَ مُلْكـاً   وَعَلَّمَـكَ ٱلْجُلُـوْسَ عَلَـى ٱلسَّرِيْـرِ

(١) الطِّرفُ : الكريمُ من الخيلِ .

ما قلتَهُ لمعاويَةَ آنفاً أَعَن صحَّةِ اعتقادٍ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولـٰكنهم أَخذوا أَموالَ اللهِ ، وجَعلوا علَيها أَقفالَ الحديدِ ، فلَسنا نَستخرِجُها مِنهم إِلاَّ بمِثلِ ما سمعتَ مِنَ ٱلكلامِ ، فقالَ لَهُ : وَلَـٰكِنَّ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « أَخلِقْ بِذِي ٱلْوَجْهَيْنِ أَنْ لاَ يَكُوْنَ عِنْدَ اللهِ وَجِيْهاً »[1] .

الدنيا مصالح!! رحم الله أباك كان وكان. . . ولم يكن

وكانَ العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدِ الأَنصاريُّ عاملَ ٱبنِ الزبيرِ علىٰ (المدينَةِ) ، ثمَّ وُلِّيَ عَلَيها عثمانُ بنُ حيَّانَ بنِ معبدٍ المريُّ ، وآلىٰ ليقتلَنَّ العبَّاسَ ، فتغيَّبَ حَتَّىٰ أَضرَّ بِهِ التغيُّبُ ، ورغِبَ إِلىٰ أَصحابِ الأَميرِ أَن يشفَعوا لهُ ، فقالوا : لا نقدِرُ ؛ لأَنَّهُ لا يذكرُكَ إِلاَّ تغيَّظَ حَتَّىٰ كادَ يتفسخُ جلدُهُ ، غيرَ أَنَّهُ يتبَسَّطُ ساعةَ الطعامِ ، ويرتاحُ عندَهُ للحديثِ ، قالَ العبَّاسُ : فتنكَّرْتُ ، وحضرْتُ علىٰ طعامِهِ ، وجيءَ بجفنَةٍ علَيها اللحمُ والثريدُ ، فقلْتُ :

واللهِ لكأَنِّي أَنظرُ إِلىٰ جفنَةِ حيَّانَ بنَ معبدٍ يتكاوَسُ الناسُ علَيها ، وهوَ يطوفُ في أَرديَةِ الخزِّ ، يتفقَّدُ مصالحَهم ، حَتَّىٰ إِنَّ الحَسَكَ ليتعلَّقُ بهِ فلا يُميطُهُ ؛ مِن شدَّةِ ٱهتمامِهِ بضيفِهِ ، ولا يَكِلُ ذلكَ إِلىٰ حاشيتِهِ ، بَل يراقبُهُم بنفسِهِ ، ثمَّ يؤتىٰ بجفنَةٍ يحملُها أَربعةٌ ما يستقلُّونَ بحملِها إِلاَّ بمشقَّةٍ وعناءٍ ، وهـٰذا بعدَ ما يفرغُ الناسُ مِنَ ٱلطعامِ ، يجلِسُ عليها هوَ والطارىءُ مِن أَشرافِ قومِهِ ، وما بأَكثرِهم

---

(١) أخرج عن أبي هريرة رضي الله عنه مسلم (٢٥٢٦) في الفضائل : « وتجدون من شرار الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » و(٢٦٠٤ م) وفيه : « إن شر الناس ذو الوجهين » . وفي الباب :
عن عمار عند الدارمي (٢٦٦٢) : « من كان ذا وجهين في الدنيا كان له يوم القيامة لسانان من نار » .

مِن حاجَةٍ إلىٰ الأكلِ ، ولٰكنْ يحبُّونَ الفخرَ بالدنوِّ مِن طعامِهِ ، ومشارَكَةِ يدِهِ .

قالَ : هيهِ ، أَنتَ رأيتَهُ كذلكَ ، قلتُ : إِي وربِّ الكعبَةِ ، قالَ : ومَن أَنتَ ؟ قلتُ : وَأنا آمِنٌ ، قالَ : نعم ، قلتُ : أنا العبَّاسُ بنُ سهلِ بنِ سعدٍ ، قالَ : لا تثريبَ عليكَ ، وأَهلاً بكَ ، ولقد أَبطأْتَ علينا ، وإِنَّا إلىٰ مثلِكَ لمحتاجونَ .

قالَ : فلقد رأَيتُني وما بـ(المدينَةِ) آثَرُ ولا أَوجَهُ عندَهُ منِّي .

قالوا لهُ : وأَنتَ رأَيتَ حيَّانَ كذلكَ ؟ قالَ : لا واللهِ ، لقد نزلْنا مرَّةً علىٰ بعضِ المياهِ ، فغشيَنا وعليهِ عباءَةٌ باليَةٌ ، فجعلْنا نذودُهُ عَن رحالنا ؛ مخافَةَ أَن يسرقَها ، وأَعطيناهُ تمراً أكثرُهُ حشَفٌ ، ففرحَ بهِ ، وكانَ قد مسَّ عثمانَ هٰذا ـ أَو والدَهُ حيانَ ـ أَسْرٌ ، ولهٰذا ردَّهُ عقيلُ بنُ علفَةَ لمَّا خطَبَ إليهِ ٱبنتَهُ ، وقالَ لهُ [في « الأغاني » ١٢/٢٩٨] : تريدُ ناقَتي ؟ فظنَّ عثمانُ أَنَّهُ لم يسمَعْ ، فرفعَ صوتَهُ وقالَ : زوِّجني بنتَكَ ، فقالَ : أَناقَتي أَصلحكَ اللهُ ؟ فجفاهُ ، وأَمرَ بإِخراجِهِ ، وكانَ ٱبنَ عمٍّ لهُ ، فقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكُنَّا بَنِي غَيْظٍ رِجَالاً فَأَصْبَحَتْ بَنُو مَالِكٍ غَيْظاً وَصِرْنَا لِمَالِكِ
لَحَىٰ ٱللهُ دَهْراً ذَعْذَعَ ٱلْمَالَ كُلَّهُ وَسَوَّدَ أَبْنَاءَ ٱلإِمَاءِ ٱلْعَوَارِكِ[1]

وهل أنا إلا مهرة عربية

وذاك شبيهٌ بما قالتْهُ ٱبنَةُ النعمانِ بنِ بشيرٍ لزوجِها روحِ بنِ زنباعٍ [في « وفيات الأعيان » ٣/٩٥] ، وكانَ سيِّدَ (اليمنِ) وخطيبَهم ، وقائدَهم بـ(الشامِ) ، غيرَ أَنَّهُ قد مسَّهُ الأَسرُ يومَ الرجِّ ، فلم تَزَل تعيِّرُهُ

---

(١) ذعذع : فرَّق وبدَّد .

بذلكَ ، حَتَّىٰ قالَتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَـلْ أَنَـا إِلاَّ مُهْـرَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ سَلِيْلَـةُ أَفْـرَاسٍ تَجَلَّلَهَـا بَغْـلُ
فَإِنْ نَتَجَتْ مُهْراً كَرِيماً فَبِالْحَرَىٰ وَإِنْ يَكُ إِقْرَافٌ فَمَا أَنْجَبَ الْفَحْلُ

وبعضُهُم ينسبُ هٰذينِ البيتينِ لهندٍ زوجِ الحجَّاجِ ، وهو خطأٌ ، وإنَّما تمثَّلَت بهِما ؛ لمناسبتِهما لحالِها ، في حديثٍ لَها معَ الحجَّاجِ طريفٍ ، غيرَ أنَّا لا نطيلُ بهِ[1] .

---

(١) والقصَّةُ رواها الأَبشيهيُّ في « المستطرف » (١/ ١٢٣) فقال :

إنَّ هنداً بنتَ النُّعمانِ كانت أَحسنَ أَهلِ زمانِها ، فوُصِفَ للحجَّاجِ حُسنُها ، فأَنفذَ إليها يخطِبُها ، وبذلَ لها مالاً جزيلاً ، وتزوَّجَ بها ، وشرطَ عليها الصَّداقَ مئتي أَلفِ درهمٍ ، ودخلَ بها ، ثُمَّ إنَّها انحدرت معهُ إلى بلدِ أَبيها (المعرَّةِ) ، وكانت هندٌ فصيحةً أَديبةً ، فأَقامَ بها الحجَّاجُ بـ(المعرَّةِ) مُدَّةً طويلةً ، ثُمَّ إنَّ الحجَّاجَ رحلَ بها إلىٰ (العراقِ) فأَقامَتْ معهُ ما شاءَ اللهُ ، ثُمَّ دخلَ عليها في بعضِ الأَيَّامِ وهيَ تنظرُ في المرآةِ وتقولُ :

وَمَـا هِنْـدُ إِلاَّ مُهْـرَةٌ عَـرَبِيَّـةٌ سَلِيْلَـةُ أَفْـرَاسٍ تَجَلَّلَهَـا بَغْـلُ
فَـإِنْ وَلَـدَتْ فَحْـلاً فَلِلّـهِ دَرُّهَـا وَإِنْ وَلَـدَتْ بَغْـلاً فَجَـاءَ بِـهِ الْبَغْـلُ

فانصرفَ الحجَّاجُ راجعاً ، ولَم يدخلْ عليها ، ولَم تكن علمَتْ بهِ ، فأَرادَ الحجَّاجُ طلاقَها ، فأَنفذَ إليها عبدَ اللهِ بنَ طاهرٍ ، وأَنفذَ لها معَهُ مئتي أَلفِ درهمٍ ـ وهيَ التي كانت لها عليهِ ـ وقالَ : يا ابنَ طَاهرٍ . . طلِّقها بكلمتينِ ، ولا تَزِدْ عليهِما ، فدخلَ عبدُ اللهِ بنُ طاهرٍ عليها وقالَ : يقولُ لكِ أَبو محمَّدٍ الحجَّاجُ : (كُنْتِ . . فبِنْتِ) ، وهذِه المئتا أَلفِ درهمٍ التي كانت لكِ عليهِ .

فقالَت : اعلم يا ابنَ طاهرٍ أَنَّا ـ واللهِ ـ كُنَّا فَمَا حَمِدْنَا ، وبِنَّا فما نَدِمْنا ، وهذِه الأَموالُ التي جئتَ بِها بشارةٌ لكَ بِخَلاصي من كلبِ بني ثقيفٍ .

ثُمَّ بعدَ ذلكَ بلغَ أَميرَ المؤمنينَ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ خبرُها ، ووُصِفَ لهُ جمالُها ، فأَرسلَ إليها يخطِبُها ، فأَرسلت إليهِ كتاباً تقولُ فيهِ ـ بعدَ الثَّناءِ عليهِ ـ : اعلَم يا أَميرَ المؤمنينَ . . أَنَّ الإِناءَ ولَغَ فيهِ الكلبُ . =

. . . .

= فلمَّا قرأَ عبدُ الملكِ الكتابَ . . ضحكَ مِن قولِها ، وكتبَ إليها يقولُ : إذا وَلَغَ الكلبُ في إناءِ أحدِكم فليغسلْهُ سبعاً ، إحداهُنَّ بالتُّرابِ ، فأغسلي الإناءَ . . يحِلَّ الاستعمالُ .

فلمَّا قرأَتْ كتابَ أميرِ المؤمنينَ . . لَم يمكنْها المخالَفَةُ ، فكتَبَتْ إليهِ ـ بعدَ الثَّناءِ عليهِ ـ : يا أميرَ المؤمنينَ . . واللهِ لا أُحِلُّ العقدَ إلاَّ بشرطٍ ، فإن قلتَ : ما هوَ الشرطُ ؟ . . قلتُ : أَن يقودَ الحجَّاجُ محملي مِنَ (المعرَّةِ) إلى بلدِكَ التي أنتَ فيها ، ويكونَ ماشياً حافياً بحليَتِهِ التي كانَ فيها أوَّلاً .

فلمَّا قرأَ عبدُ الملكِ ذلكَ الكتابَ . . ضحكَ ضحكاً شديداً ، وأنفذَ إلىٰ الحجَّاجِ ، وأَمَرَهُ بذلكَ ، فلمَّا قرأَ الحجَّاجُ رسالةَ أميرِ المؤمنينَ . . أجابَ وأمتثلَ الأمرَ ، ولَم يُخالِفْ ، وأنفذَ إلىٰ هندٍ يأمرُها بالتجهُّزِ ، فتجهَّزَتْ ، وسارَ الحجَّاجُ في موكبِهِ ، حتَّىٰ وصلَ (المعرَّةَ) بلدَ هندٍ ، فركبَتْ هندٌ في محملِ الزِّفافِ ، وركبَ حولَها جواريها وخدمُها ، وأَخَذَ الحجَّاجُ بزمامِ البعيرِ يقودُهُ ، ويسيرُ بها ، فجعلَتْ هندٌ تتواغَدُ عليهِ ، وتضحَكُ مَعَ الهيفاءِ دايتِها ، ثُمَّ إنَّها قالَت للهيفاءِ : يا دايةُ . . أكشفي لي سجفَ المحملِ ، فكشفتْهُ ، فوقَعَ وجهُها في وجهِ الحجَّاجِ ، فضحكَت عليهِ ، فأنشأَ يقولُ :

فَإِنْ تَضْحَكِيْ مِنِّيْ فَيَا طُوْلَ لَيْلَةٍ   تَـرَكْتُـكِ فِيْهَـا كَـالْقَبَـاءِ الْمُفَـرَّجِ

فأجابَتْهُ هندٌ تقولُ :

وَمَـا نُبَـالِـي إِذَا أَرْوَاحُنَـا سَلِمَـتْ   بِمَـا فَقَـدْنَـاهُ مِـنْ مَـالٍ وَمِـنْ نَشَـبِ
فَـالْمَـالُ مُكْتَسَـبٌ وَالْعِـزُّ مُـرْتَجَـعٌ   إِذَا النُّفُـوْسُ وَقَـاهَـا اللهُ مِـنْ عَطَـبِ

ولَم تزَلْ كذلِكَ تضحَكُ وتلعَبُ ، إلىٰ أن قَرُبَتْ مِن بلدِ الخليفةِ ، فَرَمَتْ بدينارٍ علىٰ الأرضِ ، ونادَتْ : يَا جَمَّالُ . . إنَّهُ قد سقطَ منَّا درهمٌ ، فارفعهُ إلينا ، فنظرَ الحجَّاجُ إلىٰ الأرضِ فلَم يجد إلاَّ ديناراً ، فقالَ : إنَّما هوَ دينارٌ ، فقالَتْ : بل هوَ درْهمٌ ، قالَ : بل دينارٌ ، فقالَتْ : الحمدُ للهِ ، سقطَ منَّا درهَمٌ ، فعوَّضَنَا اللهُ ديناراً ، فخجلَ الحجَّاجُ ، وسكتَ ، ولَم يَرُدَّ جواباً ، ثُمَّ دخلَ بها علىٰ عبدِ الملكِ بن مروانَ فتزوَّجَ بها ، وكانَ مِن أمرِها ما كانَ . واللهُ أَعلَمُ .

وقالَ الشعبيُّ : حضرتُ مجلسَ زيادٍ ، فجاءَ رجلٌ وقالَ : إنَّ لِي حرمةً أيُّها الأميرُ ، أفأذكرُها ؟ قالَ : نعم ، قالَ : رأيتُكَ بالطائفِ وأنتَ غليمٌ ذو ذؤابةٍ ، وقد أحاطَتْ بكَ جماعةٌ مِنَ ٱلغلمانِ ، وأنتَ تركُضُ هٰذا ، وتنطَحُ هٰذا ، وتكدِمُ هٰذا ، وهُم يَنْثالونَ عليكَ مرَّةً ، ويندونَ عنكَ أُخرىٰ ، وأنتَ تَتبعُهم ، حتَّىٰ كاثروكَ ، فحجزْتُ بينَكَ وبينَهم ، وأنتَ سليمٌ ، وكلُّهم جريحٌ ، قالَ : صدقْتَ ، أنتَ ذلكَ الرجلُ ؟ قالَ : أنا ذاكَ ، قالَ : حاجَتُكَ ؟ قالَ : الغنىٰ عَنِ ٱلطَّلَبِ ، فقالَ : يا غلامُ ، أَعطِهِ كلَّ صفراءَ وبيضاءَ عندَكَ ، فلم ينصرفْ إلاَّ بأربعةٍ وخمسينَ ألفَ درهَمٍ ، فقيلَ لهُ بعدَ ذلكَ : أنتَ رأيتَ زياداً وهوَ غلامٌ علىٰ تلكَ الحالِ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولٰكن رأيتُهُ وقد ٱكتنفَهُ صبيَّانِ صغيرانِ ، كأنَّهما من سِخالِ المعْزِ ، فلولا أنِّي أدركتُهُ . . لأتَيا عليهِ .

جعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة

ولمَّا ٱستلحَقَ معاويَةُ زياداً . . قالَ الجاحِظُ : مرَّ وهوَ والي (البصرَةِ) بأبي العريانِ العدويِّ ، وكانَ شيخاً مكفوفاً ، ذا لسانٍ وعارضَةٍ شديدَةٍ ، فقالَ أبو العريانِ : ما هٰذهِ الجَلَبَةُ ؟ قالوا : زيادُ ٱبنُ أبي سفيانَ في موكبِهِ ، قالَ : واللهِ ما تركَ أبو سفيانَ إلاَّ يزيدَ ، ومعاويَةَ ، وعتبَةَ ، وعنبَسَةَ ، وحنظلَةَ ، ومحمَّداً ، فمِن أينَ جاءَ زيادٌ ؟ فبلغَ الكلامُ زياداً ، وقالَ لهُ قائِلٌ : لو سددْتَ عنكَ فمَ هٰذا الكلْبِ ؟ فأرسَلَ إليهِ بمئتَي دينارٍ . . فقالَ لَهُ رسولُ زيادٍ : إنَّ الأميرَ زياداً ٱبنَ عمِّكَ قد بعثَ إليكَ بمئتَي دينارٍ ؛ لتستعينَ بِها علىٰ نفقتِكَ ، قالَ : وصَلَتْهُ رحِمٌ ، أي واللهِ ٱبنُ عمي حقاً ، ثمَّ مرَّ بهِ زيادٌ مِنَ ٱلغَدِ في موكبِهِ ، فوقَفَ عليهِ ، وسلَّمَ ، فبكىٰ أبو العريانِ ، فقيلَ لَهُ : ما يبكيكَ ؟ قالَ : حنَّ في أُذني صوتُ أبي سفيانَ من لسانِ

بئس الرجال من يُشترى بالمال

زيادٍ ؟ فبلغَ ذلكَ معاويَةَ ، فكتبَ إلىٰ أَبي العريانِ [في « ديوانه » ١٢٢ مِنَ البسيطِ] :

مَا أَلْبَثَتْكَ ٱلدَّنَانِيرُ ٱلَّتِي بُعِثَتْ ... أَنْ لَوَّنَتْكَ أَبَا ٱلْعُرْيَانِ أَلْوَانَا
أَمْسَىٰ إِلَيْكَ زِيَادٌ فِي أَرُومَتِهِ ... نُكْراً فَأَصْبَحَ مَا أَنْكَرْتَ عِرْفَانَا
للهِ دَرُّ زِيَادٍ لَوْ تَعَجَّلَهَا ... كَانَتْ لَهُ دُونَ مَا يَخْشَاهُ قُرْبَانَا!

فلمَّا قُرِىءَ كتابُ معاويَةَ علىٰ أَبي العُريانِ . . قالَ : اكتب في جوابِهِ يا غلامُ [مِنَ البسيطِ] :

أَحْدِثْ لَنَا صِلَةً تُحْيِي ٱلنُّفُوسَ بِهَا ... قَدْ كِدْتَ يَا ٱبْنَ أَبِي سُفْيَانَ تَنْسَانَا
أَمَّا زِيَادٌ فَقَدْ صَحَّتْ مَنَاسِبُهُ ... عِنْدِي فَلا أَبْتَغِي فِي ٱلْحَقِّ بُهْتَانَا
مَنْ يُسْدِ خَيْراً يُصِبْهُ حِيْنَ يَفْعَلُهُ ... أَوْ يُسْدِ شَرّاً يُصِبْهُ حَيْثُمَا كَانَا

يغيِّر رأيه في الرجل . . بمجرد هدية

ولمَّا وليَ الحسنُ بنُ عمارَةَ المظالِمَ . . قالَ الشعبيُّ : ظالمٌ ابنُ ظالِمٍ يتولَّىٰ المظالِمَ ، فاتصلَتْ بالحسَنِ ، وثقلَ عليهِ أَنْ يحطَّ مِنْ قدرِهِ عالِمُ المصرِ ، فأَهدىٰ إليهِ رِزْمَةً مِنَ ٱلثِّيابِ ، فيها صُرَّةٌ مِنَ ٱلذَّهَبِ ، ودسَّ من يُجْري ذكرَهُ بمجلسِهِ ، فقالَ : أَمَا واللهِ لَقد زانَ الوظيفَةَ ، ولم تزِنْهُ ، فقالوا لَهُ : بالأَمسِ تقولُ كَذا ، واليومَ هـٰذا قولُكَ ؟! فقالَ : إِنَّهُ أَهدىٰ إلينا ، وقد جُبِلَتِ ٱلقلوبُ علىٰ حُبِّ مَن أَحسنَ إِليها ، فقالوا : الهديَّةُ مشترَكَةٌ ، قالَ : ذاكَ حيثُ كانَتِ ٱلهَدايا اللَّبَنُ والجبنُ والأَقِطُ . ذكرَها الغزاليُّ في « الإِحياءِ » وغيرُهُ .

النفاق والمداهنة ليس أمراً حديثاً

وما زالتِ الدنيا مملوءَةً نِفاقاً ، إلاَّ أَنْ يخِفَّ وطأَةً بما يداخلُهُ مِنَ ٱلتَّظَرُّفِ ، كما في أَحاديثِ هـٰؤلاءِ ، بخلافِ المتصنعينَ الذينَ يخادعونَ اللهَ وعبادَهُ ، بل يخادعونَ حتَّىٰ أَنفسَهم ، وقد صانَ اللهُ

قريشاً فيما سلفَ عَنِ ٱلنفاقِ ، فَلا تجدُ عندَهم إلاَّ كفراً صريحاً ، أَو إيماناً صحيحاً ، أَمَّا اليومَ . . فلا تجدُ الكذبَ والغدرَ ، وسوءَ المعاملَةِ ، وإظهارَ الصداقَةِ ، وإضمارَ العداوَةِ . . أَكثرَ ما يكونُ إلاَّ عندَهم ، ومعاذَ اللهِ أَن أَقولَ ما ليسَ لي بهِ علْمٌ ، فأَعُمَّ سائِرَهم في مشارِقِ الأَرضِ ومغارِبِها ، وإنَّما أَخُصُّ بحُكْمي من جرَّبتُهُ مِن أَهلِ بلادِنا ، ولا أَقولُ هـٰذا إلاَّ مَعَ ٱحتراقِ الضميرِ ، وحسرَةِ القلبِ ، ولـٰكنَّ الحقيقَةَ فوقَ كلِّ شيءٍ ، وَهَبْني وارِبْتُ ، فلن أَستفيدَ إلاَّ التكذيبَ بعدَ ٱنكشافِ الأَمرِ وٱتضاحِ الحالِ .

ومِنَ ٱلنوادِرِ عندَنا ، أَنَّهم وقتَما كانوا يعمِّرونَ الرباطَ بـ(تريمَ) ، كانَ السيِّدُ عبدُ القادرِ بنُ أَحمدَ الحدَّادُ مِن جملَةِ القائمينَ فيهِ ، وكانَ السيِّدُ عليُّ بنُ حسنٍ الحدَّادُ ـ صاحبُ المقامِ لذلكَ العهدِ ـ مِنَ ٱلْمنكرينَ ، قالَ : لأَنَّهُ ليسَ مِن فعلِ السلفِ ، ولأَنَّهُ ممَّا لا تخلصُ النيَّةُ فيهِ لطلبِ العلمِ ، فوردَ السيِّدُ عبدُ اللهِ بنُ محسنِ بنِ جعفرٍ الحبشيُّ إلىٰ (تريمَ) ، وباتَ عندَ السيِّدِ عبد القادرِ ، فقالَ لَهُ : لقد رأَيتُ الفقيهَ المقدَّمَ ، والسقَّافَ ، والمحضَارَ ، والعيدَروسَ ، كلُّ واحدٍ حاملٌ لَبِنَةً يضعُها علىٰ ركنٍ مِن أَركانِ الرباطِ ، ثمَّ عاجَ[1] إلىٰ عندِ السيِّدِ عليِّ بنِ حسنٍ ، وقالَ لَهُ : لَقد رأَيتُ البارحَةَ أَربعةً مِنَ ٱلشياطينِ ، كلُّ واحدٍ يبولُ إلىٰ زاويَةٍ من زوايا الرباطِ .

عودة إلى المديح

ولنعد إلىٰ ما يتعلَّقُ بالبيتِ ، فنقولُ : لقد قصَّرَ حسَّانُ في

---

(١) عاجَ : عطفَ ومالَ إليهِ .

مدحِهِ ﷺ إذ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٤١ مِنَ الوافرِ] :

وَأَحْسَنَ مِنْكَ لَمْ تَرَ قَطُّ عَيْنِي وَأَجْمَلَ مِنْكَ لَمْ تَلِدِ ٱلنِّسَاءُ
خُلِقْتَ مُبَرَّأً مِنْ كُلِّ عَيْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ خُلِقْتَ كَمَا تَشَاءُ

ولـٰكنَّهُ جهدُ المقلِّ ، إذ كلُّ مدحٍ تقصيرٌ فيهِ ، غيرَ أَنَّ ما لا يستطاعُ كلُّهُ . . لا يترَكُ كلُّهُ ، وما أَسوأَ أَدبَ أَبي تمَّامٍ في نقلِهِ معنىٰ البيتِ الأخيرِ إلىٰ مَن لا يستحِقُّ ، حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٠٦ مِنَ الوافرِ] :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَزِدْهَا عَلَىٰ مَا فِيْكَ مِنْ كَرَمِ ٱلطِّبَاعِ

ولئِن وقعتُ في قريبٍ منهُ ، إذ رثيتُ ولَدي بصريَّ . . فعذري فيهِ أَنَّهُ مِن تلكَ النبعَةِ ؛ وَأَنَّهُ لم يبلغِ الحلُمَ ، مع شهادَةِ العيانِ والحسِّ بما قلْتُ فيهِ مِنَ ٱلطهارَةِ .

وقالَ بعضُهم : يمدحُ أَوسَ بنَ حارثَةَ بنَ لأمٍ [في « ثمار القلوب » ١/ ١١٩ مِنَ الوافرِ] :

إِلَىٰ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لأْمٍ لِيَقْضِيَ حَاجَتِيْ فِيْمَنْ قَضَاهَا
فَمَا وَطِئَ ٱلْحَصَىٰ مِثْلُ ٱبْنِ سَعْدَىٰ وَلاَ لَبِسَ ٱلنِّعَالَ وَلاَ ٱحْتَذَاهَا

وكانَ قد ظفرَ بهِ بعدَ هجاءٍ لهُ منه(١) ، فأَطلقَهُ بإِشارةِ أُمِّهِ ؛ إذ قالَ

(١) كانَ أَوسُ بنُ حارِثَةَ مِن أَجوادِ العربِ وكانَ يضاهي حاتِماً في الجودِ ، وكانَ مِن أَمرِهِ : أَنَّ النُّعمانَ بنَ المنذرِ دعا بحلَّةٍ نفيسةٍ وعندَهُ وفودُ العرَبِ مِن كُلِّ حيٍّ ، وفيهم أَوسٌ ، فقالَ لهم : احضروا غداً ؛ فإِنِّي ملبسٌ هذهِ الحُلَّةَ أَكرمَكُم ، فحضرَ القومُ إلاَّ أَوساً ، فقيلَ لَهُ : لِمَ تتخلَّفُ ؟ فقالَ : إنْ كانَ المرادُ غيري . . فأَجملُ الأَشياءِ بي أَن لا أَكونَ حاضراً ، وإِنْ كنتُ المرادَ فسأُطلَبُ ، فلمَّا جلسَ=

[كما في « المثل السائر » ٢/ ١١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَهَبْ لِيَ حَيَاتِيَ وَٱلْحَيَاةُ لِقَائِمٍ يَسُرُّكَ فِيهَا حِينَ مَا أَنْتَ وَاهِبُ
سَأَمْحُو بِمَدْحٍ فِيكَ إِذْ أَنَا صَادِقٌ كِتَابَ هِجَاءٍ سَارَ إِذْ أَنَا كَاذِبُ

وما أدري بصاحبِ الشعرِ ، أهوَ الحطيئةُ ، أم بشرُ بنُ أبي خازمٍ ؟ فقد جرىٰ لَهُ معَ كلٍّ نحوٌ ممَّا ذكرناهُ .

وقلَّما تقدَّمَ الناظِمُ لأحدٍ بمدحَةٍ . . إلاَّ أقطعَهُ جانبَ التفرُّدِ ، كما سبقَت الإشارَةُ إلىٰ بعضِ شعرِهِ في مثلِهِ عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ١/ ٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيقَةُ لِيْ أَنَّكَ يَا ٱبْنَ ٱلنَّبِيِّ أَوْحَدُهَا

مِنَ ٱلمجلسِ الثالثِ ، وأقطعُ ما فيهِ قولُهُ [في « العُكبريِّ » ٤/ ١١ مِنَ الكاملِ] :

= النُّعمانُ ولم يرَ أوساً . . قالَ اذهبوا إلىٰ أوسٍ فقولوا لهُ : احضر آمناً مِمَّا خفتَ ، فأُلبسَ الحُلَّةَ ، فحسدَهُ قومٌ مِن أهلِهِ ، فقالوا للحطيئَةِ : اهجُهُ ولكَ ثلاثُ مئةِ ناقةٍ ، فقالَ : كيفَ أهجو مَن لا أرىٰ في بيتي أثاثاً ولا رياشاً ولا مالاً إلاَّ مِن عندِهِ ، ثُمَّ قالَ :

كَيْفَ ٱلْهِجَاءُ وَمَا تَنْفَكُّ صَالِحَةٌ مِنْ آلِ لأْمٍ بِظَهْرِ ٱلْغَيْبِ تَأْتِينِي

فقالَ لَهم بشرُ ابنُ أبي خازمٍ : أنا أهجوهُ لكم ، وفعَلَ ، فأخذَ الإبلَ ، فأغارَ أوسٌ عليها ، واكتسحَها ، وطلَبَهُ ، فجعلَ لا يستجيرُ حيّاً مِن أحياءِ العربِ إلاَّ قالوا لهُ : قد أجرناكَ مِنَ الجِنِّ والإنسِ إلاَّ مِن أوسٍ ، فكانَ في هجائِهِ إيَّاهُ ذكَرَ أُمَّهُ ، فلَم يلبَث إلاَّ يسيراً حتَّىٰ أُتِيَ بهِ أسيراً ، فدخلَ أوسٌ إلىٰ أُمِّهِ ، واستشارَها في أمرِهِ ، فقالَت : أرىٰ أن ترُدَّ عليهِ مالَهُ ، وتعفوَ عنهُ ، وتحبوَهُ ، وأفعلُ أنا مثلَ ذلكَ ، فإنَّهُ لا يغسلُ هجاءَهُ إلاَّ مديحُهُ ، فأخبرَهُ بما قالَتْ ، فقالَ : لاَ جَرَمَ ، واللهِ لا مدحتُ أحداً حتَّىٰ أموتَ غيرَكَ ، فقالَ الأبياتَ (إلَىٰ أَوْسِ بْنِ حَارِثَةَ بْنِ لأْمٍ . . .) . انظر « ثمار القلوب » (١/ ١١٩) .

إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنٌ   فَبَـرِئْـتُ حِيْنَئِـذٍ مِـنَ ٱلإِسْـلاَمِ

وإِنِّي لأعجبُ مِن سكوتِ سيفِ الدولةِ علىٰ مثلِ هٰذا ، ولٰكِنْ قَدْ عرَّفناكَ أَحوالَ الملوكِ .

موقف رجولي للمأمون

وقدِ ٱتفقَ للمأمونِ العبَّاسيِّ [كما في « الأغاني » ١١/٣٤١] أَنْ عزلَ قاضيَ (دمشقَ) [وهو عبد الله بن محمد الخلنجي] لمَّا غنَّاهُ علُّويَه بقولِهِ [أي الخلنجي مِنَ الطَّويلِ] :

بَرِئْتُ مِنَ ٱلإِسْلاَمِ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِيْ   أَتَاكَ بِهِ ٱلْوَاشُوْنَ عَنِّيْ كَمَا قَالُوْا
وَلٰكِنَّهُـمْ لَمَّـا رَأَوْكَ سَـرِيْعَـةً   إِلَيَّ تَوَاصَوْا بِٱلنَّمِيْمَةِ وَٱحْتَالُوْا

فحلفَ القاضي أَنَّهُ [قاله مذ كان حدثاً وأنه] منذُ ثلاثينَ[1] سنةً لم ينظِم إلاَّ في الزهدِ ، قالَ المأمونُ : مَهما يكُن مِنَ ٱلأَمْرِ . . فلن أَجعلَ علىٰ رقابِ المسلمينَ مِن يبدأُ في هزلِهِ بالبراءَةِ مِنَ ٱلإِسلامِ .

ولعلَّهُ لم يثِقْ مِن حسنِ نيَّتِهِ ، وإلاَّ . . فالتوبةُ الصادقةُ تغسِلُ ما قبلَها ، ولا سيَّما بعدَ ٱنقضاءِ مدَّةِ الاستبراءِ ، أَو جرىٰ علىٰ عادَةِ الملوكِ مِنَ ٱلتَّجنِّيْ علىٰ عظماءِ الرجالِ ، وٱفتجارِ العيوب لَهم ، لتشفيَ ضَبابَ حقدِها عليهِم ، بما يقولونَ مِنَ ٱلحقِّ ، مِن حيثُ تظنُّ أَنَّ الناسَ لا يطَّلِعونَ علىٰ سوءِ نواياهم ، وخبثِ غوائِلِهم ، ولا يعدَمونَ مِن علماءِ السوءِ مَن يزيِّنُ لَهم ذلكَ ، ويساعدُهم عليهِ .

---

(١) في « الأغاني » : (منذ عشرين سنةً) .

وكانَ يقالُ [كما في «المستطرف» ١/٥٠ من قول الفضيل بن عياض] : شرٌّ شر العلماء.. علماء الملوك العلماءِ علماءُ الملوكِ .

وقلَّما ذهبَ عظيمٌ مع شفراتِ سيوفِهِم إلاَّ مظلوماً ، يجبُ أن نتحرَّىٰ في كلام المؤرِّخينَ عنهُ ؛ لأنَّهم لا يكتبونَ إلاَّ تحتَ الرَّغبَةِ والرَّهبةِ ، أَو مقلِّدونَ لِمَن يكتبُ تحتَ ذلكَ التأثيرِ ، وهوَ ممَّا تُعلَّلُ بهِ رواياتُ الثقاتِ ، فضلاً عمَّن لَم يَرَحْ رائِحَةَ العَدالَةِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا ذَا ٱلَّذِيْ يَهَبُ ٱلْجَزِيْلَ وَعِنْدَهُ	أَنِّـيْ عَلَيْـهِ بِـأَخْـذِهِ أَتَصَـدَّقُ

شرح المطلع

يقولُ : إنَّ ممدوحَهُ يعطي العطاءَ الجزيلَ ، ويرىٰ المنَّةَ للآخِذِ ، وقالوا [في « العكبري » ٢/٣٣٩] : إنَّ أَصلَهُ قولُ زهيرٍ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـرَاهُ إِذَا مَـا جِئْتَـهُ مُتَهَلِّـلاً كَأَنَّكَ تُعْطِيْهِ الَّذِيْ أَنْتَ سَائِلُهْ

والفرقُ واضحٌ ، فبيتُ الناظِمِ أَبلغُ مدحاً ، وأَشرفُ معنىً ، وأَراهم يطنبونَ في الثناءِ علىٰ بيتِ زهيرٍ ، ويدَّعي بعضُهم أَنَّهُ أَمدحُ بيتٍ قالتهُ العربُ ، وعندي أَنَّهُ ليسَ هناكَ ؛ لأنَّ الفرحَ بالأَخذِ ليسَ في شيءٍ مِنَ ٱلشرفِ ، ففي ذكرِهِ حطٌّ مِنَ ٱلمقامِ ، وتقصيرٌ بالممدوحِ ، فالبيتُ بالذمِّ أَشبهُ منهُ بالمدحِ ، ويقربُ منهُ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

تُمْسِيْ ٱلأَمَانِيُّ صَرْعَىٰ دُوْنَ مَبْلَغِهِ فَمَا يَقُوْلُ لِشَيْءٍ : لَيْتَ ذٰلِكَ لِيْ

أَمَّا قولُ الناظِمِ : (وَعِنْدَهُ أَنِّيْ عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ) . . فمِن أَبلغِ المدحِ ؛ إذ يشهدُ بٱنطباعِ الممدوحِ علىٰ الجودِ ، فكأَنَّهُ لِمَا يجدُ مِن عظيمِ لذَّةِ الإحسانِ . . يرىٰ المنَّةَ للآخِذِ ؛ إذ لَولاهُ لَمَا حصلَتْ لَهُ تلكَ اللَّذةُ ، وفي الموضوعِ أَبياتٌ لأَبي دُلَفٍ العجليِّ ، تأْتي إن شاءَ اللهُ أَوَّلَ المجلسِ الخامِسَ عشرَ عندَ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

أَمطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً ... وَٱنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لاَ أَغْرَقُ

ومنهُ قولُهُ عن سيفِ الدولَةِ [في « العُكبريّ » ١/ ٩٩ مِنَ المتقاربِ] :

[إِذَا حَازَ مَالاً فَقَدْ حَازَهُ] ... فَتىً لاَ يُسَرُّ بِمَا لاَ يَهَبْ

ولو أَنَّ زهيراً قالَ عن ممدوحِهِ : إِنَّهُ يفرحُ بالبذْلِ ، كَما يفرحُ المحتاجُ بالأَخذِ . . لأَصابَ ، وقد قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَسَائِلَ نَصْرٍ لاَ تَلُمْهُ فَإِنَّهُ ... أَحَنُّ إِلَىٰ ٱلإِرْفَادِ مِنْكَ إِلَىٰ ٱلرِّفْدِ[1]

وقالَ أَبو نوفلٍ عمرو بنُ محمَّدٍ الثقفيُّ [مِنَ الكاملِ] :

وَلَئِنْ فَرِحْتَ بِمَا يُنِيلُكَ إِنَّهُ ... لَبِمَا يُنِيلُكَ مِنْ نَدَاهُ أَفْرَحُ

مَا زَالَ يُعْطِيْ نَاطِقاً أَوْ صَامِتاً ... حَتَّىٰ ظَنَنْتُ أَبَا عَقِيْلٍ يَمْزَحُ

صور رائعة من الجود والإيثار على النفس

وذُكِرَ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣٤٩] : أَنَّ الواقديَّ المفسِّرَ كانَ لَهُ صديقانِ ، أَحدُهما هاشميٌّ ، فجاءَ عيدٌ ولَم يكنْ عندَهُ إِلاَّ خمسُ مئةِ درهمٍ ، فبينا هوَ يتآمَرُ وٱمرأَتُهُ فيما يأخذونَ بها للعيدِ . . جاءَهُ كتابٌ مِن صديقِهِ الهاشميِّ يستسلفُهُ ، ويخبرُهُ بحاجتِهِ ، فقالَ لامرأَتِهِ : إِنْ أعطيناهُ إِيَّاها . . بقينا بلا شيءٍ ، وإِن قسمْناها . . لم تنْفَعنا ولم تنفعهُ ، قالَتْ : بَل أَعطِهِ إِيَّاها ، ويَكفينا التلذُّذُ بالإِيثارِ ، فدفعَها لخادمِهِ ، وما كانَ بأَسرعَ مِن أَن رجعَتْ لَهُ الصرَّةُ بختمِها ، وذلكَ أَنَّهُ بعدَ ما بعثَ بها للهاشميِّ ، كتبَ لصديقِهِ الآخرِ يستميحُهُ ويستعينُهُ ، فكتبَ ذاكَ للهاشميِّ ، فبلغَت القصَّةُ إِلىٰ المأْمونِ ، فأَعظمَ

---

(١) الإرفادُ : الإعطاءُ . الرفدُ : العطاءُ .

مروءَتهم ، وبعثَ إليهم بسبعَةِ آلافِ دينارٍ ، للمرأَةِ أَلفٌ ، ولكلٍّ أَلفانِ ، وعنديَ أَنَّهُ قصَّرَ في حقِّ المرأَةِ التي هيَ أَصلُ تلكَ الأُكرومَةِ ، وموضعُ المناسبَةِ في قولِها : تكفينا لذَّةُ الإيثارِ .

وهٰذهِ لا تبعدُ عمَّا يروىٰ عَن حذيفَةَ العدويِّ [في « المستطرف » ٣٤٣/١] : فإنَّهُ انطلقَ يومَ اليرموكِ يطلبُ ابنَ عمٍّ لَهُ في القتلىٰ ، ومعَهُ شيءٌ مِنَ الماءِ ، وقالَ : إن كانَ بهِ رَمَقٌ . . سقيتُهُ ، فأدركَهُ بينَ الشهداءِ ، فلمَّا أَرادَ سقيَهُ . . إذا برجلٍ يئِنُّ ، فأَشارَ إليهِ ابنُ عمِّهِ أَن يؤثرَهُ بالماءِ ، فانطلقَ إليهِ فإذا هوَ الحارثُ بنُ هشامٍ ، فقالَ لَهُ : أَسقيكَ ، فأَشارَ عليهِ أَن يؤثرَ بهِ عكرمةَ بنَ أَبي جهلٍ وكانَ يتشحَّطُ في دمِهِ ، فجاءَ إلىٰ عكرمةَ فوجدَهُ قد ماتَ ، فرجَعَ إلىٰ الحارثِ بنِ هشامٍ فإذا هوَ قد فاضَ ، وعادَ إلىٰ ابنِ عمِّهِ فإذا هُوَ باردٌ .

ومِن هٰذا القبيلِ كانَتْ أُكرومَةُ كعبِ بنِ مامَةَ ، التي كتبَها لَهُ الشرفُ علىٰ جبهَةِ الزمانِ بحروفٍ مِنَ النورِ(١) .

وقالَ الأَصمعيُّ : قصدْتُ يوماً رجلاً كنتُ أَغشاهُ لكرمِهِ ، فأَلفيتُهُ قدِ احتجبَ وانقطعَ ؛ لرقَّةِ حالِهِ ، ويبوسَةِ عيشِهِ ، فكتبتُ إليهِ رقعةً أَقولُ فيها [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ لَهُ حِجَابٌ ... فَمَا فَضْلُ الْكَرِيمِ عَلَىٰ اللَّئِيمِ

فعادَ بها الحاجبُ ، وقد وقَّعَ عليها [مِنَ الوافرِ] :

إِذَا كَانَ الْكَرِيمُ قَلِيلَ مَالٍ ... تَسَتَّرَ بِالْحِجَابِ عَنِ الْغَرِيمِ

---

(١) والمأثرَةُ : هي أَنَّهُ كانَ يسيرُ في الصحراءِ معَ رفيقٍ لَهُ ، وكانَ معَهُ سقاءٌ فيهِ ماءٌ لا يفضُلُ عنهُ ، ولهُ رفيقٌ ، فسقاهُ ، وماتَ عطشاً . انظر « صبح الأعشى » (٣٩٠/١) .

ومعهُ صرَّةٌ فيها خمسُ مئةِ دينارٍ ، فقلتُ : واللهِ لأُتحفنَّ بهٰذا الحديثِ المأمونَ ، فما مرَّ بهِ مثلُهُ ، فلمَّا رآني . . قالَ : مِن أينَ أقبلتَ ؟ قلتُ : مِن عندِ أكرمِ الأحياءِ بعدَ أميرِ المؤمنينَ ، وشرحتُ لهُ الحديثَ ، ولمَّا أطلعتُهُ علىٰ الصرَّةِ . . اربدَّ وجهُهُ ، وقالَ : خاتَمُ بيتِ مالي ، ولا بدَّ لي مِنَ الرجلِ الذي دفعَها إليكَ ، فقلتُ : علىٰ شريطَةِ أَن لا يروَّعَ ، فلمَّا حضَرَ بينَ يديهِ . . عرفَهُ ، وقالَ لهُ : ألستَ أنتَ الذي تعرَّضتَ ليَ بالأمسِ ، وشكوتَ رقَّةَ حالِكَ ، فدفعتُ إليكَ هٰذهِ الصرَّةَ لتُصلحَ بِها شأنَكَ ، فقصدَكَ الأصمعيُّ ببيتٍ مِنَ الشِّعْرِ فدفعتَها إليهِ ؟! فقالَ : واللهِ يا أميرَ المؤمنينَ ، ما كذبتُ فيما شكوتُهُ مِن رقَّةِ الحالِ ، وصعوبةِ الزمانِ ، ولٰكنِ استحيَيْتُ أَنْ أُعيدَ قاصِدي إلاَّ بِما جُبلَ عليهِ طَبعي ، فقالَ لهُ المأمونُ : للهِ أبوكَ ، ما ولدتِ العربُ مثلَكَ ، وأمرَ لهُ بألفِ دينارٍ ، قالَ الأصمعيُّ : فقلتُ لهُ : ألحقْني بهِ يا أميرَ المؤمنينَ ، فتبسَّمَ وأمرَ بأَن يكمَّلَ لِيَ الألفُ ، ولعلَّ هٰذا الحديثَ كانَ قبلَ قصَّةِ الواقديِّ ، وإلاَّ . . ضاعَ قولُ الأصمعيِّ : فما مرَّ بهِ مثلُهُ .

حكم الفقهاء في الإيثار

وإذ قدِ انتهىٰ بِنا الكلامُ إلىٰ هُنا . . فلنذكُرْ كلامَ الفقهاءِ في الإيثارِ ، فإنَّ لَهم عبارتينِ :

الأولىٰ قولُهم : يجوزُ للمضطرِّ إيثارُ مضطرٍّ آخرَ مسلمٍ .

والثانيةُ قولُهم : يحرمُ علىٰ عطشانَ إيثارُ عطشانَ آخرَ .

قالَ ابنُ حجرٍ : والأولىٰ محمولةٌ علىٰ مَن يصبر على الإضاقة . والثانية محمولة على من لا يصبرُ عليها ، وأمَّا ما يحتاجُهُ الإنسانُ لنفقَةِ مَن تلزمُهُ نفقتُهُ ، أو لدَينٍ لا يرجو لهُ وفاءً . . فإنَّهُ لاَ يجوزُ

التصدُّقُ بهِ ، ولِمن خرجَ مِنَ السلفِ عَن جميعِ مالِهِ في سبيلِ اللهِ مَحامِلُ، لا حاجَةَ لأَنْ نطيلَ فيها، وأَحسنُها عنديَ الثقةُ بقربِ الخَلَفِ ، وقد وفَّيتُ البحثَ حقَّهُ في « حاشيتي على الشمائِلِ» حينَما تكلَّمتُ في الأَنصاريِّ الذي آثرَ ضيفَ رسولِ اللهِ علىٰ عيالِهِ[1] ، ونزلَ فيهِ : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

الجود المطبوع في النفس

وممَّا يتعلَّقُ بالجودِ المطبوعِ قولُ الفقيهِ عُمارَةَ اليمنيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ رَاحَـةٌ يَنْهَـلُّ جُـوْداً بَنَـانُهَـا ... وَوَجْـهٌ إِذَا قَـابَلْتَـهُ يَتَهَلَّـلُ

يَرَىٰ ٱلْحَقَّ لِلضِّيفَانِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ ... عَلَيْهِمْ ـ وَحَاشَا قَدْرُهُ ـ يَتَطَفَّلُ

وقالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

أَعْطَيْتَ حَتَّىٰ لَمْ تَدَعْ لَكَ سَائِلاً ... وَبَدَأْتَ إِذْ قَطَعَ ٱلْعُفَاةُ سُؤَالَهَا[2]

فسرقَهُ أَبو عُبادَةَ سرقَةً مكشوفَةً علىٰ ضوءِ الشمسِ . حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

جَادَ حَتَّىٰ أَفْنَىٰ ٱلسُّؤَالَ وَلَمَّا ... بَـادَ مِنَّـا ٱلسُّؤَالُ أَعْطَـىٰ ٱبْتِـدَاءَ

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة البخاري (٣٧٩٨) في مناقب الأنصار . وأورد السيوطي في « أسباب النزول » (ص/ ٢٣٠) أنه أخرجه مسدد في « مسنده » وابن المنذر عن أبي المتوكل الناجي أن الذي أضاف هو ثابت بن قيس . وفي « الفتح » (٧/ ١١٩) عن ابن التين كذلك ، وابن بشكوال مرسلاً كما أنه ذكر أنه عبد الله بن رواحة من غير مستند ، وجزم الخطيب أنه أبو طلحة ، وليس هو لرواية مسلم له ولكنه قال : أظنه غير أبي طلحة زيد بن سهل ؛ لأنه كان من أكثر الصحابة مالاً ، والله أعلم .

(٢) العُفاةُ : المحتاجونَ المُعوِزونَ .

ولقد أَحسنَ ٱبن نباتَةَ السعديُّ في قولِهِ لسيفِ الدولَةِ [في «ديوانه» ٤١١ مِنَ البسيطِ] :

لَمْ يُبْقِ جُوْدُكَ لِيْ شَيْئاً أُؤَمِّلُهُ   تَرَكْتَنِيْ أَصْحَبُ ٱلدُّنْيَا بِلاَ أَمَلِ

وقالَ ٱبنُ بابكَ في الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ [مِنَ البسيطِ] :

فَحُسْنُ ظَنِّكَ بِيْ ٱسْتَوْفَىٰ مَدَىٰ أَمَلِيْ   وَحُسْنُ رَأْيِكَ بِيْ لَمْ يُبْقِ لِيْ أَمَلاَ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٦٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ يَعْلَمُ ٱلْعَافُوْنَ مَا لَكَ فِيْ ٱلنَّدَىٰ   مِـنْ لَـذَّةٍ وَقَـرِيْحَـةٍ لَـمْ تُحْمَـدِ

وهوَ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ١/ ١١١ مِنَ الخفيفِ] :

لَيْـسَ يُعْطِيْـكَ لِلـرَّجَـاءِ وَلِلْخَوْ   فِ وَلَٰكِـنْ يَلَـذُّ طَعْـمَ ٱلْعَطَـاءِ

وقالَ أَشجعُ السلميُّ يمدَحُ الفضلَ بنَ الربيعِ [في « ديوانهِ » ٢٠٢ مِنَ الكاملِ] :

أَوْصَلْتَنِيْ وَرَفَدْتَنِيْ وَكِلاَهُمَا   شَرَفٌ فَقَأْتُ بِهِ عُيُوْنَ ٱلْحُسَّدِ
وَكَفَيْتَنِـيْ مِـنَ ٱلـرِّجَـالِ بِنَـائِـلٍ   أَغْنَىٰ يَدِيْ عَنْ أَنْ تُمَدَّ إِلَىٰ يَدِ

نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي.. رجل وفي

وبالبيتِ الأَخيرِ ذكرتُ أَنَّ المنصورَ العبَّاسيَّ وجَّهَ إِلىٰ شيخٍ كانَ مِن بطانَةِ هشام بنِ عبدِ الملكِ ، فسأَلَهُ عَن تدبيرِهِ ؟ فوصَفَ حالَهُ ، وأَكثرَ مِنَ ٱلترحُّمِ عليهِ ، كلَّما جرىٰ ٱسمُهُ ، فقالَ لَهُ المنصورُ [في « المستطرف » ١/ ٤٣٩] : قُمْ عليكَ لعنةُ اللهِ ، تطأُ بساطي وتترحَّمُ علىٰ عدوِّي ، قالَ الشيخُ : إِنَّ نعمتَهُ قلادَةٌ في عُنُقي ، لا ينزِعُها إِلاَّ غاسِلي ، فقالَ لهُ المنصورُ : ٱرجِعْ ، أَشهدُ أَنَّكَ لنهيضُ حرةٍ ، وغِراسُ شريفٍ ، عُدْ إِلىٰ حديثِكَ ، فعادَ إِلىٰ ما كانَ ٱستطعمَهُ مِن

سيرَةِ هشامٍ ، حَتَّىٰ إِذا فرغَ . . دَعا لهُ بمالٍ ، فقالَ : واللهِ يا أَميرَ المؤمنينَ ما بي حاجَةٌ إِليهِ ، ولقد ماتَ عنِّي مَن كنتُ في ذكرِهِ ، وما أَحوجَني إِلىٰ أَحدٍ بعدَهُ ، ولَولا جلالَةُ أَميرِ المؤمنينَ . . ما لبستُ لأَحدٍ بعدَهُ نعمَةً ، فقد أَغنىٰ يدي عَن أَن تُمدَّ إِلىٰ يدٍ ، فقالَ المنصورُ : مُت إِذا شِئتَ ، فللَّهِ أَنتَ ، لَو لَم يَكُن لقومِكَ غيرُكَ . . لكنتَ قد أَبقيتَ لَهم مجداً متلَّداً مخلَّداً .

المرثية التائية لابن الأنباري . . قمة في الوفاء

ويتَّصِلُ بهـٰذِه الحكايَةِ ما ذكرَهُ ابنُ عساكرَ في « تاريخِ دمشقَ » [وابن عماد الحنبلي في « شذرات الذهب » ٢/ ٦٣ـ٦٤] : أَنَّ ابنَ الأَنبارِيِّ لَمَّا صنعَ المرثِيَّةَ التائِيَّةَ[1] في الوزيرِ ابنِ بقيَّةَ . . رماها بشوارِعِ (بغدادَ) ،

---

(١) والقصيدة هي [من الوافر] :

عُلُوٌّ فِي الْحَيَاةِ وَفِي الْمَمَاتِ ... لَحَقٌّ تِلْكَ إِحْدَىٰ الْمُعْجِزَاتِ
كَأَنَّ النَّاسَ حَوْلَكَ حِيْنَ قَامُوا ... وُفُوْدُ نَدَاكَ أَيَّامَ الصِّلاَتِ
كَأَنَّكَ قَائِمٌ فِيْهِمْ خَطِيْباً ... وَكُلُّهُمُ قِيَامٌ لِلصَّلاَةِ
مَدَدْتَ يَدَيْكَ نَحْوَهُمُ احْتِفَاءً ... كَمَدِّهِمَا إِلَيْهِمْ بِالْهِبَاتِ
وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ الأَرْضِ عَنْ أَنْ ... يَضُمَّ عُلاَكَ مِنْ بَعْدِ الْوَفَاةِ
أَصَارُوْا الْجَوَّ قَبْرَكَ وَاسْتَعَاضُوا ... عَنِ الأَكْفَانِ ثَوْبَ السَّافِيَاتِ
لِعُظْمِكَ فِي النُّفُوْسِ بَقِيْتَ تُرْعَىٰ ... بِحُرَّاسٍ وَحُفَّاظٍ ثِقَاتِ
وَتُوْقَدُ حَوْلَكَ النِّيْرَانُ لَيْلاً ... كَذَلِكَ كُنْتَ أَيَّامَ الْحَيَاةِ
رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ ... عَلاَهَا فِي السِّنِيْنِ الْمَاضِيَاتِ
وَتِلْكَ قَضِيَّةٌ فِيْهَا تَأَسٍّ ... تُبَاعِدُ عَنْكَ تَعْيِيْرَ الْعُدَاةِ
وَلَمْ أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعاً ... تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ الْمَكْرُمَاتِ
أَسَأْتَ إِلَىٰ النَّوَائِبِ فَاسْتَثَارَتْ ... فَأَنْتَ قَتِيْلُ ثَأْرِ النَّائِبَاتِ
وَكُنْتَ تُجِيْرُ مِنْ صَرْفِ اللَّيَالِي ... فَصَارَ مُطَالِباً لَكَ بِالتِّرَاتِ
وَصَيَّرَ دَهْرُكَ الإِحْسَانَ فِيْهِ ... إِلَيْنَا مِنْ عَظِيْمِ السَّيِّئَاتِ
وَكُنْتَ لِمَعْشَرٍ سَعْداً فَلَمَّا ... مَضَيْتَ تَفَرَّقُوا بِالْمَنْحَسَاتِ=

فتداولَتْها الأيدي ، حَتَّىٰ وصلَتْ إلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا أُنشدَتْ بينَ يديهِ . . تمنَّىٰ أَن يكونَ هوَ المصلوبَ دونَهُ ، وقالَ : عليَّ بهٰذا الرجُلِ ، فطلبوهُ سنةً كاملةً ، حَتَّىٰ رسَمَ لَهُ الصاحِبُ بنُ عبَّادٍ بالأَمانَ ، فلمَّا سمعَ بذكرِ الأَمانِ . . قصدَ حضرَةَ الصاحِبِ ، فقالَ لَهُ : أَنتَ قائِلُ القصيدَةِ ؟ قالَ : نعم ، قالَ لهُ : أَنشِدْنيها مِن فيكَ ، فلمَّا بلغَ قولَهُ مِنها [مِنَ الوافرِ] :

ولم أَرَ قَبْلَ جِذْعِكَ قَطُّ جِذْعاً ... تَمَكَّنَ مِنْ عِنَاقِ ٱلْمَكْرُمَاتِ

. . قامَ إليهِ الصاحِبُ وعانقَهُ ، وقبَّلَ فاهُ ، وأَنفذَهُ إلىٰ عضُدِ الدولَةِ ، فلمَّا مثلَ بينَ يديهِ . . قالَ لَهُ : ما الذي حملكَ علىٰ مرثيَّةِ عدوِّي ؟ فقالَ : حقوقٌ سلفَتْ ، وأَيادٍ مضَتْ ، فجاشَ الحزنُ في قلبي ، فرثيتُهُ ، وٱستنشدَهُ فيهِ غيرَها فأَنشدَهُ ، فخلَعَ عليهِ ، وأَكرمَهُ ، ورضيَ عنهُ .

وقد سبقَ حديثُ ٱبنِ الرقيَّاتِ معَ المصعَبِ ، ويأتي عمَّا قريبٍ ما لا يقلُّ عَن هٰذا في أَخبارِ البرامِكَةِ ، وأَرىٰ كثيراً يُطنبونَ في بيتِ ٱبنِ الأَنباريِّ السابقِ ، ولو أَنَّ ٱبنَ بقيَّةَ كانَ أَوَّلَ مصلوبٍ في الإِسلامِ . . لاعترضَهُ ما صحَّ مِن ضمِّهِ ﷺ للجذعِ حينَ حنَّ

= غَلِيْلٌ بَاطِنٌ لَكَ فِي فُؤَادِي ... يُخَفِّفُ بِالدُّمُوْعِ الْجَارِيَاتِ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ عَلَىٰ قِيَامٍ ... بِفَرْضِكَ وَالْحُقُوْقِ الْوَاجِبَاتِ
مَلأْتُ الأَرْضَ مِنْ نَظْمِ الْقَوَافِي ... وَنُحْتُ بِهَا خِلاَفَ النَّائِحَاتِ
وَلَكِنِّي أُصَبِّرُ عَنْكَ نَفْسِي ... مَخَافَةَ أَنْ أُعَدَّ مِنَ الْجُنَاةِ
وَمَا لَكَ تُرْبَةٌ فَأَقُوْلَ تُسْقَىٰ ... لأَنَّكَ نُصْبُ هَطْلِ الْهَاطِلاَتِ
عَلَيْكَ تَحِيَّةُ الرَّحْمَنِ تَتْرَىٰ ... بِرَحَمَاتٍ غَوَادٍ رَائِحَاتِ

لفراقِهِ[1] ، فذلكَ الجذْعُ بالحقيقَةِ هوَ الذي تمكَّنَ مِن عناقِ المكرُماتِ غيرَ مدافَعٍ ، فكيفَ ؟ وقد قالَ في نفسِ القصيدَةِ [مِنَ الوافرِ] :

رَكِبْتَ مَطِيَّةً مِنْ قَبْلُ زَيْدٌ عَلاَهَا فِيْ ٱلسِّنِيْنِ ٱلْمَاضِيَاتِ

أفترىٰ جِذْعَ زيدٍ لمَّا يتمكَّن مِن عناقِ المكرُماتِ ؟! كَلاَّ ، غيرَ أَنَّهُ على الجَواد ، والبديعُ فيهِ لأبي تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

رَمَقُوْا أَعَالِيَ جِذْعِهِ فَكَأَنَّمَا رَمَقُوْا ٱلْهِلاَلَ عَشِيَّةَ ٱلإِفْطَارِ

الحر لا يكذب ولو قُتِل

ولمَّا قُتلَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ . . جمعَ الشعراءَ مسلمَةُ بنُ عبدِ الملكِ ؛ ليقولوا فيهِ ، فلَم يألوا أَنْ يذكروهُ بأقبحِ ما قَدَروا عليهِ ، ما خَلا رجلاً مِن (دارمٍ) ، فإِنَّهُ قالَ : لا أَذُمُّ مَن لا أَملِكُ رَيعاً ولا أثاثاً إلاَّ مِنْهُ ، ولو قطَّعْتُموني إِرْباً فإِرْباً ، ولقد رثيتُهُ بما يليقُ بهِ ، وأنشدَ أَبياتاً جزلَةً ، أُعجِبَ بِها مسلمَةُ ، فأنعمَ عليهِ وقالَ : مَن أَرادَ أَن يصطنِعَ . . فليصطَنِعْ مِثلَ هـٰذا .

ويأتي ما يقربُ منهُ عَن عُمارَةَ اليمنيِّ قبيلَ شرحِ قولِ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ إِلىٰ نَفْسِهِ فِيْهَا شَفِيْعٌ مُشَفَّعُ

الذروة في الشجاعة والوفاء

ومِنَ ٱلغايةِ في الوفاءِ ، والذُّروَةِ في الشجاعَةِ ، ما كانَ مِن أخي مسلمِ بنِ الوليدِ في رثائِهِ لجعفرِ بنِ يحيىٰ ، وقولُهُ [في « الأغاني » ١٦/ ٢٦٥ مِنَ الوافرِ] :

---

(١) أورد حديث حنين الجذع العلامة جعفر الكتاني في « نظم المتناثر » عن نحو عشرين صحابياً . فهو من الأحاديث المتواترة .

أَمَـا وَٱللهِ لَـوْلاَ خَـوْفُ وَاشٍ　　وَعَيْـنٌ لِلْخَلِيفَـةِ لاَ تَنَـامُ
لَطُفْنَـا حَـوْلَ قَبْـرِكَ وَٱسْتَلَمْنَـا　　كَمَـا لِلنَّـاسِ بِـٱلْحَجَـرِ ٱسْتِلاَمُ

السائل عن الإمام أحمد وقت محنته

وخيرٌ مِن هـٰذا كلِّهِ : أَنَّ بقيَّ بنَ مَخْلَدٍ قدم في طلبِ الحديثِ مِنَ (ٱلأندلُسِ) إلىٰ (العراقِ) ، فوافقَ ٱلامتحانَ بأَبي عبدِ اللهِ[1] ، وكانَ لا يذكرُهُ ذاكرٌ إلاَّ تناولتْهُ الأيدي، ونزلَ بهِ العقابُ ، فلم يكُن مِنْ بقيٍّ إلاَّ أَن وقفَ بحلقَةِ يحيىٰ بنِ معينٍ ، وهوَ يكشِفُ الرجالَ ، يوثِّقُ هـٰذا ، ويُوهِّنُ الآخرَ ، فقالَ لهُ : أَسأَلُكَ عَن أَحمدَ ابنِ حنبلٍ ؟ فأَرمَ القومُ ، وضربَ يَحيىٰ صدرَهُ بذَقَنِهِ ، يتروَّىٰ بينَ أَن يؤثِرَ الحياةَ الدنيا بأتِّباعِ مرضاةِ السلطانِ ، وبينَ أَن يؤثِرَ الأُخرىٰ ويصبرَ علىٰ الأَذىٰ في جنبِ اللهِ ، فأَيَّدهُ اللهُ بعزمٍ مِن عندِهِ ، فرفعَ رأْسَهُ وقالَ لَهُ : ذاكَ سيِّدُ المسلمينَ ، وإِمامُ أَهلِ العلمِ اليومَ ، أو ما يقربُ مِن هـٰذا ، رضوانُ اللهِ عليهم أَجمعينَ .

البحتري شديد الوفاء للمتوكل

وممَّا يكتبُ علىٰ جَرائدِ الوفا ، بمدادِ الشرَفِ ، ما كانَ مِنَ ٱلبُحتريِّ وكثرَةِ رثائِهِ للمتوكِّلِ ، وقد قتلَهُ ٱبنُهُ المنتصرُ ، وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٢/١٠٤٨-١٠٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

حَـرَامٌ عَلَـيَّ ٱلـرَّاحُ بَعْـدَكَ أَوْ أَرَىٰ　　دَماً بِدَمٍ يَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلأَرْضِ مَائِرُهْ
وَهَلْ يُرْتَجَىٰ أَنْ يَطْلُبَ ٱلدَّمَ طَالِبٌ　　مَدَىٰ ٱلدَّهْرِ وَٱلْمَوْتُورُ بِٱلدَّمِ وَاتِرُهْ ؟![2]
فَلاَ مُلِّيَ ٱلْبَاقِيْ تُرَاثَ ٱلَّذِيْ مَضَىٰ　　وَلاَ حَمَلَتْ ذَاكَ ٱلدُّعَاءَ مَنَابِرُهْ[3]

---

(١) يعني : أحمد ابن حنبل رحمهُ اللهُ تعالىٰ .
(٢) الواترُ : الظالمُ ، الموتورُ : من قتلَ له قتيلٌ فلم يدركْ دمَهُ .
(٣) مُلِّيَ : مُتِّعَ .

أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك

ولنعد لِمَا كنَّا فيهِ ، فنقولُ : قالَ أَبو تمَّامٍ [مِنَ الخفيفِ] :

لَمْ يَدَعْنِيْ وَفِيْ يَمِيْنِيَ فَضْلٌ   لِنَـدَىٰ غَيْـرِهِ وَلاَ فِـيْ شِمَـالِـيْ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا يَلْحَظُ ٱلْعَافِيْ جَدَاكَ مُؤَمِّلاً   سِوَىٰ لَحْظَةٍ حَتَّىٰ يَؤُوْبَ مُؤَمَّلاً[1] .

وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

أَلْبَسْتَنِـيْ حُلَـلَ ٱلثَّنَـا فَلَبِسْتُهَـا   وَجَعَلْـتَ آمَـالِـيْ لَهُـنَّ ذُيُـوْلاَ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/٩٥٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يُتْعِبُ ٱلنَّـائِـلُ ٱلْمَبْـذُوْلُ هِمَّتَـهُ   وَكَيْفَ يُتْعِبُ عَيْنَ ٱلنَّاظِرِ ٱلنَّظَرُ ؟!

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٢٠٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَنَىٰ أَمَلِيْ فَٱحْتَازَهُ عَنْ مَعَاشِرٍ   يَبِيْتُوْنَ وَٱلآمَالُ فِيْهِمْ مَطَامِعُ[2]

وقالَ الناظِمُ في معنىٰ ما سبقَ عَن بشّارٍ وعَن غيرِ بشَّارٍ [في « العُكبَريِّ » ٤/٢٧٩ مِنَ المنسرحِ] :

لَـوْ كَفَـرَ ٱلْعَـالَمُـوْنَ نِعْمَتَـهُ   لَمَـا عَـدَتْ نَفْسُـهُ سَجَـايَـاهَـا

وقالَ الخزاعيُّ [في « ديوانهِ » ٣٣٤ مِنَ الكاملِ] :

شَفَعَـتْ مَكَـارِمُهُـمْ لَهُـمْ فَكَفَتْهُـمُ   جَهْدَ ٱلسُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ ٱلْمَادِحِ

المديح لا يكون إلا عن رغبة

وفيهِ إِشارَةٌ إِلىٰ أَنَّ المديحَ لا يكونُ إِلاَّ عن رغبَةٍ ، ومنهُ قولُ أُميَّةَ [ابن أبي الصلت في « ديوان الحماسة » ٢/٣٧٣ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا أَثْنَـىٰ عَلَيْـكَ ٱلْمَـرْءُ يَـوْمـاً   كَفَـاهُ مِـنْ تَعَـرُّضِـهِ ٱلثَّنَـاءُ

---

(١) جداكَ : عطاكَ .

(٢) ٱحتازهُ : أدخلهُ في حوزتهِ .

الحر تكفيه الإشارة

وإذا كانَ كذلكَ.. فلَن تكونَ الإطالَةُ فيهِ إلاَّ لضعفِ أَريحيَّةِ الممدوحِ، أمَّا الحرُّ.. فتكفيهِ الإِشارَةُ، وأَمَّا الجوادُ.. فتحرُّكُهُ الغمزَةُ، وقد سبقَ قولُ بعضِهم [في «روضة العقلاء» ٢٥١ مِنَ الكاملِ]:

وَإِذَا طَلَبْتَ إِلَىٰ كَرِيمٍ حَاجَةً فَلِقَاؤُهُ يَكْفِيكَ وَٱلتَّسْلِيمُ

ووضَّحَ المعنىٰ ٱبنُ الروميِّ في قولِهِ [في «ديوانه» ١/١١١ مِنَ الكاملِ]:

وَإِذَا ٱمْرُؤٌ مَدَحَ ٱمْرَأً لِنَوَالِهِ وَأَطَالَ فِيهِ فَقَدْ أَرَادَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّرْ فِيهِ بُعْدَ ٱلْمُسْتَقَىٰ عِنْدَ ٱلْوُرُودِ لَمَا أَطَالَ رِشَاءَهُ

متى ينفع الجود وأين محله؟

وما زلتُ في إشكالٍ من حالِ أَغنيائِنا؛ إذ تفيضُ أَكُفُّهم فيما لا ينفَعُ، ويضنُّونَ بالتافهِ اليسيرِ لدىٰ حسنِ الموقعِ، حتَّىٰ ٱنحلَّ الإِشكالُ بما سبقَ عَنِ ٱلخوارزميِّ في غيرِ هٰذا المكانِ، وجلُّهم لا يبذُلُ إلاَّ رغبةً، أَو رهبةً، أَوِ ٱستصلاحاً، أَو إِرضاءَ شهوَةٍ، وذلكَ غيرُ مجزىءٍ حتَّىٰ في فريضَةِ الزكاةِ ـ علىٰ رأْيِ بعضِهم ـ وإِنْ رجَّحَ ٱبنُ حجرٍ [في «تحفته»] الجوازَ متىٰ كانَ المدفوعُ إِليهِ بصفَةِ ٱلاستحقاقِ، وما أَحسنَ قولَ الناظِمِ [في «العُكبَريّ» ٤/٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ]:

وَلِلنَّفْسِ أَخْلاَقٌ تَدُلُّ عَلَىٰ ٱلْفَتَىٰ أَكَانَ سَخَاءً مَا أَتَىٰ أَمْ تَسَاخِيَا

وقولَ الآخرِ [وهو ابن عبد ربه الأندلسيُّ في «قرى الضيف» ٢/٨٧ مِنَ الطَّويلِ]:

وَمَا ٱلْجُودُ مَنْ يُعْطِي إِذَا مَا سَأَلْتَهُ وَلَٰكِنَّ مَنْ يُعْطِي بِغَيْرِ سُؤَالِ

وقولَ المقنعِ الكنديِّ [في «ديوان الحماسة» ٢/٣٤٣ مِنَ الكاملِ]:

لَيْسَ ٱلْعَطَاءُ مِنَ ٱلْفُضُولِ سَمَاحَةً حَتَّىٰ تَجُودَ وَمَا لَدَيْكَ قَلِيلُ

وقولَ زهيرٍ [في « ديوانهِ » ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

[إنسٌ إِذَا أَمِنُوْا ، جِنٌّ إِذَا فَزِعُوْا] مُـرَزَّؤُوْنَ بَهَـالِيْـلٌ إِذَا جَهِـدُوْا

وقولَ بشامَةَ بنِ حزنٍ [مِنَ البسيطِ] :

فَرْضٌ عَلَىٰ مُكْثِرِيْنَا بَذْلُ نَيْلِهِمُ وَٱلْجُوْدُ وَٱلْبَذْلُ فِيْ طَبْعِ ٱلْمُقِلِّيْنَا

وقد سبقَ أكثرهُ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ، وكانَ السلفُ الطيِّبُ ـ رضوانُ اللهِ عليهِم ـ يحاملونَ ، ويستقونَ ، ويتصدَّقونَ ، وقد قيلَ [القائل محمد بن يسير كما في « الأغاني » ١٤/ ٣٥ مِنَ البسيطِ] :

جُهْدُ ٱلْمُقِلِّ إِذَا أَعْطَاكَ نَائِلَهُ وَمُكْثِرٌ مِنْ غِنىً سِيَّانِ فِيْ ٱلْجُوْدِ

الحلم على الجاهلين

وأكلَ بعضُ العربِ علىٰ مائدَةِ معاويَةَ ، ولمَّا أرادَ أن يبتلعَ لقمةً . . قالَ لَهُ معاويَةُ [كما في «المستطرف» ١/ ٣٨٩] : علىٰ رسلِكَ، فإنَّ فيها شعرةً، قالَ : أَوَتُراقبُني مراقبَةَ مَن يرىٰ الشعرَةَ في لقمَتي ؟! واللهِ لا آكلُ لَكَ زاداً بعدَها ما حَيِيْتُ .

وما كانَ معاويَةُ هناكَ ، ولا ينبغي لابنِ عبدِ منافٍ أن يشتمِلَ علىٰ شيءٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ ، لـٰكِنَّها حانَتِ ٱلْتِفَاتَةٌ ، فحمَلَها العربيُّ علىٰ أسوأ ما يُظَنُّ ، وذهَبَ بِها إِلىٰ قولِ قيسِ بنِ عاصمٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ زِيَارَةِ بَاخِلٍ يُلاَحِظُ أَطْرَافَ ٱلأَكِيْلِ عَلَىٰ عَمْدِ

ويحكىٰ [كما في « المستطرف » ١/ ٣٨٩] : أَنَّ الحسنَ بنَ عليٍّ كانَ علىٰ طعامِ معاويَةَ ، فقُدِّمَتْ دجاجَةٌ ، أَمعنَ الحسنُ في الأكلِ مِنها ، فقالَ لهُ معاويَةُ : هل بينَكَ وبينَها عداوَةٌ ؟ فقالَ الحسنُ : وهل بينك وبينها قرابَةٌ ؟ قالَ الجاحِظُ : وما أنكَرَ معاويَةُ علىٰ الحسنِ إلاَّ تقصيرَهُ في توقيرِ الخلافَةِ بإظهارِ النَّهَمِ معَ المؤاكلَةِ ، وأشارَ إِلىٰ مثلِ

ذلكَ صاحبُ « المستطرَفِ » وهوَ من أَفحشِ الغلطِ ، فما كانَ التصنُّعُ لهُم بعادَةٍ ، وسنَّةُ العرَبِ معروفَةٌ في ٱطِّراحِهِ ، وقد عرفَ الناسُ لمعاويَةَ ٱحتمالَهُ ما لا تبرُكُ الإبلُ عليهِ مِنَ ٱلْجفاءِ ؛ لِمَن لا يوزنُ بنعلِ الحسنِ ، فضلاً عنهُ .

إنَّما جنحَ إِلىٰ المداعبَةِ ، وعمَدَ إِلى المطايبَةِ ؛ ليتسحَّبَ الحسنَ علىٰ ملكِهِ ، ويتبسَّطَ علىٰ سلطانِهِ ، ويزولَ تحفُّظُهُ ، وتذهَبَ حشمتُهُ ، ويفضي بحوائِجِهِ ، وقد قالَ عليهِ السلامُ : « إِنَّ لِلدَّاخِلِ حِشْمَةً ، فَأَبْسِطُوهُ بِأُنْسٍ »[1] .

فإن قيلَ : إنَّ معاويَةَ إِنَّما يتعرَّضُ لجفاءِ مَن لا يُؤْبَهُ لهُ ؛ ليشتهرَ بالحلْمِ إِذا سكتَ عَن جوابِهِ ، وعقابِهِ ، ولا يطيبُ نفساً بملاينَةِ أَمثالِ الحسنِ علىٰ الملأِ ؛ لأَنَّها تَسِمُهُ بالعجزِ ، وتدخلُ عليهِ الوهنَ ، والإِنسانُ قد يحتملُ للحقيرِ والأَجنبيِّ ، ما لا يحتملُهُ للقريبِ والعظيمِ . . قلتُ : لا يُنكَرُ ٱندماجُ النفوسِ علىٰ مثلِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يكونُ إِلاَّ عندَ أَهلِ الأَخلاقِ المنحطَّةِ ، والطباعِ السافلَةِ ، أَمَّا قريشٌ . . فما زالَت حَتَّىٰ في جاهليَّتِها معروفَةً بحسنِ التناصُفِ ، وكثيراً ماترىٰ الواحدَ مِنهم يحترمُ الآخرَ ، ويقولُ : إِنَّهُ سيِّدُ الوادي ، وإِن كانَ في جوفِهِ ما يكادُ يقتلُهُ سِلاً مِنَ ٱلحسدِ لَهُ ، وهـٰذا مسكينٌ الدارميُّ ـ أَو أَبو الجهمِ العدويُّ ـ يقولُ في معاويَةَ نفسِهِ [كما في « البيان والتبيين » ١/ ٥٠٠ مِنَ الوافرِ] :

نُقَلِّبُـهُ لِنَخْبُـرَ حَـالَتَيْـهِ ... فَنَخْبُـرُ مِنْهُمَـا كَـرَمـاً وَلِيْنَـا
نَمِيْـلُ عَلَـىٰ جَـوَانِبِـهِ كَـأَنَّـا ... نَمِيْـلُ إِذَا نَمِيْـلُ عَلَـىٰ أَبِيْنَـا

---

(١) لم أجده .

وأنا ذاكرٌ ما أَخرجَهُ المدائِنيُّ ، وغيرُهُ [كما في « جمهرة خطب العرب » ١٢٨/٢] : مِنْ قدومِ عبدِ اللهِ بنِ جعفرٍ عليهِ ، ومجلسُهُ غاصٌّ بأَصحابِهِ ، فنالَ ٱبنُ العاصِ مِن عليٍّ جهراً ، فحسرَ عبدُ اللهِ عن ذراعيهِ ، وقالَ لمعاويَةَ : حَتَّامَ نتجرَّعُ غيظَكَ ، ونصبرُ علىٰ مكروهِ قولِكَ ، وسَيِّىءِ أَدبِكَ ، وذميمِ أَخلاقِكَ ؟ أَما يزجرُكَ ذمامُ المجالَسَةِ عَنِ ٱلإِقذاعِ لجليسكَ ، إِذ لم تكُن لَكَ حرمَةٌ تنهاكَ مِن دينِكَ ؟ أَما واللهِ ، لو عطفتْكَ أَواصرُ الأَرحامِ ، أَو حاميْتَ علىٰ سهمِكَ مِنَ ٱلإِسلامِ . . لَما أَرعيتَ بني الإِماءِ ٱلمُتْكِ[1] أَعراضَ قومِكَ ، وما يجهلُ موضِعَ الصفوَةِ إِلاَّ أَهلُ الجفوَةِ ، فلا يدعونَّكَ استقامة خَطَئِكَ إِلىٰ التمادي في الغَيِّ ، فقد طالَ عَمَهُكَ عَنِ الرشْدِ ، وخبطُكَ في ظلمَةِ الجهلِ ، فإِن أَبيتَ إِلاَّ أَن تبقىٰ علىٰ سوءِ ٱختيارِكِ . . فٱعفِنا عَن سوءِ القالَةِ فينا إِذا ضمَّنا وإِيَّاكَ النديُّ ، وشأْنَكَ وما تريدُ إِذا خلوتَ بنفسكِ ، واللهُ حسيبُكَ ، فواللهِ لولا مالَنا عندَكَ . . ما جِئْناكَ ، فقالَ معاويَةُ : نغيِّرُ الخطأَ يا أَبا جعفرٍ ، وأُقسِمُ عليكَ لتجلسَنَّ ، لَعنَ اللهُ مَن أَخرجَ ضبَّ صدرِكَ مِنْ وجارِهِ ، محمولٌ لكَ ما قلتَ ، ولكَ عندنا ما أَمِلتَ ، وأُقسِمُ عليكَ لَمَا ذكرتَ حاجةً إِلاَّ قضيتُها لكَ ، كائِنَةً ما كانَت ، ولو ذهبَتْ بجميعِ ما أَملكُ ، فقالَ عبدُ اللهِ : أَمَّا في هٰذا المجلسِ . . فلا ، ثمَّ ٱنصرفَ ، فأَتبعهُ بصرَهُ ، وقالَ : لكأَنَّهُ رسولُ اللهِ في مشيِهِ ، وخَلْقِهِ ، وخُلُقِهِ ، وإِنَّهُ لَمِن مشكاتِهِ ، لوددْتُ أَنَّهُ أَخي بنفيسِ

---

(١) يقالُ في السبِّ : يا ٱبنَ المتكاءِ ؛ أي : عظيمةَ المتكِ وهوَ عرقُ البظرِ من المرأَةِ ، ومن الرجلِ العرقُ الذي في باطنِ الذكرِ عند أسفلِ حقوهِ .

ما أَملِكُ ، ثمَّ قالَ لابنِ العاصِ : ما مَنَعَهُ مِن خطابِكَ ؟ قالَ : ما تعرِفُ ، قالَ : لا واللهِ ، وَلَـٰكِنَّهُ ٱستحقرَكَ وٱزدراكَ .

هـٰذا ما بقيَ بحفظي منهُ ، ولا معابَةَ إِن أَخطأْتُ اللفظَ ، معَ إِصابَةِ الأَكثرِ مِنَ ٱلمعنىٰ .

التودد والتقرب من المساكين

أَمَّا رسولُ اللهِ ﷺ وقربهُ مِنَ ٱلناسِ ، وتودُّدُهُ إِلىٰ المساكينِ ، فحدِّثْ عنهُ ولا حرجَ ، وهوَ القائِلُ ـ كما سبقَ في غيرِ هـٰذا المجلسِ ـ لِمَنْ هَابَتْهُ : « هَوِّنِيْ عَلَيْكِ ، فَإِنِّيْ لَسْتُ بِمَلِكٍ وَلاَ جَبَّارٍ ، وَإِنَّما أَنَا ٱبْنُ ٱمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ ، كَانَتْ تَأْكُلُ ٱلْقَدِيْدَ بِمَكَّةَ »[1] .

وأَمَّا أَخوهُ وصهرُهُ ووصيُّهُ : فهوَ القائِلُ مِن أثناءِ كلامٍ لهُ [في « نهجِ البلاغةِ »] : لا تكلِّموني بما تُكلَّم بهِ الجبابرَةُ ، ولا تتحفَّظوا منِّي بما يتحفَّظُ بهِ عندَ أَهلِ البادِرَةِ ، ولا تخالِطُوني بالمصانَعَةِ ، ولا تظُنُّوا بيَ ٱستثقالاً في حقٍّ قيلَ لي ، ولا ٱلتماسَ إِعظامٍ لِنفسي ، فَلا تكفُّوا عَن مقالَةٍ بحقٍّ ، أَو مشورَةٍ بعدْلٍ ، فإِنِّي لَستُ في نَفسي بِفَوقِ أَنْ أُخطِىءَ ، ولا آمنُ ذلكَ مِنْ فِعلي ، إِلاَّ أَن يكفيَ اللهُ مِن نفسيَ ما هوَ أَملَكُ بهِ مِنِّي ، وإِنَّما أَنا وأَنتُم عبيدٌ مملوكونَ لربٍّ لا ربَّ غيرُهُ .

وقالَ ٱبنُ أَبي الحديدِ في « شرحِهِ » : أَحسنُ ما سمعتُهُ ـ في سلطانٍ لا تخافُ الرعيَّةُ بادرتَهُ، ولا يتلجلَجُ المتحاكونَ عندَهُ، معَ سطوتهِ وقوَّتِهِ؛ لإِيثارِهِ العدلَ ـ قولُ أَبي تمَّامٍ في محمَّدِ بنِ عبدِ الملكِ [في «ديوانهِ» ١/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] :

وَزِيْرُ حَقٍّ وَوَالِيْ شُرْطَةٍ وَرَحَىٰ   دِيْوَانِ مُلْكٍ وَشِيْعِيٌّ وَمُحْتَسِبُ

---

(١) سلف في مجلس سابق .

كَالأَرْحَبِيِّ ٱلْمُذَكِّيْ سَيْرُهُ ٱلْمَرَطَىٰ	وَٱلْوَخْدُ وَٱلْمَلْعُ وَٱلتَّقْرِيْبُ وَٱلْخَبَبُ[1]
عَــوْدٌ تُسَــاجِلُــهُ أَيَّــامُــهُ فَبِهَــا	مِنْ مَسِّهِ وَبِهِ مِنْ مَسِّهَا جُلَبُ[2]
ثَبْتُ ٱلْخِطَابِ إِذَا ٱصْطَكَّتْ بِمَظْلَمَةٍ	فِيْ رَحْلِهِ ٱلْسُنُ ٱلأَقْوَامِ وَٱلرُّكَبُ
لاَ ٱلْمَنْطِقُ ٱللَّغْوُ يُذْكَرْ فِيْ مَقَاوِمِهِ	يَوْماً وَلاَ حُجَّةُ ٱلْمَلْهُوْفِ تُسْتَلَبُ
كَـأَنَّمَـا هُـوَ فِـيْ نَـادِيْ قَبِيْلَتِـهِ	لاَ ٱلْقَلْبُ يَهْفُوْ وَلاَ ٱلأَحْشَاءُ تَضْطَرِبُ

ويعجبُني فيما يتعلَّقُ بذلكَ : أَنَّ المأمونَ ناظرَ محمَّدَ بنَ القاسِمِ النوشنجانيَّ في مسأَلَةٍ كلاميَّةٍ ، فجعلَ النوشنجانيُّ يخضَعُ في الكلامِ ، فقالَ لَهُ : يا محمَّدُ ، أَراكَ تنقادُ إِلىٰ ما أَقولُهُ قبلَ وجوبِ الحجَّةِ ، وقد ساءَني ذلكَ مِنكَ ، ولو شئتُ أَن أُفسِّرَ الأُمورَ بعزَّةِ الخلافَةِ ، وهيبَةِ الرئاسَةِ . . لصدقْتُ وإِنْ كنتُ كاذباً ، وعدَلْتُ وإِن كنتُ جائِراً وصوَّبْتُ وإِن كنتُ مخطِئاً ، ولَـٰكِنَّي لا أَقنعُ إِلاَّ بإِقامَةِ الحجَّةِ ، وإِزالَةِ الشبهَةِ ، وإِنَّ أَنقصَ الملوكِ عقلاً ، وأَسخفَهُم رأْياً ، مَن رضيَ بقولِهم : صدقَ الأَميرُ . ذكرهُ ٱبنُ أَبي الحديدِ أَيضاً في شرحِ ما سقناهُ آنفاً مِن كلامِ الإِمامِ [في « شرحِ نهجِ البلاغةِ »] .

ولنعُد مِنَ ٱلاستطرادِ إِلىٰ حيثُ خرجنا ، فنقولُ : قد سبقَ ذروٌ مِن حديثِ ٱبن الطيَّارِ أَوائِلَ المجلسِ الحادِي عشرَ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٧٢ مِنَ المنسرحِ] :

---

(١) الأَرحبيُّ : النجيبُ من الإبلِ . المذكِّيْ : الذي تمَّتْ سنُّهُ وذكاؤهُ . المرَطىٰ وما بعدهُ من الأَسماءِ : ضروبٌ من السيرِ . أَرادَ هنا أَنَّ ممدوحَهُ يجمعُ ضروبَ إِصلاحِ الملكِ كما يجمعُ هذا الأرحبيُّ جميع ضروبِ السيرِ .

(٢) العَودُ : المسنُّ من الإِبلِ ، وأَراد بهِ هنا الرجلَ المجرَّبَ . تُساجلهُ : تناظرهُ . جُلَبُ ـ جمعُ جلبةٍ ـ : وهيَ الأَثرُ في ظهرِ البعيرِ وغيرهِ من مسِّ حملٍ ونحوهِ .

تَمَثَّلُوا حَاتِماً وَلَوْ عَقَلُوا لَكُنْتَ فِيْ ٱلجُوْدِ غَايَةَ ٱلمَثَلِ

وفي غيرِه .

إذا أعطيت هذا الرجل.. فقد أعطيت جميع أهل المدينة

ونَزيدُ هُنا ما ذكرَهُ ٱبنُ أَبي الحديدِ [في «شرحِ نهجِ البلاغةِ»] وغيرُهُ ـ [في «المستطرف» ١/٣٤٨] : معَ تمهيدِ العذرِ للزيادَةِ والنقْصِ ببعدِ العهْدِ ـ أَنَّ عبدَ اللهِ بنَ جعفرٍ قدمَ علىٰ يزيدَ بنِ معاويَةَ ، فأَنزلَهُ بحيثُ كانَ ينزلُهُ أَبوهُ ، مِن عليِّ القدْرِ ، ورعايَةِ الجانبِ ، ولمَّا ٱعتزَمَ الانصرافَ . . قالَ لهُ : كَم كانَ يعطيكَ أَبي ؟ قالَ : كانَ يُعطيني أَلفَ أَلفٍ ـ رحمَهُ اللهُ ـ فقالَ يزيدُ : قَد زِدناكَ أَلفَ أَلفٍ أُخرىٰ لترحُّمِكَ عليهِ ، فقالَ عبدُ اللهِ : فداكَ أَبي وأُمِّي ، قالَ : وهٰذهِ لَها أَلفُ أَلفٍ ، فقالَ عبدُ اللهِ : واللهِ لا أَقولُها لأَحدٍ بعدَكَ ، قالَ يزيدُ : ولهٰذهِ أَيضاً أَلفُ أَلفٍ ، فقيلَ ليزيدَ : أَعطيتَ هٰذا القدرَ كلَّهُ لرجلٍ واحدٍ من بيتِ المالِ ، قالَ : واللهِ ما أَعطيتُهُ إِلاَّ لجميعِ أَهلِ (المدينَةِ) ، ووكَّلَ بهِ عيناً يطالِعُهُ بخبرِهِ ، فلم يزَل يفرِّقُها في أَنواعِ المعروفِ . . حَتَّىٰ ٱحتاجَ بعدَ شهرينِ إِلىٰ الاستدانَةِ ، فهوَ الأَحقُّ مِن عبدِ الواحدِ بنِ سليمانَ بقولِ القطاميِّ [في «ديوانِه» ٢٩ مِنَ البسيطِ] :

أَهْلُ ٱلْمَدِيْنَةِ لاَ يَحْزُنْكَ حَالُهُمُ إِذَا تَخَطَّأَ عَبْدَ ٱلْوَاحِدِ ٱلأَجَلُ

العذل في الجود

وعُذِلَ عبدُ اللهِ علىٰ كثرةِ الإِنفاقِ فقالَ [في «المستطرف» ١/٣٤٨] : إِنَّهُ عزَّ وجلَّ عوَّدني أَن يتفضَّلَ عليَّ ، وعوَّدتهُ أَن أَتفضَّلَ علىٰ عبادِهِ ، فأَخافُ أَن أَقطعَ العادةَ ، فيقطَعَ [عنّي] المادَّةَ .

جود المأمون

وذكرتُ بهٰذا أَنَّ الواقديَّ ـ السالفَ الذكرِ ـ كتبَ إِلىٰ المأمونِ في دَينٍ ٱرتكبَهُ ، فكتبَ لهُ المأمونُ [كما في «وفيات الأعيان» ٤/٣٤٩] : إِنَّ فيكَ لكرماً أَطلَقَ ما في يدِكَ ، وحياءً منعَكَ أَن تذكرَ كلَّ حاجتِكَ ،

غيرَ أنَّكَ حدَّثتني وأنتَ علىٰ قضاءِ الرشيدِ : أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ للزبيرِ : « يا زُبَيْرُ ، إِنَّ مَفَاتِيحَ ٱلرِّزْقِ فِيْ خِزَانَةٍ بِإِزَاءِ ٱلْعَرْشِ ، فَمَنْ كَثَّرَ . . كَثُرَ لَهُ ، وَمَنْ قَلَّلَ . . قُلِّلَ لَهُ »[1] . قالَ الواقديُّ : فلأَنا بمراجعَةِ المأمونِ الحديثَ لي أفرحُ منِّي بالصلَةِ ، أَو ما يقربُ مِن هٰذا المعنىٰ .

جود الفرزدق

وبَينا طلحةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عوفٍ بالسوقِ . . وافقَ الفرزدقَ ، فقالَ لَهُ [في « المستطرف » ١/٣٥٩] : اختر عشراً مِنَ الإبلِ ، ففعلَ ، فقالَ لهُ الفرزدَقُ : ضمَّ إليها مثلَها ، ففعلَ ، ولم يزَل يقولُ لهُ : ضمَّ إليها مثلَها . . حتَّىٰ صارَت مئةً ، فأثنىٰ عليهِ بأبياتٍ ، منها قولُهُ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلنَّدَىٰ أَلْقَىٰ إِلَيْكَ رِحَالَهُ ... فَبِحَيْثُ بِتَّ مِنَ ٱلْمَنَازِلِ بَاتَا

فأَخذهُ أَبو الشيصِ الخزاعيُّ حيثُ يقولُ [في « أشعارِهِ » ٩٢ مِنَ الكاملِ] :

وَقَفَ ٱلْهَوَىٰ بِيْ حَيْثُ أَنْتَ فَلَيْسَ لِيْ ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهُ وَلاَ مُتَقَدَّمُ

وتعدَّىٰ عليهِ أَبو نواسٍ مجاهرَةً فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جَازَهُ جُوْدٌ وَلاَ حَلَّ دُوْنَهُ ... وَلٰكِنْ يَسِيْرُ ٱلْجُوْدُ حَيْثُ يَسِيْرُ

ثُمَّ اعتورَتْهُ الأيدي ومنهُ قولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/٥٧٤ مِنَ البسيطِ] :

---

(١) أخرجه عن الزبير رضي الله عنه بنحوه الديلمي في « الفردوس بمأثور الخطاب » (٥/٤٠٢) ، وأبو نعيم في « الحلية » كما في « كنز العمال » (٦٢٨) بلفظ : « يا زبير إن الرزق مفتوح من لدن العرش إلىٰ قرار بطن الأرض ، يرزق الله كل عبد علىٰ قدر همته ونهمته » .

تَحَيَّرَ ٱلْجُوْدُ وَٱلإِحْسَانُ بَيْنَهُمُ   فَمَا يَجُوْزُهُمُ جُوْدٌ إِلَىٰ أَحَدِ

وذكرتُ بعدَ هـٰذا عَن بعضِ الأَوائِلِ ما معناهُ ـ إِنْ أَخطأْتُ لفظَهُ ـ [قولَ البُحتريِّ في « ديوانِه » ٣/ ١٨٤٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلسَّمَـاحَ ٱلعِـدَّ أَلقَـىٰ رَحْلَـهُ   فِي آلِ طَلْحَةَ ثُمَّ لَمْ يَتَحَوَّلِ[1]

ولا نُدحَةَ عَن ذكرِ مثالَينِ مِن جودِ البرامِكَةِ تتَّصِلُ بما ذكرناهُ سابقاً ولاحقاً :

صور من جود البرامكة

أَحدُهُما : أَنَّ محمَّدَ بنَ عبدِ اللهِ كانَ متَّصلاً بهِم ، ولهُ نعمَةٌ واسعةٌ ، وضِياعٌ كثيرَةٌ ، صودرَت فيما كانَ للبرامِكَةِ وأَتباعِهم ، فرفعَ فِيها قصَّةً إِلىٰ المأمونِ ، يمتُّ فيها بحرمَةٍ ، فدفعَها المأمونُ إِلىٰ أَحمدَ ٱبنِ أَبي خالدٍ ، وأَمرَهُ أَن يضمَّ الرجلَ إِلىٰ نفسِهِ ، ويحسنَ إِليهِ ، فصلحَتْ حالُهُ ، وتماسكَتْ أُمورُهُ ، وٱتخذَهُ ٱبنُ أَبي خالدٍ نديماً ، لا يصبِرُ عنهُ ، فٱنقطعَ يوماً لمولودٍ وُهِبَهُ ، ولم يأْتِ بعدَ ٱستدعائِهِ مراراً ، فغضبَ عليهِ ، وسجنَهُ ، وقيَّدَهُ ، وزعمَ للمأْمونِ أَنَّهُ كثيرُ المصارفِ والتيهِ والافتخارِ بالبرامكَةِ ، فأَمرَ بإِحضارِهِ علىٰ قيدِهِ ، وأَقبلَ عليهِ مسفِّهاً لرأْيِهِ ، وأَخذَ يطعَنُ علىٰ البرامكَةِ ، ويضعُ مِنهم ، ويطنبُ في ذلكَ .

فعارضَهُ وقالَ : كانوا شفاءَ دهرِهم ، وغياثَ عصرِهِم ، وإِنْ أَذِنَ لي أَميرُ المؤمنينَ . . حدَّثتُهُ عَن أَخبارِهم ، قالَ : هاتِ ، قالَ : محدِّثٌ ومقيَّدٌ ؟! فأَمرَ بإِطلاقِهِ ، فقالَ : ٱقترحَ الفضلُ عليَّ مرَّةً أَن

---

(١) البيتُ في « الديوان » :

أَوَمَـا رَأَيْـتَ ٱلمَجْـدَ أَلقَـىٰ رَحْلَـهُ   . . . .

أَدعوَهُ وأَباهُ وأَخاهُ ، قلتُ : داري وحَالي يصغرُ عَن ذلكَ ، قالَ : لا حشمَةَ ولا كلفَةَ ، فأَقعِدْنا علىٰ أَثاثِ بيتِكَ ، وأَطعِمنا مِن طبيخِ أَهلِكَ ، فلمَّا رأَيتُ إِلحاحَهُ . . آستمهلْتُهُ سنَةً ؛ لأَستعِدَّ ، فقالَ : وهَل مَعَنا أَمانٌ مِنَ آلموتِ إِلىٰ سنةٍ ، إِنَّكَ لَطويلُ الأَملِ ، فأَصلحَ بيننَا جعفرٌ علىٰ شهرينِ ، أَصلحتُ فيها داريَ ، وبذلْتُ ما بلغَتْ يديْ مِن تزيينِهِ ، وتأْثيثِهِ ، وترتيبِهِ ، وفعلتُ ما قدرتُ عليهِ مِنَ آلطعامِ ، وجاءَ هوَ وأَبوهُ وجعفرٌ وأَولادُهم وفتيانُهم ، فقالَ : إِنَّ أَوَّلَ ما أَبدأُ بهِ النظرُ إِلىٰ جليلِ نعمتِكَ وصغيرِها ، فدارَ علىٰ سائِرِ المنازِلِ ، وقالَ : مَن جيرانُكَ ؟ قلتُ : فلانٌ وفلانٌ ، وفي جانِبِ داري بالملاصقَةِ قصرٌ ضخْمٌ مَشِيْدٌ ، قالَ : لِمَن هٰذا ؟ قلتُ : لا أَعرفُهُ ، قالَ : ما كانَ ينبغي لأَحدٍ أَنْ يستطيلَ عليكَ ، فهلمَّ بنجَّارٍ يفتَحُ لَنا باباً إِلىٰ تلكَ الدارِ مِن ناحيتِكَ المتَّصلَةِ بهِ ، فناشدتُهُ أَن لا يفعلَ ، فصمَّمَ وفتحَ البابَ ، فإِذا برجُ إِصطبلِ دوابِّهِ خيرٌ مِن داري بسبعينَ مرَّةً ، وقالَ : هٰذا الدارُ بما فيهِ لكَ ، فكدْتُ أُجَنُّ مِن ذلكَ ، ولَم أَدرِ أَنا في يقظَةٍ أَو منامٍ ، ولمَّا سمعَ أَخوهُ وأَبوهُ بما جرىٰ . . رأَيتُ الانمغاضَ بادياً علىٰ وجهِ جعفرٍ ، وأَقبلَ علىٰ أَبيهِ يشكو من تفرُّدِ الفضلِ بهٰذهِ المكرُمَةِ ، فقالَ الفضلُ : يا أَخي ، بقيَ لكَ القطْبُ مِنها ، قالَ : وما هوَ ؟ قالَ : إِنَّهُ لا يتهيَّأُ ضبطُ هٰذهِ الدارِ بما فيها . . إِلاَّ بدخْلٍ جليلٍ ، قالَ : فرَّجْتَ عنِّي يا أَخي ، وكتبَ لي بصكاكِ عقارٍ ، صرتُ بهِ مِن أَيسرِ أَهلِ زَماني ، قالَ المأْمونُ : صدقَ واللهِ ، ذهبَ القومُ بالمكارِمِ ، وردَّ عليهِ ضياعَهُ ، وأَحسنَ معاملَتَهُ .

ثانيهما [روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/٤٣٦] : حديثُ المغيرَةِ بنِ

المنذرِ فقد كانَ يُسحِرُ كلَّ ليلَةٍ إلىٰ دورِ البرامِكةِ وآثارِهم ، ويندُبُهم بشعرٍ منهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا رَأَيْتُ ٱلسَّيْفَ جَلَّلَ جَعْفَراً   وَنَادَىٰ مُنَادٍ لِلْخَلِيْفَةِ : يَا يَحْيَىٰ

بَكَيْتُ عَلَىٰ ٱلدُّنْيَا وَزَادَ تَأَسُّفِيْ   عَلَيْهِمْ، وَقُلْتُ: ٱلآنَ لاَ تَنْفَعُ ٱلدُّنْيَا

فرصدَهُ المأمونُ حتَّىٰ أَمسكَهُ ، ولمَّا مَثَلَ بينَ يدهِ متحنِّطاً متكفِّناً مستعدّاً للقتلِ . . أخذَ المأمونُ بتوبيخِهِ ، فقالَ : إِنَّ للقومِ عنديَ لأَياديَ لا تزالُ خضراءَ ، إِنْ شئتَ . . حدثتُكَ عنها ، قالَ : قُلْ ، فقالَ : أَنا مِن أَولادِ الملوكِ ، فزالَتْ نِعمَتي ، وبعتُ ما علىٰ رأسِي ، ورؤُوسِ أَولادِي وأَهلِي ، وما بقيَ لَنا شيءٌ يوهَبُ ولا يباعُ ، حَتَّىٰ دخلنا (بغدادَ) ، ونزلنا في بعضِ المساجِدِ ، فذهبتُ أَسأَلُ عَنِ ٱلبرامكَةِ ـ وتركتُهُم جياعاً ـ وأَخذتُ أَتصبَّبُ مِنَ ٱلعرقِ ؛ لأَنَّها لم تكنْ صناعَتي ، فإِذا جماعَةٌ جلوسٌ في مسجدٍ ، ينتظرونَ داعياً لحضورِ إِملاكٍ في دارِ يحيىٰ ، ولمَّا دَخلوا . . دخلتُ معَهُم ، وما معيَ مِنَ ٱلرَّمَقِ إِلاَّ ما يحملُ رجليَّ مِن ٱلاستحياءِ ، وفرَّقَ الخدَمُ صوانيَ الفضَّةِ ، في كلِّ صينيَّةٍ أَلفُ دينارٍ ، فلم أَجْسِرْ علىٰ أَخذِ التي هيَ ليْ . . حتَّىٰ غمزني الخادِمُ فأَخذتُها ، وقمْتُ أَتلفَّتُ مخافَةَ الردِّ ، فلحَظَني يحيىٰ ، وٱستدعاني ، وقالَ : ممَّ تتلفَّتُ ؟ فبدرتْني عيني ، ثمَّ شرحتُ لهُ قصَّتي ، فأَمرَ ولدَهُ موسىٰ بضمِّي إِليهِ ، وإِكرامي ، ولم يزَلْ يتبادَلُني القومُ عشَرَةَ أَيَّامٍ ، وأَنا لا أَدري بخبرِ عيالي وأَهلي ، غيرَ أَنِّي آمنٌ مِن ضياعِهِم بعدَ أَن علمَ يحيىٰ بحالِهم ، ولم أَدرِ أَينَ تركتُ الصينيَّةَ بما فيها ، ولمَّا كانَ اليومُ الحادي عشرَ . . قالوا لي : قُمْ إِلىٰ عيالِكَ ، فقلتُ في نفسي :

واويلاهُ ، وقد فقدتُ الصينيّةَ بما فيها مِنَ الدنانيرِ ، فقمتُ إلىٰ دارٍ لَم أَرَ مثلَها أَيّامَ نعمَتي ، وإذا بِصِبْياني وأَهلي يتقلَّبونَ في الحريرِ والديباجِ ، وحمَلوا إليَّ مئةَ أَلفِ درهمٍ ، وعَشَرَةَ آلافِ دينارٍ[1] ، ومنشوراً بضيعتينِ ، وتلكَ الصينيّةِ بما فيها ، وأَقمتُ غَذِيَّ نعمتِهم ثلاثَ عَشْرةَ سنةً ، فلمَّا جاءَتهم البليّةُ . . أُخِذَتْ أَموالي فيما أُخذَ من أَموالِهم ، فقالَ المأمونُ : رُدُّوا عليهِ جميعَ ما أُخذَ مِنْهُ ، فَعَلاَ نحيبُهُ عندَ ذلكَ ، فقالَ المأمونُ : كيفَ تبكي وقد أَحسنَّا إليكَ ؟ قالَ : وهٰذا أَيضاً من صنيعِ البرامكَةِ ، فلَو لم آتِ آثارَهُم ، وأَندبَهم . . ما اتصلَ بكَ خبري .

قالَ إبراهيمُ بنُ ميمونٍ : فرأَيتُ المأمونَ تذرفُ عيناهُ ، ويقولُ : إنَّ هٰذا لَعَمري مِن صنيعِ البرامكَةِ ، فعليهم فابْكِ ، وإيَّاهُم فاشكر ، ولهم فأَوفِ ، ولإِحسانِهم فاذكُر ، وصدقَ واللهِ ، فهُمُ القومُ الذينَ يفيضُ جودُهُم ، ويهتزُّ عودُهُم ، وتتزيَّنُ المجالسُ بذكرِهِم ، وتتعطَّرُ الآنافُ بنشرِهِم .

لمَّا نزلَتِ المحنةُ بابنِ الزيَّاتِ . . قالَ لَهُ خادِمُهُ : صرتَ إلىٰ ما صرْتَ إليهِ ، ومالَكَ حامِدٌ في الناسِ ؟! قالَ : وكَم للبرامِكَةِ مِن صنيعٍ ، فهَل نفعَهُم شيءٌ مِن ذلكَ ؟ قالَ لَهُ : نعم ، لو لَم يكُن منهُ إلا ذكرُكَ لَهم في هٰذهِ الساعَةِ ، قالَ : صدقْتَ .

وأَثنيتُ مرَّةً علىٰ الأَميرِ منصورِ بنِ عمرَ الكثيريِّ صاحبِ (شبامَ) ، وكانَ عرضَةَ ذلكَ ، فحولَةً وبطولةً ، وزعامةً وشهامةً ،

---

(١) في «المستطرف» : (ألف ألف درهم وعشرة آلاف دينار) .

وشدَّةَ بأسٍ في لينِ جانبٍ ، فقالَ لي أحدُ الرؤساءِ : إنَّ شجاعتَهُ أنتهَتْ بهِ إلىٰ القتلِ ، فقلتُ لَهُ : وَلَـٰكِنَّ مَن خلَّفَ ذلكَ الثناءَ العاطِرَ لم يمُت ، وأمَّا الموتُ . . فإنَّهُ لا بدَّ منهُ علىٰ كلِّ حالٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِٱلسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ   تَعَدَّدَتِ ٱلأَسْبَابُ وَٱلْمَوْتُ وَاحِدُ

أمَّا اليومَ . . فقد ماتَ الجودُ ، وشملَ الجمودُ ، وإنَّكَ لترىٰ المتَّسِمَ بسَمتِهِ ، والمدّعيَ أنَّهُ مِن أُمَّتِهِ . . لجديرٌ بقولِ جريرٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٥٢ مِنَ الكاملِ] :

وَٱلتَّغْلِبِـيُّ إِذَا تَنَحْنَـحَ لِلْقِـرَىٰ   حَـكَّ ٱسْتَـهُ وَتَمَثَّـلَ ٱلأَمْثَـالاَ

والبيتُ الذي نتكلَّمُ عليهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منهُ قولُهُ [في « العُكبريّ » ٢/ ٢٥٤ مِنَ الوافرِ] :

قَبُـوْلُـكَ مَنَّـهُ مَـنٌّ عَلَيْـهِ   وَإِلاَّ يَبْتَـدِيْ يَـرَهُ فَظِيْعَـا

يقضي دين صديقه ويبكي

وذكرتُ بشطرِهِ الأخيرِ [ما ذكره الأبشيهي في « المستطرف » (١/ ٣٤٦) وهو] : أنَّ بعضَهم شكا إلىٰ صديقٍ لَهُ ديناً ، فقضاهُ عنهُ ، ثمَّ عادَ باكياً ، فقالَت لَهُ ٱمرأتُهُ : هلاَّ تعلَّلْتَ إذ علمت أنَّ الإجابَةَ تشقُّ عليكَ ، قالَ لَها : ما بي ذلكَ ، وإنَّما أبكي ؛ لأنَّني لَم أتفقَّدْ حالَهُ قبلَ سُؤَالِهِ . والقصَّةُ في « الإحياءِ » للإمامِ الغزاليِّ ، وفي غيرِها من كتبِ الأخبارِ .

التلذذ بالجود والإعطاء

وفي مثلِهِ يقولُ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٩٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَالْجِـرَاحَـاتُ عِنْـدَهُ نَغَمَـاتٌ   سَبَقَـتْ قَبْـلَ سَيْبِـهِ بِسُـؤَالِ[1]

---

(١) السيبُ : العطاءُ .

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٠٥ مِنَ الوافرِ] :

وَنَغْمَـةُ مُعْتَـفٍ يَـرْجُـوْهُ أَحْلَـىٰ عَلَىٰ أُذُنَيْهِ مِنْ نَغَمِ ٱلسَّمَاعِ[1]

وأخذهُ الناظِمُ غيرَ أنَّهُ أفرغَهُ في قالبٍ آخرَ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٧٢ مِنَ البسيطِ] :

كَـأَنَّ كُـلَّ سُـؤَالٍ فِـيْ مَسَـامِعِـهِ قَمِيْصُ يُوسُفَ فِيْ أَجْفَانِ يَعْقُوْبِ

وقد أَلمَّ بهِ البُحتريُّ مِن قبلِهِ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٩ مِنَ الكاملِ] :

نَشْـوَانُ يَطْـرَبُ لِلسُّـؤَالِ كَـأَنَّمَـا غَنَّاهُ (مَالِكُ طَيِّءٍ) أَوْ (مَعْبَدُ)[2]

وقالَ الجزَّارُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَهْتَـزُّ لِلْجَـدْوَىٰ إِذَا [مَـا] مَـدَحْتَـهُ كَمَا ٱهْتَزَّ - حَاشَا وَصْفَهُ - شَارِبُ ٱلْخَمْرِ

وقد ذكرنا مرَّةً قولَ عكرشةَ بنِ أُريدٍ [في « قرى الضيف » ٢/ ٢٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَتَـأْخُـذُهُ عِنْـدَ ٱلْمَكَـارِمِ نَشْـوَةٌ كَمَا ٱهْتَزَّ تَحْتَ ٱلْبَارِحِ ٱلْغُصْنُ ٱلرَّطْبُ

وما أَحسنَ قولَ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٤٣٩ مِنَ الكاملِ] :

ذَهَبَ ٱلَّذِيْنَ تَهُزُّهُمْ مُدَّاحُهُمْ هَـزَّ ٱلكُمَـاةِ عَـوَالِـيَ ٱلْمُـرَّانِ

---

(١) المعتفي : السائِلُ .

(٢) مالك طيء : هو أبو الوليد مِالكُ بنُ أبي السمحِ جابر بنِ ثعلبةَ الطائي ، كان من مغنِّي العصرين : الأمويِّ والعباسيِّ ، أخذ صناعةَ الغناءِ عن معبد توفي نحو سنة (١٤٠ هـ) .

معبد : هو معبدُ بنُ وهبٍ ، أصلُه مِن الموالي نشأَ في (المدينةِ) يرعىٰ الغنمَ لمواليهِ وربَّما ٱشتغلَ بالتجارةِ ولمَّا ظهرَ نبوغهُ في الغناءِ . أقبلَ عليهِ كبراءُ (المدينةِ) ؛ ثم رحلَ إلى (الشامِ) فاتصل بأمرائِها وعلا شأنُه .

كَانُوا إِذَا مُدِحُوا رَأَوْا مَا فِيْهِمُ   فَـالأَرْيَحِيَّـةُ مِنْهُـمُ بِمَكَـانِ

وكانَ لِلْحَضَارِمَةِ النصيبُ الأَوفىٰ مِنَ السماحِ ، ومِن متأَخِّريهم : البحرُ الطافحُ ، الإمامُ الهمامُ ، الحسنُ بنُ صالحٍ ، وخيرُ كلِّ فتىً وكهلٍ ، المنهلُ العذبُ ، الحسينُ بنُ سهلٍ ، وقد مرَّتْ نسمَةٌ مِن عرفِهِم الشميمِ ، وقطرَةٌ مِن مكارِمِ جودِهم الصميمِ ، ولا يخلو (اليمنُ) عَن كرامٍ ، تجدُ سعةً في مناقِبِهم الأَقلامُ ، مِنهم أَخي وصديقي محمَّدُ سيفُ الإسلامِ ، وهوَ القائِلُ لمَّا عذلوهُ في كثرَةِ الإنفاقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

من أجواد الحضارمة

يَقُوْلُوْنَ : إِنِّيْ مُسْرِفٌ إِذْ يَرَوْنَنِيْ   أُطَوِّقُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ بِإِحْسَانِيْ

فَقُلْتُ لَهُمْ : مُوْتُوا لِئَاماً بِغَيْظِكُمْ   فَإِنِّيْ شَرَيْتُ المَجْدَ بِالتَّافِهِ الدَّانِيْ

إِذَا جِئْتُمُ يَوْمَ الحِسَابِ بِكَنْزِكُمْ   أَجِيْءُ بِعَفْوٍ مِنْ إِلَـٰهِيْ وَغُفْرَانِ

ويُشبِهُها : أَنَّ الراضيَ العبَّاسِيَّ وَصلَ الشعراءَ بصلاتٍ جزلَةٍ ، لامَهُ فيها كثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، ونسبوهُ إِلىٰ الإسرافِ ، فقالَ [في « البداية والنهاية » ١١/١٩٧ مِنَ الكاملِ] :

يلومون الراضي العباسي على الجود

لاَ تَعْذِلُوا كَرَمِي عَلَىٰ الإِسْرَافِ   رِبْحُ المَحَامِدِ مَتْجَرُ الأَشْرَافِ

إِنِّيْ مِنَ القَوْمِ الَّذِيْنَ أَكُفُّهُمْ   مُعْتَـادَةُ الإِتْـلاَفِ وَالإِخْـلاَفِ

إلاَّ أَنَّ هـٰذا قاصرُ النظرِ علىٰ ما في الدنيا ، وذاكَ طامحُهُ إِلىٰ ما في الآخرَةِ ، فهنيئاً لهُما ، كلُّ امرىءٍ يأخذُ زادَهُ : ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء : ١٨ـ١٩] .

نِعْمَ المال الصالح.. للرجل الصالح

وسأَلَ سائِلٌ عَنِ ٱلفرقِ ما بينَ أَموالِ السابقينَ مِنَ الحضارِمةِ ، حيثُ أُقيمَت بِها الدولُ ، وبنيَتِ ٱلمساجِدُ ، وعمِّرتِ ٱلمدارسُ ، وأُصلِحَتِ ٱلْمساقي ، وأُكرمتِ ٱلضُّيوفُ ، وتوزَّعَت في طرقِ المعروفِ ، وبينَ أَموالِ المتأَخِّرينَ ، لم تظهَر إِلاَّ في إِثارَةِ الشرورِ ، وعمارَةِ ٱلقصورِ ، وتحليةِ ٱلنُّحورِ ، فأُجيبَ : بأَنَّ الثروَةَ السابقَةَ لم تكُن إِلاَّ في أَيدي أَهلِها ، وأَكثرُها هدايا مِن ملوكِ الهندِ لأَعاظِمِ الرجالِ ، بخلافِ أَموالِ المتأَخِّرينَ ، وإِذا أَرادَ اللهُ بقومٍ خيراً . . جعلَ أَغنياءَهم خيارَهم ، والعكسُ بالعكسِ ، وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٧٠ مِنَ الخفيفِ] :

وَٱلْغِنَـىٰ فِـيْ يَـدِ ٱللَّئِيْـمِ قَبِيْـحٌ   قَدْرَ قُبْحِ ٱلْكَرِيْمِ فِيْ ٱلإِمْلاَقِ

أَمَّا الموجودونَ . . فكَما وَصَفْناهُم قبلُ ، وكما قالَ جحظَةُ [في « ديوانهِ » ٦٤ مِنَ الوافرِ] :

تَسَاوَىٰ ٱلنَّاسُ فِيْ فِعْلِ ٱلْمَسَاوِيْ   فَمَا يَسْتَحْسِنُوْنَ سِوَىٰ ٱلْقَبِيْحِ
وَصَـارَ ٱلْجُوْدُ عِنْدَهُـمُ جُنُوْنـاً   فَمَا يَسْتَعْقِلُوْنَ سِوَىٰ ٱلشَّحِيْحِ
وَكَانُوْا يَهْرُبُوْنَ مِنَ ٱلأَهَاجِيْ   فَصَارُوْا يَهْرُبُوْنَ مِنَ ٱلْمَدِيْحِ

ومعلومٌ أَنَّ مَن يهربُ مِنَ ٱلمديحِ خشيةَ المكافأَةِ عليهِ . . خيرٌ أَلفَ مرَّةٍ ممَّن يتمنَّاهُ مجَّاناً ، ويطلبُهُ بِلا ثمنٍ ، وقالَ غيرُهُ ـ وأَحسنَ ما شاءَ ـ [مِنَ البسيطِ] :

كَـانَ ٱلْكِـرَامُ وَأَبْنَـاءُ ٱلْكِـرَامِ إِذَا   تَسَـامَعُـوْا بِكَـرِيْـمٍ مَسَّـهُ عَـدَمُ
تَسَـابَقُـوْا فَيُـوَاسِيْـهِ أَخُـوْ كَـرَمٍ   مِنْهُمْ وَيَرْجِعُ بَاقِيْهِمْ وَقَدْ نَدِمُوْا
وَٱلْيَوْمَ مَا بَيْنَهُمْ صَارَ ٱلنَّدَىٰ سَفَهاً   فَيُنْكِـرُوْنَ عَلَـىٰ ٱلْمُعْطِـيْ إِذَا عَلِمُـوْا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [في « ديوانهِ » ٣١٣ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

اِضْـرِبْ بِطَـرْفِـكَ حَيْـثُ شِئْـ ـتَ فَلَـنْ تَـرَىٰ إِلاَّ بَخِيْـلاَ

فقيلَ لهُ [كما في « الأغاني » ٤/٨١] : لقد بَخَّلْتَ الناسَ أَجمعينَ ، قالَ : كذِّبوني ولَو بواحدٍ .

وهٰذا جورٌ منهُ ، وقلَّةُ حياءٍ ، وإِلاَّ . . فَمِن أَينَ لَهُ الأَموالُ الطائِلَةُ التي جمعَها ؟ وَلَـٰكِنَّهُ كانَ شحيحاً خبيثاً ، وكانَ يتخنَّثُ في أَوَّلِ أَمرِهِ ، ولِذا صنعَ معَهُ ابن معنٍ ما ذكرناهُ أَوَّلَ المجلسِ الرابعِ[1] ، وإِنَّما ينطبِقُ بيتُهُ علىٰ أَهلِ بلادِنا ، أَمَّا العصْرُ الذي تزيَّنَ بالبرامِكَةِ . . فلا يجوزُ أَنْ يقالَ فيهِ مِثلُ هٰذا ، وَلَـٰكِنَّهُ مِن أَعدائِهِم ، وجاحدي فضائِلِهِم .

ويروىٰ : أَنَّ لهُ يداً في نكبَتِهِم ، قاتَلَهُ اللهُ ، وأَرضاهُمْ .

* * *

(١) وهو أنَّهُ أَمرَ عبيدَهُ أَنْ يلوطوا بهِ أَمامَ عينيهِ .

المجلس الخامس عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُودِكَ ثَرَّةً	وَٱنْظُرْ إِلَيَّ بِرَحْمَةٍ لاَ أَغْرَقُ

متى ينفع الغيث؟!

يقولُ : أَمطِر سحابَ جودِكَ عليَّ مطراً غزيراً ، ثُمَّ ٱرفقْ بي ؛ لاَ أَغرقُ مِن كثرتِها ، وفيهِ تناقضٌ ؛ إذ كيفَ يطلُبُ الغزيرَ ، ثُمَّ يسأَلُ السلامَةَ مِنَ ٱلغرَقِ ؟ ولَو أَنَّهُ لَم يطلبْ إلاَّ القليلَ بادياً . . لَما ٱحتاجَ إِلىٰ الاحتراسِ ، فهوَ كطرفَةَ بنِ العبدِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٩٧ مِنَ الكاملِ] :

فَسَقَىٰ دِيَارَكَ غَيْرَ مُفْسِدِهَا ... صَوْبُ ٱلرَّبِيعِ وَدِيمَةٌ تَهْمِيْ

إذ لا تناسبَ بينَ قولِهِ : (غَيْرَ مُفْسِدِهَا) وقولِهِ : (تَهْمِيْ) ، وقد وقعَ جريرٌ في شرٍّ مِن ذلكَ ؛ إذ فاتَهُ الاحتراسُ جملةً في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩١١ مِنَ الكاملِ] :

فَسَقَاكِ حَيْثُ حَلَلْتِ غَيْرَ فَقِيْدَةٍ ... هَزِجُ ٱلرَّوَاحِ وَدِيْمَةٌ لاَ تُقْلِعُ(١)

---

(١) هزجُ الرواحِ : يريدُ غيماً برعدٍ فيكثرُ ماؤهُ . وفي المخطوط : (الرِّياح) بدل (الرواح) .

إذ لَو دامَ ما يتمنَّاهُ علىٰ أَهرامِ مصرَ . . لَمَا صارَتْ إلاَّ أَثراً بعدَ عَينٍ ، ومثلُهُ قولُ الناظِمِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٨٦ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱرْتَحَلْتَ فَشَيَّعَتْكَ سَلاَمَةٌ ... حَيْثُ ٱتَّجَهْتَ وَدِيْمَةٌ مِدْرَارُ[1]

وقد علمَ أَنَّ المسافِرَ لا يكرَهُ شيئاً كرهَهُ لِلْمطرِ ، وهوَ القائِلُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٣٣ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـٰكِـنَّ ٱلْغُيُـوْثَ إِذَا تَـوَالَـتْ ... بِـأَرْضِ مُسَـافِـرٍ كَـرِهَ ٱلْغَمَـامَـا

وأَقبحُ منهُ قولُ مهيارِ الديلميِّ ـ في مطلعِ قصيدَةٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَـىٰ دَارَهَـا بِـالـرَّقْمَتَيْـنِ وَحَيَّـاهَـا ... مُلِثٌّ يُعِيدُ ٱلتُّرْبَ فِيْ ٱلدَّارِ أَمْوَاهَا[2]

أَمَّا قولُ ذِي الرُّمَّةِ [في « ديوانهِ » ١/ ٥٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ يَا ٱسْلَمِيْ يَا دَارَ مَيَّ عَلَىٰ ٱلْبِلَىٰ ... وَلاَ زَالَ مُنْهَـلاً بِجَرْعَـائِـكِ ٱلْقَطْرُ

. . فَلا يخرجُ عَن بيتِ طرفَةَ ، وبيتِ الناظِمِ الذي نتكلَّمُ فيهِ ، إلاَّ أَن يجابَ بأَنَّهُ دَعا للدارِ بالسلامَةِ ، وللجرعاءِ حولَها لاَ لَهَا بتوالي الغيوثِ ، فيكونُ مِن قولِهِ عليهِ السلامُ : « **اَللَّهُمَّ حَوَالَيْنَا وَلاَ عَلَيْنَا** »[3] .

وسمعَ أَعرابيٌّ خطيباً يقولُ : اللَّهُمَّ اسقِنا غيثاً مغيثاً ، مجلِّلاً ،

---

(١) الديمةُ : المطرُ الذي ليسَ فيهِ رعدٌ ولا برقٌ .

(٢) الملثُّ : المطرُ يدومُ أَيَّاماً ولم يقلع .

(٣) طرف حديث أخرجه عن أنس رضي الله عنه البخاري (١٠١٤) ، ومسلم (٨٩٧) ، وأبو داوود (١١٧٤) و(١١٧٥) ، والنسائي (١٥١٥) في الاستسقاء .

سحّاً ، طبقاً ، عامّاً ، دائماً[1] ، فقالَ لَهُ : رويدَكَ ؛ حتَّىٰ آويَ إِلىٰ جبلٍ يعصمُني مِنَ ٱلماءِ ، فإِنَّكَ لا تطلُبُ إلاَّ طُوفانَ نوحٍ .

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٣٩١ مِنَ الكاملِ] :

أَنْــتَ ٱمْــرُؤٌ جَلَّلْتَنِــيْ نِعَمــاً ... أَوْهَتْ قُوَىٰ شُكْرِيْ فَقَدْ ضَعُفَا

للجود.. حدود وكل ما زاد على حده.. انقلب إلى ضده على رأيٍ!!

وقالَ دِعْبِلٌ [في « ديوانهِ » ٤٢٥ مِنَ الكاملِ] :

أَصْلَحْتَنِيْ بِٱلْبِرِّ بَلْ أَفْسَدْتَنِيْ ... وَتَرَكْتَنِيْ أَتَسَخَّطُ ٱلإِحْسَانَا[2]

ولمَّا ٱنتهىٰ مروانُ ٱبنُ أَبي الجنوبِ في مدحِهِ للمتوكِّلِ إِلىٰ قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

فَأَمْسِكْ نَدَىٰ كَفَّيْكَ عَنِّيْ وَلاَ تَزِدْ ... فَقَدْ خِفْتُ أَنْ أَطْغَىٰ وَأَنْ أَتَجَبَّرَا

.. قالَ [في « الأغاني » ١٢/٩٩] : لاَ واللهِ حتَّىٰ أُغرقَكَ بجودي ، ولا تبرَحْ حتَّىٰ تسألَ حاجَةً ، فسأَلَهُ ضيعَةً ، فأَعطاهُ إِيَّاها .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/٢١ـ٢٢ مِنَ الكاملِ] :

أَخجَلْتَنِيْ بِنَدَىٰ يَدَيْكَ فَسَوَّدَتْ ... مَـا بَيْنَنَـا تِلْـكَ ٱلْيَـدُ ٱلْبَيْضَـاءُ

صِلَةٌ غَدَتْ فِيْ ٱلنَّاسِ وَهْيَ قَطِيْعَةٌ ... عَجَـبٌ وَبِـرٌّ عَـادَ وَهْـوَ جَفَـاءُ

وكثيراً ما نقولُ : إِنَّ الناظِمَ لا يدَعُ شاذَّةً ولا فاذَّةً ، وممَّا يؤَكِّدُ ذلكَ أَنَّهُ أَغارَ علىٰ هـٰذا المعنىٰ ، فلم يحسنِ ٱلاتِّباعَ ، بل سقطَ علىٰ أُمِّ رأْسِهِ ، وذلكَ حيثُ يقولَ [في « العُكبَريّ » ١/٢٩ مِنَ الكاملِ] :

---

(١) بعض حديث أخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما الشافعي في « الأم » (١/ ٢٢٢) وعنه البيهقي في « معرفة السنن » (٢٠١٥) و« السنن الكبرى » (٣/ ٣٥٥ و٣٥٦) في الصلاة .

(٢) أتسخَّطُ : أستقلُّ .

وَلَجُدْتَ حَتَّىٰ كِدْتَ تَبْخَلُ حَائِلاً   لِلْمُنْتَهَىٰ ، وَمِنَ ٱلسُّرُوْرِ بُكَاءُ

إذ لا يُتَصوَّرُ أَن ينتهيَ ٱلجودُ إلىٰ ضدِّهِ مِنَ ٱلْبخلِ إلاَّ بالمَعْسرةِ ، ولا يمكنُ إرادةُ ذلكَ ، إنَّما يُتصوَّرُ مثلُ ما أَجادَهُ المعريُّ في قولِهِ [في «سقطِ الزند» ١٠٦ مِنَ البسيط] :

لَوِ ٱخْتَصَرْتُمْ مِنَ ٱلإِحْسَانِ زُرْتُكُمُ   وَٱلْعَذْبُ يُهْجَرُ لِلإِفْرَاطِ فِيْ ٱلْخَصَرِ (١)

من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير

ومِنَ المبالغَةِ في الإحسانِ ، ما كانَ مِن هَرِمِ بنِ سنانٍ إلىٰ زهيرٍ ، فلقد آلىٰ علىٰ نفسِهِ أَنْ لا يسلِّمَ عليهِ إلاَّ أَعطاهُ غرَّةً مِن مالِهِ ، فكانَ زهيرٌ بعدَ ذلكَ يمرُّ بالقومِ فيهِم هَرِمٌ ، فيقولُ [في « وفيات الأعيان » ٦/ ٢٦٤] : عِموا صباحاً خَلا هَرِماً ، وخيرَكُمْ تركْتُ .

أبو دلف وعلي بن جبلة

ويروىٰ [في « الأغاني » ٨/ ٢٦٥] : أَنَّ أَبا دُلَفٍ العجليَّ أَخجلَ عليَّ بنَ جبلَةَ بتوالي العَطايا ، وإفاضَةِ الندىٰ ، فٱنقطَعَ عنهُ ، فأَرسَلَ إليهِ يستزيرُهُ ، فكتبَ إليهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هَجَرْتُكَ لَمْ أَهْجُرْكَ مِنْ كُفْرِ نِعْمَةٍ   وَهَلْ يُرْتَجَىٰ نَيْلُ ٱلزِّيَادَةِ بِٱلْكُفْرِ ؟
وَلٰكِنَّنِـي لَمَّـا أَتَيْتُـكَ زَائِـراً   فَأَفْرَطْتَ فِيْ بِرِّيْ عَجَزْتُ عَنِ ٱلشُّكْرِ
فَـمِ ٱلآنَ لاَ آتِيْـكَ إِلاَّ مُسَلِّمـاً   أَزُوْرُكَ فِيْ ٱلشَّهْرَيْنِ يَوْماً أَوِ ٱلشَّهْرِ
فَـإِنْ زِدْتَنِـيْ بِـرّاً تَـزَايَـدْتُ جَفْـوَةً   وَلَمْ تَلْقَنِيْ طُوْلَ ٱلْحَيَاةِ إِلَىٰ ٱلْحَشْرِ

فأُعجبَ بِها أَبو دُلَفٍ ، وكانَ حاضرَ الجوابِ ، شديدَ العارضَةِ ، فأَجابَهُ مِن ساعتِهِ بقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ رُبَّ ضَيْفٍ طَارِقٍ قَدْ بَسَطْتُهُ   وَآنَسْتُهُ قَبْلَ ٱلضِّيَافَةِ بِـٱلْبِشْرِ

(١) العذبُ : الماءُ الباردُ . الإفراطُ : الإسرافُ . الخَصَرُ : البرودةُ .

أَتَانِي يُرَجِّيْنِيْ فَمَا حَالَ دُوْنَهُ وَدُوْنَ ٱلْقِرَىٰ وَٱلْعُرْفِ مِنْ نَائِلِيْ سَتْرِيْ
وَجَدْتُ لَهُ فَضْلاً عَلَيَّ بِقَصْدِهِ إِلَيَّ وَبِرّاً زَادَ فِيْهِ عَلَىٰ بِرِّيْ
فَزَوَّدْتُهُ مَا لاَ يَدُوْمُ بَقَاؤُهُ وَزَوَّدَنِيْ مَدْحاً يَدُوْمُ عَلَىٰ ٱلدَّهْرِ

هٰؤُلاءِ واللهِ طوالُ الباعِ ، وبمثلِ أخبارِهم تشنَّفُ الأسماعُ ، ولا غروَ ؛ فالمأمونُ معَ سعَةِ حلمِهِ قد ٱغتاظَ مِن أَماديحِ ٱبنِ جبلَةَ لأَبي دُلَفٍ [كما في « الأغاني » ٢٠/٢١] وما زالَ يتحيَّنُ لهُ الفرصَ ، حتَّىٰ ٱستلَّ لسانَهُ مِن قفاهُ ؛ حسداً علىٰ ما خلَّفَهُ لأَبي دلفٍ مِن صادِقِ المدْحِ الذي لا يَبْلَىٰ ، وقد سبقَ قبيلَ المجلسِ الحادي عشرَ ما يتَّصلُ بهٰذا الكلامِ .

لا إسراف في الخير

ومِنَ ٱلمعلوم أَنَّ البسطَةَ محمودَةٌ في كلِّ حالٍ ، وقد قالَ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ ﴾ [الإسراء : ٢٩] ، وقالَ عزَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وقالَ بعضُهم [في « خِزانة الأدب » ١/٣٥٥] : لا خيرَ في السرفِ ، فقالَ آخرُ : لا إِسرافَ في الخيرِ . وفي العكْسِ نظرٌ .

وقد سبقَ ـ في المجلسينِ السادسِ والثالثَ عشرَ ـ بعضُ ما جاءَ في المفاضلَةِ بينَ الفقرِ والغنىٰ ، مَعَ الاتفاقِ علىٰ مدحِ الكفافِ ، لأَنَّ اللهَ ـ جلَّ شأنُهُ ، كما في سورَةِ الفجرِ ـ سمَّىٰ كِلا الأَمرينِ بلاءً .

وتكلَّمَ الناسُ في مجلسِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ عَنِ ٱلأَنْعَمِ عيناً ، الأَرغدِ عيشاً ، فأَفاضوا في القولِ ، وذَهبوا المذاهبَ ، وسلَكوا الوِهادَ واليَفاعَ ، حتَّىٰ سَكَتوا ، فقالَ عبدُ الملِكِ : أَسعدُ الناسِ

حالاً ، وأَنعمُهُم بالاً ، مَن لهُ دارٌ تؤيهِ ، وزوجٌ ترضيهِ ، ومالٌ يكفيهِ ، ولا يأتينا ، ولا نأتيهِ .

وبعثَ زيادُ ابنُ سميَّةَ ليلةً بـ(البصرَةِ) ـ بعدَ هداءَةٍ مِنَ الليلِ ـ إلىٰ جماعَةٍ مِن أهلِ العلمِ ، فيهِم الأحنفُ بنُ قيسٍ ، فقالَ : حدِّثوني عَن جهدِ العربِ ؛ حتَّىٰ أشكُرَ اللهَ علىٰ ما أنعمَ ، فقد كانَ عندي جماعَةٌ مِنَ الفرسِ يتواصفونَ ما كانَتِ الأكاسرَةُ فيهِ مِنَ النعيمِ ، حتَّىٰ كدْتُ أستصْغِرُ ما مَنَّ اللهُ بهِ علَينا .

الجود العربي في سنة القحط

قالَ أحدُهم : حدَّثَني ابنُ عمٍّ لي صدوقٌ ، قالَ : خرَجْتُ في عامٍ أصابَ العربَ فيهِ قحطٌ شديدٌ ، حتَّىٰ أكَلوا العِظامَ ، فطفقْتُ ثلاثاً لا أطعَمُ إلاَّ مِنْ جنسٍ ما يأكُلُهُ بَعيري مِنْ حشراتِ الأرضِ ، حتَّىٰ دفعْتُ إلىٰ حيٍّ ، فَقالوا : مَن ؟ قُلْتُ : ضيفٌ ، قالَتِ امرأَةٌ مِنهم : واللهِ ما تركَ لَنا الدهرُ مِن قِرىً ، ولكنِ اذهَبْ إلىٰ تلكَ القبَّةِ ، فتيمَّمتُها ، فنادىٰ رَئيسُها غلامَهُ : هَل تجِدُ رِسْلاً[1] ؟ قالَ : لاَ ، إلاَّ قدرَ ما يمسكُ رمقَكَ في فلانَةٍ ـ لناقَةٍ سمَّاها ـ قالَ : هاتِهِ لضيفِنا ، فأخذَ يحلُبُ ، قالَ ابنُ عمِّي : فواللهِ لقد سمعْتُ الأغاني ، والمثاني ، وأحاديثَ الأحبابِ في التَّلاقي علىٰ طولِ البِعادِ ، فما كانَ شيءٌ ألذَّ في سَمعي . . مِن صوتِ الشَّخَبِ في تلكَ الليلَةِ ، فلمَّا هويتُ لأخذِ الصحفَةِ . . سقطَتْ مِن يدي ، وذهبَ ما فيها ، فواللهِ لقد ذُقْتُ فقدَ الأهلِ ، ومرارَةَ الثُّكْلِ ، وخسارَةَ المالِ ، فلَم أرَ مصيبَةً أعظَمَ مِنِ انكفاءِ تلكَ العلبَةِ علىٰ مثلِ حالَتي ، فلمَّا عرَفَ صاحبُ القبَّةِ جهدَ ما بي . . عمَدَ إلىٰ ناقَةٍ ، فكشَفَ عَن عرقوبِها ،

---

(١) الرِّسْلُ : اللبَنُ .

وقالَ : دونَكَ السَّنامُ ، فلمَّا ٱمتلأَتْ بَطني مِنَ ٱلشواءِ ، وشربْتُ عليهِ مِن ماءٍ في شنٍّ . . خرَرْتُ مغشياً عليَّ ، وما أَيقظَني إلاَّ بردُ السحَرِ ، فقالَ زيادٌ : قطنيَ[1] ، فالحمدُ للهِ الذي مَنَّ عَلَينا بمحمدٍ ﷺ ، وهَدانا إِلىٰ الإِسلام ، فمَنْ صاحِبُ القبَّةِ ؟ قلتُ : عامرُ بنُ الطفيلِ ، فقالَ : كانَ واللهِ أَهلاً لَها أَبو عليٍّ ، فَلا أَشُكُّ أَنَّهُ ٱلأَحقُّ بقولِهِ [في «ديوانِ ذي الرُّمَّةِ» ١/١٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱعْتَذَرَتْ بِٱلْمَحْلِ عَنْ ذِيْ ضُرُوْعِهَا ... إِلَىٰ ٱلضَّيْفِ يَجْرَحْ فِيْ عَرَاقِيْبِهَا نَصْلِيْ[2]

من ليس له حظ . . لا يتعب ولا يشقى

وذكرتُ بها : أَنَّ يحيىٰ بنَ خالِدٍ البرمكيَّ ٱشتهىٰ اللَّحمَ في محبِسهِ ، فبعدَ جهدٍ قَدَرَ الفضلُ علىٰ أَنْ يشتريَ لَهُ بدرهَمٍ ، وطبخَهُ علىٰ ضوءِ السراجِ ، يمسكُهُ تارةً بيمينِهِ ، وبيسراهُ أُخرىٰ ، حتَّىٰ إِذا ٱنتهىٰ وتناولَهُ والدُهُ . . ٱنكفأَ عليهِ ، فكادَتْ تتبعُهُ نفسُهُ .

الا موت يباع فاشتريه

و[روى ابن خلكان في «وفيات الأعيان» ٢/١٢٤ أنه] كانَ الوزيرُ المهلَّبيُّ علىٰ غايَةٍ مِنَ الضيقِ ، حتَّىٰ كانَ في سفرٍ معَ صاحبٍ لَهُ[3] ، فٱشتهىٰ ٱللَّحمَ ، ولَم يَكُن معَهُ إِلاَّ درهَمٌ ، فٱشتروهُ ، وبعدَ أَن نضجَ . . ٱنكفأَ عليهِم ، فتبرَّمَ المهلَّبيُّ بالحياةِ ، وقالَ [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ مَـوْتٌ يُبَـاعُ فَـأَشْتَـرِيْـهِ ... فَهَـٰذَا ٱلْعَيْشُ مَـالاَ خَيْـرَ فِيْـهِ
إِذَا أَبْصَـرْتُ قَبْـراً مِـن بَعِيْـدٍ ... وَدِدْتُ لَـوَ ٱنَّنِـيْ فِيْمَـا يَلِيْـهِ
أَلاَ رَحِـمَ ٱلْمُهَيْمِـنُ رُوْحَ عَبْـدٍ ... تَصَـدَّقَ بِـٱلْـوَفَـاةِ عَلَـىٰ أَخِيْـهِ

---

(١) قطني : أي حسبي .
(٢) أي : وإن تعتذر إبلي بالمحلِ فلم يكن في ضروعِها لبنٌ . . نحرتُها للضيفِ .
عن ذي ضروعِها : أي اللبن . نَصْلِي : سيفي .
(٣) وهو أبو الحسين العسقلاني .

الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب

ثمَّ ٱفترقا ، وضربَ الدهرُ ضرباتِهِ ، وترقَّتْ حالُ المهلَّبيِّ إلىٰ أَعظمِ درجةٍ مِنَ ٱلوزارةِ ، فرضيَ عَنِ ٱلأيَّامِ ، وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

رَقَّ ٱلـزَّمَـانُ لِفَـاقَتِـي ... وَرَثَـىٰ لِطُـولِ تَحَـرُّقِـي
وَأَنَـالَنِـي مَـا أَشْتَهِـي ... وَأَقَـالَنِـي مَـا أَتَّقِـي
فَـلأَغْفِـرَنَّ لَـهُ ٱلْكَثِيـ ... ـرَ مِـنَ ٱلـذُّنُـوبِ ٱلسُّبَّـقِ
حَتَّـىٰ جِنَـايَتَـهُ لِمَـا ... فَعَـلَ ٱلْمَشِيـبُ بِمَفْـرِقِـي

وبقيَ رفيقُهُ مِنَ الدهرِ في بؤسٍ ، وطالعٍ منحوسٍ ، وحالٍ موجعٍ ، وفقرٍ مدقعٍ ، حتَّىٰ سمعَ بما ٱنتهىٰ إليهِ صاحبُهُ ، فقصدَهُ وأَنهىٰ إليهِ [مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ قُـلْ لِلْـوَزِيـرِ فَـدَتْـهُ نَفْسِـي ... مَقَـالَـةَ مُـذْكِـرٍ مَـا قَـدْ نَسِيْـهِ
أَتَـذْكُـرُ إِذْ تَقُـوْلُ لِضِيْـقِ عَيْـشٍ ... أَلاَ مَـوْتٌ يُبَـاعُ فَـأَشْتَـرِيْـهِ

فأَمرَ لهُ في عاجلِ الحالِ بسبعِ مئَةِ درهَمٍ ، وكتبَ في رقعتِهِ : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [البقرة : ٢٦١] ، ثمَّ دعاهُ ، وخلعَ عليهِ ، وقلَّدَهُ عملاً يرتزِقُ منهُ .

ويشبهُ ذلكَ : أَنَّ بعضَ أُمراءِ (مصرَ) كانَ معَ تاجرٍ جلبَهُ إليها ، فٱرتقَتْ بهِ ٱلأحوالُ ، وٱنحطَّت بذلكَ التاجرِ ، حتَّىٰ ٱفتقرَ ، فكتبَ إليهِ رقعَةً ، فيها [الأبيات في « الإيضاح في علوم البلاغة » ٣٨٥ مِنَ البسيطِ] :

كُنَّـا جَمِيْعَيْـنِ فِـيْ كَـدٍّ نُكَـابِـدُهُ ... وَٱلْقَلْبُ وَٱلطَّرْفُ مِنَّا فِيْ أَذىً وَقَذَىٰ
وَٱلآنَ أَقْبَلَتِ ٱلدُّنْيَا عَلَيْكَ بِمَا ... تَهْوَىٰ فَلاَ تَنْسَنِيْ إِنَّ ٱلْكِرَامَ إِذَا

وقولُهُ : (إِنَّ ٱلْكِرَامَ إِذَا) هوَ أَوَّلُ بيتٍ لأَبي تمَّامٍ ، أُولعَ الشعراءُ بتضمينِهِ ، وهوَ [في « ديوانهِ » مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْكِـرَامَ إِذَا مَـا أَيسَـرُوْا ذَكَـرُوْا مَنْ كَانَ يَأْلَفُهُمْ فِيْ ٱلْمَنْزِلِ ٱلْخَشِنِ

ثـم رأَيتـهُ معـزوّاً عنـدَ ٱبـنِ خلّكـانَ [في « وفيَـاتِ الأَعيـانِ » ١/٤٦] لإبراهيمَ بنِ العبَّاسِ الصوليِّ ، وقبلَهُ [مِنَ البسيطِ] :

أَوْلَـىٰ ٱلْبَـرِيَّـةِ طُـرّاً أَنْ تُـوَاسِيَـهُ عِنْدَ ٱلسُّرُوْرِ ٱلَّذِيْ وَاسَاكَ فِيْ ٱلْحَزَنِ

استطراد على المتنبي

ولو أَنَّ الناظِمَ كانَ مِن رجالِ التقوىٰ والصلاحِ . . لَمَا فسَّرنا قولَهُ : (لاَ أَغْرَقُ) إلاَّ بإيثارِ الكَفافِ ؛ لأَنَّ من تدسَّسَ في الشهواتِ وٱنغمَسَ في الشُبهاتِ . . لَم يكَد يتخلَّصُ عَنِ ٱلآفاتِ ، ومعلومٌ أَنَّ رجالَ الأَعمالِ ، وكبارَ الآمالِ ، لا يكونُ قُصَاراهُمْ[1] المالُ ، وقد عرفْتَ حالَ الناظِمِ ممَّا أَطنَبنا فيهِ غيرَ مرَّةٍ ، ويعجبُني قولُ لِسانِ الدينِ بن الخطيبِ [مِنَ الكاملِ] :

مَنْ مُبْلِغٌ قَوْمِيْ عَلَىٰ بُعْدِ ٱلْمَدَىٰ وَٱلْبَيْـنُ بَيْنَهُـمُ وَبَيْنِـيْ حَـالاَ
إِنِّيْ قَطَعْتُ ٱلْبَحْرَ لِلْبَحْرِ ٱلَّذِيْ أَغْنَـىٰ وَأَقْنَـىٰ وَٱجْتَبَـىٰ وَأَنَـالاَ
فَإِذَا نَفَضْتُ جَوَانِحِيْ عَنْ مَطْمَعٍ لَمْ أُلْفِ لِلطَّمَعِ ٱلْمُخِلِّ مَجَالاَ
إِلاَّ رِضَـا ٱللهِ ٱلَّـذِيْ هُـوَ غَـايَـةٌ لأُوْلِيْ ٱلنُّهَىٰ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ
وَزِيَـارَةَ ٱللَّحْـدِ ٱلَّـذِيْ أَنْـوَارُهُ أَبَـداً بِمِشْكَـاةِ ٱلْهُـدَىٰ تَتَـلاَلاَ

وهوَ مناسِبٌ لِمَا سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ من تدرُّجِ الأَرواحِ العاليَةِ ، في معارجِ الشوقِ ، حتَّىٰ تصلَ إِلىٰ الغايَةِ ، وٱستأْنسنا لهُ

(١) قصاراهُم : غايتُهم وطلبتُهم .

بِما كانَ من حالِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ، ودَلَّلْنا عليهِ بقولِ أفضلِ البشَرِ : « اللَّهُمَّ الرَّفِيْقَ الأَعْلَىٰ »[1] وقَرَنّا إليهِ حالَ العبدِ الصالحِ في قولِهِ : ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف : ١٠١] .

ولله دَرُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ أيضاً في قولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

كَمْ مَرْكَبٍ أَنْضَيْتُ فِيْ طَلَبِ الْهَوَىٰ   وَظَلامِ مَسْعىً تِهْتُ فِيْهِ ضَلالاَ
وَقَفَتْ بِهِ قَدَمِيْ عَلَىٰ نَدَمِيْ أَسىً   مَنْ رَامَ غَيْرَ اللهِ رَامَ مُحَالاَ

* * *

(١) مر الحديث وتخريجه في غير هذا المجلس .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

كَذَبَ ٱبْنُ فَاعِلَةٍ يَقُوْلُ بِجَهْلِهِ	مَاتَ ٱلْكِرَامُ وَأَنْتَ حَيٌّ تُرْزَقُ

شرح المطلع وفيه مباحث

كنَّىٰ بالفاعِلَةِ عَنِ الزانيَةِ ، يقولُ : مَن قالَ : إِنَّ الكرامَ مَاتوا ، وأَنتَ حيٌّ . . فهوَ كاذِبٌ ، وأُمُّهُ زانيَةٌ ، ويروىٰ (تَرْزُقُ) بالبناءِ للفاعِلِ ، وفيهِ مباحِثُ :

المبحث الأول على المطلع: هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم؟

الأَولُ : أَنَّهُ لا ٱعتراضَ علىٰ مَن يقولُ : ماتَ الكرامُ ، معَ وجودِ الأَفرادِ مِنهم ؛ لأَنَّ الحكمَ علىٰ الغالِبِ ، وإِلاَّ . . فالزمانُ لاَ يخلو ـ وإِن فسدَ ـ عَنِ ٱلخيرِ ، كما لا يسلَمُ ـ وإِن صلُحَ ـ عَنِ ٱلشَّرِّ ، ولَوِ ٱختلَّ ذلكَ . . لَفَسَدَ النظامُ ، وسقطَ الامتحانُ ، وخرجتِ ٱلدنْيا عَن طبيعتِها ، وصارَتْ إِمَّا خيراً محضاً كالجنَّةِ ، أَو شرّاً محضاً كالنارِ ، وما عمدَ أَبو الطيِّبِ إِلاَّ إِلىٰ ما ٱعتادَهُ مِنَ ٱلغلوِّ ، وإِلاَّ . . فالناسُ تشكو قلَّةَ الكرامِ مِن لدنْ آدمَ عليهِ السَّلامُ ، وكلٌّ يذمُّ زمانَهُ ؛ لأَنَّهُ لا يصفو إِلاَّ لسفلَةِ الناسِ ، ولئَامِ الخلْقِ ، فَهم الذينَ يستريحونَ ، مِن حيثُ يتعَبُ الكرامُ ، ولئِن قالَ أَبو نواسٍ ـ ما معناهُ إِنْ أَخطأْتُ لفظَهُ[١] ـ :

---

(١) البيتُ في « الديوانِ » مِن قصيدتِهِ التي مطلعُها [مِنَ البسيطِ] :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِيْ فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ	وَدَاوِنِيْ بِالَّتِيْ كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

والبيتُ هوَ :

دَارَتْ عَلَىٰ فِتْيَةٍ دَانَ ٱلزَّمَانُ لَهُمْ	فَمَا يُصِيبُهُمُ إِلاَّ بِمَا شَاؤُوْا

صَفَتْ لَهُمُ ٱلأَيَّامُ مِنْ مُوْجِعَاتِهَا   فَمَا تَتَلَقَّاهُمْ بِغَيْرِ الَّذِيْ شَاؤُوْا

.. فإنَّما يصفُ سقَّاطاً مثلَهُ ، أَو هوَ مِنَ الشاذِّ الذي لا يعلَقُ عليهِ الحكْمُ ، وقد جاءَ في الحديثِ ما يقربُ مِن ذلكَ في صفاتِ الأَبدالِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يصحُّ ، ولا تنهضُ بهِ حجَّةٌ ، ولَو ذهبْنا معَ الناظِمِ إِلى المشاحَّةِ .. لَرَميناهُ بِحَجَرِهِ ؛ إِذ هوَ أَكثرُ الناسِ قولاً بموتِ الكرامِ ، وتغيُّرِ الأَيَّامِ ، أَليسَ هوَ القائِلَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٩ مِنَ البسيطِ] :

وَإِنَّمَا نَحْنُ فِيْ جِيْلٍ سَوَاسِيَةٍ   شَرٍّ عَلَىٰ ٱلْحُرِّ مِنْ سُقْمٍ عَلَىٰ ٱلْبَدَنِ[1]

وقولُهُ : (سَوَاسِيَةٍ) أَي : متساوينَ في اللؤمِ والخسَّةِ ؛ إِذ لا يقالُ : سواسيةٌ في الخيرِ ، وقالَ بعضُهم : ما عنىٰ اللهُ إِلاَّ أَهلَ زمانِنَا بقولِهِ : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ﴾ [الملك : ٣] . فإِنَّهم سواسيةٌ في الدناءَةِ والانحطاطِ .

وهوَ القائِلُ أَيضاً [في « العُكبريّ » ٤/ ٧٣ مِنَ الوافرِ] :

بِأَرْضٍ مَا ٱشْتَهَيْتُ رَأَيْتُ فِيْهَا   فَلَيْسَ يَفُوْتُهَا إِلاَّ ٱلْكِرَامُ

وقالَ [في « العُكبري » ٤/ ١٥١ مِنَ الوافرِ] :

أَمَا فِيْ هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا كَرِيْمٌ   تَزُوْلُ بِهِ عَنِ ٱلْقَلْبِ ٱلْغُمُوْمُ

---

(١) الجيلُ : الجماعةُ من الناس ، ومنه ما قرىء شذوذاً : « وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِيْلاً » بالياء ، واحد الأجيال كما في « الكشاف » (٣/ ٣٢٨) وهي قراءة علي رضي الله عنه ، وفيها تسع قراءات أخر كذلك كما في مختصر شواذ القرآن (ص/ ١٢٦) .

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٦ مِنَ البسيطِ] :

لاَ تَطْلُبَـنَّ كَـرِيـمـاً بَعْـدَ رُؤْيَتِـهِ   إِنَّ ٱلْكِرَامَ بِأَسْخَاهُمْ يَداً خُتِمُوْا

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٨١-٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

كَفَىٰ بِكَ دَاءً أَنْ تَرَىٰ ٱلْمَوْتَ شَافِياً   وَحَسْبُ ٱلْمَنَـايَـا أَنْ يَكُـنَّ أَمَـانِيَـا

تَمَنَّيْتَهَـا لَمَّـا تَمَنَّيْـتَ أَنْ تَـرَىٰ   صدِيْقاً فَأَعْيَا، أَوْ عَدُوّاً مُدَاجِيَا[1]

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٩ مِنَ الكاملِ] :

وَتَعَـذُّرُ ٱلأَحْـرَارِ صَيَّـرَ ظَهْـرَهَـا   إِلاَّ إِلَيْـكَ عَلَـيَّ فَـرْجَ حَـرَامِ[2]

فبعضُ هـٰذا يقتضي أَنْ يكونَ كاذِباً ، وأُمُّهُ فاعلَةٌ ، إلاَّ أَن يجابَ : بأَنَّ البيتَ الذي نتكلَّمُ فيهِ كانَ في صباهُ ، ولعلَّ الكرامَ إِذ ذاكَ كثيرٌ ، ثمَّ تفانَوا بعدَهُ ، كما جرىٰ علىٰ عهدِنا نظيرُهُ ، حسبَما يعرفُ مِن أَماديحِنا للأَشياخِ الكرامِ ، ثمَّ ٱسودَّ ظنُّنا ؛ إِذ أجلناهُ في هـٰذا السوادِ المظلمِ ، بعدَ ٱنتثارِ عقودِهم ، رضوانُ اللهِ تعالىٰ ورحماتُهُ عليهِم .

وما أَحسنَ قولَ المعريِّ [في « سقطِ الزندِ » ١٣٣ مِنَ الخفيفِ] :

كَـمْ أَرَدْنَـا ذَاكَ ٱلـزَّمَـانَ بِمَـدْحٍ   فَشُغِلْنَـا بِـذَمِّ هَـٰـذا ٱلـزَّمَـانِ

المبحث الثاني على المطلع

الثاني : لا تغايرَ بينَ قولِ القطبِ الحدَّادِ [مِنَ الطَّويلِ] :

---

(١) أَعيا : صعبَ وعزَّ . المداجي : الساترُ للعداوةِ ، وهوَ من الدجىٰ ، وهيَ الظلمةُ .

(٢) أي : تعذُّر وجودِ الأحرارِ وقلَّتُهم صيَّرَ ظهرَ هذهِ الناقةِ عليَّ في ركوبِها إلى قصدِ سواكَ حراماً ، كركوبِ الفرجِ الحرامِ ، يريدُ الزنا .

مَضَىٰ ٱلصِّدْقُ وَأَهْلُ ٱلصِّدْقِ يَا سَعْدُ قَدْ مَضَوْا
فَـلاَ تَطْلُبَـنَّ ٱلصِّـدْقَ فِـيْ أَهْـلِ ذَا ٱلـزَّمَـنْ

وقولِ أَبي مدينَ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱعْلَـمْ بِـأَنَّ طَـرِيْـقَ ٱلْقَـوْمِ دَارِسَـةٌ وَحَالُ مَنْ يَدَّعِيْهَا ٱلْيَوْمَ كَيْفَ تَرَىٰ

وبينَ قولِ سيِّدِنا عبدِ الرحمـٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بلفقيهِ [مِنَ الرَّجزِ] :

يَقُوْلُ قَوْمٌ عَنْ هُدَاهُمْ ضَلُّوْا قَدْ عُدِمُوْا فِيْ عَصْرِنَا أَوْ قَلُّوْا
فَقُـلْ لَهُـمْ كَـلاَّ وَلَـٰكِـنْ جَلُّـوْا عَـنْ أَنْ تَـرَاهُـمْ أَعْيُـنُ ٱلْجُهَّـالِ

لأَنَّ الأَوَّلَ هوَ الأَغلبُ الأَكثرُ الذي يناطُ بهِ الحكمُ ، وللهِ في حكمِ العمومِ خصوصٌ ، كَما أَجابَ بهِ بعضُ القضاةِ ، وقد قيلَ : جميعُ قضاةِ المسلمينَ لصوصٌ ، في شعرٍ ذكرَهُ ٱبنُ السبكيِّ في « طبقاتِهِ » [٣/ ١٤٣] ونسيتُهُ(١) .

وأَمَّا الثاني . . فإِنَّهُ نظرٌ خاصٌّ إِلىٰ المعنىٰ ، لا إِلىٰ الصورَةِ ،

---

(١) قَدِمَ أَبو جعفرٍ البحّاثُ علىٰ الصَّاحبِ بنِ عبَّادٍ ، فارتضىٰ تصرُّفَهُ في العلمِ ، وتفنُّنَهُ في أَنواعِ الفضلِ ، وعرضَ عليهِ القضاءَ ، علىٰ شرطِ ٱنتحالِ مذهبِهِ ـ يعني الاعتزالَ ـ فامتنعَ وقالَ : لا أَبيعُ الدِّين بالدُّنيا ، فتمثَّلَ الصاحبُ بقولِ القائِلِ :

فَـلاَ تَجْعَلَنِّـيْ لِلْقَضَـاءِ فَـرِيْسَـةً فَـإِنَّ قُضَـاةَ ٱلْعَـالَمِيْـنَ لُصُـوْصُ
مَجَـالِسُهُـمْ فِيْنَـا مَجَـالِسُ شُـرْطَـةٍ وَأَيْدِيهِمُ دُوْنَ ٱلشُّصُوْصِ شُصُوْصُ

فأَجازَهُ البحّاثُ بديهةً بقولِهِ :

سِـوَىٰ عُصْبَـةٍ مِنْهُـمْ تُخَـصُّ بِعِفَّـةٍ وَللهِ فِـيْ حُكْـمِ ٱلْعُمُـوْمِ خُصُـوْصُ
خُصُـوْصُهُـمُ زَانَ ٱلْبِـلاَدَ وَإِنَّمَـا يَـزِيْـنُ خَـوَاتِيْـمَ ٱلْمُلُـوْكِ فُصُـوْصُ

فأهلُ الحقِّ في الصورَةِ قليلٌ ، لـٰكنَّهم في المعنىٰ كثيرٌ ، قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٣٠ مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْكِـرَامَ كَثِيْـرٌ فِـيْ ٱلْبِـلَادِ وَإِنْ   قَلُّوْا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوْا[1]

فَلا تَخالُفَ بينَ القولينِ ، هـٰذا مِن جهَةٍ ، والأُخرىٰ أَنَّ أَهلَ الجهلِ والفسادِ مُولَعونَ بإِنكارِ فضائِلِ العلماءِ والصلحاءِ ، وغمطِ فضائِلِهم ، وكتمِ مناقبِهِم ، فهمُ الذينَ ٱعتمدَهم الثاني بتوبيخِهِ وتقريعِهِ ، بدليلِ ما وسمَهُم بهِ مِنَ ٱلجهالَةِ ، وهـٰؤلاءِ هُمُ الذينَ إِذا قالَ أَحدُهم : هَلَكَ الناسُ . . فهوَ أَشدُّهم هلاكاً[2] ، أَمَّا أَهلُ الفضلِ والعلمِ . . فلا معابَةَ عليهِم في تشكِّي الزمانِ ، وتنقُّصِ أَهلِهِ ؛ لأَنَّهم لا يقولونَ إِلاَّ الحقَّ في ذلكَ .

وأَيضاً : فالحكمُ بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ ، ومِن أَينَ لِلْجاهلِ أَن يحكمَ علىٰ أَحدٍ بالفسادِ أَوِ الصلاحِ ، وهوَ لا يعرفُ حدَّهُ ، ولا ماهيَّتَهُ ؟! وقد صرَّحوا في بابِ التزكيَةِ مِنَ ٱلفقهِ ، وبابِ الجرحِ والتعديلِ مِنَ ٱلحديثِ ، أَنْ لا بدَّ للمزكِّي والجارِحِ من معرفَةِ الأَسبابِ ، والخبرَةِ بها ، وإِلاَّ . . كانَ مِنَ ٱلتقوُّلِ علىٰ اللهِ ، والقولِ في دينِهِ بغيرِ علمٍ ، بخلافِ العالِمِ ، فإِنَّهُ لا يتكلَّمُ إِلاَّ عَن برهانٍ ، ولا ينطِقُ إِلاَّ عَن حجَّةٍ ، فٱعلَم هـٰذا كلَّهُ ، وَإِلاَّ . . ٱرتدَّ علىٰ العلماءِ

---

(١) أي : إنَّ الكرامَ وإن قلَّ عددُهم . . فإنَّ فعلَهم كبير كما أن غيرهُم منَ اللئامِ وإن كانوا كثيري العدد . . لا وجود لهم .

(٢) لما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أَهْلَكَهُم » . وعزاه في « الفتح الكبير » (١/ ١٣٣) إلى أحمد ومسلم وأبي داود .

ما مَلؤوا بهِ كتبَهُم مِنَ الحطِّ علىٰ أَبناءِ زمانِهم ، والتشهيرِ بهِم ، وفي طليعتِهم الإمامُ الغزاليُّ ؛ فإنَّهُ مِن أَكثرِهم زرايةً علىٰ أَهلِ زمانِهِ .

المبحث الثالث على المطلع: المتنبي لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا بمعاملتهم له

والثالثُ : أَنَّ الناظِمَ لا يزنُ كرمَ الناسِ ولؤمَهُم إِلاَّ بمعاملتِهم لَهُ ، ولا يقايِسُ أَحوالَهم إِلاَّ بما يصنعونَ إليهِ ، فمَن عرفَ لَه حقَّهُ . . فهوَ الكريمُ عندَهُ ، ومَن لا . . فَلا ، كَما قالَ [في « العُكبَريّ » ٣/٢٦٨ مِنَ المنسرحِ] :

أَنَـا الَّـذِيْ بَيَّـنَ ٱلإِلَـٰـهُ بِـهِ ٱلْـ ... أَقْـدَارَ وَٱلْمَـرْءُ حَيْثُمَـا جَعَلَـهْ
جَـوْهَـرَةٌ يَفْـرَحُ ٱلْكِـرَامُ بِهَـا ... وَغُصَّــةٌ لاَ تُسِيْغُهَـا ٱلسَّفَلَـهْ

وقد أَخذَهُ ولَم يحسنِ الاتباعَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/٦٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ مُقَامِيْ حَيْثُ خَيَّمْتُ مِحْنَةٌ ... تَدُلُّ عَلَىٰ فَهْمِ ٱلْكِرَامِ ٱلأَجَاوِدِ

وصدقَ من جهةٍ ؛ فإِنَّ الفضلَ إِنَّما يعرفُهُ ذووهُ ، وقد قيلَ : إِنَّ الفاضلَ لا يَحْسُنُ حالُهُ إِلاَّ بينَ الفضلاءِ ، أَو أَشباهِ الفضلاءِ .

وقالَ أَبو هلالٍ العسكريُّ [في « ديوانهِ » ١٥٣ـ١٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ضَاعَ مِثْلِيْ حَيْثُ حَلَّتْ رِكَابُهُ ... بَلَىٰ حَيْثُ ضَاعَ ٱلْمَجْدُ مِثْلِيَ ضَائِعُ
وَمِثْلِـيَ مَخْضُـوْعٌ لَـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ ... إِذَا كَانَ مَجْهُوْلَ ٱلْفَضَائِلِ خَاضِعُ
وَمِثْلِيَ مَتْبُوْعٌ عَلَىٰ كُلِّ حَالَةٍ ... فَإِنْ يَنْقَلِبْ وَجْهُ ٱلزَّمَانِ فَتَابِعُ

ولَو أَنَّهُ كانَ كبيرَ النفسِ . . لكانَ لهُ مندوحَةٌ عمَّا ذكرهُ في البيتينِ الأَخيرينِ ، إِمَّا بالانجماعِ عَنِ الناسِ ، وإِمَّا بالارتحالِ عَنِ ٱلْمَقَرِّ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [النساء : ٩٧] .

وقدِ اختُلفَ في الغِنىٰ ، وخفَّةِ الروحِ ، أيُّهما أرفقُ بالإنسانِ . ؟ فقالَ قومٌ : بالأَوَّلِ ؛ لأَنَّ الغنيَّ محبوبٌ كيفَما كانَ ، وقالَ آخرونَ : بالثاني ؛ لأَنَّ الخفيفَ الظلِّ مسلَّطٌ ، بخلافِ الثقيلِ ، فإِنَّهُ مبغوضٌ حتَّىٰ عندَ أهلِهِ ، فماذا يفيدُهُ الغِنىٰ ، معَ البغاضَةِ ؟

والحقُّ : أنَّهُ لا بدَّ مِن التفصيلِ ، فإنْ كانَ في وسَطٍ فاضلٍ . . فقد يصحُّ قولُ الآخرينَ ، وإلاَّ . . فَلا معدِلَ عَنِ الأَوَّلِ ، وإذا نحنُ أمعنَّا النظرَ في حالِ الناظِمِ ، واستقرأْنا أشعارَهُ . . لم ننكِر دعواهُ ، ولَم نقدِرْ علىٰ دفعِهِ عَنِ الكرَمِ ، أَوَلا ترىٰ إلىٰ شدَّةِ إبائِهِ ، وتعاظُمِهِ علىٰ الرؤَساءِ ، وترفُّعِهِ عَنِ الأَذنابِ والسقَّاطِ ، فهوَ القائِلُ لابنِ كنداجٍ ـ وقد أَهدىٰ إليهِ هديَّةً هوَ إليها محتاجٌ إذ كانَ معتقَلاً بسجنِ (حمصَ) ـ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨١ مِنَ المنسرحِ] :

غَيْـرَ اخْتِيَـارٍ قَبِلْـتُ بِـرَّكَ بِـيْ وَالْجُوْعُ يُرْضِيْ الأُسُوْدَ بِالْجِيَفِ

فتراهُ معَ شدَّةِ الضيقِ ، وقلَّةِ الريقِ ، يتظاهَرُ بثباتِ الجأْشِ ، وذهابِ الإيحاشِ ، لم يثنِ السجنُ مِن شأْوِهِ ، ولم يَغُضَّ الامتحانُ مِن بأْوِهِ ، ولَم يكَدْ يقبَلُ تلكَ الصلةَ إلاَّ علىٰ التكرُّهِ والاشمئْزازِ ، وليسَ بالقليلِ ما أَصابَهُ مِنَ الوزيرِ المهلَّبيِّ ؛ فقد أَغرىٰ بهِ شعراءَ (العراقِ) يزدرونَهُ ، ويتهضَّمونَهُ ، ويمزِّقونَ عرضَهُ ، وحرَّشَ عليهِ مَن قدرَ مِنَ العلماءِ ـ كصاحبِ « الأغاني » ـ ينتقصونَهُ ، ويشهِّرونَ بهِ ، وليسَ بالهيِّنِ ما لاقاهُ مِنَ الصاحِبِ بنِ عبَّادٍ ؛ إذ حَذا حذوَ سابقِهِ ، فأَغرىٰ بهِ كلَّ مَن قدرَ عليهِ مِن طلاَّبِ معروفِهِ ـ وهُم كثيرٌ ـ وأَلَّفَ كتاباً في الكشفِ عَن مَعايِبِهِ ، معَ كثرَةِ ما يُغِيْرُ في العلانيَةِ علىٰ بدائِعِ معانيهِ ، وما ذلكَ إلاَّ نتيجةَ ترفُّعِهِ عَن مدحِهِما ، وضَنِّهِ بكلامِهِ

عنهُما ، وشيءٌ مِن هـٰذا لا يخالِفُ ما سبقَ لَنا ذكرهُ أَواخِرَ المجلسِ الثاني ، في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/٣٠١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ نَـاقَتِـيْ تَقْبَـلُ ٱلـرَّدِيْـفَ وَلاَ بِٱلسَّوْطِ يَوْمَ ٱلرِّهَانِ أُجْهِدُهَا[١]

علىٰ فرقِ ما بينَ حاليهِ في بدءِ أَمرهِ ؛ إِذ يبيعُ المديحَ بالشيءِ التافهِ ، وبينَ آخرِ أَمرهِ ؛ وقد أَنِفَ وآمتلأَ شمماً وكرماً ، لا يقالُ إِنَّهُ يدورُ حيثُمَا دارَتِ الزجاجَةُ ، إِن أُعطِيَ . . رضيَ ، وإِن لَم يُعطَ . . سخطَ ؛ لأَنَّهُ لَو كانَ كذلكَ . . لَما توقَّفَ عَن هجاءِ سيفِ الدولَةِ بكلِّ ما تصِلُ إِليهِ بلاغَتُهُ ، فإِنْ قيلَ : إِنَّهُ إِنَّما أَمسكَ عنهُ آحتفاظاً بخطِّ الرجعَةِ . . قلنا : مَحالٌ ، ولا سيَّما عندَ سَوْرةِ الغضَبِ[٢] ، وكِبْرِهِ في نفسهِ ، وتشبُّعِهِ بالآمالِ ، وإِنَّما يكونُ لَهُ وجهٌ مِنَ آلاحتمالِ لَو كانَ بعدَ فشلِهِ ، وخيبَةِ رجائِهِ مِن كلِّ ناحيَةٍ ، علىٰ أَنَّهُ لا يصدُّهُ ذلكَ وهوَ القائِلُ [في « العُكبَريّ » ٣/٢١٢ مِنَ المنسرحِ] :

فِيْ سَعَةِ ٱلْخَافِقَيْنِ مُضْطَرَبٌ وَفِـيْ بِـلاَدٍ مِـنْ أُخْتِهَـا بَـدَلُ[٣]

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/١٩١ مِنَ الطَّويلِ] :

غَنِيٌّ عَنِ ٱلأَوْطَانِ لاَ يَسْتَفِزُّنِيْ إِلَىٰ بَلَدٍ سَافَرْتُ عَنْهُ إِيَابُ[٤]

---

(١) الرديفُ : هو ما يرتدفُ خلفَ الراكبِ . الرهانُ : السباقُ . والناقةُ هنا : نعلُهُ .

(٢) سَورَةُ الغضبِ : شدَّتُهُ .

(٣) الخافقَان : الشرقُ والغربُ لأَنَّ الريحَ تخفقُ فيهما . المضطربُ : موضعُ الاضطرابِ ، وهوَ الذهابُ والمجيءُ .

(٤) يستفزُّني : يستخفُّني ويحرِّكني . الإيابُ : الرجوعُ .

وأنشدَ الأصمعيُّ لبعضِ الأعرابِ [دعبلٍ في « ديوانه » ١٩٥ مِنَ الكاملِ] :

أَحَسِبْتَ أَرْضَ ٱللهِ ضَيِّقَةً عَنِّي وَأَرْضُ ٱللهِ لَمْ تَضِقِ
مَا أَطْوَلَ ٱلدُّنْيَا وَأَعْرَضَهَا وَأَدَلَّنِي بِمَسَالِكِ ٱلطُّرُقِ

وكانَ منصورُ بنُ باذانَ ـ أَو بكرُ بنُ النطاحِ ـ ٱمتدحَ القاسمَ العجليَّ المعروفَ بأَبي دُلَفٍ ، فلم يحصلْ لَهُ منهُ ما في نفسِهِ ، فٱنفصَلَ عنهُ وهوَ يقولُ [القائل منصور بن باذان كما في « وفيات الأعيان » ٤/٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِينِي أَجُوبُ ٱلأَرْضَ فِيْ فَلَوَاتِهَا فَمَا ٱلْكَرَجُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ ٱلنَّاسُ قَاسِمُ[1]

وقال السمعانيُّ [في كتاب « الذيل » كما في « وفيات الأعيان » ٤/٧٦] :
أَنشدني القاضي عليُّ بنُ محمَّدٍ البلخيُّ ـ متمثِّلاً ـ للأَميرِ أَبي الحسنِ عليِّ بنِ المنتخبِ [مِنَ البسيطِ] :

فَإِنْ رَجَعْتُمْ إِلَىٰ ٱلإِحْسَانِ فَهُوَ لَكُمْ عَبْدٌ كَمَا كَانَ مِطْوَاعٌ وَمِذْعَانُ
وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَأَرْضُ ٱللهِ وَاسِعَةٌ لاَ ٱلنَّاسُ أَنْتُمْ وَلاَ ٱلدُّنْيَا خُرَاسَانُ

ولَم نسمعِ الناظِمَ يتكلَّمُ في سيفِ الدولَةِ بهجاءٍ ممضٍ ، وكلامٍ جارحٍ قطُّ ، وغايةُ ما يكونُ منهُ التبرُّمُ بنفثاتٍ لا يصِلُ بِها إِلىٰ التصريحِ ، ولا يخرُجُ فيها إِلىٰ الطعنِ القبيحِ ، كقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/٢٣٦ مِنَ البسيطِ] :

رَأَيْتُكُمْ لاَ يَصُونُ ٱلعِرْضَ جَارُكُمُ وَلاَ يَدِرُّ عَلَىٰ مَرْعَاكُمُ ٱللَّبَنُ
جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمُ مَلَلُ وَحَظُّ كُلِّ مُحِبٍّ مِنْكُمُ ضَغَنُ

---

(١) الكرَجُ : بلدُ أبي دلفٍ .

وَتَغْضَبُوْنَ عَلَىٰ مَنْ نَالَ رِفْدَكُمُ ... حَتَّىٰ يُعَاقِبَهُ ٱلتَّنْغِيْصُ وَٱلْمِنَنُ

وهوَ في ذلكَ غيرُ ملومٍ ، فما الذي نالَهُ في تلكَ الحضرَةِ بالقليلِ ، ومعَ ذلكَ . . فإنَّهُ يقولُ في نفسِ القصيدَةِ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ٢٣٧ مِنَ البسيطِ] :

سَهِـرْتُ بَعْـدَ رَحِيْلِـيْ وَحْشَـةً لَكُـمُ ... ثُمَّ ٱسْتَمَرَّ مَرِيْرِيْ وَٱرْعَوَىٰ ٱلْوَسَنُ[1]

ويقولُ لهُ أيضاً [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ٢٩٣ مِنَ البسيطِ] :

فَارَقْتُكُمْ فَإِذَا مَا كَانَ عِنْدَكُمُ ... قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ أَذىً بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ يَدُ

إِذَا تَـذَكَّـرْتُ مَـا بَيْنِـيْ وَبَيْنَكُـمُ ... أَعَانَ قَلْبِيْ عَلَىٰ ٱلشَّوْقِ ٱلَّذِيْ أَجِدُ

فلم يزَلْ يعتلجُ في صدرِهِ الأَمْرَانِ ، وإنْ لقِيَه مِنهُ الأمرَّانِ .

وقالَ أبو الفتحِ ٱبنُ جنِّيٍّ : قرأتُ علىٰ المتنبي « ديوانَهُ » . . حتَّىٰ ٱنتهيتُ إلىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِيْ هَلْ أَقُوْلُ قَصِيْدَةً ... فَـلاَ أَشْتَكِـيْ فِيْهَـا وَلاَ أَتَعَتَّـبُ

وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ ... وَلَـٰكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ

قلتُ لهُ : يعِزُّ عليَّ أن يكونَ هـٰذا الشعرُ في غيرِ سيفِ الدولَةِ ، فقالَ : أَلَم تَرَني حذَّرتُه ، وأنذَرتُهُ ، في قولِي لَهُ [في « العُكبريِّ » ٣/ ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَا ٱلْجُوْدِ أَعْطِ ٱلنَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ ... وَلاَ تُعْطِيَـنَّ ٱلنَّـاسَ مَـا أَنَـا قَـائِـلُ

---

(١) ٱستمرَّ : ٱستقامَ . المريرُ : القوَّةُ من الحبلِ . ٱرعوىٰ : ٱنزجرَ . الوسنُ : النعاسُ .

فهوَ الذي فرَّطَ فيهِ بسوءِ تدبيرِهِ ، وقد سبقَ في المجلسِ السابعِ علىٰ قولِهِ : [في « العُكبريّ » ٣/ ١٦٣ مِنَ البسيطِ] .

وَٱلْوَجْدُ يَقْوَىٰ كَمَا تَقْوَىٰ ٱلنَّوَىٰ أَبَدَا [وَٱلصَّبْرُ يَنْحَلُ فِيْ جِسْمِيْ كَمَا نَحِلا]

بيتٌ للأميرِ تميمِ بنِ المعزِّ ، يشبهُ قولَ الناظِمِ [في « العكبري » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِيْ مَا يَذُوْدُ ٱلشِّعْرَ عَنِّيْ أَقَلُّهُ [وَلَكِنَّ قَلْبِيْ يَا ٱبْنَةَ ٱلْقَوْمِ قُلَّبُ]

وقد أدركَ الأميرُ تميمٌ نحواً مِن ثمانيةَ عشرَ عاماً مِن عصرِ المتنبي ، فالأقربُ أنَّ الناظِمَ هوَ السابقُ إلىٰ المعنىٰ .

وقد ذكرنا مرَّةً قضاءَ الناظِمِ لسيفِ الدولةِ علىٰ ٱبنِ العميدِ بالانطباعِ علىٰ الكرَمِ .

ثُمَّ ما أكثرَ ما يتألَّمُ مِن فراقِهِ ، فتراهُ يقولُ ـ ودمُ جرحِهِ يسيلُ ، لَمْ يجفَّ بعدُ ـ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١٣٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فِرَاقٌ وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرُ مُذَمَّمِ وَأَمٌّ وَمَنْ يَمَّمْتُ خَيْرُ مُيَمَّمِ[1]

ويقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَفَارَقْتُ خَيْرَ ٱلنَّاسِ قَاصِدَ شَرِّهِمْ وَأَكْرَمَهُمْ طُرّاً لأَنْذَلِهِمْ طُرَّا

ويلومُ قلبَهُ في الحنينِ إليهِ ، فيقولُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٣ مِنَ الطَّويلِ] :

حَبَبْتُكَ قَلْبِيْ ، قَبْلَ حُبِّكَ مَنْ نَأَىٰ وَقَدْ كَانَ غَدَّاراً فَكُنْ لِيَ وَافِيَا

---

(١) الأَمُّ : القصدُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ ٱلْبَيْنَ يُشْكِيكَ بَعْدَهُ ... فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ بَاكِيَا
فَإِنَّ دُمُوعَ ٱلْعَيْنِ غُدْرٌ بِرَبِّهَا ... إِذَا كُنَّ إِثْرَ ٱلْغَادِرِيْنَ جَوَارِيَا

ويقولُ [في « العُكبَريّ » ١/١٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَشِيَّةَ أَحفَىٰ ٱلنَّاسِ بِي مَنْ جَفَوْتُهُ ... وَأَهْدَىٰ ٱلطَّرِيقَيْنِ ٱلَّتِي أَتَجَنَّبُ[1]

أمَّا ذكرهُ الغدرَ ، وما أشبهَ ذلكَ عَن سيفِ الدولَةِ . . فما هوَ إلاَّ لقوَّةِ نفسِهِ ، لا يرىٰ للملوكِ فمَن دونَهُم فضلاً عليهِ ، وإنَّما يخاطبُهُم مخاطبَةَ اللِّدَاتِ والأقرانِ[2] ، في الكثيرِ الأغلبِ ، ولا بدَّ مِن مثلِ ذلكَ للعتابِ ، فهوَ مضطَرٌّ إليهِ ، بدافعِ الشهامَةِ والمَوجدَةِ ، ومَن نظرَ إلىٰ قصيدتِهِ المستهلَّةِ بقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٦٢ مِنَ البسيطِ] :

وَا حَـرَّ قَلْبَـاهُ مِمَّـنْ قَلْبُـهُ شَبِـمُ ... وَمَنْ بِجِسْمِي وَحَالِي عِنْدَهُ سَقَمُ[3]

. . ألفاها تتدفَّقُ بلاغةً ، وجزالةً ، وشهامةً ، وفخراً ، ونخوةً ، تُسجِّلُ لهُ في صفحاتِ التاريخِ ما لا تسجِّلُهُ كبارُ الفتوحِ لأربابِ الدوَلِ ، فحصيلَةُ البحثِ : الاعترافُ لهُ بالكرمِ وحفظِ العهدِ ، وإنِّي لأرجو أن يغفرَ اللهُ لهُ كلَّ خطيئَةٍ زلفَها بقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

خُلِقْتُ أَلُوفاً لَوْ رُدِدْتُ إِلَىٰ ٱلصِّبَا ... لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوْجَعَ ٱلْقَلْبِ بَاكِيَا

ولئِن قيلَ : إنَّهُ لم يبقَ متعلَّقاً بمحاسنِ سيفِ الدولَةِ إلاَّ سياسةً في

---

(١) أحفىٰ : أبلغُ الناسِ مسألَةً عنّي ، من الحفاوةِ وهي : المبالغةُ في السؤالِ عن الرجلِ والعنايةِ في أمرِهِ .
(٢) اللِّدَات : الأقران الذين ولدوا معه ، أو من هم في سنِّهِ .
(٣) الشبِمُ : الباردُ ، والشبَمُ : البردُ .

حفظِ الهيبةِ والمروءَةِ ؛ لأَنَّهُ لا يأمَنُ السقوطَ مِن عينِ كافورَ إذا تعالَمَ الناسُ بِأَنَّهُ مطرودٌ . . فالجوابُ عنهُ أَنَّ ذلكَ لا يكونُ :

أَمَّا أَوَّلاً : فلأَنَّهُ لَم يتكتَّم بشيءٍ ممَّا صارَ بينَهُ وبينَ سيفِ الدولَةِ .

وأَمَّا ثانياً : فلأَنَّهُ لم يخرجْ مطروداً ، وإِنَّما خرجَ مغاضباً ؛ لأَنَّهُ يرىٰ أَن قد قصَّروا في بعضِ حقِّهِ ، معَ حرصِهِم علىٰ بقائِهِ ، والاستئثارِ بهِ ، أَلا تسمعُ إِلىٰ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٣٧٢ مِنَ البسيطِ] :

لَئِنْ تَرَكْنَ ضُمَيْراً عَنْ مَيَامِنِنَا　　لَيَحْدُثَنَّ لِمَنْ وَدَّعْتُهُمْ نَدَمُ[1]

وأَمَّا ثالثاً : فلأَنَّ مثلَ ذلكَ لا يحصلُ إِلاَّ في الأَوساطِ السافلَةِ ، والأُمَمِ المنحطَّةِ ، فهيَ التي تبني إِهانتَها أَو إِكرامها علىٰ مجرَّدِ التقليدِ ، بخلافِ الحيَّةِ ، فإِنَّها لا تضعُ الرجالَ إِلا بحيثُ وضعَهُم اللهُ مِن الفضيلَةِ ، بَل كلَّما استحكمتِ النفرَةُ بينَ فاضلٍ وأَحدِ الملوكِ . . أَشتدَّ حرصُ الآخرينَ علىٰ الاستئثارِ بهِ ، أَمَّا سُقَّاطُ الحُسَّادِ . . فإِنَّهُ لا يُبالىٰ بهم ، وإِن توجَّهَت أَنظارُهم إِلىٰ مثلِ ذلكَ بشاهِدِ قولِهِ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلا زِلْتُ أَلْقَىٰ ٱلْحَاسِدِيْنَ بِمِثْلِهَا　　وَفِيْ يَدِهِمْ غَيْظٌ وَفِيْ يَدِيَ ٱلرِّفْدُ[2]
وَعِنْـدِيْ قَبَـاطِـيُّ ٱلأَمِيْـرِ وَمَـالُـهُ　　وَعِنْدَهُمُ مِمَّا ظَفِرْتُ بِهِ ٱلْجَحْدُ[3]

وأَمَّا رابعاً : فإِنَّهُ لو نظرَ إِلىٰ شيءٍ مِن ذلكَ . . لَمَا تظاهَرَ بمعاداةِ

---

(١) ضُمَيرٌ : جبلٌ على يمينِ طالبِ (مصرَ) من (الشامِ) وهوَ قريبٌ من (دمشقَ) .

(٢) الرِّفدُ : العطاءُ .

(٣) القباطيُّ ـ جمعُ قبطيَّةٍ ـ : وهيَ ثيابٌ بيضٌ تُصنعُ في (مصرَ) .

الملوكِ ، ولَمَا حَشَا « ديوانَهُ » بهجاءِ كافورَ وغيرِهِ ، ولَمَا ٱستعلَنَ بهربِهِ مِن عندِهِ .

وأمَّا خامساً : فلأَنَّهُ لا يرىٰ للملوكِ فضلاً عليهِ كَما قدَّمنا ، ومَا كانَ ينشدُهم إلاَّ قاعداً ، مثلَ الفرزدَقِ ، ولقد أُريدَ مرَّةً علىٰ الإنشادِ قائماً ، فقالَ : أَوَلَسْتُ القائِلَ [في « العُكبَري » ١/ ٢٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعوَّدَا　　[وَعَادَاتُ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ ٱلطَّعْنُ فِيْ ٱلْعِدَا]

وأمَّا سادساً : فلأَنَّهُ لَم يتحفَّظْ بالمودَّةِ معَ الاستِيَاءِ . . إلاَّ لِمَن زادَ ٱختصاصُهُ بهِ ، كسيفِ الدولَةِ ، وأَبي العشائِرِ ، وإلاَّ . . فَما أَكثرَ تشكِّيهِ مِن هضائِمِ الملوكِ وجورِهِم .

المبحث الرابع على المطلع : أصل هذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام

والرابعُ مِنَ المباحِثِ التي في البيتِ : أَنَّهُ نظرَ فيهِ إِلىٰ قصَّةٍ جَرَت لأَبي تمَّامٍ معَ أَميرٍ ، طفِقَ يتأَلَّم لِفَسادِ الزمانِ ، وقلَّةِ الكرامِ ، فقالَ لَهُ أَبو تمَّامٍ : لا ذَنْبَ لِلزَّمانِ معَ وجودِكَ ، ولا قلَّةَ في الكرامِ معَ جودِكَ ، وإِنَّكَ لَكَما قالَ أَبو جويريَةَ العبديُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

طَوِيْلُ نِجَادِ ٱلسَّيْفِ حَتَّىٰ كأَنَّهُ　　بِـأَعْلَـىٰ سَنَامَـيْ فَـالِـجٍ يَتَطَـوَّحُ
إِذَا ٱعْتَمَّ بِٱلبُرْدِ ٱلْيَمَانِيِّ خِلْتَهُ　　هِلاَلاً بَدَا مِنْ جَانِبِ ٱلأُفْقِ يُلْمَحُ
يَزِيْدُ عَلَىٰ فَضْلِ ٱلرِّجَالِ فَضِيْلَةً　　وَيَقْصُرُ عَنْهُ مَدْحُ مَنْ يَتَمَدَّحُ
وَيُدْلِجُ فِي حَاجَاتِ مَنْ هُوَ نَائِمٌ　　وَيُوْرِيْ كَرِيْمَاتِ ٱلنَّدَىٰ حِيْنَ يَقْدَحُ

فٱهتزَّ الأَميرُ ٱرتياحاً ، وٱمتلأَ أَنفُهُ أَريحيَّةً ، وصدرُهُ ٱنشراحاً ، وقالَ لأَبي تمَّامٍ : بورِكَ فيهِ شاعراً ، وراويةً ، فأَكثرَ أَبو تمَّامٍ بعدُ في « ديوانِهِ » مِنَ ٱلمعنىٰ ، فقالَ في أَحمدَ ٱبنِ أَبي دؤَادٍ [في « ديوانهِ » ١/ ٢١٤ مِنَ الوافرِ] :

لَقَدْ أَنْسَتْ مَسَاوِىءَ كُلِّ دَهْرٍ　　مَحَـاسِـنُ أَحْـمَـدَ بْـنِ أَبِـيْ دُؤَادِ

ومنهُ أَخذَ الناظِمُ قولَهُ [في « العُكبريّ » ٢/ ١٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَزَالَتْ بِكَ ٱلأَيَّامُ عَتْبِيْ كَأَنَّمَا   بَنُوْهَا لَهَا ذَنْبٌ وَأَنْتَ لَهَا عُذْرُ

وقد سبقَ بعضُ هـٰذا ، معَ ما يناسبُهُ مِن كلامِ أَميرِ المؤمنينَ ـ كرَّمَ اللهُ وجهَهُ ـ في أَواخرِ المجلسِ السابعِ .

المبحث الخامس على المطلع: ادعى بعضهم أن في البيت حشواً لا داعي لذكره

والخامسُ : قالَ بعضُهم : في قولِهِ مِنَ القافيَةِ (تُرْزَقُ) إِنَّهُ مِنَ ٱلحشوِ القبيحِ ، الواقعِ مثلُهُ في قولِ بعضِهم [وهو أبو العيال الهذلي في « الأغاني » ٢٤/ ١٦٠ مِنَ مجزوء الوافرِ] :

[ذَكَـرْتُ أَخِـيْ] فَعَـاوَدَنِـيْ   صُـدَاعُ ٱلـرَّأْسِ وَٱلْـوَصَـبُ

والحقُّ أَنَّهُ ليسَ كذلكَ ، وَلـٰكِنَّهُ ناظرٌ إِلىٰ قولِهِ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل : ٢٦] ، وقولِهِ : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام : ٣٨] ، وقولِهِ : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] ، بَل ربَّما أَرادَ التلميحَ فيهِ إِلىٰ قولِهِ جلَّ شأْنُهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] .

وإِن كانَ الفرقُ ظاهراً ، بٱحتياجِ الحياةِ البرزخيَّةِ إِلىٰ التأْكيدِ بذكرِ الرزقِ ، ما لا تحتاجُهُ الحياةُ الدنيا .

وبِما جاءَ في الحشوِ . ذكرتُ أَنَّ بعضَهم أَنشأَ قصيدَةً ، عَرَضَها علىٰ سبعينَ شاعراً ، كلُّهُم يُثني عَلَيها ، وبيتُ المطلعِ مِنها هـٰذا [مِنَ الرَّجَزِ] :

دَعْهَا وَلاَ تَحْبِسْ زِمَامَ ٱلْمِقْوَدِ   تَطْوِيْ بِأَيْدِيْهَا بِسَاطَ ٱلْفَدْفَدِ

ثُمَّ عرضَها بعدَ ذلكَ على مَن لا يؤبَهُ لَهُ ، فقالَ لَهُ : هـٰذا المطلعُ كاسفٌ ، قالَ : ولِمَ ؟ قالَ : أَرَأَيتَ لو ٱطَّلَعَ عليها الممدوحُ ، وبمجرَّدِ ما رأَىٰ ، أَو سمِعَ ، قولَكَ : دَعها . . رَماها ، وأَحالَ عليكَ في الذنْبِ ، وقالَ : إِنَّما أَخذنا بقولِكَ في تركِها .

وأَقولُ : إِنَّ فِيها نقداً آخرَ لَمْ يذكرهُ راوِي القصَّةِ ، وهوَ أَنْ لا حاجَةَ لذكرِ المقوَدِ معَ الزمامِ ؛ لأَنَّ الزمامَ لا يكونُ إِلاَّ فيهِ ، وليسَ المقامُ مقامَ إِطنابٍ ، أَو تقريرٍ ، حتَّىٰ يغتفر فيهِ أَو يقبَلَ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

حُشَاشَةُ نَفْسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوْا	فَلَمْ أَدْرِ أَيَّ ٱلظَّاعِنَيْنِ أُشَيِّعُ

شرح المطلع

يقولُ : لي بقيَّةُ نفسٍ فارقَتني يومَ ودَّعني الأَحبابُ ، فبقيتُ حائِراً ، لا أَدري ، أُودِّعُ الحشاشَةَ ، أَمْ أُودِّعُ الأَحبابَ؟ و(الظَّاعِنَيْنِ) يروىٰ بالتثنيَةِ ويروىٰ بالجمعِ ، وكِلاهما صالحٌ ، كما لا يخفىٰ ، وقالوا : إِنَّهُ مأْخوذٌ مِن قولِ بشَّارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

حَدَىٰ بَعْضُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَبَعْضُهُمْ   شِمَالاً وَقَلْبِي بَيْنَهُمْ مُتَوَزَّعُ

وشتَّانَ ما بينَهما ، فبيتُ بشَّارٍ متوقِّدُ الزُّجاجَةِ ، ناصعُ الديباجَةِ ، أَمَّا بيتُ الناظِمِ . . فيؤخذُ عليهِ فيهِ أَنَّ الحشاشَةَ ذهبَت معَ الأَحبابِ لجهةٍ واحدَةٍ ، فالتوديعُ لأَحدِهما توديعٌ للآخرِ ، فلا مجالَ للتَّردُّدِ ، ولا موضعَ للحيرَةِ ، فإِنْ قيلَ : إِنَّهُ تحيُّرٌ مِن حيثُ الكيفيَّةُ ، لا من حيثُ الأَينيَّةُ . . قلنا : فيهِ بعدٌ كثيرٌ ، ثُمَّ إِنَّهُ يتوجَّهُ إِليهِ ـ أَيضاً ـ ما ٱنتقدَتْهُ سيِّدَتُنا سكينَةُ علىٰ قولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ١٧٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ تَرَكَتْ عَقْلِيْ مَعِيْ مَا طَلَبْتُهَا   وَلَكِنْ طِلاَبِيْهَا لِمَا فَاتَ مِنْ عَقْلِيْ

ولو كانَ صادقَ المحبَّةِ ، صحيحَ الهوىٰ . . لَمَا قالَ إِلاَّ مثلَ قولِ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ [مِنَ الكاملِ] :

أَبْكِيْ وَقَدْ ذَهَبَ ٱلْفُؤَادُ وَإِنَّمَا   أَبْكِيْ لِفَقْدِكِ لاَ لِفَقْدِ ٱلذَّاهِبِ

فالتكلُّفُ إذن ظاهرٌ من كلامِهِ، والتشبُّعُ بما لَم يُعطَ مِنَ ٱلمحبَّةِ معروفٌ مِن حالِهِ ، ومعَ ذلكَ . . فهوَ القائِلُ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ يَتَزَيَّا بِٱلْهَوَىٰ غَيْرُ أَهْلِهِ وَيَسْتَصْحِبُ ٱلإِنْسَانُ مَنْ لاَ يُلاَئِمُهْ[1]

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَجَائِزَةٌ دَعْوَىٰ ٱلْمَحَبَّةِ وَٱلْهَوَىٰ وَإِنْ كَانَ لاَ يَخْفَىٰ كَلاَمُ ٱلْمُنَافِقِ

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٣/ ٢٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أَنَا مِمَّنْ يَدَّعِي ٱلْحُبَّ قَلْبُهُ وَيَحْتَجُّ فِي تَرْكِ ٱلزِّيَارَةِ بِٱلشُّغْلِ

ولو أَحفيناهُ المسأَلةَ ، وناقشناهُ الحسابَ . . لأَلزمناهُ ما يَرجُمُ بِهِ سواهُ ، بما يظهَرُ علىٰ شِعرِهِ مِن فلتاتِ لسانِهِ حسَبَما رأَيتَ .

القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ متكرِّرُ المعنىٰ في « ديوانِهِ » ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٣٤١ مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَيْنُ حَتَّىٰ مَا تَأَنَّىٰ ٱلْحَزَائِقُ وَيَا قَلْبُ حَتَّىٰ أَنْتَ مِمَّنْ أُفَارِقُ[2]!!

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٦٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَجُدْ لِيْ بِقَلْبٍ إِنْ رَحَلْتُ فَإِنَّنِيْ مُخَلِّفُ قَلْبِيْ عِنْدَ مَنْ فَضْلُهُ عِنْدِيْ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ٣٦٥ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنِّيْ عَنْكَ بَعْدَ غَدٍ لَغَادٍ وَقَلْبِيْ مِنْ فِنَائِكَ غَيْرُ غَادِيْ[3]

---

(١) تزيَّا : تكلَّفَ الزيَّ . يلائمه : يوافقه .

(٢) تأنَّىٰ : تمهَّلَ وترفَّقَ . الحزائقُ : الجماعاتُ . والمعنىٰ : يقولُ مخاطباً قلبَهُ : كلُّ أحدٍ يفارقني حتَّىٰ أنت ؛ لأنَّ الأحبَّةَ فارقوني ، فذهبتَ معهم .

(٣) الفِناءُ : المنزلُ .

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ [في « ديوانهِ » ١١٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

اِمْسَحُوْا عَن نَاظِرِيْ كُحْلَ ٱلسُّهَادْ ... وَٱنْفُضُوْا عَنْ مَضْجَعِيْ شَوْكَ ٱلْقَتَادْ
أَوْ خُـذُوْا مِنِّـيَ مَـا أَبْقَيْتُـمُ ... لاَ أُرِيْدُ ٱلْجِسْمَ مَسْلُوْبَ ٱلْفُؤَادْ

وقالَ الباخرزيُّ [مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ ـ وَقَدْ فَتَّشْتُ عَنْهَا كُلَّ مَنْ ... لاَقَيْتُهُ مِنْ حَاضِرٍ أَوْ بَادِيْ ـ :
أَنَا فِيْ فُؤَادِكَ فَارْمِ لَحْظَكَ نَحْوَهُ ... تَرَنِيْ فَقُلْتُ لَهَا : وَأَيْنَ فُؤَادِيْ ؟

إلاَّ أَنَّ فيهِ مؤاخذةً ؛ إِذ كيفَ يراجِعُها وهوَ لا يعرفُ مكانَها؟ وكيفَ يخاطِبُها خطابَ الحاضِرِ ، وإِنَّما هيَ في قلبِهِ الغائِبِ؟ ولٰكنَّ المطرِبَ قولُ الآخرِ [مِنَ الخفيفِ] :

يَا مُقِيْماً فِيْ خَاطِرِيْ وَجَنَانِيْ ... وَبَعِيْـداً عَـنْ نَـاظِـرِيْ وَعِيَـانِـيْ
أَنْتَ رُوْحِيْ إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَرَاهَا ... فَهِيَ أَدْنَىٰ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ دَانِيْ

وقالَ بعضُ المتأَخِّرينَ [مِنَ الكاملِ] :

لِيْ فِيْ ٱلْحِجَازِ وَدِيْعَةٌ خَلَّفْتُهَا ... أَوْدَعْتُهَـا يَـوْمَ ٱلْـوَدَاعِ مُـوَدِّعِـيْ
وَأَظُنُّهَـا ـ لاَ بَـلْ يَقِيْنِـيْ ـ أَنَّهَـا ... قَلْبِيْ فَإِنِّيْ لَمْ أَجِدْ قَلْبِيْ مَعِيْ

وتلاعبَ بهِ الشرفُ ابنُ الفارِضِ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤ مِنَ الرَّمَلِ] :

كَانَ لِيْ قَلْبٌ بِجَرْعَاءِ ٱلْحِمَىٰ ... ضَاعَ مِنِّيْ ، هَلْ لَهُ رَدٌّ عَلَيْ[١]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١٢٦ مِنَ الكاملِ] :

وَٱسْأَلْ غَزَالَ كِنَاسِهِ : هَلْ عِنْدَهُ ... عِلْمٌ بِقَلْبِيْ فِيْ هَوَاهُ وَحَالِهِ[٢]

---

(١) الجرعاءُ : الأَرضُ الطيبةُ .

(٢) الكِناسُ : بيتُ الغزالِ . والضمير فيه يعود إلى العقيق في البيت قبلهُ ، وهو : =

وقالَ [في « ديوانه » ١٤٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا سَائِراً بِٱلْقَلْبِ غَدْراً كَيْفَ لَمْ ... تُتْبِعْهُ مَا غَادَرْتَهُ مِنْ سَائِرِيْ ؟

وقالَ [في « ديوانه » ٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِيْ وَهْوَ بَعْضِيْ فَمَا ٱلَّذِيْ ... يَضُرُّكُمْ أَنْ تُتْبِعُوهُ بِجُمْلَتِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَخَذْتُمْ فُؤَادِيْ وَهْوَ بَعْضِيْ فَمَا ٱلَّذِيْ ... يَضُرُّكُمُ لَو كَانَ عِنْدَكُمُ ٱلْكُلُّ

وقالَ الخابزارزيُّ [مِنَ الكاملِ] :

أَنَا غَائِبٌ وَٱلْقَلْبُ عِنْدَكَ حَاضِرٌ ... سَافَرْتُ عَنْكَ وَمَا ٱلْفُؤَادُ مُسَافِرُ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ يَرْتَحِلْ جِسْمِيْ مَعَ ٱلرَّكْبِ مُكْرَهاً ... يُقِمْ عِنْدَهُ قَلْبِيْ وَأَمْضِيْ بِلاَ قَلْبِ

وقالَ الروذباريُّ [مِنَ البسيطِ] :

وَلَوْ مَضَىٰ ٱلْكُلُّ مِنِّيْ لَمْ يَكُنْ عَجَباً ... وَإِنَّمَا عَجَبِيْ لِلْبَعْضِ حِيْنَ بَقِيْ

أَدْرِكْ بَقِيَّةَ نَفْسٍ فِيْكَ قَدْ تَلِفَتْ ... قَبْلَ ٱلْفِرَاقِ فَهَـٰذَا آخِرُ ٱلرَّمَقِ

وقالَ مِهْيارٌ [في « ديوانه » ٣/ ٣٢٨ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَبِجَرْعَاءِ ٱلْحِمَىٰ قَلْبِيْ فَعُجْ ... بِٱلْحِمَىٰ وَٱقْرَأْ عَلَىٰ قَلْبِيْ ٱلسَّلاَمَا

وَتَرَجَّلْ فَتَحَدَّثْ عَجَبَا : ... أَنَّ قَلْباً سَارَ عَنْ جِسْمٍ أَقَامَا[1] !!

قُلْ لِجِيْرَانِ ٱلْغَضَا : آهاً عَلَىٰ ... طِيْبِ عَيْشٍ بِٱلْغَضَا : لَوْ كَانَ دَامَا

= يَا صَاحِبِيْ هَذَا ٱلْعَقِيْقُ فَقِفْ بِهِ ... مُتَوَالِهاً إِنْ كُنْتَ لَسْتَ بِوَالِهِ

(١) الترجُّل : النزول عَنِ الفرسِ أَوِ الدَّابَّةِ ، والرَّاجلُ : خلافُ الفارسِ . =

حَمِّلُوا رِيحَ ٱلصَّبَا مِنْ نَشْرِكُمْ قَبْلَ أَنْ تَحْمِلَ شِيْحاً وَخُزَامَا
وَٱبْعَثُوا أَشْبَاحَكُمْ لِيْ فِيْ ٱلْكَرَىٰ إِنْ أَذِنْتُمْ لِجُفُونِي أَنْ تَنَامَا

ويعجبُني قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٨٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ بِنْتُ عَنْكُمْ مُصْبِحاً حَضَرَ ٱلْهَوَىٰ وَإِنْ غِبْتُ عَنْكُمْ سَائِراً شَهِدَ ٱلشِّعْرُ
سَأَشْكُرُ لاَ أَنِّي أُجَازِيكَ نِعْمَةً بِأُخْرَىٰ ، وَلَكِنْ كَيْ يُقَالَ لَهُ شُكْرُ
وَأَذْكُرُ أَيَّامِيْ لَدَيْكَ وَحُسْنَهَا وَآخِرُ مَا يَبْقَىٰ مِنَ ٱلذَّاهِبِ ٱلذِّكْرُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٤/٢٢٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَتَعَلَّمِي أَنَّ ٱعْتِلاَقِيْ حُبَّكُمْ ذُلِّيْ ، وَأَنَّ هَوَايَ فِيْكِ هَوَانِيْ
إِمَّا أَقَمْتُ فَإِنَّ لُبِّيَ ظَاعِنٌ أَوْ سِرْتُ مُنْطَلِقاً فَقَلْبِيَ عَانِيْ

وقالَ جميلُ بنُ معمَرٍ [في « ديوانهِ » ١١٨ مِنَ الطَّويلِ] :

لَئِنْ يَكُ جُثْمَانِيْ بِأَرْضٍ سِوَاكُمُ فَإِنَّ فُؤَادِيْ عِنْدَكِ ٱلدَّهْرَ أَجْمَعُ

وقالَ بعضُ العربِ [في « لسان العرب » ١/ ٥٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَسِرْتُ وَفِيْ نَجْرَانَ قَلْبِيْ مُخَلَّفٌ وَجِسْمِيْ بِبَغْدَادِ ٱلْعِرَاقِ مُشَاعِبُ[1]

وقالَ آخرُ [هو جعفرُ بن عُلْبَةَ الحارثي في « ديوان الحماسة » ١/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فُؤَادِيْ مَعَ ٱلرَّكْبِ ٱلْيَمَانِيْنَ مُصْعِدٌ جَنِيبٌ وَجُثْمَانِي بِمَكَّةَ مُوثَقُ[2]

---

(١) المشاعبُ : الذي يباعِدُ صاحبَهُ .

(٢) الركبُ : رُكبانُ الإبل خاصَّةً . المصعِدُ : المبعِدُ . جنيبٌ : مُستَتبَعٌ . الجُثمانُ : البدنُ . الموثقُ : المقيَّدُ .

يقول : هوَ معَ رُكبانِ الإبلِ القاصدينَ نحوَ (اليمنِ) مقودٌ ، وبدنُه مقيَّدٌ مأسورٌ بـ(مكة) .

وقالَ عمرُ ٱبنُ أبي ربيعَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٣٧ مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَا ٱلرَّائِحُ ٱلْمُجِدُّ ٱبْتِكَارَا قَدْ قَضَىٰ مِنْ تِهَامَةَ ٱلأَوْطَارَا[1]

مَنْ يَكُنْ قَلْبُهُ سَلِيماً مُقِيماً فَفُؤَادِي بِٱلْخَيْفِ أَضْحَىٰ مُعَارَا

وممَّا يروىٰ لصقرِ قريشٍ - وهوَ عبدُ الرحمٰنِ بنُ معاويَةَ بنِ هشامِ بنِ عبدِ الملِكِ - [في « نفح الطيب » ٣/ ٤١ مِنَ الخفيفِ] :

أَيُّهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْمُيَمِّمُ أَرْضِي أَقْرِ مِنْ بَعْضِيَ ٱلسَّلَامَ لِبَعْضِي

إِنَّ جِسْمِي كَمَا رَأَيْتَ بِأَرْضٍ وَفُؤَادِي وَمَالِكِيهِ بِأَرْضِ

وقالَ كثيِّرٌ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٩٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنْتِ ٱلَّتِي حَبَّبْتِ شَغْباً إِلَىٰ بَدَا إِلَيَّ وَأَوْطَانِي بِأَرْضٍ سِوَاهُمَا[2]

حَلَلْتِ بِهٰذَا حَلَّةً ثُمَّ حَلَّةً بِهٰذا ، فَطَابَ ٱلْوَادِيَانِ كِلَاهُمَا

إِذَا ذَرَفَتْ عَيْنَايَ أَعْتَلُّ بِٱلْقَذَىٰ وَعَزَّةُ لَوْ يَدْرِي ٱلطَّبِيبُ قَذَاهُمَا

والأخيرُ مِن قولِ الحطيئَةِ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا ٱلْعَيْنُ فَاضَ ٱلدَّمْعُ مِنْهَا أَقُولُ : بِهَا قَذىً وَهُوَ ٱلْبُكَاءُ

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱللهِ أَشْكُو بِٱلْمَدِينَةِ حَاجَةً وَبِٱلشَّامِ أُخْرَىٰ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ ؟!

وقالَ [جريرٌ في « ديوانهِ » ٢/ ٨٥٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أُحِبُّ ثَرَىٰ نَجْدٍ وَبِٱلْغَوْرِ حَاجَةٌ أَغَارَ ٱلْهَوَىٰ يَا عَبْدَ قَيْسٍ وَأَنْجَدَا

---

(١) الرائحُ : الذاهبُ ليلاً . المجدُّ ٱبتكاراً : المبالغُ في تبكيرهِ . الأوطارُ : الغاياتُ والمآربُ .

(٢) شغبٌ : منهلُ ماءٍ . بدا : موضعٌ .

وقالَ أبو العتاهيةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَفَرَّقَ أَهْلاَنَا مُقِيماً وَظَاعِناً ... فَلِلَّهِ أَدْرَىٰ أَيَّ قَوْمَيَّ أَتْبَعُ

يُنَازِعُنِيْ شَوْقِيْ أَمَامِيْ وَحَاجَتِيْ ... وَرَائِيْ فَمَا أَدْرِيْ بِهَا كَيْفَ أَصْنَعُ

وقالَ آخرُ [وهو أبو تمّامٍ في « ديوانهِ » ٢/ ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

فِيْ ٱلشَّامِ أَهْلِيْ، وَبَغْدَادُ ٱلْهَوَىٰ، وَأَنَا ... بِٱلرَّقْمَتَيْنِ ، وَبِٱلْفُسْطَاطِ إِخْوَانِيْ

وَمَا أَظُنُّ ٱلنَّوَىٰ تَرْضَىٰ بِمَا صَنَعَتْ ... حَتَّىٰ تُبَلِّغَنِيْ أَقْصَىٰ خُرَاسَانِ

وقالَ أبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في « مصارع العشاق » ١/ ٢٢] : ٱجتزتُ بديرِ هرقلَ ، فقلتُ لأصحابي : ٱصعدوا بنا إليهِ ، فرأينا منظراً حسناً ، وإذا كهلٌ مشدودٌ ، عليهِ آثارُ النعمةِ ، قالَ : ما أقدمَكُم هٰذا البلدَ ، الثقيلَ ماؤُهُ ، الغليظَ هواؤُهُ ، الجفاةَ أهلُهُ ؟ قُلنا : طلبُ الحديثِ والأدبِ ، قالَ حبَّذا تُنشِدوني أو أُنشِدُكم ، فقلنا : بل أنتَ ، فقالَ [مِنَ الكاملِ] :

ٱللهُ يَعْلَمُ أَنَّنِيْ كَمِدُ ... لاَ أَسْتَطِيْعُ أَبُثُّ مَا أَجِدُ

رُوْحَانِ لِيْ : رُوْحٌ تَضَمَّنَهَا ... بَلَدٌ وَأُخْرَىٰ حَازَهَا بَلَدُ

وَإِذَا ٱلْمُقِيْمَةُ لَيْسَ يَنْفَعُهَا ... صَبْرٌ وَلَيْسَ يَضُرُّهَا جَلَدُ

وَأَظُنُّ غَائِبَتِيْ كَشَاهِدَتِيْ ... بِمَكَانِهَا تَجِدُ ٱلَّذِيْ أَجِدُ

ثمَّ أُغميَ عليهِ ، فتركناهُ وٱنصرَفنا ، فأفاقَ ، وقالَ : بأبي ما أَسرعَ ذهابَكما ، أعيراني سمعَكُما ، فعدنا إليهِ فأنشدَ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا أَنَاخُوْا قُبَيْلَ ٱلصُّبْحِ عِيْسَهُمُ ... وَرَحَّلُوْهَا وَسَارَتْ بِٱلْهَوَىٰ ٱلإِبِلُ

وَقَلَّبَتْ مِنْ خِلاَلِ ٱلسَّجْفِ نَاظِرَهَا ... تَرْنُوْ إِلَيَّ وَدَمْعُ ٱلْعَيْنِ مُنْهَمِلُ[1]

---

(١) السَّجْفُ : السِّتْرُ .

فَــوَدَّعَــتْ بِبَنَــانٍ عِقْــدُهَــا عَنَــمٌ .. نَادَيْتُ لاَ حَمَلَتْ رِجْلاَكَ يَا جَمَلُ[1]

وَيْلِي مِنَ ٱلْبَيْنِ مَاذَا حَلَّ بِي وَبِهَا يَا نَازِحَ ٱلدَّارِ حَلَّ ٱلْبَيْنُ وَٱرْتَحَلُوا

إِنِّي عَلَىٰ ٱلْعَهْدِ لَمْ أَنْقُضْ مَوَدَّتَهُمْ فَلَيْتَ شِعْرِيْ وَطَالَ ٱلْعَهْدُ مَا فَعَلُوا

فقالَ لهُ بغيضٌ مِنَّا : ماتوا ، فقالَ : وأَنا أَيضاً أَموتُ ، فلم يزَل يتجذَّبُ مِن قيدِهِ حتَّىٰ فارقَ الحياةَ :

والشعرُ الأَوَّلُ لخالدِ الكاتِبِ ، ولا يمكنُ أَن يكونَ صاحبَ القصَّةِ ؛ لأَنَّ خالداً لَم يحبَسْ ، وإِنَّما وسوسَ وهامَ علىٰ وجهِهِ ، وقالَ ٱبنُ دقيقِ العيدِ ، وأَجادَ [في « نفح الطيب » ١/ ٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتُ فِيْ نَجْدٍ وَطِيْبِ نَعِيْمِهَا تَذَكَّرْتُ أَهْلِيْ بِٱللِّوَا وَمُحَجَّرِ

وَإِنْ كُنْتُ فِيْ أَهْلِيْ عَرَتْنِيْ صَبَابَةٌ إِلَىٰ سَاكِنِيْ نَجْدٍ وَعِيْلَ تَصَبُّرِيْ

فَمَـا زَالَ لِـيْ بَيْـنَ ٱلْفَـرِيْقَيْـنِ وَقْفَـةٌ فَمَنْ لِيْ بِنَجْدٍ بَيْنَ أَهْلِيْ وَمَعْشَرِيْ

وقالَ آخرُ [في « نفح الطيب » ١/ ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلِيْ بِٱلْحِمَىٰ أَهْلٌ وَبِٱلْبَانِ جِيْرَةٌ وَفِيْ حَاجِرٍ خِلٌّ وَفِيْ ٱلْمُنْحَنَىٰ صَحْبُ

تَقَسَّـمَ ذَا ٱلْقَلْـبُ ٱلْمُتَيَّـمُ بَيْنَهُـمْ أُسَائِلُكُمْ بِٱللهِ هَلْ يُقْسَمُ ٱلْقَلْبُ ؟

وقالَ أَبو محمَّدٍ عليُّ بنُ حزمٍ الظاهريُّ [في « شذرات الذهب » ٢/ ٣٠٠ مِنَ الوافرِ] :

لَئِنْ أَصْبَحْتُ مُرْتَحِلاً بِجِسْمِيْ فَـرُوْحِـيْ عِنْـدَكُـمْ أَبَـداً مُقِيْـمُ

وَلَـكِـنْ لِلْعِيَـانِ لَطِيْـفُ مَعْنـىً لَـهُ سَـأَلَ ٱلْمُعَـايَنَـةَ ٱلْكَلِيْـمُ[2]

---

(١) العَنَمُ : أَرادَ بِهِ ٱلبنانَ ٱلمخضوبَ ؛ لأَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالعنمِ وهوَ نبتٌ أَحمرُ .

(٢) الكليم : هو سيدنا موسىٰ عليه وعلىٰ نبينا الصلاة والسلام ، وفي البيت إشارة إلىٰ قوله : ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي . . . ﴾ [الأعراف : ١٤٣] .

وقالَ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٣٢٧ مِنَ الوافرِ] :

يَقُوْلُ أَخِيْ : شَجَاكَ رَحِيْلُ جِسْمٍ ... وَرُوْحُكَ مَا لَهُ عَنَّا رَحِيْلُ

فَقُلْتُ لَهُ : ٱلْمُعَايِنُ مُطْمَئِنٌّ ... لِذَا طَلَبَ ٱلْمُعَايَنَةَ ٱلْخَلِيْلُ[١]

وقالَ صدرُ الدينِ بنُ المرحلِ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/ ٢٦٠ مِنَ الكاملِ] :

يَا رَبِّ فِيْ ٱلأَظْعَانِ سَارَ فُؤَادُهُ ... وَبِودِّهِ لَوْ كَانَ سَارَ جَمِيْعُهُ[٢]

وقالَ ٱبنُ خَلِّكَانَ [في « وفيَات الأعيانِ » ٤/ ٢٧٥] : كانَ الشهرستانيُّ يَروي بإسنادِهِ المتَّصلِ للدريديِّ أَنَّهُ قالَ [مِنَ المنسرحِ] :

وَدَّعْتُهُ حِيْنَ لاَ تُوَدِّعُهُ ... رُوْحِيْ وَلَـٰكِنَّهَا تَسِيْرُ مَعَهْ

ثُمَّ ٱفْتَرَقْنَا وَفِيْ ٱلْقُلُوْبِ لَنَا ... ضِيْقُ مَكَانٍ وَفِيْ ٱلدُّمُوْعِ سَعَهْ

---

(١) الخليل : هو سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ...﴾ [البقرة : ٢٦٠] .

(٢) وهوَ مِن قصيدَةٍ لهُ شائقَةٍ وهيَ :

يَا رَبِّ جَفْنِيْ قَدْ جَفَاهُ هُجُوْعُهُ ... وَٱلْوَجْدُ يَعْصِيْ مُهْجَتِيْ وَيُطِيْعُهُ

يَا رَبِّ قَلْبِيْ قَدْ تَصَدَّعَ بِالنَّوَىٰ ... فَإِلَىٰ مَتَىٰ هَذَا ٱلْبِعَادُ يَرُوْعُهُ ؟!

يَا رَبِّ بَدْرُ ٱلْحَيِّ غَابَ عَنِ ٱلْحِمَىٰ ... فَمَتَىٰ يَكُوْنُ عَلَىٰ ٱلْخِيَامِ طُلُوْعُهُ ؟!

يَا رَبِّ لاَ أَدَعُ ٱلْبُكَا فِيْ حُبِّهِمْ ... مِنْ بَعْدِهِمْ جُهْدُ ٱلْمُقِلِّ دُمُوْعُهُ

يَا رَبِّ هَبْ قَلْبَ ٱلْكَئِيْبِ تَجَلُّداً ... عَمَّنْ يُحِبُّ فَقَدْ دَنَا تَوْدِيْعُهُ

يَا رَبِّ هَـٰذَا بَيْنُهُ وَبِعَادُهُ ... فَمَتَىٰ يَكُوْنُ إِيَابُهُ وَرُجُوْعُهُ ؟!

ويطربُني - فيما يقربُ مِنَ ٱلموضوعِ - قولُ الإمامِ الشبليِّ ، نَسأَلُ اللهَ أَن ينفعَنا بهِ [كما في « قرى الضيف » ٤/ ٢٤٠ مِنَ الكاملِ] :

مَضَتِ ٱلشَّبِيبَةُ وَٱلْحَبِيبَةُ فَٱنْبَرَىٰ ... دَمْعَانِ فِيْ ٱلأَجْفَانِ يَزْدَحِمَانِ

مَا أَنْصَفَتْنِيْ ٱلْحَادِثَاتُ رَمَيْنَنِيْ ... بِمُـوَدِّعَيْـنِ وَلَيْـسَ لِـيْ قَلْبَـانِ

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَشَارُوْا بِتَسْلِيْمٍ فَجُدْنَا بِأَنْفُسٍ	تَسِيْلُ مِنَ ٱلآمَاقِ وَٱلسِّمُ أَدْمُعُ

يقولُ : أَشاروا علينا بالسلامِ . . فجُدْنَا لَهم بالأرواحِ تسيلُ مِنَ ٱلآماقِ ، يحسبُها الناسُ دموعاً ، و(السِّمُ) لغَةٌ في الاسمِ ، وٱستعمالُها ليسَ بِجَيِّدٍ ؛ لأنَّها مهجورةٌ . شرح المطلع

والمعنىٰ متكرِّرٌ في شعرِهِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/٢٤٩ مِنَ الكاملِ] : الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق

رَحَلَ ٱلْعَزَاءُ بِرِحْلَتِيْ فَكَأَنَّنِيْ ... أَتْبَعْتُــهُ ٱلأَنْفَــاسَ لِلتَّشْيِيْــعِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/٨ مِنَ الكاملِ] :

لَيْسَ ٱلْقِبَابُ عَلَىٰ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا ... هُنَّ ٱلْحَيَاةُ تَرَحَّلَتْ بِسَلامِ[(١)]

أَرْوَاحُنَا ٱنْهَمَلَتْ وَعِشْنَا بَعْدَهَا ... مِنْ بَعْدِ مَا قَطَرَتْ عَلَىٰ ٱلأَقْدَامِ

وقولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٣/ ٢٢١ مِنَ الوافرِ] :

بِقَــائِيْ شَــاءَ لَيْـسَ هُـمُ ٱرْتِحَـالاَ ... وَحُسْنَ ٱلصَّبْرِ زَمُّوْا لاَ ٱلْجِمَالاَ[(٢)]

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَـيَّ مَـا دَمْعـاً بَكَيْـتُ وَإِنَّمَـا ... هِيَ ٱلرُّوْحُ مِنْ عَيْنِيْ تَسِيْلُ عَلَىٰ خَدِّيْ

---

(١) القِبابُ : الهوادجُ . الركابُ : الإبلُ .

(٢) زمُّوا الجمالَ : خطموها بالأزِمَّةِ ، وزمَّ : تقدَّمَ في السيرِ ، وأصلهُ من زمُّوها : إذا قادوها بالأزمَّةِ للسيرِ .

وقالَ بشّارٌ [في « ديوانهِ » ٤/٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَيْسَ ٱلَّذِيْ يَجْرِيْ مِنَ ٱلْعَيْنِ مَاؤُهَا ... وَلَـٰكِنَّهَـا رُوْحِـيْ تَـذُوْبُ فَتَقْطُـرُ

وقالَ ديكُ الجنِّ [في « ديوانهِ » ٢١١ مِنَ الخفيفِ] :

لَيْسَ ذَا ٱلدَّمْعُ دَمْعَ عَيْنِيْ وَلَـٰكِنْ ... هِـيَ نَفْسِـيْ تُـذِيْبُهَـا أَنْفَـاسِـيْ

وقالَ ٱبنُ دريدٍ [في « ديوانهِ » ٤٥ مِنَ الكاملِ] :

لاَ تَحْسَبُـوْا دَمْعِـيْ تَحَـدَّرَ إِنَّهَـا ... نَفْسِيْ جَرَتْ فِيْ دَمْعِيَ ٱلْمُتَحَدِّرِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٦ مِنَ الكاملِ] :

قَلْـبٌ تَقَطَّـعَ فَـٱسْتَحَـالَ نَجِيْعَـا ... فَجَرَىٰ وَصَارَ مَعَ ٱلدُّمُوْعِ دُمُوْعَا

وكلُّهُ مِنَ ٱلمبالغَةِ المقبولَةِ ؛ إِذ يُتَصوَّرُ عقلاً وعادَةً ، ولئِن خرجَ عَنها . . فلَن يجاوزَ الإِغراقَ ، وهوَ مقبولٌ أَيضاً .

والافتراقُ لهُ ٱحتراقٌ ، يفضي بكثيرٍ مِنَ ٱلقلوبِ إِلىٰ الانفطارِ والانشقاقِ ، قالَ النميريُّ [مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلْمَنِيَّـةَ وَٱلْفِـرَاقَ لَـوَاحِـدٌ ... أَوْ تَـوْأَمَـانِ تَـرَاضَعَـا بِلَبَـانِ

فِيْ فُرْقَةِ ٱلأَحْبَابِ شُغْلٌ شَاغِلٌ ... وَٱلثُّكْلُ أَجْمَعَ فُرْقَةَ ٱلإِخْوَانِ

وقالَ آخرُ [في « المستطرف » ٢/٨٧ مِنَ الكاملِ] :

جَاءَ ٱلرَّحِيْلُ فَحِيْنَ جَدَّ تَرَحَّلَتْ ... مُهَجُ ٱلنُّفُوْسِ لَهُ عَنِ ٱلأَجْسَادِ

مَنْ لَمْ يَبِتْ وَٱلْبَيْنُ يَصْدَعُ قَلْبَهُ ... لَـمْ يَـدْرِ كَيْـفَ تَفَتُّـتُ ٱلأَكْبَادِ

وقالَ ٱبنُ دراجٍ القسطليُّ [في « ديوانهِ » ٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْبَيْنُ بَيْنَ أَحِبَّةٍ ... وَلَـٰكِنْ قُلُوْبٌ فَارَقَتْهُنَّ أَبْدَانُ

وأنشدَ الماجِشونُ للمهديِّ [كما في «المستطرف» ٢/٨٦] : ما قالَهُ يومَ فارقَ أحبابَهُ حتَّىٰ أبكاهُ ، وهوَ [مِنَ البسيطِ] :

لله بَـاكٍ عَلَـىٰ أَحْبَـابِـهِ جَـزِعـاً ... قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُ هَـٰذَا قَبْلَ أَنْ يَقَعَا

مَا كَانَ وَٱللهِ شُؤْمُ ٱلدَّهْرِ يَتْرُكُنِيْ ... حَتَّىٰ يُجَرِّعَنِيْ مِنْ بَعْدِهِمْ جُرَعَا

إِنَّ ٱلزَّمَانَ رَأَىٰ إِلْفَ ٱلسُّرُوْرِ لَنَا ... فَدَبَّ بِٱلْبَيْنِ فِيْمَا بَيْنَنَا وَسَعَىٰ

فَلْيَصْنَعِ ٱلدَّهْرُ بِيْ مَا شَاءَ مُجْتَهِداً ... فَلاَ زِيَادَةَ شَيْءٍ بَعْدَ مَا صَنَعَا

وأَبكاهُ أَيضاً آخرُ بما أَنشدَهُ مِن قولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

رَمَىٰ ٱلْحُبُّ مِنْ قَلْبِيْ ٱلسَّوَادَ فَأَوْجَعَا ... وَصَاحَ فَصِيْحٌ بِٱلرَّحِيْلِ فَأَسْمَعَا

وَغَرَّدَ حَادِيْ ٱلْبَيْنِ فَانْشَقَّتِ ٱلْعَصَا ... فَأَصْبَحْتُ مَسْلُوْبَ ٱلْفُؤَادِ مُفَجَّعَا

كَفَىٰ حَزَناً مِنْ حَادِثِ ٱلدَّهْرِ أَنَّنِيْ ... أَرَىٰ ٱلْبَيْنَ لاَ أَسْطِيْعُ لِلْبَيْنِ مَدْفَعَا

وَقَدْ كُنْتُ قَبْلَ ٱلْيَوْمِ بِٱلْيَوْمِ جَاهِلاً ... فَيَـا لَـكَ بَيْنـاً مَـا أَمَـرَّ وَأَوْجَعَـا

ومثلُ هـٰذا كثيرٌ في هـٰذهِ الأَماليِّ ، فَلا نحيلُ علىٰ مجلسٍ بعينِهِ ؛ لأَنَّ في كثيرٍ مِنها ما يشبهُهُ ويتعلَّقُ بهِ ، ولا سيَّما الثاني .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٣٥ مِنَ الطَّويلِ] :

حَشَايَ عَلَىٰ جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ ٱلْهَوَىٰ	وَعَيْنَايَ فِيْ رَوْضٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَرْتَعُ

شرح المطلع

(الحَشَا) : ما داخلَ الجوفَ ، وأكثرُ ما يرادُ بهِ القلبُ .

القلب في النار والعيون في الجنان

يقولُ : قلبي من فراقِهِم يومَ الوداعِ علىٰ جمرٍ يتوقَّدُ ، وعينايَ ترتعانِ مِن وجهِ الحبيبِ في روضٍ مِنَ ٱلحسنِ ، وإنَّما قالَ : (ترتَعُ) ؛ لأنَّ العينينِ في حكمِ الواحدِ ، إذ هُما حاسَّةٌ واحدَةٌ ، وهوَ مِن قولِ أبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

أَفِيْ ٱلْحَقِّ أَنْ يَضْحَىٰ بِقَلْبِيَ مَأْتَمٌ مِنَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْبَلْوَىٰ وَعَيْنَايَ فِيْ عُرْسِ

وأبو تمَّامٍ أخذهُ عمَّن قبلَهُ ، فقد قالَ ٱبن الدمينةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

غَدَتْ مُقْلَتِيْ فِيْ جَنَّةٍ مِنْ جَمَالِهَا وَقَلْبِيْ غَدَا مِنْ هَجْرِهَا فِيْ جَهَنَّمِ

ونقلَهُ التهاميُّ إلىٰ ما ترىٰ ، فأحسنَ ، حيثُ قالَ [في « ديوانهِ » ٤٧٢ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّيْ لأَرْحَمُ حَاسِدِيَّ لِحَرِّ مَا ضَمَّتْ صُدُوْرُهُمُ مِنَ ٱلأَوْغَارِ[1]
نَظَرُوْا صَنِيْعَ ٱللهِ بِيْ فَعُيُوْنُهُمْ فِيْ جَنَّةٍ وَقُلُوْبُهُمْ فِيْ نَارِ

وقالَ خالدٌ الكاتِبُ [مِنَ المجتثِّ] :

قَالُوْا نَرَاكَ سَقِيْماً ؟ فَقُلْتُ : مِنْ وَجْنَتَيْهِ
فِيْ ٱلنَّارِ قَلْبِيْ ، وَعَيْنِيْ فِيْ ٱلرَّوْضِ مِنْ مُقْلَتَيْهِ

(١) الأوغارُ : الأحقادُ .

وهـٰذا أَشبهُ ببيتِ الناظِمِ ممَّا تقدَّمَ ، بل هوَ بعينِهِ ، لا ٱختلافَ إلاَّ في بعضِ الأَلفاظِ .

وقالَ الحسينُ بنُ الضحَّاكِ الخليعُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَقَدْ مَلأَتْ عَيْنِي بِغُرِّ مَحَاسِنٍ مَـلأْنَ فُـؤَادِيْ لَـوْعَـةً وَهُمُـوْمَـا

وللناظِمِ فيما لا يخرجُ مِن معناهُ قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٧٢ مِنَ الوافرِ] :

وَمَنْ خَبَرَ ٱلْغَوَانِيْ فَٱلْغَوَانِيْ ضِيَـاءٌ فِـيْ بَـوَاطِنِـهِ ظَـلاَمُ

وهوَ ناظرٌ إلىٰ قولِهِ تعالىٰ : ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد : ١٣] .

ولا يخرُجُ عنهُ قولُ شَاعرِ المعرَّةِ [في « سقطِ الزندِ » ١١٨ مِنَ الخفيفِ] :

حَلَـبٌ لِلْـوَلِـيِّ جَنَّـةُ عَـدْنٍ وَهْـيَ لِلْغَـادِرِيْـنَ نَـارُ ٱلْجَحِيْـمِ

وهوَ مِن قولِ صديقِهِ عبدِ الوهَّابِ المالكيِّ ، الذي سبقَ لَنا ذكرُهُ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٢١ مِنَ البسيطِ] :

بَغْـدَادُ دَارٌ لِأَهْـلِ ٱلْمَـالِ طَيِّبَـةٌ وَلِلْمَفَالِيْسِ دَارُ ٱلضَّنْكِ وَٱلضِّيْقِ

ظَلَلْتُ حَيْرَانَ أَمْشِيْ فِيْ أَزِقَّتِهَا كَأَنَّنِيْ مُصْحَفٌ فِيْ بَيْتِ زِنْدِيْقِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ الْجِبالِ الَّذِيْ بِنا	غَداةَ افْتَرَقْنا أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ

ألم البعاد يهد الجبال

وهوَ مِن قولِ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٥٧ مِنَ الوافرِ] :

وَلَوْ أَنَّ الْجِبالَ فَقَدْنَ إِلْفاً ... لأَوْشَكَ جامِدٌ مِنْها يَذُوبُ

وقولِهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَكْتُمُ ما بِيْ مِنْ هَواكِ وَلَوْ يُرَىٰ ... عَلَىٰ جَبَلٍ صَلْدٍ إِذاً لَتَصَدَّعا

وقد سبقَ ـ فيما رُويَ عَن ذي النونِ المصريِّ ـ قولُ المرأَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

صَبَرْتُ عَلَىٰ ما لَوْ تُحَمَّلُ بَعْضَهُ ... جِبالُ شَرَوْرَىٰ أَوْشَكَتْ تَتَصَدَّعُ

وقالَ ذُو الرُّمَّةِ [بل الصمة بن عبد الله في « الأغاني » ٦/ ١١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَمَا وَجَلالِ اللهِ لَوْ تَذْكُرِيْنَنِيْ ... كَذِكْراكِ ما نَهْنَهْتُ لِلْعَيْنِ مَدْمَعا
فَقالَتْ : بَلَىٰ وَاللهِ ذِكْراً لَوَ انَّهُ ... تَضَمَّنَهُ صُمُّ الصَّفا لَتَصَدَّعا

وقالَ آخرُ [وهو مجنونُ ليلىٰ في « ديوانهِ » ٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ أَنَّ ما بِيْ بِالْحَصَىٰ فَلَقَ الْحَصا ... وَبِالرِّيحِ لَمْ يُسْمَعْ لَهُنَّ هُبُوبُ

وكلُّهُ ناظِرٌ إِلىٰ قولِهِ تعالَىٰ ، تبارَكَ اسمُهُ : ﴿ تَكَادُ السَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ [مريم : ٩٠] ، وقولِهِ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ [الحشر : ٢١] .

لوعة الفراق تذيب الآماق

وقالَ أَبو دهبلٍ الجمحيُّ ، يصفُ لوعَةَ ٱلفراقِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَــوْمَ وَقَفْنَــا لِلْــوَدَاعِ وَكُلُّنَــا يَعُدُّ مُطِيْعَ ٱلشَّوْقِ مَنْ كَانَ أَحْزَمَا

فَصِرْتُ بِقَلْبٍ لاَ يُعَنَّفُ فِيْ ٱلْهَوَىٰ وَعَيْنٍ مَتَىٰ ٱسْتَمْطَرْتُهَا مَطَرَتْ دَمَا

وقالَ الأَميرُ تميمُ بنُ المعزِّ بنِ المنصورِ بنِ القائمِ بنِ المهديِّ [في «ديوانِهِ» ٤٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أُمُّ خِشْفٍ طُوْلَ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ بِبَلْقَعَةٍ بَيْدَاءَ ظَمْآنَ صَادِيَا[1]

تَهِيْمُ وَلاَ تَدْرِيْ إِلَىٰ أَيْنَ تَنْتَهِيْ مُوَلَّهَةً حَيْرَىٰ تَجُوْبُ ٱلْفَيَافِيَا

أَضَرَّ بِهَا حَرُّ ٱلْهَجِيْرِ فَلَمْ تَجِدْ لِغُلَّتِهَا مِنْ بَارِدِ ٱلْمَاءِ شَافِيَا

إِذا بَعُدَتْ عَنْ خِشْفِهَا ٱنْعَطَفَتْ لَهُ فَأَلْفَتْهُ مَلْهُوْفَ ٱلْجَوَانِحِ طَاوِيَا

بِأَوْجَعَ مِنِّيْ يَوْمَ شَدُّوْا حُمُوْلَهُمْ وَنَادَىٰ مُنَادِيْ ٱلْبَيْنِ أَنْ لاَ تَلاَقِيَا

وبعضُ المعنىٰ مأخوذٌ مِن قولِ عمروِ بنِ كلثومٍ [في «ديوانِهِ» ٨١ مِنَ الوافرِ] :

فَمَا وَجِدَتْ كَوَجْدِيْ أُمُّ سَقْبٍ أَضَلَّتْــهُ فَــرَجَّعَــتِ ٱلْحَنِيْنَــا[2]

وَلاَ شَمْطَــاءُ لَــمْ يَتْــرُكْ شَقَــاهَــا لَهَــا مِــنْ تِسْعَــةٍ إِلاَّ جَنِيْنَــا[3]

وفي المجلسِ الأَوَّلِ ما يشبهُهُ ، مِن كلامِ متمِّمِ بنِ نويرَةَ ، ومثلُهُ قولُ الأَبيورديِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا أُمُّ سَاجِيْ ٱلطَّرْفِ مَالَ بِهِ ٱلْكَرَىٰ عَلَىٰ عَذَبَاتِ ٱلْجِزْعِ تَحْسَبُهُ قَلْبَا

---

(١) الخشفُ : الظبيُ أوَّل مشيهِ .

(٢) السقبُ : ولدُ الناقةِ . الترجيعُ : ترديدُ الصوتِ .

(٣) الشمطاءُ : العجوزُ المسنَّةُ ، وهوَ أَشدُّ لحزنها . الجنينُ : الولدُ ما دامَ في بطنِ أُمِّهِ ، والميتُ ؛ لأنَّ القبرَ يجنُّهُ ؛ أي : يسترُه وهوَ المرادُ هنا .

تُرَاعِيْ بِإِحْدَىٰ مُقْلَتَيْهَا كِنَاسَهَا وَتَرْمِيْ بِأُخْرَىٰ نَحْوَهُ نَظَراً غَرْبَا

رَأَتْ مَرْتَعاً مِنْ جَانِبِ ٱلرَّمْلِ فَٱنْتَهَتْ إِلَيْهِ وَذُوْ ٱلأَطْمَاعِ لاَ يُحْمَدُ ٱلْعُقْبَىٰ

فَلَمَّا قَضَتْ مِنْهُ ٱللُّبَانَةَ رَاجَعَتْ خِبَاهَا فَأَلْفَتْ خِشْفَهَا قَدْ قَضَىٰ نَحْبَا

أُتِيْحَ لَهُ عَارِيْ ٱلسَّوَاعِدِ لَمْ يَزَلْ يَخُوْضُ إِلَىٰ أَوْطَارِهِ مَطْلَباً صَعْبَا

فَوَلَّتْ عَلَىٰ ذُعْرٍ وَبِٱلنَّفْسِ مَا بِهَا مِنَ ٱلْكَرْبِ لاَ لُقِّيْتِ فِيْ حَادِثٍ كَرْبَا

بِأَوْجَدَ مِنِّيْ يَوْمَ عَجَّتْ رِكَابُهَا لِبَيْنٍ فَلَمْ تَتْرُكْ لِذِيْ صَبْوَةٍ لُبَّا

وهيَ أَبياتٌ رائعةٌ ، وإِن أَخطأَ المثلُ محلَّهُ مِنها ؛ إِذ لم تزد علىٰ النجاةِ بنفسِها مِن عاري السواعِدِ ، ولَو أَنَّها بقيَتْ رابضَةً . . لَبدأَ بِها ، ثمَّ ثنَّىٰ بِطِلاَهَا ، فالعاقِبَةُ عندَها محمودَةٌ ، لا مذمومَةٌ ، ولَو قدرَ لَه أَن يتَسَنَّمَ الذروَةَ مِنَ ٱلروعَةِ . . لأَشارَ إِلىٰ أَنَّهُ ٱفترسَ طِلاها بمرأىً مِنها ، فإِنَّ ذلكَ أَوجعُ وأَفجعُ .

صلاح الدين يُعزِّي في والده

وذكرتُ بهِ كتاباً سَيَّرَهُ صلاحُ الدينِ الأَيوبيُّ ، تعزيَةً في والدِهِ لبعضِ قرابتهِ ، مِن إِنشاءِ القاضي الفاضلِ[1] [في «الروضتين في أخبار الدولتين» ٢/ ٢٥٠] : لقد عظمتِ ٱللَّوعَةُ ، وٱشتدَّتِ الرّوعَةُ ، وتضاعفَت لِغيبتِنا عنهُ ٱلحسرَةُ ، وٱستنجدْنا بالصبرِ فأَبىٰ ، وأَجابَتِ ٱلعبْرةُ ، فيا لَهُ فقيداً فَقَدْنا بِهِ العَزاءَ ، وهانَتْ بعدَهُ الأَرزاءُ :

وَتَخَطَّفَتْهُ يَدُ ٱلرَّدَىٰ فِيْ غَيْبَتِيْ هَبْنِيْ حَضَرْتُ لَدَيْهِ ، مَاذَا أَصْنَعُ ؟

---

(١) قالَ القاضي ٱبنُ شدَّادٍ : لَمَّا عادَ صلاحُ الدِّينِ مِن بعضِ غزواتِهِ . . بلغَهُ ـ قبلَ وصولِهِ إِلىٰ (مصرَ) ـ وفاةُ أَبيهِ نجمِ الدِّينِ ، فشقَّ ذلكَ عليهِ ؛ حيثُ لَم يحضُرْ وفاتَهُ ، فبعثَ إِلىٰ أَقاربِهِ بالكتابِ المذكورِ أَعلاهُ .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في «ديوانهِ» ٢/ ٨٤ مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا ٱسْتَحَرَّ ٱلْوَدَاعُ ٱلْمَحْضُ وَٱنْصَرَمَتْ أَوَاخِرُ ٱلصَّبْرِ وَلَّىٰ كَاظِماً وَجِمَا[١]

رَأَيْـتُ أَحْسَـنَ مَـرْئِـيٍّ وَأَقْبَحَـهُ مُسْتَجْمِعَيْنِ لِيَ ٱلتَّوْدِيعَ وَٱلْعَنَمَا[٢]

وأَهلُ المعاني ينتقدونَ عليهِ عطفَ العَنَمِ علىٰ التوديعِ ؛ إِذ لا مناسبةَ بينَهُما ، كَما ينتقدونَ عليهِ مثلَ ذلكَ في قولِهِ [في «ديوانهِ» ٢/ ١٥٢ مِنَ الكاملِ] :

لاَ وَٱلَّذِيْ هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَىٰ مُـرٌّ وَأَنَّ أَبَـا ٱلْحُسَيْـنِ كَـرِيْـمُ

غيرَ أَنَّ التأْويلَ للأَوَّلِ أَقربُ منهُ للثاني .

وقالَ أَبو تمَّامٍ أَيضاً [في «ديوانهِ» ٢/ ٣١ مِنَ الكاملِ] :

قَالُوْا ٱلرَّحِيْلُ فَمَا شَكَكْتُ بِأَنَّها نَفْسِيْ عَنِ ٱلدُّنْيَا تُرِيْدُ رَحِيْلاَ

وقالَ [في «ديوانهِ» ٢/ ٦ مِنَ البسيطِ] :

تَكَادُ تَنْتَقِلُ ٱلأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتْ مِنَ ٱلْجُسُوْمِ إِلَيْهَا حِيْنَ تَنْتَقِلُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ٢/ ٤٢٨ مِنَ الخفيفِ] :

إِنَّ يَـوْمَ ٱلْفِـرَاقِ يَـوْمٌ عَبُـوْسٌ أَيُّ سَيْـلٍ تَسِيْـلُ فِيْـهِ ٱلنُّفُـوْسُ

---

(١) ٱستحرَّ : ٱشتدَّ . المحضُ : الخالصُ . الكاظمُ : الكاتمُ الغيظِ . الوجِمُ : الساكتُ حزناً .

(٢) العَنَمُ : أَرادَ بِهِ البنانَ المخضوبَ ، لأَنَّهُ يشبهُ بالعنمِ وهو نبتٌ أَحمرُ .

أي : حينَ أَزِفَ الوداعُ ونفدَ الصبرُ فسكتَ العاشقُ حزناً . . حصلتُ على أقبحِ شيءٍ وهوَ التوديعُ ، وعلىٰ أجملِ شيءٍ وهوَ إشارةُ الأناملِ الحمرِ بالفراقِ .

وقد أخذَ البغداديُّ بأطرافِ المحاسنِ في قولِهِ [في « المستطرف » ٢/ ٨٩ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ وَقَدْ نَالَهَا لِلْبَيْنِ أَوْجَعُهُ ... وَٱلْبَيْنُ صَعْبٌ عَلَىٰ ٱلأَحْبَابِ مَوْقِعُهُ

اجْعَلْ يَدَيْكَ عَلَىٰ قَلْبِيْ فَقَدْ ضَعُفَتْ ... قُوَاهُ عَنْ حَمْلِ مَا فِيْهِ وَأَضْلُعُهُ

وَٱعْطِفْ عَلَيَّ ٱلْمَطَايَا سَاعَةً فَعَسَىٰ ... مَنْ شَتَّ شَمْلَ ٱلْهَوَىٰ بِٱلْبَيْنِ يَجْمَعُهُ

كَأَنَّنِي يَوْمَ بِنَّا حَسْرَةً وَأَسَىً ... غَرِيْقُ بَحْرٍ يَرَىٰ ٱلشَّاطِيْ فَيُمْنَعُهُ

وقالَ آخرُ [وهو ابن البديري في « المستطرف » ٢/ ٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَسْتَطِعْ يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ رَدَّ عَبْرَةٍ ... وَقَلْبِيْ أَسىً مِنْ حَرِّهَا يَتَقَطَّعُ

فَقَالَ خَلِيْلِي إِذْ رَأَىٰ ٱلدَّمْعَ دَائِماً ... يَفِيْضُ دَماً مِنْ مُقْلَتِي لَيْسَ يُدْفَعُ

لَئِنْ كَانَ هَـٰذَا ٱلدَّمْعُ يَجْرِيْ صَبَابَةً ... عَلَىٰ غَيْرِ لَيْلَىٰ فَهُوَ دَمْعٌ مُضَيَّعُ

الأذواق في الفراق

ثمَّ إنَّ الأذواقَ مختلفةٌ في شأنِ التوديعِ ، كما سبقتِ الإشارةُ إليهِ في المجلسِ الثاني .

القسم الأول يحبه لأنه يُخرِج مكنون الحب

فمِنهُم : مَن يؤثِرُهُ ؛ لِمَا فيهِ مِن قربِ البعيدِ ، وٱنكشافِ مكنونِ الحبِّ ، فقد كتبَ مصعبُ بنُ الزبيرِ مِن ميدانِ الحربِ [كما في « المنتظم حتى (٢٥٧ هـ) » ٦/ ١١٤] : لسُكَينةَ بنتِ الحسينِ ، بعدَ ليالٍ مِن فراقِها بهـٰذهِ الأبياتِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَانَ عَزِيْزاً أَنْ أَبِيْتَ وَبَيْنَنَا ... حِجَابٌ فَقَدْ أَصْبَحْتِ مِنِّيْ عَلَىٰ عَشْرِ

وَأَبْكَاهُمَا وَٱللهِ لِلْعَيْنِ فَٱعْلَمِيْ ... إِذَا ٱزْدَدْتِ مِثْلَيْهَا فَصِرْتِ عَلَىٰ شَهْرِ

وَأَنْكَىٰ لِقَلْبِيْ مِنْهُمَا ٱلْيَوْمَ أَنَّنِي ... أَخَافُ بِأَنْ لاَ نَلْتَقِيْ آخِرَ ٱلدَّهْرِ

ثمَّ أَشخصَها إليهِ ، فشهدَت معهُ الحربَ ، ودخلَ عليها يومَ

قُتِلَ ، وقد نزعَ ثيابَهُ ، ثمَّ لبسَ غلالَةً ، وتوشَّحَ بثوبٍ وهوَ محتضِنٌ سيفَهُ ، فعلمَت أنَّهُ غيرُ راجعٍ ، فصاحَتْ : وا حزناهُ عليكَ يا مصعَبُ ، فالتفتَ إليها ، وقالَ : أَوَكُلُّ هٰذا لي في قلبِكِ؟ قالَت : وما أُخفي عنكَ أكثرُ ، قالَ : لَو كنتُ أعلَمُ أنَّ لي عندكِ هٰذا كلَّهُ . . لَكانَ لي ولَكِ شأنٌ ، ثمَّ خرَجَ ولَم يرجِعْ ، وقد سبقَ خبرُهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ .

وقال جريرٌ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٤٠ مِنَ الكامل] :

لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ عَهْدِكُمْ   بِالرَّقْمَتَيْنِ فَعَلْتُ مَا لَمْ أَفْعَلِ

فقيلَ لحفيدِهِ [كما في « المستطرف » ٢/ ٨٦] : ما كانَ جدُّكَ صانعاً لو علِمَ أنَّهُ آخرُ العهدِ؟ قالَ : كانَ يقلَعُ عينَهُ حتَّىٰ لا يرىٰ مظعنَ أَحبابِهِ ، فهوَ حينئذٍ أَليَقُ بحالِ مَن يكرَهُ الوداعَ ، لا بما نحنُ فيهِ مِمَّن يؤثِرُهُ ، ومنهُ قولُ بعضِهِم [مِنَ السَّريعِ] :

وَسَهَّلَ ٱلتَّوْدِيعَ يَوْمَ ٱلنَّوَىٰ   مَا كَانَ قَدْ وَعَّرَهُ ٱلْهَجْرُ

وقالَ [مِنَ الخفيفِ] :

لَيسَ عِنْدِيْ خَطْبُ ٱلنَّوَىٰ بِعَظِيْمِ   فِيْهِ رَوْحٌ وَفِيْهِ كَشْفُ غُمُوْمِ
إِنَّ فِيْهِ ٱعْتِنَاقَةً لِوَدَاعٍ   وَٱنْتِظَارَ ٱعْتِنَاقَةٍ لِقُدُوْمِ

وقولُ أَبي عُبادَةَ المارُّ بعضُهُ آخرَ المجلسِ الخامسِ [في «ديوانه» ٣/ ١٥٣١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ عَرَفَ ٱلنَّاسُ ٱلتَّلَاقِيْ وَحُسْنَهُ   لَحُبِّبَ مِنْ أَجْلِ ٱلتَّلَاقِيْ ٱلتَّفَرُّقُ
فَيَا حُسْنَهُ وَٱلدَّمْعُ بِٱلدمعِ وَاشِجٌ   يُمَازِجُهُ وَٱلْخَدُّ بِٱلْخَدِّ مُلْصَقُ[1]

---

(١) واشجٌ : مشتبكٌ .

وَقَدْ ضَمَّنَا وَشْكُ ٱلتَّلاَقِي وَلَفَّنَا   عِنَاقٌ عَلَىٰ أَعْنَاقِنَا ثَمَّ ضَيِّقُ
فَلَمْ تَرَ إِلاَّ مُخْبِراً عَنْ صَبَابَةٍ   بِشَكْوَىٰ ، وَإِلاَّ عَبْرَةً تَتَرَقْرَقُ
وَمِنْ قُبَلٍ قَبْلَ ٱلتَّلاَقِي وَبَعْدَهُ   نَكَادُ بِهَا مِنْ شِدَّةِ ٱللَّثْمِ نَشْرَقُ

وقد أرادَ ٱبنُ درَّاجٍ ـ شاعرُ الأندلسِ ـ أن يتعلَّقَ بهٰذه الأذيالِ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ٩٠ مِنَ الكاملِ] :

قَالَتْ وَقَدْ مَزَجَ ٱلْفِرَاقُ مَدَامِعاً   بِمَدَامِعٍ وَتَرَائِباً بِتَرَائِبِ
أَتَفَرُّقٌ حَتَّىٰ بِمَنْزِلِ غُرْبَةٍ ؟   كَمْ نَحْنُ لِلأَيَّامِ نُهْبَةُ نَاهِبِ!
وَلَئِنْ جَنَيْتُ عَلَيْكَ تَرْحَةَ رَاحِلٍ   فَأَنَا ٱلزَّعِيمُ لَهَا بِفَرْحَةِ آيِبِ
هَلْ أَبْصَرَتْ عَيْنَاكَ بَدْراً طَالِعاً   فِيْ ٱلأُفْقِ إِلاَّ مِنْ هِلاَلٍ عَازِبِ[1]

وأخرجَ ٱبنُ السبكيِّ [في « طبقاته » ٤/٢٣٣] : بسندِهِ إِلىٰ أبي إسحاق الشيرازيِّ ، قالَ : أنشدَ المطرِّزُ لنفسهِ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّا وَقَفْنَا بِٱلصَّرَاةِ عَشِيَّةً   حَيَارَىٰ لِتَوْدِيعٍ وَرَدِّ سَلاَمِ[2]
وَقَفْنَا عَلَىٰ رَغْمِ ٱلْحَسُوْدِ وَكُلُّنَا   نَفُضُّ عَنِ ٱلأَشْوَاقِ كُلَّ خِتَامِ
وَسَوَّغَنِيْ عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ عِنَاقَهُ   وَلَمَّا رَأَىٰ وَجْدِيْ بِهِ وَغَرَامِيْ
. . تَلَثَّمَ مُرْتَاباً بِفَضْلِ رِدَائِهِ   فَقُلْتُ : هِلاَلٌ بَعْدَ بَدْرِ تَمَامِ ؟!
وَقَبَّلْتُهُ فَوْقَ ٱللِّثَامِ فَقَالَ لِيْ :   هِيَ ٱلْخَمْرُ إِلاَّ أَنَّهَا بِفِدَامِ[3]

---

(١) العازبُ : البعيدُ .
(٢) الصَّراةُ : نهرٌ يأخذ من الفراتِ ، فينسكبُ في دجلةَ ، بينه وبين (بغداد) مسيرة يوم .
(٣) الفِدامُ : شيءٌ تشدُّهُ الأعاجِمُ علىٰ أفواهِها عند السَّقيِ ، يكونُ كالمصفاةِ للشَّرابِ .

ومرضَ عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ طاهرِ بنِ الحسينِ ، فعادَهُ الأَميرُ ، فلمَّا انصرفَ . . كتبَ إليهِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/ ١٢٢] :

ما أَعرفُ أَحداً جزىٰ العلَّةَ خيراً غيري ، فقد شكرْتُ نعمتَها ؛ إذ أَفاضَت بي إلىٰ رؤيتِكَ ، فأَنا كالأَعرابيِّ الذي جزىٰ البينَ خيراً حيثُ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ يَوْمَ ٱلْبَيْنِ خَيْراً فَإِنَّهُ ... أَرَانَا عَلَىٰ عِلاَّتِهِ أُمَّ ثَابِتِ

أَرَانَا رَبِيْبَاتِ ٱلْخُدُوْرِ وَلَمْ نَكُنْ ... نَرَاهُنَّ إِلاَّ بِٱنْتِعَاتِ ٱلنَّوَاعِتِ(١)

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٦٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ لِيْ بِيَوْمٍ مِثْلِ يَوْمٍ كَرِهْتُهُ ... قَرُبْتُ بِهِ عِنْدَ ٱلْوَدَاعِ مِنَ ٱلْبُعْدِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٤٨ـ٢٤٩ مِنَ الكاملِ] :

مَا زِلْتُ أَحْذَرُ مِنْ وَدَاعِكَ جَاهِداً ... حَتَّىٰ ٱغْتَدَىٰ أَسَفِيْ عَلَىٰ ٱلتَّوْدِيْعِ

رَحَلَ ٱلْعَزَاءُ بِرِحْلَتِيْ فَكَأَنَّمَا ... أَتْبَعْتُهُ ٱلأَنْفَاسَ لِلتَّشْيِيْعِ

أَوَ مَا رَأَيْتُمْ فِيْ ٱلصَّرَاةِ مُلُوْحَةً ... مِمَّا أُرَقْرِقُ فِيْ ٱلْفُرَاتِ دُمُوْعِي(٢)

والبيتُ الأَوسطُ قد سبقَ عمَّا قريبٍ ، وقالَ [في « العُكبَري » ١/ ٢٤٦ـ٢٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَجَلاَ ٱلْوَدَاعُ مِنَ ٱلْحَبِيْبِ مَحَاسِناً ... حُسْنُ ٱلْعَزَاءِ وَقَدْ جُلِيْنَ قَبِيْحُ

فَيَدٌ مُسَلِّمَةٌ وَطَرْفٌ شَاخِصٌ ... وَحَشىً تَذُوْبُ وَمَدْمَعٌ مَسْفُوْحُ

يَجِدُ ٱلْحَمَامُ وَلَوْ كَوَجْدِيْ لاَنْبَرَىٰ ... شَجَرُ ٱلأَرَاكِ مَعَ ٱلْحَمَامِ يَنُوْحُ

---

(١) أي : لم نكن نرى تلك الفتيات الجميلات إلا بوصف الواصفات .

(٢) رقرقَ الماءَ : صبَّهُ ، وكذا الدمعُ .

وقالَ بَشَّارٌ [مِنَ البسيطِ] :

إِنَّ ٱلْوَدَاعَ مِنَ ٱلأَحْبَابِ نَافِلَةٌ ... لِلظَّاعِنِيْنَ إِذَا مَا يَمَّمُوْا بَلَدَا
وَلَسْتُ أَدْرِيْ إِذَا شَطَّ ٱلْمَزَارُ بِهِمْ ... هَلْ تَجْمَعُ ٱلدَّارُ أَمْ لاَ نَلْتَقِيْ أَبَدَا ؟

وقالَ آخرُ [مِنَ الوافرِ] :

تَمَتَّعْ مِنْ حَبِيْبِكَ بِـٱلْوَدَاعِ ... فَمَا بَعْدَ ٱلْفِرَاقِ مِنِ ٱجْتِمَاعِ
فَلَمْ أَرَ فِيْ ٱلَّذِيْ لاَقَيْتُ شَيْئاً ... أَمَرَّ مِنَ ٱلْفِرَاقِ بِـلاَ وَدَاعِ

القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفاسد مقدم على جلب المصالح

ومنهم مَنْ يكرهُهُ ؛ لِمَا يقدَحُ مِنَ ٱلزِّنَادِ ، ويفتُّتُ مِنَ ٱلأَكْبَادِ ، قالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٤٩٥ـ١٤٩٦ مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ تَعْــذُلِيْنِــيْ فِــيْ مَسِيْـ ... ـرِيَ يَوْمَ سِرْتُ وَلَمْ أُلاَقِكْ
فَلَقَــدْ خَشِيْــتُ مَــوَاقِفــاً ... لِلْبَيْنِ تَسْفَحُ غَرْبَ مَاقِكْ[1]
وَذَكَــرْتُ مَــا يَجِــدُ ٱلْمُــوَدِّ ... عُ عِنْـدَ ضَمِّـكِ وَٱعْتِنَـاقِـكْ
فَتَــرَكْــتُ ذَاكَ تَعَمُّـــداً ... وَخَرَجْتُ أَهْرُبُ مِنْ فِرَاقِكْ

وقالَ آخرُ [في « قرى الضيف » ٣/ ٣٤٤ مِن مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ تَــرْكَنَــنَّ إِلَــىٰ ٱلْــوَدَاعْ ... وَإِنْ سَكَنْــتَ إِلَــىٰ ٱلْعِنَــاقِ
فَــٱلشَّمْــسُ عِنْــدَ غُــرُوْبِهَــا ... تَصْفَــرُّ مِــنْ خَــوْفِ ٱلْفِــرَاقِ

وهٰذا هوَ الأحرىٰ بالقَبولِ ، والأَسعدُ بالدليلِ ؛ إذ لهُ أَصلٌ يتمشَّىٰ عليهِ مِن قواعدِ العِلْمِ عندَنا ، وهوَ : أَنَّ دَرْءَ المفاسِدِ أَولىٰ مِن جلبِ المصالِحِ[2] ، فتعيَّنَ دفعُ الأَرجحِ مِن مفاسدِ الاضطرابِ والاحتراقِ ، علىٰ ما لا يبلُّ لوعةً ، ولا يَشْفي غليلاً ، مِن آثارِ اللثمِ

---

(١) الغَربُ : الدمعُ . الماقُ : مجرىٰ الدمعِ من العينِ أَي من طرفِها مما يلي الأَنفَ .
(٢) هذه قاعدة فقهية مشهورة .

والعناقِ ، وهٰذا كلُّهُ عندَ الرِّضا ، أَمَّا مَن لَم يقرُب مِنَ ٱلبعدِ ، إلاَّ عِندَ الوداعِ . . فأولىٰ بهِ أَن يحرصَ عليهِ ، ومنهُ يتبيَّنُ أَنَّ ما سقناهُ مِن كلامِ الشعراءِ لم يتواردْ أكثرُهُ علىٰ نقطةٍ واحدَةٍ .

ما جاء في الوداع

وممَّا جاءَ في مطلَقِ الوداعِ ، **قولُهُ ـ أعني الناظِمَ ـ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٧ـ٣٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ كَٱلأَلْحَاظِ يَوْمَ رَحِيْلِهِمْ ... بَعَثْنَ بِكُلِّ ٱلْقَتْلِ مِنْ كُلِّ مُشْفِقِ
أَدِرْنَ عُيُوْناً حَائِرَاتٍ كَأَنَّهَا ... مُرَكَّبَةٌ أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِئْبَقِ
عَشِيَّةَ يَعْدُوْنَا عَنِ ٱلنَّظَرِ ٱلْبُكَا ... وَعَنْ لَذَّةِ ٱلتَّوْدِيْعِ خَوْفُ ٱلتَّفَرُّقِ

وغالبُ ظني أَن قد ذكرتُ في غيرِ هٰذا المجلسِ ، أَنَّ الأَخيرَ مِن قولِ النميريِّ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

نَظَرْتُ كَأَنِّيْ مِنْ وَرَاءِ زُجَاجَةٍ ... إِلَىٰ ٱلرَّبْعِ مِنْ فَرْطِ ٱلصَّبَابَةِ أَنْظُرُ

وقالَ الناظِمُ أيضاً [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٩٥ مِنَ الوافرِ] :

نَظَرْتُ إِلَيْهِمُ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ ... فَصَارَتْ كُلُّهَا لِلدَّمْعِ مَاقَا[1]
وَقَدْ أَخَذَ ٱلتَّمَامَ ٱلْبَدْرُ فِيْهِمْ ... وَأَعْطَانِيْ مِنَ ٱلسَّقَمِ ٱلْمُحَاقَا
وَبَيْنَ ٱلْفَرْعِ وَٱلْقَدَمَيْنِ نُوْرٌ ... يَقُوْدُ بِلاَ أَزِمَّتِهَا ٱلنِّيَاقَا

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَفْنَا وَمِمَّا زَادَ بَثّاً وُقُوْفُنَا ... فَرِيْقَيْ هَوىً : مِنَّا مَشُوْقٌ وَشَائِقُ
وَقَدْ صَارَتِ ٱلأَجْفَانُ قَرْحَىٰ مِنَ ٱلْبُكَا ... وَصَارَ بَهَاراً فِيْ ٱلْخُدُوْدِ ٱلشَّقَائِقُ[2]

---

(١) العينُ الشكرىٰ : الممتلئةُ بالدمعِ .

(٢) البَهارُ : زهرٌ أصفرُ . الشقائِقُ ـ جمعُ شقيقةٍ ـ : وهيَ زهرٌ أحمرُ ينسبُ إلى النعمانِ .

وقالَ بعضُهم [مِنَ البسيطِ] :

غَـداً أُوَدِّعُ قَـوْمـاً أَوْدَعُـوْا كَبِـدِيْ ... نَاراً وَعَهْدِيْ بِهِمْ بَرْداً عَلَىٰ ٱلْكَبِدِ
أُبْـدِيْ ٱلتَّجَلُّـدَ أَحْيَـانـاً فَيَنْهَـزُنِـيْ ... رِيْـقٌ يَجِفُّ وَخَـدٌّ بِـاْلـدُّمُوْعِ نَـدِيْ
لاَ أَنْسَ يَوْمَ تَنَازَعْنَا حَدِيْثَ نَوىً ... وَقَوْلَهَا وَهْيَ تَبْكِيْ : خَانَنِيْ جَلَدِيْ
فَـدَمْعُهَـا بَـرَدٌ فَـوْقَ ٱلْعَقِيْـقِ جَـرَىٰ ... وَرِيْقُهَا ضَرَبٌ قَدْ شِيْبَ بِٱلْبَرَدِ[1]
كُنَّـا إِلَـىٰ ٱلْـوَصْلِ قَـدْ مِلْنَـا فَنَغَّصَـهُ ... هَـٰذَا ٱلرَّحِيْلُ ٱلَّذِيْ مَا دَارَ فِي خَلَدِيْ

وقالَ آخرُ [في «المستطرف» ٢/٤٦ مِنَ الكاملِ] :

لَمَّـا ٱلْتَقَيْنَـا لِلْـوَدَاعِ وَأَعْـرَبَـتْ ... عَبَـرَاتُنَـا عَنَّـا بِـدَمْـعٍ نَـاطِـقِ
فَـرَّقْـنَ بَيْـنَ مَحَـاجِـرٍ وَمَعَـاجِـرٍ ... وَجَمَعْنَ بَيْنَ بَنَفْسَجٍ وَشَقَائِقِ

وقالَ أبو بكرٍ الزبيديُّ الإشبيليُّ [في «نفح الطيب» ٧/٤ مِنْ مخلَّعِ البسيطِ] :

لَـمْ يَخْلُـقِ ٱللهُ مِـنْ عَـذَابٍ ... أَشَـدَّ مِـنْ وَقْفَـةِ ٱلْـوَدَاعِ
مَـا بَيْنَهَـا وَٱلْحِمَـامِ فَـرْقٌ ... لَـوْلاَ ٱلْمُنَـاحَـاةُ وَٱلنَّـوَاعِـيْ
إِنْ يَفْتَـرِقْ شَمْلُنَـا وَشِيْكـاً ... مِـنْ بَعْـدِ مَـا كَـانَ ذَا ٱجْتِمَـاعِ
فَكُـلُّ شَمْـلٍ إِلَـىٰ فِـرَاقٍ ... وَكُـلُّ شَعْـبٍ إِلَـىٰ ٱنْصِـدَاعِ

قصائد للمؤلف في الوداع

وَلي في الوداعِ ما تُشنِّفُ بهِ الأَسماعُ ، منهُ قولي [مِنَ الكاملِ] :

وَدَّعْتُهُمْ وَكَتَمْتُهُمْ خَبَرَ ٱلنَّوَىٰ ... وَٱلْحَـالُ أَنِّـيْ بِـاْلتَّكَتُّـمِ وَاثِـقُ
لَـٰكِنْ ضَعُفْتُ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَتَبَادَرَتْ ... مِنْ مَحْجِرَيَّ عَلَىٰ ٱلْخُدُوْدِ سَوَابِقُ ؟
قَالُوْا : تُفَارِقُنَا وَأَنْتَ حَيَاتُنَا ... مَاذَا يَكُوْنُ ٱلْحَالُ حِيْنَ تُفَارِقُ

---

(١) الضَّرَبُ : العسل الأبيض .

فَعَيِيْتُ عَنْ رَدِّ ٱلْجَوَابِ لأَنَّهُ ... قَدْ كَادَ يَفْضَحُنِيْ نَشِيْجٌ خَانِقُ
وَأَرَابَهُمْ وَجَلِيْ وَلَكِنَّنِيْ وَإِنْ ... خَارَتْ قُوَىٰ جَلَدِيْ بَقِيْتُ أُسَارِقُ
فَعَصَرْتُ عَيْنِيْ مُوْهِماً فِيْهَا قَذَىً ... وَأَرَيْتُهُمْ أَنِّيْ بِرِيْقِيْ شَارِقُ

وَقَوْلِي [كما في « ديوانِ المؤلف » ق ٣٩ـ٤٠ مِنَ الطَّوِيلِ] :

قِفُوْا رَيْثَمَا تُرْوَىٰ ٱلْمَطَايَا عَلَىٰ مَهْلِ ... وَتَرْتَاحُ فِيْ الأَغْطَانِ مِنْ ذَلِكَ ٱلسَّهْلِ
وَمَا غَرَضِيْ نَفْعُ ٱلرِّكَابِ وَإِنَّمَا ... لأُطْفِىءَ مِنْ بَثِّيْ بِرَائِحَةِ ٱلأَهْلِ
فَلَمْ تُجْدِنِيْ نَفْعاً وَمَا بَرْدُ نَسْمَةٍ ... عَلَىٰ كَبِدٍ حَرَّىٰ مَرَاجِلُهَا تَغْلِيْ
وَأُمُّ رِئَالٍ سَبَّحَتْ بِدُمُوْعِهَا ... وَلاَ قَطْرَةٌ إِلاَّ تَصُوْبُ عَلَىٰ طَفْلِ[1]
وَلَمَّا رَأَوْ مَا قَدْ عَرَاهَا تَحَدَّرَتْ ... مَدَامِعُهُمْ مِنْ لَوْعَةِ ٱلْبَيْنِ كَٱلْوَبْلِ
وَلاَ دَمْعَةٌ إِلاَّ لَهَا بِفُؤَادِهَا ... عَلَىٰ مَا بِهَا وَخْزُ ٱلأَسِنَّةِ وَٱلنَّبْلِ
يُذِيْبُ ٱلْجَوَىٰ أَحْشَاءَهَا فَتَكَادُ مِنْ ... لَوَاعِجِهَا تَجْرِيْ عَلَىٰ ٱلدَّمْعِ فِيْ ٱلْكُحْلِ
وَمَا عِنْدَهَا مِنْ حَسْرَةٍ وَصَبَابَةٍ ... كَمِثْلِ ٱلَّذِيْ بِيْ حَذْوَكَ ٱلنَّعْلَ بِٱلنَّعْلِ
أُوَدِّعُهُمْ وَٱلْعَيْنُ شَكْرَىٰ وَرُبَّمَا ... تَنَدَّىٰ بَهَارُ ٱلْخَدِّ مِنِّيْ عَلَىٰ ٱلْبُخْلِ
عَدَانِيْ ٱلْبُكَا تِلْكَ ٱلْغَدَاةَ عَنِ ٱلْحَيَا ... وَكَانَ عَلَىٰ رَأْيِيْ حَرَاماً عَلَىٰ مِثْلِيْ
صَلِيْبُ حَصَاةٍ فِيْ ٱلْخُطُوْبِ وَإِنَّمَا ... رَأَيْتُ مَذَاقَ ٱلْبَيْنِ أَشْوَىٰ مِنَ ٱلْقَتْلِ
فَمَا أَنْسَ مِ ٱلأَشْيَاءِ لَمْ أَنْسَ سَاعَةً ... عَرَفْنَا ٱلْهَوَىٰ فِيْهَا عَلَىٰ غُصَّةِ ٱلثُّكْلِ
تَنَاسَبَتِ ٱلأَضْدَادُ حَتَّىٰ تَمَازَجَتْ ... مَرَارَةُ ذَاكَ ٱلثُّكْلِ فِيْ لَذَّةِ ٱلْوَصْلِ
تُرَاجِعُنِيْ عَذْبَ ٱلْكَلاَمِ بِلَهْجَةٍ ... يَمِيْلُ بِهَا فِيْهَا ٱلنَّشِيْجُ إِلَىٰ ٱلْمَطْلِ
لَهَا غَايَةٌ مِنِّيْ تُرِيْدُ بُلُوْغَهَا ... فَيَقْطَعُهَا عَنْهَا إِذَا شَرَعَتْ تُمْلِيْ

(١) رئال : جمع الرأل ، وهو فرخ النعام حتى يأتي عليه حول . **الطَّفل** : الرخص الناعم الرقيق ، وطَفلَت الشمس : مالت للغروب .

وَمِنْ بَعْدِ جُهْدٍ غُيِّضَتْ عَبَرَاتُهَا ... وَمَا فَعَلَتْ إِلاَّ وَقَدْ سَلَبَتْ عَقْلِيْ

تَقُـوْلُ : وَفَـدَّتْنِـيْ أَتَتْـرُكُنَـا كَـذَا ... فُرَادَىٰ لَدَىٰ الأَعْدَاءِ فِيْ ٱلْبَلَدِ ٱلْمَحْلِ

فَقُلْتُ : ثِقِيْ بِٱللهِ فَهْوَ حَسِيْبُنَا ... وَحَافِظُنَا سُبْحَانَهُ ٱلْجَامِعُ ٱلشَّمْلِ

قَطَعْنَا مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلرَّجَا فَتَأَكَّدَتْ ... رَوَابِطُنَا بِٱلْفَائِضِ ٱلْجُوْدِ وَٱلْفَضْلِ

وَلاَ شَـيْءَ كَـٱلإِيْمَـانِ بِـٱللهِ وَحْـدَهُ ... يُعَزِّيْ لَدَىٰ سُوْدِ ٱلنَّوَائِبِ بَلْ يُسْلِيْ

وهيَ طويلةٌ ، وكلُّها مِن هٰذا النوعِ ، وفي هٰذا القدرِ مِنها الكفايةُ .

* * *

[قالَ أَبو الطيِّب المتنبي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ ٱلطِّيبُ ثَوْبَهَا وَكَٱلْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

يصفُ خيالَها السَّاري إليهِ ؛ بدليلِ ٱلبيتِ الَّذي لَمْ نذكرْهُ قبلَهُ ، ويقولُ : إِنَّهُ جاءَ ، فنمَّ بهِ ٱلعِطرُ ، وتأرَّجَ بهِ ٱلمكانُ ، معَ أَنَّها لَمْ تتعطَّر ، ولَو أَنَّهُ كانَ يصِفُ زيارتَها بنفسِها. . لصحَّ أَن يقولَ : ما خامرَ الطِّيبُ ثوبَها ، فأَمَّا والحالُ أَنَّهُ لا يصِفُ إلاَّ خيالَها ، فلا وجهَ لذكرِ الثَّوبِ ، لكنَّهُ ٱختلطَ عليهِ ٱلعملُ ، وٱستنوَقَ لديهِ ٱلجَمَلُ ، وٱمتزجَتِ ٱليقظَةُ بِٱلْمنامِ ، وٱشتبَهَتِ ٱلحَقائِقُ بالأَحلامِ ، وأَصلُ ٱلمعنىٰ. . قولُ ٱمرىءِ القيسِ [في « المستطرف » ١/ ١٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب

أَلَمْ تَرَيَانِيَ كُلَّمَا جِئْتُ زَائِراً وَجَدْتُ بِهَا طِيباً وَإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

وخرجَ كثيِّرٌ ـ عَلَيهِ مُطْرَفُ خزٍّ[(١)] ـ مِن عندِ عبدِ الملكِ ، فٱعترضَتْهُ عجوزٌ ، معَها نارٌ في روثَةٍ ، فتأَفَّفَ مِنها ، فقالَت لَهُ ألستَ القائِلَ [كما في « ديوانه » ١٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا رَوْضَةٌ بِٱلْحَزْنِ دَبَّجَهَا ٱلْحَيَا يَمُجُّ ٱلنَّدَىٰ جَثْجَاثُهَا وَعَرَارُهَا[(٢)]
بِـأَطْيَـبَ مِـنْ أَرْدَانِ عَـزَّةَ مَـوْهِنـاً إِذَا أُوقِدَتْ بِٱلْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ نَارُهَا[(٣)]

---

(١) المُطْرفُ : رداءٌ من خزٍّ .
(٢) الحزنُ : الأَرضُ الغليظةُ . يمجُّ : يرمي . الجَثْجَاثُ : ريحانَةٌ طيبةُ الريحِ برِّيَّةٌ . العرارُ : البَهارُ البريُّ ، طيِّبُ الرائحةِ .
(٣) الأَردانُ : أَطرافُ الأَكمامِ ، كانت تضعُ العربُ فيها الدراهِمَ . مَوهِناً : الطرفُ=

فقالَ لَها : نعم، فقالَت : لو وضعت المندلَ علىٰ ميمونَةَ الزنجيّةِ، أَو هـٰذهِ الروثَةِ . . لظهرَ لَها عرفُ طِيبٍ ، هلاَّ قلتَ : كما قالَ ٱمرؤُ القيسِ : ـ تعني بيتَهُ السابقَ ـ فٱنكسرَ، وأَعطاها المُطْرَفَ[1] .

ويرویٰ [في « الأغاني » ١٥/ ٢٧٥] : أَنَّهُ ٱنصرفَ وهو يقولُ [مِنَ الكاملِ] :

ٱلْحَـقُّ أَبْلَـجُ لاَ يَخِيْـلُ سَبِيْلُـهُ وَٱلْحَقُّ يَعْرِفُهُ أُوْلُوْا ٱلأَحْلاَمِ

وقالَ بعضُ العقلاءِ في قولِهِ : (إِذَا أُوْقِدَتْ بِٱلْمَنْدَلِ ٱلرَّطْبِ) : إِنَّما هوَ مِن تمامِ وصفِ الروضَةِ ، وقد حصلَ بينَ القسمينِ التقديمُ والتأخيرُ ؛ لضيقِ الوزنِ ، وهوَ تأويلٌ بغيضٌ ، لا يقولُهُ ولا يقبلُهُ إلاَّ مَن ختَمَ اللهُ علىٰ بصرِهِ وبصيرتِهِ ، ولَئِنْ عيبَ عليهِ في هـٰذا . . فقدْ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا نُطْفَـةٌ كَـانَـتْ سُـلاَلَـةَ بَـارِقٍ نَمَتْ عَنْ طَرِيْقِ ٱلنَّاسِ ثُمَّ ٱسْتَقَلَّتِ
بِأَطْيَبَ مِنْ أَنْيَابِ عَزَّةَ بَعْدَ مَا حَدَا ٱللَّيْلُ أَعْقَابَ ٱلنُّجُوْمِ فَوَلَّتِ

الروائح المسكية تفضح صاحبها ولو تخبّأ

ومعنىٰ البيتِ الذي نحنُ فيهِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ ، منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيّ » ١/ ١٣ مِنَ الكاملِ] :

قَلَقُ ٱلْمَلِيْحَةِ وَهْيَ مِسْكٌ هَتْكُهَا وَمَسِيْرُهَا بِٱللَّيْلِ وَهْيَ ذُكَاءُ[2]

= الأخيرُ مِنَ الليلِ . المندَلُ : العودُ الطَّيِّبُ الرائِحَةِ .

والمعنىٰ : فما روضَةٌ بالأرضِ الغليظَةِ الصَّخريَّةِ ، طيِّبَةِ الزرعِ ، يفوحُ ندىٰ ريحانِها البَرِيِّ ، وطيبِ رائِحةِ بهارِها ، بأَطيبَ وأَزكى مِن رائِحةِ أَطرافِ أَكمامِ عَزَّةَ في آخرِ الليلِ وقد أَشعلَتْ نارَها بأَعوادِ المندَلِ الطَّيِّبِ الرائِحَةِ .

(١) «الأغاني» (١٥/ ٢٧٥) .

(٢) ذُكاءُ : ٱسمٌ من أسماءِ الشمسِ .

وقالَ النميريُّ [الماكيُّ في « ديوانهِ » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا مُزْنَةٌ جَاءَتْ فَأَسْبَلَ وَدْقُهَا عَلَىٰ رَوْضَةٍ رَيْحَانُهَا قَدْ تَخَضَّدَا
كَأَنَّ تِجَارَ ٱلْهِنْدِ حَلُّوْا رِحَالَهُمْ عَلَيْهَا طَرُوْقاً ثُمَّ حَلُّوْا بِهَا ٱلْغَدَا
بِأَطْيَبَ مِنْ ثَوْبَيْنِ تَأْوِيْ إِلَيْهِمَا سُعَادُ إِذَا نَجْمُ ٱلسِّمَاكَيْنِ غَرَّدَا[1]

وقالَ آخرُ [مِنَ الخفيفِ] :

دُرَّةٌ كَيْفَ مَا أُدِيْرَتْ أَضَاءَتْ وَمَشَمٌّ مِنْ حَيْثُ مَا شُمَّ فَاحَا

وقالَ بشَّارٌ [مِنَ المديدِ] :

وَتَوَقَّ ٱلطِّيْبَ لَيْلَتَنَا إِنَّهُ وَاشٍ إِذَا سَطَعَا

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥٠ مِنَ المتقاربِ] :

وَكَانَ ٱلْعَبِيْرُ بِهَا وَاشِياً وَجَرْسُ ٱلْحُلِيِّ عَلَيْهَا رَقِيْبَا

وقد سبقَ في المجلسِ الأَوَّلِ بعضُ قولِ عليِّ بنِ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٧٦ مِنَ الرَّمَلِ] :

بِأَبِيْ مَنْ زَارَنِيْ مُكْتَتِماً حَذِراً مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَزِعَا
طَارِقٌ نَمَّ عَلَيْهِ نُوْرُهُ كَيْفَ يُخْفِيْ ٱللَّيْلُ بَدْراً طَلَعَا ؟!
رَصَدَ ٱلْخَلْوَةَ حَتَّىٰ أَمْكَنَتْ وَرَعَىٰ ٱلسَّاهِرَ حَتَّىٰ هَجَعَا
كَابَدَ ٱلأَهْوَالَ فِيْ زَوْرَتِهِ ثُمَّ مَا سَلَّمَ حَتَّىٰ وَدَّعَا

ولئِن لَم تتَّصِل هٰذهِ ببيتِ البحثِ . . فإِنَّها متَّصلةٌ ببيتهِ الَّذي سقناهُ شاهداً لَهُ ، وقد كانَ سالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ بنِ ٱلخطَّابِ ـ

---

(١) السماكانِ : نجمانِ نيّرانِ . غرَّدَ النجمُ : إذا ٱرتفعَ .

رضيَ ٱللهُ عَنهم ـ يطربُ كثيراً كلَّما غنَّاهُ أَشعبُ بهـٰذين [كما في « البداية والنهاية » ١٠/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَمَّتْ بِنَا وَٱللَّيْلُ دَاجٍ كَأَنَّهُ جُنَاحُ غُرَابٍ عَنْهُ قَدْ نَفَضَ ٱلْقَطْرَا
فَقُلْتُ : أَعَطَّارٌ ثَوَىٰ فِيْ رِحَالِنَا ؟ وَمَا ٱحْتَمَلَتْ لَيْلَىٰ سِوَىٰ عَرْفِهَا عِطْرَا

وقالَت إِحدىٰ صواحبِ أُمِّ زرعٍ [كما في « البخاري » (٥١٨٩) مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

اَلْمَسُّ مَسُّ أَرْنَبِ وَٱلرِّيْحُ رِيْحُ زَرْنَبِ

وقالَ أَبو المطاعِ ٱبنُ ناصرِ الدولَةِ [في « نفح الطيب » ٣/ ٤١٥ مِنَ البسيطِ] :

ثَلاَثَةٌ مَنَعَتْهَا مِنْ زِيَارَتِهَا وَقَدْ دَجَىٰ ٱللَّيْلُ خَوْفَ ٱلْكَاشِحِ ٱلْحَنِقِ
ضَوْءُ ٱلْجَبِيْنِ وَوَسْوَاسُ ٱلْحُلِيِّ وَمَا يَفُوْحُ مِنْ عَرَقٍ كَٱلْعَنْبَرِ ٱلْعَبِقِ
هَبْهَا ٱلْجَبِيْنَ بِفَضْلِ ٱلْكُمِّ تَسْتُرُهُ وَٱلْحُلْيَ تَنْزِعُهُ مَا ٱلشَّأْنُ فِيْ ٱلْعَرَقِ ؟

وقلتُ ـ أَنا ـ في مطلعِ قصيدَةٍ نبويَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٦٩ مِنَ الكاملِ] :

زَارَتْ وَقَدْ جَنَحَ ٱلظَّلاَمُ بِلاَ حِذَا عُطْلاً مُنَقَّبَةً فَنَمَّ بِهَا ٱلشَّذَا[1]

فتراني ٱستوفيتُ ما في الثلاثَةِ الأَبياتِ ، وزدتُ عَلَيها ، في بيتٍ

---

(١) جَنَح الظلامُ : أقبل . بلا حذا : حافيةً حتى لا يفطنَ إليها أحد . العُطْل من النساء : الخالية من الحُلي ، إمَّا لأنها استغنت بجمالها عن الحُلي ، وإمَّا للخوف من أنْ يُسمَعَ صوتُ الحُلي . منقبةٌ : ذاتُ نقاب . نمَّ : أعلنَ وباحَ . الشذا : ذكاءُ الرائحةِ الطيبةِ .

واحدٍ ، بلا إعناتِ فكرٍ ، ولا إرهاقِ رويَّةٍ ، معَ صعوبةِ القافيةِ ، ورقَّةِ الانسجامِ .

وقلتُ في مطلعِ قصيدةٍ إماميَّةٍ [كما في « ديوانِ المؤلف » ٤٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَكْنَ ٱلْحُلَىٰ وَٱجْتَزْنَ وَٱللَّيْلُ جَانِحُ فَنَمَّتْ بِمَا تَحْتَ ٱلسُّتُورِ ٱلرَّوَائِحُ
نَوَاعِمُ لَوْلَا ٱلْخُمْرُ لَانْكَشَفَ ٱلدُّجَىٰ مَـرَرْنَ حَـوَالَيْنَـا وَهُـنَّ سَـوَانِـحُ
سَلَبْنَ ٱلنُّهَىٰ لَمَّـا تَمَايَلْنَ وَٱنْثَنَىٰ بِحَسْـرَتِـهِ مِنْهُـنَّ غَـادٍ وَرَائِـحُ
وَمَا صَانَنَا عَنْ سِحْرِهِنَّ سِوَىٰ هَوىً بِـهِ مُلِئَـتْ مِـنْ قَبْلِهِـنَّ ٱلْجَـوَانِـحُ

طيب النكهة يدخل في الموضوع

وممَّا يتعلَّقُ بطيبِ النَّكهَةِ قولُ جريرٍ [في « ديوانهِ » ٩٩٠ مِنَ الكاملِ] :

تُجْرِي ٱلسِّوَاكَ عَلَىٰ أَغَرَّ كَأَنَّهُ بَـرَدٌ تَحَـدَّرَ مِـنْ مُتُـوْنِ غَمَـامِ

وقولُ ٱبنِ الرُّوميِّ وقدِ ٱدَّعىٰ أَنَّ محبوبَهُ رَوْضُ ٱلحُسْنِ ، وهوَ منقطعُ النَّظيرِ [في « ديوانهِ » ٩٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

كَذٰلِكَ أَنْفَاسُ ٱلرِّيَاضِ بِسَحْرَةٍ تَطِيْـبُ وَأَنْفَـاسُ ٱلْـوَرَىٰ تَتَغَيَّـرُ

وقالَ التِّهاميُّ [مِنَ البسيطِ] :

لَوْ لَمْ يَكُنْ أُقْحُوَاناً ثَغْرُ مَبْسَمِهَا مَا كَانَ يَزْدَادُ طِيْباً سَاعَةَ ٱلسَّحَرِ

وقالَ ٱلمعريُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ بَلَغَتْ سِنَّ ٱلْكِعَابِ وَقَابَلَتْ بِنَكْهَةِ مَعْقُوْدِ ٱلسِّخَابَيْنِ مُرْضَعُ

من يدق الباب.. يسمع الجواب

ويذكرُ عَن بعضِ بني أُميَّةَ : أَنَّهُ عابَ علىٰ الحسنِ بنِ عليٍّ شيبَ شاربِهِ ، وقالَ إنَّهُ دليلُ النَّزَقِ[1] ، فقالَ لهُ الحسنُ : كلاَّ ، ولٰكنِ النساءُ تتعلَّلُ بأنفاسِنَا ، فيسرعُ إلىٰ شوارِبِنا الشيبُ ،

---

(١) النَّزَقُ : الخفة والطيش .

وتنصرِفُ نساؤُكُم بأُنوفِها إِلىٰ أَصداغِكم ؛ لِبَخَرِكُم ، فيكونُ شيبُكم هناكَ .

عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه

وكانَ عبدُ ٱلملكِ أَبخرَ ، يسقطُ الذبابُ عَن فمِهِ ؛ ولهـٰذا يُسمَّىٰ [كما في «ثمار القلوب» ٧٥] : أَبَا الذِّبَّانِ .

وكانَت عندَهُ لبابَةُ بنتُ عبدِ ٱللهِ بنِ جعفرِ ٱبنِ أَبي طالِبٍ ، فأَكلَ مِن تفَّاحَةٍ ، ورمىٰ بِها إِليها ، فأَخرجَت مكانَ فيهِ بالسِّكِّينِ ، وأَكلَتِ ٱلباقِيَ ، فقالَ : ما شَأْنُكِ؟ قالَت : أَلقيتُ عَنها ٱلأَذىٰ ، فطلَّقَها ، وتزوَّجَت بعدَهُ بعليِّ بنِ عبدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ أَصلعَ ، فبعثَ عبدُ الملكِ ٱمرأَةً تكشِفُ رأْسَهُ بحضرتِها ، ففعلَت ، فعرفَت لبابَةُ ٱلْخَبْءَ ، فقالَت لِلْمرأَةِ : قولي لَهُ : أَصلعُ مِنْ بَني عمِّي . . خَيْرٌ مِن أَبْخَرَ مِن بَني أُمَيَّةَ ، فما زالَ يتطلَّبُ ٱلعثراتِ لعليٍّ حتَّىٰ جلدَهُ ، وطافَ بهِ علىٰ جَمَلٍ ، ورأْسُهُ مما يلي الذنَبَ .

البَخَر وما يتعلق به

وبينا عمرُ بنُ الخطَّابِ يعسُّ ليلةً . . إِذ سمعَ ٱمرأَةً تقولُ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِعَذْبٍ مُبَرَّدٍ نُقَاخٍ فَتِلْكُمْ عِنْدَ ذَلِكَ قَرَّتِ[1]

وَمِنْهُنَّ مَنْ تُسْقَىٰ بِأَخْضَرَ آجِنٍ أُجَـاجٍ فَلَـوْلاَ خَشْيَـةُ ٱللهِ فَـرَّتِ

فٱستدعىٰ زوجَها ، فإِذا هوَ أَبخرُ ، فخلَعَها منهُ .

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْـرَأً يَقْـوَىٰ عَلَـىٰ لَثْـمِ ثَغْـرِهِ عَلَىٰ ٱلضَّغْطِ وَٱلتَّعْذِيبِ فِيْ قَبْرِهِ يَقْوَىٰ

---

(١) النُّقاخُ : الماءُ الباردُ العذبُ الصافي الخالص ، الذي يَكادُ ينقخُ الفؤاد ويكسرُهُ ببرده .

وقالَت أُخرىٰ [كما في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٢٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جِيفَةُ ٱلْخِنْزِيرِ عِنْدَ ٱبْنِ مُقْرِبٍ ⁂ قَتَادَةَ إِلاَّ رِيحُ مِسْكٍ وَغَالِيَهْ

لیس کل ما یلمع ذهباً

وذكـرَ ٱبـنُ خَلِّكـانَ [فـي « وفيَـاتِ ٱلأعيـانِ » ٥/ ٣٨٠] : أَنَّـهُ كـانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ حسنُ النعمَةِ ، واسعُ النفسِ ، كاملُ المروءَةِ ، يقـالُ لَـهُ : سِمـاكُ بـنُ النعمـانِ ، وكـانَ يهـوىٰ مغنِّيـةً مِـن أَهـلِ (أَصبهانَ) ، لَها قَدْرٌ ، تعرفُ بأُمِّ عمرٍو ، فلإفراطِ صبابَتِهِ بِها ، وحبِّهِ لَها . . وهبَها عدَّةً مِن ضِياعِهِ ، وكتَبَ علىٰ نفسِهِ كتباً بذلكَ ، حمَلَها إِليها علىٰ بغلٍ ، فشاعَ الخبرُ ، وتحدَّثَ بهِ الناسُ ، وكَبَّروا الخبرَ ، وكانَ بـ(أَصبهانَ) رجلٌ متجلِّفٌ بيِّنُ الركاكةِ ، يهوىٰ مغنِّيَةً أُخرىٰ ، فلمَّا ٱتَّصلَ بهِ ذلكَ . . ظنَّ بجهلِهِ وقلَّةِ عقلِهِ أَنَّ سماكاً إِنَّما أَهدىٰ لأُمِّ عمرٍو جلوداً بيضاءَ ، لا كتابَةَ فيها ، وأَنَّ هـٰذا مِنَ ٱلهدايا التي تستحسَنُ ويجلُّ موقعُها عندَ مَن تهدىٰ إِليهِ ، فٱبتاعَ جلوداً كثيرَةً ، وحملَها إِلىٰ عشيقتِهِ علىٰ بغلينِ ، فلمَّا وصلتْها ووقفَت علىٰ جليَّةِ الأَمرِ . . تغيَّظَتْ عليهِ ، وكتبَت إِليهِ رقعَةً تشتُمُهُ ، وتحلِفُ أَنَّها لا تكلِّمُهُ ، وسأَلت بعضَ الشعراءِ أَن يعمَلَ لَها أَبياتاً فِي المعنىٰ ، ففعلَ ، وهـٰذهِ هيَ الأَبياتُ [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

لاَ عَادَ طَوْعُكَ مَنْ عَصَاكَا ⁂ وَحُرِمْتُ مِنْ وَصْلِيْ مُنَاكَا

فَلَقَدْ فَضَحْتَ ٱلْعَاشِقِيْنَ ⁂ بِقُبْحِ مَا فَعَلَتْ يَدَاكَا

أَرَأَيْتَ مَنْ يُهْدِيْ ٱلْجُلُوْ ⁂ دَ إِلَىٰ عَشِيْقَتِهِ سِوَاكَا

وَأَظُنُّ أَنَّكَ رُمْتَ أَنْ ⁂ تَحْكِيْ بِفِعْلِكَ ذَا سِمَاكَا

ذَاكَ ٱلَّذِيْ أَهْدَىٰ ٱلضِّيَا ⁂ عَ لأُمِّ عَمْرٍو وَٱلصِّكَاكَا

فَبَعَثْـــتَ مُنْتِنَــــةً كَـــأَ نَّك قَـدْ مَسَحْـتَ بِهِـنَّ فَـاكَـا
مَــنْ لِــيْ بِقُــرْبِــكَ يَــا رَقِيْـ ـعُ وَلَسْــتُ أَهْـوَىٰ أَنْ أَرَاكَـا
لٰكِــــنْ لَعَلِّــــيْ أَنْ أُقَـ ـطِّـعَ مَـا بَعَثْـتَ عَلَـىٰ قَفَـاكَـا

وأنشدَ الجوهريُّ لامرأَةٍ مِنَ ٱلعرَبِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّـيْ بُلِيْـتُ بِعِـذْيَـوْطٍ لَـهُ بَخَـرٌ يَكَادُ يَقْتُلُ مَنْ نَاجَاهُ إِنْ كَشَرَا[1]

وقالَ آخرُ [كما في « لسان العرب » ٣/١٢٨ مِنَ البسيطِ] :

نَكِهْـتُ مُجَـالِـداً فَشَمَمْـتُ مِنْـهُ كَرِيْحِ ٱلْكَلْبِ مَاتَ قَرِيْبَ عَهْدِ[2]
فَقُلْتُ لَهُ: مَتَىٰ ٱسْتَحْدَثْتَ هَٰذَا؟ فَقَالَ : أَصَابَنِيْ فِيْ جَوْفِ مَهْدِيْ

وقد مرَّ كثيرٌ ممَّا يتَّصِلُ بموضوعِ النكهَةِ والطيبِ ، عندَ الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يُجَـنُّ شَـوْقـاً فَلَـوْلاَ أَنَّ رَائِحَـةً تَزُوْرُهُ مِنْ رِيَاحِ ٱلشَّرْقِ مَا عَقَلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٣٨] :

وَتَفُوْحُ مِنْ طِيْبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ لَهُـمْ بِكُـلِّ مَكَـانَـةٍ تُسْتَنْشَـقُ

* * *

(١) العِذْيُوطُ : الذي إذا أتىٰ أهلَه أَبْدَىٰ ، أي : سَلَحَ أو أَكْسَلَ .
(٢) نكِهْتُه : أي تشَمَّمْتُ ريحه .

المجلس السّادس عشر

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبّي في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّىٰ ٱنْثَنَتْ تُوسِعُ ٱلْخُطَا	كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ

السرعة في التوديع

المعنىٰ ظاهرٌ[1] ، وقد سبقَ ما يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الأَوَّلِ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٧٩ مِنَ الخفيفِ] :

فَٱفْتَرَقْنَا حَوْلاً وَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا ... كَانَ تَسْلِيمُهُ عَلَيَّ وَدَاعَا

الطباع البشرية غريبة

ونقولُ هُنا : إِنَّ الزائرَ ربَّما يتعمَّدُ تركَ الإِطالَةِ ؛ لإِفضائِها إِلىٰ الملالَةِ ، وقد قالَ الخوارزميُّ [في « ديوانه » ٣٨٢ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا بِيْ فِيْكَ مِنْ زُهْدٍ وَلَٰكِنْ ... أُخَفِّفُ عَنْكَ أَعْبَاءَ ٱلْمَلَالِ

وقالَ ٱبنُ المقفَّعِ ـ ما معناهُ ـ : إِذا أَقبلَ عليكَ إِنسانٌ ، فسرَّكَ أَن لا يدبِرَ عنكَ يوماً ما . . فَلا تُنعِمِ ٱلإِقبالَ عليهِ ، والتفتُّحَ لَهُ ، فإِنَّ ٱلناسَ قد ٱندَمجوا علىٰ طبائِعِ لُؤْمٍ ، يفرُّونَ عمَّن قَرُبَ مِنهم ، ويلصقونَ بِمن هَرَبَ عَنهم .

كثرة إلف الإنسان للشيء . . تذهب هيبته من قلبه

وكانَ ٱبنُ الخطَّابِ يضرِبُ الناسَ علىٰ الإِقامَةِ بعدَ الحجِّ ، ويقولُ : أَخافُ أَن يأْنَسَ الناسُ بهٰذا البيتِ ، فتسقطَ هيبتُهُ مِن قلوبِهِم .

---

(١) أي هي في سرعة توديعها . . كمن فطمت ولدها قبل أن ترضعه .

وما ٱتخذَتِ الملوكُ الحجَّابَ. . إلاَّ حفظاً للهيبَةِ ؛ فإنَّ أَجْرأَ الناسِ علىٰ السباعِ الرعاةُ ؛ لِكثرَةِ ما يرونَها .

وكـانَ ٱبـنُ عمـرَ يَطـوي السهـوبَ ، ويقطَـعُ العُقـابَ[1] إلـىٰ (المدينَةِ) ثم ينيخُ راحلتَهُ نضواً ببابِ المسجدِ[2] ، ويحيِّيهِ ، ثمَّ يقومُ تجاهَ القبرِ الأعطرِ ، ويقولُ [بنحوه في « الطبقات الكبرى » ٤/١٥٦] : السلامُ عليكَ يا رسولَ اللهِ ، السلامُ عليكَ يا أَبا بكرٍ ، السلامُ عليكَ يا أَبَتِ ، ثمَّ ينصرفُ ، ويركَبُ مِن فورِهِ .

من نوادر الأعمش

ومرضَ الأَعمشُ فجاءَهُ أَبو حنيفَةَ يعودُهُ ، ثمَّ قالَ لهُ : نخشىٰ أَن نكونَ ثقَّلْنا عليكَ ، قالَ لَهُ : واللهِ لأَنْتَ ثقيلٌ عليَّ وأَنتَ في دارِكَ ، وما بِأَحدِ الإمامَين بغضَةٌ ولا ثقلُ ظلٍّ ، وَلَـٰكِنَّ الأَعمشَ ذهبَ إِلىٰ التندُّرِ والتظرُّفِ ، والإشارَةِ إِلىٰ تفرُّدِ أَبي حنيفَةَ بالفضْلِ تفرُّداً يثقلُ علىٰ أَقرانِهِ ـ وهوَ مِنهُم ـ ٱحتمالُهُ .

ويذكرُ : أَنَّهُ حلفَ بطلاقِ ٱمرأَتِهِ إِن أَخبرَتْهُ بنفادِ الدقيقِ ، أَو كَتبَتْ إِليهِ ، أَو بعثَتِ ٱلخادِمَ يخبرُهُ ، فاستَفْتَتْ أَبا حنيفَةَ ؟ فقالَ لَها : إِذا نامَ . . فاربطِي بذيلِهِ كيسَ الدقيقِ ؛ حتَّىٰ يعرِفَ أَنَّهُ فرغَ ، مِن غيرِ أَن تطلقي ، ففعلَت ، فعرفَ أَنَّها مِن كيسِ أَبي حنيفَةَ ، فقالَ : قاتَلَهُ اللهُ ، لقد فضَحَنا حتَّىٰ عندَ أَزواجِنا .

من نوادر الشعبي

وقد ذكرنا في غيرِ هـٰذا المجلسِ عَنِ الشَّعبيِّ : أَنَّهُ مرَّ برجلٍ في إِبلٍ لَهُ جَرباءَ ، فقالَ لَه : أَلا تعالِجُها ؟ قالَ : لاَ ، وإِنَّما لَنا عجوزٌ نتَّكِلُ علىٰ دعائِها ، فقالَ : ٱجعلْ مَعَ دعائِها شيئاً مِنَ ٱلقَطِرانِ .

---

(١) **العُقابُ** : المرقى في عرضِ الجبلِ .

(٢) **ناقةٌ نضوٌ** : أرهقتها الأسفارُ ، وأذابَتْ لحمَها .

ومرَّ بقصَّارٍ يقولُ [في « المستطرف » ١/ ٢٢٣] : (فُتِنَ ٱلشَّعْبِيُّ لَمَّا)[1] ويقفُ ، فجاءَ إليهِ ، وما زالَ يكرِّرُ عليهِ الأبياتَ حتَّىٰ حفظَها .

ومِن نوادِرِه : أَنَّهُ مرضَ ، فأبرمَهُ العوَّادُ بالسؤَالِ عَن مرضِهِ وسبَبِهِ ، فلَم يكنْ منهُ إلاَّ أَن كتَبَ رقعةً ، شرحَ فيها القصَّةَ ، وعلَّقَها فوقَ رأسِهِ ، فإذا سُئِلَ بعدَ ذلكَ . . قالَ للسائِلِ : ٱقرَأْ ما في الورَقَةِ .

زيارة المريض

ويروىٰ : أَنَّ سلمَةَ بنَ عاصمٍ دخلَ علىٰ الفرَّاءِ يعودُهُ ، فأَبرمَهُ ، وأَلَحفَ في السؤَالِ ، فأَنشَدَ الفرَّاءُ [الأبيات في « المستطرف » ٢/ ٥٧١ مِنَ البسيطِ] :

حَقُّ ٱلْعِيَادَةِ يَوْمٌ بَيْنَ يَوْمَيْنِ ... وَخِلْسَةٌ مِثْلُ لَحْظِ ٱلطَّرْفِ بِٱلْعَيْنِ
لاَ تُبْرِمَنَّ مَرِيْضاً فِيْ مُسَاءَلَةٍ ... يَكفِيْكَ مِنْ ذَاكَ تَسْآلٌ بِحَرْفَيْنِ

الكُلفة تُذهب الألفة

ومِن أَمثالِهِ تعرفُ ٱطِّراحَ السلفِ للحشمَةِ ، وبراءَتَهم مِن التكلُّفِ والتنطُّعِ ، وسيرَهُم بسَوقِ الطبيعَةِ ، وإِنَّ أَحدَهم لخليقٌ بقولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَفَكُّرُهُ عِلْمٌ وَسِيْرَتُهُ هُدىً ... وَبَاطِنُهُ دِيْنٌ وَظَاهِرُهُ ظَرْفُ[2]

---

(١) تَقَدَّمَتِ ٱمرأَةٌ جميلةٌ إلىٰ الشَّعبيِّ ، فادَّعت عندَهُ ، فقضىٰ لَها ، فقالَ هُذيلٌ الأَشجعيُّ :

فُتِنَ ٱلشَّعْبِيُّ لَمَّا ... رَفَعَ ٱلطَّرْفَ إِلَيْهَا
فَتَنَتْهُ بِبَنَانٍ ... كَيْفَ رُؤْيَا مِعْصَمَيْهَا
وَمَشَتْ مَشْياً رُوَيْداً ... ثُمَّ هَزَّتْ مَنْكِبَيْهَا
فَقَضَىٰ جَوْراً عَلَىٰ ٱلْخَصْـ ... ـمِ وَلَمْ يَقْضِ عَلَيْهَا

فتناشدَها النَّاسُ ، وتداولوها ، حتَّىٰ بلغَتِ الشَّعبيَّ ، فَضُرِبَ الأَشجعيُّ ثلاثينَ سوطاً .

(٢) بفتح الظاء الكياسة قال في « تاج العروس » : وبعض المتشدقين يضمون الظاء=

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

يَـرُوْعُ رَكَـانَـةً وَيَـذُوْبُ ظَـرْفـاً   فَمَا تَدْرِيْ: أَشَيْخٌ أَمْ غُلاَمُ[1] ؟

وترىٰ المترسمينَ مِن أَبناءِ زمانِنا يتوقَّرونَ في مجالِسِهم ، ويتنزَّهونَ عَن كثيرٍ ممَّا يفعلُهُ السلفُ الطَّيِّبُ ، وقلوبُهم أَفاحيصُ الأَحقادِ ، وأَوكانُ الأَحسادِ[2] .

وسُئِلَ النَخعيُّ [بنحوه في « المستطرف » ٢/ ٥٠٢] : أَكانَ أَصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ يمزحونَ ؟ قالَ : نعم ، والإِيمانُ في قلوبِهِم مثلُ الجبالِ الرواسي ، وكانُوا يتمازحونَ[3] ، فإِذا خاضوا في الدِّينِ . . ٱنقلبَتْ حماليقُهُم .

وقالَ بعضُهم : لَنا في الدعابَةِ مذهَبٌ جميلٌ ، يخرجُ بِنا مِن العبوس ، ويلحِقُنا بأَحرارِ الناسِ ، الذينَ ٱرتفَقوا عَنْ لَبسةِ الرياءِ ، وأَنِفوا مِنَ ٱلتشوُّفِ بالتصنُّعِ .

وللهِ درُّ الناظِمِ في قولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٢٠ مِنَ المنسرحِ] :

أَفْضَلُ مَا يُطْلَبُ ٱلنَّجَاحُ بِهِ ٱلطَّبْـ   ـعُ وَعِنْـدَ ٱلتَّعَمُّـقِ ٱلـزَّلَـلُ[4]

= فرقاً بينه وبين الظَّرف للوعاء ، وهو غلطٌ محضٌ لا قائل به .

(١) يروعُ : يفزعُ ، الركانةُ : الوقارُ .

(٢) المفحصُ : هو مجثمُ القطاةِ ؛ لأَنَّها تفحصهُ . والوَكْنُ : عشُّ الطائرِ .

(٣) والمعروف : أنهم كانوا يتبادحون ؛ أي : يترامَون . والرواية عن بكر بن عبد الله : « يتمازحون ويتبادحون بالبطيخ فإذا جاءت الحقائق كانوا هم الرجال » اهـ « النهاية » ابن الأثير .

(٤) المعنىٰ : إذا فعلَ الإنسانُ الشيءَ بعادتهِ وجدَ النجاحَ فيهِ ، وإذا بالغَ وتعمَّقَ . . أخطأَ وزلَّ .

وقالَ محمَّدُ بنُ كناسَةَ [في « البيان والتبيين » ١/٥٤٦ مِنَ المنسرحِ] :

فِـيَّ ٱنْقِبَـاضٌ وَحِشْمَـةٌ فَـإِذَا　　لَقِيـتُ أَهْـلَ ٱلْـوَفَـاءِ وَٱلْكَـرَمِ
أَرْسَلْـتُ نَفْسِـيْ عَلَـىٰ سَجِيَّتِهَـا　　وَقُلْـتُ مَـا قُلْـتُ غَيْـرَ مُحْتَشِـمِ

وهما بيتانِ يغبطُهُ عليهِما إسحاقُ بنُ إبراهيمَ الموصليُّ ، والغبطَةُ مِن حيثُ المعنىٰ لا مِن حيثُ اللفظُ ؛ فإنَّهما ليسا منهُ في الذروَةِ .

ويتَّصلُ بالموضوعِ قولُهُ ﷺ : « زُرْ غِبّاً . . تَزْدَدْ حُبّاً »[1] .

زر غباً . . تزدد حباً

وقيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/٣٢٢] : إنَّ أَوَّلَ مَن قالَهُ معاذُ بنُ صرمٍ الخزاعيُّ ، وكانَت أُمُّهُ مِن علكَّ ، وكانَ فارسَ خزاعَةَ ، وكانَ يكثرُ زيارَةَ أخوالِهِ ، فٱستعارَ مِنهم فرساً سابقَ عليهِ جحيشَ بنَ سودَةَ علىٰ المخاطرَةِ ، فسبقَهُ وأخذَ فرسَهُ ، ولمَّا أخذَهُ . . أرادَ أن يزيدَ في إغاظَةِ جحيشٍ ـ وكانَ لَهُ عدوّاً ـ فنحرَهُ ، فقالَ لَه جحيشٌ : قتلْتَ ـ لاَ أُمَّ لَكَ ـ فَرساً خيراً مِنكَ ومِن أبيكَ ، فقتلَهُ ، ولحقَ بأخوالِهِ ، فركبَ في طلبِهِ أخو جحيشٍ وٱبنُ عمِّهِ ، فقتلَهُما ، وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

قَتَلْـتُ جُحَيْشـاً بَعْـدَ قَتْـلِ جَـوَادِهِ　　وَكُنْتُ قَدِيماً فِيْ ٱلْحَوَادِثِ ذَا فَتْكِ
وَجُـدْتُ لِعَمْـرِو بَعْـدَ بَـدْرٍ بِضَـرْبَـةٍ　　فَخَرَّا كَمَا خَرَّ ٱلْعَقِيْرُ مِنَ ٱلنُّسْكِ[2]

---

(١) أخرجه عن حبيب بن مسلمة الفهري الحاكمُ في « المستدرك » (٣/ ٣٩٠) وفي الباب :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عند البزار والطبراني في « الأوسط » والبيهقي في « الشعب » ، وعن ابن عمرو عند الطبراني في « الكبير » و« الأوسط » وعن عائشة عند الخطيب في « التاريخ » .

(٢) العقيرُ : المعقورُ ، وهوَ المذبوحُ منَ النَّعَم التي تُهْدَىٰ في مناسكِ الحجِّ .

وأَقامَ في أَخوالِهِ زماناً ، ثمَّ ٱختصمَ معَ بعضِهم في صيدٍ ٱصطادوهُ ، فقالَ لَهُ ٱبنُ خالِهِ : لَو كانَ فيكَ خيرٌ . . لَمَا تركَكَ قومُكَ ، فقالَ معاذٌ : زُرْ غِبّاً . . تزددْ وِدّاً ، ثمَّ أَتىٰ قومَهُ ، فأَرادَ أَهلُ القتلىٰ أَن يأخذوا منهُ بثأرِهِم ، فقالَ لَهم قومُهم : لا تقتُلوا فارسَكُم وإِنْ ظَلَم ، فقبِلوا منهُ الدياتِ .

وقد قيلَ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ أَنْ تُقْلَىٰ فَزُرْ مُتَوَاتِراً   وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَزْدَادَ حُبّاً فَزُرْ غِبَّا

وقالَ آخرُ [في « مجمع الأمثال » ١/ ٢٢٣ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَيْـكَ بِـإِغْبَـابِ ٱلـزِّيَـارَةِ إِنَّهَـا   إِذَا كَثُرَتْ كَانَتْ إِلَىٰ ٱلْهَجْرِ مَسْلَكَا
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْغَيْثَ يُسْأَمُ دَائِماً   وَيُسْأَلُ بِالأَيْدِي إِذَا هُوَ أَمْسَكَا

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ١/ ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَطُولُ مُقَامِ ٱلْمَرْءِ فِيْ ٱلْحَيِّ مُخْلِقٌ   لِـدِيْبَـاجَتَيْـهِ فَـٱغْتَـرِبْ تَتَجَـدَّدِ
فَإِنِّيْ رَأَيْتُ ٱلشَّمْسَ زِيْدَتْ مَحَبَّةً   إِلَىٰ ٱلنَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ

المحبون أقسام:

ثمَّ المحبونَ علىٰ أَقسامٍ :

١ـ قسم ساقط

أَمَّا أَهلُ الدعاوي الساقطَةِ ، والأَغراضِ السافلَةِ ، والشهوات البهيميَّةِ : فلا يحصلُ منهمُ ٱلميلُ إِلاَّ قبلَ النيلِ ، ثمَّ يحدُثُ عندَهمُ ٱلْملَلُ لأَدنىٰ عارضٍ يخالِفُ الهوىٰ ، وقد قالَ أَسماءُ بنُ خارجَةَ الفزاريُّ ـ وتمثَّلَ بهِ القاضي شريحٌ ، وأَخطأَ مَن ينسبُهُما للشافعيِّ ـ [في « جمهرة خطب العرب » ٢/ ٥٠٧ مِنَ الطَّويلِ] :

خُذِيْ ٱلْعَفْوَ مِنِّيْ تَسْتَدِيْمِيْ مَوَدَّتِيْ   وَلاَ تَنْطِقِيْ فِيْ سَوْرَتِيْ حِيْنَ أَغْضَبُ

فَإِنِّي رَأَيْتُ ٱلْحُبَّ فِيْ ٱلْقَلْبِ وَٱلأَذَىٰ إِذَا ٱجْتَمَعَا لاَ يَلْبَثُ ٱلْحُبُّ يَذْهَبُ

وأَمَّا أَهلُ السِّطَةِ في المحبَّةِ[1] : فكَما قالَ ٱبنُ المرحِّلِ الأَندلسيُّ [مِنَ الرَّمَلِ] : ٢ـ قسم متوسط

لَوْ يَكُوْنُ ٱلْحُبُّ وَصْلاً كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلاَّ ٱلْمَلَلْ

أَوْ يَكُوْنُ ٱلْحُبُّ هَجْراً كُلُّهُ لَمْ تَكُنْ غَايَتُهُ إِلاَّ ٱلْكَلَلْ

إِنَّمَا ٱلْوَصْلُ كَمِثْلِ ٱلْمَاءِ لاَ يُسْتَطَابُ ٱلْمَاءُ إِلاَّ بِٱلْعَلَلْ[2]

وأَمَّا أَهلُ المحبَّةِ الصادقَةِ : فإِنَّهم كَما قالَ الأَحوصُ [مِنَ الطَّويلِ] : ٣ـ قسم صادق

إِذَا قُلْتُ : إِنِّيْ مُشْتَفٍ بِلِقَائِهَا فَمِمَّ ٱلتَّلاَقِيْ زَادَ مَا بَيْنَنَا وَجْدَا ؟!

وقالَ عروةُ بنُ أُذينَةَ [في « ديوانِهِ » ١٢٣ مِنَ البسيطِ] : المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله

لاَ بُعْدُ سَعْدَىٰ مُرِيْحِيْ مِنْ جَوَىٰ سَقَمٍ يَوْماً وَلاَ قُرْبُهَا إِنْ حُمَّ يَشْفِيْنِيْ[3]

ووضَّحَهُ ٱبنُ الرُّوميِّ في قولِهِ [في « ديوانِهِ » ٦/ ٢٤٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أُعَانِقُهُ وَٱلنَّفْسُ بَعْدُ مَشُوْقَةٌ إِلَيْهِ وَهَلْ بَعْدَ ٱلْعِنَاقِ تَدَانِيْ ؟

وَأَلْثُمُ فَاهُ كَيْ تَزُوْلَ حَرَارَتِيْ فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَىٰ مِنَ ٱلْهَيَمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِيْ لَيْسَ يُشْفَىٰ غَلِيْلُهُ سِوَىٰ أَنْ تَرَىٰ ٱلرُّوْحَانِ يَمْتَزِجَانِ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

وَكِدْتُ وَهْوَ ضَجِيْعِيْ أَنْ أَقُوْلَ لَهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْحُبِّ : قَدْ أَبْعَدْتَ فَٱقْتَرِبِ

---

(١) السِّطَةُ : التوسط .

(٢) العَلَلُ : محركة الشَّربة الثانية ، أو الشرب بعد الشرب تباعاً .

(٣) الجوىٰ : الحرقةُ وشدَّةُ الوجدِ من عشقٍ أو حزنٍ . حُمَّ : قربَ وحانَ .

وقالَ قاضي القضاةِ ٱبنُ جماعةٍ [في « طبقات ابن السبكي » ٩/١٤٢ مِنَ الوافرِ] :

أَحِـنُّ إِلَـىٰ زِيَـارَةِ حَـيِّ لَيْلَـىٰ   وَعَهْـدِيْ مِـنْ زِيَـارَتِهَـا قَـرِيْـبُ
وَكُنْتُ أَظُنُّ قُرْبَ ٱلْعَهْدِ يُطْفِيْ   لَهِيْـبَ ٱلشَّـوْقِ فَـٱزْدَادَ ٱللَّهِيْـبُ

ويقربُ مِن هٰذا قليلاً قولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ١/١٣٦ مِنَ الوافرِ] :

سَأَمْضِيْ وَٱلسَّلاَمُ عَلَيْكَ مِنِّيْ   مَغِيْبِـيْ لَيْلَتِـيْ وَغَـداً إِيَـابِـيْ

وقالَ بشَّارٌ يصفُ شدَّةَ العناقِ [في « ديوانِهِ » ٤/٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلَوْتُ بِهَا لاَ يَخْلُصُ ٱلْمَاءُ بَيْنَنَا   إِلَىٰ ٱلصُّبْحِ دُوْنِيْ حَاجِبٌ وَسُتُوْرُ

فأخذهُ ٱبنُ الجهمِ فقالَ [في « ديوانِهِ » ٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ رُبَّ لَيْـلٍ ضَمَّنَـا بَعْـدَ هَجْعَـةٍ   وَأَدْنَـىٰ فُـؤَاداً مِـن فُـؤَادٍ مُعَـذَّبِ
وَبِتْنَا جَمِيْعاً لَوْ تُرَاقُ زُجَاجَةٌ   مِنَ ٱلرَّاحِ فِيْمَا بَيْنَنَا لَمْ تَسَرَّبِ

وقالَ آخرُ [مِنَ البسيطِ] :

لاَ وَٱلْمَنَـازِلِ مِـنْ نَجْـدٍ وَلَيْلَتِنَـا   بِٱلْغَوْرِ إِذْ جَسَدَانَا بَيْنَنَا جَسَدُ
كَمْ رَامَ فِيْنَا ٱلْكَرَىٰ مِنْ لُطْفِ مَسْلَكِهِ   نَوْماً فَمَا ٱنْفَكَّ لاَ خَدٌّ وَلاَ عَضُدُ

لا توصِ حريصاً في تخفيف الزيارة

ويحكىٰ : أَنَّ يحيىٰ بنَ معاذٍ الرازيَّ كتبَ إِلىٰ أَبي يزيدَ البسطاميِّ يقولُ لهُ : سكرتُ مِن كثرَةِ ما شربتُ مِن كأْسِ محبَّتِهِ ، فكتبَ إِليهِ أَبو يزيدَ : قد شربَ غيرُكَ البحارَ مِنها ، فلَم يَرْوَ ، ولَم يزَل لسانُهُ مندلعاً ، يقولُ : هَل مِن مزيدٍ ؟

وأَنشدوا [مِنَ الوافرِ] :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقُوْلُ : ذَكَرْتُ إِلْفِيْ   وَهَـلْ أَنْسَـىٰ فَـأَذْكُـرُ مَـا نَسِيْـتُ ؟

أَمُـوْتُ إِذَا ذَكَـرْتُـكِ ثُـمَّ أَحْيَـا   فَكَمْ أَحْيَا عَلَيْكِ وَكَمْ أَمُوْتُ
شَرِبْتُ ٱلْحُبَّ كَأْساً بَعْدَ كَأْسٍ   فَمَا نَفِـدَ ٱلشَّـرَابُ وَلاَ رَوِيْـتُ

وقولُهُ (أَمُوْتُ إِذَا ذَكَرْتُكِ . . . إلى آخر البيت) قد يشبِهُ قولَ ٱمرىءِ القيسِ [في « ديوانهِ » ١١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَـوْ أَنَّهَـا نَفْـسٌ تَمُـوْتُ سَـوِيَّـةً   وَلٰـكِنَّهَـا نَفْـسٌ تَسَـاقَـطُ أَنْفُسَـا

لـٰكنَّ الفرقَ كبيرٌ ، والبونَ بعيدٌ ، وقد علمَ كُلُّ أُناسٍ مشربَهم ، وما قرَّرناهُ مِنِ ٱنقسامِ الأَحبابِ إِلىٰ ثلاثَةِ أَقسامٍ هوَ ما جاءَ في قولِ بعضِهم [في « لسان العرب » ١٠/٣٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

ثَلاَثَةُ أَحْبَابٍ : فَحُبُّ عَلاَقَةٍ   وَحُبُّ تِمِلاَّقٍ وَحُبٌّ هُوَ ٱلْقَتْلُ[1]

---

(١) التِّملاقُ : التودُّدُ .

ذكرَ الثعالبيُّ في « فقهِ اللغةِ » مراتبَ الحُبِّ فقالَ :

أوَّلُ مراتِبِ الحُبِّ الهوىٰ .

ثُمَّ العَلاقَةُ وهوَ : الحبُّ الملازِمُ للقلبِ .

ثُمَّ الكَلَفُ وهوَ : شدَّةُ الحبِّ .

ثُمَّ العِشْقُ وهوَ : ٱسمٌ لِما فَضَلَ عَنِ المقدارِ الذي ٱسمهُ الحبُّ .

ثُمَّ الشَّغَفُ وهوَ : إحراقُ الحبِّ القلبَ مَعَ لذَّةٍ يجدُها .

ثُمَّ الجوىٰ وهوَ : الهوىٰ الباطِنُ .

ثُمَّ التَّيْمُ وهوَ : أَن يستعبدَهُ الحبُّ ، ومنهُ : سُمِّيَ تَيمُ اللهِ ؛ أَي : عبدُ اللهِ ، ومنهُ : رَجلٌ متيَّمٌ .

ثُمَّ التَّبَلُ وهوَ : أَنْ يسقمَهُ الهوىٰ ، ومنهُ : رجلٌ متبولٌ .

ثُمَّ التدليهُ وهوَ : ذهابُ العقلِ مِنَ الهوىٰ ، ومنهُ : رجلٌ مدلَّهٌ .

ثُمَّ الهُيُومُ وهوَ : أَنْ يذهبَ علىٰ وجهِهِ لغلَبَةِ الهوىٰ عليهِ ، ومنهُ : رجلٌ هائِمٌ .

ويحكىٰ : أنَّ شيخاً وقفَ ببابِ المهديِّ ، فقالَ لحاجبِهِ : ٱنظرْ مَن بِالبابِ ، وما حاجتُهُ ؟ قالَ : لا أذكُرُ حاجَتي إلاَّ بينَ يدي أميرِ المؤمنينَ ، فطالَعَهُ بقولِهِ ، فقالَ : أدخِلْهُ ، ومُرهُ فليخفِّفْ ، فدخلَ ، وسلَّمَ ، ثمَّ قالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا شِئْتَ خَفَّفْنَا فَكُنَّا كَرِيشَةٍ ... مَتَىٰ تُلْقِهَا ٱلأَنْفَاسُ فِيْ ٱلْجَوِّ تَذْهَبُ
وَإِنْ شِئْتَ سَلَّمْنَا فَكُنَّا كَرَاكِبٍ ... مَتَىٰ يَقْضِ حَقّاً مِنْ سَلاَمِكَ يَعْزُبُ[1]
وَإِنْ شِئْتَ ثَقَّلْنَا فَكُنَّا كَصَخْرَةٍ ... مَتَىٰ تُلْقِهَا فِيْ حَوْمَةِ ٱلْبَحْرِ تَرْسُبُ

فضحكَ المهديُّ ، وقالَ لهُ : بَل تكرمُ وتقضىٰ حاجتُكَ ، ووصلَهُ بعشَرَةِ آلافِ درهَمٍ .

وقد ألَمَّ بهِ الناظِمُ في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/١٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أُخِفُّ سَلاَمِيْ حُبَّ مَا خَفَّ عِنْدَكُمْ ... وَأَسْكُتُ كَيْمَا لاَ يَكُوْنَ جَوَابُ
وَفِيْ ٱلنَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيْكَ فَطَانَةٌ ... سُكُوْتِيْ بَيَانٌ عِنْدَهَا وَخِطَابُ

أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع

وقدمَ أبو عبيدةَ النحويُّ علىٰ الفضلِ بنِ الربيعِ ، فقالَ لهُ [في « وفيات الأعيان » ٥/٢٤٠] : مَن أشعرُ الناسِ ؟ قالَ : الراعي . قالَ : وكيفَ فضَّلْتَهُ علىٰ غيرِهِ ؟ قالَ : لأنَّهُ وردَ علىٰ سعيدِ بنِ عبدِ الرحمـٰنِ الأُمويِّ ، فوصلَهُ في يومِهِ ، وصرفَهُ فيهِ ، فقالَ يصفُ حالَهُ معَهُ [في « ديوانه » ٨١ مِنَ الوافرِ] :

وَأَنْضَاءٍ تَحِنُّ إِلَىٰ سَعِيْدٍ ... طَرُوقاً ثُمَّ عَجَّلْنَ ٱبْتِكَارَا
حَمِدْنَ مَنَاخَهُ وَأَصَبْنَ مِنْهُ ... عَطَاءً لاَ قَلِيْلَ وَلاَ ضِمَارَا[2]

---

(١) يعزُبُ : يبعُدُ .
(٢) الضمارُ : ما يرجىٰ من الدينِ والوعدِ وكلُّ ما لا تكونُ منهُ علىٰ ثقةٍ .

فقالَ لهُ الفضلُ : ما أَحسنَ ما اقتضيتَنا ، ثمَّ استخرَجَ لَهُ صلَةً مِنَ الرشيدِ ، وشيئاً مِن مالِهِ ، وصرفَهُ مِن يومِهِ .

وهيَ شبيهَةٌ بِما فعلَ مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ [في « وفيات الأعيان » ٥/١٨٩] فقد وردَ علىٰ المهديِّ بقصيدَةٍ يقولُ لهُ فيها ـ ما قد ذكرناهُ في غيرِ هٰذا المجلسِ وهوَ ـ [في « ديوانه » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أهنأ البر عاجله

إِلَيْكَ قَصَرْنَا النِّصْفَ مِنْ صَلَوَاتِنَا مَسِيْرَةَ شَهْرٍ بَعْدَ شَهْرٍ نُوَاصِلُهْ
وَمَا نَحْنُ نَخْشَىٰ أَنْ يَخِيْبَ مَسِيْرُنَا إِلَيْكَ وَلَكِنْ أَهْنَأُ الْبِرِّ عَاجِلُهْ

فضحكَ المهديُّ ، وأَمرَ لكلِّ بيتٍ بأَلفِ درهَمٍ ، فبلَغت سبعينَ .

وقالَ أَبو عبادَةَ [مِنَ الكاملِ] :

عَجَّلْتَ رِفْدَهُمُ وَأَفْضَلُ نَائِلٍ حُيِّ الْوُفُوْدُ بِهِ الْهَنِيْءُ الْمُعْجَلُ

عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ

وقدمَ أَحدُ مشايخِ القبائِلِ علىٰ الأَميرِ عبدِ اللهِ بنِ عليٍّ العَولَقيِّ في مجلسِ حفلِهِ ، فقالَ لهُ : ما شأْنُكَ ؟ قالَ : شيبَهْ ، قصدَ شيبَهْ ، بغىٰ شيبهْ ، قالَ لهُ : قد أَمرتُ لكَ بثلاثَةٍ ، أَحدُها : طلبُكَ ، والثاني : هديَّتُكَ ، والثالثُ : نفقةُ الطريقِ ، وصرَفَهُ مِن يومِهِ ، و(الشيبَةُ) في عرفِهم هوَ الأَلفُ .

لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان

ويروىٰ [بنحوه في « الأغاني » ٥/٢٥٢] : أَنَّ الرشيدَ غاضَبَ إِحدىٰ حظاياهُ ، وهيَ ماردةُ ، واتسعَت شقَّةُ الخلافِ ، وأَعيَا التدارُكُ ، حتَّىٰ جاءَ يحيىٰ بنُ خالدٍ إِلىٰ العبَّاسِ بنِ الأَحنفِ ، وبقرَ لَهُ الحديثَ ، وقالَ لَهُ : إِنَّ الأَمرَ أَعياني مِنْ قِبَلِهما ، هٰذا يعتزُّ بالمُلكِ ، وتلكَ تتشبَّثُ بدلالِ الجمالِ ، والرشيدُ أَولىٰ بأَنْ تستخفَّهُ

الصبابةُ ، فقلْ ما تسهِّلُ بهِ طريقَ الصلحِ ، فقالَ [في « ديوانهِ » ٢٨ مِنَ الكاملِ] :

صَدَّتْ مُغَاضِبَةً وَصَدَّ مُغَاضِباً ... فَكِلاَهُمَا مِمَّا تَجَنَّىٰ مُغْضَبُ
إِنَّ ٱلتَّجَنُّبَ إِنْ تَطَاوَلَ مِنْكُمَا ... دَبَّ ٱلسُّلُوُّ لَـهُ فَعَـزَّ ٱلْمَطْلَـبُ
رَاجِعْ أَحِبَّتَكَ ٱلَّذِينَ هَجَرْتَهُمْ ... إِنَّ ٱلْمُتَيَّـمَ قَلَّمَـا يَتَجَنَّـبُ

فألقاها يحيىٰ إلىٰ الرشيدِ ، فقالَ : ما رأيتُ شعراً أشبهَ منهُ بحالِنا ، ولكأنِّي مقصودٌ بهِ ، قالَ يحيىٰ : نعم ، قالَها العبَّاسُ بنُ الأحنفِ : في شأنِكَ ، فقالَ الرشيدُ : هاتِ نَعلي يا غلامُ ، واستخفَّهُ الأمرُ أن يأمُرَ بشيءٍ للعبَّاسِ ، ولمَّا دخلَ علىٰ ماردَةَ . . سألَتْهُ عَنْ سببِ رضاهُ ، فأخبرَها ، فقالَت : بِماذا كوفِىءَ العبَّاسُ ؟ قالَ : ما فعلْتُ شيئاً ، قالَتْ : واللهِ لا جلَسْتَ حتَّىٰ تعجِّلَ لَهُ جائزتَهُ ، فأمر لَهُ بمالٍ جزيلٍ ، تأثَّلَ بهِ عقاراً ، في حديثٍ طويلٍ ، وموضعُ الشاهِدِ مِنَ ٱلبيتِ الثاني ، معَ تعجيلِ الجائِزَةِ .

لا تتشبث بالملك

وذكرتُ بهٰذا ما لا يتعلَّقُ بالموضوعِ ، ولٰكنْ لا بأْسَ بذكرِهِ ؛ تمهيداً للبيتِ الآتي ، وهوَ أَنَّ ٱمرأَةَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ غضبَتْ عليهِ ، فتبعتْها نفسُهُ ، ولَم ينتفِعْ بأَمرِهِ ، وأَعياهُ رِضاها ، وأَخذتْهُ العزَّةُ أَن يخضَعَ لَها ، فقالَ لَهُ أَحدُ العرَبِ : أَتأْذَنُ لي أَنْ أُكلِّمَها ؟ فقالَ : نعم ، فاستأْذَنَ علَيها وهوَ يبكي ، قالَت لَهُ : ما شأْنُكَ ؟ قالَ : إِنَّ لِيَ ٱبنينِ ، عَدا أَحدُهما علىٰ الآخرِ فقتلَهُ ، فزعمَ الخليفَةُ أَنَّهُ قاتلٌ القاتِلَ ، فقلتُ : أَنا وليُّ الدَّمِ ، وقد عفوتُ ، فلم يجبْ إِلىٰ شيءٍ ممَّا قلتُ لَهُ ، وما بقيَتْ لِيَ حيلَةٌ سواكِ ، ثم أَخذَ في النحيبِ حتَّىٰ رقَّت لَهُ ، وبكَت من بكائِهِ ، وقالَت : إِنِّي لا أُكلِّمُهُ منذُ أَيَّامٍ ،

فقالَ لَها : وَلَكِنَّها نفوسٌ ستُحْيِينها ، واللهُ يقولُ : ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] ، فتهيَّأَتْ ، ولَم يشعُرْ إلاَّ والخُصُّ يؤذِنُهُ بدخولِها ، فكانَ ما كانَ . ومنهُ تعرفُ حالةَ القومِ ، وتستطلِعُ عوائِدَهم ، وتستقرِىءُ طباعَهم .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ	فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لاَ يَذِلُّ وَيَخْضَعُ

التذلل للحبيب هو العز والسعادة

سنَّةُ العشَّاقِ الخضوعُ ، وإرسالُ الدموعِ ؛ ولهٰذا قالَ النابغةُ الجَعْديُّ ـ أَو زفرُ بنُ الحارثِ ، علىٰ ٱختلافِ الروايَةِ ـ [النابغة الجعديُّ في « ديوانهِ » ٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَدَّيْتُ ثَوْبَ ٱلذُّلِّ يَوْمَ لَقِيْتُهَا ... وَكَـانَ رِدَائِـي نَخْـوَةً وَتَجَبُّـرَا

وقالَ أَبو نُوَاسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨٠ مِنَ المديدِ] :

سُنَّـــةُ ٱلْعُشَّـــاقِ وَاحِـــدَةٌ ... فَـــإِذَا أَحْبَبْـــتَ فَـــٱسْتَكِـــنِ

وقالَ ٱبنُ الأَحنفِ [في « ديوانهِ » ٢٥١ مِنَ المنسرحِ] :

لاَ بُـدَّ لِلْعَـاشِـقِ مِـنْ وَقْفَـةٍ ... تَكُوْنُ بَيْـنَ ٱلْـوَصْـلِ وَٱلصَّـرْمِ

حَتَّـىٰ إِذَا ٱلْهَـمُّ تَمـادَىٰ بِـهِ ... رَاجَـعَ مَـنْ يَهْـوَىٰ عَلَـىٰ رُغْـمِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَحَمَّلْ عَظِيْمَ ٱلـذَّنْـبِ مِمَّـنْ تُحِبُّهُ ... وَإِنْ كُنْتَ مَظْلُوْماً.. فَقُلْ: أَنَا ظَالِمُ!

فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تَحْمِلِ ٱلذَّنْبَ فِيْ ٱلْهَوَىٰ ... يُفَارِقْكَ مَنْ تَهْوَىٰ وَأَنْفُكَ رَاغِمُ!

وقالَ عروةُ [بن حزام في « ديوانهِ » ٢٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ مِنْ كَرِيْمٍ قَدْ أَضَرَّ بِهِ ٱلْهَوَىٰ ... فَعَـوَّدَهُ مَـا لَـمْ يَكُـنْ يَتَعَـوَّدُ

وقالَ مسعودُ بنُ الحسنِ البياضيُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَنَ ٱلْهَوَىٰ صَعْبِيْ وَذَلَّلَ جَانِبِيْ ... وَأَلْقَـىٰ إِلَـىٰ أَيْـدِيْكُمَـا بِعِنَـانِـيْ

وقد سبقَ مرَّةً قولُ ٱبنِ الدمينَةِ [في « ديوانهِ » ١٥ـ١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَوْ قُلْتِ : طَأْ فِيْ ٱلنَّارِ أَعْلَمُ أَنَّهُ   رِضاً لَكِ أَوْ مُدْنٍ لَنا مِنْ وِصَالِكِ
لَقَـدَّمْـتُ رِجْلِـيْ نَحْـوَهَـا وَوَطِئْتُهَـا   هُدىً مِنْكِ لِيْ أَوْ ضَلَّةً مِنْ ضَلاَلِكِ

وقالَ البحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ١٦٥٢ مِنَ الخفيفِ] :

وَتَـذَلَّلْـتُ خَـاضِعـاً لِمَلِيْكِـيْ   وَقَلِيْـلٌ مِـنْ عَـاشِـقٍ أَنْ يَـذِلاَّ

وقالَ المرتضىٰ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢١٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَمْ مِنْ جَلِيْدٍ لاَ يُخَامِرُهُ ٱلْهَوَىٰ   شَنَنَّ عَلَيْهِ ٱلْوَجْدَ حَتَّىٰ تَتَيَّمَا
أَهَانَ لَهُنَّ ٱلنَّفْسَ وَهْيَ كَرِيْمَةٌ   وَأَلْقَىٰ إِلَيْهِنَّ ٱلْحَدِيْثَ ٱلْمُكَتَّمَا

وقالَ أَخوهُ الرضيُّ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٩٧ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ حَيْثُ يُسْتَمَعُ ٱلسِّرَارُ وَقَفْتُمَا   لَعَجِبْتُمَا مِنْ عِزِّهِ وَخُضُوْعِيْ

وقالَ أَبو فراسٍ الحمْدانيُّ [في « ديوانهِ » ١٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ شِئْتُ أَنْ لاَ عِزَّ بَعْدِيْ لِعَاشِقٍ   وَأَنَّ يَـدِيْ مِمَّـا عَلِقْـتُ بِـهِ صِفْـرُ

وقالَ آخرُ [وهو أحمد بن محمد الطوسي كما في « وفيات الأعيان » ١/ ٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَانَ عَلَيَّ ٱللَّوْمُ فِيْ جَنْبِ حُبِّهَا   وَقَـوْلُ ٱلأَعَـادِيْ : إِنَّـهُ لَخَلِيْـعُ
أَصَمٌّ إِذَا نُوْدِيْتُ بِٱسْمِيْ وَإِنَّنِيْ   إِذَا قِيْلَ لِيْ : يَا عَبْدَهَا لَسَمِيْعُ

وقالَ الوَأْواءُ الدمشقيُّ [في « ديوانهِ » ٢٦٦ـ٢٦٧ مِنَ البسيطِ] :

قَالَتْ لِطَيْفِ خَيَالٍ زَارَنِيْ وَمَضَىٰ:   بِـٱللهِ صِفْـهُ وَلاَ تَنْقُـصْ وَلاَ تَـزِدِ
فَقَـالَ: خَلَّفْتُـهُ لَـوْ مَـاتَ مِـنْ ظَمَـأ   وَقُلْتِ : قِفْ عَنْ وُرُوْدِ ٱلْمَاءِ لَمْ يَرِدِ
قَالَتْ: صَدَقْتَ ٱلْوَفَا فِيْ ٱلْحُبِّ شِيْمَتُهُ   يَا بَرْدَ ذَاكَ ٱلَّذِيْ قَالَتْ عَلَىٰ كَبِدِيْ

وقد ذكرنا هٰذه الأبياتَ أو بعضَها في غيرِ هٰذا المكانِ .

قد ينصعق من يرى الحبيب

ومتىٰ وصلَ المحبُّ مِنَ الانقيادِ لأَوامرِ المحبوبِ إلىٰ هٰذهِ الغايَةِ . . آمتلأَتْ نفسُهُ بهيبتِهِ ، وأَخذهُ البهتُ ، والروعَةُ مِن مفاجأَةِ طلعتِهِ ، ومنهُ قولُ بعضِهم [وهو أبو الفرج بن هند كما في « عيون الأنباء في طبقات الأطباء » ١/ ٤٣٢ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمَنَّيْتُـــهُ حَتَّــىٰ إِذَا مَـــا رَأَيْتُـــهُ　　بُهِتُّ فَلَمْ أُعْمِلْ لِسَاناً وَلاَ طَرْفَا
وَأَطْـرَقْـتُ إِجْـلاَلاً لَـهُ وَمَهَـابَـةً　　وَحَاوَلْتُ أَنْ يَخْفَىٰ الَّذِيْ بِيْ فَلَمْ يَخْفَىٰ[1]

وهُما ناظرانِ إلىٰ قولِ المجنونِ [في « ديوانهِ » ٥٩ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً　　فَـأُبْهَـتُ حَتَّـىٰ مَـا أَكَـادُ أُجِيْـبُ
وَأُصْرَفُ عَنْ رَأْيِيْ الَّذِيْ كُنْتُ أَرْتَئِيْ　　وَأَنْسَىٰ الَّذِيْ أَعْدَدْتُ حِيْنَ تَغِيْبُ

وقولِهِ [في « ديوانِ جميلٍ » ٢٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّـــيْ لَيُنْسِيْنِـــيْ لِقَـــاؤُكِ كُلَّمَـــا　　لَقِيْتُـكِ يَـوْمـاً أَنْ أَبُثَّـكِ مَـا بِيَـا

وقولِهِ [أي : المجنونِ في « ديوانهِ » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنىً　　فَهَيَّـجَ أَشْجَـانَ الْفُـؤَادِ وَمَـا يَـدْرِيْ
دَعَـا بِـاسْـمِ لَيْلَـىٰ غَيْـرَهَـا فَكَـأَنَّمَـا　　أَطَارَ بِلَيْلَىٰ طَائِراً كَانَ فِيْ صَدْرِيْ

وقولِ أَبي صخرٍ الهذليِّ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا هُـوَ إِلاَّ أَنْ أَرَاهَـا فُجَـاءَةً　　فَأُبْهَتُ لاَ عُرْفٌ لَدَيَّ وَلاَ نُكْرُ

---

(١) وبعد هذين البيتينِ :

وَقَـدْ كَـانَ فِـيْ قَلْبِـيْ دَفَـاتِـرُ عَتْبِـهِ　　فَلَمَّا ٱلْتَقَيْنَا مَا وَجَدْتُ وَلاَ حَرْفَا

وقالَ عُتَيٌّ بنُ مالكٍ العقيليُّ [في « لسان العرب » ١٤/ ٢٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَتَيتُ مَعَ ٱلْحُدَّاثِ لَيْلَىٰ فَلَمْ أَبِنْ فَأَخْلَيْتُ فَٱسْتَعْجَمْتُ عِنْدَ خَلاَئِيَا

وقالَ يزيدُ بنُ الطثريَّةِ [في « ديوانه » ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بِنَفْسِيَ مَنْ لَوْ مَرَّ بَرْدُ بَنَانِهِ عَلَىٰ كَبِدِي كَانَتْ شِفَاءً أَنَامِلُهْ
وَمَنْ هَابَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ وَهِبْتُهُ فَلاَ هُوَ مُعْطِينِي وَلاَ أَنَا سَائِلُهْ

وقالَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [بل المجنونُ في « ديوانِهِ » ٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

أَهَابُكِ إِجْلاَلاً وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ عَلَيَّ وَلَـٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا

وقالَ بشَّارٌ [في « ديوانه » ٢/ ٣١٩ مِنَ البسيطِ] :

تُلْقَىٰ بِتَسْبِيحَةٍ مِنْ حُسْنِ مَا خُلِقَتْ وَتَسْتَفِزُّ حَشَا ٱلرَّائِي بِإِرْعَادِ

وقالَ آخرُ [كما في « مصارع العشاق » ١/ ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ وَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

المبرد والجارية المغنية النحوية

وفي هـٰذا قصَّةٌ لاَ بأسَ بذكرِها ؛ لِطلاوَتِها ، وهيَ [كما في « وفيات الأعيان » ٤/ ٣١٧] : أَنَّ بعضَهم صنعَ وليمةً ، دَعا إِليها الأَعيانَ ، ثمَّ أَمرَ جاريتَهُ فغنَّتْ [مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَالُوا لَهَا : هَـٰذَا حَبِيبُكِ مُعْرِضٌ فَقَالَتْ : أَلاَ إِعْرَاضُهُ أَيْسَرُ ٱلْخَطْبِ
فَمَا هِيَ إِلاَّ لَحْظَةٌ بِتَبَسُّمٍ وَتَصْطَكُّ رِجْلاَهُ وَيَسْقُطُ لِلْجَنْبِ

فٱهتزَّ القومُ ٱرتياحاً وطرباً ، ما خَلا أَبي العبَّاسِ المبرِّدِ ـ وكانَ حاضراً ـ فٱنكسرَ صاحبُ المنزلِ ، وقالَ لَهُ : أَوَلم يعجبْكَ الغناءُ ؟ قالَتِ ٱلجاريَةُ : بلىٰ ، وإِنَّما أَرادَ منِّي أَن أَقولَ هـٰكَذا :

(وَقَالُوا لَهَا : هَٰذَا حَبِيبُكِ مُعْرِضاً) ، ولم يدرِ أَنَّ ٱبنَ مسعودٍ قرأَ : (وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخٌ) فطربَ حينئذٍ أَبو العبَّاسِ ، حتَّىٰ شقَّ ثوبَهُ .

ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب؟

وقد ٱختلفَ في سبيلِ ما يعرضُ للمحبِّ مِنَ ٱلْهَيْبَةِ ، وما يحدُثُ لَهُ عندَ المفاجأَةِ مِن الروعَةِ ؛ فقيل : لأَنَّ القلبَ ينفرجُ مِن الشوقِ إِلىٰ اللقاءِ ، فيهربُ الدمُ ، وقد يبرُدُ ويضطَرِبُ ، فتحدُثُ الرعدَةُ ، وربَّما كانَ الموتُ .

سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على الرعية

وقيلَ : إِنَّ لِلْمحبوبِ سلطاناً علىٰ قلوبِ المحبينَ ، أَعظَمَ مِن سلطنَةِ الملوكِ علىٰ الرعيَّةِ ، فإذا رأَوهُ ـ ولا سيَّما معَ المفاجأَةِ ـ ٱرتاعوا كَما يرتاعُ ناظِرُ الملكِ الكبيرِ ، ولله درُّ الذي يقولُ [مِنَ ٱلمُجتثِّ] :

ٱلْمُلْـــكُ للهِ وَحْـــدَهْ وَلِلْخَلِيفَـــةِ بَعْـــدَهْ
وَلِلْمُحِـــبِّ إِذَا مَـــا حَبِيبُـــهُ بَـــاتَ عِنْـــدَهْ

وقالَ سلطانُ العاشقينَ [في « ديوانِهِ » ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَبِتْنَا كَمَا شَاءَ ٱقْتِرَاحِيْ عَلَىٰ ٱلْهَوَىٰ أَرَىٰ ٱلْمُلْكَ مُلْكِيْ وَٱلزَّمَانَ غُلَامِيْ[1]

وقد سبقَ في غيرِ هَٰذا ٱلمجلسِ قولُ ٱلمهديِّ للخيزُرانِ [من الوافر] :

أَمَـا يَكْفِيْـكِ أَنَّـكِ تَمْلِكِيْنِـيْ وَأَنَّ ٱلنَّـاسَ كُلَّهُـمُ عَبِيْـدِيْ
وَأَنَّـكِ لَـوْ قَطَعْـتِ يَـدِيْ وَرِجْلِـيْ لَقُلْتُ مِنَ ٱلرِّضَا : أَحْسَنْتِ زِيْدِيْ

---

(١) ٱقتراحي : مطلبي .

وقالَ المأمونُ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا رَبَّةَ ٱلْحُسْنِ ٱلَّتِي هَتَكَتْ نُسْكِيْ   عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ أَنْتِ لاَ بُدَّ لِيْ مِنْكِ
فَإِمَّا بِذُلٍّ وَهْوَ أَلْيَقُ بِٱلْهَوَىٰ   وَإِمَّا بِعِزٍّ وَهْوَ أَلْيَقُ بِٱلْمُلْكِ

وقولُ الرشيدِ [في « ديوانه » ٤٨ مِنَ الكاملِ] :

مَلَكَ ٱلثَّلاَثُ ٱلآنِسَاتُ عِنَانِيْ   وَحَلَلْنَ مِنْ قَلْبِيْ بِكُلِّ مَكَانِ
مَا لِيْ تُطَاوِعُنِيْ ٱلْبَرِيَّةُ كُلُّهَا   وَأُطِيْعُهُنَّ وَهُنَّ فِيْ عِصْيَانِيْ
مَا ذَاكَ إِلاَّ أَنَّ سُلْطَانَ ٱلْهَوَىٰ   ـ وَبِهِ قَوِيْنَ ـ أَشَدُّ مِنْ سُلْطَانِيْ

وللثلاثِ المشارِ إليهِنَّ في الأبياتِ حديثٌ طريفٌ ، لا يتَّسِعُ لإيرادِهِ الوقتُ .

وقالَ بعضُ ملوكِ المغربِ مِنْ بني مروانَ ، وما أدري أَهُوَ أخذَ عَنِ الرشيدِ أَمِ ٱلرشيدُ هوَ الذي أَخذَ عنهُ [وهو المستعين بالله ، الذي أخذ عن الرشيد كما في « نفح الطيب » ٢/٢٢٧ مِنَ الكاملِ] :

وَتَمَلَّكَتْ نَفْسِيْ ثَلاَثٌ كَٱلدُّمَىٰ   زُهْرُ ٱلْوُجُوهِ نَوَاعِمُ ٱلأَبْدَانِ
كَكَوَاكِبِ ٱلظَّلْمَاءِ لُحْنَ لِنَاظِرِيْ   مِنْ فَوْقِ أَغْصَانٍ عَلَىٰ ٱلْكُثْبَانِ
هَـٰذِيْ ٱلْهِلاَلُ وَتِلْكَ بِنْتُ ٱلْمُشْتَرِيْ   حُسْناً وَهَـٰذِيْ أُخْتُ غُصْنِ ٱلْبَانِ
حَاكَمْتُ فِيْهِنَّ ٱلْهَوَىٰ فَقَضَىٰ لَهَا   سُلْطَانُهَا ٱلسَّامِيْ عَلَىٰ سُلْطَانِيْ
مَا ضَرَّ أَنِّي عَبْدُهُنَّ صَبَابَةً   وَبَنُوْ ٱلزَّمَانِ وَهُنَّ مِنْ عُبْدَانِيْ
إِنْ لَمْ أُطِعْ فِيْهِنَّ سُلْطَانَ ٱلْهَوَىٰ   كَلَفاً بِهِنَّ فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

يَلَذُّ لَهُ ذُلُّ ٱلْهَوَىٰ وَخُضُوعُهُ   وَلَوْلاَ ٱلْهَوَىٰ مَا لَذَّ لِلْعَاقِلِ ٱلذُّلُّ

وقالَ آخرُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا كُنْتَ تَهْوَىٰ مَنْ تُحِبُّ وَلَمْ تَكُنْ ... ذَلِيْلاً لَهُ فَاقْرَ ٱلسَّلاَمَ عَلَىٰ ٱلْوَصْلِ

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ لِتَكْسَبَ عِزَّةً ... فَكَمْ عِزَّةٍ قَدْ نَالَهَا ٱلْمَرْءُ بِٱلذُّلِّ

وفي « ديوانِ الشرفِ ٱبنِ الفارِضِ » ما لا يوجدُ مثلُهُ عندَ غيرِهِ ، منهُ [في « ديوانهِ » ١٥٣ مِنَ الكاملِ] :

مِنِّيْ لَهُ ذُلُّ ٱلْخُضُوْعِ وَمِنْهُ لِيْ ... عِزُّ ٱلْمَنُوْعِ وَقُوَّةُ ٱلْمُسْتَضْعِفِ[1]

لَوْ قَالَ: تِيْهاً قِفْ عَلَىٰ جَمْرِ ٱلْغَضَىٰ ... لَـوَقَفْـتُ مُمْتَثِـلاً وَلَـمْ أَتَـوَقَّـفِ[2]

أَوْ كَانَ مَنْ يَرْضَىٰ بِخَدِّيْ مَوْطِئاً ... لَوَضَعْتُهُ أَرْضاً وَلَمْ أَسْتَنْكِفِ[3]

ثمَّ ما لَبِثَ أَنِ ٱمتثَلَ ما أَشارَ بهِ ٱبنُ أَبي عتيقٍ علىٰ ٱبنِ أَبي ربيعةَ كَما سلَفَ ، وكَما قد زعَمَ ٱبنُ المعتزِّ مِن قبلُ ، ففرَشَ خدَّهُ ، وقالَ [ابن الفارض في « ديوانه » ١٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمَّـا تَـوَافَيْنَـا عِشَـاءً وَضَمَّنَـا ... سَـوَاءُ سَبِيْلَـيْ دَارِهَـا وَخِيَـامِـيْ

وَمِلْنَا كَذَا عَنْ سَاحَةِ ٱلْحَيِّ حَيْثُ لاَ ... رَقِيْــبَ وَلاَ وَاشٍ بِــزُوْرِ كَــلاَمِ

فَرَشْتُ لَهَا خَدِّيْ غِطَاءً عَلَىٰ ٱلثَّرَىٰ ... فَقَالَتْ : لَكَ ٱلْبُشْرَىٰ بِلَثْمِ لِثَامِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ١٥٦ مِنَ الخفيفِ] :

وَكَفَـانِـيْ عِـزّاً بِحُبِّـكَ ذُلِّـيْ ... وَخُضُوْعِيْ وَلَسْتُ مِنْ أَكْفَاكَا

---

(١) المَنوعُ : الشَّديدُ المنعِ . المستضعِفُ : الذي يراني ضعيفاً أمامهُ .

(٢) تيهاً : دلالاً .

(٣) أستنكِفُ : أَستكبِرُ .

وقالَ [في « ديوانه » ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ يَبْقَ مِنِّي مَا يُنَاجِي تَوَهُّمِيْ ... سِوَىٰ عِزِّ ذُلِّيْ فِيْ مَهَانَةِ إِجْلاَلِيْ

وقالَ [في « ديوانه » ١٣٦-١٣٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَالَ نِسَاءُ ٱلْحَيِّ عَنَّا بِذِكْرِ مَنْ ... جَفَانَا : وَبَعْدَ ٱلْعِزِّ لَذَّ لَهُ ٱلذُّلُّ

فَحَالِيْ وَإِنْ سَاءَتْ فَقَدْ حَسُنَتْ بِهَا ... وَمَا حَطَّ قَدْرِيْ فِيْ هَوَاهَا بِهِ أَعْلُوْ

وَلِـيْ هِمَّـةٌ تَعْلُـوْ إِذَا مَـا ذَكَـرْتُهَـا ... وَرُوْحٌ بِذِكْرَاهَا إِذَا رَخُصَتْ تَغْلُوْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

ذَلَلْتُ بِهَا فِيْ ٱلْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتُنِيْ ... وَأَدْنَىٰ مَنَالٍ عِنْدَهُمْ فَوْقَ هِمَّتِيْ

وَمِنْ دَرَجَاتِ ٱلْعِزِّ أَمْسَيْتُ مُخْلَداً ... إِلَىٰ دَرَكَاتِ ٱلذُّلِّ مِنْ بَعْدِ نَخْوَتِيْ

فَلاَ بَابَ لِيْ يُغْشَىٰ وَلاَ جَاهَ يُرْتَجَىٰ ... وَلاَ جَـارَ لِـيْ يُحْمَىٰ لِفَقْـدِ حَمِيَّتِـيْ

وقالَ [في « ديوانه » ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحُسْنٌ بِهِ تُسْبَىٰ ٱلنُّهَىٰ دَلَّنِيْ عَلَىٰ ... هَوىً حَسُنَتْ فِيْهِ لِعِزِّكِ ذِلَّتِيْ

وقالَ سبطُهُ [في « ديوان ابن الفارض » ٢٠٩ مِنَ الطَّويلِ] :

تَـوَاضَعْـتُ ذُلاًّ وَٱنْخِفَـاضـاً لِعِـزِّهَـا ... فَشَرَّفَ قَدْرِيْ فِيْ هَوَاهَا ٱلتَّوَاضُعُ

لَئِنْ صِرْتُ مَخْفُوْضَ ٱلْجَنَابِ فَحُبُّهَا ... لِقَـدْرِ مَقَـامِـيْ فِـيْ ٱلْمَحَبَّـةِ رَافِـعُ

وقالَ ٱبنُ الجعبريِّ : زرتُ معَ والِدي قبرَ ٱبنِ الفارِضِ ، فوجدنا عندَهُ تراباً كثيراً ، فصرخَ الشيخُ وقالَ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَسَاكِيْنُ أَهْلُ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ قُبُوْرُهُمْ ... عَلَيْهَـا تُـرَابُ ٱلـذُّلِّ بَيْـنَ ٱلْمَقَـابِـرِ

ثمَّ حملَ الشيخُ الترابَ في ثوبِهِ ، وحملناهُ معَهُ إِلىٰ أَن كَنَسْنا القبرَ وما حولَهُ .

حال النبي ﷺ وتواضعه مع أهله

وأكبرُ مِمَّا ذكرناهُ كلِّهُ . . حالُهُ ﷺ معَ أزواجِهِ ، فقد كانَ ـ كَما ذكَرنا لوناً مِنهُ في المجلسِ الثاني عشرَ عندَ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٣ مِنَ الكاملِ] :

وَعَـذَلْـتُ أَهْـلَ ٱلْعِشْـقِ حَتَّىٰ ذُقْتُـهُ   فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ ؟!

ـ حسنَ العشرَةِ لَهُنَّ ، وكُنَّ يهجرنَهُ إِلىٰ الليلِ ، وكانَ يقولُ : « خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لأَهْلِهِ ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لأَهْلِي »[١] .

وكانَ (إِذا صلَّىٰ العصرَ . . دارَ عليهِنَّ كلِّهِنَّ ، ودَنا مِنهُنَّ مِن غيرِ مسيسٍ ، وكانَ يسرِّبُ إِلىٰ عائِشَةَ بناتِ الأَنصارِ يلعبنَ مَعَها ، ويمكِّنُها مِنَ ٱللَّعِبِ ، ويحمِلُها لتنظرَ إِلىٰ الحبشَةِ وهُم يلعبونَ في مسجدِهِ وهيَ متَّكِئَةٌ علىٰ منكبيهِ ، وكانَ إِذا هَوِيَتْ شيئاً لا محذورَ فيهِ . . تابعَها عليهِ ، وكانَ إِذا شرِبَتْ مِنَ ٱلإِناءِ . . أَخذَهُ فوضَعَ فمَهُ علىٰ موضِعِ فَمِها وشربَ ، وإِذا تعرَّقَت عَرْقاً ـ وهوَ العظمُ الذي عليهِ لحمٌ ـ أَخذَهُ واعتمَدَ موضِعَ فَمِها)[٢] .

ولَمَّا نزلَت براءَتُها . . قالَت لَها أُمُّها : قومي إِليهِ ، فقالَت : واللهِ لا أَقومُ إِليهِ ، ولا أَحمدُ إِلاَّ اللهَ ، وهيَ التي تواطَأَتْ معَ حفصَةَ علىٰ غِشِّ الجونيَّةِ حتَّىٰ فرَّقَتا بينَها وبينَ رسولِ اللهِ ﷺ ، كَما قد ذَكَرنا في غيرِ هٰذا المجلسِ ، فلَم يُثَرِّبْ[٣] .

---

(١) أخرجه عن ابن عباس رضي الله عنهما ابن حبان في « الإحسان » (٤١٩٤) ، وهو في « كشف الأستار » (١٤٨٣) .

(٢) تقدَّمت هذهِ الأَحاديثُ معَ تخريجِها في غيرِ هذا المجلسِ .

(٣) التثريب : التعيير والاستقصاء في اللوم ، وثرَّب عليه : قبَّحَ عليه فعله .

ولله درُّ القائلِ [مِنَ الوافرِ] :

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ ٱلْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُـهُ فَيَحْسُـنُ مِنْـكَ ذَاكَـا

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٥٥ مِنَ الوافرِ] :

وَقَـدْ يَتَقَـارَبُ ٱلْـوَصْفَـانِ جِـدّاً ... وَمَـوْصُـوفَـاهُمَـا مُتَبَـاعِـدَانِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَخْتَلِفُ ٱلرِّزْقَانِ وَٱلْفِعْلُ وَاحِدٌ ... إِلَىٰ أَنْ يُرَىٰ إِحْسَانُ هَـٰذَا لِذَا ذَنْبَا

الحكمة في ميل الرجل للمرأة

وبعدُ : فمعاذَ اللهِ أَن يكونَ جميعُ ذلكَ إلا لحكمَةٍ عاليَةٍ ، لَم أَرَ مَن نبَّهَ عليها ، وكأَنَّها ـ والعلمُ لَهُ جلَّ شأْنُهُ ـ راجعَةٌ إِلىٰ صفَةِ العدلِ .

وتوضيحُها : أَنَّ الكونَ ـ كَما قُلنا غيرَ مرَّةٍ ـ لم يتَّسقْ نظامُهُ إلاَّ بناموسِ الجاذبيَّةِ ، وهوَ المحبَّةُ الصادقَةُ ليسَ غيرُ ، والإنسانُ سرُّ هـٰذا الكونِ ، فبالحريِّ أَن لا يستقيمَ شأْنُهُ إلاَّ بِها ، فهيَ المقصودُ الأَكبرُ مِن الحياةِ الزوجيَّةِ ، بشهادَةِ قولِهِ تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الروم : ٢١] ، فذلكَ السكونُ والرحمَةُ والمودَّةُ هيَ التي بِها تُتطعَّمُ الحياةُ ، ويُستعجَلُ النعيمُ ، وتُتناسىٰ الآلامُ ؛ إِذ كلُّ لذَّةٍ في الدنيا دفعُ أَلَمٍ ، سوىٰ ما كانَ مِن أمثالِها ، فهيَ التي بها يسهُلُ ٱحتمالُ مشاقِّ الكونِ المظلمَةِ ، وقطعُ عقباتِهِ الكأْداءِ ، والصبرُ علىٰ موجعاتِهِ الكبرىٰ ، ويتبعُ ذلكَ ٱستبقاءُ النسلِ ؛ ضرورةَ بقاءِ العالَمِ إِلىٰ أَمدِهِ المحدودِ لهُ .

فمِن أَلطافِهِ ـ جلَّ شأْنُهُ ـ تركيبُ الشهوَةِ التي تستبي الغيورَ ،

وتستنزلُ الوقورَ ، ولا يخفىٰ ما في طريقِ إرضائِها الذي لا بدَّ منهُ مِن الذلِّ الفاحشِ ، الواقعِ علىٰ المرأةِ ، فعوِّضَت عنهُ برجحانِ الكفَّةِ لدىٰ ميزانِ الهوىٰ ، وإعلاءِ الدرجَةِ عندَ سلطانِ الحبِّ ، ورفعِ المنزلَةِ في دولَةِ الجمالِ ، فهوَ إذن سرٌّ لطيفٌ محسوسٌ مِن أسرارِ العدلِ الإلٰهيِّ ، الذي قامَتِ ٱلأرضُ والسماءُ عليهِ .

ولئِن قيلَ : إنَّهُ لا يظهَرُ أثرهُ إلاَّ عندَ أهلِ الكرَمِ ، وقليلٌ ما هُم . . قُلنا : هُمُ ٱلْمَقصودونَ وإن قَلُّوا ، ولا عبرَةَ بِمَن سِواهُم وإن جَلُّوا ؛ إذ هُم بالعجماواتِ أشبَهُ ، لا يعرفونَ العزَّ ولا الهونَ ، ولا العاليَ ولا الدونَ ، وقد أسلفنا مرَّةً قولَ حبيبٍ [أبا تمّامٍ في « ديوانهِ » ١/ ٣٣٠ مِنَ البسيطِ] :

إنَّ ٱلْكِـرَامَ كَثِيْـرٌ فِـيْ ٱلْبِـلَادِ وَإِنْ ... قَلُّوْا كَمَا غَيْرُهُمْ قُلٌّ وَإِنْ كَثُرُوْا[1]

وقَد يُشبِهُهُ قولُ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٩٧٦ مِنَ الكاملِ] :

قَلَّ ٱلْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَذُّهُمْ ... وَلَقَدْ يَقِلُّ ٱلشَّيْءُ حَتَّىٰ يَكْثُرَا[2]

وقولُ الناظِمِ [« في العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَجَاءَتْ بِهِ صَلْتَ ٱلْجَبِيْنِ مُعَظَّماً ... تَرَىٰ ٱلنَّاسَ قُلاًّ حَوْلَهُ وَهُمُ كُثْرُ[3]

فيتلخَّصُ منهُ : أَنَّ المحبَّةَ سرُّ الأسرارِ ، وأَنَّ أفضلَ مظاهِرِها الحياةُ الزوجيَّةُ ، وأَنَّ ما يلحَقُ المرأَةَ مِن المهانَةِ بالصورَةِ فيما يتولَّدُ

(١) قُلٌّ : قليلٌ . يعني : أن للكرام شأناً عظيماً يكثرُ بهمُ الخيرُ وإن قلَّ عددُهمْ ، كذلكَ غيرُ الكرامِ كثيرو العددِ قليلو الشأنِ .
(٢) الفذُّ : الفردُ .
(٣) الصلتُ : الجبينُ الواضحةُ .

من بعضِ دَواعي الحبِّ لبقاءِ التناسُلِ . . تُعوَّضُ عنهُ في شرعِ الهوىٰ ، بأَن تكونَ مالِكَةً لا مملوكَةً ، وحاكِمَةً لا محكومَةً ، وغالبةً لا مغلوبَةً ، والكرامُ في ذلكَ مساقونَ بِسَوقِ الطبيعَةِ ، وموكولونَ فيهِ إِلىٰ الداعيَةِ ، ومَن سواهُم وإِن كانوا دَهماءَ الناسِ ، والسوادَ الأَعظمَ . . فإِنَّهم لا عبرَةَ بِهم ، وفي الأَحكامِ الشرعيَّةِ ما يكفي للتناصُفِ بينَهُم ، وتوفيةِ المرأَةِ ما ٱمتازَتْ بهِ مِن حقوقِ الخدمَةِ ، والمؤنَةِ ، والنَّفقَةِ ، والكفالَةِ ، وغيرِ ذلكَ .

ثمَّ إِذَا كانَ هـٰذا الخضوعُ للجمالِ الحادِثِ . . فما بالُكَ بهِ لمظهَرِ كلِّ جمالٍ أَقدَسَ ، وكمالٍ أَنفسَ ، وكثيراً ما تكونُ المحبَّةُ البشريَّةُ وسيلةً للحبِّ الإِلـٰهيِّ ، وللهِ درُّ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ في قولِهِ ـ الذي قلَّما أَذكرُهُ إِلاَّ وخنَقَني النشيجُ ، وتبادَرَتْ مِن محجِري القطراتُ ـ وهوَ [في « نفح الطيب » ٦/ ٢٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

جَزَىٰ ٱللهُ عَنِّيْ زَاجِرَ ٱلشَّيْبِ خَيْرَ مَا ... جَزَىٰ نَاصِحاً فَازَتْ يَدَاهُ بِخَيْرِهِ
سَلَكْتُ طَرِيْقَ ٱلْحُبِّ حَتَّىٰ إِذَا ٱنْتَهَىٰ ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ ٱللهِ عَنْ حُبِّ غَيْرِهِ

تواضعه ﷺ

ومِن هُنا كانَ ﷺ سيِّدَ المتواضعينَ ، يعلِفُ بعيرَهُ ، ويقُمُّ بيتَهُ ، ويخصِفُ نعلَهُ[1] ، ويرقِّعُ ثوبَهُ ، ويحلِبُ شاتَهُ ، ويطحَنُ مَعَ خادِمِهِ ، ويأْكُلُ معَهُ ، ويحمِلُ بضاعتَهُ مِنَ ٱلسوقِ بيدِهِ ، ويصافِحُ الفقيرَ ، ويتركُ لَهُ يدَهُ حتَّىٰ يكونَ هوَ الذي يُلْقيها ، ولا يحتقِرُ ما دُعيَ إِليهِ ، ولَو إِلىٰ حَشَفِ التمرِ .

---

(١) قال الحافظ العراقي : رواه أحمد في « المسند » من حديث عائشة . يخصف : يخرزه بيده ليصلحه .

وحالُهُ معروفٌ معَ أَهلِ الصُّفَّةِ ، وآخرُ ما نزلَ عليهِ في شأنِهم قولُهُ تعالىٰ : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] ، فكانَ بعدَ ذلكَ لا يقومُ عَنهم حتَّىٰ يَكونوا هُمُ ٱلْبادئِينَ بالقيامِ ، غيرَ أَنَّهم لَم يَكونوا بلداءَ ، ولا ثُقَلاءَ كأَهلِ زمانِنا ، ولكنَّهم كَما قالَ ٱبنُ أَبي ربيعةَ [في « ديوانه » ١٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّـا ٱقْتَصَـرْنَـا دُونَهُـنَّ حَـدِيثَنَـا ... وَهُنَّ خَبِيرَاتٌ بِحَاجَاتِ ذِي ٱلتَّبْلِ[1]

عَرَفْنَ ٱلَّذِي نَهْوَىٰ فَقُلْنَ: ٱئْذَنِي لَنَا ... نَطُفْ سَاعَةً بَيْنَ ٱلْبَسَاتِينِ وَٱلنَّخْلِ

فَكانوا إِذا عَرَفوا أَنَّهُ يريدُ القيامَ . . ٱنصرفوا عنهُ ، وقد جوَّدْتُ الكلامَ فيهِ بما أَظنُّني لَم أُسبق إِليهِ في « حاشيتي علىٰ الشمائِلِ » فتواضُعُهُ عليهِ السلامُ أَثَرُ صدقِ محبَّتِهِ ، وٱتساعِ معرفتِهِ .

تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام

ولقد كانَ سليمانُ ـ على ٱتساعِ ملكِهِ ـ يتفقَّدُ ٱلْحِلَقَ في المسجدِ الأَقصىٰ ، ثمَّ لاَ يجلِسُ إِلاَّ معَ المساكينِ ، وكانَ لا يتغدَّىٰ حتَّىٰ يترحَّلَ النهارُ ؛ ليذوقَ طعمَ الجوعِ ؛ حتَّىٰ لا ينساهُم .

ومِن شريفِ تواضُعِهِ ما قصَّ اللهُ عَلَينا مِن خبرِهِ معَ الهدهُدِ ؛ إِذ قالَ لهُ ﴿ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ، فإِنَّهُ كانَ يفتحُ القلوبَ الغلفَ ، والآذانَ الصمَّ ؛ إِذ لا تجدُ أَرَقَّ ولا أَبدعَ ولا أَبلغَ مِنَ ٱلإِفصاحِ بنسبةِ الصدقِ إِليهِ ، حتَّىٰ كأَنَّهُ الصادِقُ وحدَهُ في عسكرِهِ ، ولمَّا كانَ الكذبُ لم يجرِ فيهِ علىٰ مقتضىٰ السياقِ مِنَ

---

(١) المعنى : حينَ آنَسْنَ منَّا تكتُّماً وقصراً للحديثِ . . شعرنَ بحاجةِ المحبينَ للخلوةِ ، وهنَّ بذلكَ عارفاتٌ خبيراتٌ .

ٱلْخطابِ ، بل التفتَ وقالَ ﴿ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النمل : ٢٧] ولَم يقُل أَم كذبْتَ ؛ رفقاً بهِ ، وحُنُوّاً عليهِ ؛ كَي لا ينفطِرَ قلبُهُ ، وتنشَقَّ مرارَتُهُ مِن هولِ نسبَةِ الكذبِ إليهِ ، ولٰكنَّهُ قالَ لَه ما معناهُ : إن صدقْتَ . . فهيَ فضيلَةٌ ، كأنَّكَ المنفردُ بِها ، وإن كذبْتَ . . فكثيرٌ مثلُكَ ، وهٰذا واللهِ ما يهزُّ النفوسَ ، ويقيمُ الشعورَ ، وينفُذُ في القلوبِ ، ويستهوي ٱلْخواطِرَ ، ويذيبُ الحجارَةَ ، وإنَّهُ لَمِن المعجزِ الذي تزلُّ الفصحاءُ عَن مَرقاتِهِ ، ولا بِدَعْ ؛ فالالتفاتُ هوَ المقامُ الذي تتفاوَتُ بهِ الطبقاتُ ، وقد ذكَرنا منهُ في تفسيرِ الفاتحَةِ مِن كتابِنا « بلابِلُ التغريدِ » ما تنشرحُ بهِ صدورُ المؤمنينَ إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق

ومِنَ ٱلجهلاءِ مَن يلتبسُ عليهِ العِزُّ بالكبْرِ ، والتَّواضعُ بالمَلَقِ ، فتجِدُ صاحبَ العزَّةِ يكلِّمُ الفقيرَ ، ويلاطِفُ الصغيرَ ، ويجالِسُ المساكينَ ، ويخضَعُ للحَقِّ ، ويستكينُ حتَّىٰ إذا جالسَ الأُمراءَ . . فهوَ أميرٌ ، وإذا حضرَ الكبراءُ . . فهوَ كبيرٌ . وقد قالَ ٱبنُ الخطَّابِ : أُريدُ رجلاً إذا كانَ أَميرَ القومِ . . كانَ كبعضِهِم ، وإن لم يكُن أَميرَهم . . فكأَنَّهُ أَميرُهم .

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانِهِ » ٢/١٠١ مِنَ الكاملِ] :

مَتَبَذِّلٌ فِي ٱلْقَوْمِ وَهْوَ مُبَجَّلٌ   مُتَوَاضِعٌ فِي ٱلْحَيِّ وَهْوَ مُعَظَّمُ[1]

وقالَ الآخرُ [مِنَ الكاملِ] :

مُتَوَاضِعٌ وَٱلنُّبْلُ يَحْرُسُ قَدْرَهُ   وَأَخُو ٱلتَّوَاضُعِ بِٱلنَّبَاهَةِ يَنْبُلُ

لا يتردَّدُ علىٰ الأَبوابِ ، ولا يُدهِنُ ، ولا يَهابُ ، ولا يَجري

---

(١) المتبَذِّلُ : تاركُ التصوُّنِ والاحتشامِ . مبجَّلٌ : معظَّمٌ .

خلفَ الآمالِ ، ولا يتبعُ مراضيَ أَهلِ المالِ ، وآيتُهُ أَنْ تجدَهُ مبغوضاً لدىٰ أَهلِ النخوَةِ والشرَفِ ، محبوباً عندَ أَهلِ الضعفِ والعقلِ .

الكلام على المتكبر

وأَمَّا صاحبُ الكِبْرِ : فتجدُهُ غامطاً للحقوقِ ، غارقاً في العقوقِ ، لا يقابِلُ الناسَ إِلاَّ بالأَنَفَةِ ، ولا يكلِّمهم إِلاَّ مِن أَطرافِ الشفَةِ ، لا يعرفُ لأَحدٍ قدرَهُ ، ولا يقبَلُ مِن مسيءٍ عذرَهُ ، لٰكنَّهُ يتواضَعُ لِمَن فوقَهُ بمقدارِ ذلكَ ووزنِهِ ، فإِذا مَثُلَ أَمامَ الكُبَراءِ ، أَو حضرَ عندَ الأُمراءِ . . نزلَ عَن سماءِ تلكَ الرفعَةِ ، وٱنحدرَ عَن قلَّةِ تلكَ العظمَةِ ، وذلكَ دليلٌ علىٰ أَنَّهُ مِن أَلأَمِ الناسِ نفساً ، وأَسقطِهِم همَّةً ، وأَزمَنِهم ذمَّةً .

ومِنهم مَن يكونُ الكِبْرُ معجوناً في طينَتِهِ ، لا يظْهَرُ أَثَرُهُ فيهِ إِلاَّ لِمَن ساعدَهُ الطمَعُ علىٰ الترفُّعِ عليهِ ، حتَّىٰ إِذا ما ضحِكَ لَهُ الزمانُ . . ورىٰ ذٰلكَ الزندُ ، وٱنفجرَ ذٰلكَ الجرحُ ، وقد قالَ سفيانُ ـ رحمهُ اللهُ ـ : إِنَّ اللِّئامَ إِذا تموَّلوا . . ٱستطالوا ، وإِذا ٱفتقروا . . تواضعوا ، والكرامَ إِذا تموَّلوا . . تواضَعوا ، وإِذا ٱفتقروا . . ٱستَطالوا .

ومتىٰ رسخَ الكِبرُ في نفسِ الإِنسانِ . . ٱستخدَمَ مَن قدرَ عليهِ مِن الخلقِ في قضاءِ شهوتِهِ ، وتنفيذِ إِرادتِهِ ، ورأَىٰ أَنَّ الصوابَ ما تُمثِّلُ لهُ نفسُهُ ، وأَنَّ العقولَ لم ترجِّحْ إِلاَّ لِموافقَةِ مشربِهِ ، وهٰذهِ حالُ سائِرِ المستبدِّينَ ، ومِن علامتِهِم أَنْ تجدَ أَهلَ العلمِ أَبغضَ ما يكونُ إِليهم :

اسباب بغض المستبدين لأهل العلم

أَمَّا أَولاً : فلأَنَّ العلمَ يهدُّ مِن بنائِهِم ، ويحطُّ مِن كبريائِهِم ، ويغضُّ من عِنانِهِم ، ويعرِّفُ بطُغيانِهِم .

وأَمَّا ثانياً : فإِنَّهم يبغضونَهم بالطبعِ لذاتِهِ ؛ حيثُ إِنَّ لَهُ سلطاناً

أَقوىٰ مِن كلِّ سلطانٍ ، ولا بدَّ للمستبدِّ أَن يستحقِرَ نفسَهُ ولَو في سرِّهِ كلَّما وقَعت عينُهُ علىٰ مَن هوَ أَرفعُ سلطاناً منهُ ، فتراهُ لا يحبُّ أَن يرىٰ وجهَ عالِمٍ شريفٍ حرٍّ قطُّ ، بل يسعىٰ جهدَهُ في إِسقاطِ قدرِهِ ، والتقوُّلِ عليهِ ، وإِلصاقِ المعايبِ بهِ ، وٱبتغاءِ العثراتِ في طريقِهِ ، فإِنِ ٱضطرَّ إِلىٰ العلمِ أَحياناً . . ٱختارَ المتصاغِرَ المتحذلقَ الدنيءَ :

لأَنَّهُ أَوَّلاً : يعرفُ نقصَهُ وٱنحطاطَهُ ، فلا يجدُ فيهِ مِن طلائِعِ المجدِ ما ينغِّصُ عليهِ ، ولا ما يثيرُ حسدَهُ .

ولأَنهُ ثانياً : يملأُ رضاهُ ، ويسارِعُ في هواهُ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

ولأَنهُ ثالثاً : يتَّخِذُ منهُ مثالاً لتحقيرِ العلماءِ إِذا تظاهرَ بعدمِ المبالاةِ بهِ ، وأَلحقَهُ بحاشيتِهِ ، وأَدخلَهُ في غمرَةِ أَتباعِهِ ، وأَمثالُ هؤلاءِ المستبدِّينَ والمتكبِّرينَ واجبٌ علىٰ أَهلِ الإِيمانِ ٱحتقارُهم وهجرُهم ، والتكبُّرُ عليهِم ؛ فقد سُئِلَ الحسنُ عَن التواضعِ[1]؟ فقالَ : هوَ التكبُّرُ علىٰ الأَغنياءِ .

الكلام في الكبر والعز

وقالَ يحيىٰ بنُ معاذٍ الرازيُّ : التكبُّرُ علىٰ مَن تكبَّرَ عليك بمالِهِ تواضُعٌ . ومصداقُهُ قولُهُ ﷺ : « مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ . . ذَهَبَ ثُلُثَا دِيْنِهِ »[2] .

---

(١) في « صفة الصفوة » (٤/١٣٩) : ابن المبارك بدلُ (الحسن) .

(٢) أَخرجهُ بنحوه عن وهب البيهقيُّ في « الشعب » (١٠٠٤٣) ، وأورد نحوه عن أبي هريرة رضي الله عنه الديلمي كما في « كنز العمال » (٦٢٨٩) بلفظ : « من تضرع لصاحب دنيا وضع بذلك نصف دينه » وعن أنس عند الديلمي كما في « الكنز » (٦٢٩٠) « من تضعضع لذي سلطان إرادة دنياه أعرض الله عنه بوجهه في الدنيا والآخرة » .

ولَمَّا سألَهُ مسيلمَةُ الكذَّابُ المُلكَ بعدَهُ . . قالَ لَهُ : « وَٱللهِ لَوْ سَأَلْتَنِيْ هَـٰذَا ٱلْعُوْدَ ـ لِعودٍ في يدِهِ ـ لَمْ أُعطِكَهُ »[1] .

ولَمَّـا جـاءَهُ نصـارىٰ (نجـرانَ) ، وعَلَيهـم الحُلَـلُ ، وأَزرارُ الذهَبِ . . أَوقفَهم طائفةً مِن النهارِ في الشمسِ .

وأَنشدَ السرخسيُّ [في « نفح الطيب » ٣/ ١١٠ من البسيط] :

لَمْ أَلْقَ مُسْتَكْبِراً إلاَّ تَحَوَّلَ لِيْ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ لَهُ ٱلْكِبْرُ ٱلَّذِيْ فِيْهِ
وَلاَ حَلاَ لِيْ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَلَذَّتِهَا إلاَّ مُقَـابَلَتِـيْ لِلتِّيْـهِ بِـٱلتِّيْـهِ

وقالَ بعضُ عظماءِ الدنيا للحسنِ : ما أَعظمكَ في نفسكَ! فقالَ : لستُ بعظيمٍ في نفسي ، ولـٰكنِّي عزيزٌ . مِن قولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِـزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨]؟

ومرَّ في المجلسِ الحادي عشرَ ما يشبهُهُ عَن زينِ العابدينَ عليِّ بنِ الحسينِ .

وقالَ بعضُهُم [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَـا أَنَـا مَـزْهُـوٌّ وَلَـٰكِنَّنِـيْ فَتـىً أَبَتْ لِيَ نَفْسٌ عَزَّةٌ لَنْ أُزِيْلَهَا

وقالَ عديُّ بنُ أَرطاةَ ـ وهوَ علىٰ الإمارةِ ـ لوكيع بنِ أَبي الأَسودِ : سَوِّ علَيَّ ثيابي ، قالَ : في خُفَّيْ ضِيقٌ ، فلينْزِعْهُ الأَميرُ ؛ حتَّىٰ أَتفرَّغَ لِمُساواةِ ثيابِهِ عليهِ ، فقالَ عديٌّ : إِنَّ الجليسَ لَيَلي مِن جليسِهِ أَكثرَ ممَّا قلتُ لكَ ، قالَ : يا عديُّ إذا عُزِلْتَ عَنَّا . . فَكَلِّفنا أَكثرَ مِن

---

(١) أخرجه عن عُبَيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ البخاريُّ (٤٣٧٨) ، في (المغازي) بلفظِ : « لَوْ سَأَلْتَنِيْ هَذَا ٱلْقَضِيبَ مَا أَعْطَيْتُكَهُ » .

هـٰذا ، وأمَّا وأنتَ ترىٰ لكَ علينا بسطَةً بالإمارَةِ . . فلا .

وأَتىٰ سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ إلىٰ طاوُوسَ فلم يكلِّمْهُ ، فقيلَ لهُ في ذلكَ ، فقالَ : أَرَدْتُ أن يعلمَ أَنَّ في عبادِ اللهِ مَن يستصغِرُ ما يستعظِمُهُ مِن نفسِهِ .

وفي « الإِحياءِ » جملَةٌ صالِحَةٌ مِن هـٰذا النوعِ .

وكانَ الأَغنياءُ ـ [كما في « الحلية » ٦/ ٣٦٥] ـ يتمنَّونَ أَن لَو كانوا فقراءَ في مجلسِ سفيانَ الثوريِّ .

وكذلكَ كانوا في مجالسِ آبائِنا ومشايِخِنا ، فما بالعهدِ ، مِن قِدَمٍ ، ولَم يعظُمْ في بلادِنا الفرقُ ، ويتَّسِعِ الخرقُ إلاَّ عمَّا قريبٍ ؛ إذ تصدَّىٰ للزعامَةِ مَن أَغنيهم بمثلِ قولي ـ من قصيدَةٍ كانَ إنشاؤُها في أَيَّامِ الحَداثَةِ ـ [في « ديوان المؤلف » ق ١٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

ما من يوم إلا والذي يليه شر منه

وَنَشْأَةُ هَـٰذَا ٱلشَّرِّ مِنْ صُنْعِ قَادَةٍ ... إِلَيْهِمْ أَكُفُّ ٱلأَغْبِيَاءِ تُشِيرُ
لَقَدْ آثَرُوا ٱلدُّنْيَا فَكُلُّ أَخِيْ غِنىً ... لَدَيْهِمْ وَلَوْ جَمَّ ٱلذُّنُوبِ أَثِيْرُ
فَأَصْبَحَ حَالُ ٱلْعِلْمِ مِنْ شُؤْمِ فِعْلِهِمْ ... كَحَالِ غَرِيبٍ خَانَ فِيْهِ خَفِيْرُ
نَكَرْتُ عَلَيْهِمْ فِعْلَهُمْ فَوَقَعْتُ فِيْ ... مَعَامِعَ ، فِيْهِنَّ ٱلْمَكَرُّ عَسِيْرُ

وما بنا أَن نذكرَ تواضُعَ الصدرِ الأَولِ للحقِّ ؛ لأَنَّهُ البحرُ الذي لا يُدرَكُ قعرُهُ ، ولا يُبصرُ عبرُهُ ، وقد رأَينا بعيونِ رؤوسِنا مِمَّن أَشرْنا إليهم ما يُغني عَنِ ٱلْخَبَرِ [قال البديع الهمذاني في « قرى الضيف » ٤/ ٣٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

أَحَادِيثُ يَرْوِيهَا ٱلْعِيَانُ كَمَا تَرَىٰ ... وَإِنْ نَحْنُ حَدَّثْنَا بِهَا دَفَعَ ٱلْعَقْلُ

وإلاَّ . . فَلو لَم نرَ شيئاً مِن ذلكَ . . لاختلَطَ علَينا الأَمرُ ، وتشكَّكنا فيما يروىٰ مِن تلكَ الأَخلاقِ الفاضلَةِ عَنِ ٱلسلفِ الطيبِ ، ولٰكنَّ العِيانَ قطعَ كلَّ شكٍّ ، وأَزالَ كلَّ تردُّدٍ ، فلَنا بحقٍّ أَن نتمثَّلَ وقتَما كُنَّا نشاهِدُ مشايخَنا بقولِ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢٧ مِنَ البسيطِ] :

مَا شَيَّدَ ٱللهُ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ إلاَّ وَنَحْنُ نَرَاهُ فِيْهِمُ ٱلآنَا

لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله

وممَّا يروىٰ عَن أَبي يزيدَ البسطاميِّ أَنَّهُ قالَ : رأَيتُ كَأَنَّ القيامَةَ قد قامَت ، وتجلَّىٰ الحَكَمُ العدْلُ لفَصلِ القضاءِ بينَ عبادِهِ ، وأَخذَ الملائِكَةُ يأتونَ الناسَ واحداً واحداً ، ينتفضونَ مِن الفَرَقِ[1] ، حتَّىٰ حضرَتْ نوبَتي ، فَجيْءَ بي ترعَدُ فرائِصي ، فقالَ لي الجبَّارُ : ماذا جئتَ بهِ؟ قلْتُ : الثقَةُ بكَ ، قالَ : وهل مِن شكٍّ حتَّىٰ تمُنَّ بالثقَةِ بي؟! قلْتُ : جئتُكَ بالزهْدِ ، قالَ : وهَل لِلدنيا مِن قدرٍ حتَّىٰ تمُنَّ بالزهدِ فيها؟! قلْتُ : ٱنقطَعَتْ حجَّتي يا ربِّ ، فأَلهِمْني رُشدي ، قالَ: قُلْ : جئتُ بالانكسارِ بينَ يديكَ ، أَو ما يقربُ مِن هٰذا المعنىٰ .

ولئِن كانَت مناماً . . فمصداقُها قولُهُ عزَّ وجلَّ في الحديثِ القدسيِّ : « أَنا عِندَ ٱلمُنكَسِرَةِ قُلُوْبُهُمْ مِنْ أَجْلِيْ »[2] .

وفي « الصحيح » : « أَقرَبُ مَا يَكُوْنُ ٱلْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ »[3] .

---

(١) الفرَقُ : الخوفُ .

(٢) ذكره المناوي في « فيض القدير » (١/ ٥١٩) ، والعجلوني في « كشف الخفاء » (٦١٤) عن القاري فقال : لا أصل له .

(٣) أخرجه عَن أَبي هُريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ مسلم (٤٨٢) في (الصلاة) .

وفي لزوميَّاتي [مِنَ الطَّويلِ] :

يَذِلُّ لِرَبَّاتِ ٱلْحِجَالِ أَخُو ٱلْهَوَىٰ ... وَإِنْ كَانَتِ ٱلدُّنْيَا إِذَا سَارَ تَهْتَزُّ

وَمَا عَفَّرَ ٱلإِنْسَانُ فِيْ ٱلتُّرْبِ وَجْهَهُ ... لِمَـوْلَاهُ إِلاَّ كَـانَ فِـي ذَلِـكَ ٱلْعِـزُّ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٣٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ	عَلَـىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

شرح المطلع والعيوب التي فيه

يقولُ : إِنَّهُ لم يسلَمِ المجدُ لأَحدٍ خالصاً غيرَ مشوبٍ بشيءٍ مِنَ ٱللُّؤْمِ . . إلاَّ للممدوحِ ، وقدِ ٱنتقَلَ من النسيبِ إِلىٰ المديحِ مِن غيرِ مناسبَةٍ ، وذلكَ ما يسمُّونَهُ : الوثبُ ، والقطْعُ ، والاقتضَابُ ، كلُّ ذلكَ يطلقونَهُ عليهِ ، وهوَ الأَكثرُ في الجاهليَّةِ ، وٱشتهَرَ بهِ مِن المتأَخِّرينَ البُحتريُّ ، وأَبو نُواسٍ ، حتَّىٰ قالَ بعضُهم [مِنْ مجزوءِ الكاملِ] :

وَثْبـاً كَـوَثْـبِ ٱلْبُحْتُـرِيِّ   مِـنَ ٱلنَّسِيْـبِ إِلَـىٰ ٱلْمَـدِيْـحِ

المخالص الفائقة للمتنبي

وللناظِمِ مِن المخالِصِ الفائِقَةِ ما لا يستهانُ بقدرِهِ ، ولا يُجهَلُ مكانُهُ ، كقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٧١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَـلاَ تَعْجَبَـا إِنَّ ٱلسُّيُـوْفَ كَثِيْـرَةٌ   وَلَكِنَّ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ ٱلْيَوْمَ وَاحِدُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَغَيْـثٍ ظَنَنَّـا تَحْتَـهُ أَنَّ عَـامِـراً   عَلاَ لَمْ يَمُتْ أَوْ فِيْ ٱلسَّحَابِ لَهُ قَبْرُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٢٢٨ مِنَ الكاملِ] :

أَقْبَلْتُهَـا غُـرَرَ ٱلْجِيَـادِ كَـأَنَّمَـا   أَيْدِيْ بَنِيْ عِمْرَانَ فِيْ جَبَهَاتِهَا[1]

(١) المعنىٰ : جعلت قبلة خيلي المناقبَ والمحامدَ منكم ، كما لو كانت نعمكم على جبهاتها .

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/٣٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

نَـوَدِّعُهُـمْ وَٱلْبَيْـنُ فِيْنَـا كَـأَنَّـهُ   قَنَا ٱبْنِ أَبِيْ ٱلْهَيْجَاءِ فِيْ قَلْبِ فَيْلَقِ(١)

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/١٧٧ مِنَ الخفيفِ] :

وَتَمَنَّيْـتُ مِثْلَـهُ فَكَـأَنِّـيْ   طَالِبٌ لابنِ صَالِحٍ مَنْ يُوَازِيْ(٢)

أَمَّا قولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٢/٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُـوْلُـوْا : جَـرَّ نَمْـلٌ   ثَبِيْـراً وَٱبْـنُ إِبْـرَاهِيْـمَ رَيْعَـا(٣)

.. فلا يستحسنُهُ إلاَّ مَن ختمَ اللهُ علىٰ بصيرتِهِ ، كما أَسلفناهُ ، وإِن خفيَ ذلكَ علىٰ الشارحِ ، والعلمُ شاهِدٌ ؛ إِذ لا مناسبةَ في العطفِ بينَ الجملتَين ، ومثلُهُ مردودٌ عندَ أَهلِ المعاني .

ومِن أَحسنِ المخالِصِ قولُ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ٣٤٠ مِنَ البسيطِ] :   الشعراء والمخالص

أَمَطْلَعَ ٱلشَّمْسِ تَبْغِيْ أَنْ تَؤُمَّ بِنَا   فَقُلْتُ : كَلاَّ وَلَـكِنْ مَطْلَعَ ٱلْكَرَمِ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣١٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِدَّكِ هَلْ تَدْرِيْنَ يَا رُبَّ لَيْلَةٍ   كَأَنَّ دُجَاهَا مِنْ قُرُوْنِكِ يُنْشَرُ(٤)

لَهَـوْتُ بِهَـا حَتَّـىٰ تَجَلَّـتْ بِغُـرَّةٍ   كَغُرَّةِ يَحْيَىٰ حِيْنَ يُمْدَحُ جَعْفَرُ

---

(١) أبو الهيجاء : والدُ سيفِ الدولةِ . القنا : الرماحُ . الفيلقُ : الجيشُ .

(٢) يوازي : يعادلُ ويماثلُ . ٱبن صالحٍ : هو الممدوحُ . وهذا البيت من أَحسنِ المخالصِ التي للمتنبي وقد أَحسنَ فيهِ ، وله في المخالصِ اليدُ الطولىٰ .

(٣) الثبيرُ : جبلٌ عظيمٌ معروفٌ بالحجازِ ، وقد أَورده الشعراءُ كثيراً في أَشعارهم .

(٤) أَجِدَّكِ : كلمةٌ منصوبةٌ على المصدرية ، وهي كلمة تستعمل بمعنى قولك : أَجدٌّ منكَ . قرونُكِ : خِصَالُ شعرِكِ .

وقولُ أَبي نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

دَعِينِي أُكَثِّرْ حَاسِدِيكِ بِرِحْلَةٍ إِلَىٰ بَلَـدٍ فِيهَـا ٱلْخَصِيبُ أَمِيرُ

وقولُهُ [في « ديوانهِ » ٣٣٠ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا أَرَدْتَ مَـدِيـحَ قَـوْمٍ لَـمْ تَمِـنْ فِي مَدْحِهِمْ فَٱمْدَحْ بَنِي ٱلْعَبَّاسِ[1]

وقولُ الفرزدقِ [في « خزانة الأدب » ١/ ٣٣٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا آنَسُوا نَاراً يَقُولُونَ : لَيْتَهَا وَقَدْ خَصِرَتْ أَيْدِيهِمُ نَارُ غَالِبِ

وقولُ البُحتريِّ [في « ديوانهِ » ١/ ٦٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

رِيَـاضٌ تَـرَدَّتْ بِـالنَّبَـاتِ مَجُـوْدَةً بِكُلِّ جَدِيدِ ٱلْمَاءِ عَذْبِ ٱلْمَوَارِدِ[2]

إِذَا رَاوَحَتْهَـا مُـزْنَـةٌ بَكَّـرَتْ لَهَـا شَآبِيبُ مُجْتَازٍ عَلَيْهَا وَقَاصِدِ[3]

كَأَنَّ يَدَ ٱلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ أَقْبَلَتْ عَلَيْهَا بِتِلْكَ ٱلسَّائِرَاتِ ٱلرَّوَاعِدِ

وقالَ البهاءُ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٢٢ مِنَ الكاملِ] :

أَهْوَىٰ ٱلتَّذَلُّلَ فِي ٱلْغَرَامِ وَإِنَّمَا يَأْبَىٰ صَلاَحُ ٱلدِّينِ أَنْ أَتَذَلَّلاَ

مَهَّدْتُ بِٱلْغَزَلِ ٱلرَّشِيْقِ لِمَدْحِهِ أَرَدْتُ قَبْـلَ ٱلْفَـرْضِ أَنْ أَتَنَفَّـلاَ

بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه

ثمَّ إنَّ دعوىٰ النقصِ في الخلقِ تمهيداً لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم لا يخلو عنهُ شعرٌ قطُّ ، حتَّىٰ كادَ أَن يقعَ بهِ الشيخُ عبدُ الرحيمِ البرعيُّ في إساءَةِ الأَدبِ علىٰ الأنبياءِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عليهِم أَجمعينَ ، ولا سيَّما في قصيدتِهِ التي ٱستهلَّها بقولِهِ [مِنَ الوافرِ] :

---

(١) لم تمن : لم تكذبْ .

(٢) مجودَةٌ : أَصابها الجَوْدُ ، وهوَ المطرُ الغزيرُ .

(٣) شآبيبُ ـ جمعُ شُؤْبوبٍ ـ : وهوَ الدفعةُ من المطرِ .

سَمِعْتُ سُوَيْجِعَ ٱلأَثْلاَتِ غَنَّىٰ ... عَلَىٰ مَطْلُوْلَةِ ٱلْعَذَبَاتِ رَنَّا(١)

أَمَّا الغضُّ مِن قومٍ معيَّنينَ ، لتفضيلِ الممدوحِ عليهِم . . فليسَ بالحقيقةِ إلاَّ تقصيراً بهِ ؛ إذ لا كبيرَ فائِدَةٍ في الفضلِ علىٰ السُّقَّاطِ ، والارتفاعِ علىٰ السفلَةِ [قالَ الخليلُ بنُ أحمدَ القاضي السِّجزي في « قِرىٰ الضَّيفِ » ٢٩٩/٥ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ ٱلسَّيْـفَ يَنْقُـصُ قَـدْرُهُ ... إِذَا قِيْلَ: هَـٰذَا ٱلسَّيْفُ خَيْرٌ مِنَ ٱلْعَصَا

وقد وقعَ فيهِ البُحتريُّ إذ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٠٠ مِنَ الكاملِ] :

شَهِـدْتُ لَقَـدْ أَنْصَفْتَـهُ حِيْـنَ تَنْبَرِيْ ... لَهُ مُصْلِتاً عَضْباً مِنَ ٱلْبِيْضِ مِقْضَبَا(٢)

فَلَـمْ أَرَ ضِـرْغَـامَيْـنِ أَصْـدَقَ مِنْكُمَـا ... عِرَاكاً إِذَا ٱلْهَيَّابَةُ ٱلنِّكْسُ كَذَّبَا!(٣)

والحماسيُّ [إياس بن الأرت] في قولِهِ [في « ديوان الحماسة » ٢/ ٢٥١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّيْ لَمِمَّنْ أَبْسُطُ ٱلْكَفَّ بِٱلنَّدَىٰ ... إِذَا شَنِجَتْ كَفُّ ٱلْبَخِيْلِ وَسَاعِدُهْ(٤)

أبلغ ما يكون المديح ان ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه؛ لأنه لا فخر بالتقدم على رعاع الناس

وإنَّما صادقُ المدحِ مثلُ قولِ مسلمِ بنِ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٦٤ مِنَ البسيطِ] :

يَجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ إِذْ ضَنَّ ٱلْجَوَادُ بِهَا ... وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلْجُوْدِ(٥)

---

(١) الأثل: شجر من الطَّرْفاء واحدته أَثْلَة ، والجمع أثلات . والتأثل : أصل مال .

(٢) العضبُ : السيفُ القاطعُ .

(٣) الضرغامُ : من أسماءِ الأسدِ . النِّكسُ : الرجلُ الضعيفُ والمقصرُ عن غايةِ النجدةِ .

(٤) شَنِجَتْ : يبِسَتْ .

(٥) هذا البيتُ مِن أروعِ ما قيلَ في الجودِ ، وقد عَكَسَهُ عليهِ بعضُهم بقولِهِ : =

وما سبقَ في المجلسِ السادسِ مِن قولِ أَبي تمَّامٍ وما يناسبُهُ [في «ديوانهِ» ٢/ ٣١١ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً كُلَّمَا ٱرْتَادَ ٱلشُّجَاعُ مِنَ ٱلرَّدَىٰ مَفَرّاً غَدَاةَ ٱلْمَأْزِقِ ٱرْتَادَ مَصْرَعَا[1]

وقدِ ٱتُّفِقَ أَنَّ شاعرينِ تقدَّما في تهنئةٍ بفتْحٍ ، فأَمَّا أَحدُهما : فعمدَ إِلىٰ تحقيرِ أَمرِ العدوِّ ، وتوهينِ شأْنِهِ ، وأَمَّا الآخرُ : فعظَّمَ مِن قدرِهِ ، وكبَّرَ مِن أَمرِهِ ، فٱستحقَّ الجائِزَةَ الضخمَةَ ؛ إِذ ذهبَ بالممدوحِ إِلىٰ أَبعدِ شأْوٍ في المديحِ .

ووقعَ ليْ : أَنِ ٱعترضَ غبيٌّ علىٰ كلامٍ لي ، فنقَضْتُ قولَهُ في رسالَةٍ سمَّيْتُها «تأْديبَ المجتَري وتكذيبَ المفتَري» وٱنعقدَ مجلسٌ لذلكَ ، ولمَّا انقطعَ ، وأَعياهُ الانفصالُ . . قُلتُ في آخرِها : عندَ ذلكَ ٱنكشفَتِ العجاجَةُ ، ولا فخرَ ؛ فالرميَةُ دجاجَةٌ ، وأَعطاني الناظِمُ شاهداً ذكرتُهُ وهوَ [في «العُكبَريِّ» ٣/ ٣٧٣ مِنَ البسيطِ] :

وَشَرُّ مَا قَنَصَتْهُ رَاحَتِيْ قَنَصٌ شُهْبُ ٱلْبُزَاةِ سَوَاءٌ فِيْهِ وَٱلرَّخَمُ

وفيما يتَّصِلُ بما نحنُ فيهِ قولُ مهلهلِ ٱبنِ ربيعَةَ [في «ديوانهِ» ٤٢ مِنَ الوافرِ] :

كَـأَنَّـا غَـدْوَةً وَبَنِـيْ أَبِيْنَـا بِجَنْـبِ عُنَيْـزَةٍ رَحَيَـا مُـدِيْـرِ[2]

= يَضِنُّ بِٱلنَّفْسِ إِذْ جَادَ ٱلْكَرِيْمُ بِهَا وَٱلْجُوْدُ بِٱلنَّفْسِ أَقْصَىٰ غَايَةِ ٱلسَّرَفِ

(١) ٱرتادَ : طلبَ . المأزقُ : المضيقُ . المصرعُ : مكانُ الصرعِ ، الموتُ .
والمعنىٰ : أَنَّ هذا القائِدَ يُقدِمُ حين يعجزُ الشجعانُ ، وكلَّما ٱشتدَّ القتالُ ثبتَ في موقعهِ ليكسبَ حسنَ الثناءِ .

(٢) عنيزةٌ : موضعٌ بعينهِ ، به جرىٰ اليومُ الثالثُ بينَ تغلبَ وبكرٍ . رَحَيَا ـ مثنىٰ =

وقالَ عمرُو بنُ كلثومٍ [في « ديوانه » ٨٦ مِنَ الوافرِ] :

كَـأَنَّ ثِيَـابَنَـا مِنَّـا وَمِنْهُـمْ خُضِبْنَ بِـأُرْجُـوَانٍ أَوْ طُلِينَـا[١]

كَـأَنَّ سُيُـوفَنَـا فِينَـا وَفِيهِـمْ مَخَـارِيـقٌ بِـأَيْـدِي لاَعِبِيْنَـا[٢]

وقالَ عمرُو بنُ العاصِ في صِفِّينَ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ ٱلْتِمَاعَ ٱلْبِيْضِ فِيْنَا وَفِيهِمُ تَبَـوُّجُ بَـرْقٍ فِـيْ تِهَـامَـةَ ثَـاقِـبُ

وقالَ أيضاً فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

أَجِئْتُـمْ إِلَيْنَـا تَسْفِكُـوْنَ دِمَـاءَنَـا وَمَا رُمْتُمُ وَعْرٌ مِنَ ٱلأَمْرِ أَعْسَرُ

لَعَمْرِيْ لِمَا فِيْهِ يَكُوْنُ ٱحْتِجَاجُنَا إِلَىٰ ٱللهِ أَدْهَىٰ لَوْ عَقَلْتُمْ وَأَنْكَرُ

تَعَـاوَرْتُـمُ ضَـرْبـاً بِكُـلِّ مُهَنَّـدٍ إِذَا شَـدَّ وَرْدَانٌ تَقَـدَّمَ قُنْبُـرُ

كَتَـائِبُكُـمْ طَـوْراً تَشُـدُّ وَتَـارَةً كَتَائِبُنَا فِيْهَا ٱلْقَنَا وَٱلسَّنَوَّرُ[٣]

إِذَا مَا ٱلْتَقَوْا يَوْماً تَدَارَكَ بَيْنَهُمْ طِعَانٌ وَمَوْتٌ فِيْ ٱلْمَعَارِكِ أَحْمَرُ

وقالَ العبَّاسُ بنُ مِرداسٍ [في « ديوانه » ٩٢-٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ ٱلْحَيِّ حَيّاً مُصَبَّحاً وَلاَ مِثْلَنَا يَوْمَ ٱلْتَقَيْنَا فَوَارِسَا[٤]

أَكَـرَّ وَأَحْمَـىٰ لِلْحَقِيْقَـةِ مِنْهُـمُ وَأَضْرَبَ مِنَّا بِٱلسُّيُوْفِ ٱلْقَوَانِسَا[٥]

= رحىٰ ـ : وهيَ الأداةُ التي يطحنُ بها ، ذكرهما الشاعر ليدلَّ على توازنِ تغلبَ وبكرٍ في هذا اليوم ، أي : كانا سواءً .

(١) الأرجوانُ : صبغٌ أحمرُ اللونِ .

(٢) المخاريقُ ـ جمعُ مخراقٍ ـ : وهوَ ثوبٌ يُلفُّ ويَضرِبُ بهِ الصبيانُ بعضهم بعضاً .

(٣) السَّنَوَّرُ : بقيةُ السلاحِ ، وقيل : الدروعُ خاصَّةً .

(٤) المصبَّحُ : الذي يؤتىٰ صبحاً للغارةِ .

(٥) أكرَّ : أكثرُ كرّاً . الحقيقةُ : ما يحقُّ على المرءِ أن يحميَهُ . القوانسُ ـ جمعُ =

إِذَا مَـا شَـدَدْنَـا شَـدَّةً نَصَبُـوْا لَنَـا صُدُوْرَ ٱلْمَذَاكِيْ وَٱلرِّمَاحَ المدَاعِسَا[1]

إِذَا ٱلْخَيْلُ جَالَتْ عَنْ صَرِيْعٍ نُكِرُّهَا عَلَيْهِمْ فَمَا يَرْجِعْنَ إِلاَّ كَوَاسِحَا[2]

وقالَ عبدُ الشارقِ بنُ عبدِ العزَّىٰ الجهنيُّ [في « ديوان الحماسة » ١/ ١٦٩ مِنَ الوافرِ] :

أَلاَ حُيِّيْـتِ عَنَّـا يَـا رُدَيْنَـا نُحَيِّيْهَـا وَإِنْ كَـرُمَـتْ عَلَيْنَـا

رُدَيْنَـةُ لَـوْ رَأَيْـتِ غَـدَاةَ جِئْنَـا عَلَىٰ أَحْقَادِنَا وَقَدِ ٱخْتَوَيْنَا[3]

فَـأَرْسَلْنَـا أَبَـا عَمْـرٍو رَبِيْئَـا فَقَالَ : أَلاَ ٱنْعَمُوْا بِٱلْقَوْمِ عَيْنَا[4]

وَدَسُّـوْا فَـارِسـاً مِنْهُـمْ عِشَـاءً فَلَـمْ نَغْـدُرْ بِفَـارِسِهِـمْ لَـدَيْنَـا

فَجَـاؤُوْا عَـارِضـاً بَـرِداً وَجِئْنَـا كَمِثْلِ ٱلسَّيْفِ نَرْكَبُ وَازِعَيْنَا[5]

= قونسٍ ـ : وهو أعلى بيضةِ الرأسِ .

(١) المذاكي ـ جمعُ مذكٍ ـ : وهوَ ما جاوزَ القَروحَ بسنةٍ ، وقد قرحَ الفرسُ إذا دخلَ في السادسةِ . المدعسُ من الرماحِ : الغليظ الشديدُ الذي لا ينثني ، ودعسهُ بالرمحِ طعنهُ .

يقولُ : إذا حملنا عليهم ثبتوا في وجوهنا ونصبوا صدورَ الخيلِ القرحِ والرماحَ المعدَّة لذلكَ .

(٢) يقولُ : إذا الخيلُ دارت عن مصروعٍ منَّا.. كررنا عليهم ؛ لنصرعَ مثلَ ما صرعوا منَّا ، وإن كرهت الخيلُ الكرَّ لشدَّةِ البأسِ فلم ترجع إلا كواسحَ .

(٣) وقدِ ٱختوَينا : أي لَم نطعَم شيئاً ، وكانوا يكرهونَ الطَّعامَ عندَ الحربِ ؛ مخافةَ أَن يُطعَنَ أَحدُهُم في بطنِهِ فَيخرُجَ منهُ الطَّعامُ ، فيكونُ ذلكَ عاراً .

وجوابُ (لو) محذوفٌ ؛ لأنَّ الأبياتَ مقصورةٌ علىٰ بيانِ القصَّةِ ، والتقديرُ : لو رأَيتِ غداةَ جئنا علىٰ أَحقادِنا ، لَم نطعَمْ شيئاً.. لرأَيتِ أَمراً عظيماً .

(٤) الربيئة : العين الذي يطلع على أخبار العدو .

(٥) العارض : السحاب المعترض في الأفق . الوازع : الذي يرتب الجيش ويقدم ويؤَخر ، ومعنى نركب وازعَينا : لا نَنقادُ لمن يريد ضبطنا من الجيشينِ .

تَنَــادَوْا يَــالَبُهْثَــةَ إِذْ رَأَوْنَــا فَقُلْنَا : صَوِّبِي رَمْياً جُهَيْنَا[1]
سَمِعْنَا دَعْوَةً عَنْ ظَهْرِ غَيْبٍ فَجُلْنَـا جَـوْلَـةً ثُـمَّ ٱرْعَـوَيْنَـا
فَلَمَّـا أَنْ تَـوَاقَفْنَـا قَلِيْـلاً أَنَخْنَـا لِلْكَـلاَكِـلِ وَٱرْتَمَيْنَـا
فَلَمَّا لَـمْ نَـدَعْ قَـوْساً وَسَهْماً مَشَيْنَـا نَحْـوَهُـمْ وَمَشَـوْا إِلَيْنَـا
شَـدَدْنَـا شَـدَّةً فَقَتَلْـتُ مِنْهُـمْ ثَـلاَثَــةَ فِتْيَــةٍ وَقَتَلْــتُ قَيْنَــا
وَشَـدُّوْا شَـدَّةً أُخْـرَىٰ فَجَـرُّوْا بِـأَرْجُلِ مِثْلِهِـم وَرَمَـوْا جُـوَيْنَـا
وَكَـانَ أَخِـيْ جُـوَيْـنٌ ذَا حِفَـاظٍ وَكَــانَ ٱلْقَتْــلُ لِلْفِتْيَــانِ زَيْنَــا
فَـآبُـوْا بِـالـرِّمَـاحِ مُكَسَّـرَاتٍ وَ أُبْنَـا بِـالسُّيُـوْفِ قَـدِ ٱنْحَنَيْنَـا
وَبَـاتُـوْا بِـٱلصَّعِيْـدِ لَهُـمُ أُحَـاحٌ وَلَوْ خَفَّتْ لَنَا ٱلْكَلْمَىٰ سَرَيْنَا[2]

وقالَ بعضُ العربِ ينصِفُ خصومَهُ [في « ديوانِ العباسِ بن مرداسٍ » ١١٨ مِنَ الوافرِ] :

وَلَيْسَ ٱلْجُبْنُ عَادَتَهُمْ وَلَـٰكِنْ رَمَيْنَـاهُـمْ بِثَـالِثَـةِ ٱلأَثَـافِـي[3]

وقالَ النابغَةُ الجعديُّ ، أَو زفرُ بنُ الحارثِ [في « ديوانِ النابغةِ » ٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَمَّا قَرَعْنَا ٱلنَّبْعَ بِٱلنَّبْعِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ أَبَتْ عِيْدَانُهُ أَنْ تَكَسَّرَا[4]
سَقَيْنَاهُمُ كَأْساً سَقَوْنَا بِمِثْلِهَا وَلَـٰكِنَّنَا كُنَّا عَلَىٰ ٱلْمَوْتِ أَصْبَرَا

---

(١) تنادوا يالبُهثة : أي دعوا بهثة ، وبُهْثَةُ وجُهينَةُ : بطنٌ مِنَ العربِ .
(٢) الأُحاحُ : العطش والغيظ ، وشدّة الغمِّ .
(٣) الأثافي : الأحجار الثلاثة التي توضع عَليها القدر حتى يَكون تحتها الموقد من حَطب ونحوه .
(٤) النبعُ : شجرٌ أخضرُ العودِ صلبُ الخشبِ ، إذا تقادمَ . . أحمرٌ لونُهُ ، يستخدم في صناعةِ القسيِّ والسهامِ ، والنبعُ كنايةٌ عن كرمِ الأَصلِ وشرفِ النسبِ .

وقالَ معاويةُ لدغفلٍ [في «جمهرة خطب العرب» ٢/٣٦٧] : أَخبِرني عَن قومِك بكرِ بنِ وائلٍ ، قالَ : كانوا أَهلَ عزٍّ قاهرٍ ، وشرَفٍ ظاهرٍ ، قالَ : فأَخبرني عَن إخوانِهم تغلِبَ ، قالَ : كانوا أُسوداً تُرهَبُ ، وسماماً لا تقربُ ، قالَ : فكَم أُديلوا عليكُم؟ قالَ : أَربعينَ سنَةً ، لا ننتصِفُ مِنهم في موطنٍ نلقاهُم فيهِ.. حتَّىٰ كانَ يومَ تحلاقِ اللِّمَمِ ، وقد غضبَ الحارثُ بنُ عُبادٍ لقتلِ ٱبنهِ بِشِسْعِ نَعْلِ كُليبٍ ، فحميَ ، وقالَ [مِنَ الخفيفِ] :

قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ ٱلنَّعَـامَـةِ مِنِّـيْ   لَحِقَـتْ حَـرْبُ وَائِـلٍ جَيَّـالِ
قَـرِّبَـا مَـرْبَـطَ ٱلنَّعَـامَـةِ مِنِّـيْ   إِنَّ بَيْعَ ٱلْكِرَامِ بِٱلشِّسْعِ غَالِيْ
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا عَلِمَ ٱللّـ   ـهُ وَإِنِّيْ بِحَرِّهَا ٱلْيَوْمَ صَالِيْ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في «ديوانهِ» ١/ ٧٥ مِنَ الكاملِ] :

ضَرَبَ ٱلْجِبَالَ بِمِثْلِهَا مِنْ عَزْمِهِ   غَضْبَانَ يَطْعَنُ فِيْ ٱلْحِمَامِ وَيَضْرِبُ

وقالَ [في «ديوانهِ» ١/ ٢٢١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَمْ أَرَ كَٱلْمَلْعُوْنِ أَثْرَىٰ ذَخِيْرَةً   وَأَبْقَىٰ دَماً وَٱلْحَادِثَاتُ تُجَانِبُهْ
إِذَا قُلْتُ : بِيْضُ ٱلْمَشْرِفِيَّةِ أَهْمَدَتْ   حُشَاشَتَهُ.. كَرَّتْ تَثُوْبُ ثَوَائِبُهْ[1]
يَبُـثُّ ٱلْمَنَـايَـا وَٱلْمَنَـايَـا يَحُـزْنَـهُ   وَيَكْمُنُ مِنْهُ ٱلْحَتْفُ وَٱلْحَتْفُ كَارِبُهْ
إِذَا ٱزْدَادَ شَغْبـاً كَـانَ وَالِـيْ قِـرَاعِـهِ   مَلِيّاً لَهُ بِٱلْفَضْلِ حِيْنَ يُشَاغِبُهْ[2]

---

(١) أهمدت : سكنت . البيضُ : السيوفُ . المشرفيّةُ : السيوفُ المنسوبةُ إلى قرى من أَرضِ العربِ تدنو منَ الريفِ ٱسمها مشارفُ الشامِ . تثوبُ : تعودُ . الثوائبُ : الريحُ الشديدةُ التي تكونُ في أوّلِ المطرِ .
(٢) الشغبُ : كثرةُ الجلبةِ المؤديةُ إلى الشرِّ . القِراعُ : التطاحنُ .

كَمَا ٱللَّيْلُ إِنْ تَزْدَدْ لِعَيْنَيْكَ ظُلْمَةً حَنَادِسُهُ تَزْدَادُ ضَوْءاً كَوَاكِبُهْ[1]

وقالَ مِن قصيدتِهِ التي يصفُ بِها ملاقاةَ الفتحِ بنِ خاقانَ للأَسدِ [في «ديوانِهِ» ١/ ٢٠١ مِنَ الطَّويلِ] :

هِزَبْرٌ مَشَىٰ يَبْغِي هِزَبْراً وَأَغْلَبٌ مِنَ ٱلْقَوْمِ يَغْشَىٰ بَاسِلَ ٱلْوَجْهِ أَغْلَبَا[2]

أَدَلَّ بِشَغْبٍ ثُمَّ هَالَتْهُ صَوْلَةٌ رَآكَ لَهَا أَمْضَىٰ جَنَاناً وَأَشْغَبَا[3]

فَأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فِيْكَ مَطْمَعاً وَأَقْدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا

فَلَمْ يُغْنِهِ أَنْ كَرَّ نَحْوَكَ مُقْبِلاً وَلَمْ يُنْجِهِ أَنْ حَادَ عَنْكَ مُنَكِّبَا

حَمَلْتَ عَلَيْهِ ٱلسَّيْفَ لاَ عَزْمُكَ ٱنْثَنَىٰ وَلاَ يَـدُكَ ٱرْتَـدَّتْ وَلاَ حَـدُّهُ نَبَـا

والأَخيرُ مِن عيونِ الشعرِ ، وفرائِدِهِ ، ومختارِهِ ، وخالصِهِ ، وإِن قالَ المرتضىٰ في «أَماليهِ» : إِنَّهُ مِن شعرٍ لبعضِ الجاهليينَ ، ذكرهُ ونسيتُهُ .

وقالَ الناظِمُ [في «العُكبَرِيّ» ١/ ١٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا عَدِمَ ٱللاَّقُوْكَ بَأْساً وَشِدَّةً وَلَـٰكِنَّ مَنْ لاَقَوْا أَشَدُّ وَأَنْجَبُ

وقالَ [في «العُكبَرِيّ» ١/ ٨٣ـ٨٤ مِنَ الوافرِ] :

وَلَـوْ غَيْـرُ ٱلأَمِيْـرِ غَـزَا كِـلاَبـاً ثَنَاهُ مِنْ شُمُوْسِهِمُ ضَبَابُ[4]

---

(١) الحنادسُ : الظلماتُ ، وتطلقُ أَيضاً على ثلاثِ ليالٍ مظلمةٍ من آخرِ كلِّ شهرٍ .

(٢) الهزبرُ : من أسماءِ الأسدِ . الأغلبُ : الأسدُ الغليظُ الرقبةِ وهوَ من صفاتِ المدحِ .

(٣) أَدلَّ : اجترأَ .

(٤) الضبابُ ـ جمعُ ضبابةٍ ـ : وهيَ سحابةٌ تغشىٰ الأَرضَ كالدخانِ ، يقالُ منهُ : أَضبَّ نهارُنا .

وَلاَقَىٰ دُوْنَ ثَايِهِمُ طِعَاناً ... يُلاَقِيْ عِنْدَهُ ٱلذِّئْبَ ٱلْغُرَابُ[1]

وَخَيْلاً تَغْتَذِيْ رِيْحَ ٱلْمَوَامِيْ ... وَيَكْفِيْهَا عَنِ ٱلْمَاءِ ٱلسَّرَابُ[2]

وَلٰكِنْ رَبُّهُمْ أَسْرَىٰ إِلَيْهِمْ ... فَمَا نَفَعَ ٱلْوُقُوْفُ وَلاَ ٱلذَّهَابُ[3]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٩ مِنَ الخفيفِ] :

وَهُمُ ٱلْبَحْرُ ذُوْ ٱلْغَوَارِبِ إِلاَّ ... أَنَّهُ صَارَ عِنْدَ بَحْرِكَ آلاَ[4]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٦٢ مِنَ الوافرِ] :

لَقُوْكَ بِأَكْبُدِ ٱلإِبِلِ ٱلأَبَايَا ... فَسُقْتَهُمُ وَحَدُّ ٱلسَّيْفِ حَادِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

وَمَا ٱنْقَادَتْ لِغَيْرِكَ فِيْ زَمَانٍ ... فَتَعْرِفَ مَا ٱلْمَقَادَةُ وَٱلصَّغَارُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٣٥ مِنَ الخفيفِ] :

حَالُ أَعْدَائِنَا عَظِيْمٌ وَسَيْفُ ٱلدَّ ... وْلَةِ ٱبْنُ ٱلسُّيُوْفِ أَعْظَمُ حَالاَ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٧ مِنَ الوافرِ] :

يَحِيْدُ ٱلرُّمْحُ عَنْكَ وَفِيْهِ قَصْدٌ ... وَيَقْصُرُ أَنْ يَنَالَ وَفِيْهِ طُوْلُ[5]

---

(١) الثاي - جمعُ ثايةٍ - : وهيَ الحجارةُ التي تجعلُ حولَ البيتِ ، يأوي إليها الراعي ليلاً ، وهيَ مباركُ الإبلِ ومرابضُ الغنمِ .

(٢) الموامي - جمعُ موماةٍ - : وهيَ المفازةُ .

(٣) ربُّهم : هوَ اللهُ تعالىٰ ، ولا يُقالُ لغيرِهِ إلاَّ بالإضافةِ . أَسرَىٰ : سارَ ليلاً .

والمعنىٰ : لَم تنفعْهُمُ الحربُ ؛ لأنَّهم أُدرِكوا ، ولا الوقوفُ لو وقفوا في ديارِهِم للدِّفاعِ والمحاماةِ ؛ لأنَّهم لَو وقفوا قُتِلوا .

(٤) الغواربُ : أعالي الموجِ . الآلُ : السرابُ .

(٥) يحيدُ : يرجعُ . القصدُ : الاستقامةُ ، يريدُ : أَنَّ الرمحَ مستقيمٌ غيرُ معوجٍّ .

ولمَّا انقرضَت دولَة بني رزيكٍ علىٰ يدِ أَبي شجاعٍ شاورِ بنِ مجيرٍ. . جلسَ ذاتَ يومٍ وحولَهُ جماعَةٌ مِن صنائِع بني رُزَّيكٍ، فوقعوا فيهِم ؛ تملُّقاً لأَبي شجاعٍ ، ومقاربَةً لَهُ ، فقالَ عمارَةُ اليمنيُّ [مِنَ البسيطِ] :

زَالَتْ لَيَالِيْ بَنِيْ رُزَّيْكٍ وَانْصَرَمَتْ ... وَالْمَدْحُ وَالذَّمُّ فِيْهَا غَيْرُ مُنْصَرِمِ
كُنَّا نَظُنُّ وَبَعْضُ الظَّنِّ مَأْثَمَةٌ ... بِأَنَّ ذَلِكَ جَمْعٌ غَيْرُ مُنْهَزِمِ
وَلَمْ يَكُوْنُوْا عَدُواً ذَلَّ جَانِبُهُ ... لَكِنَّهُمْ غَرِقُوْا فِي سَيْلِكَ الْهَمِمِ
وَمَا قَصَدْتُ بِتَعْظِيْمِيْ عِدَاكَ سِوَىٰ ... تَعْظِيْمَ شَأْنِكَ فَاعْذُرْنِيَ وَلاَ تَلُمِ
وَلَوْ شَكَرْتُ لَيَالِيْهِمْ مُحَافَظَةً ... لِعَهْدِهَا لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ مِنْ قِدَمِ
وَلَوْ فَتَحْتُ فَمِيْ يَوْماً بِذَمِّهِمُ ... لَمْ يَرْضَ فَضْلُكَ إِلاَّ أَنْ يَسُدَّ فَمِيْ

فشكرَهُ شاورٌ وأَولادُهُ علىٰ الوفاءِ ، وحفظِ العهدِ[1] .

وقد سبقَ نظائِرُهُ في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٣٩ مِنَ الكاملِ] :

يَا ذَا الَّذِيْ يَهَبُ الْجَزِيْلَ وَعِنْدَهُ ... أَنِّيْ عَلَيْهِ بِأَخْذِهِ أَتَصَدَّقُ

دعوى براءة الحبيب من العيب. . لا تليق إلا. .

أَمَّا دعواهُ لممدوحِهِ براءَةَ الجيبِ مِنَ العيبِ. . فأَولىٰ الناسِ بذلكَ سيِّدُ الوجودِ ، وأَفضلُ مولودٍ ، فقد أَخذَ ابنُ الفارضِ في خلوتِهِ يردِّدُ قولَ الحريريِّ [في « وفيات الأعيان » ٣/ ٢٥٥ مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مَنْ ذَا الَّذِيْ مَا سَاءَ قَطّ ... وَمَنْ لَهُ الْحُسْنَىٰ فَقَطْ

حتَّىٰ سَمعَ هاتفاً يقولُ [مِنْ مجزوءِ الرَّجَزِ] :

مُحَمَّدُ الْهَادِيْ الَّذِيْ ... عَلَيْهِ جِبْرِيْلُ هَبَطْ

---

(١) «وفيات الأعيان» (٢/ ٤٤٢) .

الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين

وللعلماءِ في عصمَةِ الأَنبياءِ كلامٌ ، حاصِلُهُ الذي ذهبَ إليهِ الأَشعريُّ : عصمتُهم مِنَ ٱلْكبائِرِ وصغائِرِ الخسَّةِ فقطْ .

وقالَتِ ٱلرافضَةُ ، وطائِفَةٌ مِن متأَخِّري الشافعيَّةِ : بعصمَتِهم مِن الكبائِرِ والصغائِرِ مطلقاً ، قبلَ النبوَّةِ وبعدَها ، وتلزمُ عليهِ إِشكالاتٌ طويلَةٌ ، يلزَمُ لَها تأويلُ طائفةٍ مِنَ ٱلقرآنِ .

لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب

وما أَحسنَ قولَ النابِغَةِ [الذبياني في « ديوانِهِ » ٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَسْـتَ بِمُسْتَبْـقٍ أَخـاً لاَ تَلُمُّـهُ   عَلَىٰ شَعَثٍ ، أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ ؟

وقالَ بشَّارٌ [البيت غير منسوب في « قرى الضيف » ١/ ١٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ ذَا ٱلَّذِيْ تُرْضَىٰ سَجَايَاهُ كُلُّها   كَفَـىٰ ٱلْمَـرْءَ نُبْلاً أَنْ تُعَـدَّ مَعَـائِبُهْ

وصدقَ فإِنَّما العبرَةُ بالأَكثرِ الغالبِ مِن أَحوالِ الإِنسانِ ، فمَن غلَبَ عليهِ الخيرُ والفضلُ . . عُدَّ مِن الأَخيارِ الفضلاءِ ، وتُنُوسِيَتْ مساويهِ في جَنْبِ محاسنِهِ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .

وقد ذكَرنا في كتابِنا « بلابلُ التغريدِ » : حديثَ معاويَةَ معَ ٱبنِ جعفرٍ ، وزبدتهُ : أَنَّ إِحدىٰ أَزواجِهِ أَنبهتْهُ ليسمَعَ ما عندَ ٱبنِ جعفرٍ مِنَ ٱلأَغاني ؛ لتحُطَّ مِن قدرِهِ عندَهُ بذلكَ ، فلَمَّا كانَ مِن آخرِ الليلِ . . أَنبهَها ؛ لتسمَعَ ما كانَ مِن تهجُّدِ ٱبنِ جعفرٍ وتلاوتِهِ ، وقالَ : هـٰذا مكانَ ما أَسمَعْتيني .

وللهِ قولُ بعضِهِم [البيت في « نفح الطيب » ٦/ ٢٥ غير منسوب لقائل مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱلْحَبِيْبُ أَتَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ   جَاءَتْ مَحَاسِنُهُ بِأَلْفِ شَفِيْعِ

وقولُ الناظِمِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٢٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ يَكُنِ ٱلْفِعْلُ ٱلَّذِيْ سَاءَ وَاحِداً   فَأَفْعَالُهُ ٱللاَّتِيْ سَرَرْنَ أُلُوْفُ

وكثيراً ما تمثَّلنا بهـٰذينِ البيتينِ ، ولا ملامَةَ ؛ فالمناسباتُ كثيرةٌ .

وأَمَّا مَن غلبَت سيِّئاتُهُ ، وكثُرَتْ سقطاتُهُ ، ورجحَت تبعاتُهُ . . فَلا شكَّ أَنَّهُ مِن الساقطينَ ، وللهِ درُّ القائِلِ [مِنَ الكامل] :

وَلَئِـنْ تَسُـرُّكَ مِـنْ تَمِيْـمٍ خَلَّـةٌ   فَلَمَـا يَسُـوْؤُكَ مِـنْ تَمِيْـمٍ أَكْثَـرُ

وما يقرِّرُهُ الفقهاءُ في بابِ الشهادَةِ مِن حدِّ العدالَةِ لا يخرجُ عمَّا ذكرناهُ ، وقد قالَ ﷺ : « وأَمَّا أَبُوْ جَهْمٍ : فَلاَ يَضَعُ عَصَاهُ عَنْ عَاتِقِهِ »(١) اعتباراً بالأكثرِ مِن غلبَةِ الأَسفارِ عليهِ ، وإلاَّ . . فهوَ يضعُها في كثيرٍ مِن أَحوالِهِ .

وتجدُ كثيراً مِمَّن يكتُبُ في التراجِمِ يجاوزُ الحدودَ ، ويتقوَّلُ علىٰ اللهِ ، ومثلُ أُولئِكَ لا يكونُ ما يكتبونَ إلاَّ حجَّةً علىٰ سقوطِهِم ، واطِّراحِهِم ، واندفاعِ سائِرِ مرويَّاتِهِم عَنِ ٱلقَبولِ ، ومِن هُنا أَخطأَ كثيرٌ في تقديسِ السلَفِ الصالحِ ، والذهابِ بِهِم إلىٰ عصمَةِ الملائِكَةِ ، أَو إلىٰ ما يقربُ مِنها ، ونشأَ عَن ذلكَ فسادٌ كبيرٌ في الدينِ ، يزولُ إن شاءَ اللهُ بِما أَشبعنا القولَ في تحقيقِهِ مِن « بَلابلِ التغريدِ » .

* * *

---

(١) أخرجه عن فاطمة بنت قيس مسلم (١٤٨٠) في (الطلاق) ، وأحمد (٦/ ٤١٢) ، وأبو داوود (٢٢٨٥) وما بعده ، والترمذي (١١٨٠) ، والنسائي (٦/ ٧٤) في الطلاق .

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا عَرَضَتْ حَاجٌ إِلَيْهِ فَنَفْسُهُ	إِلَىٰ نَفْسِهِ فِيْهَا شَفِيْعٌ مُشَفَّعُ

الجود ليس وراثة عن الجـدود.. ولكنه حساسية في الجلود

معناهُ ظاهِرٌ ، وهوَ ممَّا تداولَهُ الشعراءُ طارفاً وتليداً ، قالَ الحطيئةُ [في « ديوانهِ » ٣١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَذَاكَ ٱمْرُؤٌ إِنْ تَأْتِهِ فِيْ نَفِيْسَةٍ ... إِلَـىٰ مَـالِـهِ لاَ تَـأْتِـهِ بِشَفِيْـعِ

وقالَ الفرزدقُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ نَفْسَانِ: نَفْسٌ كَرِيْمَةٌ ... وَأُخْرَىٰ يُعَاصِيْهَا ٱلْفَتَىٰ وَيُطِيْعُهَا

وَنَفْسُكَ مِنْ نَفْسَيْكَ تَشْفَعُ لِلنَّدَىٰ ... إِذَا قَلَّ مِنْ أَحْرَارِهِنَّ شَفِيْعُهَا

وقالَ أَبو العتاهيَةِ [مِنَ الطَّويلِ] :

أَيَا جُوْدَ مُوْسَىٰ نَادِ مُوْسَىٰ لِحَاجَتِيْ ... فَلَيْسَ إِلَىٰ مُوْسَىٰ سِوَاهُ شَفِيْعُ[1]

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/١٤٦٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَبَا ٱلصَّقْرِ مَنْ يَشْفَعْ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ ... فَمَا لِيْ سِوَىٰ شِعْرِيْ وَجُوْدِكَ شَافِعُ

وقالَ الخزيميُّ [في « ديوانهِ » ٢١ مِنَ الكاملِ] :

شَفَعَـتْ مَكَـارِمُهُـمْ لَهُـمْ فَكَفَتْهُـمُ ... جُهْدَ ٱلسُّؤَالِ وَلُطْفَ قَوْلِ ٱلْمَادِحِ

---

(١) البيت غير منسوب في « المستطرف » (١/ ٣٥١) ، وهو على الشكلِ التالي :

أَيَـا جُـوْدَ مَعْـنٍ نَـادِ مَعْنـاً لِحَـاجَتِيْ ... فَلَيْـسَ إِلَـىٰ مَعْـنٍ سِـوَاكَ شَفِيْـعُ

وقالَ أَبو العبَّاسِ المبرِّدُ [في «المستطرف» ١/ ٢٨١] : أَتاني رجلٌ يستشفِعُ بي في حاجَةٍ ، وأَنشدني لنفسِهِ [مِنَ البسيطِ] :

إِنِّيْ قَصَدْتُكَ لاَ أُدْلِيْ بِمَعْرِفَةٍ وَلاَ بِقُرْبِيْ وَلَكِنْ قَدْ فَشَتْ نِعَمُكْ
فَبِتُّ حَيْرَانَ مَكْرُوْباً يُؤَرِّقُنِيْ ذُلُّ الْغَرِيْبِ وَيُغْشِيْنِيْ الْكَرَىٰ كَرَمُكْ
وَلَوْ هَمَمْتَ بِغَيْرِ الْعُرْفِ مَا عَلِقَتْ بِهِ يَدَاكَ وَلاَ انْقَادَتْ لَهُ شِيَمُكْ
مَا زِلْتُ أَنْكَبُ حَتَّىٰ زُلْزِلَتْ قَدَمِيْ فَاحْتَلْ لِتَثْبِيْتِهَا لاَ زُلْزِلَتْ قَدَمُكْ

قالَ : فشفعْتُ لَهُ ، وقمتُ بأَمرِهِ ، حتَّىٰ بلغْتُ لهُ ما أَحبَّ .

وقالَ أَيضاً : قلتُ لعبدِ اللهِ بنِ يحيىٰ بنِ خاقانَ : أَنا أَشفَعُ إِليكَ ـ أَصلَحَكَ اللهُ ـ في أَمرِ فلانٍ ، فقالَ لي : قد سمعْتُ ، وأَطعْتُ ، وسأُعطيه كَذا ، فما كانَ مِن نقصٍ . . فعلَيَّ ، وما كانَ مِن زيادَةٍ . . فلَهُ ، فقلْتُ لَهُ : أَنتَ ـ أَطالَ اللهُ بقاءَكَ ـ كَما قالَ زهيرٌ [في «ديوانِهِ» ١٤٠ مِنَ الوافرِ] :

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً عَلَيْنَا أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
ضَمِنَّا مَالَهُ فَغَدَا سَلِيْماً عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ النَّمَاءُ

الشفاعة في الحب

وقالَ المجنونُ [في «ديوانِهِ» ١٩٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَضَىٰ زَمَنٌ وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُوْنَ بِيْ فَهَلْ لِيْ إِلَىٰ لَيْلَىٰ الْغَدَاةَ شَفِيْعُ ؟

وفي البيتِ رائحَةُ تديُّثٍ وقيادَةٍ ، لَولا ما يمهِّدُ لَهُ بهِ العذرُ مِن أَنَّهُ لا يرادُ ظاهرُهُ .

وقالَ الصوليُّ [بل المجنون في «ديوانه» ١٩٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنُبِّئْتُ لَيْلَىٰ أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ إِلَيَّ فَهَلاَّ نَفْسُ لَيْلَىٰ شَفِيْعُهَا

أَأَكْرَمُ مِنْ لَيْلَىٰ عَلَيَّ فَتَبْتَغِيْ ... بِهِ ٱلْجَاهَ أَمْ كُنْتُ ٱمْرَأً لاَ أُطِيْعُهَا

الشفاعة عند الناس من الجود

وقالَ بعضُهُم [وهو أبو بكر ابن هارون المهلبي في « خِزانة الأدب » ٢/ ٣٧٦] :
كنَّا في حلقَةِ دعبلٍ الخزاعيِّ ، فذُكرَ أَبو تمَّامٍ ، فقالَ دعبلٌ : إِنَّهُ يتتبَّعُ معانِيَّ فيأخذُها ، فقالَ لهُ رجلٌ : هاتِ صورةَ ذلكَ ، قالَ : قلْتُ [في « ديوانهِ » ١٩٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنَّ ٱمْـرَأً أَسْـدَىٰ إِلَـيَّ بِشَـافِـعٍ ... إِلَيْهِ ، وَيَرْجُوْ ٱلشُّكْرَ مِنِّيْ لأَحْمَقُ

فأَخذَهُ وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٩ مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ صَنِيْعَةً ... مِـنْ جَـاهِـهِ فَكَـأَنَّهَـا مِـنْ مَـالِـهِ

فقالَ الرجلُ : لَقَد أَحسنَ أَبو تمَّامٍ ، فَإِن كانَ سبقَكَ . . فقد قصَّرتَ ، وإِن كنتَ سبقتَهُ . . فقد أَحسنَ الاتِّباعَ ، وصارَ أَحقَّ بالمعنىٰ مِنكَ ، فغضبَ دعبلٌ وقامَ .

ثمَّ إِنَّ ما قالَه أَبو تمَّامٍ عينُ الصوابِ ؛ لأَنَّهُ أَردَمَ بشكرِ الشافعِ ، ولم يبخَسِ ٱلمعطي حقَّهُ مِن الصنيعِ ، بخلافِ دعبلٍ ؛ فإِنَّهُ ٱهتَضَمَ حقَّ المشفوعِ إِليهِ جملَةً ، كما في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١٩٣ مِنَ الطَّويل] :

شَفِيْعَكَ فَٱشْكُرْ فِيْ ٱلْحَوَائِجِ إِنَّهُ ... يَصُوْنُكَ عَنْ مَكْرُوْهِهَا وَهُوَ يَخْلَقُ

بشهـادَةِ فعليَّـةِ الخبـرِ ، وتقـديـمِ المسنَـدِ إِليـهِ ، ومثـلُ ذلـكَ لا يجوزُ .

وهـٰذا رسولُ اللهِ ﷺ يقولُ : « ٱرْفَعُوا إِلَيَّ حَوَائِجَ ٱلنَّاسِ ، وَٱشْفَعُوا . . تُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِيْ ٱللهُ عَلىٰ لِسَانِ نَبِيِّهِ مَا شَاءَ »[1] .

---

(١) أخرجه عن أبي موسى رضي الله عنه أحمد (٤/ ٤١٣) ، والبخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧) ، وأبـو داوود (٥١٣١) ، والتـرمـذي =

وقد وقعَ البُحتريُّ في قريبٍ ممَّا وقعَ فيهِ دعبلٌ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/٣٨ مِنَ الكاملِ] :

وَعَطَــاءُ غَيْــرِكَ إنْ بَــذَلْـ ـــتَ عِنَـايَـةً فِيْـهِ عَطَـاؤُكْ

غيرَ أنَّهُ لَم يصرِّحْ بٱهتضام المشفوعِ إليهِ ، وإنَّما قد يؤخَذُ مِن فحوىٰ كلامِهِ ، معَ ٱحتمالِهِ لغيرِ ذلكَ ، فهوَ مثلُ قولِ الآخرِ [مِنَ الكاملِ] :

وَإِذَا ٱمْرُؤٌ أَسْدَىٰ إِلَيْكَ بِشَافِعٍ خَيْراً فَذَاكَ ٱلْخَيْرُ خَيْرُ ٱلشَّافِعِ

وقالَ عليُّ بنُ قريشٍ الجرجانيُّ [في « صبح الأعشى » ٩/١٧٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْطِفْكَ إلاَّ شَفَاعَةٌ فَلا خَيْرَ فِيْ وِدٍّ يَكُوْنُ بِشَافِعِ

وما أَحسنَ في دفعِ المذمَّةِ عمَّن أَعطىٰ بالشفاعةِ من قولِ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٥/٢٠٦٨ مِنَ الخفيفِ] :

لَنْ يَعِيْبَ ٱلسَّحَابَ أَنْ تَتَوَلَّىٰ مِنْهُ أَيْدِيْ ٱلرِّيَاحِ حَلَّ ٱلْعَزَالِيْ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانه » ٢/١٠٠٧] :

وَلِـيْ حَـاجَـةٌ لَـمْ آلُ فِيْهَـا وَسِيْلَـةً إِلَىٰ ٱلْقَمَرِ ٱلْوَضَّاحِ وَٱلسَّيِّدِ ٱلْغَمْرِ[1]
شَفَعْـتُ إِلَيْـهِ بِـالإِمَـامِ وَإِنَّمَـا تَشَفَّعْتُ بِٱلشَّمْسِ ٱنْتِصَاراً إِلَىٰ ٱلْبَدْرِ
فَلَـمْ أَرَ مَشْفُـوْعـاً إِلَيْـهِ وَشَـافِعـاً يُدَانِيْهِمَا فِيْ مُنْتَهَىٰ ٱلْجُوْدِ وَٱلْفَخْرِ
فَعَالُ كَرِيْمِ ٱلْفِعْلِ مُطَّلَبِ ٱلْجَدَا وَقَوْلُ مُطَاعِ ٱلْقَوْلِ مُتَّبَعُ ٱلأَمْرِ

= (٢٦٧٤) ، والنسائي (٥/٧٨) .

(١) الغمرُ : الكريمُ الواسعُ الخُلُقِ . لم آلُ : لم أُقصِّرْ ولم أُبطِىءْ .

إذا تعذرت الأمور من أعاليها.. أتيناها من أسافلها

وكانَ لعبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ حاجَةٌ إِلىٰ معاويَةَ لَواهُ فيها ، فاستعانَ عليهِ ببعضِ نسائِهِ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، فعُيِّرَ ٱبنُ الزبيرِ بذلكَ ، فقالَ : إِذا تعذَّرَتِ ٱلأُمورُ مِن أَعاليها.. طَلَبْناها مِن أَسافِلِها ، فأَخذَهُ البُحتريُّ وقالَ [في « ديوانه » ٣/ ١٩٠٠ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا أَعَالِي ٱلأَمْرِ لَمْ تُعْطِكَ ٱلْمُنَىٰ   فَلا بَأْسَ فِيْ ٱسْتِنْجَاحِهَا بِٱلأَسَافِلِ

ما يصلح الرجل بالنهار.. تفسده المرأة بالليل

وٱتَّفقَ لابنِ الزبيرِ بعدَ ذلكَ مثلُهُ[1] ، فقدِ ٱختصَمَ إِليهِ الفرزدَقُ وعِرْسُهُ النَّوارُ ، ونزلَ الفرزدَقُ علىٰ ٱبنِهِ حمزةَ ، ونزلَتِ ٱلنوارُ علىٰ زوجِهِ ، فكانَ ما يصلِحُ حمزَةُ مِن أَمرِ الفرزدَقِ نهاراً ، تفسدُهُ المرأَةُ

---

(١) كانتْ زوجةُ الفرزدَقِ ٱبنةَ عَمِّهِ وهيَ النَّوار ، وكانَ قد خطبَها رجلٌ مِن قريشٍ ، فبعثَتْ إِلىٰ الفرزدَقِ تسأَلُهُ أَن يكونَ وليَّها ؛ إِذ كانَ ٱبنَ عَمِّها ، فقالَ : إِنَّ بـ(الشَّامِ) مَن هوَ أَقربُ مِنِّي إِليكِ ، وما أَنا آمَنُ أَن يقدِمَ قادمٌ مِنهمُ فينكرَ ذلكَ عليَّ ، فأَشهدي أَنَّكِ قد جعلْتِ أَمرَكِ إِليَّ... ففعَلَتْ ، فخرجَ الشهودُ ، وقالَ لهُم : قد أَشهدَتْكُم أَنَّها جعلَتْ أَمرَها لي ، وأَنا أُشهِدُكُمْ أَنِّي قد تزوَّجْتُها علىٰ مِئَةِ ناقةٍ حمراءَ سودِ الحِدَقِ ، فغضبَتْ مِن ذلكَ ، وٱستعدَتْ عليهِ ، وخرجَتْ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبَيرِ ـ وأَمرُ (الحجازِ) و(العراقِ) يومئِذٍ إِليهِ ـ وخرجَ الفرزدقُ أَيضاً .

فأَمَّا النَّوارُ : فنزلَتْ علىٰ خولةَ بنتِ منظورِ بنِ زبانَ الفزاريِّ ، ٱمرأَةِ عبدِ اللهِ بن الزُّبيرِ ، فرقَّقَتْها ، وسأَلَتْها الشفاعةَ لها .

وأَمَّا الفرزدَقُ : فنزلَ علىٰ حمزةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ ـ وهوَ ٱبنُ خولةَ المذكورَةِ ـ ومدَحَهُ فوعدَهُ الشفاعَةَ .

فتكلَّمَتْ خولةُ في النَّوارِ ، وتكلَّمَ حمزةُ في الفرزدَقِ ، فأَنجحَتْ خولةُ ، وأَمَرَ عبدُ اللهِ بنُ الزُّبيرِ أَن لا يقربَها حتَّىٰ يصيرا إِلىٰ (البصرةِ) فيحتكما إِلىٰ عاملِهِ عليها ، فخرجا ، وقالَ الفرزدقُ في ذلكَ :

أَمَّـا بَنُـوْهُ فَلَـمْ تُقْبَـلْ شَفَـاعَتُهُـمْ   . . . .

الأبيات . =

ليلاً ، حتَّىٰ أيقنَ الفرزدَقُ بالفشَلِ ، فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

أَمَّا بَنُوْهُ فَلَمْ تُقْبَلْ شَفَاعَتُهُمْ وَشُفِّعَتْ بِنْتُ مَنْظُوْرِ بنِ زَبَّانَا
لَيْسَ ٱلشَّفِيْعُ ٱلَّذِيْ يَأْتِيْكَ مُتَّزِراً مِثْلَ ٱلشَّفِيْعِ ٱلَّذِيْ يَأْتِيْكَ عُرْيَانَا

ولا حاجةَ لاستيفاءِ القصَّةِ ؛ لأنَّها طويلةٌ ، ولَها أذنابٌ .

وقالَ صائِنُ الدينِ الموصليُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/٢٧٩ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا ٱحْتَاجَ ٱلنَّوَالُ إِلَىٰ شَفِيْعٍ فَلاَ تَقْبَلْهُ تُضْحِ قَرِيْرَ عَيْنِ
إِذَا عِيْفَ ٱلسُّؤَالُ لِفَرْدِ مَنٍّ فَأَوْلَىٰ أَنْ يُعَافَ لِمِنَّتَيْنِ

كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك

ومِن أبدعِ ما رأيتُ في الشفاعاتِ : ما كتبهُ عروةُ بنُ الزبيرِ إلىٰ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ معَ كعبٍ العبسيِّ ، يسكِّنُهُ مِن غضبةٍ غضبَها عليهِ في جُرْمٍ كانَ مِنهُ .

ونصُّهُ : لَو لَم يكُن لِكعبٍ مِن قديمِ حرمتِهِ ما يغفِرُ لَهُ عظيمَ جريرَتِهِ . . لوجبَ أَن لا تحرِمَهُ التفيُّؤَ بظلِّ عفوِكَ ، الذي تأْمَلُهُ القلوبُ ، ولا تعلَقُ بهِ الذنوبُ ، وقدِ ٱستشفَعَ بي إليكَ ، فوثِقْتُ لَهُ منكَ بعفوٍ لا يخلُطُهُ سخَطٌ ، فحقِّقْ أَملَهُ فِيَّ ، وصدِّقْ ثِقَتي بكَ ، مغتنماً لِلشُّكرِ ، مبتدئاً بالنعمَةِ .

فكتبَ إليهِ الوليدُ : قد شكرتُ رغبتَهُ إليكَ وعفوتُ عنهُ ؛ لمعوَّلِهِ

= ثُمَّ إِنَّ الفرزدَقَ ٱتَّفقَ معها ، وبقيَ زماناً لا يولد لَه وَلَدٌ ، ثُمَّ وُلِدَ لهُ بعدَ ذلكَ عدَّةُ أولادٍ ، وهم : لَبطَةُ ، وسَبطَةُ ، وحَبطَةُ ، ورَكضَةُ ، وزَمعَةُ ، وكُلُّهم مِنَ النَّوارِ ، وليسَ لواحدٍ مِن أولادِهِ عَقِبٌ إلاَّ مِنَ النِّساءِ .

انظر : « وفيات الأعيان » (٦/٩٩) .

عليكَ ، ولهُ عِندي الذي تحبُّ ، إن لم تقطَعْ كتبَكَ عَنِّي في أَمثالِهِ وفي سائِرِ أُمورِكَ .

المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته

وذكرتُ بِها [ما روى الأبشيهي في « المستطرف » ١/ ٢٨٠] : أَنَّ المنصورَ كانَ معجباً بمحادَثَةِ محمَّدِ بنِ جعفرِ بنِ عبيدِ اللهِ بنِ العبَّاسِ ، وكانَ الناسُ يفزعونَ إليهِ في الشفاعاتِ ، حتَّىٰ أثقلَ علىٰ المنصورِ ، فحبَسهُ مدَّةً ، ثمَّ ٱشتاقَ إليهِ ، وقالَ للربيع : إنَّهُ لا صبرَ لي عنهُ ، ولٰكنِّي ٱستثقلْتُ شفاعاتِهِ ، فشرطَ عليهِ الربيعُ أن لا يعودَ إليها ، فمكثَ أيَّاماً لا يشفَعُ لأَحدٍ ، ثمَّ وقفَ لهُ قومٌ مِن قريشٍ وغيرِهم برقاعٍ مدخَلهُ عندَ المنصورِ ، فسألوهُ أن يأخذَها مِنهم ، فقصَّ عليهِم خبرَهُ فضَرِعوا إليهِ ، فقالَ : أَمَّا إذا أَبيتُم قَبولَ العذرِ . . فإنِّي لا أَقبَضُها عنكُم ، ولٰكِنِ ٱجعَلُوها في كمِّي ، فقذَفُوها في كمِّهِ ، ودخلَ علىٰ المنصورِ ، وهوَ في الخضراءِ المشرِفَةِ علىٰ (مدينَةِ السلامِ) وما حولَها مِنَ ٱلضياعِ ، فقالَ لهُ : أما ترىٰ إلىٰ حسنِها؟! قالَ : بلىٰ يا أَميرَ المؤمنينَ ، فبارَكَ اللهُ فيما آتاكَ ، وهنَّأَكَ بإتمامِ نعمتِهِ عليكَ فيما أَعطاكَ ، فلَم تبنِ العربُ فِي الإسلامِ ، ولا العجَمُ في سالِفِ الأَيَّامِ ، مثلَ مدينَتِكَ هـٰذِهِ ، إلاَّ أَنَّهُ يُسمِّجُها في نظري أَن لا ضيعَةَ لي فيها ، فضحِكَ ، وقالَ : نَزيدُها حسناً في عينَيكَ بثلاثِ ضياعٍ ، قد أَقطَعْتُكَهَا ، فدعا لهُ ، وبَينا هوَ يكلِّمُهُ . . بدرَتِ ٱلرِّقاعُ من كُمِّهِ ، وانتثرَت علىٰ الأَرضِ ، فقالَ لهُ المنصورُ : ما هـٰذِهِ؟ فسكتَ ، فقالَ : بحقِّي إلاَّ أخبرتَني ، فشرحَ لهُ الأمرَ ، فضحكَ ، وقالَ : أَبيتَ يا ٱبنَ معلِّمِ الخيرِ إلاَّ كرماً وجوداً ، ثمَّ أَخذَها ، وتصفَّحَ ما فيها ، ووقَّعَ عَليها كلِّها بِما طَلَبَ أَصحابُها .

ومنهُ تَعْرِفُ الفرقَ ما بينَ بني أُميَّةَ وبني العبَّاسِ ، فالأَولُ :

يستزيدُ عروةَ في الشفاعاتِ ، والثاني : يستقصِرُ ٱبنَ عمِّهِ عَنها ، إلا أَن يقالَ : إنَّ هـٰذا قد أَبرمَ وأَضجَرَ ، بخلافِ الأَوَّلِ .

جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه . . فيجيزه

أَمَّا شفاعَةُ جعفرِ بنِ يحيىٰ إِلىٰ الرشيدِ في عبدِ الملكِ بنِ صالِحٍ . . فشيءٌ يدفَعُهُ العقلُ ، لولا ما تواتَرَ مِنَ ٱلنقلِ(١) .

---

(١) القصَّةُ التي نوَّهَ الشيخُ إليها طويلَةٌ ، وهيَ باختصارٍ كما في « المستطرف » (٢/ ٣٣٢) : أَنَّ عبدَ الملكِ بنَ صالحٍ قَدِمَ علىٰ مجلسٍ فيهِ جعفرُ بنُ يحيىٰ ، فقالَ لهُ جعفرٌ : جُعِلْتُ فداءَكَ قد علوتَ علينا وتفضَّلتَ ، فهل مِن حاجةٍ تبلُغُها مقدرَتي ، وتحيط بها نعمَتي ، فأَقضيَها لكَ ؟

قالَ : بلىٰ ، إنَّ في قلبِ أَميرِ المؤمنينَ الرشيدِ بعضَ تغيُّرٍ عليَّ ، فتسأَلُهُ الرِّضا عَنِّي .

قالَ جعفرٌ : قَدْ رضيَ عنكَ أَميرُ المؤمنينَ .

قالَ : وعليَّ ، عَشَرَةُ آلافِ دينارٍ .

قالَ جعفرٌ : هيَ حاضِرَةٌ لكَ مِن مالي ، ولكَ مِن مالِ أَميرِ المؤمنينَ مثلَها .

قالَ : أُريدُ أَن أَشُدَّ ظهرَ ٱبني بمصاهرَةٍ مِنْ أَميرِ المؤمنينَ .

قالَ : قد زوَّجَهُ أَميرُ المؤمنينَ بابنتِهِ الغاليَةِ .

قالَ : وأُحِبُّ أَن تَخفِقَ الأَلويةُ علىٰ رأْسِهِ .

قالَ : وقد ولاَّهُ أَميرُ المؤمنينَ (مصرَ) .

فانصرفَ عبدُ الملكِ بنُ صالحٍ ، وكانَ مِمَّنْ حضرَ ذلكَ المجلسَ إبراهيمُ بنُ المهديِّ قالَ : فبقيتُ متعجِّباً مِن إِقدام جعفرٍ علىٰ ذلكَ مِن غير ٱستئذانٍ ، وقلتُ في نفسي : عَسَىٰ أَن يجيبَهُ أَميرُ المؤمنينَ إِلىٰ ما سأَلَهُ مِنَ الولايةِ والمالِ والرِّضا . . إلاَّ المصاهَرَةَ ، قالَ : فلمَّا كانَ مِنَ الغدِ . . بكَّرتُ إِلىٰ بابِ الرشيدِ ؛ لأَنظرَ ما يكونُ مِن أَمرِهم ، فدخلَ جعفرٌ ، فلم يلبَثْ أَن دُعِيَ بأَبي يوسفَ القاضي ، ثُمَّ بإِبراهيمَ بنِ عبدِ الملكِ بن صالحٍ . . . فخرجَ إِبراهيمُ وقد عُقِدَ نكاحُهُ بالغاليةِ بنتِ الرَّشيدِ ، وعُقِدَ لَهُ علىٰ (مصرَ) الراياتُ ، والأَلويةُ تخفِقُ علىٰ رأْسِهِ ، وخرجَ كُلُّ مَن كانَ معَهُ في القصرِ إِلىٰ بيتِ عبدِ الملكِ بنِ =

إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة

وقيلَ لشُعبَةَ : أفنيتَ مالَكَ ، وأخلقْتَ جاهَكَ في حوائِجِ الناسِ ، فقالَ : أصونُهما ليومِ فَاقَتي .

وقالَ الخابزأرزيُّ [مِنَ الكامِلِ] :

خَـرِقٌ يَجُـوْدُ بِمَـالِـهِ وَبِجَـاهِـهِ   وَالْجُوْدُ كُلُّ الْجُوْدِ بَذْلُ الْجَاهِ

ويروىٰ : « إِنَّ ٱلعَبْدَ يُسْأَلُ عَنْ جَاهِهِ ، كَمَا يُسْأَلُ عَنْ عُمُرِهِ فَيَقُوْلُ اللهُ لَهُ : جَعَلْتُ لَكَ جَاهاً ، فَهَلْ نَصَرْتَ بِهِ مَظْلُوْماً ، أَوْ قَمَعْتَ بِهِ ظَالِماً ، أَوْ أَغَثْتَ بِهِ مَكْرُوْباً؟ »(١) واللهُ جلَّ شأْنُهُ يقولُ : ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾ [النساء : ٨٥] .

اللهم . . لا تذل عزيزاً

ودخلَ ٱبنُ السَّمَّاكِ ـ الزاهدُ المشهورُ ـ علىٰ بعضِ الرؤَساءِ يشفعُ إليهِ في رجلٍ ، فقالَ لَهُ : أتيتُكَ في حاجَةٍ ، الطالِبُ والمطلوبُ فيها شريفانِ إن قضيتَ ، ذليلانِ إن لَم تقضِ ، فٱخترْ لنفسِكَ عزَّ البذْلِ علىٰ ذُلِّ المنعِ ، وٱخترْ لي عزَّ النُجْحِ علىٰ ذُلِّ الردِّ ، فقضىٰ حاجتَهُ ، وشفَّعَهُ فيما أرادَ .

الرجل يزوِّر كتاباً على لسان ابن الفرات فيصححه له ويمضيه عليه

وذكرَ ٱبنُ خَلِّكانَ [في « وفيَات الأعيان » ٣/٤٢٨] : أَنَّ رجلاً ٱتصلَت عطلتُهُ ، فزوَّرَ كتابَ شفاعَةٍ مِن أَبي الحَسَنِ الفراتِ إلىٰ عاملِ (مصرَ) أبي زنبورِ الماردانيِّ ، فارتابَ في أَمرِهِ ، لخروجِ الخطَابِ

= صالح . انظر القصة بتمامها في « المستطرف » (٢/ ٣٣٢) .

(١) أخرجه بنحوه عن ابن عمر رضي الله عنه الطبراني في « الصغير » (١٨) ولفظه : « إذا كان يوم القيامة دعا الله عبداً من عبيده ، فيوقف بين يديه فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله » .

عَنِ المعهودِ ، فعلَّلَهُ بعُلالَةٍ[1] ، وٱحتَبَسَهُ على ضياءِ وعدٍ ، ريثَما كتبَ إِلىٰ ٱبنِ الفراتِ ، وأَنفَذَ إِليهِ بعينِ الكتابِ المزوَّرِ ، فشاورَ أَصحابَهُ ، فكانَ أَجملُهم محضراً مَن أَشارَ بكشفِ خبرِهِ ؛ ليفضيَ إِلىٰ حرمانِهِ ، فلم يكُن مِنِ ٱبنِ الفراتِ إِلاَّ أَن أَخذَ القلَمَ ، وأَيَّدَ الكتابَ ، وأَكَّدَ الشفاعَةَ ، فبعدَ أُمَّةٍ مِن الزمانِ دخلَ علىٰ ٱبنِ الفراتِ رجلٌ ذو هيئَةٍ مقبولَةٍ ، وبزَّةٍ فاخرَةٍ ، وأَقبلَ يَدْعو ، ويَبْكي ، ويقبِّلُ الأَرضَ ، فقالَ لَهُ ٱبنُ الفراتِ : مَن أَنتَ باركَ اللهُ فيكَ؟ ـ وكانَتْ هـٰذِهِ كلمتَهُ ـ فقالَ : صاحِبُ الكتابِ المزوَّرِ إِلىٰ أَبي زنبورٍ ، الذي صحَّحَهُ كرَمُ الوزيرِ ، وشمَلَهُ حِلمُهُ ، فضحكَ ٱبنُ الفراتِ ، وقالَ : كَم وصلَ إِليكَ منهُ؟ فقالَ : وَصَلَ إِليَّ مِن مالِهِ وممَّا قَسَّطَهُ علىٰ عمَّالِهِ وأَصحابِهِ عشرونَ أَلفِ دينارٍ ، فقالَ لَهُ ٱبنُ الفراتِ : ولا تَغِبْ عَنَّا ، فإِنَّا نعرِّضُكَ لِما يزدادُ بِهِ صلاحُ حالِكَ ، ثمَّ ٱستخدَمَهُ ، وأَكسبَهُ مالاً جزيلاً .

وكذلك يمضي يحيى البرمكي

ومثلُها ما ذكرهُ البيهقيُّ في « المحاسِنِ » مِنَ أَنَّ رجلاً ضاقَت بهِ الحالُ ، وتعذَّرتْ عليهِ المطالِبُ ، فٱفتعَلَ كتاباً مِن يحيىٰ بنِ خالدٍ البـرمكـيِّ ، وشخَـصَ بـهِ إِلـىٰ (أَذَرَبيجـانَ) لعبـدِ اللهِ بـنِ مـالِـكٍ الخزاعيِّ ، ولَم يعلَم ما بينَ الأَميرينِ مِن فرطِ التعادي والتحاسُدِ ، فقالَ لَهُ عبدُ اللهِ : إِنَّ كتابَكَ هـٰذا مفتَعَلٌ ، سأُزيلُ علَّتَكَ ، وأَحبِسُكَ حتَّىٰ أَستَطلِعَ الأَمرَ ، وأَتعرَّفَ بخبرِ الكتابِ ، فبعثَ إِلىٰ وكيلِهِ بـ(العراقِ) ليستفهِمَ عَنِ ٱلقصَّةِ ، فجاءَ الوكيلُ إِلىٰ يحيىٰ ، وأَنهىٰ إِليهِ الخبرَ ، فكتبَ بخطِّهِ : فلانٌ مِن أَخصِّ مَن يَليني ، وأَوْجَبِهِم

---

(١) أَي : أَعطاهُ الشيءَ القليلَ الذي يتعلَّلُ بهِ .

حقّاً عَلَيَّ ، وقدْ أَخبرَني صاحبُكَ بِتشَكُّكِكَ في أَمرِهِ ، فليُنزَلْ عنكَ الشَّكُّ فديتكَ ، وليعُدْ معجّلاً بِما يشبهُكَ ، فلمَّا خرجَ الوكيلُ . قالَ يحيىٰ لأَصحابِهِ : ما تقولونَ في رجلٍ ٱفتعَلَ عليَّ كتابَ شفاعةٍ إِلىٰ عبدِ اللهِ بنِ مالكٍ ، وصلَ بهِ إِلىٰ (أَذربيجانَ) ؟ فقالوا جميعاً : نرىٰ أَن تفضَحَهُ ، وتعلنَ أَمرَهُ ؛ ليرتدِعَ بهِ غيرُهُ ، فقالَ : قبَّحَ اللهُ هٰذا مِن رأيٍ ، ما أَنذَلَهُ ، هٰذا رجلٌ ضاقَ بِهِ الرزقُ ، فوثِقَ بي ، وشخَصَ إِلىٰ (أذربيجانَ) معَ بعدِ شقَّتِها ، وصعوبةِ طريقِها ، أَفتشيرونَ عليَّ أَن أَقطَعَ أَملَهُ؟ وأُخيِّبَ رجاءَهُ؟ وقد عرفتُم قدرَ عبدِ اللهِ ومكانَتِهِ مِن قلبِ أَميرِ المؤمنينَ ، وما بيني وبينَهُ مِنَ ٱلْعداوَةِ التي سعىٰ في إِزالتِها هٰذا الرجلُ ، أَفتريدونَ أَن أَرُدَّ الأَمرَ بيني وبينَهُ بعدَ هٰذا التقارُبِ ، إِلىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلبُعدِ؟ إِنَّهُ لنكدُ الأَبدِ .

ثمَّ أَخبرَهُم بما كَتَبَ بهِ إِلىٰ عبدِ اللهِ ، فتعجَّبوا مِن كَرَمِهِ ، وسعَةِ ٱحتمالِهِ ، ولمَّا وردَ الكتابُ بخطِّهِ علىٰ عبدِ اللهِ . ٱستحضَرَ الرجُلَ ، وقد سُقِطَ في يدِهِ ؛ لاعتراضِ سوءِ الظَّنِّ بقلبِهِ ، فقالَ : قد وردَ عليَّ كتابُ أَخي بصحَّةِ أَمرِكَ ، وسأَلَني تعجيلَ صرفِكَ ، ودعا لَهُ بمئَتَي أَلفِ دِرهَمٍ ، وبما يليقُ بِها مِنَ ٱلدوابِّ والخُلَعِ والآلَةِ ، فلمَّا حضرَ بابَ يحيىٰ . أَدخلَ ذلكَ برمَّتِهِ إِليهِ ، فأَمرَ لَهُ يحيىٰ بمثلِهِ ، وأَثبتَهُ في خاصَّتِهِ .

نماذج من كتب الشفاعات

وكتبَ عبدُ الحميدِ بالوصايَةِ في رَجُلٍ إِلىٰ بعضِ الرؤساءِ [كما في « وفيات الأعيان » ٣/٢٢٩] : حقُّ مُوصِلِ هٰذا عليكَ كَحقِّهِ علَيَّ ؛ إِذ رآكَ موضعاً لأَملِهِ ، كما رآني أَهلاً لحاجَتِهِ ، وقد أَنجزتُ حاجتَهُ ، فحقِّقْ أَمَلَهُ ، والسلامُ .

وكتبَ رجلٌ إلىٰ يحيىٰ بنِ خالدٍ رقعةً يقولُ لَهُ فيها [مِنَ الطَّويلِ] :

شَفِيْعِيْ إِلَيْكَ ٱللهُ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ وَلَيْسَ إِلَىٰ رَدِّ ٱلشَّفِيْعِ سَبِيْلُ

فأَمَرَهُ بلزومِ البيتِ ، وكانَ يعطيهِ عندَ الصباحِ كلَّ يومٍ ألفَ درهمٍ ، فلمَّا ٱستوفىٰ ثلاثينَ ألفاً . . ذهبَ الرجلُ ، فقالَ خالدٌ : أمَا واللهِ لقد عزمْتُ علىٰ إجرائِها لَهُ إلىٰ آخرِ العمرِ(١) .

وقالَ رجلٌ لجعفرِ بنِ يحيىٰ : أَمُتُّ إليكَ بذمامِ الأملِ ، وحسنِ الظنِّ ، وقرابَةِ العلمِ ، قالَ : إنَّ ما ذكرْتَ ليوجِبُ الحقَّ ، ويعقِدُ الفرضَ ، ورَحِمُ ٱلْعِلمِ أَمَسُّ قرابَةً ، وأَلطَفُ ضُؤْرَةً(٢) .

وٱستأذنَ بعضُهم علىٰ الفضلِ بنِ يحيىٰ ، وزعمَ أَنَّ له مآتةً إلىٰ الأميرِ ، ولمَّا سأَلَهُ عَن حاجتِهِ . . قالَ : قد أَعربَتْ عَنها رثَاثَةُ الهيئَةِ ، وضعفُ الطاقَةِ ، قالَ الفضلُ : فما الذي تمُتُّ بهِ؟ قالَ : ولادَةٌ تقربُ مِن ولادتِكَ ، وجوارٌ يدنو مِن جوارِكَ ، وٱسمٌ مشتقٌّ من ٱسمك ، قالَ : أَمَّا الجوارُ . . فقد يكونُ ، والأَسماءُ تتَّفِقُ ، فما علمُكَ بالولادَةِ؟ قالَ : أَخبرتني أُمِّي : بأَنَّها لَمَّا وضعَتني . . قالوا : ولدَ ليحيىٰ غلامٌ سمَّوْهُ الفضلَ ، فصغَّرَتني ؛ إعظاماً لاسمِكَ ، وسمَّتْني فُضيلاً ، قالَ : كَم أَتىٰ عليكَ؟ قالَ : خمسٌ وثلاثونَ سنَةً ، قالَ : صدقْتَ ، وأَعطاهُ لِكُلِّ سنَةٍ أَلفاً(٣) .

---

(١) «المستطرف» (١/ ٢٨١) .

(٢) الضُّؤْرَة : الرجل الصغير الشأن الحقير الذليل الفقير .

(٣) من الدراهم ، انظر : «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٢) .

وقالَ بعضُهم يمدحُ مَعْناً [مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِنْ هَوَاكَ شَفِيْعٌ لِيْ يُغَفِّلُنِيْ وَإِنْ نَأَيْتُ وَإِنْ قَلَّتْ بِيَ الذِّكَرُ

وقالَ مروانُ بنُ أَبي حفصة يمدحُ المهديَّ [في « ديوانه » ٦٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا لِيْ إِلَىٰ الْمَهْدِيِّ لَوْ كُنْتُ مُذْنِباً سِوَىٰ حِلْمِهِ الضَّافِيْ عَلَىٰ النَّاسِ شَافِعُ

وهوَ مِن قصيدَةٍ لهُ شاعرَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانه » ٦٦] :

وَلاَ هُوَ عِنْدَ السُّخْطِ مِنْهُ وَلاَ الرِّضَا بِغَيْرِ الَّذِيْ يَرْضَىٰ بِهِ اللهُ قَانِعُ

تَغُضُّ لَهُ النَّاسُ الْعُيُوْنَ وَطَرْفُهُ عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ خَاشِعُ

وقد أَغارَ علىٰ الثاني ابنُ أَيوبَ التميميُّ ، فقالَ يمدحُ الفضلَ بنَ سهلٍ [في « وفيات الأعيان » ٤/ ٤٣ مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَىٰ عُظَمَاءَ النَّاسِ لِلْفَضْلِ خُشَّعاً إِذَا مَا بَدَا وَالْفَضْلُ للهِ خَاشِعُ

تَوَاضَعَ لَمَّا زَادَهُ اللهُ رِفْعَةً وَكُلُّ جَلِيْلٍ عِنْدَهُ مُتَوَاضِعُ

ومعنىٰ البيتِ المشروحِ متكرِّرٌ عندَ الناظِمِ منهُ قولُهُ [في « العُكبَرِيِّ » ٤/ ١٤٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمِثْلُكَ مَنْ كَانَ الْوَسِيْطَ فُؤَادُهُ فَكَلَّمَهُ عَنِّيْ وَلَمْ أَتَكَلَّمِ

وقالَ جحظَةُ [في « ديوانه » ١٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَالِيَ حَقٌّ وَاجِبٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ إِلَيْكُمْ بِكِمْ فِيْ حَاجَتِيْ أَتَوَسَّلُ

وقالَ آخرُ [في « صبح الأعشىٰ » ٩/ ١٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلَوْ أَنَّ لِيْ فِيْ حَاجَتِيْ أَلْفَ شَافِعٍ لَمَا كَانَ فِيْهِمْ مِثْلُ جُوْدِكَ شَافِعُ

وقالَ أَبو الحسنِ السُّلاميُّ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا زُرْتَهُ لَمْ تَلْقَ مِنْ دُوْنِ بَابِهِ ... حِجَاباً وَلَمْ تَدْخُلْ عَلَيْهِ بِشَافِعِ
كَمَاءِ ٱلْفُرَاتِ ٱلْجَمِّ أَعْرَضَ وِرْدُهُ ... لِكُلِّ أُنَاسٍ فَهْوَ سَهْلُ ٱلشَّرَائِعِ
تَــرَاهُ إِذَا مَــا جِئْتَــهُ مُتَهَلِّــلاً ... تَهَلُّلَ أَبْكَارِ ٱلْغُيُوْثِ ٱلْهَوَامِعِ

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ٢٤٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَصِيحٌ مَتَىٰ يَنْطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفْظَةٍ	أُصُولَ الْبَرَاعَاتِ الَّتِي تَتَفَرَّعُ

مبحث بلاغي حول الفصاحة

يصفُ قلمَ ممدوحِهِ ، ويقولُ : إِنَّ كلَّ لفظَةٍ مِن ألفاظِهِ أَصلٌ مِن أُصولِ البراعَةِ ، والبراعَةُ هِيَ كمالُ الفصاحَةِ .

وفصاحَةُ المفردِ : سلامَتُهُ مِنَ التنافُرِ ، والغرابَةِ ، والكراهَةِ ، والخروجِ عن القياسِ .

وفصاحَةُ المركَّبِ ـ بعدَ سلامَةِ مفردِهِ ممَّا ذُكِرَ ـ : أَنْ لا يكونَ مكرّراً ، ولا معقَّداً ، ولا متنافِراً ، ولا ضعيفَ التأليفِ ، ولا متتابعَ الإضافاتِ ، كما هوَ مقرَّرٌ في علمِ المعاني .

الافتخار بالقلم وحسن البيان

وحسبُ القلمِ شرفاً أَنَّ اللهَ نوَّهَ بذكرِهِ ، وامتَنَّ بتعليمِهِ في قولِهِ : ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴾ [العلق : ٣ـ٤] ، وأَقسمَ بهِ فقالَ : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ [القلم : ١] ، وهـٰذا رسولُ اللهِ ﷺ ما رأيناهُ يفتخِرُ بعلمٍ قطُّ سوىٰ حسنِ البيانِ ، فقالَ : « **أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ** »[١] . وقالَ : « **أَنَا أَفْصَحُ الْعَرَبِ ، بَيْدَ أَنِّي مِنْ قريشٍ ، واسْتُرْضِعْتُ فِي بَنِي سَعْدٍ** »[٢] .

---

(١) أخرجه عن أبي هريرة رضي الله عنه البخاري (٦٩٩٨) بلفظ : « بعثت بجوامع الكلم » ، ومسلم (٥٢٣) في المساجد ، والترمذي (١٥٥٣) ، والنسائي (٦/ ٣ـ٤) .

(٢) أورده في « كشف الخفاء » (٦٠٩) وقال عنه السيوطي في « اللآلىء » معناه صحيح ، ولكن لا أصل له ، وأطال فيه الكلام وأجاد .

وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ أنَّ (بيدَ) هُنا بمعنىٰ مِن أَجلِ ؛ لأنَّ الاستدراكَ لا يحلو ما لم يشتَمِلْ علىٰ رونقٍ وحسنٍ ، ولأنَّ الأَصلَ في الاستثناءِ الاتصالُ ، فإذا لم يلِ أَداتَهُ إلاَّ صفَةُ مدحٍ . . تحوَّلَ إلىٰ الانقطاعِ ، فكأنَّهُ لم يجِدْ صفَةً تناسِبُ الاستثناءَ ، فاْضطَرَّ إلىٰ ما لا يناسبُهُ ، واْستشهادُ بعضِ أَهلِ المعاني لاستحسانِ ما كانَ مِن قَبيلِ ذلكَ بقولِ النابغَةِ الجعديِّ [في « ديوانهِ » ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتـىً كَمُلَـتْ أَخـلاَقُـهُ غَيْـرَ أَنَّـهُ   جَوَادٌ فَمَا يُبْقِيْ مِنَ ٱلْمَالِ بَاقِيَا

إنَّما يتمُّ لَو سكتَ علىٰ قولِهِ : (جوادٌ) أَمَّا وقد عقَّبَهُ بقولِهِ : (فَمَا يُبْقِي مِنَ ٱلْمَالِ بَاقِيَا) . . فقد خرجَ الاستثناءُ فيهِ عَنِ الانقطاعِ ، وبقيَ علىٰ ما كانَ عليهِ مِنَ ٱلاتصالِ ؛ لأنَّ إتلافَ المالِ بأَسرِهِ في الجودِ ممَّا يحتملُ الذمَّ ، وهٰذا شيءٌ واضحٌ لا غبارَ عليهِ ، ففي تمسُّكِ الكثيرِ بهِ مِن العلماءِ موضعٌ فسيحٌ للعَجَبِ .

وقد قالَ كُشاجِمُ [في « ديوانهِ » ٢٤٦ مِنْ مجزوءِ الكامل] :

مَـا فِيْهِـمُ عَيْـبٌ سِـوَىٰ ٱلْـ   إِفْـرَاطِ فِـيْ ٱلْجُـوْدِ فَقَـطْ

وقالَ أَبو هفَّانَ [مِنَ المنسرحِ] :

عَيْـبُ بَنِـيْ مَخْلَـدٍ سَمَـاحَتُهُـمْ   وَأَنَّهُـمْ يُتْلِفُـوْنَ مَـا وَجَـدُوْا

الشعراء وتقديم القلم على السيف

وممَّا أَجمعَ علىٰ تقديمِهِ أَهلُ العلمِ في مدحِ القَلَمِ قولُ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

لَـكَ ٱلْقَلَـمُ ٱلأَعْلَـىٰ ٱلَّـذِيْ بِشَبَـاتِـهِ   تُصَابُ مِنَ ٱلأَمْرِ ٱلْكُلَىٰ وَٱلْمَفَاصِلُ[1]

---

(١) شباتُهُ : حدُّهُ ، أي رأسُ القلمِ ، شبَّهَ حدَّ قلمهِ بحدِّ السيفِ وجعلهُ يفتكُ بالأمرِ المعضلِ فيقتلهُ ويذلِّلُ صعابَهُ وينالُ منه ما لا ينالُ الحسامُ .

لَـهُ ٱلْخَلَـوَاتُ ٱلـلاَّءِ لَـوْلاَ نَجِيُّهَـا ... لَمَا ٱحْتَفَلَتْ لِلْمُلْكِ تِلْكَ ٱلْمَحَافِلُ[(١)]

لُعَـابُ ٱلأَفَـاعِـيْ ٱلْقَـاتِـلاَتِ لُعَـابُـهُ ... وَأَرْيُ ٱلْجَنَىٰ ٱشْتَارَتْهُ أَيْدٍ عَوَاسِلُ[(٢)]

لَـهُ رِيْقَـةٌ طَـلٌّ وَلَٰكِـنَّ وَقْعَهَـا ... بِآثَارِهِ فِيْ ٱلشَّرْقِ وَٱلْغَرْبِ وَابِلُ[(٣)]

فَصِيْـحٌ إِذَا ٱسْتَنْطَقْتَـهُ وَهْـوَ رَاكِـبٌ ... وَأَعْجَمُ إِنْ خَاطَبْتَهُ وَهْوَ رَاجِلُ[(٤)]

وبيتُ الناظِمِ ناظرٌ إِلىٰ القسيمِ الأَولِ مِن الأَخيرِ .

وقالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٥٠٨/٢ مِنَ البسيطِ] :

فِـيْ كَفِّـهِ قَلَـمٌ نَـاهِيْـكَ مِـنْ قَلَـمٍ ... نُبْلاً ، وَنَاهِيْكَ مِنْ كَفٍّ بِهِ ٱتَّشَحَا

يَمْحُوْ وَيَكْتُبُ أَرْزَاقَ ٱلْعِبَادِ بِهِ ... فَمَا ٱلْمَقَادِيْرُ إِلاَّ مَا مَحَا وَوَحَىٰ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٦/ ٢٢٩٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ يَخْدُمِ ٱلْقَلَمَ ٱلسَّيْفُ ٱلَّذِيْ خَضَعَتْ ... لَهُ ٱلرِّقَابُ وَدَانَتْ خَوْفَهُ ٱلأُمَمُ

فَٱلْمَوْتُ ـ وَهْوَ ٱلَّذِيْ لاَ شَيْءَ يَعْدِلُهُ ـ ... مَـا زَالَ يَتْبَـعُ مَـا يَجْـرِيْ بِـهِ ٱلْقَلَمُ

فَقَدْ قَضَىٰ ٱللهُ لِلأَقْلاَمِ مُذْ بُرِيَتْ ... أَنَّ ٱلسُّيُوْفَ لَهَا مذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

---

(١) **نجيُّها** : حديثها السريُّ . **ٱحتفلت** : أَحسنت القيامَ بالأمورِ . **المحافلُ** : المجالسُ . **يقولُ** : لولا سرُّ هذهِ الأقلامِ لما ٱنتظمَ الملكُ .

(٢) **لعابُ الأفاعي** : سمها . **لعابُه** : ريقةُ ؛ أي : مدادهُ . **الأَريُ** : العسلُ . **الجنىٰ** : كل ما يجتنىٰ ويقطف . **ٱشتارتهُ** : جنتهُ . **عواسلُ** : التي تجني العسلَ . **يقول** : إن مداد قلمهِ في تهديدِ الأعداءِ قاتلٌ كسمِّ الأفاعي ، وفي التلطُّفِ للإخوانِ كالعسلِ .

(٣) **الطلُّ** : الندىٰ أو المطرُ الخفيفُ . **يقولُ** : إنَّ ما يجري من ريق هذا القلمِ على القرطاسِ تافهٌ يحكي الندى في قلَّتِهِ ولكنَّهُ يشبهُ المطرَ الغزيرَ بقوَّتِهِ إذا نظرتَ إلى خيرهِ ووقعِ آثارهِ في الشرقِ والغربِ .

(٤) **راكبٌ** : أي راكبٌ على أصابعِ الكاتبِ . **الأعجمُ** : ضدُّ الفصيحِ .

وقالَ [في « ديوانه » ١/ ١٧٣ـ١٧٤ مِنَ المتقاربِ] :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلسَّيْفُ سَيْفُ ٱلْكَمِيِّ ... بِـأَخْـوَفَ مِـنْ قَلَـمِ ٱلْكَـاتِـبِ
لَـهُ شَـاهِـدٌ إِنْ تَـأَمَّلْتَـهُ ... ظَهَـرْتَ عَلَـىٰ سِرِّهِ ٱلْغَـائِـبِ
أَدَاةُ ٱلْمَنِيَّـةِ فِـي جَـانِبَيْـهِ ... فَمِـنْ مِثْلِـهِ رَهْبَـةُ ٱلـرَّاهِـبِ
أَلَـمْ تَـرَ فِـيْ صَدْرِهِ كَـٱلسِّنَـانْ ... وَفِيْ ٱلرِّدْفِ كَٱلْمُرْهَفِ ٱلْقَاضِبِ ؟

وقالَ [مِنَ البسيطِ] :

إِذَا جَرَىٰ ٱلأَرْقَشُ ٱلنَّضْنَاضُ فِيْ يَدِهِ ... جَرَىٰ شُجَاعٌ يَمُجُّ ٱلسُّمَّ وَٱلْعَسَلاَ[1]
خَـطٌّ إِذَا قَـابَلَتْـهُ ٱلْعَيْـنُ قَـابَلَهَـا ... رَوْضُ ٱلرَّبِيْعِ إِذَا مَا طَلَّ أَوْ وَبَلاَ

وقالَ ٱبنُ الدهَّانِ [في « ديوانه » ٥١ـ٥٢ مِنَ الكاملِ] :

تُرْدِيْ ٱلْكَتَائِبَ كُتْبُهُ فَإِذَا ٱنْبَرَتْ ... لَمْ تَدْرِ أَنْفَذَ أَسْطُراً أَمْ عَسْكَرَا
لَمْ يَخْسُنِ ٱلأَتْرَابُ فَوْقَ سُطُوْرِهَا ... إِلاَّ لأَنَّ ٱلْجَيْـشَ يَعْقِـدُ عِثْيَـرَا[2]

والأوّلُ ناظِرٌ إِلىٰ قولِ أَبي تمَّامٍ [في « ديوانه » ٢/ ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

فَمَـا إِنْ تُبَـالِـيْ إِذْ يُجَهِّـزُ رَأْيَـهُ ... إِلَىٰ نَاكِثٍ أَنْ لاَ يُجَهِّزَ جَحْفَلاَ[3]

والثاني من قولِ الطغرائيِّ [في « ديوانه » ٩٣ـ٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا دَجَا لَيْلُ ٱلْعَجَاجَةِ لَمْ يَزَلْ ... بِأَيْدِيهِمُ جَمْرٌ إِلَىٰ ٱلْهِنْدِ مَنْسُوْبُ
عَلَيْهَا سُطُوْرُ ٱلضَّرْبِ يُعْجِمُهَا ٱلْقَنَا ... صَحَائِفُ يَغْشَاهَا مِنَ ٱلنَّقْعِ تَتْرِيْبُ

---

(١) يقال حية نضناضةٌ : لا تستقر في مكان ، أو إذا نهشت قتلت من ساعتها ، أو التي أخرجت لسانها تنضنِضُهُ أي تحركه .

(٢) العِثْيَرُ : الغبارُ .

(٣) الناكثُ : ناقضُ العهدِ ، أَي إنَّ رأيَ الخليفةِ يغني عن تجهيزِ الجيوشِ لحسنِ سياستهِ .

وقالَ آخرُ [الأبيات للبستي وهي في « طبقات ابن السبكي » ٨/ ٢٦٥ مِنَ البسيطِ] :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوْا ٱلأَقْلاَمَ مِنْ قَصَبٍ ... ثُمَّ ٱسْتَمَدُّوْا بِهَا مَاءَ ٱلْمَنِيَّاتِ

نَالُوْا بِهَا مِنْ أَعَادِيْهِمْ وَإِنْ بَعُدُوْا ... مَا لَمْ يَنَالُوْا بِحَدِّ ٱلْمَشْرَفِيَّاتِ[١]

ورأَيتُ ٱبنَ السبكيِّ[٢] . عزا هٰذين البيتين للناظِمِ ، وما رأَيتُها في « ديوانِهِ » .

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١٦٤ مِنَ الكاملِ] :

يَا مَنْ لَهُ قَلَمٌ حَكَىٰ فِيْ فِعْلِهِ ... أَيْمَ ٱلْغَضَىٰ لَوْلاَ سَوَادُ لُعَابِهِ[٣]

عُرِفَتْ جُدُوْدُكَ إِذْ نَطَقْتَ وَرُبَّمَا ... لَغَطَ ٱلْقَطَا فَأَبَانَ عَنْ أَنْسَابِهِ[٤]

وَهَزَزْتَ أَعْطَافَ ٱلْمُلُوْكِ بِمَنْطِقٍ ... رَدَّ ٱلْمُسِنَّ إِلَىٰ ٱقْتِبَالِ شَبَابِهِ

وقالَ البُستيُّ [في « قِرى الضيف » ٤/ ٣٥٤ مِنَ البسيطِ] :

إِنْ هَزَّ أَقْلاَمَهُ يَوْماً لِيُعْلِمَهَا ... أَنْسَاكَ كُلَّ كَمِيٍّ هَزَّ عَامِلَهُ

وَإِنْ أَقَرَّ عَلَىٰ رَقٍّ أَنَامِلَهُ ... أَقَرَّ بِالرِّقِّ كُتَّابُ ٱلأَنَامِ لَهُ

وقالَ المؤيَّدُ الأَلوسيُّ [في « وفيات الأعيان » ٥/ ٣٤٧ مِنَ الكاملِ] :

وَمُثَقَّفٍ يُغْنِيْ وَيُفْنِيْ دَائِماً ... فِيْ حَالَيِ ٱلْمِيْعَادِ وَٱلإِيْعَادِ

قَلَمٌ يَفُلُّ ٱلْجَيْشَ وَهْوَ عَرَمْرَمٌ ... وَٱلْبِيْضُ مَا سُلَّتْ مِنَ ٱلأَغْمَادِ

وَهَبَتْ لَهُ ٱلآجَامُ حِيْنَ نَشَا بِهَا ... كَرَمَ ٱلسُّيُوْلِ وَهَيْبَةَ ٱلآسَادِ

---

(١) وجاء أيضاً برواية : لا ينالُ .

(٢) الأبيات في نسختنا التي اعتمدناها في التحقيق (٨/ ٢٦٥) .

(٣) الأَيمُ : الحيَّةُ .

(٤) اللَّغَط : الصوت والجلبة ، وقيل : من كثر لغطه كثر غلطه .

وهو معنىً بديعٌ ، قالَ ابنُ خلِّكانَ [في « وفيَاتِ الأعيانِ » ٥/٣٤٧] : إنَّهُ لم يُقَلْ أحسنُ منهُ في القلَمِ .

ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم

وفي عكسِ ذلكَ مِن تفضيلِ السيفِ على القلمِ ، يقولُ أبو مسلمٍ متمثِّلاً وقد جاءَهُ كتابُ مروانَ بنِ محمَّدٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَحَا ٱلسَّيْفُ أَسْطَارَ ٱلْبَلاَغَةِ وَٱلتَّحَىٰ عَلَيْكَ لُيُوثُ ٱلْغَابِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقالَ البُحتريُّ [في « ديوانهِ » ٣/ ٢٠٤٤ مِنَ البسيطِ] :

تَعْنُـو لَـهُ وُزَرَاءُ ٱلْمُلْـكِ رَاغِبَـةً وَعَادَةُ ٱلسَّيْفِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ ٱلْقَلَمَا[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٤٦٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلاَ غَـرَّنِي مِنْ بَعْدِهِ عِزُّ كَاتِبٍ إِذَا هُوَ لَمْ يَأْخُذْ بِحُجْزَةِ رَامِحِ[2]

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٥٩ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ رَجَعْتُ وَأَقْلاَمِي قَوَائِلُ لِيْ: ٱلْمَجْدُ لِلسَّيْفِ لَيْسَ ٱلْمَجْدُ لِلْقَلَمِ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٣٠٢ مِنَ الوافرِ] :

وَهَلْ تُغْنِيْ ٱلرَّسَائِلُ فِيْ عَدُوٍّ إِذَا مَا لَـمْ يَكُـنَّ ظُباً رِقَاقَا ؟

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٥٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ كُتْبَ إِلاَّ ٱلْمَشْـرَفِيَّةُ عِنْـدَهُ وَلاَ رُسُلٌ إِلاَّ ٱلْخَمِيسُ ٱلْعَرَمْرَمُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٦ مِنَ البسيطِ] :

تَتْلُوْ أَسِنَّتُهُ ٱلْكُتْبَ ٱلَّتِيْ نَفَذَتْ وَيَجْعَلُ ٱلْخَيْلَ أَبْدَالاً مِنَ ٱلرُّسُلِ

---

(١) تعنو : تخضعُ وتذلُّ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه : ١١١] .

(٢) الحُجزةُ : معقدُ الإزارِ . الرامحُ : صاحبُ الرمحِ .

ويحكىٰ [في « وفيات الأعيان » ٧/٧] : أَنَّ ملكَ الإفرنْجِ كتبَ إِلىٰ الأَميرِ يعقوبَ بنِ يوسفَ بنِ عبدِ المؤمنِ صاحبِ (المغربِ) يتهدَّدُهُ ، فكتبَ يعقوبُ إِليهِ معَ رسولِهِ : ٱرجعْ إِليهِم فلنأتينَّهم بجنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها ، وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِنها أَذِلَّةً وهُم صاغرونَ ، اَلْجوابُ مَا تَرىٰ لا ما تسمع ، ثم تجهز وعبر (الأندلس) ودخلَ بلادَ الإفرنجِ فأَثخنَ فيهِم ، حتَّىٰ كادَ يستأصِلَهم ، ولَم يسمَع أَهلُ (الأندلسِ) بكسرة فيهِم مثلِها ، وكانَ ذلكَ سنةَ (٥٩٥هـ)[1] .

وقالَ المعريُّ [في « سقطِ الزندِ » ١١٠ مِنَ البسيطِ] :

دَعِ ٱلْيَـرَاعَ لِقَـوْمٍ يَفْخَـرُوْنَ بِـهِ   وَبِٱلطِّوَالِ ٱلرُّدَيْنِيَّاتِ فَٱفْتَخِرِ
فَهُنَّ أَقْلاَمُكَ ٱللَّاتِيْ إِذَا كَتَبَتْ   سَطْراً أَتَتْ بِمِدَادٍ مِنْ دَمٍ هَدَرِ

وقالَ الناظِمُ فيما يشبهُ الطَرَفَ الأَوَّلَ [في « العُكبَرِيّ » ٢/١٦٦ مِنَ الكاملِ] :

يَـا مَــنْ إِذَا وَرَدَ ٱلْبِـلاَدَ كِتَـابُـهُ   قَبْلَ ٱلْجُيُوْشِ ثَنَىٰ ٱلْجُيُوْشَ تَحَيُّرَا

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٢/١٦٦ مِنَ الكاملِ] :

يَتَكَسَّبُ ٱلْقَصَبُ ٱلضَّعِيفُ بِخَطِّهِ   شَرَفاً عَلَىٰ صُمِّ ٱلرِّمَاحِ وَمَفْخَرَا

وقالَ [في « العُكبَرِيّ » ٣/٢٥٦ مِنَ الكاملِ] :

كَلِمَـاتُـهُ قُضُـبٌ وَهُـنَّ فَـوَاصِـلٌ   كُلُّ ٱلضَّرَائِبِ تَحْتَهُنَّ مَفَاصِلُ

والمفاخرَةُ بينَ السيفِ والقلَمِ تطولُ، وقد أُلِّفَتْ لَها الرسائِلُ الضافيَةُ الذيولِ.

---

(١) ولكن في « وفيات الأعيان » (٧/٧) كان ذلك سنة : (٥٩٢هـ) .

والصوابُ التفصيلُ : فعندَ القوَّةِ والنفوذِ . . فالسيوفُ هيَ الخدَمُ ، وأمَّا عندَ الضعفِ والعجزِ . . فلا خُفَّ لِلأقلامِ وَلا قدَمَ ، وفي قريبٍ من ذلكَ يقولُ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٩٨ مِنَ الخفيفِ] :

الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس

وَكَفَتْكَ ٱلصَّفَائِحُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ قَدْ كَفَتْكَ ٱلصَّفَائِحَ ٱلأَقْلَامُ[١]

وقالَ في المدحِ بالمفخَرَتَينِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

ضَرُوْبٌ بِأَطْرَافِ ٱلسُّيُوْفِ بَنَانُهُ لَعُوْبٌ بِأَطْرَافِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُشَقَّقِ[٢]

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا صُلْتُ . . لَمْ أَتْرُكْ مَصَالاً لِصَائِلٍ وَإِنْ قُلْتُ . . لَمْ أَتْرُكْ مَقَالاً لِعَالِمِ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٦٩ مِنَ البسيطِ] :

اَلْخَيْلُ وَٱللَّيْلُ وَٱلْبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِيْ وَٱلضَّرْبُ وَٱلطَّعْنُ وَٱلْقِرْطَاسُ وَٱلْقَلَمُ[٣]

وتعالموا بعدَ الحربِ العظمىٰ بحديثٍ أَعجبَني ، وإِن لَم أَكُن علىٰ يقينٍ مِن صحَّتِهِ ، وهوَ : أَنَّ أَحدَ قوَّادِ الإنكليزِ زارَ بعضَ مدارسِ المستعمراتِ ، فألقىٰ الأَسئِلَةَ علىٰ التلاميذِ عَن شأْنِ القلمِ والسيفِ ، فأَجابوهُ بِما هوَ معروفٌ ومشهورٌ .

فقالَ أَحدُهم: أَمَّا لَو سأَلني القائِدُ . . لسمعَ مِنِّي غيرَ ما قالوا، قالَ: وما هوَ؟

---

(١) الصفائِحُ : السيوفُ .

(٢) الكلامُ المشقَّقُ : العويصُ الغامضُ الذي شُقَّ بعضُهُ من بعضٍ .

(٣) القرطاسُ : الكتابُ فيهِ الكتابةُ . وقد ورد البيت بلفظ : والسيفُ والرمحُ وَالقِرْطَاسُ وَالقَلَمُ ، والله أعلم بالصواب .

قالَ : أَمَّا سعدُ زغلولٍ : فلَمَّا لَم يكُن عندَهُ غيرُ القلمِ . . شَرَّدْتُمُوهُ كلَّ مشرَّدٍ ، وطردْتُمُوهُ كلَّ مُطَرَّدٍ ، وأَمَّا مصطفىٰ كمالٌ : فإِنَّهُ لمَّا كانَ عندَهُ السيفُ . . عمدَ إِلىٰ المعاهدَةِ التي أَبرَمَتْها دولتُكُم معَ خمسٍ وعشرينَ دولةً سِواها ، فداسَها بنعالِهِ ، ولم ينتَطِحْ في ذلكَ عنزانِ ، فأَمرَ بإِخراجِهِ مِنَ ٱلمدرسَةِ ، وقالَ : إِنَّهُ مِسْعَرُ حربٍ .

وكلُّ ما سبقَ مِنَ ٱلْمفاضَلَةِ بينَ الأَداتينِ إِنَّما هوَ بالنسبَةِ لمجرَّدِ النفوذِ والتشرُّفِ ، فأَمَّا إِذا نظَرنا إِلىٰ ما يتبَعُ القلَمَ مِن موادِّ العِلمِ . . ٱنقطعَتِ ٱلنسبَةُ ، وٱتضحَ الفرقُ .

ويعجبُني قولُ التهاميِّ [في « قرى الضيف » ٥/ ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ فَاتَهُ نَيْلُ ٱلْعُلاَ بِعُلُومِهِ وَأَقْـلاَمِـهِ فَلْيَبْغِهَـا بِحُسَـامِـهِ

فَمَوْتُ ٱلْفَتَىٰ فِيْ ٱلعِزِّ مِثْلُ حَيَاتِهِ وَعِيْشَتُهُ فِيْ ٱلذُّلِّ مِثْلُ حِمَامِهِ

الإنسان مخبوء خلف لسانه

وحدُّ البلاغَةِ كما قالَ الإمامُ الرازيُّ [في « المستطرف » ١/ ٩٥] : أَن يبلغَ الرجلُ كُنْهَ ما في خاطرِهِ بأَفصَحِ عبارَةٍ .

وقالَ يحيىٰ بنُ خالِدٍ [في « المستطرف » ١/ ٩٦] : ما رأَيتُ رجلاً إِلاَّ هِبتُهُ حتَّىٰ يتكلَّمَ ، فإِن كانَ فصيحاً . . عظُمَ في صدْري ، وإِلاَّ . . سقطَ مِن عَيني .

المديح بالبلاغة

ولا يزالُ الناظِمُ يمدَحُ بالبلاغَةِ ، ويُثني بالفصاحَةِ واللَّسَنِ ، كَما في قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٠٠ مِنَ الخفيفِ] :

قُـلْ فَكَـمْ مِـنْ جَـوَاهِـرٍ بِنِظَـامٍ وَدُّهَـا أَنَّهَـا بِفِيْـكَ كَـلاَمُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢٧ـ٢٢٨ مِنَ البسيطِ] :

مَا شَيَّدَ ٱللهُ مِنْ مَجْدٍ لِسَالِفِهِمْ　　إلاَّ وَنَحْـنُ نَـرَاهُ فِيْهِـمُ ٱلآنَـا
إنْ كُوْتِبُوْا أَوْ لُقُوا أَوْ حُوْرِبُوْا وُجِدُوْا　　فِيْ ٱلْخَطِّ وَٱللَّفْظِ وَٱلْهَيْجَاءِ فُرْسَانَا[١]
كَأَنَّ أَلْسُنَهُمْ فِيْ ٱلنُّطْقِ قَدْ جُعِلَتْ　　عَلَىٰ رِمَاحِهِمُ فِيْ ٱلطَّعْنِ خُرْصَانَا[٢]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٥٥ مِنَ الخفيفِ] :

خَلَـقَ ٱللهُ أَفْصَـحَ ٱلنَّـاسِ طُـرّاً　　فِـيْ مَكَـانٍ أَعْـرَابُـهُ أَكْـرَادُهْ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ١٢٣ مِنَ الخفيفِ] :

وَبِـأَلْفَـاظِـكَ ٱقْتَـدَىٰ فَـإِذَا عَـزْ　　زَاكَ قَـالَ ٱلَّـذِيْ لَـهُ قُلْـتَ قَبْـلاَ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٣٥ مِنَ الكاملِ] :

نَطِـقٌ إِذَا حَـطَّ ٱلْكَـلامُ لِثَـامَـهُ　　أَعْطَىٰ بِمَنْطِقِهِ ٱلْقُلُوْبَ عُقُوْلاَ[٣]

وقولِهِ وقد أَساءَ فيهِ الأَدَبَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٤٤ مِنَ الكاملِ] :

لَوْ كَانَ لَفْظُكَ فِيْهِمُ مَا أَنْزَلَ ٱلْـ　　ـقُـرْآنَ وَٱلتَّـوْرَاةَ وَٱلإِنْجِيْـلاَ

---

(١) في البيتِ لفٌّ ونشرٌ مرتَّبٌ ؛ حيثُ ذَكَرَ أَفعالَ الشرطِ في الشطرِ الأَوَّلِ ثُمَّ جاءَ بأجوبتِها مرتَّبَةً في الشطرِ الثاني فصارَ المعنىٰ :

إنْ كوتِبوا.. وُجِدوا في الخطِّ فرساناً ، وإنْ لُقُوا مُلاقاةَ المخاطَبَةِ والمكالَمَةِ.. وُجِدوا في اللفظِ فُرساناً ، وإنْ حُورِبوا.. وُجِدوا في الهيجاءِ فُرساناً أَيضاً .

(٢) الخرصانُ : الأسنَّةُ .

(٣) النَّطِقُ : جَيِّدُ القولِ والنُّطقِ . اللثامُ : ما يجعلُ على الوجهِ من العمامةِ ، كانتِ العربُ تفعلهُ لأجلِ حرِّ الشمسِ ، وإذا أرادوا أن يتكلموا كشفوا اللثامَ .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلِيْمٌ بِأَسْرَارِ ٱلدِّيَانَاتِ وَٱللُّغَىٰ لَهُ خَطَرَاتٌ تَفْضَحُ ٱلنَّاسَ وَٱلْكُتْبَا

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٨٠ـ١٨٣ مِنَ الخفيفِ] :

بَلَّغَتْهُ ٱلْبَلاَغَةُ ٱلْجُهْدَ بِٱلْعَفْـ ـوِ وَنَالَ ٱلإِسْهَابَ بِٱلإِيْجَازِ

مَلِكٌ مُنْشِدُ ٱلْقَرِيْضِ لَدَيْهِ يَضَعُ ٱلثَّوْبَ فِيْ يَدَيْ بَزَّازِ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً يَمْلأُ ٱلأَفْعَالَ رَأْياً وَحِكْمَةً وَبَادِرَةً أَحْيَانَ يَرْضَىٰ وَيَغْضَبُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا صَافَحَ ٱلأَبْصَارَ يَوْماً تَبَسَّمَتِ ٱلضَّمَائِرُ وَٱلْقُلُوْبُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٦٥ مِنَ الكاملِ] :

بِأَبِيْ وَأُمِّيْ نَاطِقٌ فِيْ لَفْظِهِ ثَمَنٌ تُبَاعُ بِهِ ٱلْقُلُوْبُ وَتُشْتَرَىٰ

وما أكثرَ ما أَصابَ الناظِمُ الهدَفَ في إكبارِهِ الفصاحَةَ ؛ لأَنَّ حدَّ الإنسانِ ـ بعدَ الحيوانيَّةِ ـ الناطقيَّةُ ، وبمقدارِ ما تتفاوتُ الناسُ في الحدِّ . . تتفاوَتُ في المحدودِ .

وما أَحسنَ قولَ الخَنساءِ [مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ كَلاَمَ ٱلنَّاسِ جُمِّعَ حَوْلَهُ فَأُطْلِقَ فِيْ إِحْسَانِهِ يَتَخَيَّرُ

وكانَ يقالُ في الصدرِ الأَوَّلِ : إِنَّ الفصاحَةَ ٱنتهَت إِلىٰ أَربعةٍ : عليٍّ ، وٱبنِ عبَّاسٍ ، وعائشَةَ ، ومعاويَةَ .

وقالَ بعضُ العلويِّينَ : سُئِلَ الشعبيُّ ـ وَأَنا حاضِر ـ عَن أَفصحِ الناسِ؟ فقالَ : معاويَةُ وٱبنُهُ ، وسعيدُ ٱبنُ العاصِ وٱبنُهُ ، فتغيَّرَ

وَجهي ، وقلْتُ لَهُ : أَينكَ مِنْ عليٍّ ؟ قالَ : إنَّ هٰذا يسأَلُ عَن فصحاءِ البشَرِ ، ولَم يسأَلْ عَن فصحاءِ الملائِكَةِ .

وشبيهٌ بهٰذا قولُ الواقديِّ : سُئِلَ المهلَّبُ عنِ ٱلشجعانِ ؟ فقالَ : ٱبنُ الكلبيَّةِ - يعني مصعبَ بنَ الزبيرِ - وعمرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ ، وعبادُ بنُ الحصينِ الحبطيُّ ، قيلَ لهُ : فأَينَ أَنتَ مِنْ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ، وعبدِ اللهِ بنِ حازمٍ ؟ فقالَ : إِنَّما كنَّا في ذكرِ الإنسِ ، ولم نكن في ذكرِ الجنِّ .

وقالَ الشعبيُّ : ما سمعتُ أَحداً يتكلَّمُ إلاَّ وَدِدْتُ أَنَّهُ سكتَ ، وإن أَحسنَ ، إلاَّ زياداً . . فإِنَّهُ لم يخرجْ قطُّ مِن حَسَنٍ إلاَّ إلىٰ أَحسنَ منهُ .

وجاءَ أَعرابيٌّ إِلىٰ حلقةِ الحسنِ وسمعَهُ يتكلَّمُ ، فقالَ : هوَ فصيحٌ إِذا لَفظَ ، نصيحٌ إِذا وعظَ [مِنَ البسيطِ] :

مُلَقَّـنٌ مُلْهَـمٌ فِيمَـا يُحَـاوِلُـهُ ... جَـمٌّ خَـوَاطِـرُهُ جَـوَّابُ آفَـاقِ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٧٣ مِنَ الوافرِ] :

مِـنَ ٱلسِّحْـرِ ٱلْحَـلاَلِ لِمُجْتَنِيـهِ ... وَلَـمْ أَرَ قَبْلَـهُ سِحْـراً حَـلاَلاَ

وهوَ مِن قولِهِ ﷺ : « إِنَّ مِنَ ٱلْبَيَانِ لَسِحْرَا »[1] .

وقالَ الرضيُّ [في « ديوانهِ » ٤٨١ مِنَ الكاملِ] :

إلاَّ تَكُنْ فِيْ ٱلْجَمْعِ أَمْضَىٰ طَعْنَةً ... فَلأَنْتَ أَمْضَىٰ خُطْبَةً فِيْ ٱلْمَجْمَعِ

---

(١) سلف وأخرجه عن ابن عمر رضي الله عنهما البخاري (٥١٤٦) في (النكاح) .

وإنِّي لأُحِسُّ بِانكسارٍ عظيمٍ في نفسي كلَّما نظرتُ في كتبِ الجاحِظِ ، أَوِ ٱبنِ المقفَّعِ ، أَو رسائلِ القدماءِ ومراجعاتِهم ، أَو ترسُّلِ لسانِ الدينِ بنِ الخطيبِ ، أَو عِباراتِ السعدِ ، أَوِ الغزاليِّ .

كَما لا أَخلو عَن شيءٍ مِنَ ٱلنخوَةِ وقتَما كنتُ أُدرِّسُ في « مفاتيحِ الغيب » للإمامِ الرازيِّ ؛ إِذ كنتُ أُعلِّقُ المعنىٰ بذِهني ثمَّ أُلقيهِ في عبارَةٍ ، يشهَدُ العارِفُ بمقاديرِ الكلامِ أَنَّها علىٰ البديهَةِ خيرٌ مِن عبارتِهِ التي يتروىٰ فيها ، فللّٰهِ الحمدُ والمنَّةُ ، ولأَبي ولسائِرِ مشايخي الرضوانُ والرحمَةُ .

* * *

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٦ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْقَيْلُ ٱلْمُقِيْمُ بِمَنْبِجٍ وَهِمَّتُهُ فَوْقَ ٱلسِّمَاكَيْنِ تُوْضِعُ

شرح المطلع

(القَيلُ) في الأَصلِ : ملكُ حِمْيَرٍ ، وقد سبقَ في غيرِ هٰذا المجلسِ كلامٌ يتعلَّقُ بهِ . و(منبجٌ) : بلدٌ بـ(الشامِ) ، و(السماكانِ) : نجمانِ ، هُما : السماكُ الرامحُ ، والسماكُ الأَعزلُ . و(الإِيضاعُ) : الإسراعُ .

المديح بكبر النفس وعلو الهمة

وما أَكثرَ ما يثني الناظِمُ علىٰ مَن يمدَحُ بكبرِ النفسِ ، وعلوِّ الهمَّةِ ؛ لِما يجدُ في صدرِهِ مِن ذلكَ ، فمنهُ قولُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

لَـهُ هِمَـمٌ لاَ مُنْتَهَـىٰ لِكِبَـارِهَـا وَهِمَّتُهُ ٱلصُّغْرَىٰ أَجَلُّ مِنَ ٱلدَّهْرِ[١]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٧١ مِنَ البسيطِ] :

حَتَّىٰ أَصَابَ مِنَ ٱلدُّنْيَا نِهَايَتَهَا وَهَمُّهُ فِيْ ٱبْتِدَاءَاتٍ وَتَشْبِيْبِ[٢]

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٢٧٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً يَشْتَهِيْ طُوْلَ ٱلْبِلاَدِ وَوَقْتُهُ تَضِيْـقُ بِـهِ أَوْقَـاتُـهُ وَٱلْمَقَـاصِـدُ

وقولُهُ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٢٧٧ مِنَ المنسرحِ] :

تَجَمَّعَـتْ فِـيْ فُـؤَادِهِ هِمَـمٌ مِـلْءُ فُـؤَادِ ٱلـزَّمَـانِ إِحْـدَاهَـا

---

(١) البيت لبكر بن النَّطَّاح في « ديوانه » .

(٢) التشبيبُ : ذكرُ أيَّامِ الشبابِ واللهوِ والغزلِ ، وهوَ يكونُ في ابتداءِ قصائدِ الشعراءِ ، هذا هوَ الأصلُ ، ثم سُمِّيَ ابتداءُ كلِّ أمرٍ تشبيباً ، وإن لم يكن فيه ذكرُ أيَّامِ الشبابِ .

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ] :

عَلَىٰ قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلَىٰ قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وقولُهُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٨٢ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْتَ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْ زَمَانِنَا   وَنَفْسِيْ عَلَىٰ مِقْدَارِ كَفَّيْكَ تَطْلُبُ

وقالَ العطويُّ فيما يشبِهُ بيتَ القصيدِ مِن طرفٍ خفيٍّ [مِنَ المنسرحِ] :

إِنْ كُنْتُ أَصْبَحْتُ لاَبِساً خَلَقاً   فَهِمَّتِـي فَـوْقَ هَـامَـةِ ٱلْمَلِـكِ

وقالَ التنوخيُّ [مِنَ الرَّجَزِ] :

وَأَنْفُـسٍ مَسْكَنُهَـا بَيْنَنَـا   وَهَمُّهَا فَوْقَ ٱلسِّمَاكِ وَٱلسُّهَا

وقالَ النعيميُّ الفقيهُ [في « طبقات الشافعية » ٥/ ٢٣٨ مِنَ المتقاربِ] :

إِذَا أَعْطَشَتْـكَ أَكُـفُّ ٱللِّئَـامِ   كَفَتْـكَ ٱلْقَنَـاعَـةُ شِبْعـاً وَرِيَّـا
فَكُـنْ رَجُـلاً رِجْلُـهُ فِـيْ ٱلثَّـرَىٰ   وَهَـامَـةُ هِمَّتِـهِ فِـيْ ٱلثُّـرَيَّـا

وقالَ بعضُ الصوفيَّةِ [مِنْ مُخَلَّعِ البسيطِ] :

يَـا رُبَّ شَخْـصٍ تَـرَىٰ قَـرِيْبـاً   وَرُوْحُـهُ فِـيْ ٱلْعُـلاَ تَجُـوْلُ

أقسام الصوفية عند انبعاق الأنوار

وما زالَ أُولئكَ الفريقُ ، وسالِكوا تلكَ الطريقِ ، متعلِّقوا الأرواحِ بالجمالِ الأَقدَسِ ، والملأِ العليِّ الأنفَسِ ، إلاَّ أَنَّهم يتفاوتونَ عندَ ٱنبِعاقِ الأَنوارِ[1] ، وٱنكشافِ الأَسرارِ .

---

(١) الانبعاقُ : أن ينبعق عليك الشيء فجأة وأنت لا تشعر . وانبعق المزن : انبعج بالمطر وفي الكلام : اندفع .

فمِنهم : مَن يغترُّ بمجرَّدِ ما يشمُّ نفحَهُ ، ويَشيمُ لَمحَهُ ، ويسكَرُ مِن زَبيبِهْ ، ويتوهَّمُ الخادِمَ حبيبَهُ ، فيسفلُ به الغرضُ ، وينتكِسُ عليهِ المرَضُ ، وينقلِبُ وَرَا ، ويفتَتِنُ بِما يرىٰ : ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا ﴾ [الأعراف : ١٧٥] .

ومنهُم : مَن تنكسرُ زجاجَتُهُ إِذا ٱنكشفَت عَجاجَتُهُ ، ويبوحُ بسرِّهِ ، ويضطربُ في أَمرِهِ ، ويعتريهِ خبلٌ ، وربَّما ٱختلَّ عليهِ العقلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

سَقَوْنِيْ وَقَالُوْا : لاَ تُغَنِّ وَلَوْ سَقَوْا ... جِبَالَ حُنَيْنٍ مَا سَقَوْنِـيْ لَغَنَّتِ

ومنهُم : مَن يأخذُهُ الهُيامُ ، ويغلبُهُ الاصطلامُ[1] ، فتراهُ حاضراً وهوَ غائبٌ ، وجامداً وهوَ ذائبٌ ، ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ﴾ [النمل : ٨٨] ، وهٰذا سرٌّ غيرُ مطويٍّ ، ولهُ فيما يُتعارَفُ شاهدٌ مرويٌّ ، هوَ [فيما رواه الأصفهاني في « الأغاني » ٢/ ٦٥] أَنَّ المجنونَ جاءَهُ بعضُ قرابتِهِ يلومُهُ ، ويعذلُهُ ، ويستكفُّهُ ، ويسليهِ ، وهوَ مصغٍ لكلامِهِ ، غيرَ أَنَّهُ لم يردَّ عليهِ ، فقالَ لَهُ : ما عندَكَ؟ قالَ لَهُ : وما قلْتَ؟! فإِنِّي لَم أَفقهْ خطابَكَ ، وإِنِّي لمنهوبُ الفكرِ ، مذهوبُ العقلِ ، مُبَلْبَلُ البالِ ، وأَنشأَ يقولُ [في « ديوانِهِ » ٢٣٤ مِنَ الكاملِ] :

وَأُدِيْمُ لَحْظَ مُحَدِّثِيْ حَتَّىٰ يَرَىٰ ... أَنْ قَدْ فَهِمْتُ وَعِنْدَكُمْ عَقْلِيْ
وشُغِلْتُ عَنْ فَهْمِ ٱلْحَدِيْثِ سِوَىٰ ... مَـا كَـانَ مِنْـكِ فَـإِنَّـهُ شُغْلِـيْ

وللهِ درُّ الذي يقولُ [في « المدهش » ٢٥٠ مِنَ البسيطِ] :

وَٱللهِ لَـوْ حَلَـفَ ٱلْعُشَّـاقُ أَنَّهُـمُ ... صَرْعَىٰ مِنَ ٱلْحُبِّ أَوْ مَوْتَىٰ لَمَا حَنِثُوْا

---

(١) الاصطلامُ : الاستئصالُ . ولعل المعنى المراد أنه غياب الحس والفكر . .

وما أَحسنَ قولَ رابعَةَ العدويَّةِ [في « ديوانها » ٧٨ـ٧٩ مِنَ الكاملِ] :

إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي ٱلْفُؤَادِ مُحَدِّثِي ... وَأَبَحْتُ جِسْمِيْ مَنْ أَرَادَ جُلُوسِيْ

فَٱلْجِسْمُ مِنِّيْ لِلْجَلِيْسِ مُؤَانِسٌ ... وَحَبِيْبُ قَلْبِيْ فِيْ ٱلْفُؤَادِ أَنِيْسِيْ

ومنهم : ٱلزاكي نباتُهُ ، الراسخُ ثباتُهُ ، الكاملةُ صفاتُهُ ، أُولئكَ هُم حججُ اللهِ وبيِّناتُهُ : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلَيْسَ عَجِيْباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعْجِزٌ وَأَنَّ ظُنُوْنِيْ فِيْ مَعَالِيْكَ ظُلَّعُ

هوَ شبيهٌ بقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٦٦ مِنَ الكاملِ] :

أَكَلَتْ مَفَاخِرُكَ ٱلْمَفَاخِرَ وَٱنْثَنَتْ عَنْ شَأْوِهِنَّ مَطِيُّ وَصْفِيَ ظُلَّعَا[(١)]

كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

يَفْنَىٰ ٱلْكَلاَمُ وَلاَ يُحِيْطُ بِوَصْفِكُمْ أَيُحِيْطُ مَا يَفْنَىٰ بِمَا لاَ يَنْفَدُ ؟!

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١١٩ مِنَ البسيطِ] :

مَحَامِدٌ نَزَفَتْ شِعْرِيْ لِيَمْلأَهَا فَآلَ مَا ٱمْتَلأَتْ مِنْهُ وَلاَ نَضَبَا[(٢)]

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٨٧ـ٢٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا حَارَتِ ٱلأَفْهَامُ فِيْ عُظْمِ شَأْنِهِ بِأَكْثَرَ مِمَّا حَارَ فِيْ حُسْنِهِ ٱلطَّرْفُ
فَـوَاعَجَبـاً مِنِّـيْ أُحَـاوِلُ نَعْتَـهُ وَقَدْ فَنِيَتْ فِيْهِ ٱلْقَرَاطِيْسُ وَٱلصُّحْفُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ١/ ١٩٤ مِنَ الطَّويلِ] :

تَجَاوَزَ قَدْرَ ٱلْمَدْحِ حَتَّىٰ كَأَنَّهُ بِـأَبْلَـغِ مَـا يُثْنَـىٰ عَلَيْـهِ يُعَـابُ

والأخيرُ مِن قولِ البُحتريِّ ، وقد مرَّ في غيرِ هـٰذا المكانِ [في « ديوانهِ » ١/ ١٥ مِنَ الخفيفِ] :

---

(١) شأْوهنَّ : سبقهنَّ . ظُلَّعُ ـ جمعُ ظالعٍ ـ : وهوَ الغامزُ من يدٍ أو رجلٍ ، أي : الأعرج .
(٢) آلَ : رجعَ .

جَلَّ عَنْ مَذْهَبِ ٱلْمَدِيْحِ فَقَدْ كَا … دَ يَكُـوْنُ ٱلْمَـدِيْـحُ فِيْـهِ هِجَـاءَ

وقالَ الناظِمُ أيضاً [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٨١ مِنَ البسيطِ] :

وَقَدْ وَجَدْتَ مَكَانَ ٱلْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ … فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَاناً قَائِلاً فَقُلِ

وقالَ أشجعُ [في « ديوانهِ » ٢٤٨ مِنَ الوافرِ] :

مَـدَحْنَـاهُـمْ فَلَـمْ نُـدْرِكْ بِمَـدْحٍ … مَـآثِـرَهُـمْ وَلَـمْ نَتْـرُكْ مَقَـالاَ

وقالَ ابنُ الحجَّاجِ [مِنَ الطَّويلِ] :

هُوَ ٱلْبَحْرُ إِنْ حَدَّثْتَ عَنْ مُعْجِزَاتِهِ … ضَعُفْتَ عَنِ ٱسْتِغْرَاقِ تِلْكَ ٱلْعَجَائِبِ
وَإِنْ رَامَ شِعْـرِيَ أَنْ يُحِيْـطَ بِـوَصْفِـهِ … أَحَاطَ بِشِعْرِيَ ٱلْعَجْزُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

وقالَ الماكيُّ [بل النامي في « قِرى الضيف » ١/ ٢٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

جَهِـدْتُ وَلَـمْ أَبْلُـغْ مَـدَاكَ بِمِـدْحَـةٍ … وَلَيْسَ مَعَ ٱلتَّقْصِيْرِ عِنْدِيْ سِوَىٰ ٱلْعُذْرِ(١)

وقالَ الرشيدُ لبعضِ الشعراءِ : هَل أحدثْتَ فينا شيئاً؟ قالَ : يا أميرَ المؤمنينَ ، المديحُ كلُّهُ دونَ قدرِكَ ، والشعرُ فيكَ فوقَ قَدري ، ولٰكنِّي أستحسِنُ قولَ العتَّابيِّ [مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا عَسَىٰ مَادِحٌ يُثْنِيْ عَلَيْكَ وَقَدْ … نَادَاكَ فِيْ ٱلْوَحْيِ تَقْدِيْسٌ وَتَطْهِيْرُ
فُـتَّ ٱلْمَمَـادِحَ إِلاَّ أَنَّ ٱلْسُنَنَـا … مُسْتَنْطَقَاتٌ بِمَا تُخْفِيْ ٱلضَّمَايِيْرُ

وقد أخذهُ البوصيريُّ ، أو غيرهُ في مدحِ سيِّدِ الوجودِ فقالَ [مِنَ البسيطِ] :

مَاذَا عَسَىٰ ٱلشُّعَرَاءُ ٱلْيَوْمَ قَائِلَةً … مِنْ بَعْدِ مَا مَدَحَتْ حَـمُ تَنْزِيْلُ

---

(١) في « قرى الضيف » : (سوى جهدي) بدل : (سوى العُذر) .

وقالَ ٱبنُ هانىءٍ الأَندلسيُّ ـ وقد أَساءَ الأَدبَ علىٰ اللهِ ؛ إِذ قالَ هـٰذا في مخلوقٍ ـ [في « ديوانهِ » ٩١ مِنَ البسيطِ] :

أَتْبَعْتُهُ فِكَرِيْ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَتْ غَايَاتِهَا بَيْنَ تَصْوِيْبٍ وَتَصْعِيْدِ
أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ بُرْهَانٍ يَلُوْحُ وَمَا أَبْصَرْتُ مَوْضِعَ تَكْيِيْفٍ وَتَحْدِيْدِ

وقالَ الشريفُ الرضيُّ فيما يمكنُ أَن يعدَّ مِن هـٰذا القبيلِ [في « ديوانهِ » ٧٩٥ مِنَ المنسرحِ] :

يَا مُخْرِسَ ٱلدَّهْرِ عَنْ مَقَالَتِهِ كُـلُّ زَمَـانٍ عَلَيْـكَ مُتَّهَـمُ
شَخْصُكَ فِيْ وَجْهِ كُلِّ دَاجِيَةٍ ضُحىً وَفِيْ كُلِّ مَجْهَلٍ عَلَمُ

وقد مرَّ بعضُ ما هُنا في الكلامِ علىٰ قولِهِ [في « العُكبريِّ » ٤/٢٩ مِنَ الكاملِ] :

[كَصِفَاتِ مَوْلاَنَا أَبِيْ ٱلْفَضْلِ ٱلَّتِيْ بَهَـرَتْ] فَـأَنْطَـقَ وَاصِفِيْـهِ وَأَفْحَمَـا

مِن ٱلمجلسِ الخامسِ .

* * *

[قالَ أَبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَنَّكَ فِيْ ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيْكُمَا	عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ

شرح المطلع والانتقاد عليه

يقولُ : أَليسَ عجيباً أَنَّ صدرَكَ هوَ أَوسعُ مِنَ ٱلأَرضِ؟! قد ٱشتملَ عليهِ ثوبٌ ، وتأليفُ البيتِ فيهِ ضعفٌ ، وقولُهُ : (وصدرُكَ فيكما) مِن الكلامِ الغثِّ البارِدِ ، وهوَ مثلُ **قولِهِ** [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٢٠ مِنَ البسيطِ] :

تَضِيْقُ عَنْ جَيْشِهِ ٱلدُّنْيَا وَلَوْ رَحُبَتْ ... كَصَدْرِهِ لَمْ تَبِنْ فِيْهَا عَسَاكِرُهُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٦٦-٦٧ مِنَ المتقاربِ] :

أَيَقْدَحُ فِيْ ٱلْخَيْمَةِ ٱلْعُذَّلُ ... وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ
تَضِيْقُ بِشَخْصِكَ أَرْجَاؤُهَا ... وَيَرْكُضُ فِيْ ٱلْوَاحِدِ ٱلْجَحْفَلُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٢/ ١٥٤ مِنَ الطَّويلِ] :

فَتىً لاَ يَضُمُّ ٱلْقَلْبُ هِمَّاتِ قَلْبِهِ ... وَلَوْ ضَمَّهَا قَلْبٌ لَمَا ضَمَّهُ صَدْرُ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٧٩ مِنَ البسيطِ] :

ضَاقَ ٱلزَّمَانُ وَوَجْهُ ٱلأَرْضِ عَنْ مَلِكٍ ... مِلْءِ ٱلزَّمَانِ وَمِلْءِ ٱلسَّهْلِ وَٱلْجَبَلِ

وقولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١٥٤ مِنَ المتقاربِ] :

وَمَنْ ضَاقَتِ ٱلأَرْضُ عَنْ نَفْسِهِ ... حَرىً أَنْ يَضِيْقَ بِهَا جِسْمُهُ[1]

---

(١) حَرىً : خليقٌ وحقيقٌ .

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٤/ ٢٧٧ـ٢٧٨ مِنَ المنسرحِ] :

تَجَمَّعَتْ فِيْ فُؤَادِهِ هِمَمٌ ... مِلْءُ فُؤَادِ ٱلزَّمَانِ إِحْدَاهَا

فَإِنْ أَتَىٰ حَظُّهَا بِأَزْمِنَةٍ ... أَوْسَعَ مِنْ ذَا ٱلزَّمَانِ أَبْدَاهَا

وقولِهِ [في « العُكبَرِيّ » ٢/ ٢٧٠ مِنَ الكاملِ] :

لَمْ يُرْضِ قَلْبَ أَبِيْ شُجَاعٍ مَبْلَغٌ ... قَبْلَ ٱلْمَمَاتِ وَلَمْ يَسَعْهُ مَوْضِعُ

تعظيم شان الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا

وقالَ ٱبنُ مطيرٍ ، أَو مروانُ بنُ أَبي حفصَةَ ، في رثاءِ معنٍ [ابن مطيرٍ في « ديوانهِ » ٦٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُوْدَهُ ... وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا[1] ؟

بَلَىٰ قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُوْدَ وَٱلْجُوْدُ مَيِّتٌ ... وَلَوْ كَانَ حَيّاً ضِقْتَ حَتَّىٰ تَصَدَّعَا

وقالَ أَشجعُ السلميُّ في رثاءِ عمرَ بنِ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبَةَ بنِ مسلمٍ [في « ديوان الحماسة » ١/ ٣٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَصْبَحَ فِيْ لَحْدٍ مِنَ ٱلأَرْضِ ضَيِّقٍ ... وَكَانَتْ بِهِ حَيّاً تَضِيْقُ ٱلصَّحَاصِحُ[2]

في مرثيَّةٍ جزلَةٍ ، تعدُّ مِن محاسِنِ المراثي ، وهيَ في « ديوانِ الحماسَةِ » [١/ ٣٥٥] ، مرَّ بعضُها في غيرِ هٰذا المجلسِ ، وقد ذكرنَا البيتَ في شرحِ قولِهِ [في « العُكبريّ » ٢/ ٣٣٥ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ ٱلْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ ... حَتَّىٰ قَضَىٰ . . فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

---

(١) مترعٌ : مملوءٌ .

(٢) الصحاصِحُ ـ جمعُ صحصحٍ ـ : وهوَ الأَرضُ الجرداءُ المستويةُ .

وقالَ آخرُ [وهو عبد الله بن أيوب التميمي في « ديوان الحماسة » ١/٣٩٦ مِنَ الكاملِ] :

عَجَباً لأَرْبَعِ أَذْرُعٍ فِيْ خَمْسَةٍ ... فِيْ جَوْفِهِ جَبَلٌ أَشَمُّ كَبِيْرُ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢٤٣ مِنَ البسيطِ] :

وَرَحْبُ صَدْرٍ لَوَ اَنَّ الأَرْضَ وَاسِعَةٌ ... كَوُسْعِهِ لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدُ

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/١٠٥ مِنَ الطَّويلِ] :

كَرِيْمٌ إِذَا ضَاقَ الزَّمَانُ فَإِنَّهُ ... يَضِلُّ الْفَضَاءُ الرَّحْبُ فِيْ صَدْرِهِ الرَّحْبِ

وقالَ [في « ديوانهِ » ٢/١٣١٩ـ١٣٢٠ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلَنْ تَكْبُرَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ بِأَسْرِهَا ... وَقَدْ وَسِعَتْهَا سَاحَةٌ مِنْ رِبَاعِهِ

تَضِيْعُ صُرُوْفُ الدَّهْرِ فِيْ بُعْدِ هَمِّهِ ... وَتَتْوَىٰ الرَّزَايَا فِيْ اتِّسَاعِ ذِرَاعِهِ[1]

وقالَ [في « ديوانهِ » ١/ ٧٤ مِنَ الكاملِ] :

يَحْمِلْنَ كُلَّ مُفَرَّقٍ فِيْ هِمَّةٍ ... فُضُلٍ يَضِيْقُ بِهَا الْفَضَاءُ السَّبْسَبُ[2]

وقالَ السريُّ الرَّفاءُ يَرثي مصلوباً [في « ديوانهِ » ٣٥٦ مِنَ الطَّويلِ] :

يَعِزُّ عَلَىٰ الْعَلْيَاءِ أَنْ حِيْلَ بَيْنَهُ ... وَبَيْنَ ظُبَا أَسْيَافِهِ وَالْعَوَامِلِ

وَلَيْسَ بِعَارٍ مَا عَرَاكَ وَإِنَّمَا ... حَمَاكَ اتِّسَاعُ الصَّدْرِ ضِيْقَ الْمَنَازِلِ

أَحَلَّكَ مِنْ أَعْلَىٰ الْهَوَاءِ مَحَلَّةً ... نَأَتْ بِكَ عَنْ ضِيْقِ الثَّرَىٰ وَالْجَنَادِلِ

---

(١) تتوىٰ : تهلكُ .

(٢) السبسبُ : المفازةُ . الفُضُلُ : الثوبُ الواحدُ يقسرُ عليه الرجلُ والمرأةُ وتبذلهُ للأعمالِ .

وقالَ [في « ديوانهِ » ٣١٤ مِنَ الكاملِ] :

رَحْبُ ٱلْمَنَازِلِ مَا أَقَامَ فَإِنْ سَرَىٰ ... فِيْ جَحْفَلٍ تَرَكَ ٱلْفَضَاءَ مَضِيْقَا

وقالَ أبو الحسنِ ٱبنُ الأَنباريِّ في قصيدتِهِ ، التي أَجادَ فيها ، وسبقَ لَنا ذكرُها [في « قِرى الضيف » ٢/٤٣٩ مِنَ الوافرِ] :

وَلَمَّا ضَاقَ بَطْنُ ٱلأَرْضِ عَنْ أَنْ ... تَضُمَّ عُلاَكَ مِنْ بَعْدِ ٱلْمَمَاتِ

أَصَارُوْا ٱلْجَوَّ قَبْرَكَ وَٱسْتَنَابُوْا ... عَنِ ٱلأَكْفَانِ ثَوْبَ ٱلسَّافِيَاتِ

سعة الصدر من آيات السؤدد

ولا يخفىٰ أَنَّ سعةَ الصدرِ آيَةُ السؤدَدِ ، وسُلَّمُ الشرفِ ، واللهُ جلَّ شأنُهُ يقولُ : ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الأنعام : ١٢٥] .

وٱنتهَت بموسىٰ عليه السلام الأَمانيُّ عندَ قولِهِ : ﴿ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴾ [طه : ٢٥ـ٢٧] .

وما طلبَهُ موسىٰ أُعطيهِ نبيُّنا صلواتُ اللهِ عليهِم مِن غيرِ سُؤَالٍ ، فقد قالَ لَهُ ربُّهُ : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح : ١] .

وجعلَهُ معَ ذلكَ أَفصحَ الناسِ .

أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه

وذكرَ ٱبنُ أَبي الحديدِ [في « شرح النهج »] أَمثلَةً مِن سعَةِ صدرِ معاويَةَ :

أَحدُها : أَنَّهُ وفدَ عليهِ أَهلُ الكوفَةِ حينَما خطبَ لابنهِ يزيدَ بولايَةِ العهْدِ مِن بعدِهِ ، وفي أَهلِ (الكوفَةِ) هاني بنُ عروَةَ المراديُّ ، وكانَ سيِّداً شريفاً ، فقالَ ـ والناسُ حولَهُ في مسجِدِ (دمشقَ) ـ :

عجباً لمعاويَةَ يوطِّىءُ الأَمرَ لابْنِهِ ، وحالُهُ معلومٌ ، يريدُ أَن يَقسِرَنا عليهِ ، وما ذلكَ بكائِنٍ واللهِ .

فأَسرعَ بها غلامٌ مِن قريشٍ إِلىٰ معاويَةَ ، فقالَ : ٱرجعْ إِليهِ ، وٱنصحْهُ إِذا خفَّ عنهُ الناسُ ، وقُل ما شئْتَ ، فقالَ لَهُ : قد وصلَت كلمتُكَ إِلىٰ معاويَةَ ، ومالَكَ والمجاهَرَةُ بهـٰذا ، وأَنتَ في أَيديهم ، وهُم بنو أُميَّةَ لا يخافونَ إِلاًّ ، ولا يرقبونَ ذمَّةً ، وما دعاني لهـٰذا غيرُ النصحِ لكَ ، والإِشفاقِ عليكَ ، فقالَ هاني : يا ٱبنَ أَخي ، واللهِ ما خرجَ هـٰذا إِلاَّ مِن صدرِ معاويَةَ ، فقالَ الفتىٰ : وما أَنا ؟ ومعاويَةُ لا يعرفُني ولا أَعرفُهُ ، فقالَ لَهُ : وما عليكَ ، إِذا لقيتَهُ . فقُل لَهُ : يقولُ لكَ هاني : واللهِ ما إِلىٰ ذلكَ مِن سبيلٍ ، فدخلَ الفتىٰ علىٰ معاويَةَ ، فأَخبرَهُ ، فقالَ : نستعينُ عليهِ بٱللهِ ، ثمَّ قالَ بعدَ أَيَّامٍ للوفدِ : ٱرفعوا حوائِجَكُم ـ وهاني فيهِم ـ فرفَعوا إِليهِ حوائِجَهم ، فقضاها ، ولمَّا رَفَعَ إِليهِ هاني حاجتَهُ . رَماها إِليهِ ، وقالَ : كنتُ أَرىٰ لكَ شأناً ، ثمَّ تسأَلُ هـٰذا النزرَ الحقيرَ ، فٱطلُب علىٰ قدرِ همَّتِكَ ، فزادَ في الرقعَةِ ما زادَ ، فرماها إِليهِ ثانيةً ، ولم يزَل يردُّها عليهِ ، ويستزيدُهُ ، حتَّىٰ ٱنقطَعَتْ بهِ الأَماني ، وٱستعبَدهُ الإِحسانُ ، فقالَ : لا واللهِ ما بقيَ في نفسي إِلاَّ حاجةٌ واحدةٌ ، قالَ : ما هيَ؟ قالَ : أَن تولِّيني الأَخذَ بالبيعَةِ ليزيدَ مِن أَهلِ (العراقِ) ، قالَ : دونَكَ ذلكَ . فأَحكَمَ أَمرَها ، وَوَثَّقَ عهدَها ، بمعونَةٍ مِنَ ٱلمغيرَةِ بنِ شعبَةَ ، وكانَ إِذ ذاكَ واليَ (العراقِ) .

والثاني : مرَّتْ قافلَةٌ مِنَ اليمَنِ لمعاويَةَ بـ(المدينَةِ) ، فوثَبَ علَيها الحسينُ بنُ عليٍّ فأَخذَها ، وكتبَ إِلىٰ معاويَةَ :

أمّا بعدُ : فإنَّ عيراً مرَّت بنا مِن (اليمَنِ) ، تحمِلُ مالاً ، وحُلَلاً ، وعنبراً ، وإنِّي ٱحتجْتُ إليها ، فأخذتُها ، والسلامُ .

فكتبَ إليهِ معاويَةُ كتاباً يقولُ فيهِ : وٱيمُ اللهِ ، لَو تركتَ ذلكَ حتَّىٰ يصيرَ إلينا ، ثمَّ طلبتَهُ . . لَم نمنعْهُ دونكَ ، وإنِّي لأرىٰ في رأسِكَ يا ٱبنَ أخي نزوَةً ، وبودِّي أن أكونَ صاحبَها ؛ لأغفرَها لكَ وكتبَ أسفلَ الكتابِ [في « ديوانهِ » ١٠٠ مِنَ الرَّمَلِ] :

يَا حُسَيْنُ بْنَ عَلِيٍّ لَيْسَ مَا جِئْتَ بِٱلسَّائِغِ يَوْماً فِيْ ٱلْعِلَلْ
أَخْذُكَ ٱلْمَالَ وَلَمْ تُؤْمَرْ بِهِ إِنَّ هَـٰذَا مِنْ حُسَيْنٍ لَعَجَلْ
قَدْ أَجَزْنَاهَا وَلَمْ نَغْضَبْ لَهَا وَٱحْتَمَلْنَا مِنْ حُسَيْنٍ مَا فَعَلْ

والثالِثُ : أنَّهُ كانَ لهُ بستانٌ بـ(الطائِفِ) ، إلىٰ جانبِهِ بستانٌ آخرُ لابنِ الزبيرِ ، فطفِقَ غلمانُهُ يعيثونَ في بستانِ ٱبنِ الزبيرِ ، فكتبَ إليهِ يستكفُّهُم ، ويقولُ : إن دفعتَهم عنِّي . . وإلاَّ كانَ لي ولكَ شأنٌ ، فاستشارَ أصحابَهُ في الجوابِ ، فقالَ لهُ أحدُهم ـ وأظنُّهُ ٱبنُهُ يزيدُ ـ : أرىٰ أنْ تبعثَ لهُ بجيشٍ ، أوَّلُهُ عندَهُ ، وآخرهُ عندكَ ، حتَّىٰ يعرفَ مكانَهُ ، فقالَ : أَوَخيرٌ مِن ذلكَ ، فكتبَ إليهِ يعترِفُ بفضلِهِ ، وفضلِ أبيهِ ، وسابقتِهِ ، وأضافَ بستانَهُ وغلمانَهُ إلىٰ بستانِ ٱبنِ الزبيرِ وغلمانِهِ .

لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله

ثمَّ إنَّهُ لا يفيدُ الكرَمُ والعفوُ إلاَّ مَعَ أهلِهِ ، مِمَّنْ يقودُهُم ٱلإحسانُ بخُزامِهِ ، ويقتُلُهم العفوُ بحسامِهِ ، قالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/٢٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا قَتَلَ ٱلأَحْرَارَ كَـٱلْعَفْوِ عَنْهُمُ وَمَنْ لَكَ بِٱلْحُرِّ ٱلَّذِي يَحْفَظُ ٱلْيَدَا

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٤/١٣٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَحْلُمُ عَنْ خِلِّيْ وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مَتَىٰ أَجْزِهِ حِلْماً عَلَىٰ الْجَهْلِ يَنْدَمِ

كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله

أَمَّا إذا كانَ معَ غيرِ أَهلِهِ . . فإِنَّهُ لا يعودُ إِلاَّ بسوءِ المغبَّةِ ، وقد فكَّرتُ مرَّةً في ٱصطناعِ المعروفِ إِلىٰ اللئامِ ، فلم أَرَ نكبَةً لَها في التاريخِ ذكرٌ إِلاَّ كانَ أَصلُها مِن هـٰذا القبيلِ ، حتَّىٰ لقد ذكرتُ في مقالٍ نافعٍ أَكثرَ مِن أَربعينَ واقعَةً ، كلُّها يصلُحُ شاهداً لِمَا أَقولُ ، مِنها : قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴾ [القصص : ١٩] ؛ إِذ لَم يَغِشَّ علىٰ موسىٰ إِلاَّ الإسرائيليُّ الذي نصرَهُ بالأمسِ ، وقد جرَّبتُ ذلكَ في نفسي ، وَقانا اللهُ شرَّ مَن أَحسنَّا إِليهِ .

وصدَقَ سفيانُ [الثوريُّ] في قولِهِ [في « حلية الأولياء » ٦/٣٩٠] :

ما وَجدنا أَصلَ كُلِّ عَداوَةٍ . . سِوَىٰ ٱصطِناعِ ٱلمَعروفِ إِلىٰ غَيرِ أَهلِهِ

وقد قالَ زهيرٌ [في « ديوانهِ » ٢٦ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ يَفْعَلِ ٱلْمَعْرُوْفَ فِيْ غَيْرِ أَهْلِهِ يَعُدْ حَمْدُهُ ذَمّاً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وقالَ بعضُ الأَعرابِ [في « مجمع الأمثال » ٢/١٤٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَنْ يَفْعَلِ ٱلْمَعْرُوْفَ فِيْ غَيْرِ أَهْلِهِ يُجَازَىٰ كَمَا جُوْزِيْ مُجِيْرُ أُمِّ عَامِرِ[1]

(١) مجيرُ أُمِّ عامرٍ : وهيَ الضَّبُعُ ، مثلٌ عربيٌّ قصَّتُهُ هي : طَرَدَ قومٌ ضَبُعاً حتَّىٰ أَلجؤوها إِلىٰ خيمَةِ أَعرابيٍّ ، فأَجارَها ، فقالوا لهُ صيدُنا وطريدتُنا ، فقالَ كلاَّ ، والذي نفسي بيدِهِ : لا تَصِلونَ إِليها ما ثَبَتَ قائِمُ سيفي بيدي ، فتركوهُ ، فقرَّبَ إِليها لبناً ، فأَقبلَتْ تَلَغُ فيهِ . . حتَّىٰ شبِعَتْ ، وبينما هو نائِمٌ في جوفِ بيتِهِ . . إِذ وثبَتْ عليهِ ، فبقَرَتْ بطنَهُ ، وذهبَتْ ، فأَخَذَ ٱبنُ عمٍّ لهُ قوسَهُ وكنانَتَهُ ، فلَم يزل=

بَـرَاهَـا وَرَبَّـاهَـا فَلَمَّـا تَمَكَّنَـتْ   فَـرَتْـهُ بِـأَنْيَـابٍ لَهَـا وَأَظَـافِـرِ

و[روى الميداني في « مجمع الأمثالِ » ٢٣٧١ أنه] ربَّىٰ أحدُهم جروَ ذئبٍ يرضعُهُ مِن شاتِهِ ، فلمَّا قويَ . . أفترسَها ، فقالَ [مِنَ الوافرِ] :

بَقَرْتَ شُوَيْهَتِيْ وَفَجَعْتَ أَهْلِيْ   فَمَـنْ أَنْبَـاكَ أَنَّ أَبَـاكَ ذِيْـبُ

إِذَا كَـانَ ٱلطِّبَـاعُ طِبَـاعَ سُـوْءٍ   فَـلا لَبَـنٌ يُفِيْـدُ وَلاَ حَلِيْـبُ

وما أحسنَ قولَ المهلَّبيِّ [مِنَ البسيطِ] :

لَمَّا ٱعْتَقَدْتُمْ أُنَاساً لاَ حُلُوْمَ لَهُمْ   ضِعْتُـمْ وَضَيَّعْتُـمُ مَـنْ كَـانَ يَعْتَقِـدُ

وَلَوَ جَعَلْتُمْ عَلَىٰ ٱلأَحْرَارِ نِعْمَتَكُمْ   حَمَتْكُمُ ٱلسَّادَةُ ٱلْمَذْكُوْرَةُ ٱلْحُشُدُ

قَوْمٌ هُمُ ٱلْجِذْمُ وَٱلأَنْسَابُ تَجْمَعُهُمْ   وَٱلْمَجْدُ وَٱلدِّيْنُ وَٱلأَرْحَامُ وَٱلْبَلَدُ[1]

إِذَا قُـرَيْـشٌ أَرَادُوْا شَـدَّ مُلْكِهِـمُ   بِغَيْـرِ قَحْطَـانَ لَـمْ يَبْـرَحْ بِـهِ أَوَدُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ١٨٧ـ١٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا قِيْلَ: رِفْقاً قَالَ: لِلْحِلْمِ مَوْضِعٌ   وَحِلْمُ ٱلْفَتَىٰ فِيْ غَيْرِ مَوْضِعِهِ جَهْلُ

وَلَـوْلاَ تَـوَلِّـيْ نَفْسِـهِ حَمْـلَ حِلْمِـهِ   عَنِ ٱلأَرْضِ لانْهَدَّتْ وَنَاءَ بِهَا ٱلْحِمْلُ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مِنَ ٱلْحِلْمِ أَنْ تَسْتَعْمِلَ ٱلْجَهْلَ دُوْنَهُ   إِذَا ٱتَّسَعَتْ بِٱلْحِلْمِ طُرْقُ ٱلْمَظَالِمِ

وقالَ سعدُ بنُ ناشبٍ [في « جمهرة الأمثال » ١/ ٢٧٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَفِيْ ٱللِّيْنِ ضَعْفٌ وَٱلشَّرَاسَةِ هَيْبَةٌ   وَمَنْ لاَ يُهَبْ يُحْمَلْ عَلَىٰ مَرْكَبٍ وَعْرِ

= في طلبِها حتَّىٰ قتلَها ، وأنشأَ يقولُ :

ومن يصنعِ المعروف في غير أهله   يـلاقِ الـذي لاقـى مجير أم عـامـر

في أربعة أبيات انظر في « المستقصى في أمثال العرب » (٢/ ٢٣٣) .

(١) الجِذم : بالكسر الأصل ، وبالفتح القطع .

وقالَ أَوسُ بنُ حبناءَ [كما في «البيان والتبيين» ١/ ٣٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْمَـرْءُ أَوْلاَكَ ٱلْهَـوَانَ فَـأَوْلِـهِ   هَوَاناً وَإِنْ كَانَتْ قَرِيباً أَوَاصِرُهْ(١)

وقدِ ٱرتاحَ النبيُّ ﷺ مِن قولِ النابغَةِ الجعديِّ [في «ديوانهِ» ٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَلاَ خَيْرَ فِيْ حِلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ   بَوَادِرُ تَحْمِيْ صَفْوَهُ أَنْ يُكَدَّرَا

وقالَ قيسُ بنُ زهيرٍ ـ [في «مجمع الأمثال» ٢/ ١١٦] يرثي حَمَلَ بنَ بدرٍ ، وهوَ ممَّا تمثَّلَ بهِ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ [في «جمهرة خطب العرب» ٢/ ١٢٧ مِنَ الوافرِ] ـ :

أَظُـنُّ ٱلْحِلْـمَ دَلَّ عَلَـيَّ قَـوْمِـيْ   وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ ٱلرَّجُلُ ٱلْحَلِيْمُ

ومِن مراثي قيسٍ في حَمَلِ بنِ بدرٍ وأَخيهِ عيينَةَ ـ وكانَ هوَ الذي قتلَهما يومَ جفرِ الهباءَةِ ـ قولُهُ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٦٤ مِنَ الوافرِ] :

شَفَيْتُ ٱلنَّفْسَ مِنْ حَمَلِ بْنِ بَدْرٍ   وَسَيْفِيْ مِنْ عُيَيْنَةَ قَدْ شَفَانِيْ
وَإِنْ أَكُ قَدْ شَفَيْتُ غَلِيْلَ صَدْرِيْ   فَلَـمْ أَقْطَـعْ بِهِـمْ إِلاَّ بَنَـانِـيْ

وقالَ الحصينُ بنُ الحمامِ في مثلِهِ [في «الأغاني» ١٣/ ١٦٢ مِنَ الطَّويلِ] :

نُفَلِّـقُ هَـامـاً مِـنْ رِجَـالٍ أَعِـزَّةٍ   عَلَيْنَا وَهُمْ كَانُوْا أَعَقَّ وَأَظْلَمَا

وقالَ العديلُ بنُ الفُرْخِ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٢٠٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنِّي وَإِنْ عَادَيْتُهُمْ أَوْ جَفَوْتُهُمْ   لَتَأْلَمُ مِمَّا عَلَّ أَكْبَادَهُمْ كَبْدِيْ

---

(١) وتتمة الأبيات :

فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَقْدِرْ عَلَىٰ أَنْ تُهِيْنَهُ   فَذَرْهُ إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِيْ أَنْتَ قَادِرُهْ
وَقَـارِبْ إِذَا لَـمْ تَكُـنْ لَـكَ قُـدْرَةٌ   وَصَمِّـمْ إِذَا أَيْقَنْـتَ أَنَّـكَ عَـاقِـرُهْ

وقالَ منصور النميريُّ للرشيدِ ، حينَما شدَّ وطأتَهُ علىٰ العلويِّينَ [في « الأغاني » ١٣/ ١٦٢ مِنَ الوافرِ] :

وَإِنَّـكَ حِيْـنَ تُبْلِغُهُـمْ أَذَاهُـمْ ... وَإِنْ ظَلَمُـوْا لَمُحْتَـرِقُ ٱلضَّمِيْـرِ

من قطعةٍ سبقَ بعضُها أواخرَ المجلسِ الثالثَ عشرَ ، وغايةُ الغاياتِ في الموضوعِ . . قولُ أَبي عُبادَةَ [في «ديوانه» ٢/ ١٢٩٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱحْتَرَبَتْ يَوْماً فَفَاضَتْ دِمَاؤُهَا ... تَذَكَّرَتِ ٱلْقُرْبَىٰ فَفَاضَتْ دُمُوْعُهَا

ولَم ينسَ حظَّهُ الناظِمُ منهُ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٩ مِنَ الوافرِ] :

وَكَيْفَ يَتِمُّ بَأْسُكَ فِيْ أُنَاسٍ ... تُصِيْبُهُمُ فَيُؤْلِمُكَ ٱلْمُصَابُ ؟!

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١١١-١١٢ مِنَ الوافرِ] :

بَنُـوْ كَعْـبٍ وَمَـا أَثَّرْتَ فِيْهِـمْ ... يَـدٌ لَـمْ يُـدْمِهَـا إِلاَّ ٱلسِّـوَارُ

بِهَـا مِـنْ قَطْعِـهِ أَلَـمٌ وَنَقْـصٌ ... وَفِيْهَـا مِـنْ جَـلاَلَتِـهِ ٱفْتِخَـارُ

لَهُـمْ حَـقٌّ بِشِـرْكِـكَ فِـيْ نِـزَارٍ ... وَأَدْنَىٰ ٱلشِّرْكِ فِيْ أَصْلٍ جِوَارُ

لَعَـلَّ بَنِيْهِـمُ لِبَنِيْـكَ جُنْـدٌ ... فَـأَوَّلُ قُـرَّحِ ٱلْخَيْـلِ ٱلْمِهَـارُ[1]

وَأَنْـتَ أَبَـرُّ مَـنْ لَـوْ عُـقَّ أَفْنَـىٰ ... وَأَعْفَـىٰ مَـنْ عُقُـوْبَتُـهُ ٱلْبَـوَارُ

وَأَقْـدَرُ مَـنْ يُهَيِّجُـهُ ٱنْتِصَـارٌ ... وَأَحْلَـمُ مَـنْ يُحَلِّمُـهُ ٱقْتِـدَارُ

وقد سبقَ أَواخرَ المجلسِ الثاني بعضُ ما يتعلَّقُ بالعفوِ ، وحكمةُ ٱنتقامِهِ ﷺ مِنَ ٱليهودِ ، ومَنِّهُ علىٰ قريشٍ .

* * *

(١) القُرَّحُ: الخيل إذا ٱستوت وصارَ لها خمسُ سنينَ. المِهارُ - جمعُ مهرٍ -: وهوَ الصغيرُ من الخيلِ.

[قالَ أبو الطَّيِّبِ المتنبِّي في « العُكبَريِّ » ٢/ ٢٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

أَلاَ كُلُّ سَمْحٍ غيْرَكَ ٱلْيَوْمَ بَاطِلٌ وَكُلُّ مَدِيْحٍ فِيْ سِوَاكَ مُضَيَّعُ

كل مديح في غير الممدوح.. ضياع

معناهُ مِن قولِ ٱبنِ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٤٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَكُلُّ مَدِيْحٍ لَمْ يَكُنْ فِيْ ٱبْنِ صَاعِدٍ وَلاَ فِيْ أَبِيْـهِ صَاعِـدٍ فَهْوَ هَـابِطُ

مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه

ويروىٰ [في « تاريخ بغداد » ١٣/ ١٤٤] : أَنَّ مروانَ ٱبنَ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ المهديِّ بعدَ موتِ معنِ بنِ زائدَةَ في جماعَةٍ مِنَ ٱلشعراءِ ، فيهِم سلْمٌ الخاسِرُ وغيرُهُ ، فأَنشدَهُ مديحاً فيهِ ، فقالَ : مَن هٰذا؟ قالَ : شاعرُكَ مروانُ ٱبنُ أَبي حفصَةَ ، فقالَ لَهُ المهديُّ : أَوَلستَ القائِلَ؟

[في « ديوانهِ » ٨٣ مِنَ الوافرِ] :

أَقَمْنَـا بِـٱلْيَمَـامَـةِ إِذْ يَئِسْنَـا مُقَـامـاً لاَ نُـرِيْـدُ بِـهِ زِيَـالاَ
وَقُلْنَا : أَيْنَ نَرْحَلُ بَعْدَ مَعْنٍ ؟ وَقَدْ ذَهَبَ ٱلنَّوَالُ فَلاَ نَوَالاَ!

فكيفَ جِئْتَ تطلُبُ نوالَنا ، وقد ذهبَ النوالُ في زعمِكَ؟! لا شيءَ لكَ عندَنا ، جُرُّوا برجلِهِ ، فجرُّوا برجلِهِ حتَّىٰ أَخرجوهُ .

فلمَّا كانَ العامُ المقبلُ . . تلطَّفَ حتَّىٰ دخلَ معَ الشعراءِ ، وإِنَّما كانَتِ الشعراءُ تدخُلُ علىٰ الخلفاءِ في يومٍ واحدٍ مِن كلِّ عامٍ ، وأَنشدَهُ قصيدَتَهُ التي ٱستهلَّها بقولِهِ [مِنَ الكاملِ] :

(طَرَقَتْكَ زَائِرَةً فَحَيِّ خَيَالَهَا)

يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ٩٧ـ٩٩ مِنَ الكاملِ] :

مَلِـكٌ تَفَـرَّعَ نَبْعُـهُ مِـنْ هَـاشِـمٍ مَدَّ ٱلإِلَـٰهُ عَلَىٰ ٱلأَنَامِ ظِلاَلَهَا

جَبَـلٌ لأُمَّتِـهِ تَلُـوْذُ بِـرُكْنِـهِ   رَادَىٰ جِبَـالَ عِـدَاتِـهِ فَـأَزَالَهَـا
هَـلْ تَعْلَمُـوْنَ خَلِيْفَـةً مِـنْ قَبْلِـهِ   أَجْرَىٰ لِغَايَتِهِ ٱلَّتِيْ أَجْرَىٰ لَهَا ؟
أَفَتَطْمِسُوْنَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ نُجُوْمَهَا   بِأَكُفِّكُمْ أَمْ تَسْتُرُوْنَ هِلاَلَهَا ؟
أَمْ تَجْحَدُوْنَ مَقَالَةً مِنْ رَبِّكُمْ   جِبْـرِيْـلُ بَلَّغَهَـا ٱلنَّبِـيَّ فَقَـالَهَـا

رضاه عنه وجلوسه بين يديه ليسمع مديح نفسه

فأنصتَ لها المهديُّ ، ولَم يزلْ يزحَفُ شيئاً فشيئاً ، كلَّما سمعَ شيئاً مِنها . . حتَّىٰ صارَ علىٰ البساطِ ؛ إعجاباً بِها ، وٱرتياحاً مِنها ، ثمَّ قالَ لَهُ : كَم بيتٌ هيَ؟ قالَ : مئةُ بيتٍ ، فأمرَ لَهُ بمئةِ ألفِ درهَمٍ ، **وهيَ أَوَّلُ مئةِ أَلفٍ أُعطيَها شاعرٌ في خلافَةِ بَني العبَّاسِ** [كما في « تاريخ بغداد » ١٣/١٤٥] .

الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن

ويروىٰ : أنَّ مروانَ ٱبنَ أَبي حفصَةَ دخلَ علىٰ جعفرٍ البرمكيِّ ، فقالَ لَهُ : أَنشدني مرثيَّتَكَ في معنٍ ، فأنشدَهُ ، حتَّىٰ فرغَ مِنَ ٱلقصيدَةِ ، ودموعُ جعفرٍ تتحادَرُ علىٰ خدَّيهِ ، فلمَّا فرغَ . . قالَ لَهُ جعفرٌ : هَل أَثابَكَ عَليها أَحدٌ مِن ولدِهِ؟ قالَ : لا ، قالَ لَهُ : فَلَو كانَ معنٌ حيّاً . . كَم كانَ يثيبُكَ علَيها؟ قالَ : أَربَعَ مِئَةِ دينارٍ ، قالَ لَهُ : قد أَضعفْناها لكَ عنهُ ، وزِدْناكَ مثلَ ذلكَ ، فٱقبضْ مِنَ ٱلخازنِ أَلفاً وستَّ مِئَةِ دينارٍ قبلَ أَن تنصرِفَ إِلىٰ رَحلِكَ ، فٱمتدَحَ جعفراً بأَبياتٍ ، وتسَلَّمَ المالَ .

ويقالُ [في « الأغاني » ٢٠/٥٦] : إِنَّهُ دخلَ علىٰ الرشيدِ ـ أَيضاً ـ فٱستنشدَهُ المرثيَةَ المذكورَةَ ، وبينَ يدي الرشيدِ سُكُرُجَّةٌ ، فملأَها مِن دموعِهِ[1] ، وهيَ عرضَةُ ذلكَ ، ولَولا خشيَةُ الإملالِ . .

(١) قالَ في « الأغاني » ٢٠/٥٦ فلمَّا ٱنتهىٰ مِن إنشادِها . . بكىٰ هارونُ الرشيدُ ، ولو كانَ بينَ يديهِ سُكُرُجَّةٌ لملأَها مِن دموعِهِ .

لذكرْتُها ، ولكنَّها موجودةٌ في كتبِ التواريخِ ؛ لأنَّها ومرثيَّةَ الحسينِ بنِ مطيرٍ[1] أحسنُ ما قيلَ في رثاءِ معنٍ ، ولقلَّما ذكرتُ قصيدَةَ مروانَ السابقَةَ . . إلاَّ تمثَّلتُ بقولِ أبي تمَّامٍ [مِنَ الطَّويلِ] :

فَإِنْ أَنَا لَمْ يَمْدَحْكَ عَنِّيَ صَاغِراً عَدُوُّكَ فَاعْلَمْ أَنَّنِي غَيْرُ شَاعِرِ

وقولِ أبي عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١١٦٩ مِنَ الكاملِ] :

لَيُوَاصِلَنَّكَ رَكْبُ شِعْرِيَ دَائِماً يَـرْوِيـهِ فِيـكَ لِحُسْنِـهِ ٱلأَعْـدَاءُ

وقولِ الناظمِ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ٥٣ مِنَ الطَّويلِ] :

وَأَسْمَـعُ مِـنْ أَلْفَـاظِـهِ ٱللُّغَـةَ ٱلَّتِـيْ يَلَذُّ بِهَا سَمْعِيْ وَإِنْ ضُمِّنَتْ شَتْمِيْ

وقولِ ٱبنِ نباتَةَ السعديِّ [في « المثل السائر » ٢/ ٣٢٩ مِنَ البسيطِ] :

خُذْهَا إِذَا أُنْشِدَتْ فِيْ ٱلْحَيِّ مِنْ طَرَبٍ صُـدُوْرُهَـا عُـرِفَـتْ مِنْهَـا قَـوَافِيْهَـا
يَنْسَىٰ لَهَا ٱلرَّاكِبُ ٱلْعَجْلَانُ حَاجَتَهُ وَيُصْبِـحُ ٱلْحَـاسِـدُ ٱلظَّمْـآنُ يَـرْوِيْهَـا

فإنِّي بِها جِدُّ معجَبٌ ، علىٰ مخالفتِها لمذهَبي ومشرَبي .

رثاء أبي دلامة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه

ولمَّا ماتَ أَبو العبَّاسِ السفَّاحُ . . دخَلَ أَبو دلامَةَ علىٰ المنصورِ ، والناسُ يعزُّونَهُ ، فأَنشدَهُ [في « ديوانهِ » ٦٨ مِنَ الكاملِ] :

أَمْسَيْتَ بِٱلأَنْبَارِ يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ لَمْ تَسْتَطِعْ عَنْ غَيْرِهَا تَحْوِيْلاَ
فَلَتَبْكِيَـنَّ لَـكَ ٱلنِّسَـاءُ بِعَبْـرَةٍ وَلَتَبْكِيَـنَّ لَـكَ ٱلـرِّجَـالُ عَـوِيْـلاَ
مَاتَ ٱلنَّدَىٰ إِذْ مِتَّ يَا ٱبْنَ مُحَمَّدٍ فَجَعَلْتَهُ لَكَ فِيْ ٱلتُّرَابِ عَدِيْلاَ
إِنِّيْ سَأَلْتُ ٱلنَّاسَ بَعْدَكَ كُلَّهُمْ فَوَجَدْتُ أَسْمَحَ مَنْ سَأَلْتُ بَخِيْلاَ

---

(١) التي يقول فيها :

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُوْدَهُ وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

ٱلشِقْـوَتِـيْ أُخْـرِتُ بَعْـدَكَ لِلَّتِـيْ تَدَعُ ٱلْعَزِيْزَ مِنَ ٱلرِّجَالِ ذَلِيْلاَ

فَـلأَحْلِفَــنَّ يَمِيْــنَ حَــقٍّ بَــرَّةٍ تَـٱللهِ مَـا أُعْطِيْتُ بَعْـدَكَ سُـؤْلاَ

فأبكىٰ الناسَ ، وأغضبَ المنصورَ ، حتَّىٰ قالَ لَهُ : لئِن سمعتُكَ تنشدُها مرَّةً أُخرىٰ . . لأقطعَنَّ لسانَكَ ، فقالَ أبو دلامَةَ : إِنَّهُ كانَ لي مكرِماً ، وقد جاءَني مِنَ البدوِ كَما جاءَ اللهُ بإِخوةِ يوسفَ إِليهِ ، فقُل أَنْتَ كَما قالَ يوسفُ : لا تثريبَ عليكَ ، فسرِّيَ عَنِ المنصورِ ، وقالَ : قد أَقَلْناكَ يا أبا دلامَةَ ، فسلْ حاجتَكَ ، فقالَ : قد أمر لي أبو العبَّاسِ بعشرَةِ آلافِ درهمٍ ، وخمسينَ ثوباً ، وهوَ مريضٌ ، فلَم أَقبضْها ، فقالَ المنصورُ : مَن يعلَمُ ذلكَ؟ فشهدَ لَهُ سليمانُ بنُ مجالدٍ ، وأبو الجهمِ ، فقالَ المنصورُ : ٱدفعَها إِليهِ ، وسيِّرْهُ إِلىٰ هـٰذا الطاغيَةِ ـ يعني عمَّهُ عبدَ اللهِ بنَ عليٍّ ، وكانَ قد أظهرَ الخلافَ ، وخرجَ بناحيةِ (الشام) ـ فوثبَ أبو دلامَةَ ، وقالَ : أُعيذُكَ باللهِ أَنْ أَخرجَ معَهُم ، فإِنِّي واللهِ لمشؤُومٌ ، فقالَ لَهُ المنصورُ : ٱمضِ فإِنَّ يُمْننَا يغلِبُ شؤمَكَ ، فقالَ : ما أُحِبُّ لكَ أَن تجرِّبَ منِّي ذلكَ علىٰ هـٰذا العسكرِ ؛ فإِنِّي لا أَدري أَيُّهُما يغلِبُ ، يُمنُكَ أَو شُؤمي ، غيرَ أَنِّي بنفسي أَدرىٰ وأَعرَفُ وأَطولُ تجربَةً ، فقالَ المنصورُ : دَعني مِن هـٰذا ، فمالَكَ بدٌّ مِنَ ٱلخروجِ ، قالَ : فإِنِّي أَصدُقُكَ الآنَ ، شهدتُ واللهِ تسعَةَ عشرَ عسكراً ، هُزِمَت كلُّها ، وكنتُ أَنا سببَ هزيمتِها ، فإِنْ شئتَ الآنَ علىٰ بصيرَةٍ أَن يكونَ عسكرُكَ تمامَ العشرينِ . . فٱفعَل ، فٱستفرغَ المنصورُ ضحكاً ، وأَذِنَ لَهُ أَن يتخلَّفَ .

الحر تكفيه الإشارة

وما زالَ الشِّعرُ وأَهلُهُ في الاعتبارِ الأَوَّلِ عندَ الأُمويِّينَ والعباسيِّينَ يتأَثَّرونَ بأَقوالِهم ، ويقبلونَ شفاعاتِهم ، ويُغْضُونَ عَن هفواتِهم ،

ويتنافسونَ في اصطناعِهِم ، ويتحاسَدونَ على بناتِ أفكارِهم ، وما ذلكَ إلاَّ لكرَمِ طباعِهِم ؛ فالكريمُ هوَ الذي يتأثَّرُ بالكلامِ ، ويهربُ مِن الملامِ ، وقد قالَ جلَّ شأنُهُ : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات : ٥٥] .

وذلكَ أنَّ المؤمنَ لا يكونُ إلاَّ كريماً ، والكريمُ ينفعِلُ بالكلامِ ، ولا سيَّما إذا كانَ بليغاً ، ولهٰذا ٱستحبُّوا البلاغَةَ في الخطابَةِ ، وحسبُكَ أنَّ كثيراً مِن ظَلَمَتِهِم وجبَّاريهِم يحقِنُ الدماءَ الغزيرَةَ لِكَلِمَةٍ تملأُ سمعَهُ مِنَ ٱلشاعِرِ ، فأمَّا الآنَ . . فقد ذهبَتْ العروبيَّةُ ، بلِ ٱنمسخَتِ ٱلإنسانيَّةُ ، قالَ ٱبنُ الروميِّ [في « ديوانه » ٢/ ٦٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

أَرَىٰ ٱلنَّاسَ مَخْسُوْفاً بِهِمْ غَيْرَ أَنَّهُمْ ... عَلَىٰ ٱلأَرْضِ لَمْ يُقْلَبْ عَلَيْهِمْ صَعِيْدُهَا

أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية

ومِنَ ٱلأَدلَّةِ علىٰ تأْثيرِ الشِّعرِ ونفوذِهِ [كما في « الكامل في أسماء الرجال » ١/ ٤٣٠] : ما فعلَهُ الحارثُ ٱبنُ أبي شمرٍ الغسانيُّ ، فلَقد أَسر شَاسَ بنَ عبدَةَ في تسعينَ مِن بني تميمٍ وغيرِهم مِنَ ٱلعَربِ ، فقدِمَ عليهِ علقمَةُ الفحلُ وٱستعطفَهُ بقصيدتِهِ لَهُ التي يقولُ منها [في « ديوانِهِ » ٣٩ـ٤٠ـ٤٨ مِنَ الطَّويلِ] :

إِلَىٰ ٱلْحَارِثِ ٱلْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقَتِيْ ... لِكَلْكَلِهَـا وَٱلْقُصْـرَيَيْـنِ وَجِيْـبُ[1]
هَدَانِيْ إِلَيْكَ ٱلْفَرْقَدَانِ وَلاَحِبٌ ... لَهُ فَوْقَ إِعْلاَمِ ٱلْمِتَانِ عُلُوْبُ[2]

---

(١) القصريانِ : ضلعانِ قصيران تليانِ الخاصرتينِ . الوجيبُ : الرعدةُ والاضطرابُ من شدَّةِ السيرِ .

(٢) هداني إليكَ الفرقدانِ : يعني أنهُ سرىٰ بالليلِ في سيرهِ إليهِ فاهتدىٰ بالنجومِ . اللاحبُ : الطريقُ الواضحُ . المتانُ ـ جمعُ متنٍ ـ : وهوَ المكانُ الصلبُ المستوي . العُلوبُ ـ جمعُ عَلبٍ ـ : وهوَ الأثرُ ، وإنما أرادَ أن يصفَ هذا=

فَلاَ تَحْرِمَنِّيْ نَائِلاً عَنْ جِنَابَةٍ ... فَإِنِّي ٱمْرُؤٌ وَسْطَ ٱلْقِبَابِ غَرِيْبُ[١]

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطْتَ بِنِعْمَةٍ ... فَحُقَّ لِشَأْسٍ مِنْ نَدَاكَ ذَنُوْبُ[٢]

فقالَ الحارثُ لَهُ : نعم ، ونعمةُ عينٍ ، وأَطلقَ لَهُ أخاهُ شأساً ، وأَسرىٰ تميمٍ بأَسرِهِم ، ومَن سألَهُ فيهِم مِن غيرِهِم .

وشفعَ الفرزدَقُ إِلىٰ تميمِ بنِ مرٍّ[٣] بقولِهِ [في « الأغاني » ١٠/٣٥٥ مِنَ الطَّويلِ] :

تَمِيْمُ بْنُ مُرٍّ لاَ تَكُوْنَنَّ حَاجَتِيْ ... بِظَهْرٍ فَلاَ يَعْيَ عَلَيَّ جَوَابُهَا

فَهَبْ لِيْ خُنَيْساً وَٱحْتَسِبْ فِيْهِ مِنَّةً ... لِعَبْرَةِ أُمٍّ مَا يَسُوْغُ شَرَابُهَا

أَتَتْنِيْ فَعَاذَتْ يَا تَمِيْمُ بِغَالِبٍ ... وَبِٱلْحُفْرَةِ ٱلسَّافِيْ عَلَيْهَا تُرَابُهَا

وَقَدْ عَلِمَ ٱلأَقْوَامُ أَنَّكَ مَاجِدٌ ... وَلَيْثٌ إِذَا مَا ٱلْحَرْبُ شَبَّ شِهَابُهَا

= الطريقَ بأنه متصلٌ بالوعورِ والأماكنِ الغليظةِ ، وإنما تجشَّمَ ركوبَهُ إليهِ . . لِما يرجو من معروفهِ وفضلهِ .

(١) الجنابةُ : الغُربةُ .

(٢) قد خبطتَ بنعمةٍ : أي أنعمتَ وتفضَّلتَ . الذَّنوبُ : الدلوُ العظيمة ، وضربَها مثلاً للحظِّ والنصيبِ .

(٣) في « الأغاني » : تميم بن زيد ، وللأَبياتِ قصَّةٌ حاصلُها :

أَنَّ تميمَ بنَ زيدٍ غزا (الهندَ) في جيشٍ ، فجمَّرَهُم ، وفي جيشِهِ رجلٌ يقالُ لهُ : خُنَيْسٌ ، فلمَّا طالَتْ غيبَتُهُ علىٰ أُمِّهِ . ٱشتاقَتْهُ ، فسأَلَتْ عمَّن يُكَلِّمُ لها تميمَ بنَ زيدٍ أَن يُقْفِلَ ٱبنَها ، فقيلَ لها : عليكِ بالفرزدَقِ فٱستجيري بقبرِ أَبيهِ ـ وكانَ قبرُ أَبيهِ مَعَاذاً للنَّاسِ ـ فأَتَتْ قبرَ غالبٍ بكاظمَةٍ ، حتَّىٰ علمَ الفرزدقُ مكانَها .

ثُمَّ أَتتهُ وطلبَتْ إِليهِ حاجتَها ؛ فكتبَ إِلىٰ تميمِ بنِ زيدٍ هذهِ الأَبياتِ . وتمامُ القصَّةِ مذكورةٌ فوقَ .

فأَطلقَ لهُ مَن في الجيشِ مِن خنيسٍ وحبيشٍ ؛ لاشتباهِ الاسمِ عليهِ ، فأَخذَ بالاحتياطِ .

وشفعَ أَبو تمَّامٍ إِلىٰ المعتصِمِ في عقدِ البيعَةِ للواثِقِ بولايَةِ العهْدِ ، فأَطلبَهُ ، وذلكَ حيثُ يقولُ [في « ديوانهِ » ١/ ٣٤٤ـ٣٤٥ مِنَ الكاملِ] :

فَٱشْدُدْ بِهَارُوْنَ ٱلخِلاَفَةَ إِنَّهُ ... سَكَنٌ لِوَحْشَتِهَا وَدَارُ قَرَارِ

بِفَتَىٰ بَنِيْ ٱلْعَبَّاسِ وَٱلْقَمَرِ ٱلَّذِيْ ... حَفَّتْهُ أَنْجُمُ يَعْرُبٍ وَنِزَارِ[1]

هُوَ نَوْءُ يُمْنٍ مِنْكُمُ وَسَعَادَةٍ ... وَسِرَاجُ لَيْلٍ عِنْدَكُمْ وَنَهَارِ[2]

فَٱقْمَعْ شَيَاطِيْنَ ٱلنِّفَاقِ بِمُهْتَدٍ ... تَرْضَىٰ ٱلْبَرِيَّةُ هَدْيَهُ وَٱلْبَارِيْ[3]

لِيَسِيْرَ فِيْ ٱلآفَاقِ سِيْرَةَ رَأْفَةٍ ... وَيَسُوْسَهَا بِسَكِيْنَةٍ وَوَقَارِ

وتشفَّعَ بنو تغلبَ بأَبي تمَّامٍ إِلىٰ مالكِ بنِ طوقٍ ، وكانوا قد أَفسدوا ، وعاثُوا ، فتقدَّمَ بقصيدَةٍ يقولُ فيها [في « ديوانهِ » ١/ ١٠٦ـ١٠٧ مِنَ الكاملِ] :

وَرَأَيْتَ قَوْمَكَ وَٱلإِسَاءَةُ مِنْهُمُ ... جَرْحَىٰ بِظُفْرٍ لِلزَّمَانِ وَنَابِ

---

(١) يَعربٌ : أبو اليمانيةِ القحطانيَّةِ . نزارٌ : أبو النزاريَّةِ العدنانيَّةِ . والواثقُ قحطانيٌّ من جهةِ أخوالهِ ، ونزاريٌّ من جهةِ آبائِهِ ؛ لأن هاشمَ بن عبدِ منافٍ أبا العبَّاسيِّينَ الأعلى تزوَّجَ سلمىٰ بنتَ يزيدَ من بني النَّجار ، ثم من الخزرجِ قبيلةٌ يمانيةٌ كانت في يثربَ ، وهم والأوسُ أنصارُ النبيِّ ﷺ في الإسلامِ .

(٢) النوءُ : طلوعُ نجمٍ بعد غروبِ آخرَ . سراجُ الليلِ والنهارِ : القمرُ والشمسُ .

(٣) إقمعْ : اقهرْ . شياطينَ النفاقِ : لعلَّهُ أراد بهم الذين أظهروا الإسلامَ ثم ثاروا عليه ، أو لعلَّهُ يشيرُ إلى المكيدَةِ التي دبَّرها في أثناءِ الزحف على (عموريةَ) بعضُ القوَّادِ المسلمينَ لاغتيالِ المعتصمِ ومبايعةِ العبَّاسِ بن المأمونِ ، فأخفقَ تدبيرُهم ، وأنتقمَ المعتصمُ منهم ، وحبسَ العبَّاس بن المأمونِ .

هُمْ صَيَّرُوْا تِلْكَ ٱلْبُرُوْقَ صَوَاعِقاً فِيْهِمْ وَذَاكَ ٱلْعَفْوَ سَوْطَ عَذَابِ

فَأَقِلْ أُسَامَةَ جُرْمَهَا وَٱصْفَحْ لَهَا عَنْهُ وَهَبْ مَا كَانَ لِلْوَهَّابِ

فَهُمُ بِعَيْنِ أُبَاغَ رَاشُوْا لِلْوَغَىٰ سَهْمَيْكَ عِنْدَ ٱلْحَارِثِ ٱلْحَرَّابِ[1]

فَمَضَتْ كُهُوْلُهُمُ وَدَبَّرَ أَمْرَهُمْ أَحْدَاثُهُمْ تَدْبِيْرَ غَيْرِ صَوَابِ

لاَ رِقَّةُ ٱلْحَضَرِ ٱللَّطِيْفِ غَذَتْهُمُ وَتَبَاعَدُوْا عَنْ فِطْنَةِ ٱلأَعْرَابِ

فَإِذَا عَجَمْتَهُمُ وَجَدْتَ لَدَيْهِمُ كَرَمَ ٱلنُّفُوْسِ وَقِلَّةَ ٱلآدَابِ[2]

لَكَ فِيْ رَسُوْلِ ٱللهِ أَعْظَمُ أُسْوَةٍ وَأَجَلُّهَا فِيْ سُنَّةٍ وَكِتَابِ

أَعْطَىٰ ٱلْمُؤَلَّفَةَ ٱلْقُلُوْبِ رِضَاهُمُ كَرَمَاً وَرَدَّ أَخَايِذَ ٱلأَحْزَابِ[3]

فوقعَت مِن مالكٍ أَحسنَ موقعٍ ، فأَجزلَ ثوابَهُ ، وقبِلَ شفاعتَهُ ، وردَّ القومَ إِلىٰ منازِلِهم ، بعدَ اليأسِ المستحكِمِ ، والعداوَةِ الهائِلَةِ .

وقالَ أَبو عبادَةَ [في « ديوانِه » ١/ ٣٦٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنْ أَبْقَ أَوْ أَهْلِكْ فَقَدْ نِلْتُ ٱلَّتِيْ مَلأَتْ صُدُوْرَ أَقَارِبِيْ وَعِدَائِيْ

وَغَدَوْتُ نَدْمَانَ ٱلْخَلاَئِفِ نَابِهاً ذِكْرَىٰ وَنَاعِمَةً بِهِمْ نَشَوَاتِيْ

---

(١) عينُ أُباغٍ : وادٍ على طريقِ الشامِ إِلى الفراتِ . راشوا : أَلزقوا عليها الريشَ . وقولُهُ : راشوا سهميك : أَرادَ أَعانوكَ ؛ لأَنَّ السهمَ لا يُنتفَعُ بهِ حتى يُراشَ . الحارثُ الحرَّابُ : وصفٌ لكلِّ ملكٍ يقالُ لهُ الحارثُ ، وقد جاءَ الحارثُ بنُ أَبي شمرٍ الغسَّانيُّ إِلىٰ (عينِ أُباغٍ) لمحاربةِ النعمانِ بن المنذرِ الذي ناصرَهُ بنو تغلبَ فانتصرَ على الحارثِ وهزمَهُ .

(٢) عجمتَهُم : عركتَهم لتختبرَهُم .

(٣) المؤلَّفةُ القلوبِ : قومٌ دخلوا في الإِسلامِ رغبةً في الغنائمِ والعطاءِ ، وكان منهم جماعةٌ من قريش ، وجماعةٌ من غيرهم . الأَخايذُ : ما يؤخذُ من العدوِّ في الحربِ . الأَحزابُ : كلُّ من تحزَّبَ على الإِسلامِ من مشركينَ ويهودَ .

وَشَفَعْتُ فِيْ الأَمْرِ ٱلْجَلِيْلِ إِلَيْهِمُ   بَعْدَ ٱلْجَلِيْلِ فَأَنْجَحُوْا طَلَبَاتِيْ
وَصَنَعْتُ فِيْ ٱلْعَرَبِ ٱلصَّنَائِعَ عِنْدَهُمْ   مِـنْ رِفْـدِ طُـلاَّبٍ وَفَـكِّ عُنَـاةِ

قل للمليحة في الخمار الأسود

والأمرُ في ذلكَ أكثرُ مِن أن يتناولهُ الضبطُ ، أو يحصيَهُ القلَمُ ، ومِن الغايةِ فيهِ ما ذكرهُ ٱبنُ خلِّكانَ [في « وفيات الأعيان » ٤/١٦١] وغيرُهُ : أَنَّ أحدَ التجَّارِ قدمَ (المدينةَ) المشرَّفَةَ بحملٍ مِن الخُمُرِ السودِ ، فكسدَت ، فضاقَ صدرُهُ ، وأَتىٰ مسكينَ الدارميَّ ، فقصَّ عليهِ القصَّةَ ، فقالَ : كيفَ أَعملُ وأنا قد تركتُ الشعرَ؟ ـ وكانَ تزهَّدَ ، وٱنقطعَ في المسجدِ الشريفِ ـ فقالَ التاجرُ : أَنا غريبٌ ، ومالي بضاعَةٌ سوىٰ هـٰذا الحِملِ ، وقد دلَّني الناسُ عليكَ ، وقالوا : ما يُنَفِّقُها لي غيرُكَ ، ولَم يزَل يتضرَّعُ إليهِ.. حتَّىٰ خرجَ مِن المسجدِ ، وقالَ [مِنَ الكاملِ] :

قُلْ لِلْمَلِيْحَةِ فِي ٱلْخِمَارِ ٱلأَسْوَدِ   مَـاذَا أَرَدْتِ بِنَـاسِـكٍ مُتَعَبِّـدِ
قَـدْ كَـانَ شَمَّـرَ لِلْصَـلاَةِ ثِيَـابَـهُ   حَتَّىٰ قَعَدْتِ لَهُ بِبَابِ ٱلْمَسْجِدِ

فشاعَ بينَ الناسِ ، وتغالتِ النساءُ في الخُمُرِ السودِ ولم تبقَ بـ(المدينةِ) ظريفةٌ إلاَّ طلبَتْ خماراً أسود ، فباعَها بأضعافِ أثمانِها ، ورجعَ مسكينُ إلىٰ ما كانَ ٱنقطعَ إليهِ مِن التعبُّدِ .

المديح لا يليق إلا بك

والبيتُ الذي نتكلَّمُ فيهِ يشبهُ قولَ عليِّ بنِ عبدِ العزيزِ [مِنَ الكاملِ] :

وَأَرَىٰ ٱلْمَدِيْحَ إِذَا عَدَاكَ نَقِيْصَةً   فَـأَعَـافُـهُ وَلَـوَ ٱنَّـهُ فِـيْ حَـاتِـمِ
فَإِذَا ٱمْتَدَحْتُ سِوَاكَ قَالَ ٱلشِّعْرُ لِيْ   لَمْ تَرْعَ حَقِّيْ إِذْ أَبَحْتَ مَحَارِمِيْ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريِّ » ١/٢٥٥ مِنَ الكاملِ] :

إِنَّ ٱلقَرِيْضَ شَجٍ بِعِطْفِيَ عَائِذٌ   أَنْ لاَ يَكُوْنَ سِوَاءَكَ ٱلْمَمْدُوْحُ

وقالَ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٦٥ مِنَ الوافرِ] :

وَظَنُّونِي مَدَحْتُهُمُ قَدِيماً   وَأَنْتَ بِمَا مَدَحْتُهُمُ مُرَادِي

وقالَ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٧٨ مِنَ البسيطِ] :

أَحْيَيْتَ لِلشُّعَرَاءِ ٱلشِّعْرَ فَٱمْتَدَحُوا   جَمِيعَ مَنْ مَدَحُوهُ بِٱلَّذِي فِيكَا

وقالَ كثيّرٌ [في « ديوانهِ » ٣٠٢ مِنَ الطَّويلِ] :

مَتَىٰ مَا أَقُلْ فِي آخِرِ ٱلدَّهْرِ مِدْحَةً   فَمَا هِيَ إِلاَّ لابْنِ لَيْلَىٰ ٱلْمُكَرَّمِ

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَإِنْ جَرَتِ ٱلأَلْفَاظُ مِنَّا بِمِدْحَةٍ   لِغَيْرِكَ إِنْسَاناً فَأَنْتَ ٱلَّذِي نَعْنِي

من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله

ثمَّ إِنَّ وضعَ المدحِ في غيرِ محلِّهِ مِن كبائرِ الذنوبِ ، وقبائحِ العيوبِ ، جنايةٌ علىٰ العلمِ ، وإِهانةٌ للأدبِ ، وٱنغماسٌ في المهانَةِ ، وتدسُّسٌ في النذالَةِ ، وتعلُّقٌ بالكذبِ ، وأَخذٌ بمجامعِ النفاقِ .

وقد قالَ زهيرٌ [مِنَ البسيطِ] :

وَإِنَّ أَصْدَقَ بَيْتٍ أَنْتَ قَائِلُهُ   بَيْتٌ يُقَالَ إِذا أَنْشَدْتَهُ : صَدَقَا[1]

ومِن قضاءِ ٱبنِ الخطَّابِ في تفضيلِ زهيرٍ [في « طبقات فحول الشعراء » ١/ ٦٣] : أَنَّهُ لا يمدحُ أَحداً إِلاَّ بما فيهِ ، كما سبقَ في كثيرٍ مِمَّا يتعلَّقُ بهِ في المجلسِ الثالثِ ، عندَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣١٠ مِنَ المنسرحِ] :

قَدْ أَجْمَعَتْ هَـٰذِهِ ٱلْخَلِيقَةُ لِي   أَنَّكَ يَا ٱبْنَ ٱلنَّبِيِّ أَوْحَدُهَا

---

(١) نسبَ صاحبُ « العقدِ الفريد » (٥/ ٣٢٦) البيتَ لزهيرٍ ، وليسَ في « ديوانهِ » ، وإِنَّما هوَ في « ديوانِ حسان بنِ ثابتٍ » (٤٣٠) .

وقد قالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٢٦٢ مِنَ الكاملِ] :

عَيَّـاشُ إِنَّـكَ لَلَّئِيـمُ وَإِنَّنِـيْ إِذْ صِرْتَ مَوْضِعَ مَطْلَبِيْ لَلَئِيْمُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَرِيِّ » ٢/ ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا ٱلْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَىٰ هِبَةٍ فَالْفَضْلُ فِيْمَنْ لَهُ ٱلشُّكْرُ

ومعناهُ : إذا لم يرفعْكَ الأَدبُ عَن شكرِ الناقصِ . . فذلكَ الناقصُ هوَ أَفضلُ منكَ .

ولله دَرُّ أَبي عُبادَةَ في قولِهِ [في « ديوانهِ » ١/ ٢٩ مِنَ الكاملِ] :

خَطَبَ ٱلْمَدِيْحَ فَقُلْتُ: خَلِّ طَرِيْقَهُ لِيَجُـوْزَ عَنْـكَ فَلَسْتَ مِـنْ أَكْفَـائِـهِ

وقالَ غيرُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

مَدَحْتُهُمُ فَٱسْتُقْبِحَ ٱلْمَدْحُ فِيهِمُ وَيَا رُبَّ جِيْدٍ لاَ يَلِيْقُ بِهِ ٱلْعِقْدُ

فعلىٰ الحرِّ أَن يحترمَ نفسَهُ ، ويربأَ بِها عَن الخسَّةِ ؛ فقد قالَ حاتِمٌ [في « شرحِ ديوانهِ » ٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَفْسَـكَ أَكْـرِمْهَـا فَـإِنَّـكَ إِنْ تَهُـنْ عَلَيْكَ فَلَنْ تَلْقَىٰ لَهَا ٱلدَّهْرَ مُكْرِمَا

وقالَ الحسينُ بنُ مطيرٍ [في « ديوانهِ » ٥٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَفْسَكَ أَكْرِمْ عَنْ أُمُوْرٍ كَثِيْرَةٍ فَمَا لَكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيْرُهَا

وقالَ آخرُ [وهو منقر بن فروة المنقري في « البيان والتبيين » ١/ ٤٩٨ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا ٱلْمَرْءُ إِلاَّ حَيْثُ يَجْعَلُ نَفْسَهُ فَفِيْ صَالِحِ ٱلأَخْلاَقِ نَفْسَكَ فَٱجْعَلِ

وقالَ الحماسيُّ [مِنَ الوافرِ] :

نُحِبُّ ٱلشَّيْءَ ثُمَّ نَصُدُّ عَنْهُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ مَقَالُ
مَخَافَةَ أَنْ يُقَالَ لَنَا فَنَخْزَىٰ وَنَعْرِفُ مَا تُسَبُّ بِهِ ٱلرِّجَالُ

وقد ٱنحطَّ مقدارُ الشمَّاخِ ، وهوَ مِن أَصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ بقولِهِ لعرابَةَ [في « ديوانِهِ » ٣٣٦ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِٱلْيَمِيْنِ

وقولِهِ[1] [من الوافر] :

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ وَقَصَّرَ مُبْتَغُوهَا عَنْ مَدَاهَا
وَضَاقَتْ أَذْرُعُ ٱلْمُثْرِيْنَ عَنْهَا سَمَا أَوْسٌ إِلَيْهَا فَٱحْتَوَاهَا

وقد مرَّ في المجلسينِ الثالثِ ، والحادي عشرَ شيٌ مِن حديثِ الشمَّاخِ .

الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه

ولقد كانَ الشعرُ غاليَ القيمَةِ عندَ العربِ ، لا تضعُهُ إِلاَّ عندَ مَن يستحقُّهُ ، ولا تجودُ بالمدحِ منهُ إِلاَّ عَن دافعٍ قويٍّ ، كَأَنْ لا تجدَ ما يقومُ بالمكافأَةِ سواهُ علىٰ جلائِلِ الصنائِعِ ، فقد أَحسنَ المعلَّىٰ إِلىٰ ٱمرىءِ القيسِ حينَما أَجارَهُ مِنَ ٱلمنذرِ بنِ ماءِ السماءِ ؛ إِذ طلبَهُ ليثأَرَ منهُ بأَخويهِ الذَينِ قتلَهما بـ(ديرِ مَرينا) ، فلم يجدْ لمجازاتِهِ أَكبرَ مِن أَن يمدحَ رهطَهُ بقولِهِ [في « شرحِ ديوانِهِ » ٢٠٤ مِنَ الوافرِ] :

أَقَرَّ حَشَا ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ بْنِ حِجْرٍ بَنُو تَيْمٍ مَصَابِيْحُ ٱلظَّلاَمِ

---

(١) البيت من شواهد « الإيضاح في علوم البلاغة » ١٩٩ لبشر بن حازم .

ومِن نفوذِ الشعرِ إلىٰ القلوبِ ، وسلطانِهِ علىٰ النفوسِ ، وسيرورتِهِ في البلادِ ، صارَ ذلكَ الوصفُ لقباً راسخاً لهم مِن ذلكَ اليومِ .

وقالَ أيضاً لسعدِ بنِ الضبابِ [في «شرحِ ديوانه» ١٠٩ مِنَ الوافرِ] :

سَأَجْزِيْكَ ٱلَّذِيْ دَافَعْتَ عَنِّيْ وَمَا يَجْزِيْكَ عَنِّيْ غَيْرُ شُكْرِيْ

فأفادَ أنَّ شكرَهُ النهايَةُ في المجازاةِ ، والغايةُ التي لا فوقَها للمكافأةِ ، وكثيراً ما نجدُ الشاعرَ يشتكي تقصيرَ ممدوحِهِ بهِ ، وفي طيِّ ذلكَ الاعترافُ بدناءَةِ الهمَّةِ ، وزمانَةِ المروءَةِ ، وإلاَّ . . فلو كانَ حرّاً . . لأكرمَ نفسَهُ وأدبَهُ عَنِ امتداحِ مَن لا يعرفُ مقاديرَ الكلامِ . إذن ، فلمْ يفعلْ بهِ الممدوحُ إلاَّ ما هوَ أهلٌ لهُ مِنَ الاحتقارِ ، والإطِّراحِ .

وصية الحطيئة عند وفاته

وفي خبرِ الحطيئةِ المشهورِ : أنَّهُ قالَ وهوَ يجودُ بنفسِهِ[(١)] [كما في «الأغاني» ٢/١٨٩] : لا أجزَعُ علىٰ شيءٍ ، جزَعي علىٰ جيِّدِ المديحِ يوضَعُ فيمَن ليسَ لهُ بأهلٍ .

---

(١) لمَّا حضرَتِ الحطيئةَ الوفاةُ . . اجتمعَ إليهِ قومُهُ ، فقالوا : يا أبا مُلَيكَةَ أَوْصِ .

قالَ : ويلٌ للشِّعرِ مِنَ الرُّواةِ السُّوءِ . قالوا : أَوصِ يرحمُكَ اللهُ .

قالَ : مَنِ الذي يقولُ :

إِذَا أَنْبَضَ ٱلرَّامُوْنَ عَنْهَا تَرَنَّمَتْ تَرَنُّمَ ثَكْلَىٰ أَوْجَعَتْهَا ٱلْجَنَائِزُ

قالوا : الشمَّاخُ . قالَ : أبلغوا غطفانَ أنَّهُ أشعر العربِ .

قالوا : ويحكَ أهذهِ وصيَّةٌ ؟!

قالَ : أبلغوا أهلَ ضابىءٍ أنَّهُ شاعرٌ حيثُ يقولُ :

لِكُلِّ جَدِيْدٍ لَذَّةٌ غَيْرَ أَنَّنِيْ وَجَدْتُ جَدِيْدَ ٱلْمَوْتِ غَيْرَ لَذِيْذِ =

وفي غيرِ موضعٍ مِن هٰذهِ المجموعَةِ أَفضنا في مذمَّةِ الدناءَةِ ، ذم الكذب ومعابَةِ التصنُّعِ ، ومقتِ الرياءِ ، وتقبيحِ التلوُّنِ ، وقد قالَ جلَّ ثناؤُهُ : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ * وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ * إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾

[الشعراء : ٢٢٤ـ٢٢٧] .

= قالوا : أتَّقِ اللهَ ، ودَعْ عنكَ هذا . قالَ :

اَلشِّعْـرُ صَعْـبٌ وَطَـوِيـلٌ سُلَّمُـهْ ... إِذَا ٱرْتَقَـىٰ فِيـهِ ٱلَّـذِي لاَ يَعْلَمُـهْ
زَلَّـتْ بِـهِ إِلَـىٰ ٱلْحَضِيـضِ قَـدَمُـهْ ... يُـرِيـدُ أَنْ يُعْـرِبَـهُ فَيُعْجِمُـهْ

قيلَ : يا أَبا مُليكَةَ . . أَلَكَ حاجَةٌ ؟ قالَ : لا واللهِ ، ولكن أَجزعُ علىٰ المديحِ الجيِّدِ يُمدَحُ بِهِ منَ ليسَ لَهُ أَهلاً .

قالوا : فَمن أَشعرُ الناسِ ؟ فأَومأَ إِلى فيهِ ، وقالَ : هَذا الجُحَيْرُ إِذا طَمعَ .

قالوا : قُلْ : لا إِلٰهَ إِلاَّ اللهُ . فقالَ :

قَـالَـتْ وَفِيْهَـا حِيْـدَةٌ وَذُعْـرُ ... عَـوذٌ بِـرَبِّـي مِنْكُـمْ وَحِجْـرُ

قيلَ لهُ : فما تقولُ في عبيدِكَ ؟ قالَ : هُم عبيدٌ قِنٌّ ما عاقَبَ الليلُ والنهارُ .

قيلَ : فأَوصِ للفقراءِ بشيءٍ . قالَ : أُوصيهم بالإِلحافِ في المسأَلَةِ ؛ فإِنَّها تجارَةٌ لا تبورُ ، وأَستُ المسؤولِ أَضيقُ .

وتعاقَبَ القولُ مع الحطيئة إِلى أَنْ قالوا : فهلَ لكَ شيءٌ تعهدُ فيهِ غيرَ هذا ؟ قالَ : تحملوني علىٰ أَتانٍ ، وتتركوني راكبها حتَّىٰ أَموتَ ؛ فإِنَّ الكريمَ لا يموتُ علىٰ فراشِهِ ، والأَتانُ مركبٌ لم يَمُتْ عليهِ كريمٌ قطُّ .

فحملوهُ علىٰ أَتانٍ ، وجعلوا يذهبونَ بِهِ ويجيؤونَ . . حتَّىٰ ماتَ وهوَ يقولُ :

لاَ أَحَـدٌ أَلأَمَ مِـنْ حُطَيْئَـهْ ... هَجَـا بَنِيـهِ وَهَجَـا ٱلْمُـرَيْئَـهْ
مِـنْ لُـؤْمِـهِ مَـاتَ عَلَـىٰ فُـرَيْئَـهْ

انظر « فصل المقال في شرح كتاب الأمثال » (١/ ٣٢٣) .

وقالَ بعضُ الشعراءِ [في « المستطرف » ٢/١٧ مِنَ البسيطِ] :

لاَ يَكْذِبُ ٱلْمَرْءُ إِلاَّ مِنْ مَهَانَتِهِ أَوْ عَادَةِ ٱلسُّوْءِ أَوْ مِنْ قِلَّةِ ٱلْوَرَعِ

ولمَّا ٱنتهىٰ قارىءُ « الديوانِ » علينا إلىٰ هُنا . . أَخذَهُ الحرانُ[1] ، وٱشتغلَ بالقِرانِ[2] ، وعسىٰ أن يعودَ عسىٰ ، وقديماً قيلَ : ذُبِحَ العلمُ علىٰ أَفخاذِ النِّسا[3] ، فساقَ اللهُ الخيرَ إِليهِ ، وباركَ لهُ ، وباركَ عليهِ ، وجمعَ لهُ التَّهاني ، وبلَّغَهُ غاياتِ الأَماني ، وإِيَّانَا ، وأَولادَنا ، آمينَ ، وصلَّىٰ اللهُ علىٰ سيدِنا محمَّدٍ وعلىٰ آلهِ وصحبِهِ وسلَّم .

* * *

---

(١) الحِران : يستعمل في الأصل للدواب إذا صعب انقيادها ، والمراد هنا : التقصير عن مسابقة غيره .

(٢) القِرانُ : التزويج ، كان النبي ﷺ إذا أتى يومُ الجمعة . . قال للسيدة عائشة : « اليومَ يومُ تَبَعُّلٍ وقِرانٍ » أي : تزويج .

(٣) قال العجلوني في « كشف الخفاء » (١٣٣٢) ليس بحديث ، وفي معناه : ضاع العلم وهو من نحو كلام بشر الحافي .

خاتمة المجالس

مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر

كثيراً ما يجولُ البحثُ في المفاضلَةِ بينَ الشعرِ والشعراءِ ، فيذهبُ بي العجَبُ أقصاهُ مِن إدلاءِ كلٍّ بِرأْيهِ ، ورجمِهِ بظنِّهِ ، وتعصُّبِهِ لهواهُ ، دونَ قبَسٍ مِن هُدىً ، ولا بصيرَةٍ مِن علمٍ ، كأنَّهم أولُ مَن يتكلَّمُ في الفنِّ ، وكأَنْ لم تؤلَّفْ فيهِ الكتبُ ، وتُقرَّرِ المباحِثُ ، ويَغترُّ بعضُهم بمَن يتلقَّىٰ علمَهُ عنِ الصحفِ ، ويستوردُهُ مِن أطرافِ المجلاَّتِ ، ويجعلُ ذوقَهم ميزاناً ، وأقوالَهم برهاناً ، والحالُ : أَنْ لا اجتهادَ معَ وجودِ النصِّ ، وقلَّما نجدُ بيتاً إلاَّ لنظرِ العلمِ فيهِ مجالٌ مِن سائرِ نواحيهِ ، فليزنْهُ بقواعدِ الفنِّ التي تطيشُها مثاقيلُ الذرِّ مَن يلمُّ بهِ ، وإلاَّ . . فليقفْ عندَ حدِّهِ ، وليربَعْ علىٰ ظِلَعهِ ، وليتأخَّرْ حيثُ أخَّرهُ القدَرُ ، ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

ومِن أكبرِ المحنَةِ في هـٰذا العلمِ ادِّعاءُ الرقيعِ شأنَ الرفيعِ ، وانتحالُ الضالِعِ شأوَ الضليعِ ، وإلاَّ . . فما قرَّرَهُ علماءُ المعاني والبيانِ والبديعِ لا يصحُّ أن يُرجعَ إلاَّ إليهِ ، وأَن لا يعوَّلَ إلاَّ عليهِ .

وكانَت هـٰذهِ العلومُ تسمَّىٰ صنعةَ الشعرِ ، وتسمَّىٰ نقدَ الشعرِ ، ونقدَ الكلامِ ، كلُّ ذلكَ يقالُ ، ثمَّ طرأَتْ لَها تلكَ الأَسماءُ ، كما أَشارَ إليهِ ابنُ الأنباريِّ ، والسكريُّ .

ثمَّ تمييزُ الكلامِ ، ووزنُهُ ، ومعرفَةُ سمينِهِ مِن غثِّهِ ، لا تكونُ إلاَّ بالتمرُّنِ علىٰ تلكَ القواعدِ ، وإدمانِ النظَرِ إليها ، حتَّىٰ إذا وُضِعَ للنقدِ . . عرضَهُ الباحِثُ علىٰ نواميسِها ، وما لا تصلُهُ يصارُ فيهِ إلىٰ الذوقِ .

وأَهلُ الذوقِ هُم أَهلُ الطباعِ السليمَةِ ، والأَفكارِ المستقيمَةِ ، والقرائحِ النقيَّةِ ، والأَفهامِ الذكيَّةِ ، ممَّن راضَ نفسَهُ علىٰ تلكَ العلومِ ، ومارسَ الخطابَةَ ، وداومَ الكتابَةَ ، وأَكثرَ السهَرَ ، وركبَ الضجَرَ ، وجَنىٰ علىٰ القلبِ والبصرِ ، في مزاولَةِ الكلامِ ، ومجاولَةِ الأَقلامِ ، ومحاورَةِ الأَعلامِ ، ومعالَجَةِ النثرِ والنظامِ ، فأولئكَ صيارفَتُهُ ونقَّادُهُ ، وأُمراؤُهُ وأَسيادُهُ ، فهوَ إذن مثلُ الجمالِ :

مِنهُ : ما له قانونٌ خاصٌّ تشملُهُ العبارَةُ ، ويأتي عليهِ الضبطُ .

ومنهُ : ما لا يُعرَفُ إلاَّ بالذوقِ كالملاحَةِ ، فقد تتقاربُ الجاريتانِ وصفاً وجمالاً ، ثمَّ تُقوَّمُ هٰذهِ بأَلفٍ ، وتلكَ بأَلفينِ ، ولو سئِلَ الناقدُ البصيرُ عَن سببِ ذلكَ . . لم يقدِرْ علىٰ الإفصاحِ عنهُ ؛ لأَنَّ المعاني أَكثرُ مِنَ ٱلألفاظِ ، غيرَ أَنَّهُ لا يُقبلُ ذلكَ إلاَّ ممَّن أَحاطَ بسائرِ صفاتِ الجمالِ المحدودَةِ ، وتلكَ الملكَةُ التي تحصُلُ لِمن مارسَ الفنونَ شبيهةٌ بالاستحسانِ ، وهوَ ٱنقداحُ الدليلِ في نفسِ المجتهدِ مِن دونِ أَن يجدَ عبارةً تستوفي كُنْهَ ما في خاطرِهِ منهُ .

ومعَ الاتفاقِ علىٰ أَنَّهُ لا يكونُ إلاَّ لمَن بلغَ درجَةَ الاجتهادِ ، فهم فيهِ علىٰ ٱختلافٍ ، تمنعُهُ الشافعيَّةُ ، وتقولُ بهِ الحنفيَّةُ .

وكيفَما كانَ الأمرُ ، فنقدُ الشعرِ درجَةٌ عاليَةٌ ، ومركبٌ ليسَ بالذلولِ ، ثمَّ نجدُ كلَّ غبيٍّ يضرِبُ فيهِ بسهمٍ ، ويتهجَّمُ عليهِ بِلا

فهمٍ ، وذلكَ مِن غيرِ الحضارمَةِ أَعجبُ ، أَمَّا هُم . . فليسَ مِنهم بغريبٍ ؛ لأَنَّهُ ليسَ بأَكبرَ مِن تسوُّرِهِم علىٰ الطبِّ ؛ إذ قلَّما يمرضُ بينَهم إنسانٌ إلاَّ وصفَ لَهُ كلُّ مَن يعودُهُ دواءً ، وكلَّفَهُ أخذَهُ ، حتَّىٰ يقتلوهُ شاءَ أَم أَبىٰ .

وقَد سمعتُم ما قلناهُ في ردِّ كلامِ الغبيِّ الذي ٱستهانَ بقدرِ اللفظِ ، وزَعَمَ أَنْ لا معوَّلَ إلاَّ علىٰ المعاني ، مِن أَنَّ الكلامَ مفروغٌ منهُ ، وأَنَّ أَوَّلَ مسأَلةٍ في الفنِّ هيَ أَنَّ الفصاحَةَ خاصَّةٌ بالأَلفاظِ ، وأَنَّ البلاغَةَ مطابَقَةُ الكلامِ لمقتضىٰ الحالِ معَ الفصاحَةِ ، هـٰذهِ هيَ أَولُ قدمٍ يضعُها الطالبُ في طريقِ هـٰذا العلمِ ، وكيفَ يخوضُ في غوامضِهِ مَن لَم يعرِفْ مبادئَهُ بعدُ؟! إِنَّ هـٰذا لشيءٌ عجابٌ!

وجلُّ معوَّلِ أَهلِ هـٰذا الشأْنِ علىٰ اللفظِ ، أَكثرَ منهُ علىٰ المعنىٰ ، أَلا ترىٰ أَنَّكَ تسمعُ مِن حينٍ إِلىٰ آخرَ قولَ العامَّةِ : فلانٌ وكيلُ آدمَ علىٰ عيالِهِ ، فلا تجدُ لَها روعَةً ، ولا تلقي لَها بالاً؟ ولمَّا قالَ عليُّ بنُ جبلَةَ [في « ديوانهِ » ٩٢ مِنَ الوافرِ] :

تَكَفَّلَ سَاكِنَ ٱلدُّنْيَا حُمَيْدٌ ... فَقَدْ أَضْحَتْ لَهُ ٱلدُّنْيَا عِيَالاَ

كَـأَنَّ أَبَـاهُ آدَمَ كَـانَ أَوْصَـىٰ ... إِلَيْـهِ أَنْ يَعُـوْلَهُـمُ فَعَـالاَ

. . طنطَنَ لَهُ أَهلُ الأَدبِ ، وقالوا إِنَّهُ المعنىٰ الذي كانَتِ الشعراءُ تحومُ حولَهُ ، ولم تقدِرْ عليهِ ، علىٰ أَنَّ يزيدَ بنَ مفرَّغٍ قد قالَ قبلَهُ يمدَحُ مروانَ [في « ديوانهِ » ١٨٢ مِنَ الكاملِ] :

وَأَقَمْتُمُ سُوْقَ ٱلثَّنَاءِ وَلَمْ تَكُنْ ... سُوْقُ ٱلثَّنَاءِ تُقَامُ فِيْ ٱلأَسْوَاقِ

فَكَـأَنَّمَـا جَعَـلَ ٱلإِلَـهُ إِلَيْكُـمُ ... قَبْضَ ٱلنُّفُوْسِ وَقِسْمَةَ ٱلأَرْزَاقِ

وقالَ بعضُ العربِ [في « ديوان الحماسة » ١/٨٨ مِنَ الطَّويلِ] :

كَأَنَّ أَبِي أَوْصَىٰ بِكُمْ أَنْ أَضُمَّكُمْ إِلَيَّ وَأُوْجِيْ عَنْكُمْ كُلَّ ظَالِمِ[1]

وما في شيءٍ مِن هٰذا زائدٌ علىٰ ما تقولُهُ العامَّةُ ، سوىٰ روعَةِ اللفظِ ، وحسنِ الشارَةِ ، وجمالِ الديباجَةِ ، وفصاحَةِ التركيبِ ، ولئِنْ قيلَ : إِنَّها لَم تتداولْهُ العامَّةُ إلاَّ بعدَ أَن حصَّلَهُ لهَمُ ٱبنُ جبلَةَ ، وأَلقاهُ إِلىٰ الساحِلِ . . قُلنا مستحيلٌ ؛ لأَنَّهم لا يعرفونَ ٱبنَ جبلَةَ ، ولا من لَفَّهُ ، ولا يسمعونَ مِمَّنْ يعرفُهم ، وإِنَّما أَلقتْهُ إِليهمُ الطبيعَةُ التي أَلقتهُ عليهِ .

وقد قالَ شاعرُ المعرَّةِ [مِنَ الوافرِ] :

ضَرِيْبُكَ فِيْ بَنِيْ ٱلدُّنْيَا كَثِيْرٌ وَعَـزَّ ٱللهُ رَبُّـكَ مِـنْ ضَـرِيْـبِ
وَمَـا ٱلْعُلَمَـاءُ وَٱلْجُهَـلاَءُ إِلاَّ قَرِيْبٌ مِنْ قَرِيْبٍ مِنْ قَرِيْبِ

ومعَ ذلكَ فهناكَ أَمثلَةٌ أُخرىٰ ، مِنها : أَنَّ قولَ شوقي [مِنَ الخفيفِ] :

نَظْـرَةٌ فَـٱبْتِسَـامَـةٌ فَسَـلاَمٌ فَكَـلاَمٌ فَمَـوْعِـدٌ فَلِقَـاءُ

معدودٌ مِن محاسنِهِ ، وما فيهِ زائِدٌ علىٰ ما فعلَهُ زنجيٌّ وُكِّلَ بحراسَةِ بستانٍ ، فسلَّمَ عليهِ إِنسانٌ ، فلَم يردَّ ، فشكاهُ إِلىٰ مولاهُ ، فعاتَبَهُ ، فقالَ لهُ : إِنَّ السلامَ يُفضي إِلىٰ الكلامِ ، والكلامَ يفضي إِلىٰ الملامِ ، والملامَ يُفضي إِلىٰ بطيخَةٍ ، فإِن شئْتَ أَن أُقسِّمَ لكَ بطاطيخَ بستانِكَ . . رَدَدْتُ علىٰ مَن سلَّمَ عليَّ ، وإِلاَّ . . فلا .

---

(١) أي أدفع وأنحّي .

وسَمِعْتُ مرَّةً عجوزاً تصفُ بضاضَةَ فتاةٍ[1] ، وتقولُ : لَو أَصابَتْها نارٌ . . لانطفأَتْ مِن ماءِ وجهِهَا . بينَما أَهلُ المغربِ يرقُصونَ طرباً ، ويحجلونَ عجباً ، مِن قولِ شاعرِهِم [ابن حمديس في « المثل السائر » ١/ ٣٢١ مِنَ الكاملِ] :

أَضْرَمْتِ قَلْبِيْ فَٱرْتَمَىٰ بِشَرَارَةٍ   وَقَعَتْ بِخَدِّكِ فَٱنْطَفَتْ مِنْ مَائِهِ

وهوَ معَ ذلكَ مِن قولِ أَبي عُبادَةَ [في « ديوانه » ١/ ٢٤ مِنَ الكاملِ] :

وَضِيَـاءُ وَجْـهٍ لَـوْ تَـأَمَّلَـهُ ٱمْـرُؤٌ   صَادِيْ ٱلْجَوَانِحِ لارْتَوَىٰ مِنْ مَائِهِ

فهلْ تجِدُ في شيءٍ مِنْهما زائداً علىٰ كلامِ العجوزِ؟ لَولا شدَّةُ المتنِ ، وقوَّةُ الأسرِ ، وجمالُ التأليفِ ، وروعَةُ الترصيفِ ، والشواهدُ علىٰ مثلِهِ كثيرَةٌ .

وقد ذكرنا مرَّةً : أَنَّ أَبا تمَّام لم يأْخُذِ ٱلْقِسمَ الأَخيرَ مِن ثاني البيتينِ الآتيينِ ، علىٰ ما سبقَ فيهِ أَوائِلَ المجلِسِ الخامسِ . . إلاَّ عَن لسانِ سائِلٍ ، وهُما [في « ديوانه » ١/ ١٤٨ـ١٤٩ مِنَ الطَّويلِ] :

يَـرَىٰ أَقْبَـحَ ٱلأَشْيَـاءِ أَوْبَـةَ آمِـلٍ   كَسَتْهُ يَدُ ٱلْمَأْمُوْلِ حُلَّةَ خَائِبِ
وَأَحْسَـنُ مِـنْ نَـوْرٍ يُفَتِّحُـهُ ٱلصَّبَـا   بَيَاضُ ٱلْعَطَايَا فِيْ سَوَادِ ٱلْمَوَاهِبِ

وإِنْ تَعَجَّبْتَ . . فـٱعجَـبْ مِمَّـنْ سـوَّلَ لـهُ الهـوىٰ ، وٱستخفَّهُ الجهلُ ، وذهبَ بهِ التعصُّبُ الناشىءُ عَن مجرَّدِ التقليدِ إِلىٰ غايَةٍ مطوَّحَةٍ مِن الغرورِ ، بالقصيدَةِ المستهلَّةِ بهـٰذا [مِنْ مجزوءِ الرَّمَلِ] :

حَـــفَّ كَـــأْسَهَـــا ٱلْحَبَـــبُ   فَهْـــيَ فِضَّـــةٌ ذَهَـــبُ

---

(١) امرأَةٌ بضَّةٌ : ناعمةٌ .

وقد قُلنا : إنَّهُ بيتٌ تافِهٌ ، طلعَتْ بهِ القصيدَةُ كاسفَةً ، وحسبُكَ مِنَ الانتقادِ عليهِ مخالفتُهُ للقواعِدِ العربيَّةِ ؛ إذ لا يجوزُ تركُ العطفِ في الخبرِ إذا تعدَّدَ صاحبُهُ ، ولو حُكْماً كقولِهِ تعالىٰ : ﴿ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، بخلافِ ما تعدَّدَ لفظاً فقط ، بأَنْ كانَ لا يصحُّ الاقتصارُ علىٰ بعضِهِ ، فإنَّ العطفَ يمتنِعُ فيهِ ، كـ (الرمانُ حلوٌ حامِضٌ) وهـٰذا البيتُ إنَّما هوَ مِن الأوَّلِ .

ثمَّ إنَّهُ معنىً مرميٌّ في مدارجِ الطُّرقِ ، ممتَهَنٌ علىٰ أَلسنَةِ الشعراءِ إلىٰ حدِّ الابتذالِ ، وقلَّ مَن وصفَ الراحَ إلاَّ جاءَ في تشبيهِ الفقاقيعِ بما هوَ خيرٌ منهُ ، قالَ المتلمِّسُ [في « ديوانهِ » ٨٠ مِنَ الوافرِ] :

عُقَارٌ عُتِّقَتْ فِي ٱلدَّنِّ حَتَّىٰ ... كَأَنَّ حَبَابَهَا حَدَقُ ٱلْجَرَادِ[1]

وقالَ أَبو نُواسٍ [في « ديوانهِ » ٥٢٤ مِنَ الطَّويلِ] :

بَنَيْنَا عَلَىٰ كِسْرَىٰ سَمَاءَ مُدَامَةٍ ... مُكَلَّلَةً حَافَاتُهَا بِنُجُومِ[2]

وقالَ [في « ديوانهِ » ٥٧ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّ صُغْرَىٰ وَكُبْرَىٰ مِنْ فَوَاقِعِهَا ... حَصْبَاءُ دُرٍّ عَلَىٰ أَرْضٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ

وقالَ أبنُ الروميِّ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٦٥٥ مِنَ المنسرحِ] :

لَهَا صَرِيحٌ كَأَنَّهُ ذَهَبٌ ... وَرَغْوَةٌ كَٱللَّآلِي ٱلْفِلَقِ

---

(١) العُقارُ : الخمرُ .

(٢) مكللةٌ : محفوفةٌ ومحاطةٌ . النجومُ : المرادُ بها الحببُ ، أي الفقاقيعُ التي تعلو الكأسَ .

وقالَ الأَوَّلُ [مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا سَحَّهَا ٱلسَّاقِيْ حَسِبْتَ حُبَابَهَا عُيُوْنَ ٱلدُّبَىٰ مِنْ تَحْتِ أَجْنِحَةِ ٱلنَّحْلِ[1]

وقالَ ٱبنُ المعتزِّ [في « ديوانِه » ٢/ ١٨٩ مِنَ الطَّويلِ] :

خَلِيْلَيَّ قَدْ طَابَ ٱلشَّرَابُ ٱلْمُبَرَّدُ وَقَدْ عُدْتُ بَعْدَ ٱلنُّسْكِ وَٱلْعَوْدُ أَحْمَدُ

فَهَاتِ عُقَاراً مِنْ قَمِيْصِ زُجَاجَةٍ كَيَاقُوْتَةٍ فِيْ دُرَّةٍ تَتَوَقَّدُ

يَصُوْغُ عَلَيْهَا ٱلْمَاءُ شُبَّاكَ فِضَّةٍ لَهُ حَلَقٌ بِيْضٌ تُحَلُّ وَتُعْقَدُ

وقالَ [في « ديوانِه » ٢/ ١٨٧ مِنَ الطَّويلِ] :

وَنَارٍ قَدَحْنَاهَا سِرَاعاً بِسَحْرَةٍ مَتَىٰ مَا يُرَقْ مَاءٌ عَلَيْهَا تَوَقَّدِ

يَجُوْلُ حُبَابُ ٱلْمَاءِ فِيْ جَنَبَاتِهَا كَمَا جَالَ دَمْعٌ فَوْقَ خَدٍّ مُوَرَّدِ

وقالَ [آخرُ في « المستطرف » ٢/ ٤١٥ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّ فِيْ كَأْسِهَا وَٱلْمَاءُ يَقْرَعُهَا أَكَارِعَ ٱلنَّمْلِ أَوْ نَقْشَ ٱلْخَوَاتِيْمِ

وقالَ ٱبنُ وَكيعٍ [في « المستطرف » ٢/ ٤١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَحَمْرَاءَ مِنْ مَاءِ ٱلْكُرُوْمِ كَأَنَّهَا فِرَاقُ عَدُوٍّ أَوْ لِقَاءُ صَدِيْقِ

كَأَنَّ ٱلْحُبَابَ ٱلْمُسْتَدِيْرَ بِطَوْقِهَا كَوَاعِبُ دُرٍّ فِيْ سَمَاءِ عَقِيْقِ

وقالَ الآخرُ [مِنَ المديدِ] :

وَٱكْتَسَتْ مِنْ فِضَّةٍ دُرَرَا خِلْتَهَا مِنْ تَحْتِهَا ذَهَبَا

كَكُمَيْتِ ٱللَّوْنِ قَلَّدَهَا فَارِسٌ مِنْ لُؤْلُؤٍ حَبَبَا

---

(١) الدُّبىٰ : الجرادُ .

وقالَ أَبو عُبادَةَ [في « ديوانهِ » ١/٧ مِنَ الكاملِ] :

وَفَوَاقِعٌ مِثْلُ ٱلدُّمُوْعِ تَرَدَّدَتْ فِيْ صَحْنِ خَدِّ ٱلْكَاعِبِ ٱلْحَسْنَاءِ

وإِنَّهُ لَمِن أَكبرِ العارِ أَن يكونَ مثلُ هٰذا البيتِ حصيلَةَ ٱستقراءِ الأَشعارِ الثمينَةِ ، والتشبيهاتِ السمينَةِ ، فما للجهلاءِ والتمييزِ بينَ طبقـاتِ الشعـراءِ ، وتـرتيـبِ درجـاتِهـم ، وتعـريـفِ طبقـاتِهـم ، هيهاتَ . . لقَد حَنَّ قَدَحٌ ، ليسَ مِنها .

وللهِ درُّ المعريِّ في قولِهِ [في « سقطِ الزندِ » ٢٢٥ مِنَ الطَويلِ] :

وَمُذْ قَـالَ إِنَّ ٱبْـنَ ٱللَّئِيْمَـةِ شَـاعِـرٌ أُولُوْ ٱلْجَهْلِ مَاتَ ٱلشِّعْرُ وَٱلشُّعَرَاءُ

أَلم يعرفوا أَنَّ الحكم بالشيءِ فرعُ تصوُّرِهِ؟ فهَل حقَّقوا تلكَ المعارفَ ، وتفيَّئُوا ظلالَها الوارفَ؟ أَم يَجرونَ كما يَجري في الديماسِ السيلُ ، ويَخبِطونَ كَما تخبِطُ العشواءُ بالليلِ ، وقد قالوا : إِنَّ الشعرَ كالبحرِ ، أَهونُ ما يكونُ علىٰ الجاهِلِ ، أَهولُ ما يكونُ علىٰ العالِمِ .

وقيلَ للمفضَّلِ الضبيِّ [في « صبح الأعشى » ٢/٣٤٥] : لِمَ لا تقولُ الشعرَ ، وأَنتَ أَعلَمُ الناسِ بهِ؟ قالَ : عِلمي بهِ هوَ الذي يمنعُني مِن قولِهِ .

ثمَّ إِنَّ لِكُلِّ لفظَةٍ خاصَّةً تُعرفُ بِها حسناً وقبحاً ، ثقلاً وقَبولاً ، ومَن ذا الذي لا يفرِّقُ بينَ الإِسفنْطِ[١] والمُدامِ ، والخنشليلِ[٢]

(١) الإسفنط : المطيب من عصير العنب ، أو ضرب من الأشربة ، أو أعلى الخمر ؛ لأن الدنان تسفطتها أي تشربت أكثرها .

(٢) الخنشليل : الجيِّدُ الضربِ بالسيفِ .

والسيفِ؟ وما أَشبهَ ذلكَ ـ وكلُّهُ مِن الأَوَّليّاتِ التي لَم يحوِجْ إِلىٰ التنبيهِ إِليها إِلاَّ جَهلُ المتأَخِّرينَ المُرَكَّبُ .

ومرقاةُ البلاغَةِ التي تزِلُّ عَنها الفصحاءُ ، وَقَذَفاتُهُ التي تختلِجُ دونَها البلغاءُ هيَ وضعُ كلِّ كلمةٍ في الموضِعِ الذي يليقُ بِها ، حتَّىٰ تجيءَ خفيفَةً علىٰ اللسانِ ، مثالُهُ قولُهُ جلَّ شأنُهُ : ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف : ١٣٣] .

فَفي لفظتَي : (الضفادِع) و (القُمَّلِ) ما لا ينكَرُ مِن الاستثقالِ ، لٰكنَّهُما لَمَّا توسَّطَتَا الأَلفاظَ السهلَةَ المقبولَةَ . . حَسُنَ موقعُهُما ، وأَشرقَ عليهِما ضوءُ الجمالِ ، وإِلاَّ . . فقد كَرهوا قولَ الفرزدَقِ [في « صبح الأعشى » ٢/ ٢٨٤ مِنَ الكاملِ] :

مِنْ عِزِّهِ ٱحْتَجَرَتْ كُلَيْبٌ عِنْدَهُ زُمَراً كَأَنَّهُمُ لَدَيْهِ ٱلْقُمَّلُ

والقرآنُ مِن فاتِحتِهِ إِلىٰ خاتمتِهِ مثالُ تَمكُّنِ الأَلفاظِ مِن مواقِعِها ، لا يمكِنُ فيهِ تحويرٌ قطُّ ، ولا يحتاجُ إِلىٰ تمثيلٍ ، وهوَ كلُّهُ مِن هٰذا النَّمَطِ ، إِلاَّ أَنَّهُ قد يتجلَّىٰ أَثرُ ذلكَ في بعضِ نقطٍ ، وهوَ الأَمرُ يُتظنَّىٰ نيلُهُ ، فَلا يدرَكُ ذيلُهُ [مِنَ الطَّويلِ] :

تَرَاهُ عُيُوْنُ ٱلنَّاظِرِيْنَ إِذَا بَدَا قرِيْباً ، وَلاَ يَسْطِيْعُهُ مَنْ يَرُوْقُهُ

وقالَ الناظِمُ [في « العُكبَريّ » ١/ ١١١ مِنَ البسيطِ] :

كَأَنَّهُ ٱلشَّمْسُ يُعْيِيْ كَفَّ قَابِضِهِ شُعَاعُهَا وَيَرَاهُ ٱلطَّرْفُ مُقْتَرِبَا

وممَّا يدلُّ لصحَّةِ ما نقولُ قولُهُ تعالىٰ : ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ * أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَآئِقَ غُلْبًا * وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا * مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس : ٢٤ـ٣٢] .

وقولُهُ جلَّ ذكرُهُ : ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ * وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام : ٨٤ـ٨٦] .

فلَم يخرُجِ الأُسلوبُ فيها عَنِ التعلِّيْ والتدلِّي . . إلاَّ لينساقَ علىٰ أَعذَبِ ما يكونُ ، وأخفِّهِ علىٰ الأَلسنَةِ .

وقولُهُ تباركَ اسمُهُ : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء : ٢٣] ، فإِنَّهُ لَم يلتفتْ عَنِ ٱلخطابِ في بناتِ الأَخِ والأُختِ ، ولَم يخالِف بينَ إسنادِ الرَّضاعِ للأُمَّهاتِ والأخواتِ . . إلاَّ لذلكَ ، واللهُ أَعلَمُ بحكمتِهِ ، إلاَّ أَنَّ هٰذا هوَ الذي ينقدِحُ بخاطرِ هٰذا المتطفِّلِ .

ويتَّصِلُ بهٰذا . . ٱختيارُ الأَلفاظِ ، ووضْعُ كلِّ شيءٍ فيما لا يتجافىٰ عنهُ ، أَرأَيتَ لَو أَنَّ اللهَ جلَّ شأْنُهُ أَبدلَ العَسَلَ مِن قولِهِ : ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ [محمد : ١٥] بالشهْدِ لانتقصَتِ العذوبَةُ الحاصلَةُ مِن تحريكِ الوسَطِ في العَسلِ؟

وتدبَّرْ قولَهُ : ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف : ٤٠] .

وقولَهُ : ﴿وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف : ٧٢] ، فإِنَّ كُلاً مِنَ الجمَلِ في الأُولىٰ ، والبعيرِ في الثانيَةِ ، واقعٌ في موضعِهِ الذي يطلبُهُ ، ولا يصلُحُ علىٰ سواهُ ، وكم رأَيناهُ يتجاوزُ ما يستثقَلُ مِن

اللفظ إِلىٰ الكنايَةِ عنهُ كقولِهِ : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وما ذاكَ ـ والعلمُ لهُ جلَّ شأنُهُ ـ إلاَّ لكراهةِ ٱستعمالِ الأَرضِ مجموعَةً .

ولا يبعُدُ أَن يكونَ منهُ قولُهُ : ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] .

وقولُهُ : ﴿ وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف : ٧٩] ، أَمَّا الأُولىٰ : فواضحٌ ، وأَمَّا الثانيَةُ : فلِمَا في همزَةِ القطعِ في لفظَةِ الأَمامِ لَو جعلَها مكانَها مِنَ ٱلاستثقالِ .

فأَفضلُ أَنواعِ الإعجازِ فيما أَرىٰ خفَّةُ الذكرِ الحكيمِ علىٰ أَسَلَةِ[1] اللِّسانِ ، بحيثُ يتمكَّنُ القارِىءُ أَن يتلوَ مِنهُ ما لا يمكنُهُ أَن يقرأَ مِن غيرِهِ في الزمَنِ الواحِدِ ، بٱعتبارِ الحروفِ ، وهٰذا أَمرٌ لَمْ أُجرِّبْهُ ، ولَم أَرَ مَن نبَّهَ عليهِ ، غيرَ أَنِّي أَعتقدُهُ ٱعتقاداً جازِماً يسعُني أَنْ أَستشهِدَ عليهِ بقولِهِ جلَّ ذكرُهُ : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧] ، ولئِنْ توهَّمَ متوهِّمٌ أَنَّهُ ليسَ إلاَّ نتيجةَ صقالِ الأَلسنِ ، وكثرَةِ التلاوَةِ . . فليجرِّبْ فيهِ وفيما يمرُّ فيهِ مِنْ غيرِهِ مرورَ السهمِ مِنَ ٱلمحفوظاتِ ، فسيصِحُّ لَهُ إِن شاءَ اللهُ ما نقولُ ، والكلامُ في أَمثالِهِ يطولُ ، وكلُّهُ مفروغٌ منهُ ، مقرَّرٌ في مواضعِهِ ، لم نَجِىءْ بشيءٍ منهُ ، غيرَ ما ذكرناهُ مِن عندِنا ، ولَم نخترعْهُ من قبلِ أَنفسِنا ، ولٰكنَّهُ طريقٌ واضِحٌ ، ومهيعٌ واسعٌ ، لَم نحتَجْ للإِشارَةِ إِليهِ إلاَّ

---

(١) أَسَلَةُ اللسان : طرفه .

للكَفِّ مِن جماحِ هؤلاءِ الذينَ يحسبونَ أنَّهم في العلالي ، ولَم يدخلوا بعدُ في الدهليزِ .

وأَقولُ لكَ واحدةً يصحُّ أَن تعملَ بِها في نفسِكَ دونَ أَن تقايسَ بِها سواكَ ، وهيَ : أَنَّهُ إِذا هزَّ الكلامُ شعورَكَ ، ونفخَ دماغَكَ ، وهيَّجَ خواطرَكَ ، وحرَّكَ ساكنَكَ ، وأَظهرَ كامنَكَ ، ودخلْتَ لسماعِهِ بلونٍ ، وخرجْتَ بلونٍ آخرَ مِنَ ٱلانفعالِ منهُ ، والتأَثُّرِ بهِ . . فاْعرفْ أَنَّهُ كلامٌ جزلٌ ، وجِدٌّ ليسَ بالهزلِ ، ولا بأْسَ أَن تقتنِعَ بالطلِّ مِن هٰذا إِن أَعوزَكَ الوابلُ ، مِن غيرِ أَن تتخذَهُ حكماً ، أَو تقطَعَ بهِ جزماً ، فدونَ ذلكَ خرطُ القتادِ مِن سلامَة الفطرَةِ ، وثقوبِ الفهمِ ، وصفاءِ الطبعِ ، وأَصالَةِ السليقَةِ ، أَو ما ذكرنا مِنَ ٱستكمالِ الأَدواتِ بكثرَةِ المجالِ ، والأَخذِ عَنِ ٱلرجالِ ، وممارسَةِ الصناعَةِ ، ومحاورَةِ الجماعَةِ ، ثم لا بدَّ معَ تلكَ المتاعِبِ أَن يتاحَ لكَ رفيقٌ يقالُ لَهُ التوفيقُ ، وإِلاَّ . . ضللتَ عَن سواءِ الطريقِ ، كَما أَشارَ إِلىٰ مثلِهِ بديعُ الزمانِ [في « مقاماته »] في مقالٍ لَهُ أَغلىٰ مِن عقدِ الجمانِ .

* * *

تنبيهات

المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق

أَحدُهَا : كثيراً ما نقولُ في هـٰذهِ المجالسِ : هـٰذا مأخوذٌ مِن هـٰذا، وهـٰذا ناظِرٌ إلىٰ هـٰذا ، وبعضُهُ لا يمكنُ إطلاقُ السرقَةِ عليهِ ؛ لأنَّ المعانيَ الظاهرةَ تعتورها الأفهامُ ، وتتواردُ عَلَيها الخواطرُ ، فهيَ مشاعَةٌ بينَ الناسِ ، كالتشبيهِ بالبحرِ ، والقمرِ ، والأَسدِ ، وما في حكمِها ، مِن المختَرَعَةِ في البَدْءِ ، المنتشرَةِ فيما بعدُ ، كقولِ قيسِ بنِ الأَسلَتِ أَوِ ٱبنِ الخطيمِ [في « ديوانِ ابن الخطيمِ » ١٦ مِنَ الكاملِ] :

مَـا تَمْنَعِـيْ يَقْظَـىٰ فَقَـدْ تُـؤْتِيْنَـهُ ... فِيْ ٱلنَّوْمِ غَيْرَ مُصَرَّدٍ مَحْسُوْبِ

وقولِ المعرِّيِّ [مِنَ الطَّويلِ] :

تُسِيْءُ بِنَا يَقْظَىٰ فَأَمَّا إِذَا سَرَتْ ... رُقَـاداً فَـإِحْسَـانٌ إِلَيْنَـا وَإِجْمَـالُ

وقولِ مهيارٍ [في « ديوانهِ » ٤/ ١٨٤ مِنَ الطَّويلِ] :

وَهَبْكُمْ مَنَعْتُمْ أَنْ أَرَاهَا بِنَاظِرِيْ ... فَهَلْ تَمْنَعُوْنَ ٱلْقَلْبَ أَنْ يَتَمَنَّاهَا

وقولِ عبدَةَ بنِ الطيِّبِ في رثاءِ قيسِ بنِ عاصمٍ [في « ديوانهِ » ١٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكُ وَاحِدٍ ... وَلَـٰكِنَّـهُ بُنْيَـانُ قَـوْمٍ تَهَـدَّمَـا

وقولِ ٱبنِ المقفَّعِ [في «ديوان الحماسة» ١/ ٣٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

فَقَدْ جَرَّ نَفعاً فَقْدُنَا لَكَ أَنَّنَا　　أَمِنَّا عَلَىٰ كُلِّ ٱلرَّزَايَا مِنَ ٱلْجَزَعْ

وما جرىٰ هٰذا المجرىٰ ممَّا تجاذبَتْهُ الأَيدي ، وتعاورتْهُ الأَفكارُ .

ثانيها : أَشرنا غيرَ مرَّةٍ إِلىٰ أَنَّ الناظِمَ لا يدَعُ لأَحدٍ شاذَّةً ولا فاذَّةً إلاَّ ٱطَّرَدَها ، وكثيراً ما يَستَسْمِنُ الورمَ ، كما مثَّلنا بقولِهِ : [في «العُكبريّ» ١/ ٣٧٨ مِنَ الطَّويلِ]

المتنبي بحق.. يشبه عصا سيدنا موسى.. يلقف كل ما يأتي به الشعراء فيجيد أحياناً ويسيء أخرىٰ

[يَكَادُ يُصِيبُ ٱلشَّيْءَ مِنْ قَبْلِ رَمْيِهِ]　　وَيُمْكِنُهُ فِيْ سَهْمِهِ ٱلْمُرْسَلِ ٱلرَّدُّ

ويَستحسنُ القبيحَ كما في قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٢/ ٢٥٣ مِنَ الوافرِ] :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ　　ثَبِيراً وَٱبْنُ إِبْرَاهِيمَ رَيْعَا

ولَم نجازفْ في شيءٍ مِن ذلكَ ، فكذلكَ كانَ الرجلُ ، غيرَ أَنَّهُ ـ والحقُّ يقالُ ـ كثيراً ما يعمَدُ إِلىٰ ما رخصَ فيُغْلِيهِ ، وإِلىٰ ما ٱمتُهنَ فيُغْلِيهِ ، ويعيدُ لَهُ جِدَّتَهُ ، وينشرُ لَهُ رفاتَهُ ، ويبعثُهُ في خلقٍ جديدٍ ، أَبهىٰ مِن سابقِهِ ، أَلا ترىٰ إِلىٰ المعنىٰ الآتي؟ فأَوَّلُ مَن وقعَ عليهِ فيما أَظنُّ الأَفوهُ الأُوديُّ ، حيثُ قالَ [في «ديوانِهِ» ٧٧ مِنَ الرَّمَلِ] :

وَتَرَىٰ ٱلطَّيْرَ عَلَىٰ آثَارِنَا　　ثِقَةً مِنْ غَزْوِنَا أَنْ سَتُمَارْ[1]

وقالَ نابغَةُ ذبيانَ [في «ديوانهِ» ٥٧ مِنَ الطَّويلِ] :

إِذَا مَا غَزَا بِالْجَيْشِ حَلَّقَ فَوْقَهُ　　عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدِيْ بِعَصَائِبِ

---

(١) سَتُمارُ : أَي ستأتيها الميرةُ وهوَ الغذاءُ والطعامُ .

جَـوَانِـحَ قَـدْ أَيْقَـنَّ أَنَّ قَبِيْلَـهُ إِذَا مَا ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ أَوَّلُ غَالِبِ[1]

وقالَ مسلمُ بنُ الوليدِ [في « ديوانهِ » ١٢ مِنَ البسيطِ] :

قَدْ عَوَّدَ ٱلطَّيْرَ عَادَاتٍ وَثِقْنَ بِهَا فَهُـنَّ يَتْبَعْنَـهُ فِـيْ كُـلِّ مُـرْتَحَـلِ

وقالَ أَبو نواسٍ [في « ديوانهِ » ٢٨٣ مِنَ المديدِ] :

تَتَـأَيَّـا ٱلطَّيْـرُ غَـزْوَتَـهُ ثِقَـةً بِـٱللَّحْـمِ مِـنْ جُـزُرِهْ

وقالَ أَبو تمَّامٍ [في « ديوانهِ » ٢/ ٤٠ مِنَ الطَّويلِ] :

وَقَدْ ظُلِّلَتْ عِقْبَانُ رَايَاتِهِ ضُحىً بِعِقْبَانِ طَيْـرٍ بِـٱلـدِّمَـاءِ نَـوَاهِـلِ

أَقَامَتْ مَعَ ٱلرَّايَاتِ حَتَّىٰ كَأَنَّهَا مِنَ ٱلْجَيْشِ إِلاَّ أَنَّهَا لَمْ تُقَاتِلِ

ولَم يبقَ مِن شاعرٍ إِلاَّ أَفرغَهُ في قالَبٍ ، وأَدرجَهُ في مثالٍ ، حتَّىٰ أَذالُوهُ ، فلمَّا انتهىٰ إِلىٰ صاحبِنا . . أَطلعَ يُوحَهُ[2] ، وردَّ روحَهُ ، وأَذكىٰ ريَّاهُ ، وأَظهرَ محيَّاهُ ، فقالَ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٣٧٩ـ٣٨٠ مِنَ الطَّويلِ] :

يُفَـدِّيْ أَتَـمُّ ٱلطَّيْـرِ عُمْـراً سِـلاَحَـهُ نُسُوْرُ ٱلْمَلاَ أَحْدَاثُهَا وَٱلْقَشَاعِمُ[3]

وَمَا ضَرَّهَا خَلْقٌ بِغَيْرِ مَخَالِبٍ وَقَدْ خُلِقَتْ أَسْيَافُهُ وَٱلْقَوَائِمُ

---

(١) جوانحُ : مائِلةٌ في أَحدِ شقَّيها للوقوعِ ، ومنهُ قولهم : جنحَ الليلُ ، إذا مالَ .

(٢) يوح : اسمٌ مِن أَسماءِ الشمسِ .

(٣) القشاعمُ : النسورُ الطويلاتُ العمرِ ، ومنهُ سمِّيت المنيَّةُ (أمَّ قشعم) لطولِ عمرِها . الملا : وجهُ الأرضِ . الأحداثُ : الشابَّةُ ، والمعنىٰ : يَفدي أَطولُ الطيرِ عُمْراً سلاحَ سيفِ الدولَةِ ، وإنَّما يفديهِ لوجودِ الجُثَثِ في وقائِعِهِ ، والاستبشارِ بكثرةِ ملاحِمِه .

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٣/٣٣٨ مِنَ الطَّويلِ] :

سَحَابٌ مِنَ ٱلْعِقْبَانِ يَزْحَفُ تَحْتَهَا   سَحَابٌ إِذَا ٱسْتَسْقَتْ سَقَتْهَا صَوَارِمُهْ

وقالَ [في « العُكبَريِّ » ٤/ ١١٣ـ١١٤ مِنَ الكاملِ] :

وَذِيْ لَجَبٍ لاَ ذُوْ ٱلْجَنَاحِ أَمَامَهُ   بِنَاجٍ وَلاَ ٱلْوَحْشُ ٱلْمُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عَلَيْهِ ٱلشَّمْسُ وَهْيَ ضَعِيفَةٌ   تُطَالِعُهُ مِنْ بَيْنِ رِيْشِ ٱلْقَشَاعِمِ
إِذَا ضَوْءُهَا لاَقَىٰ مِنَ ٱلطَّيْرِ فُرْجَةً   تَدَوَّرَ فَوْقَ ٱلْبَيْضِ مِثْلَ ٱلدَّرَاهِمِ

وما كانَ لأَبي الطيِّبِ أن يموتَ بحسرَةٍ علىٰ الإمارَةِ وقد فتحَ هـٰذي القلاعَ ، ووُفِّقَ لِهـٰذا الإبداعِ ، وإنِّي لكثيراً ما أَمرُّ بهـٰذِهِ القصيدَةِ فيحدُثُ لي عندَ كلِّ مرَّةٍ مِن روعَةِ حسنِها ، ورونق جمالِها ، ما لَم أَجدْهُ مِن قبلُ ، فسبحانَ المانِحِ ، هـٰذا واللهِ السحرُ الحلالُ ، والعذبُ الزلالُ ، والحديثُ الذي لا تزيدُهُ الإعادَةُ إِلاَّ جِدَّةً ، ولا التكرارُ إِلاَّ لذَّةً .

اعتذار المؤلف إلى المتنبي إن كان قسا عليه واعترافه بالفضل له وذكر أمثلة من بدائعه

ثالثُها : ربَّما ٱنتقدنا عليهِ بعضَ قولِهِ بحدَّةٍ ، وحكَمنا عليهِ أَحياناً بشدَّةٍ ، فَلا يذهبْ وهمُكَ أَنَّا نبخَسُهُ حقَّهُ ، ونهضِمُ عليهِ فضلَهُ ، وإِنَّما هيَ حالَةٌ مِنَ ٱلحالاتِ ، وجائِشَةٌ مِنَ ٱلْجَوائِشِ ، يضطرُّنَا إِليها غرورُهُ بنفسِهِ ، وإِعجابُهُ بشعرِهِ ، وإِعراضُهُ ـ كما يروىٰ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٨١] ـ عَن كلِّ نقدٍ يورَدُ عليهِ ، إِلاَّ ما أَشارَ بهِ عليهِ سيفُ الدولَةِ مِن إبدالِ (الجيَفِ) بـ (الجثَثِ) مِن قولِهِ [في « العُكبَريِّ » ٣/ ٣٨١ مِنَ الطَّويلِ] :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ ٱلْجُنُوْنِ فَأَصْبَحَتْ   وَمِنْ جِيَفِ ٱلْقَتْلَىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ

وقد جاءَ بأشياءَ ظاهرةِ النكارةِ والقبحِ ، مثلِ قولِهِ [في «العُكبَريّ» ٢/ ١٨٣ مِنَ الخفيفِ] :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ تَجُوزُ إِلَيْهِمُ شُعَرَاءٌ كَأَنَّهَا ٱلْخَازِبَازِ[١]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٣٤٠ مِنَ الكاملِ] :

أَنَّىٰ يَكُونُ أَبَا ٱلْبَرِيَّةِ آدَمٌ وَأَبُوكَ ـ وَٱلثَّقَلانِ أَنْتَ ـ مُحَمَّدُ!

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٠٧ مِنَ الكاملِ] :

خَلَتِ ٱلْبِلاَدُ مِنَ ٱلْغَزَالَةِ لَيْلَهَا فَأَعَاضَهَاكَ ٱللهُ كَيْ لاَ تَحْزَنَا[٢]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ٣٢٥ مِنَ الطَّويلِ] :

وَمَلْمُومَةٌ سَيْفِيَّةٌ رَبَعِيَّةٌ يَصِيحُ ٱلْحَصَىٰ فِيهَا صِيَاحَ ٱللَّقَالِقِ[٣]

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٨٥ مِنَ الطَّويلِ] :

فَلا يُبْرَمُ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ حَالِلٌ وَلاَ يُحْلَلُ ٱلأَمْرُ ٱلَّذِي هُوَ مُبْرِمُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٣/ ٢٥٨ مِنَ الكاملِ] :

جَخَفَتْ وَهُمْ لاَ يَجْخَفُونَ بِهَا بِهِمْ شِيَمٌ عَلَىٰ ٱلْحَسَبِ ٱلأَغَرِّ دَلاَئِلُ[٤]

---

(١) الخازباز : حكايةُ صوتِ الذبابِ .
(٢) الغزالةُ : الشمسُ .
(٣) الملمومةُ : الكتيبةُ المجتمعةُ . سيفيّةٌ : منسوبةٌ إلى سيفِ الدولةِ . رَبَعيَّةٌ : منسوبةٌ إلى ربيعةَ ، وهيَ قبيلةُ سيفِ الدولةِ .
(٤) الجخفُ : الفخرُ . وفي البيتِ تقديمٌ وتأخيرٌ ، إذِ الأصلُ : جَخَفَتْ بهم شِيَمٌ وفخرَتْ ، وهُم لا يفخرونَ بِها . وهو من شواهد علم البلاغة .

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٢٤ مِنَ البسيطِ] :

لَوِ ٱسْتَطَعْتُ رَكِبْتُ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ ۝ إِلَىٰ سَعِيْدِ بْنِ عَبْدِ ٱللهِ بُعْرَانَا[1]

فهٰذا ـ واللهِ ـ كَما قالَ هوَ نفسُهُ : القولُ الهُراء ، والشعْرُ الذي لا يتقدَّمُ إلاَّ إِلىٰ الوراءِ ، ثم إِنَّها قلَّما تتساوىٰ أَغراضُهُ ، وتتقاطَرُ فصولُهُ ، ويطَّرِدُ نظامُهُ ، إلاَّ فيما كانَ مِن وصفِ الحروبِ ، وبعضِ قصائِدَ كالتي أَوَّلُها [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٥ مِنَ الوافرِ] :

بِغَيْـرِكَ رَاعِيـاً عَبِـثَ ٱلـذِّئَـابُ ۝ وَغَيْرَكَ صَارِماً ثَلَمَ ٱلضِّرَابُ[2]

والتي أَوَّلُها [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٠٠ مِنَ الوافرِ] :

طِـوَالُ قَنـاً ، تُطَـاعِنُهَـا قِصَـارُ ۝ وَقَطْرُكَ فِيْ نَدىً وَوَغىً بِحَارُ

وإلاَّ . . فـإِنَّـهُ بـالأَغلبِ لا يكـونُ إلاَّ مشتَّـتَ السيـاقِ ، مبعثَرَ الكلامِ ، مفرَّقَ الأَغراضِ ، قليلَ التشابُهِ ؛ ولِذا تجدُ في البيتِ لَهُ تتمثَّلُ بهِ وحدَهُ رواءً ورونقاً ، لا تجدُهُ فيهِ عندَما تنشدُهُ بينَ إِخوانِهِ ، ولقلَّما سنحَ بذِهني أَحدُ أَبياتِهِ السائِرَةِ في مناسبَةٍ أَصارَتْ إِليهِ . . إلاَّ نزلَ الرجلُ بأَقصىٰ منزلَةٍ مِنَ ٱلإعظامِ في نَفسي ، حتَّىٰ إِذا حملَني الإِكبارُ لَهُ علىٰ التزيُّدِ ، ورجعتُ إِلىٰ « الديوانِ » . . ٱنحطَّ مِن عيني ـ بالأَغلَبِ ـ ٱنحطاطاً يتبيَّنُ بهِ البونُ البعيدُ ، والفرقُ الكبيرُ ، ولا أَراكَ إلاَّ توافقُني علىٰ هٰذا ، فإِنَّهُ ملموسٌ باليدِ ، وهوَ مِن أَسرارِ قولِهِ جلَّ

---

(١) البُعرانُ : جمعُ بعيرٍ .

(٢) المعنى : إذا كنتَ الحافظَ للرعيَّةِ لم يقدر عليهم أَحدٌ بضرٍّ ؛ لخوفهم منكَ ، وبغيرِكَ يعبثُ الذئابُ في حالِ رعيهِ وسياستهِ ، ويثلمُ الضرابُ غيرَك في حال قطعهِ ، وإذا كنتَ أنتَ الراعي لم يعبثِ الذئابُ بسوامِكَ ، وإذا كنتَ أنتَ الضاربَ لم يثلمكَ الضربُ .

ذكرُهُ : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] ، ثمَّ إن كانَ رَدِيئُهُ في الدرْكِ الأسفلِ مِنَ الاتضاعِ . . فإنَّ جيِّدَهُ في الأوجِ الأعلىٰ مِنَ الارتفاعِ ، وهل يقدِرُ أحدٌ أن يقولَ مثلَ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ٧٨ مِنَ الوافرِ] :

إِذَا مَـا سِـرْتَ فِـيْ آثَـارِ قَـوْمٍ تَخَاذَلَتِ ٱلْجَمَاجِمُ وَٱلرِّقَابُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٢/ ١٠٤ مِنَ الوافرِ] :

مَضَـوْا مُتَسَابِقِـيْ ٱلأَعْضَـاءِ فِيْـهِ لأَرْؤُسِهِـمْ بِـأَرْجُلِهِـمْ عِثَـارُ

وقولِهِ [في « العُكبَريّ » ٤/ ٢٣ـ٢٤ مِنَ البسيطِ] :

صَدَمْتَهُمْ بِخَمِيْسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ وَسَمْهَـرِيَّتُـهُ فِـيْ وَجْهِـهِ غَمَـمُ

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيْهِمْ جُسُوْمُهُمُ يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ وَٱلأَرْوَاحُ تَنْهَزِمُ

وقد ذكرَ الشارحُ جملةً صالحةً مِن بدائعِ شعرِهِ الذي بذَّ بِهِ الشعراءَ ، وتركَ الطوائفَ مِن معاصريهِ ، ومَن بعدَهم ، ومَن قبلَهم منبوذينَ بالعراءِ ، وذلكَ عندَ شرحِ قولِهِ [في « العُكبَريّ » ١/ ١٦١ مِنَ البسيطِ] :

أَزُوْرُهُمْ وَسَوادُ ٱللَّيْلِ يَشْفَعُ لِيْ وَأَنْثَنِيْ وَبَيَاضُ ٱلصُّبْحِ يُغْرِيْ بِيْ

فتُغنينا الإحالةُ عَنِ الإطالةِ(١) ، وظنِّي أَنَّ اللهَ لم يوفِّقْهُ لذلكَ الإبداعِ ، الذي شاءَ بِهِ الناسَ في الأُولىٰ . . إلاَّ وهوَ يريدُ أَن يتجاوزَ عَن سيِّئاتِهِ في الأُخرىٰ ، وهوَ عندَ ظنِّ عبدِهِ بِهِ .

---

(١) وإتماماً للفائدة نذكرُ الأبياتَ التي أَشارَ إليها الشيخُ المؤلِّفُ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وهي قولُ الشارحِ :

. . . .

= قد أَجمعَ الحذَّاقُ بمعرفةِ الشِّعْرِ والنُّقَّادُ أَنَّ لأبي الطيبِ نوادرَ لم تأْتِ في شعرِ غيرِهِ ، وهيَ مِمَّا تخرقُ العقولَ ، منها في كافور :

فَجَاءت بنَا إنسَانَ عينِ زَمانِهِ ... وَخَلَّتْ بيَاضاً خَلْفَها وَمَآقِيا

وما مُدِحَ أسودُ بأَحسنَ من هذا .

ومنها :

فَذِيْ الدَّارُ أَخْوَنُ مِنْ مُومِسٍ ... وَأَخْدَعُ مِنْ كِفَّةِ الْحَابِلِ

ومنها :

إنَ كَانَ سَرَّكُمُ مَا قَالَ حَاسِدُنَا ... فَمَا لِجُرْحٍ إذَا أَرْضَاكُمُ أَلَمُ

ومنها :

أَرْجُو نَدَاكَ وَلاَ أَخْشَى الْمِطَالَ بِهِ ... يَا مَنْ إذَا وَهَبَ الدُّنْيَا فَقَدْ بَخِلاَ

وهذا من أبلغ الوصف بالجود .

ومنها :

وَذَاكَ أَنَّ الْفُحُولَ الْبِيْضَ عَاجِزَةٌ ... عَنِ الْجَمِيْلِ فَكَيْفَ الْخِصْيَةُ السُّودُ

هذا أشد ما هُجِيَ به أسود .

ومنها :

إذاَ مَا سِرْتَ فِيْ آثَارِ قَوْمٍ ... تَخَاذَلَتِ الْجَمَاجِمُ والرِّقَابُ

قال ابن نباتة : نحسن أن نقول ، ولكن مثل هذا لا نقول .

ومنها :

إذَا غَزَتْهُ أَعَادِيْهِ بِمَسْأَلَةٍ ... فَقَدْ غَزَتْهُ بِجَيْشٍ غَيْرِ مَغْلُوْبِ

وبعده :

كَأَنَّ كُلَّ سُؤَالٍ فِيْ مَسَامِعِهِ ... قَمِيْصُ يُوْسُفَ فِيْ أَجْفَانِ يَعْقُوبِ

ومنها :

وَجُرْمٍ جَرَّهُ سُفَهَاءُ قَوْمٍ ... وَحَلَّ بِغَيْرِ جَارِمِهِ الْعَذَابُ

. . . .

= ومنها :

وَمَا ٱلْحُسْنُ فِيْ وَجْهِ ٱلْفَتَىٰ شَرَفاً لَهُ   إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيْ فِعْلِهِ وَٱلْخَلَائِقِ

ومنها :

وَإِنَّ قَلِيْلَ ٱلْحُبِّ بِٱلْعَقْلِ صَالِحٌ   وَإِنَّ كَثِيْرَ ٱلْحُبِّ بِٱلْجَهْلِ فَاسِدُ

ومنها :

إِذَا رَأَيْتَ نُيُوبَ ٱللَّيْثِ بَارِزَةً   فَلاَ تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيْثَ يَبْتَسِمُ

ومنها :

وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِ ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ   إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

ومنها :

خُذْ مَا تَرَاهُ وَدَعْ شَيْئاً سَمِعْتَ بِهِ   فِيْ طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيْكَ عَنْ زُحَلِ

ومنها :

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ   فَرُبَّمَا صَحَّتِ ٱلأَجْسَامُ بِٱلْعِلَلِ

ومنها :

آلَةُ ٱلْعَيْشِ صِحَّةٌ وَشَبَابُ   فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ ٱلْمَرْءِ وَلَّىٰ

وفيها :

أَبَداً تَسْتَرِدُّ مَا تَهَبُ ٱلدُّنْـ   ـيَا فَيَا لَيْتَ جُوْدَهَا كَانَ بُخْلاَ

ومنها :

وَمَا ٱلدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤَمَّلَ عِنْدَهُ   حَيَاةٌ وَأَنْ يُشْتَاقَ فِيْهِ إِلَىٰ ٱلنَّسْلِ

ومنها :

إِذَا مَا ٱلنَّاسُ جَرَّبَهُمْ لَبِيْبٌ   فَإِنِّيْ قَدْ أَكَلْتُهُمْ وَذَاقَا

ومنها :

أَبَىٰ خُلُقُ ٱلدُّنْيَا حَبِيْباً تُدِيْمُهُ   فَمَا طَلَبِي مِنْهَا حَبِيْباً تَرُدُّهُ =

. . . .

= ومنها :

وَأَسْــرَعُ مَفْعُــوْلٍ فَعَلْــتَ تَغَيُّــراً   تَكَلُّــفُ شَــيْءٍ فِــيْ طِبَــاعِــكَ ضِــدُّهُ

ومنها :

مَــا كُــلُّ مَــا يَتَمَنَّــىٰ ٱلْمَــرْءُ يُــدْرِكُــهُ   تَجْرِيْ ٱلرِّيَاحُ بِمَا لاَ تَشْتَهِيْ ٱلسُّفُنُ

ومنها :

وَمُــرَادُ ٱلنُّفُــوْسِ أَصْغَــرُ مِــنْ أَنْ   نَتَعَــادَىٰ فِيْــهِ وَأَنْ نَتَفَــانَــىٰ

وفيها :

غَيْــرَ أَنَّ ٱلْفَتَــىٰ يُــلاَقِــيْ ٱلْمَنَــايَــا   كَــالِحَــاتٍ وَلاَ يُــلاَقِــيْ ٱلْهَــوَانَــا

وفيها :

وَلَــوَ أنَّ ٱلْحَيَــاةَ تَبْقَــىٰ لِحَــيٍّ   لَعَــدَدْنَــا أَضَلَّنَــا ٱلشُّجْعَــانَــا

وفيها :

وَإِذَا لَــمْ يَكُــنْ مِــنَ ٱلْمَــوْتِ بُــدٌّ   فَمِــنَ ٱلْعَــارِ أَنْ تَمُــوْتَ جَبَــانَــا

ومنها :

وَصِــرْتُ أَشُــكُّ فِيْمَــنْ أَصْطَفِيْــهِ   لِعِلْمِــيْ أَنَّــهُ بَعْــضُ ٱلأَنَــامِ

وفيها :

وَآنَــفُ مِــنْ أَخِــيْ لأَبِــيْ وَأُمِّــيْ   إِذَا مَــا لَــمْ أَجِــدْهُ مِــنَ ٱلْكِــرَامِ

وفيها :

وَلَــمْ أَرَ فِــيْ عُيُــوْبِ ٱلنَّــاسِ شَيْئــاً   كَنَقْــصِ ٱلْقَــادِرِيْــنَ عَلَــىٰ ٱلتَّمَــامِ

ومنها :

لَــوْلاَ ٱلْمَشَقَّــةُ سَــادَ ٱلنَّــاسُ كُلُّهُــمُ   ٱلْجُــوْدُ يُفْقِــرُ وَٱلإِقْــدَامُ قَتَّــالُ

وفيها :

إِنَّــا لَفِــيْ زَمَــنٍ تَــرْكُ ٱلْقَبِيْــحِ بِــهِ   مِنْ أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِفْضَالُ=

. . . .

= ومنها :

إِنِّـي لأَجْبُـنُ مِـنْ فِـرَاقِ أَحِبَّتِـي ... وَتُحِسُّ نَفْسِيْ بِالْحِمَامِ فَأَشْجُعُ

إلى قوله :

تَصْفُـو الْحَيـاةُ لِجَاهِـلٍ أَوْ غَافِـلٍ ... عَمَّـا مَضَـىٰ فِيْهَـا وَمَـا يُتَـوَقَّـعُ

وَلِمَـنْ يُغَالِـطُ فِيْ الْحَقِيْقَـةِ نَفْسَـهُ ... وَيَسُـوْمُهَـا طَلَـبَ الْمُحَـالِ فَتَطْمَـعُ

ومنها :

تَـوَهَّـمَ النَّـاسُ أَنَّ الْعَجْـزَ قَـرَّبَنَـا ... وَفِيْ التَّقَرُّبِ مَا يَدْعُو إِلَىٰ التُّهَمِ

وفيها :

وَلَـمْ تَـزَلْ قِلَّـةُ الإِنْصَـافِ قَـاطِعَـةً ... بَيْنَ الرِّجَالِ وَلَوْ كَانُوْا ذَوِيْ رَحِمِ

وفيها :

هَـوِّنْ عَلَـىٰ بَصَـرٍ مَـا شَـقَّ مَنْظَـرُهُ ... فَـإِنَّمَـا يَقَظَـاتُ الْعَيْـنِ كَـالْحُلُـمِ

وفيها :

وَكُـنْ عَلَـىٰ حَـذَرٍ لِلنَّـاسِ تَسْتُـرُهُ ... وَلاَ يَغُـرُّكَ مِنْهُـمْ ثَغْـرُ مُبْتَسِـمِ

وفيها :

غَـاضَ الْـوَفَـاءُ فَمَـا تَلْقَـاهُ فِيْ عِـدَةٍ ... وَأَعْوَزَ الصِّدْقُ فِيْ الإِخْبَارِ وَالْقَسَمِ

ومنها :

تُـرِيْـدِيْـنَ لُقْيَـانَ الْمَعَـالِيْ رَخِيْصَـةً ... وَلاَ بُدَّ دُوْنَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

ومنها :

نَحْـنُ بَنُـوْ الْمَـوْتَـىٰ فَمَـا بَـالُنَـا ... نَعَـافُ مَـا لاَ بُـدَّ مِـنْ شُـرْبِـهِ

إلى قوله :

يَمُـوْتُ رَاعِـيْ الضَّـأْنِ فـي جَهْلِـهِ ... مَـوْتَـةَ جَـالِيْنُـوْسَ فِـيْ طِبِّـهِ =

. . . .

= ومنها :

وَإِنَّ ٱلْمَـاءَ يَخْـرُجُ مِـنْ جَمَـادٍ وَإِنَّ ٱلنَّـارَ تَخْـرُجُ مِـنْ زِنَـادِ

ومنها :

تَغَيَّـرَ حَـالِـيْ وَٱللَّيَـالِـيْ بِحَـالِهَـا وَشِبْتُ وَمَا شَابَ ٱلزَّمَانُ ٱلْغَرَانِقُ

ومنها :

فُـــؤَادٌ مَـــا تُسَلِّيْـــهِ ٱلْمُـــدَامُ وَعُمْـرٌ مِثْـلُ مَـا تَهَـبُ ٱللِّئَـامُ

وفيها :

وَدَهْـرٌ نَـاسُـهُ نَـاسٌ صِغَـارٌ وَإِنْ كَـانَـتْ لَهُـمْ جُثَـثٌ ضِخَـامُ

وفيها :

وَمَـا أَنَـا مِنْهُـمْ بِـٱلْعَيْـشِ فِيْهِـمْ وَلَكِـنْ مَعْـدِنُ ٱلـذَّهَـبِ ٱلـرَّغَـامُ

وفيها :

خَلِيْلُـكَ أَنْـتَ لاَ مَـنْ قُلْـتَ خِلِّـيْ وَإِنْ كَثُــرَ ٱلتَّجَمُّــلُ وَٱلْكَـــلاَمُ

وفيها :

وَشِبْــهُ ٱلشَّــيْءِ مُنْجَـذِبٌ إِلَيْـهِ وَأَشْبَهُنَـا بِـدُنْيَـانَـا ٱلطَّغَـامُ

وفيها :

وَمَـنْ خَبَـرَ ٱلْغَـوَانِـيْ فَـٱلْغَـوَانِـيْ ضِيَـاءٌ فِـيْ بَـوَاطِنِـهِ ظَـلاَمُ

وفيها :

وَمَـا كُـلٌّ بِمَعْـذُورٍ بِبُخْـلٍ وَلاَ كُـلٌّ عَلَـىٰ بُخْـلٍ يُـلاَمُ

وفيها :

بِـأَرْضٍ مَـا ٱشْتَهَيْـتَ رَأَيْـتَ فِيْهَـا فَلَيْـسَ يَفُـوتُهَـا إِلاَّ ٱلْكِـرَامُ

وفيها :

فَهَـلاَّ كَـانَ نَقْـصُ ٱلأَهْـلِ فِيْهَـا وَكَـانَ لأَهْلِهَـا مِنْهَـا ٱلتَّمَـامُ =

. . . .

= ومنها :

وَٱحْتِمَـالُ ٱلأَذَىٰ وَرُؤْيَـةُ جَـانِيْـ ـهِ غِـذَاءٌ تَضْـوَىٰ بِـهِ ٱلأَجْسَـامُ

وفيها :

ذَلَّ مَـنْ يَغْبِـطُ ٱللَّئِيْـمَ بِعَيْـشٍ رُبَّ عَيْـشٍ أَخَـفُّ مِنْـهُ ٱلْحِمَـامُ

وفيها :

مَـنْ يَهُـنْ يَسْهُـلِ ٱلْهَـوَانُ عَلَيْـهِ مَـا لِجُـرْحٍ بِمَيِّـتٍ إِيْـلاَمُ

ومنها :

أَفَاضِلُ ٱلنَّاسِ أَغْرَاضٌ لِذَا ٱلزَّمَنِ يَخْلُوْ مِنَ ٱلْهَمِّ أَخْلاَهُمْ مِنَ ٱلْفِطَنِ

وفيها :

فَقْـرُ ٱلْجَهُـوْلِ بِـلاَ عَقْـلٍ إِلَـىٰ أَدَبٍ فَقْـرُ ٱلْحِمَـارِ بِـلاَ رَأْسٍ إِلَـىٰ رَسَـنِ

وفيها :

لاَ يُعْجِبَـنَّ مُضِيْمـاً حُسْـنُ بِـزَّتِـهِ وَهَـلْ يَـرُوْقُ دَفِيْنـاً جَـوْدَةُ ٱلْكَفَـنِ

ومنها :

عَرَفْتُ ٱللَّيَالِيْ قَبْلَ مَا صَنَعَتْ بِنا فَلَمَّا دَهَتْنِيْ لَمْ تَزِدْنِيْ بِهَا عِلْماً

وفيها :

وَإِنِّـيْ لَمِـنْ قَـوْمٍ كَـأَنَّ نُفُـوْسَنَـا بِهَا أَنَفٌ أَنْ تَسْكُنَ ٱللَّحْمَ وَٱلْعَظْمَا

وفيها :

فَـلاَ عَبَـرَتْ بِـيْ سَـاعَـةٌ لاَ تُعِـزُّنِيْ وَلاَ صَحِبَتْنِيْ مُهْجَـةٌ تَقْبَـلُ ٱلظُّلْمَـا

ومنها :

وَأَنَـا ٱلَّـذِيْ ٱجْتَلَـبَ ٱلْمَنِيَّـةَ طَـرْفُـهُ فَمَـنِ ٱلْمُطَـالَـبُ وَٱلْقَتِيْـلُ ٱلْقَـاتِـلُ

وفيها :

وَإِذَا أَتَتْـكَ مَـذَمَّتِـيْ مِـنْ نَـاقِـصٍ فَهِـيَ ٱلشَّهَـادَةُ لِـيْ بِـأَنِّـيْ كَـامِـلُ=

. . . .

= ومنها :

وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱلْمَجْدَ زِقّاً وَقَيْنَةً … وَمَا ٱلْمَجْدُ إِلاَّ ٱلسَّيْفُ وَٱلْفَتْكَةُ ٱلْبِكْرُ

وفيها :

وَمَنْ يُنْفِقِ ٱلسَّاعَاتِ فِيْ جَمْعِ مَالِهِ … مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِيْ فَعَلَ ٱلْفَقْرُ

ومنها :

فَمَا فِيْ سَجَايَاكُمْ مُنَازَعَةُ ٱلْعُلاَ … وَلاَ فِيْ طِبَاعِ ٱلتُّرْبَةِ ٱلْمِسْكُ وَٱلنَّدُّ

ومنها :

إِذَا غَامَرْتَ فِيْ شَرَفٍ مَرُوْمِ … فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُوْنَ ٱلنُّجُوْمِ

وفيها :

فَطَعْمُ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ حَقِيْرٍ … كَطَعْمِ ٱلْمَوْتِ فِيْ أَمْرٍ عَظِيْمِ

وفيها :

وَكَمْ مِنْ عَائِبٍ قَوْلاً صَحِيْحاً … وَآفَتُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ ٱلسَّقِيْمِ

ومنها :

وٱلظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ ٱلنُّفُوْسِ فَإِنْ تَجِدْ … ذَا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لاَ يَظْلِمُ

وفيها :

وَٱلذُّلُّ يُظْهِرُ فِيْ ٱلذَّلِيْلِ مَوَدَّةً … وَأَوَدُّ مِنْهُ لِمَنْ يَوَدُّ ٱلأَرْقَمُ

وفيها :

وَمِنَ ٱلْبَلِيَّةِ عَذْلُ مَنْ لاَ يَرْعَوِيْ … عَنْ غَيِّهِ وَخِطَابُ مَنْ لاَ يَفْهَمُ

ومنها :

يُدَفَّنُ بَعْضُنَا بَعْضاً وَيَمْشِيْ … أَوَاخِرُنَا عَلَىٰ هَامِ ٱلأَوَالِيْ

ومنها :

وَمَا ٱلْمَوْتُ إِلاَّ سَارِقٌ دَقَّ شَخْصُهُ … يَصُوْلُ بِلاَ كَفٍّ وَيَسْعَىٰ بِلاَ رِجْلٍ=

رابعُها : أنّنا نجري في هٰذهِ المجموعَةِ ـ كَمَا كرَّرْنا القولَ ـ بسوقِ الخاطِرِ ، وسيرِ البديهَةِ ، ونتسقَّطُ تداعي الأفكارِ ، ونذكُرُ في كلِّ موضِعٍ ما تنتهي بِنا إليهِ الذاكرَةُ ، وقد اشتملَتْ مِن الأَشعارِ علىٰ طرائِفَ ، ومِنَ النوادِرِ علىٰ ظَرائِفَ ، لَو وُفِّقَ أَديبٌ لترتيبِها ،

العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهرة إلى زهرة دون تعمد ترتيب

=

ومنها :

أَرَىٰ كُلَّنَـا يَبْغِـيْ ٱلْحَيَـاةَ لِنَفْسِـهِ حَرِيْصاً عَلَيْهَا مُسْتَهَاماً بِهَا صَبَّا

وفيها :

وَيَخْتَلِـفُ ٱلـرِّزْقَـانِ وَٱلْفِعْـلُ وَاحِـدٌ إِلَىٰ أَنْ يُرَىٰ إِحْسَانُ هَذَا لِذَا ذَنْبَا

ومنها :

رُبَّ أَمْـرٍ أَتَـاكَ لاَ تَحْمَـدُ ٱلْفَـ ـعَّـالَ فِيْـهِ وَتَحْمَـدُ ٱلأَفْعَـالاَ

وفيها :

وَإِذَا مَـا خَـلاَ ٱلْجَبَـانُ بِـأَرْضٍ طَلَـبَ ٱلطَّعْـنَ وَحْـدَهُ وَٱلنِّـزَالاَ

وفيها :

مَـنْ أَطَـاقَ ٱلْتِمَـاسَ شَـيْءٍ غِـلاَبـاً وَٱغْتِصَـابـاً لَـمْ يَلْتَمِسْـهُ سُـؤَالاَ

وفيها :

إِذَا أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ ٱلْكَـرِيْـمَ مَلَكْتَـهُ وَإِنْ أَنْـتَ أَكْـرَمْـتَ ٱللَّئِيْـمَ تَمَـرَّدَا

وفيها :

وَوَضْعُ ٱلنَّدَىٰ فِيْ مَوْضِعِ ٱلسَّيْفِ بِٱلْعُلاَ مُضِرٌّ كَوَضْعِ ٱلسَّيْفِ فِيْ مَوْضِعِ ٱلنَّدَىٰ

فهذا الذي لم يأت شاعر بمثله . وإنما ذكرناه مجملاً ليسهل أخذه وحفظه ، ولو تصفحت دواوين المجيدين المولدين والمحدثين . . لم نجد لأحد منهم بعض هذا نادراً ، ولكن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ويؤتي الحكمة من يشاء .

وإلحاقِ كلِّ فرعٍ بأَصلِهِ ، وكلِّ ضالٍّ بأَهلِهِ . . لجاءَ كتاباً موفورَ الفائِدَة ، مذكورَ العائِدَةِ ، معدومَ النظيرِ .

وكأَنِّي بلائِمٍ يلومُ علىٰ ما أَشرتُ إِليهِ مِن تشتيتِ المواضيعِ ، وتفريقِ الشواهِدِ ، وجوابُهُ ـ فوقَ ما عرفَ مِمَّا سَلَفَ ـ : ٱعتمادُ أَن ينالَ كلُّ مجلسٍ نصيبَهُ مِنَ ٱلجدِّ ، والهزلِ ، والوقْشِ ، والجزْلِ ؛ حتَّىٰ يقومَ بذاتِهِ ، ويستقلَّ بنفسِهِ ، ويُمتعَ علىٰ حدتِهِ ، وذلكَ مِن أَفضلِ فنونِ البلاغَةِ ، وهيَ طريقَةُ الذكرِ الحكيمِ ، إِذ ترىٰ آياتِ الطلاقِ والبيوعِ مقرونَةً بالوعظِ المبكي ، والوعدِ المِسكيِّ ، والوعيدِ المُنكي ، ولَو كانَت كما تقرؤُها في داووينِ الفقهِ . . لَما أَعوزَ الملحدَ لها جحوداً ، ولَما خضعَ لَها المَصاقعُ سجوداً .

ثمَّ إِنَّ أُمَّهاتِ كتبِ الأَدبِ ـ كـ« البيانِ والتبيينِ » للجاحظِ ـ لا تخلو عَنِ ٱلأَغلاطِ ، والتحريفِ ، والتكريرِ ، والتصريفِ ، فكثيراً ما أَرىٰ الأَبياتَ فيها مختلفَةَ العزوِ ، مَعَ تقاربِ المواضِعِ ، وذلكَ أَنصَعُ لوجهِ عذرِنا ، فيما يكونُ مِن مثلِهِ عندَنا أَنزرُ منهُ عندَهُم ، إِن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

خواطر الانتهاء من الكتاب

خامسُها : لَمَّا أَلقيتُ القلمَ عِشاءَ مساءِ الليلَةِ ١٧ مِن جمادىٰ الأُولىٰ سنةَ : (١٣٥٢هـ) كَما هيَ العادَةُ ، تكونُ القراءَةُ والكلامُ عَلَيها بما يحضُرُ عشيَّةً ، ثمَّ أَخلو بنفسي ساعةً مِنَ ٱلمساءِ ، أُقيِّدُ فيها ما يكونُ ، وحينئِذٍ وقد قرأْتُ وِردي ، وأَخذْتُ مضجَعي ، ووقعَ نظَري علىٰ السماءِ ، وزينتِها بالنجومِ الزاهرَةِ ، وما فيها من الآياتِ الباهرَةِ . . ٱستغرقَ فِكري ، وٱستجمعَ ذِكري ، وٱنطلقَتْ لِساني ببيتٍ مرَّ ذكرُهُ في المجلسِ العاشرِ ، لتقيِّ الدينِ بنِ تَيميَّةَ ،

وهوَ قولهُ [مِنَ البسيطِ] :

وَٱلْفَقْرُ لِيْ وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أَبَداً   كَمَا ٱلْغِنَىٰ لَكَ وَصْفٌ لاَزِمٌ ذَاتِيْ

وأَحسستُ مِن الوقتِ بطيبٍ ، ومن الإلهامِ بخطيبٍ ، فاستكانَ القلبُ ، وٱنشرحَ الصدرُ ، وقفَّ الشَّعَرُ ، وٱهتزَّ البدَنُ ، وٱنبسطَتِ ٱلرُّوحُ ، وقرَّتِ ٱلعينُ ، وعظُمَتِ الأَريحةُ[1] ، وٱغتنمتُ الفرصَةَ بالمناجاةِ والدعاءِ ، وجاشَتْ في الخاطِرِ أَبياتٌ ضمَّنْتُها ذلكَ البيتَ ، توجَدُ في موضعِها مِنَ « الديوان » ، غيرَ أَنَّها حالةٌ جاءَت فمَرَّتْ ، وٱحلَولَت ساعةً ثمَّ أَمرَّت[2] ، واللهُ المحمودُ أَولاً وآخراً ، ونبيُّه المصلَّىٰ عليهِ وعلىٰ آلهِ وأَصحابِهِ ، والمسلَّمُ عليهِم سلاماً عاطراً .

* * *

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها الرويحة وهي : وجدانك السرور الحادث من اليقين ، والله أعلم .
(٢) أَمرَّت : صارت مُرَّةً .

المحتوى

المحتوى

المجلس الثاني عشر

أَرَقٌ عَلَى أَرَقٍ وَمِثْلِي يَأْرَقُ   وَجَوًى يَزِيدُ وَدَمْعَةٌ تَتَرَقْرَقُ

شرح المطلع ٥
السهر والأرق من أجل الهوى ومن أجل المجد ٥
منشأ الهموم وترادف الغموم من كبر الهمة ٦
اضحك على الحريص!! ٧
تعليل المتنبي لسبب حرصه ٨
للأرق سبب آخر وهو: الخوف ١٠
أو المجد ١٠
أو غير ذلك ١٠
هجاء المتقاعسين عن المجد والسمو ١٢
العاقل تعب والجاهل مستريح ١٥
أشد الناس بلاءً من هم؟ ١٦
لمن يبتسم الزمان؟ ١٨
زيادة الحب!! ١٨
حتى الجود يزداد ٢٠

مَا لاَحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ   إِلاَّ انْثَنَيْتُ وَلِي فُؤَادٌ شَيِّقُ

تذكر الأحباب عند كل ما تقع عليه العين فيعجبها.. من عادة العرب ٢١

أحب شيء للعرب الغيث. . فلذا يتذكرون به الأحباب ٢١
ومن عادتهم التذكر عند لمح البرق ٢٢
البكاء لسجع الحمائم ٢٥
صد الدلال من الكمال ٢٩
مرض الحب لا دواء له ٢٩
العاشق تعب على كل حال ٢٩
عودة إلى بكاء الحمائم ٣١
كل إناء بما فيه ينضح ٣٦
العرب تحفظ المستجير ولو كان حيواناً ٣٩
من الأماكن التي تحن فيها العرب. . عند حنين الإبل ٣٩
قد يهيِّج شوقَ العربي غيرُ الذي ذكر ٤١

وَعَذَلْتُ أَهْلَ ٱلْعِشْقِ حَتَّىٰ ذُقْتُهُ	فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمُوتُ مَنْ لاَ يَعْشَقُ

كيف يكون الموت بلا عشق؟! ٤٣
العشق من طبائع النفوس الكريمة ٤٣
المحب يرى بعين غير عيون الناس ٤٤
إذا رأيت عاشقاً. . فارحمه ٤٦
المتنبي يعترف على نفسه بالجمود ٤٧
هذه هي الشجاعة يا أبا الطيب ٤٨
المتنبي صاحب أحوال متقلبة ٤٩
لا تنافر بين الشجاعة والمحبة ٥٣
الحب يصنع المعجزات ويقوي الجبان ٥٣
أحوال سيد الوجود ﷺ مع النساء ٥٤
الحب في ساحة الوغى ٥٦
حمدونية بنت عيسى تلجأ إلى محمد بن صالح العلوي ٥٧

وَعَـذَرْتُهُـمْ وَعَـرَفْـتُ ذَنْبِـيَ أَنَّنِـيْ	عَيَّـرْتُهُـمْ فَلَقِيْـتُ فِيْـهِ مَـا لَقُـوْا

من عيَّب . . ابتلي ٥٩
يجب أن تكون غيوراً ٦١
ذو النون المصري والفتيات الطائفات ٦٣
اعتراض المؤلف على نفسه ٦٤
الغيرة والأنفة العربية ٦٤
أبيات جميلة في الحب ٦٥
أبو السائب المخزومي يطلب العلم ٦٥

المجلس الثالث عشر

أَبَنِـيْ أَبِيْنَـا نَحْـنُ أَهْـلُ مَنَـازِلٍ	أَبَـداً غُـرَابُ ٱلْبَيْـنِ فِيْهَـا يَنْعِـقُ
نَبْكِيْ عَلىٰ ٱلدُّنْيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ	جَمَعَتْهُـمُ ٱلـدُّنْيَـا فَلَـمْ يَتَفَـرَّقُـوْا

مسكين المتنبي لا يعرف السعادة!! ٦٩
كثيّر عزة والغراب الناعق ٦٩
ليس كل غراب يُتَشَاءم منه ٧٠
العيب على المتنبي ٧١
الحلم على الجاهل ٧١
التشاؤم والطِّيَرة ٧٢
التذكير بالموت وقت اللذات ٧٣
حقارة الدنيا والكلام على الموت وذكر قصص في ذلك ٧٤

أَيْـنَ ٱلأَكَـاسِـرَةُ ٱلْجَبَـابِـرَةُ ٱلأُلَـىٰ	كَنَزُوْا ٱلْكُنُوْزَ فَمَا بَقِيْنَ وَلاَ بَقُوْا

سبحان الدائم الباقي ٩٢

يا ابن آدم . . إنك سائر إلى قبرك فتنبَّه ٩٢
لا يدوم إلا الحيُّ القيوم ٩٥
تقلُّب أحوال الدنيا في الناس ٩٥
الدنيا دولاب يدور ٩٦
تجمع الدنيا بإرادتك وتتركها رغم أنفك ١٠٢
مسألة أصولية حول الدنيا ١٠٣

مِنْ كُلِّ مَنْ ضَاقَ ٱلْفَضَاءُ بِجَيْشِهِ حَتَّىٰ قَضَىٰ ، فَحَوَاهُ لَحْدٌ ضَيِّقُ

شرح المطلع ١٠٥
مَلَك الموت وسيدنا داوود عليهما الصلاة والسلام ١٠٦
الملِكُ ومَلَك الموت ١٠٦
لا تدري أين تكون المنية ١٠٦
أبو دلف يتزود لموته ١٠٦
تموت ولا ينفعك إلا عملك ١٠٧

خُرْسٌ إِذَا نُودُوا كَأَنْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ ٱلْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مُطْلَقُ

الميت يسمع . . ولكنه لا يستطيع الكلام ١٠٩
قبر المعتمد بن عباد قبلة لبعض الشعراء ١١١
مسألة فقهية حول البرزخ ١١٢
الموت . . . آه من الموت كم فعل الأعاجيب ١١٤

وَلَقَدْ بَكَيْتُ عَلَىٰ ٱلشَّبَابِ وَلِمَّتِي مُسْوَدَّةٌ وَلِمَاءِ وَجْهِي رَوْنَقُ

شرح المطلع والكلام على المتنبي ١١٨
الكلام على الشيب ١١٩
البكاء على الشباب ١٢٢

المعتصم يعجب بقصيدة للنميري ١٢٣
دواء عجيب لتسهيل الولادة.. اقرأه ولا تطبقه!!! ١٢٤
المشيب والشباب والبكاء عليهما ١٢٥
الشيب قبل الأوان مؤلم ١٣٠
ما عذر المشيب في المجيء قبل أوانه؟ ١٣١
من سار على الدرب.. وصل ١٣٢
بغض النساء الشيب ١٣٣
قصائد للمؤلف في الموضوع ١٣٦
من فوائد الشيب أنه يردع عن الغي ١٤١
من لطف الله بالعباد أنهم لا يحسون للشيب ألماً ١٤٣
البكاء خوفاً من الشيء قبل وقوعه ١٤٤
لله در الأمل ما أعظمه ١٤٦
تأمل الدنيا ولا تركنن إليها ١٤٧

المجلس الرابع عشر

وَعَجِبْتُ مِنْ أَرْضٍ سَحَابُ أَكُفِّهِمْ مِنْ فَوْقِهَا وَصُخُورُهَا لاَ تُورِقُ

الجود الذي تورق منه الصخور ١٥١
مسألة بلاغية في الغلو ١٥٣
البخل الذي تجف منه البحار ١٥٦
عود على بدء في الكرم ١٥٦

وَتَفُوحُ مِنْ طِيبِ ٱلثَّنَاءِ رَوَائِحٌ لَهُمُ بِكُلِّ مَكَانَةٍ تُسْتَنْشَقُ

شرح المطلع ١٥٨
الطيب الفائح من المحبوب لا يمكن أن يخفى ١٥٨

أكذب الشعر ١٦١
طيب الثناء تابع لطيب الذات ١٦١
الذكر الجميل والثناء الحسن.. جدير بأن يطلب من الله ١٦٣
مسألة نحوية حول (كاد): ١٦٥
ثناء المؤلف على المتنبي ١٦٦

لَمْ يَخْلُقِ ٱلرَّحْمَـٰنُ مِثْلَ مُحَمَّدٍ	أَبَـداً وَظَنِّـي أَنَّـهُ لاَ يَخْلُـقُ

المديح والمغالاة فيه والقصص في ذلك ١٦٩
أبو الأسد وموسى الهادي ١٦٩
سلم الخاسر والمهدي ١٧٠
الفرزدق وعبد الملك بن مروان وشهامة نفس الفرزدق ١٧١
هل يجوز التسمي بـ: ملك الملوك وما شابهه؟ ١٧٦
الغلو في المديح ١٧٨
وصل السيوف بالخطا عند العرب ١٨٤
شر الشعراء من يناقض نفسه بنفسه ١٨٥
ذو الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً ١٨٨
الدنيا مصالح!! رحم الله أباك كان وكان... ولم يكن ١٨٩
وهل أنا إلا مهرة عربية ١٩٠
جعل من الجبان بطلاً من أجل المصلحة ١٩٣
بئس الرجال من يُشترى بالمال ١٩٣
يغيِّر رأيه في الرجل.. بمجرد هدية ١٩٤
النفاق والمداهنة ليس أمراً حديثاً ١٩٤
عودة إلى المديح ١٩٥
موقف رجولي للمأمون ١٩٨
شر العلماء.. علماء الملوك ١٩٩

شرح المطلع ٢٠٠
صور رائعة من الجود والإيثار على النفس ٢٠١
حكم الفقهاء في الإيثار ٢٠٣
الجود المطبوع في النفس ٢٠٤
نعمته قلادة في عنقي لا ينزعها إلا غاسلي. . رجل وفي ٢٠٥
المرثية التائية لابن الأنباري. . قمة في الوفاء ٢٠٦
الحر لا يكذب ولو قُتِل ٢٠٨
الذروة في الشجاعة والوفاء ٢٠٨
السائل عن الإمام أحمد وقت محنته ٢٠٩
البحتري شديد الوفاء للمتوكل ٢٠٩
أبلغ ما يكون من الجود أن تكون كلك من أيادي معطيك ٢١٠
المديح لا يكون إلا عن رغبة ٢١٠
الحر تكفيه الإشارة ٢١١
متى ينفع الجود وأين محله؟ ٢١١
الحلم على الجاهلين ٢١٢
التودد والتقرب من المساكين ٢١٥
إذا أعطيت هذا الرجل. . فقد أعطيت جميع أهل المدينة ٢١٧
العذل في الجود ٢١٧
جود المأمون ٢١٧
جود الفرزدق ٢١٨
صور من جود البرامكة ٢١٩
يقضي دين صديقه ويبكي ٢٢٣
التلذذ بالجود والإعطاء ٢٢٣

من أجواد الحضارمة ٢٢٥
يلومون الراضي العباسي على الجود ٢٢٥
نِعْمَ المال الصالح . . للرجل الصالح ٢٢٦

المجلس الخامس عشر

أَمْطِرْ عَلَيَّ سَحَابَ جُوْدِكَ ثَرَّةً وَانْظُـرْ إِلَـيَّ بِـرَحْمَـةٍ لاَ أَغْـرَقُ

متى ينفع الغيث؟! ٢٢٩
للجود . . حدود وكل ما زاد على حده . . انقلب إلى ضده على رأيٍ!! ٢٣١
من المبالغة في الإحسان قصة هرم بن سنان وزهير ٢٣٢
أبو دلف وعلي بن جبلة ٢٣٢
لا إسراف في الخير ٢٣٣
الجود العربي في سنة القحط ٢٣٤
من ليس له حظ . . لا يتعب ولا يشقى ٢٣٥
ألا موت يباع فأشتريه ٢٣٥
الدهر دولاب والحر لا ينسى الأصحاب ٢٣٦
استطراد على المتنبي ٢٣٧

كَذَبَ ابْنُ فَاعِلَةٍ يَقُوْلُ بِجَهْلِهِ مَـاتَ الْكِـرَامُ وَأَنْـتَ حَـيٌّ تُـرْزَقُ

شرح المطلع وفيه مباحث ٢٣٩
المبحث الأول على المطلع: هل يصح القول بموت الكرام مع وجود بعضهم؟ ٢٣٩
المبحث الثاني على المطلع ٢٤١
المبحث الثالث على المطلع: المتنبي لا يزن كرم الناس ولؤمهم إلا
بمعاملتهم له ٢٤٤

المبحث الرابع على المطلع: أصل هذا المطلع من قصة جرت لأبي تمام ... ٢٥٢
المبحث الخامس على المطلع: ادعى بعضهم أن في البيت حشواً لا داعي لذكره ٢٥٣

حُشَاشَةُ نَفسٍ وَدَّعَتْ يَوْمَ وَدَّعُوا فَلَـمْ أَدْرِ أَيَّ ٱلظَّـاعِنَيْـنِ أُشَيِّـعُ

شرح المطلع ٢٥٥
القلب والروح مع الأحباب أينما ذهبوا وأينما ارتحلوا ٢٥٦

أَشَـارُوْا بِتَسْلِيْـمٍ فَجُـدْنَـا بِـأَنْفُـسٍ تَسِيْلُ مِنَ ٱلآمَاقِ وَٱلسُّمُّ أَدْمُعُ

شرح المطلع ٢٦٥
الروح الراحلة وليس هم!! فينبغي التفريق ٢٦٦

حَشَايَ عَلَىٰ جَمْرٍ ذَكِيٍّ مِنَ ٱلْهَوَىٰ وَعَيْنَايَ فِيْ رَوْضٍ مِنَ ٱلْحُسْنِ تَرْتَعُ

شرح المطلع ٢٦٨
القلب في النار والعيون في الجنان ٢٦٨

وَلَوْ حُمِّلَتْ صُمُّ ٱلْجِبَالِ ٱلَّذِيْ بِنَا غَـدَاةَ ٱفْتَـرَقْـنَـا أَوْشَكَـتْ تَتَصَـدَّعُ

ألم البعاد يهد الجبال ٢٧٠
لوعة الفراق تذيب الآماق ٢٧١
صلاح الدين يُعزِّي في والده ٢٧٢
آه.. من الفراق ٢٧٣
الأذواق في الفراق ٢٧٤
القسم الأول يحبه لأنه يُخرِج مكنون الحب ٢٧٤
القسم الثاني يكرهه ويقول درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ٢٧٨
ما جاء في الوداع ٢٧٩

قصائد للمؤلف في الوداع ٢٨٠

أَتَتْ زَائِراً مَا خَامَرَ ٱلطِّيبُ ثَوْبَهَا	وَكَٱلْمِسْكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ

رائحة الحبيب أجمل من الطيب ويشهد بذا البعيد والقريب ٢٨٣
الروائح المسكية تفضح صاحبها ولو تخبَّأ ٢٨٤
طيب النكهة يدخل في الموضوع ٢٨٧
من يدق الباب.. يسمع الجواب ٢٨٧
عبد الملك بن مروان كان أبخر يسقط الذباب عن فمه ٢٨٨
البَخَر وما يتعلق به ٢٨٨
ليس كل ما يلمع ذهباً ٢٨٩

المجلس السادس عشر

فَمَا جَلَسَتْ حَتَّىٰ ٱنْثَنَتْ تُوسِعُ ٱلْخُطَا	كَفَاطِمَةٍ عَنْ دَرِّهَا قَبْلَ تُرْضِعُ

السرعة في التوديع ٢٩١
الطباع البشرية غريبة ٢٩١
كثرة إلف الإنسان للشيء.. تذهب هيبته من قلبه ٢٩١
من نوادر الأعمش ٢٩٢
من نوادر الشعبي ٢٩٢
زيارة المريض ٢٩٣
الكُلفة تُذهب الألفة ٢٩٣
زر غباً.. تزدد حباً ٢٩٥
المحبون أقسام: ٢٩٦
١ـ قسم ساقط ٢٩٦

٢ـ قسم متوسط ٢٩٧
٣ـ قسم صادق ٢٩٧
المحب دائماً جائع لا يشبع من محبوبه ولا من وصله ٢٩٧
لا توصِ حريصاً في تخفيف الزيارة ٢٩٨
أبو عبيدة النحوي والفضل بن الربيع ٣٠٠
أهنأ البر عاجله ٣٠١
عبد الله بن علي العولقي وأحد الشيوخ ٣٠١
لا تتدلل على أحبابك فتخسر يا ملك الزمان ٣٠١
لا تتشبث بالملك ٣٠٢

تَذَلَّلْ لِمَنْ تَهْوَىٰ عَلَىٰ ٱلْقُرْبِ وَٱلنَّوَىٰ فَمَـا عَـاشِـقٌ مَـنْ لاَ يَـذِلُّ وَيَخْضَـعُ

التذلل للحبيب هو العز والسعادة ٣٠٤
قد ينصعق من يرى الحبيب ٣٠٦
المبرد والجارية المغنية النحوية ٣٠٧
ما السبب في اندهاش المحب عند رؤية المحبوب؟ ٣٠٨
سلطان المحب على قلب المحبوب أقوى من سلطنة السلطان على الرعية ٣٠٨
حال النبي ﷺ وتواضعه مع أهله ٣١٢
الحكمة في ميل الرجل للمرأة ٣١٣
تواضعه ﷺ ٣١٥
تواضع سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ٣١٦
ينبغي التفريق بين العز والكبر والتواضع والملق ٣١٧
الكلام على المتكبر ٣١٨
أسباب بغض المستبدين لأهل العلم ٣١٨
الكلام في الكبر والعز ٣١٩
ما من يوم إلا والذي يليه شر منه ٣٢١

لا شيء ينفع سوى الانكسار بين يدي الله ٣٢٢

وَلاَ ثَوْبَ مَجْدٍ غَيْرَ ثَوْبِ ٱبْنِ أَحْمَدٍ عَلَىٰ أَحَـدٍ إِلاَّ بِلُـؤْمٍ مُـرَقَّـعُ

شرح المطلع والعيوب التي فيه ٣٢٤
المخالص الفائقة للمتنبي ٣٢٤
الشعراء والمخالص ٣٢٥
بعض الشعراء يدعي النقص في الناس ليرفع ممدوحه ٣٢٦
أبلغ ما يكون المديح أن ترفع شأن عدو ممدوحك ثم تفضله عليه؛ لأنه لا فخر بالتقدم على رعاع الناس ٣٢٧
دعوى براءة الحبيب من العيب.. لا تليق إلا ٣٣٥
الكلام حول عصمة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٣٣٦
لا تجد إنساناً كاملاً ولكن العبرة بالأغلب ٣٣٦

إِذَا عَـرَضَـتْ حَـاجٌ إِلَيْـهِ فَنَفْسُـهُ إِلَـىٰ نَفْسِـهِ فِيهَـا شَفِيـعٌ مُشَفَّـعُ

الجود ليس وراثة عن الجدود.. ولكنه حساسية في الجلود ٣٣٨
الشفاعة في الحب ٣٣٩
الشفاعة عند الناس من الجود ٣٤٠
إذا تعذرت الأمور من أعاليها.. أتيناها من أسافلها ٣٤٢
ما يصلح الرجل بالنهار.. تفسده المرأة بالليل ٣٤٢
كتاب عروة بن الزبير في الشفاعة إلى الوليد بن عبد الملك ٣٤٣
المنصور يطلب من محمد بن جعفر أن يخفف من كتب شفاعاته ٣٤٤
جعفر بن يحيى يزوج بنت الرشيد من غير علمه.. فيجيزه ٣٤٥
إذلال النفس في حاجات الناس هو العز في الدنيا والآخرة ٣٤٦
اللهم.. لا تذل عزيزاً ٣٤٦
الرجل يزوِّر كتاباً على لسان ابن الفرات فيصححه له ويمضيه عليه ٣٤٦

وكذلك يمضي يحيى البرمكي ٣٤٧
نماذج من كتب الشفاعات ٣٤٨
الشعراء والشفاعات ٣٥٠

فَصِيحٌ مَتَىٰ يَنطِقْ تَجِدْ كُلَّ لَفظَةٍ	أُصُولَ ٱلْبَرَاعَاتِ ٱلَّتِي تَتَفَرَّعُ

مبحث بلاغي حول الفصاحة ٣٥٢
الافتخار بالقلم وحسن البيان ٣٥٢
الشعراء وتقديم القلم على السيف ٣٥٣
ومن الشعراء من يفضل السيف على القلم ٣٥٧
الصواب التفصيل في المسألة فالسيف في محله أفضل من القلم وكذلك العكس ٣٥٩
الإنسان مخبوء خلف لسانه ٣٦٠
المديح بالبلاغة ٣٦٠

أَلاَ أَيُّهَا ٱلْقَيْلُ ٱلْمُقِيمُ بِمَنْبِجٍ	وَهِمَّتُهُ فَوْقَ ٱلسِّمَاكَيْنِ تُوضِعُ

شرح المطلع ٣٦٥
المديح بكبر النفس وعلو الهمة ٣٦٥
أقسام الصوفية عند انبعاق الأنوار ٦٥٥

أَلَيْسَ عَجِيباً أَنَّ وَصْفَكَ مُعجِزٌ	وَأَنَّ ظُنُونِي فِي مَعَالِيكَ ظُلَّعُ

كل ما يقال وكل ما يكتب دون قدر الممدوح ٣٦٩

وَأَنَّكَ فِي ثَوْبٍ وَصَدْرُكَ فِيكُمَا	عَلَىٰ أَنَّهُ مِنْ سَاحَةِ ٱلأَرْضِ أَوْسَعُ

شرح المطلع والانتقاد عليه ٣٧٢
تعظيم شأن الممدوح وأن ما في صدره أكبر من الدنيا ٣٧٣

سعة الصدر من آيات السؤدد ٣٧٥
أمثلة من سعة صدر معاوية وحلمه ٣٧٥
لا يفيد الكرم والعفو إلا مع أهله ٣٧٧
كل نكبات التاريخ أصلها اصطناع المعروف إلى غير أهله ٣٧٨

أَلاَ كُلُّ سَمْحٍ غَيْرَكَ اَلْيَوْمَ بَاطِلٌ	وَكُـلُّ مَـدِيْـحٍ فِـيْ سِـوَاكَ مُضَيَّعُ

كل مديح في غير الممدوح . . ضياع ٣٨٢
مروان بن أبي حفصة وغضب المهدي عليه ٣٨٢
رضاه عنه وجلوسه بين يديه ليسمع مديح نفسه ٣٨٣
الخلفاء تطلب من مروان بن أبي حفصة سماع مرثيته لمعن ٣٨٣
رثاء أبي دلامة لأبي العباس السفاح وغضب المنصور عليه ثم رضاه عنه ... ٣٨٤
الحر تكفيه الإشارة ٣٨٥
أمثلة على تأثير الشعر ونفوذه عند أصحاب النفوس الأبية ٣٨٦
قل للمليحة في الخمار الأسود ٣٩٠
المديح لا يليق إلا بك ٣٩٠
من كبائر الذنوب وضع المديح في غير محله ٣٩١
الشعر عند العرب غالي القيمة لا يوضع إلا عند من يستحقه ٣٩٣
وصية الحطيئة عند وفاته ٣٩٤
ذم الكذب ٣٩٥
ـ خاتمة المجالس ٣٩٧
مبحث هام حول الشعر والشعراء والكلام في نقد الشعر ٣٩٧
ـ تنبيهات ٤٠٩
المعاني الظاهرة مشاع بين الناس ولا يقضى فيها لأحد بالسبق ٤٠٩
المتنبي بحق . . يشبه عصا سيدنا موسى . . يلقف كل ما يأتي به الشعراء
فيجيد أحياناً ويسيء أخرى ٤١٠

اعتذار المؤلف إلى المتنبي إن كان قسا عليه واعترافه بالفضل له وذكر أمثلة
من بدائعه ٤١٢
العمل كان في الكتاب على مبدأ الانتقال من زهرة إلى زهرة دون تعمد ترتيب ٤٢٣
خواطر الانتهاء من الكتاب ٤٢٤
المحتوى ٤٢٧

* * *